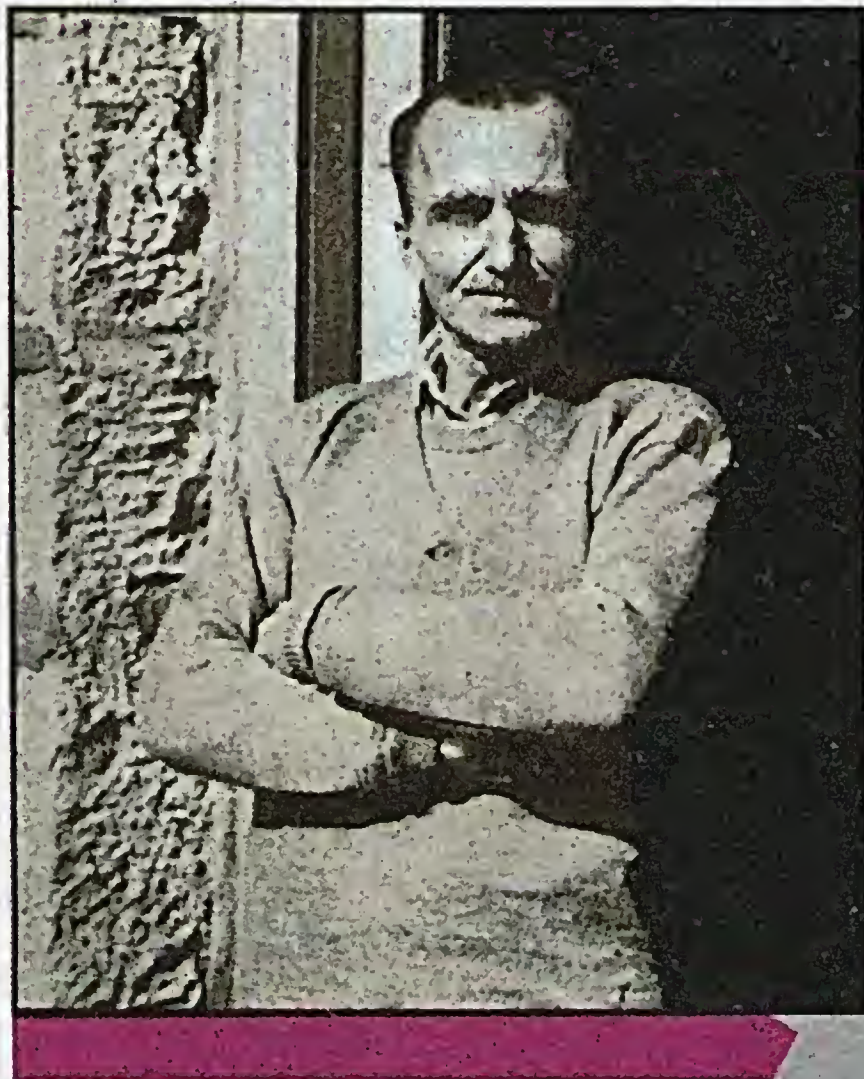


المرن شق

نيكوس كازانتزاكي



ترجمة

محمد علي اليوسفي

دار الآداب

LE DISSIDENT
BIOGRAPHIE DE NIKOS KAZANTZAKI

BY
ELENI N. KAZANTZAKI

PLON 1968

المرحى مشق

نكوس كازنتزاس

سيرة حياة

بقلم : ايليني كازنتزاس

ترجمة : محمد علي اليوسفي

جميع الحقوق محفوظة

تقديم المترجم

لا يستطيع قاريء هذا الكتاب أن يخرج سليماً من «عدوى» ما.

وحتى إذا كان هذا القاريء من غير المتحمسين لأعمال نيكوس كازنتزاكي، مثل «زوربا» و«الإغواء الأخير» و«الإخوة الأعداء» و«تقرير إلى الغريكو» و«المسيح يُصلب من جديد» وغيرها، فإنه يجد نفسه، هذه المرة، أمام عمل من نوع خاص؛ هو عمل نسجه كازنتزاكي في عزلة الأثرية، خيطاً خيطاً، على غرار بعض الكائنات التي تبكر فجرأ من أجل اصطياها ما تجود به الدنيا وتلهف إليه الروح.

هذا العمل المختلف والرائع هو حياته التي أرادها كما عاشها. وعاشها أيضاً كما أرادها لأنه كان يرفض كل ما هو مختلف عما رسمه لنفسه من مبادئ ورغبات وسلوك، ورؤية للعالم قبل كل شيء.

تلك الرؤية التي لم تقتصر على الإرث الأغريقي، وسير عظماء اليونان، بل اغتنت أيضاً، منذ البدء، برؤى إشراقية متأتية من تأثر كازنتزاكي العامر بفريدريك نيتشه، وهنري برغسون (وقد تتلمذ على يديه في باريس) والتصنيف البيزنطي والإسلامي لذلك نجد قاموسه اللغوي غنياً بمفردات ومصطلحات مثل الروح، الجسد، في ثنائيهما الأبدية، وكذلك الوثبة الخلاقة (أو الوثوب الخلاق)، ولحظة الحدس الإشراقي، والأحاسيس بمختلف معادلاتها اللغوية الممكنة، والكائن الأسمى، المتفوق الخ...

لكن ذلك لم يمنع كازنتزاكي من النهل انطلاقاً من روح الشعب المعذبة، في جزيرته «كريت» كما في أرجاء العالم، معتبراً أن الروح السامية تلعب دور «المحامي» الذي يرافع أمام محكمة الكون ودفاعاً عن عامة الناس وقضاياهم النبيلة. غير أن ذلك الدفاع يثري الروح بدورها، لأنها كما في «زوربا» تقارع فلسفة أخرى، هي فلسفة العيش التي يرسمها لنفسه رجل من عامة الشعب يُدعى زوربا، وسوف نجده في هذا الكتاب رجلاً من لحم ودم، عبر رسائله،

متابعاً لعبته العبثية هرباً من العجز والشيخوخة، «لم أتزوج إلا من باب المزاح. السيدة زوجتي توفيت، وحسناً فعلت؛ ... لا أخشى الموت ... ولا أخشى أخطر عناصر الطبيعة حتى إذا جاء ذنب نيزك ليضربنا ويحولنا إلى سلاطة طماطم ... الشيخوخة تخيفني ... وأجد نفسي تحت رحمة قرار عائلي يأمرني بمراقبة وحش، طفل صغير؛ حتى لا يحرق نفسه، حتى لا يسقط، حتى لا يتعلم الرذالات...» ذلك ما يكتبه في رسالة إلى كازانتزاكي بعد هجرته إلى مناجم أخرى في صربيا، بحثاً عن المال الذي «يستر» به شيخوخته!

وليس الشخص وحدهم هم الذين يتقاطعون في حياة كازانتزاكي وأعماله، كما لاحظنا مع زوربا، بل هناك اللغة أيضاً. إذ أن بعض المقاطع في رسائله تتشابه والكثير من المقاطع في مؤلفاته، ولا سيما «الأوديسة» التي ظلت ترافقه طيلة حياته «كمشروع عمر» وفي وعي كازانتزاكي أنها رؤية معاصرة لـ «عوليس»، بعد حوالي ثلاثين قرناً من تحرّكه في الأوديسة الأولى، أي «أوديسة» هوميروس. وقد جاءت «أوديسة» كازانتزاكي في ٣٣٣٣٣ بيتاً شعرياً، معتمدةً وزناً مبتكراً.

أيتها الشمس، يا مشرقى الكبير، يا قبعة تفكيري الذهبية.

تتملكني رغبة في اللعب ما دمت تعيشين وأعيش أيضاً، كي نبهج قلوبنا.

هذه الأرض طيبة وهي ثلاثنا:

كما العنقود المشبوك تتشبث بالهواء الأزرق وتتأرجح في العاصفة، إذ تضعضها الأرواح، وطيور الريح..

وهناك مسألة بالغة الدقة، في هذا الكتاب، وتتعلق برؤية كازانتزاكي لصلته بالإله. وهي صلة لا ينبغي قراءتها بشكل مسطح، أو فهم تبسيطي يلغي الإيمان من قلب الرجل. ولعلّ أسهل طريقة لقراءة هذه العلاقة وفهمها، تنطلق من التصوّف بما في ذلك التصوّف الإسلامي، وأسلوب الحلولي الذي يميّز صلة العبد بخالقه لدى متصوّفة الإسلام. يقول في إحدى رسائله «الموضوع الرئيسي شبه الوحيد، في أعمالي كلها، هو معركة الإنسان مع «الإله»، الصراع الشرس

الذي تخوضه الدودة المسماة «إنسان» ضد القوى المتسلطة والظلامية الموجودة في داخله وحواليه...» ويقول في موضوع آخر، عن الإله «لا وجود لأحد غيره في العالم...»

إن كتاب «المنشق» الذي ألفته ايليني، زوجة كازنتزاكي الثانية، من خلال جمع رسائله ومذكراته وبعض نصوصه غير المنشورة، يبين أن حياته، على خلاف الكثير من الكُتّاب الكبار، كانت متطابقة مع أعماله إلى حدّ التداخل. ويكشف هذا الكتاب عن كفاح رجل لم يتزحزح عن مواقفه برغم كل المصائب التي حلت به. لكنه يتضمن أيضاً قصة حبّ فريدة، يمكن أن تشكل زاوية أخرى لقراءة الكتاب. وقد يكون بطلاها نيكوس كازنتزاكي، الطبيب والشرس في آن واحد، وايليني التي ذقت الأمرين بسبب عناده في ملاحقة مثله الأعلى «عندما أسافر أندم على اضطهادي لك» يقول. وإلى جانب ايليني (هيلينا أو هيلين باللغات الأخرى، غير اليونانية) هناك نساء أخريات كثيرات ... لأن كازنتزاكي لم يتزوج ثانية إلا عندما صار وزيراً في بلاده. وقبل ذلك اتفق مع «صديقه» على «ميثاق الأيام العشرة» التي يلتقيان فيها سنوياً، بينما تنوب «الرسائل» عن اللقاء، بقية أيام السنة التي ينعزل فيها «الناسك» من أجل الكتابة ... حتى مجيء الشيخوخة، ثم الموت في صفحات جدّ مؤثرة من الكتاب.

قصة حبّ إنذا، لكنها قصة تعطش للحياة، والخلود والإبداع («سوف أموت وكتب كثيرة لا تزال في داخلي») ولرؤية العالم الذي تنقل فيه نيكوس كازنتزاكي وأصرّ على توديعه قبل موته. قصة التطلّع إلى الحرية والعدالة، برغم الحروب والقتل والدمار، إطارها اليونان التي تضطهده، والغرب الذي يمزّق روحه، وروسيا التي ساهمت في خيبة أمله، والشرق الذي يعشقه كازنتزاكي إلى حدّ الاقتناع بأنّ دماً عربياً يجري في عروقه..

محمد علي اليوسفي

تونس ١٥ / ٢ / ١٩٩٤

من بين جميع الذين عايشوا نيكوس كازانتزاكي، عن كثب أو عن بعد، كان هناك أصدقاء كثيرون قدموا لي العون ودعموني بحماستهم أثناء تحرير هذا الكتاب. ولن أستطيع شكرهم فرداً فرداً، وليقبلوا هنا عميق اعترافي بالجميل، وخاصة مراسلي ومراسلات نيكوس كازانتزاكي الذين وافقوا على مدي برسائلهم الشخصية الواردة في هذا الكتاب.

وأود أيضاً ذكر:

السيد نيكوس ساكلابانيس، ابن أخت كازانتزاكي الذي وافاني برسائل نيكوس إلى والدته وإلى عائلته؛

السيد بابا دافي وجور جافي اللذين أنقذا من التلّف رسائل كازانتزاكي إلى صديق طفولته خاريلاوس ستيفانيدس؛

السيد بانديليس بريفيلاكي الذي تعتبر سيرته^(١) وكذلك ملاحظاته وتعليقاته على الرسائل الأربعمئة التي تلقاها من نيكوس كازانتزاكي^(٢) ذات أهمية فائقة لمن يريدون دراسة أعمال كازانتزاكي؛

السيد جان هربرت الذي تكرم بقراءة مخطوطتي ومساعدتي بنصائحه؛

السيدتين جاكلين مواتي وكوليت جانيو على ترجمتيهما بالترتيب، لرسالة انجيلوس سيكليانوس؛ ورسائل زوربا و«المدائح»؛

السيدتين أيفون مترال وليليان برنسي اللتين تولّتا تهذيب اللغة الفرنسية التي تجرأت على الكتابة بها مباشرة.

عسى أن يتوصل هذا الكتاب المنبني على حياة رجل وموته، إلى حثّ الشباب على اقتفاء أثر آمالهم، حتى من خلال اليأس. إليهم أهدى هذا الكتاب.

ايليني كازانتزاكي

جنيف ١٩٦٧

(١) انظر سيرة نيكوس كازانتزاكي بقلم عزيز عزّت.

(٢) نشرت في اليونان وصدرت عن منشورات إ. كازانتزاكي.

«أقول لك أيضاً هذا: أيها الرجل الجذاب جداً، أنت المقيم من دون عادات
بيننا، أيها المنشق! أمر واحد مؤكد، هو أننا نحمل ختم نظرتك؛ وثمة حاجة عارمة
تشدنا إلى أماكن تتنفس فيها، وهناء رجب لا نعرفه من دونك .. تستطيع السكوت
بيننا، إذا كان ذلك هو مزاجك؛ أو الذهاب وحيداً، إذا كان ذلك هو مزاجك: لا نطلب
منك سوى أن تكون هنا! (والآن تعرف ما هي أرومتك)»

صداقة الأمير

سان جون بيرس

بدلاً من المقدمة

وأنا منكبة على دفاترك ورسائلك، يا حبيبي، أحاول أن أبلور للذين يحبونك من خلال كتاباتك، صورتك المتعددة والدقيقة والموغلّة في الهروب، أيضاً. فمن أية زاوية أتحدث عنك، من دون أن أخونك؟ كل ما كنت تبشر به، وتطمح اليه، وكل ما كنته، أعثر عليه الآن في هذه الأوراق التي بدأت تصفرّ وتتقصف مثل قشرة جليد رقيقة فوق بركة مياه خريفية. صمت طويل يوقعه خرير غليونك، مناجاة ذربة لمن تحبّ، موهبة خارقة في فتح أشدّ الأرواح انغلاقاً، والاستماع إلى الأصدقاء، وأصدقاء الأصدقاء، وصولاً إلى تلك اللقاءات الطارئة في شوارع مجهولة، وكلمات مجانين القرى الذين كنت الوحيد القادر على جعلهم يعبرون.

كنت تخرج لاقتناء جريدة، ووضع رسالة في البريد، وتعود مثل ساعي بريد حاملاً حقيبتك المملّية حكايات. كنت أسلك الدروب ذاتها، ألتقي الوجوه ذاتها، غير أنني أعود خالية الوفاض. فتعمد أنت، جالساً إلى مائدة عملك، ويدك معلقة في الهواء ولا تزال مسلحة بقلمك، فتروي لي شيئاً ما، كي تضحكني وتدفع في قلبي المسرة.

تجانس مياه الأعماق وصفائوها، هدوؤها الدائم، حتى إذا حرّكت العاصفة سطحها، حتى إذا انقبض محياك لبرهة وجيزة، وبُحّ صوتك..

كيف أتعامل مع الكلمات، كيف أمدها، كيف أضبطها، أروضها، أخضعها، اخنقها، من دون أن أجعلها تنفجر حناناً وقسوة، كي تتمكن من استيعابك؟ كيف أبني ذلك السجن الذي كنت ترغب أن تسجن فيه؟

- عندما أموت، اكتبني عنّي كتاباً..

- لا، لا، لا! لا بدّ من كاتب موهوب.

- سوف تضعين كتاباً عنّي، يا لينوتشكا، عليك أن تفعلي ذلك، لأن الآخرين سوف يقولون عني أشياء كثيرة غير دقيقة. أنت الوحيدة التي تعرفيني جيداً.

كم مرة أقسمتُ ألا أفعل؟ وحينئذٍ؟

حينئذٍ أكون أعجز من أن أكتب، أو إذا أردتُ قول الحقيقة، كنت سأتخلى عن مثل هذه المهمة في نصف الطريق، لولا عثوري، ذات ليلة، على كلمات بخط يدك، في أوراق مهمة، وقد كتبتها بسرعة وبقلم الرصاص: خطة أولية لكتابي..

وها أنذني أخوض التجربة. ألا أكتب رواية، هذا ممكن، وبسهولة. أما أن أصفك، وأضمك، وأثبتك بإبرة ذهبية، كما لو كنتُ أثبتُ فراشة، فهذا ما يثور له قلبي. لأنني أحب الفراشات وأحب تخيلها وهي تتطاير فالتة، فوق رأسينا..



١٩٠٢ - ١٩٠٣ - «أُتوق إلى عمل جيّد آخر، بعيداً عن المرأة وعن
الدراسة، بعيداً عن الجمال، ولكن ما هو؟».

«موازنة حياة»

١٩٢٢ - «انظر يا إلهي، هذه الفتاة السّاحرة
«راحيل» جبينها المضيء مثل بنفسجة كبيرة» .
«مذكرات»



١٩١٥ - «في سكن متواضع
في أثينا، بالقرب من
«مكالاتي» سعيد بلقيهاها
حالماً دائماً مع إيقاع الألحان» .
«المعاند»

١٩١٥ - «لقد هزمت،
وَنَحَلْتُ، مثل هرقل الذي
بعد أن رأى جهنم صعد نحو
الضياء . . .»
«مذكرات»



١٩١٣ - «ولدت «إلسا» في مدينة
صغيرة مكسوة بالثلوج من مدن
ألمانيا ومع ذلك فهي تحيي
الحنين إلى الشرق».

«مذكرات»

١٩٢٣ - «في الحديقة الفاتنة
اغترابنا، المحادثات، الضحك،
الصمت، المطر...»
«رسالة إلى إلسا»



١٩٢٤ - «ذهبى» أوليس» لتخلق
الإله بشراع سفينتها... ألا ترين
نفسك جالسة في المركب، صامته،
ملكة قلبك شغوفة، فخورة...»



... إلى أين نحن ذاهبان؟ لقد
وضعنا دفة المركب نحو
الهاوية...»

رسالة إلى إي. ساميون

١٩٢١ - «هدفى... هو إيجاد معنى

جديد للحياة وتفسيره».

«مذكرات»



١٩٣١ - «من الفجر إلى الليل،

غارقاً في طيات المعجم،

كازانتزاكي يعمل دون وهن...»

«المعاند»



١٩٢٨ - «لقد اجتزنا الشواطىء الرائعة من دنير...»

رسالة إلى إي ساميون..



١٩٢٢ - ١٩٢٣ - «أنا، وزوربا، والأمر
اللانهائي، المرأة، اسمها في هذه المرة ليوبا».
«ألكسيس زوربا»

١٩٣١ - «لا نستطيع الذهاب إلى أراضٍ بعيدة،
نيكوس يدعو للميلاد، «بريقيلاكي، أخوه
الشاب...»

«المعاند»



١٩٣٤ - «لا تسمح مطلقاً للراحة بأن تفتقر
همتك... ابق دائماً مستعداً وليكن عقلك غريباً
والقلب إفريقياً...»

«المعاند»

١٩٥٦ - «لقد وجدت بسرور
صومعتي وأدواتي وأنتظر بفارغ
الصبر ترجمة الأوديسة...»
«رسالة إلى ينيس كاكريكس»



١٩٥٦ - «تتهياً لي الأيام قصيرة...
لم أعش قط سنين قصيرة كهذه
الشعلة تحترق في داخلي أكثر
فأكثر...»

رسالة إلى ب. بريفيلاكي





١٩٥٧ - أنا كدابة دانتني ، في جهنم التي عندما أكلت لم تعد جائعة كما قبل . . .
« يا للخسارة لا أستطيع أن أحيا ٥٠٠ سنة لأصل إلى ترجمة كلّ القدامى . . »

رسالة إلى يا . . كاكريديس



١٩٥٥ - «لقد رأيت محاربين يونانيين
قدامى من كريت متشهابين مفعمين
بالطبية وبالإرادة التي تخضع»

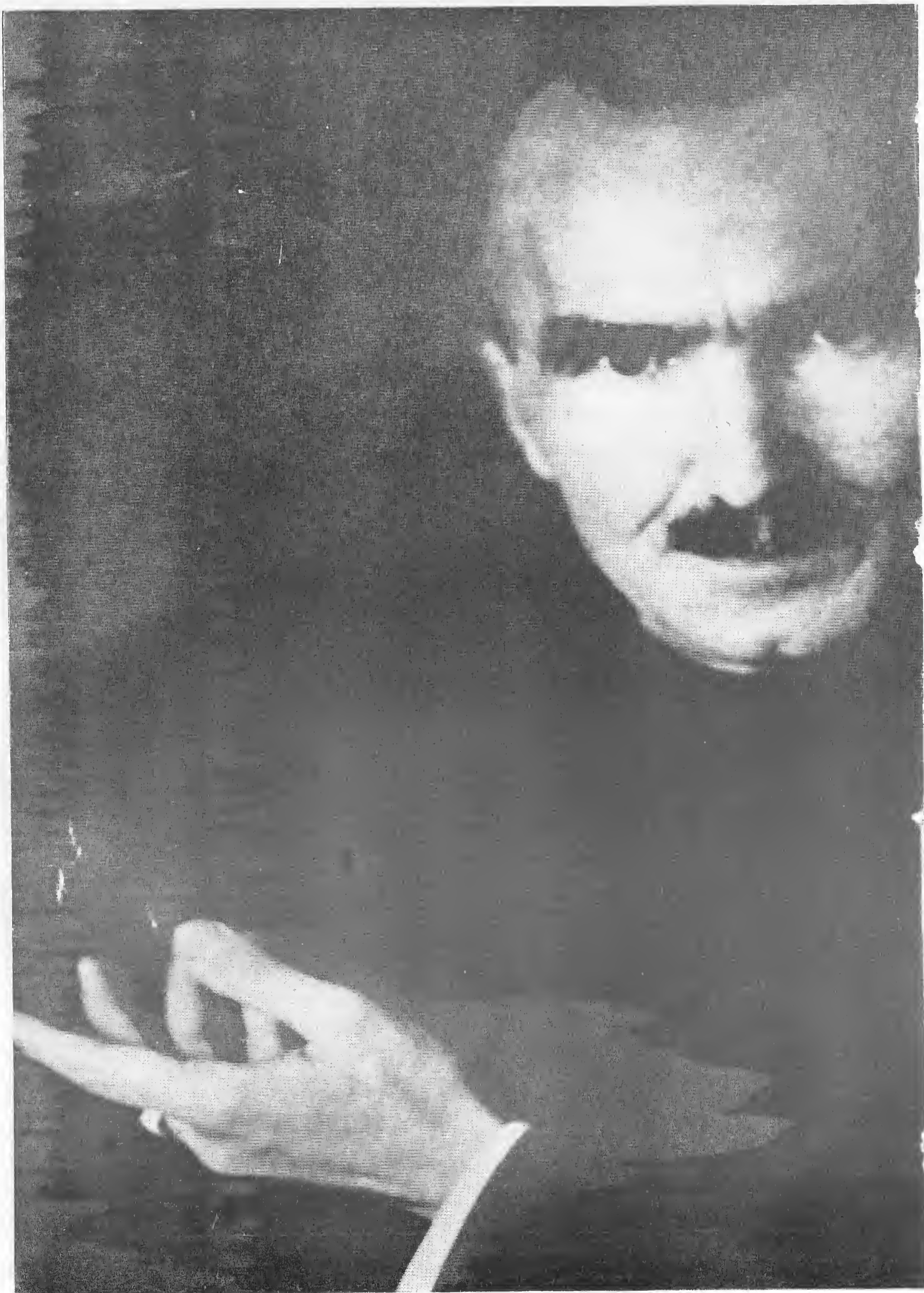
عند أشوتيزر إلى كلزباش

١٩٥٥ - «دخلت في عامي الواحد
والسبعين ولكن فقط في جسمي،
قلبي وفكري لم يشيخا أبداً...»
رسالة إلى بورجي كنوزي





١٩٣٦ - «ليس هذا منزلاً، هذا حصن منيع... بوذا لديه حق حين قال: من
يبني منزلاً يصبح باباً ونافذة...»
رسالة إلى ساميوز





١٩٢٤ - «بما أنه ليس هناك نقطة
نهاية لشيء ابتدئ به!! سأظلّ وفياً
لك إلى الأبد على الرغم منك...»

رسالة إلى إي ساميوز







١٩٠٨ - ١٩٠٩ - «كنا كثيران شابة
لم تستهلك بعد...»

«موازنة حياة»



١٩١٤ - «كان يجب الإصغاء إلى
أشعاره وهو يلقيها لفهم ما يجب أن
يكون عليه أشعار اليونان
القدامى...»

«موازنة حياة»

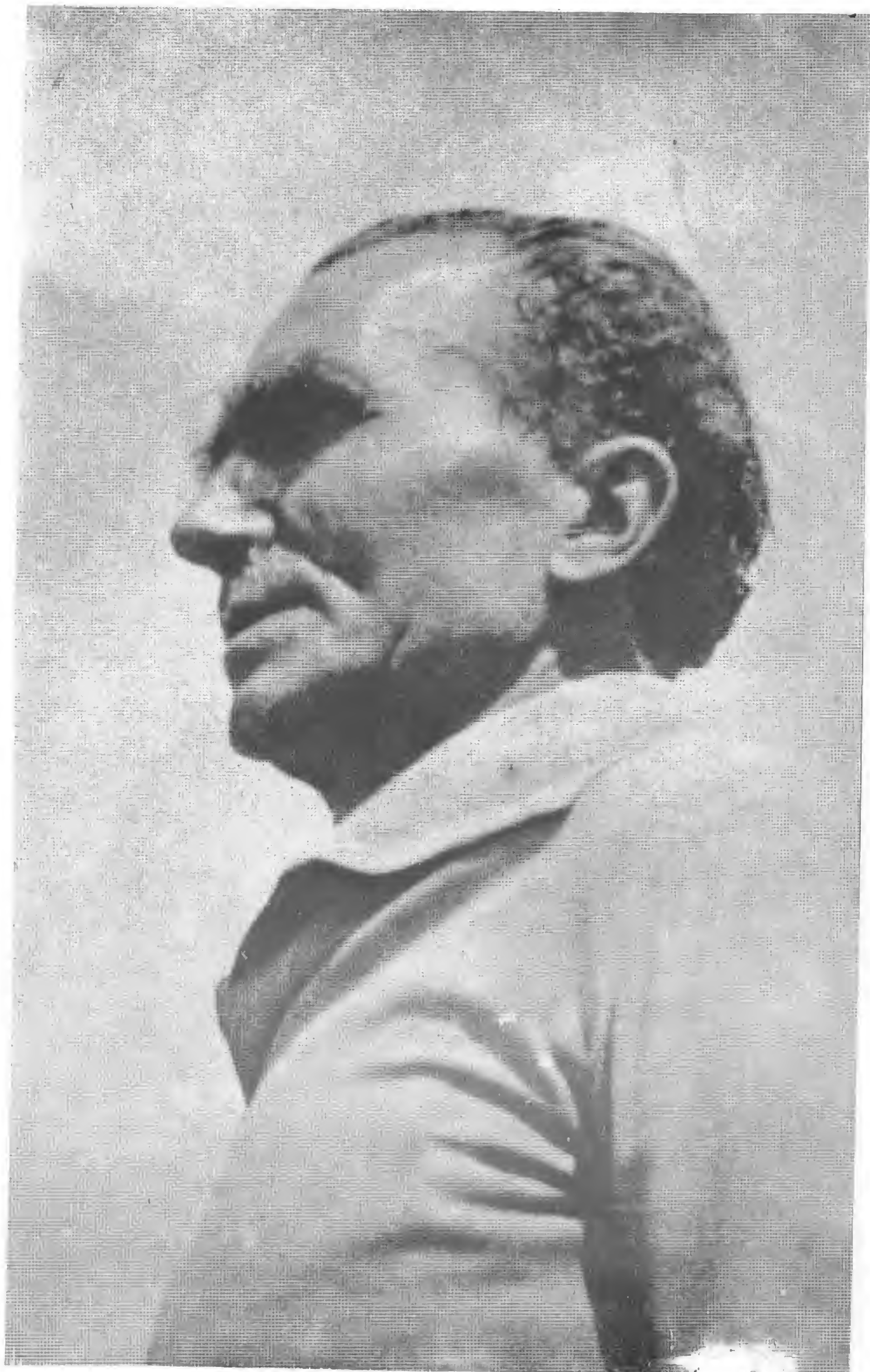


١٩٠٩ - ... وفي بضعة أيام .
الهدوء شجرة الموز، الأم... »
رسالة إلى أمه

١٨٩٩ - «في هذه الحقبة القديمة
في موطني، استيقظ بلوغ الشباب
ببطء شديد... »

«موازنة حياة»





ففي البحث عن أسطورة جديدة
1924 - 1883

ليلتان أو ظلمتان، جداران معتمان يحصران ثلاثة وثلاثين عاماً من الضوء. لم يكن الجدار الأول مظلماً إلا بالاسم. فالأرض تعكس القمر، والقمر يعكس الفجر الوردي المائل إلى الزرقة. ونحن نمشي على مرآة من قصدير لا تكاد تحمل علامات قديمة قدم العالم: صعتر، سرو، مصطكا، عليق..

أما الثاني، والأخير، فهو الموت. والإنسان الذي يستطيع وصفه لم يولد بعد. ميت، محتضر، منازع، خلود الروح، العودة الأبدية، لائحة منفرة ميتة، تختمر مع الموت، ولا يستطيع أحد تفسيرها على نحو مجد سوى إنسان ميت.

ما الموت بدقة بالنسبة إلى قلب ما زال يخفق؟ ما الكلمات التي يحتضنها الصمت الأخير؟ ماذا قالت العين الثابتة التي رفضت الشفقة؟ والأسنان المشدودة مانعة خروج النجدة؟ «يأس» سيقول البعض، «غبطة قصوى» يقول آخرون. أما هو، الوحيد الذي يحق له إبداء الرأي، موتنا، فإنه يسكت. وعلينا أن نخترق صمته.

ولكي أجسد خيال محبوبي ها أني مستعدة للصعود بعكس التيار، مثل صياد عجوز يصعد نحو النبع، قافزاً من صخرة إلى صخرة، ومن حجر إلى حجر. ينزلق، ينهض، يتأخر، ينحني، يتناول في كفه قليلاً من الماء، يروي ظمأه، ويواصل سيره صامتاً.. الأحجار والصخور سوف تخدمني كروزنامات وصوى: «هنا، سنة ألف وتسعمائة.. هناك، عندما كنا نعيش على قمة جبل...»

في ما يخص الثمار التي تقاسمناها، سواء أكانت مؤذية أم منعشة، لا مجال

لأي تردد. أما بالنسبة لما تبقى فسوف تكون الكلمة له. حجر صلب، تنبجس منه ألف شرارة. بعضهم كان يراه أحمر، والبعض كان يراه أبيض، أصفر أو بنفسجياً؛ كانوا يحسبون أنه «سائلاً» فيما يبقى حجراً صلباً. سهل القراءة مثل كتاب ألفباء. هذا إذا كان كتاب الأبجدية كتاباً سهلاً.

أ، ب، ج، د، كان يا ما كان..

كان في قديم الزمان، في شمال بعيد، بعيد، وفي بلاد يأكل شمسها الزنجار، رجل متوحد، تسكنه طموحات لا تحد ولا تعد، رأي، أو خيل إليه أنه رأي، جحشاً صغيراً. «يا له من مواطن! ويا للتيّن ذي قطرات العسل!».

اشتعل قلبه وغامت عيناه وهو يجوب شوارع برلين شاعراً في أعماقه بجنون هذا الشعب الذي أذلته الهزيمة. كان ينصت إلى صوت لينين قادماً من بعيد، ويتمنى أن يلقي بقلمه في النهر، وراء كل هؤلاء الأمهات المرتميات فيه مع أطفالهن، ويتعلم مهنة يدوية، ويلتحق بجيش العادلين. وها هو ذا جحش صغير، مواطن له أربع قوائم، يجعله يبدّل وجهته. فاندفعت أملاً الحقائق بالكتب وأصافح الأصدقاء المدهوشين: (Auf Wiedersehen Auf Wiederse hen!) إلى اللقاء! إلى اللقاء؛ التّين يناديني إلى اليونان».

لم يكن يحب اليونان ومقاهيها والثرثرات الدائمة التي تنهك الروح وتمتص الغضب الحقيقي. لكن هناك «كريت» جزيرته، حمداً لله، وهناك أيضاً، الشعب اليوناني الذي يعادل، في نظره، كل ما تبقى، والذي استطاع أن ينحت لغة مرنة قادرة على التعبير عما يتعذر التعبير عنه، وذلك على الرغم من جهود «فاناري»^(١) المتعالة وجامعة أثينا المحرّرة. وحتى لو كان للمرء هدف آخر في الحياة فإنه يستأهل التضحية به من أجل هذه اللغة «آه، نعم، ما هي تلك الكلمة التي عثرت عليها قبل قليل في أغنية قبرصية؟ لابسة المعطف الطويل: (ماكرومانتوسا) آه، ماكرومانتوسا، كيراً.. وتلك الكلمة الثانية التي عثرت عليها في أغنية كريتية؟

(١) فاناري.. أو القسطنطينية توسعاً. و«الفاناريون» هم العلماء اليونانيون الكبار في القسطنطينية الذين ابتكروا لغة ذات صفاء مبالغ فيه، وهي آفة ما زال الشعب اليوناني يعاني منها.

مرتاحة في مظاهر خادعة: كروفوباهايا! نعم: كروفوباهايا، يا للكلمات الجميلة!..».

وهنا تبدأ حكايتي. عندما تعرفت يوم ١٨ مايو ١٩٢٤ على الرجل الذي ضحى بكل شيء من أجل الحرية ومن أجل اللغة اليونانية الجديدة.

١٩٢٤. قبل عودة نيكوس كازنتزاكي إلى اليونان. وفي شهر مايو ١٩٢٤، تعرفت على زوجته غالاتي. كانت جميلة المحيّا، حاضرة البديهة، وتشرف على مجموعة صغيرة من الأصدقاء المخلصين ممن يتعاطون الكتابة والنقد الأدبي والفن بمختلف أنواعه، ويشاركونها ميولها أو انتقاداتها السياسية. وبوصفها كاتبة - تعمل بسهولة مذهلة وتتعاظم عدة أجناس أدبية - كانت تتمتع بتقدير اليسار اليوناني. وبعد سنوات من انفصالها عن زوجها عاشت بكبرياء واستقلالية، وما لبثت أن تعرفت على صديق رائع تزوجته سنة ١٩٢٦. وظلت هناك «لكن...» خفية لم يتعرّض إلى توضيحها أحد. لماذا كان نيكوس كازنتزاكي يعود إلى بيت لا يوفر له سوى أحزان جديدة؟ وما هو السر الذي جعل غالاتي عاجزة عن التخلص من نيكوس كازنتزاكي؟ أية عقدة دفعت بها، حتى نهاية حياتها، إلى الحديث الدائم عنه؟ وإلى جعله مشبوهاً وكريهاً لدى الذين لا يعرفونه؟ وتوبيخ كل من يتجرأ على ذكره بسوء أمامها، أيضاً؟

ونظراً لكوني حضرت مثل هذه اللعبة في عدة مناسبات، فضلت ذات يوم رفض دعوة غالاتي للذهاب مع أصدقائها إلى محطة القطار من أجل استقبال نيكوس كازنتزاكي العائد من ألمانيا.

وهاهو الآن، هناك. ومن ديخاميني^(١) بدأت تنتشر الإشاعات الخيالية في المدينة: «ضحكته تدوي مثل جرس .. نهّم مثل غول .. لا يأكل شيئاً، إنه ناسك حقيقي .. يغازل النساء...» وبدأت الحكايات المتناقضة تنتقل بين الناس. وأرهقتني صديقتي كاتي وماريكا^(٢) ولم تتركا لي فرصة للتنفس. ففي رأيهما أنه فرصة نادرة. شخص عظيم، جميل، رائع! والأسوأ من كل ذلك: أنه لا يستقر في

(١) حي سكني عال في المدينة يوجد فيه خزان ماء (ديخاميني) وبيت آل كازنتزاكي.

(٢) هما الاختان بابا يوانو، عازفتا بيانو رائعتان.

مكان واحد. وذات صباح سوف يطير. وهكذا أكون قد أضعت الفرصة الوحيدة للتعرف على شخص عظيم.

خدعت نفسي بلعب دور «اللا مبالية» وركزت أصابعي على عملي بالآلة الكاتبة ناقله أوامر رؤسائي وطلباتهم، مع الهروب إلى مستقبل غامض وجذاب ومقلق في آن واحد. كيف أنقذ ماء وجهي؟ كيف أواجه «الوحش»؟ كانت الأسطورة والواقع ينخران، مثل الأرضة أو السوس، خشب روحي، في حين اختار شعوري الباطني المواجهة.

كان يتوجب علينا في تلك الليلة اجتياز جبل بانتيليك، كي نبلغ شاطئ البحر فجراً، في رحلة منظمة يشارك فيها قرابة عشرين متحمساً من الشباب والشيوخ «من عشاق الطبيعة». ومن أجل تأكيد مآثرنا مشياً على الأقدام كان بعضنا يرفع عصا راعي أو عصا صياد. والموعد في محطة «الوحش» كما كنّا ندعو القطار البخاري الصغير الذي سوف يوصلنا إلى أسفل البانتينيك.

بدأ القمر بالظهور عندما رأيته قادماً بخطوات عريضة وقفزات خفيفة، وهو مستقيم القامة مثل سروة. وكانت عيناه غائرتين تبدو أن سوداوين تحت حاجبين كثيفين، مع جبهة عريضة، وأذنين دقيقتين وبارزتين. كان يعتمر قبعة عريضة من قش وفي يده وعاء بلوري وردي اللون تموج فيه سمكات سردين بمرق الخل.

— لا شيء أفضل من هذا، للرحلات، أوضحت غالاتي، أمام دهشتنا.

لم أعد أتذكر كلماته الأولى. وفي المقابل انتبهت جيداً إلى الخطئين الغائرين في وجهه.

لماذا اختارني من بين كل الفتيات الحاضرات في ذلك اليوم؟ هل كان يدرك ذلك؟ وفي غبش القطار بدأ يطرح الأسئلة التي سمعتها لاحقاً عدة مرات:

— أي كاتب تفضلين؟ ما هي أكبر فرحة عرفتتها؟ ما هو لونك المفضل؟

ولعلني ركزت على إعجابي بـ «ماترلينك» لأنه بعد يومين، وبمناسبة عيد ميلادي، أهداني كتاباً مجلداً، بجلد أيل أخضر - لوزي، يضمّ نصوصاً مختارة لهذا الكاتب. وعلى الصفحة الأولى رسم كفّ يدي بخطوطها التي انكبّ مازحاً على قراءتها عندما كنا نتشمّس فوق رمال «رافينا». ولقد مزّق تلك الصفحة بعد بضعة أعوام، دون أن يبيّن لي السبب.

هكذا بدا لي كازنتراكي في اليوم الأول، وهكذا ظلّ طيلة حياته. كان مسكوناً بالتناقض لكنه يتقدّم على الدرب ذاته من دون مساومة؛ متواضعاً ومتشدّداً، مضيفاً ومتوحداً، مولعاً بالبذخ لأنه مكّن العديد من الفنانين من النجاح، ولاعناً الأغنياء الذين لا يهبون شيئاً للفقراء، مفضلاً الزهد لأنه لا يستطيع التبشير بشيء وإتيان نقيضه.

شاعر صوفي رؤيوي - كان يؤكّد أن «الأحلام لعبت دوراً كبيراً في حياتي وفي كتابتي» - كافح للخروج من جلده والتحوّل إلى شخص آخر: قائد سياسي. غير أنّ ذلك الآخر، الكامن فيه، لم يستطع الخروج أبداً.

«البحر! البحر!» وفي رفّة عين تحوّل متسكعو الليل إلى آلهة موج وحوريات ماء. قفزت بدوري، رامية بصندلي المغبر بعيداً.

- هل ستسبحين مع كل هؤلاء؟ لماذا لا تبقين معي؟ كان يا ما كان.. لم أكن أعرف «الديكاميرون الأسود» لفروبنْيوس ولا «التبليغ الذي أعلمت به ماري» ولا «المقبرة البحرية». لم أكن أعرف شيئاً. بل لم أكن أفهم جيداً ما يحدث في الاتحاد السوفياتي. ثمّة جملة وحيدة قالها والدي^(١) البرجوازي المسالم وترسخت في ذاكرتي: «أعتقد، يا أبنائي، أن مسيحاً جديداً قد ولد في روسيا...»

ولعلّ قطرات من دم جدّي^(٢) لوالدتي، ذلك الجبليّ الخشن الذي كان طبيباً وشاعراً ووطنياً ناشطاً، ما زالت تتدفق في عروقي، من دون أن أعلم.

(١) قسطنطين ساميوس، موظف سام، مختص في المياه والغابات.

(٢) ثيودور أفندولي: بروفيسور في علوم الصيدلة، رئيس جامعة اثينا. تزوج امرأة كريتية وساهم في الكفاح من أجل تحرير كريت.

- سوف تحرقنا الشمس، قلتُ تلميحاً. والبحر منعش جداً..

- البحر يتطلب الوحدة والتأمل، همس قائلاً. ثم رفع صدره مثل درويش هندي جالس على الجمر:

- أنا افريقي، أحب الشمس! ولا بد أن نُفكر فيك، أنت الأثينية الهشة..

وتحرك من مكانه قليلاً كي يغطيني بظله، دون أن يتحرك إلا مع حركة الشمس.

- كان ياما كان..

كلماته المنعشة مثل موجة فعلت فعلها فيّ، إذ أنها أنستني رغبتني الجامحة في السباحة.

وبعد ذلك ألح علي اللقاء كل يوم. وعندما لا أتمكن من تناول العشاء معه، ومع بقية أصدقائه، في مطعم شيخ كريتي على سفح ليكابيت، كان يزورني آتياً لي ببعض الكتب، أو يرأسلني ليحدد موعداً في اليوم الموالي.

أيام الأحاد والعطل كنا نذهب لزيارة الكنائس البيزنطية والأديرة المهجورة التي كان يرغب في الحصول على أحدها لجعله مجمّعاً للفنانين.

- وهكذا نعمل نهاراً، ونثرثر ليلاً، كان يقول حالماً، سيكون ذلك رائعاً. يكفي أن توافق الحكومة على إعطائي إياه..

بمفرده، أو بصحبة سيكليانوس^(١)، تردد كثيراً على الوزارات المعنية. لكن الحكومات اليونانية متشابهة كلها. دائماً صمّاء وعمياء أمام مخاطبيها العظماء.

كنا نذهب وأيدينا فارغة، ولا نأكل سوى قطعة خبز، أو ثمرة، أو حبة طماطم. وكنت أستغرب ذلك الزهد في الأكل، بل أتألم منه. لكن كان يتوجب عليّ أيضاً

(١) انجليوس سكليانوس: من أكبر شعراء اليونان المعاصرين. كان جدّ مختلف عن كازنتزاكي لكنهما ارتبطا ببعضهما ارتباطاً حميمياً وثيقاً.

حفظ ماء الوجه. إذ كانت هناك مكافآت من نوع آخر.

كان على أناقة غريزية. يرتدي بدلاته السيئة التفصيل براحة تامة. خفيف القدمين، مشيق الأصابع مع أظافر تحسده عليها كل امرأة في العالم. ولم يكن يضع ربطة عنق، مكتفياً بدبّوس ذهبي يثبت به فتحة قميصه. وكان يضع في أصبعه خاتماً كبيراً جداً، ويلف حول خصره حزاماً فضياً قديماً من جورجيا. تلك هي ثروته كلها. ولا ينسى قفازيه البيضاضوين النظيفين دائماً، في يديه، وكذلك تمثال «دانتي» الصغير الذي يعتبره «رفيق الدرب» وفي نهاية حياته تخلص عن القفازين والخاتم. غير أن دانتي ظلّ قرب سريره حتى آخر نفس.

لم يكن من الصعب إدراك مدى تقدّمه من دون قناع. إذ كان يفعل ما يبشّر به، ويبشّر بما يرغب في فعله. يشعل الشمعة من طرفيها. يتشدد مع الآخرين إلى حدّ الإفراط، ويطالب نفسه بالمستحيل. ففي رسائله وكتبه، ومع من يحب، أو داخل الجمهور، كان هو ذاته، هادئاً ومشعاً في آن واحد، جاداً أو ضاحكاً، بضعفه وبقوته، غير مكترث لأقوال الآخرين. وكلّ من يقترب منه، إما يحبه أو يكرهه. ولا أحد كان يحبه ويكرهه في الوقت نفسه.

كتب إليه الصحافي ج. ن. يقول:

– لم أرغب في المجيء لرؤيتك، لأنك ضميري، وأفضل عدم الإنصات إليه!

ولقد نصحني منذ اليوم الأول قائلاً:

– كوني صورة كاملة عن ذاتك وحاولي أن تشبهيها.

وهي فكرة هاجس كان يضعها على لسان كل أبطاله تقريباً، ويمارسها بدوره، من دون انقطاع:

كابوديستريا^(١):

– (كان يعرف أنه سيقتل. هو الآن وحيد ويتأمل البحر)

(١) كابوديستريا: أول حاكم لليونان المحررة. اغتيل في الكنيسة في اليوم الذي كان يستعد فيه للوفاء بنذره وتوزيع أراضي الدولة على الفقراء. ولقد كتب كازنتزاكي تراجيديا شعرية تحمل اسمه.

ألا تخجلي أيتها الروح؟ هل تملكك الخوف؟ تمالكى ذاتك.

لا تنسى أنك كوّنت في ذهنك كابوديستريا آخر، أسمى منك بكثير، وأقسمت ألا تشعره بالخزي أبداً..

وكذلك في «برومثيوس»^(١) قبل الكارثة:

برومثيوس

... برومثيوس الأعظم خلّقه بنفسه: أبياً كما أردته، يندفع إلى الأمام فاقتفي أثره، محاولاً الاقتداء به بقدر استطاعتي. سوف يأتي اليوم الذي نصير فيه شخصاً واحداً..

لم يكن نيكوس كازنتزاكي ملاكاً. لكنه، بطبيعته الدينية العميقة، كان يبحث بإصرار عن إله يريدّه عادلاً ومحرراً.

«وكان بوسعي أن أصير ملكاً في مجال الفن، غير أنني أبسط كفي وأطلب ما يشبه الصدقة: الرب. ومثل السمندلة التي رأيناها في حديقة الحيوانات، أصرخ السمع، وليس السمع فقط، أنصت بعمق إلى حدّ بعث الصوت القاصي. وكما يرتعش الجسد بكامله لأنه لا يعرف أين سيقبله المحبوب، ترتعش روحي للقبلة اللا مرئية»^(٢)

قال لي ذات يوم:

– تحبّين السفر، ولماذا تمكثين في أثينا إذن؟

– إلى أين أذهب؟ وماذا سيقول أهلي؟

– العالم يتشكل الآن في الاتحاد السوفياتي. ينبغي أن تتعلمي مهنة تمكّنك من العيش في موسكو.

وحتى الموضة «كانت تتطلب خطوة واحدة، سرعان ما خطاها، في موسكو أيضاً:

(١) «برومثيوس مقيداً» ثلاثية شعرية لنيكوس كازنتزاكي.

(٢) حوار مع راحيل، دفتر ١٩٢٣.

- وجدت الحل! أنت تحبين القبعات الجميلة، أليس كذلك؟ إذن عليك أن تذهبي إلى موسكو كي تتعلمي صنعها..

ونظراً لكونه نادراً ما يهذي بهذه الطريقة فإنه يكون أول من يضحك على فكرته وتدوي ضحكته مثل مجموعة أجراس يسمع صداها على بعد عشرة أميال.

كان يكره أثينا لأنه لا يعيش انسجاماً في بيته. وبعد مرض غريب في فيينا، وصفه في «المسيح يصلب من جديد» وفي «تقرير إلى غريكو»، وإثر عامين أمضاهما في برلين، تمكن من التخلص من آخر العراقيل.

يوم ٥ يوليو ١٩٢٤ ارتحل كازنتزاكي إلى جزيرة كريت، وفي رأسه مشروعان متناقضان تماماً: مقابلة قادة الحزب الشيوعي في جزيرته، ومدّهم، إذا أمكن، بخبرته الشخصية، والاعتكاف في الوقت ذاته من أجل التفرغ لكتابة «أوديسته» خوفاً من الاختناق بهذه الملحمة التي كانت تسكنه. وبعد يومين كتب لي:

هيركليون ٧ يوليو

رفيقتي العزيزة، العزيزة،

عاد عوليس الثاني إلى وطنه. رأى رأس^(١) الجبل الشاسع فوق مدينته، سلك، بقرب الماء، طريقه القديمة، وطرق مجدداً باب والده. كانت الباحة ملأى بالحبق والمردقوش ومخمليات الهند. الشيخ «لايرتي» أدركه الهرم، الأم - الطيبة، الهادئة، الصامته - تنظر إلى الرجل المتعدد الأسفار؛ كم صار نحيلاً، كم غار صدغاه، وعيناه، وكم اتسع جبينه الذي لفحته الشمس وغطته الثلوج.

عوليس الثاني، يا رفيقتي، مرافقك في النزعات المسائية، الرجل الذي استمتع بمرافقتك وتكلم كثيراً ثم صمت طويلاً، صعد السلم ثم نزل منه ثانية، مغادراً بيته الأبوي. كل شيء ظل كما هو، نظيفاً، بسيطاً، حسن الترتيب. وبدأ له الشارع ضيقاً جداً، كما لو تقلص كل شيء أكثر، وازداد سداً. تحدث الأب عن الكروم والزياتين، وتحدثت الأم عن البلدان الأجنبية، وسألته كيف عاش في أراضٍ نائية، بين رجال ونساء أجانب، لماذا ازداد هزلاً، ما هي همومه، ومتى سيكفّ.. وبدأ بقية أفراد العائلة يتوافدون. أبناء

(١) قمة جبل يوخناس على شكل رأس إنسان.

العمومة من أصحاب الملايين البدينين - ثمة هوة عميقة بيننا - كانوا ينظرون إلى مثل ثمرة أجنبية غريبة وفالته عن شجرة السلالة. أطفالهم الجشعون الصامتون ينصتون، يراقبون، يجمعون ثرواتهم منذ الآن، كي يفهموا فيما بعد، بعد عشرات السنين (وربما لن يفهموا أبداً) عمّهم الأسمر، الناسك، المتزهد، المتعدد الرحلات.

أذهب وأجيء في البيت الأبوي، أذوق بهدوء مرارة الأشياء التي أحببتها وقد أمعنت الآن في الغياب، أفكر في برلين، في حمى القلق الإنساني، هناك، مع أنا لا يا - توباري^(١) اليهوديتين الفظيحتين، في اضطراري القاسي إلى إنكار والدي ووالدتي والابتعاد عنهما، وتأكيد ذاتي في مواجهة أخلاقهما ودينهما ومبادئهما الاجتماعية ومصالحهما. مساء البارحة حدثت أبي عن البلشفية. صعد الدم إلى رأسه لكنه سكت. وقف وانسحب إلى غرفته. وفي ذلك شهادة بليغة، منه، استنكاراً.

عزيزتي الغالية، بمشيئة الله، أبتعد دائماً. بمرارة، عن الأشخاص والأشياء الذين أحبهم ولا يستطيعون مرافقتي. أطوف في هيراكليون، أتأمل البحر الذي أعرفه جيداً، والجبال التي تلفحها الشمس، الأرض البيضاء، الحجارة، الأعشاب، الأبواب القديمة المألوفة، الفتيات المعروفات، الأصدقاء الذين كبروا، كما لو كنت أعيش في حلم قديم، كما لو كنت أنظر، في مياه شفافة وعميقة، إلى مدينة غارقة.

أعمامي وأخوالي الهرمون يسألونني عن إنجلترا وفرنسا، وعن السياسة «هل ستنشب الحرب؟ من سوف يكون المنتصر؟» أحد أبناء عمي يسألني عن الجامعة التي يختارها للدراسة، وإحدى الفتيات تسألني عما إذا كان من الأفضل أن تسافر إلى أمريكا، لأنها، هناك، تستطيع أن تتزوج «هل أنت مستعجلة؟ - نعم. لماذا؟ - أريد طفلاً. أحسد النساء اللاتي يحتضن أطفالاً في صدورهن».

وأنا أحافظ على هدوئي، أضحك أحياناً، أصفر أحياناً من الانفعال المقموع، وأجيب عن كل هذه المخاوف البشرية، أجاهد من أجل محبة كل هذه الأرواح الغريبة، أتماهي معها، أهتم بانجترا، أشارك في اختيار الجامعة، أذهب إلى أمريكا بحثاً عن زوج. أنك، أتلّف، يالينوتشكا، في باحتنا الصغيرة، لا أهمل شيئاً، أعيش، أحب، أتألم مع كل الذين يأتون لزيارتنا، كي يتفرجوا برعب وفضول على سندباد بحر الفكر.

المائدة التي أكتب لك عليها، في الحجرة التي تربيت فيها، مغطاة بالفواكه

(١) من بطلات فروبنيوس في إحدى حكاياته الأفريقية.

والحلويات والموز، وكل ما أحبّ. أتشوق إلى زيارة البحر حتى يتجلّى قلقي في العزلة؛ ثم يقضي الرب بما هو مقدر. روسيا؟ فليكن ذلك وفق مشيئة الإله. لكنني، هنا أيضاً، لن أفترق إلى السعادة لأنني سوف أعمل.

حالما أصل إلى ليدا سوف أكتب إليك .. وأنتظر. كوني طيبة، هادئة، اعتني بجسدك، احبّي الناس، ساعديهم، لا تنسي أحاديثنا، نزهاتنا، الصخور الحارقة التي جلسنا عليها، أشجار الصنوبر، الجبال، النجوم التي شاهدناها يائسين أو سعيدين..

هيركليون ١٥/٧/١٩٢٤ (١)

أتجول في الأزقة الضيقة لهذه المدينة، أنظر إلى الأشجار البائسة، الرجال الملفوحين، النساء الحاميات المجهولات، أذهب إلى البحر، أتمتع بالموج، أشعر بالبحر كله يتدفق في شراييني، أستنشق الهواء، أتمدّد على الرمل الساخن؛ أعرف أنني الصوت الصافي لكلّ هذه الصرخات غير المنطوقة للعناصر - وإذا بقلبي المعذب ذي السلطة المطلقة، يا صديقتي، يثب مثل شيء حيّ، صغير وزائل. أتذكرك في كل اللحظات المرة والقاسية، أتذكر عينيك، صمتنا، كلماتنا، ظلّينا على الحجارة، كلّ خطواتنا عبر الشواطئ والحقول وعبر رُوحينا. آه، من قلب الإنسان، يا له من لغز! ألتفت وأستمتع كثيراً بذلك الخط الأحمر الذي تتركه ورائي القطرات الساخنة من قلبي البشري.

وعندما أغادر البحر، مع حلول الليل، ولا تزال شفتاي وشعري وأفكاري محتفظة بالملوحة، ألتقي سرّاً بقيادة الحركة الشيوعية هنا، ونخطط للمعركة القادمة. هم مجموعة من حوالي عشرة رجال، بسطاء، جاهلين، لهم أرواح عاتية وأذهان متعددة مشعة. كتلة لامعة، عاشقة، تنتظر نزول الروح كي تخصبها. ما زال البحر كله، رؤيا العزلة والأبدية، ملء عينيّ، كل «الجماعة»، وفجأة، بين هؤلاء الفقراء، البسطاء، «صيادي البشر»، المبشرين الجدد، المهانين، الجائعين، يتدفق فيّ الحب الملتهب العابر تجاه الإنسان وهذا العصر المجيد واليأس الذي كُتبت لي الولادة فيه، وإذا «بالجماعة» تتركز في نقطة مشعة - الفعل الفوري.

أقول لنفسي: هؤلاء الرفاق هم الدرجة الأولى في تعاليمي الدينية. إنهم يحتلّون الصدارة كي ينقذوا أنفسهم من الظلم والجوع. وهم، كما كنا نقول يا عزيزتي

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

لينوتشكا، تلك الحشرات التي تولد متيقنة من أن العسل قد خلق كي تشبع منه.

أما الدرجة الثانية (ولي حتى الآن ثلاثة إخوان في هذه الدرجة) فتلخص هكذا: لا تكافح من أجل ذاتك، بل من أجل الإنسان. يتوجب علينا أن نخلص الإنسان، وليس شخصنا البسيط..

في الدرجة الثالثة، وهي الدرجة العليا: لا تكافح من أجل ذواتنا، ولا من أجل الإنسان فحسب، بل من أجل الجميع، سواء أدركناهم أم لا، من نبات وحيوان وبشر وأفكار - تكافح من أجل خلاص الإله..

.. أبتهج من توصلي، لا دون قصد، إلى غرس جذور إلهي، هنا، في أرض الجدود، في الأرض المقدسة، والتي لا يفارقها النور. يتوجب علي الاعتناء بهذه الكتلة، وجعل طموحاتها على قدر حاجاتها، واستخدام القلق الكوني انطلاقا من هذا المكان، من هذا الوطن الصغير المتألق في البحر الأزرق، لإيجاد أفضل تعبير عن البعد الصوفي لميولي الدينية..

والدرجة الأولى للمبادرة، شئنا أم أبينا، هي اليوم للثورة الشيوعية.

آه ، يالينوتشكا، لو أن جسدي كله يصير قادراً على مجازاة ما يدور في رأسي! أحيانا تخترق عيني بروق أفريقية فأصرخ: هاأنذا، إنني مستعد! ثم تتلاشى تلك البروق. فهل تتلاشى حقاً، أم أنها تعود لتنتظم في عاصفة دائمة؟.. سوف نرى .. قاسية هي الخلية التي أورتني إياها والذي برناردون، حنونة هي الخلية التي أورتني إياها والتي بيكا. وليساعدني الله كي أتمكن، قبل موتي بقليل، من إيجاد التوليفة الفضلى.

رفيقتي الحبيبة، أقبل يدك، أتذكر الصخور الحارقة، بحرئنا اللذين فتحنا ثم أغلقنا أول دائرة في لقائنا، أتذكر دير القديس يوحنا الصياد^(١)، كل شيء يلمع في ذهني بهدوء، وبزرق خالدة..

(هيركليون) ٢٠/٧/٢٤ (٢)

... قلبي مملوء بمرارة لا تحتل. ليس لدي أي وهم - لذلك أكافح بلا هوادة، يائساً

(١) دير مهجور على قمة خليمات، كان كازنتزاكي يتمنى الحصول عليه لتأسيس مجمع الفنانين.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

وحرّاً، أعرف جيّداً أن سقوط هذه الطبقة الاجتماعية البائسة والتالية يؤدي إلى ازدهار العمال وإشراقهم الجسدي والروحي، ثم يتحولون إلى بائسين، ويبلون بدورهم، إذ يهجرهم «النفس القوي» فتعوّضهم طبقة جديدة، وهكذا دواليك، إلى مالا نهاية، حتى تتلاشى الأرض، وتنفصل الحياة، مثل كائن طفيلي، عن قشرة كوكبنا البسيط.

إنها ساعة الغسق، ساعتنا الخطرة؛ استلمت للتوّ رسالتك، وقلبي يخفق بشدة. ثمة دروب كثيرة تنفتح أمامي - كلها متساوية في عدالتها وقدسيتها وإنسانيتها وسحرها، وكلها تؤدي إلى القبر. فلماذا نختار أشدها وعورة، أقساها، أقلها بهجة؟ في هذه الساعة المسائية القاسية أمسك برسالتك، وقلبي يدق ويتساءل بقلق. هل تذكرين ما قلته لك عن إخوتنا الأفارقة؟ «عندما يموت الإنسان، تغور عيناه في التراب وتزعق: - لم نَر شيئاً والأذنان: - لم نسمع شيئاً قط! والشفقتان: - لم نقبل قبلة واحدة! واليدان: لم نلمس شيئاً قط!» يا إلهي، في هذه الساعة، وأنا أكتب إليك، كلّ حواسي اليائسة تطلق هذه الصرخة الأفريقية.

رفيقتي، أعيش كلّ لحظة بكثافة فائقة إلى حدّ الذوبان والتلف.. ذهبت، أول أمس، مع لغتيرس^(١) إلى قرية فارفاي^(٢) حيث ولد أبي.. وهي تقع على قمة هضبة؛ وحولها كروم وسرو وتحتها حقول قمح في أرض كلسية، بيضاء، قاسية. لن أنسى أبداً كيف كان قلبي يثب وأنا أجتاز الأزقة الضيقة وأرى الأبواب الواطئة، المفتوحة، والباحة، وأصص الحبق، والجرة المزينة بالزعر، والنساء الجالسات في العتبة وهن يغزلن، والفتيات، في الطابق الأرضي، ينسجن على النول.

ذهبت إلى قرية والدي لأشعل فيها ناراً، نار «فكرتنا»، حتى تشتعل وتنجو. لم أجد كثيراً من المعارف. كانت تلك القرية الأولى التي بدأت منها مسيرتي في جزيرة كريت.

واجبنا الصعب - السامي هو التوعية، إيجاد راضين وغير راضين، لتمكين البسطاء من وعي شقائهم، رمي الجمر في باحة كلّ بيت مستكين. لماذا؟ لكي لا يتعفن العالم في هدوء وركود، لكي لا تتآكل الروح بالصمت والرضي..

آه يا رفيقتي، كم أنا سعيد لأن الله وفر لي فرصة مخاطبتك وإيجاد رابط بين

(١) لغتيرس الكسيو، شقيق غالاتي. كان استاذاً، وكاتباً، وموسيقاراً في أوقات فراغه.

(٢) فارفاي: النطق اليوناني لاسم «البربر» وكان نيسيفور فوكاس امبراطور بيزنطة بعد تحرير كريت، قد وطئ الأفارقة في هذه القرية. ومن هنا فكرة كازنتزاكي عن الدم العربي الذي يجري في عروقه.

وجودينا. إنها - كما قلت - فاتحة خير. أرجو من الله أن يتشكل كتاب كامل بطولي، مفعم بالمرارة والحب، مملوء بالحركة والفعل، بالصبر والطيبة.

أنتظر مجدداً، وبكل فرح، رسالة أخرى منك .. يدي تظل دائماً مفتوحة، مثل جفنة شحاذ بوذي، وتطلب الصدقة. سوف تظل هكذا، دائماً، مبسوطه، أعرف ذلك، وعندما أموت لن تتمكن الأرض من جعلها تنقبض. وفي اللحظة التي أبلغ فيها أوج الأمل، أحطمه لأنه لن يعود قادراً على احتوائي.

رفيقتي العزيزة، رفيقتي العزيزة، ليكن إلها، الصليب، اليأس حامل النار، معنا.

هيركليون ٢٩ يوليو ٢٤ (١)

لا أرغب في الذهاب إلى روسيا هذا العام. سأبدأ بدعم «الفكرة» هنا، أولاً.

رفيقتي، الحياة معجزة. ها إنك تجيئين إلى كريت، ها نحن نشاهد الجزيرة المقدسة معاً ونجلس سوياً على شاطئ بحر ليبيا قبالة أفريقيا.

تعالى بسرعة. فالعنب والتين والأجاص والبطيخ وهوميروس وبوذا، وروحانا، والأمطار الأولى الموشكة على النزول - كلهم ناضجون، جاهزون، طيبون ومقدسون، يا رفيقتي!

نبع ماء معدني - بل قطارة - في بستان رحب. أشجار ليمون وأترج ذات أوراق مائية، (الحنة) كما كان يحبها الرسام الجمركي روسو. ذباب ونمل نزق .. ممر ساحلي مغلق الطرفين بصخور وعرة. سقف واحد: مخزن، سقيفة مملوءة بجرارٍ وحبوب. وساكن واحد: شيخ أعمى ونصف أصم. ليذا! هي ذي الخلوة «النموذجية» التي اختيرت للشاعر المتزهد. ألم يدع أنه يحب حياة البسطاء؟

ما من سرير أو طاولة أو أغطية، لا شيء يوحي بالرفاهية. نمل، ذباب، ورمل أصفر مدخن مثل قصدير ذائب.

بغمزة واحدة من عينه حكم مرافقي على الوضع بأنه لا يطاق. وهذا دافع آخر للمثابرة.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس .

- كوب ماء، من فضلك، قلت وقد جفّ حلقي بعد مسيرة ساعات طويلة على
ظهر بغل، عبر الجبال القاحلة.

وقف الشيخ، ربت على لحيته، ومسح يديه المتغصّنتين على سرواله الأزرق،
ثم بحث عن عصاه متلمّساً، وقصد النّبع. وما لبث أن عاد بوعاء ماء فاتر، تسبح
فيه نمال هائلة.

- نمال! صرخت والدموع تملأ عيني.

- أف! نمال! انما لم تؤذ أحداً قط!

- لنذهب فوراً، رجوته، باحثاً بعيني عن البغلتين.

- سوف نذهب عندما تريد ذلك، أجاب الشيخ؛ نيكوس ضاحكا وقلقا في آن
واحد. فلنذهب أولاً لتحية النبع!

انحنينا كثيراً كي نمرّ تحت أشجار الأترج الكثيفة. فجأة، ومن دون سبب
ظاهر، تملّكنا ضحك جنوني أمام «النبع» العتيد، وأعتقد أن ذلك الضحك ربط
بيننا بصلة أوثق من أية صلة بدانتي أو لينين أو زوربا على وجه الأرض.

- إذا بقينا، فإن غالاتي سوف تقول إننا أردنا استدراجها إلى هذا الفخ، وإذا
ذهبنا فسوف تقول إننا نريد حرمانها من التمتع بهذا الفردوس الأرضي. القرار
عندك، قال نيكوس بنبرة مداعبة.

لكننا بقينا. إذ توصلنا، من دون أن نعلم، إلى توقيع ميثاق حياة وموت.

وفي أحضان ليلة دافئة، تمدّدنا على الرمل، وتابعنا رفاق المكر الثلاثة،
أفروديت وأريس وجوبيتير (المشتري) المخادع^(١) في دورتهم السماوية.

كانت تلك الكواكب دقيقة في مواعدها، أليفة، لا تدرك. طيارات ورق سماوية
علّقنا عليها أمانينا مكتوبة على شرائط صغيرة؛ أمانٍ وطموحات نبيلة ترحل مع
الليل لتضيع في أخاديد السباق الكوني.

(١) صفة يطلقها رعاة كريت على كوكب المشتري لأنهم يخالونه فينوس فيستيقظون في ساعة جد مبكرة.

وفي النهار تكمن، فوق البحر، داخل مغارة ضيقة مثل محارة، ونقرأ بهدوء، «الإلياذة» و«إيفيجيني في توريد» لغوته، واسخيلوس وتشستوف. وبين فينة وأخرى يلقي مرافقي برأسه إلى الوراء، يتنهد بعمق، ثم يبدأ فجأة، بإنشاد أبياته الشعرية المفضلة: يا لجنون خلاص الفنانين الأخرق .. آه أيها الإنسان الأحمق! عمّ تبحث هنا، قرب فتاة تزيّنها الزهور، بينما العالم ينهار مطالباً بالنجدة؟

هل ارتدّ عليّ الشعر الذي زودني به في سحاء؟ فعلى الرغم من بذل جهود يائسة لم تتمكن السياسة من غزو روحه: يا لجنون خلاص الفنانين .. ومن أجل كتابة بيت شعري جميل رأيته يضحي تباعاً بكل ما يفضله بنو البشر: العزة، السفر، الراحة، الصداقة، الأهل، الموسيقى، الكتب .. وصولاً إلى طموحه الأشد حرقة من أجل بلوغ صنوه: نبيّ «ما وراء الشيوعية» ..

وفي حين كان نيكوس كازانتزاكي يناضل على جبهتين في جزيرة كريت: بعث الحياة في «عوليس»^(١) مجدداً، والاحتياط لتأكيد الشرطة، كنت وأخواتي نصارع الموت هذه المرة، إذ خطفت منا فجأة أعزّ صديق، هو شقيقنا الأصغر. وقد أجهد نيكوس نفسه كي يعزّينا، وهو الذي تعرّف على شقيقنا في برلين.

هيركليون ٢٩ / ٩ / ٢٤ (٣)

أنا معكم في هذه الأوقات الصعبة يا رفيقتي، وأحاول قدر المستطاع مشاطرتكم الحزن. لن أنسى شقيقكم أبداً في ذلك المساء، فوق البحيرة، في برلين - كم كان طيباً وهادئاً وصامتاً؛ كان يتأمل بتأثر جمال تلك الليلة وفي حين كان أصدقاؤه يضجون كان يبتسم مستسلماً.

والمرة الثانية التي رأيته فيها، في بيتكم، خلال شهر مايو، لن أنسى عينيه الرائعتين الواسعتين، ونبله الهاديء الصامت.

ما من جدوى للكلمات، يا رفيقتي، أمام هذا اللغز الفظيع: يأتي وجه حبيب، يعيش،

(١) العمل الذي سوف يتحول لاحقاً إلى «ملحمة الأوديسة»

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

يتكلم ، يكبر معنا، وفجأة يختفي بهدوء، من دون أن يلتفت. فلمَ هذا القتل اليومي والمتعدد للقلب؟ من أين نأتي؟ إلى أين تذهب؟ ما المعنى الذي يميز كل هذه الأشباح الحبيبة على وجه الأرض؟

في هذه اللحظة التي يملأ فيها قلبي خيال شقيقك تغزو رأسي كل هذه الأسئلة الأبدية وغير المجدية، وتزيده قلقاً وحسراً. أه لو انني أتمكن فقط من شدّ يدك، كعزاء في هذه اللحظة. نعرف أنه لا وجود لجواب، غير أن هناك أيادٍ تشد بعضها بعضاً بحرارة ودفع. رفيقتي، رفيقتي العزيزة، ما أجمل الرحيل، لقد أحسست بذلك عميقاً في ساعات صعبة. بلوغ الضفة الأخرى وإنهاء هذه المأساة المكتوبة بشكل رديء، هذه المأساة الباطلة. وحده الذي يحب، قادر على المقاومة.

هيركليون ٧/١٠/٢٤ (١)

.. خلال بضعة أيام سأرحل إلى البيت القريب من البحر (٢). وسوف أعمل خلال فصل الشتاء، غير أن نشوة السفر تنبثق من جديد وتشوش أفكاري. أه! لو أستطيع زيارة مصر الأعماق، وتمتليء عيناى بالنخيل، والموز والفلاحين. عوليس في رحلته الثانية يجتاز النيل. ويصل إلى قلب أفريقيا السوداء. سأذهب معه.

اليوم، طوال النهار، كتبت نصّ مرافعتي (٣). استدعتني الشرطة بسبب مقالة ثورية كتبتها وأعطيت أربعاً وعشرين ساعة لإعداد دفاعي. ما أصغر الحياة، وما أبأسها، في بلادنا! في مكان آخر كان يمكن أن أتعرض لخطر - لأمل - القتل. أما هنا فلن يتكبدوا حتى مشقة محاكمتي، لن يوفروا لي فرصة اختبار شجاعتي. أه لو كنت روسياً! لو كنت في مواجهة سيف الخطر الدائم!..

هيركليون ٥/١٢/١٩٢٤ (٤)

رفيقتي العزيزة، كم أن مزاجينا يظهران ويبرزان في رسائلنا! أنت متزنة، مهيبة، صارمة، وأنا ذو طبيعة شرقية، اندفاعية، لا منطقية! لو كنّا معاً، لحاولت مجدداً، بجهد وقلق، جعلك تجتازين تخوم العقل والصمت. أما الآن فأنت بعيدة جداً، في أثينا

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) بيت زميلة في الدراسة وصديقه الحميم مانوليس جيورجياديس الذي أعدمه الألمان، لاحقاً، رمياً بالرصاص.

(٣) انظر الملحق في آخر الكتاب.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

الفضيلة، هناك حيث تكون روعي مجردة من كل قوة ولا تستطيع لمس أحد. افتقدك كل يوم، أشعر بذلك في كل ما تكتبين وفي الطريقة التي تكتبين بها، مزمومة الشفتين، واثقة، بلا بهجة. إلى أين تذهبين؟ لا أحد يعرف. يا إلهي كم أن ذاكرتي تمتزج بقلبي، كم يبدو الماضي أبدي الحضور، كم أن كل شيء يبدأ من دون أن تكون له نهاية!

إنني أمسك بك إلى الأبد على الرغم منك؛ لن تستطيعي الإفلات. الكواكب الثلاثة تتلأأ أديا فوق بحر ليبيا، وأنت معي، متمددة على الرمل، مساء وطيلة الليل.

لم يسبق لي أن أحسست بك قريبة مثل الآن، لم يسبق لنجوم المجرة أن ظهرت ووشحتني بكل هذا الدفء، بما فيه من يأس وسكينة، مثلما تفعل الآن، لا سيما وأنا الآن سيد ذاكرتي، وقد انطفأت الحياة اليومية ولم يتبق منها سوى الجوهر..

١٨٨٣ - ١٩٠٢. شبابه، مراهقته، العبودية، المنفى والتحرير، التعرف إلى العالم الخارجي الغريب، الأفكار، النساء والرجال الذين أثروا في فكره أو في جسده، كل ذلك نعرفه جيداً، ومن مصدره الأول^(١).

«يا إلهي، اجعل مني إلهاً! يا إلهي، اجعل مني إلهاً!».

هو ذا، رجلاً في مقتبل العمر، برأس مفرطة في الثقل، يستدعي الصواعق الإلهية، وهو لا يكاد الوقوف في باحة البيت.

هي ذاتها الساحة التي تدوي بضحكاته وبكائه ولعناته: «اللعة! اللعة على الذي لا يحترم الصوم! أمّا، هل رُضعت أيام الأربعاء والجمعة أيضاً؟» ثم يشرع في البكاء عندما تردّ أمه بالإيجاب..

أول لقاء مع الموت، في المقبرة التي رافقه إليها خاله للنزهة: أنيكا تلك الجارة المشوقة، المعطرة، الناعمة، وقد تحولت إلى جمجمة شنيعة، نبشها حفار القبور

(١) انظر «موازنة حياة»، منشورات بلون، باريس.

بضربة رفش .. وثاني لقاء، لم يكن أقل رعباً: تلك القبلة التي طبعها على أقدام الأبطال الذين شنقهم الأتراك على شجرة دُلب في الساحة العامة.

– لا أستطيع. يا أبي، لا أستطيع..

– تستطيع، هذا واجبك!

وذلك الأب الأسطوري الذي كان يطالب ابنه بأمرين: ألا يكذب، وألا يدع أحداً يغلبه. والذي هياً ابنه، وهو لا يزال طفلاً، كي يقتل أمه وأختيه إذا ما اخترق الأتراك عتبة البيت:

– موافق؟ علينا أن نقتلنَ لكي لا نتركهن يرزحن تحت العبودية. هل تجيد استخدام هذا السلاح؟

– نعم، همس الطفل البريء العاجز عن قتل ذبابة.

١٩٠٢ – ١٩٠٦ مرّت الأعوام سريعة. ولم تكن هناك جامعة في جزيرة كريت. فاضطرّ الطالب الشاب إلى الالتحاق بأثينا. وفي هذه المرحلة بدأ مراسلة منتظمة مع عائلته.

وكان يمازح أمه وأختيه لتعلقه بهن. ولا يحدثهن إلا عن الأشياء التي يفهمنها. ولا يفوته أن يضايقهن، ويمدحهن، ويقدم لهن نصائحه وهداياهم الصغيرة، من مساحيق وأشرطة وصولاً إلى مشدات الخصر .. بينما يلتزم نبهة جدية مع والده، ويخاطبه بضمير المخاطب في صيغة الجمع دون أي مزاح، ولا يعبر له إلا عن الاحترام والحب البنوي والاعتراف بالجميل.

وها هي ذي بعض المقتطفات من أول رسالة كتبها من أثينا:

أثينا، ٢١ / سبتمبر ١٩٠٢

والدي العزيز الموقر

.. وأنا أكتب إليك، أستمع عبر النافذة إلى صخب هذه المدينة الكبيرة .. باعة الصحف المتنقلون يصرخون، وباعة الخضروات، والحليب، والسيارات والترام، يذهبون ويجيئون بلا انقطاع..

إنه لمن المحزن حقاً، يا والدي الموقر، أن يبتعد المرء عن أبيه وأمه وأختيه، لكن ذلك كان ضرورياً، لا سيما وأنت تأمل أن أصير ابناً لا تخجل منه أبداً..

الصبر إذن يا أهلي الأعزاء، إن حبي وتقديري لكم يزدادان هنا، في بلاد الغربة .. على والدتي ألا تبكي؛ أنا بخير، ولن أتأخر، على أية حال، لرؤيتها، فالأشهر تمر بسرعة..

أقبلكم بمحبة فائقة

ابنكم المحب

نيكولاوس

أعيد قراءة هذه الرسائل فأتخيل عيني كاتبها الصغيرتين وهما تبرقان بمكر وانفعال غير مكبوتين جيداً. أربع صفحات، أولاها منسوخة باعتناء ومرسلة إلى والده والبقية إلى نساء العائلة. وبالنظر إلى اندفاعه العاطفي لم يكن قادراً على ضبط يده. وهذا ما كانت تشتكي منه أمه وأختاه.

كان يمضي العطل في كريت، مكتسباً قوة جديدة من حضور أمه الجسدي. ومن جهة أخرى بدأ حبُّ بريء يرتسم في حياته ليؤدي إلى الزواج فيما بعد. غير أنه ظل يحتفظ لنفسه بالمصاعب والشكوك والآمال. وليست هيركليون هي المكان المناسب لمقابلة كاتب بارز يشجع بداياته الأدبية، عندما فاجأته روحه وهي تتفتح مثل إنشاد زيز، فحاول، ببطء وألم، أن يخرج من درعه المعدني.

عمله الأدبي الأول «الثعبان والزنبقة» هو قصة طويلة صدرت باسم مستعار،

وحالم، مثل مضمونها: كارما نيرفامي. وكانت جدّ متأثرة بالكاتب الإيطالي دانوزيو. ولقد تنصّل منها كازنتزاكي فيما بعد، شأنها شأن كتاباته الأولى. لكنها كتبت بحماسة وتوقد. ولم يكد ينتهي من كتابة «الثعبان والزنبقة» حتى انكب على تأليف دراما اجتماعية. وأرسل بها إلى د. كالوجيروبولو، مدير مجلة «بيننا كوتيك» في أثينا. وكان رجلاً مثقفاً وتقدماً، فأبدى اهتماماً كبيراً بمؤلف «الثعبان والزنبقة». ولم يُخفِ الشاب الكريتي انفعالاته في الرسالة المرافقة:

.. كانت المخطوطة أمامي على الطاولة منذ عشرة أيام دون أن أتمكن من تهدئة نفسي. لم أكن أعرف إن كانت جديرة بالقراءة^(١). وما يشجّعني .. هو الصراحة التي أكتب بها .. وإذا قلت لك إنني أبكي أحياناً خلال الكتابة وأتألم وأنهك جسدياً، هل تصدقني؟

لقد شددت على ثلاث جمل ذات دلالة. ١٩٠٦ - ١٩٥٧ إحدى وخمسون سنة من الحياة الأدبية دون أي تغير يلحق بالرجل: ظل متواضعاً، ساذجاً، مرتباً دائماً في إتقان عمله.

ما زلت أراه يدخل غرفتي، محمراً من الخجل مثل تلميذ، ومقدمة «تودا - رابا» في يده:

- لينوتشكا، اقرأني، أرجوك، أخبريني إذا كانت لها قيمة! كنا نقيم منذ بضعة أسابيع «على قمة السعادة وتشيكوسلوفاكيا» كما أعلن في رسائله. كان عائداً لتوه من الاتحاد السوفياتي، حيث ظلّ وحيداً، ثم أكمل الرحلة التي بدأها برفقة بانييت استراتي وصديقه بيلي وأنا. كان عمره آنذاك ستة وأربعين عاماً وبدأ يشعر أنه قادر على حمل كل ثقل الظلم الإنساني على كتفيه.

(١) «الفجر يطلع»، دراما، ١٩٠٦. نالت جائزة جامعة أثينا. مُثّلت وأشارت الكثير من المداخل، ونبأ بعضها بمستقبل باهر للمؤلف.

ها نحن أولاء في أرزجييرج، وبالتحديد أكثر، في فورسترهاوزر، قرب غوتسغاب، في بيت عائلة سُودَات. بيت واسع يعود إلى السيد الصغير كراوس الذي لم يشاهد في حياته شخصاً يونانياً، ولا تمرأ، ولا زيتوناً. والذي هتف مذهولاً لدى رؤية أول نارنجة محفوظة في السُّكر: «يا لها من زيتونة لذيدة!» وكان يرتدي، في عيد القديس نيقولا، بدلة الإطفائي، ويعتمر القبعة، ثم يأتي ليقدم تمنياته إلى نيكوس مخاطباً إياه بـ «هرديركتور!» (السيد المدير).

وكانت هناك أيضاً هيلدا، شقراء مثل التبّين الذي كانت تثيره برفقة معزاتها. ثم والدة هيلدا التي لا تستثار إلا لرؤية الغجر:

– لصوص الزبدة! لصوص الزبدة! اقفلوا الأبواب لوجه الله!

أزمنة سعيدة، ولادة، ثم ولادة جديدة لرجل وامرأة. عزلة، فوق مرتفعات أرزجييرج الثلجية حيث تعلمت أشياء كثيرة جوهريّة من بينها معنى كلمة «عزلة» بالنسبة لرفيق دربي. كان في حاجة إلى مجال واسع، وفضاء شاغر كي يجلس مثل ناسك آسيوي تحت شجرة، يقرب المزمّار من شفّتيه ويبدأ بالعزف وبخلق أشباح سرعان ما تتحول إلى كائنات حية ومستقلة عن خالقها.

بعد عامين عدنا إلى عائلة كراوس. وفي الأثناء هيأوا سريراً على مقاس نيكوس، ووضعوا مدفأة في غرفته. وبدأ نيكوس الصياغة الثانية للأوديسة، من دون ارتداء قفازين هذه المرة. وصرنا قادرين على استقبال بعض الأصدقاء: جورج نازوس^(١)، بانديليس بريفيلاكى^(٢)، لفتيرس.

ولم يكن نيكوس يتناول الغداء كي لا ينقطع عن عمله. لكنه كان فرحاً ومرتاحاً. وكنا نخرج للنزهة في الجوار مرة في الأسبوع. وهو يحب كل مساء، قراءة ما يكتبه في النهار. وفي ذلك العام، كان ذلك شأنه مع «الأوديسة» و«القبطان الياس». ثم عاد مجدداً إلى التهيّب نفسه، وإلى الريبة نفسها التي تخالط صوته:

(١) ج. نازوس، صحافي شاب مات بعد بضعة أعوام.

(٢) ب. بريفيلاكى، كاتب، أستاذ تاريخ الفن، وكان آنذاك طالبا في باريس وصديقا وفيا لنيكوس كازنتزاكي.

– اقرأي يالينوتشكا! اخبريني إذا كانت ذات قيمة..

وبعد مرور ثلاثين عاماً ظل محافظاً على القلق ذاته والشك ذاته. نحن الآن في أنتيب ونيكوس يكتب «تقرير إلى غريكو» بعصبية فائقة، مع التحضير لرحلتنا إلى الصين. وأكد أننا لا نخشى أي سوء من هذه الرحلة. كما أن الأطباء أكدوا لنا ذلك. غير أن صفارة الإنذار ربما كانت تدوي في لا شعوره. فلم يكذب ينتهي من كتابة المقدمة حتّى قال لي بنبرة تأثر: «اقرأي يا صغيرتي، أرجوك، اقرأي ما كتبت، لست أدري حقاً، إن كان ما كتبت ذا قيمة!». «.

أجمع أدواتي: البصر، السمع، الذوق، الشمّ اللمس، الروح.

حلّ المساء وانتهى يوم العمل، أعود إلى بيتي مثلما يعود الخلد إلى التراب. ليس لأنني متعب من العمل، لست متعباً، غير أن الشمس تغيب..

هذه المرة غامت عينايا أنا، واختنق صوتي: «ما الذي يدفعه إلى الحديث عن الموت هذا اليوم؟» فكرت وأنا أحاول إتمام القراءة «لماذا يتقبل الموت، لأول مرة، اليوم؟».

تظاهرت بالغضب؛ وتذمّرت. فظل محافظاً على هدوئه ووضع يده على كتفي، كعادته:

– اطمئني يا رفيقتي. سوف أعيش عشر سنوات أخرى! لقد سبق لنا القول إننا لا نموت إذا كان لنا هدف نريد بلوغه!

لكنه كتب إلى صديقه ب. بريفيلاكي، في المساء نفسه:

أرسل إليك افتتاح «تقرير إلى غريكو» لم تتمكن ايليني من قراءته حتّى النهاية. إذ انفجرت باكية. مع أنه من الأفضل أن تتعود على الأمر، وأتعود عليه أيضاً..

لكن، لنعد إلى العام ١٩٠٦:

أثينا ١٩٠٦

أمي العزيزة،

سامحيني على عدم الكتابة حتى الآن، لكنك لا تستطيعين تصور الأتعاب التي

ألاقيها من أجل الدراسة .. لا أخرج البتّة. في منتصف النهار، وفي المساء، هناك شاب يأتيني بالطعام والكتاب أمامي وأنا أقرأ. أناام باكراً غير أنني أستيقظ حوالي الساعة الثانية أو الثالثة ليلاً. أنهي الامتحانات وأستعيد طمأنينتي ..

أنا مبتهج جداً لقضاء عيد الميلاد معكم هذا العام. في منتصف الليل سوف أذهب إلى الكنيسة وأقوم بعلامة الصليب وأشعل شمعة وأرتل: كرياليسون، كرياليسون! بعد ذلك أعود إلى بيتنا، وهناك تكون المائدة جاهزة والخنزير المحشو بالقمح يدخن. فهل نستطيع آنذاك احتساء قدح صغير، يا أنستازيا^(١)؟ «مرحباً بك! مرحباً بك!».

أكتب إليك والساعة منتصف النهار، أشعر بجوع قاتل، أتساءل ما الوجبة التي سوف يأتيني بها النادل. أترك ذلك لتقديره. ذات يوم لم يأت لأنها كانت تمطر .. فابتلعت خمسة فناجين شاي وثلاثة فناجين شوكولا وخمس قطع من البسكوت..

ها هو ذا قد جاء! لقد أتاني بالأكل. شربة فاصوليا؟ كلا! حمص وسمك مورة مقلي. انتبهي هذا اليوم هو الجمعة، وأنا مصرّ، كما تعلمين على الصيام. آه، لا ينقصني إلا هذا!

دعيني أكل الآن. سوف أكتب إليك فيما بعد.

أسمعك من بعيد تصيحين: «هنيئاً! - شكراً! شكراً!».

الحنين إلى العائلة، الكتب، القطران الذي تطلي به والصدته ثيابه حتى تمنع عنه سائر الأمراض، «المشروع الكبير»، ذلك هو ما يتردد في كل رسائله إلى أهله. ونادراً ما يتحدث عن الأتراك المحتلّين، أو عن مخاوف اليونان من الانجرار إلى حرب غير متكافئة.

١٩٠٦ سنة ملأى مثل بيضةٍ بمُحْنٍ (صفارين). تحصل كازنتزاكي على شهادة جامعة أثينا. وابتهجت العائلة. أبوه، مثل غالبية الفلاحين اليونانيين،

(١) شقيقته البكر.

يحلم بأن يصير ابنه الوحيد محامياً، أو ربما، سياسياً مرموقاً. الأم تنسج خيوط «المشروع الكبير» التي سوف تحافظ على ابنها بجانبها. والأختان توصيان على هدايا بسيطة: مساحيق، شرائط موضة .. وها هم يسهرون مطولاً حول قنديل النفط، يشربون الشاي، ويتحدثون عن عيد الميلاد الذي يقترب ويعلن عن قدوم الابن الشاطر. ماذا يمكن فعله لإسعاده؟ تبييض البيت. تنظيف «كارمن»، الكلبة الصغيرة. وضع نباتات عطرة جديدة في الباحة. هذا ما طلبه في رسائله. أما ما تبقى من همومه الأخرى، وكتابات، وعطشه الدائم للمعرفة والفهم، والرؤية إلى أبعد حدٍّ ممكن، فلا أحد يدرك كثافتها عنده. يأتي الابن الوحيد، ثم يرحل، وتبقى المحبة كاملة، وتزداد مرارة الرحيل، وتنقضي الحياة، وتنفث هوة بينه وبين مسقط رأسه، هوة لا يردمها سوى الموت..

سنة ١٩٠٧ صار نيكوس كازنتزاكي بطل مغامرة عجيبة: توجت جامعة أثينا عمله الدرامي «الفجر يطلع» مع توبيخه على أفكاره المتقدمة.

«إننا نتوج الشاعر، غير أننا نطرد من هذا الصرح الطاهر، الشاب الذي تجرأ على كتابة مثل تلك الأشياء»، ذلك ما قاله أستاذ الجامعة الموقر، س. لامبروس اني ترأس ذلك التتويج المذهل. ذلك التتويج المذهل. فماذا فعل المكلل بالغار؟ بكل اعتزاز، غادر القاعة «الطاهرة» من دون أن يصفق الأبواب. وفيما بعد، صار يستمتع بالحديث الساخر عن طريقة حمله لإكليل الغار إلى سويسرا كي يعطر طبخة «الستيفادو» المحلية^(١) عندما كان يعيش في زيوريخ مع جان ستافريداكي^(٢).

عندما علم فلاسييس غافريليديس، الصحافي الشهير في اليونان، بنتائج الامتحانات الجامعية، كتب في صحيفته «أكروبوليس»:

«إنَّ الكاتب المسرحي، السيد ن. كازنتزاكي الذي أسندت إليه الجائزة عملياً -

(١) نوع من اليخنة بلحم البقر توضع فيها أوراق الغار.

(٢) ج. ستافريداكي، أصيل كريت، القنصل العام لليونان في سويسرا خلال العامين ١٩١٨ و ١٩١٩. وكان كازنتزاكي يحبه كثيراً. مات في مقتبل العمر في تفليس سنة ١٩١٩، بينما كان كازنتزاكي آنذاك في مهمة خاصة، يحاول ترحيل لاجئي القوقاز اليونانيين (انظر «زوربا» و«موازنة حياة»).

مع إنكارها عليه شكلياً - مكافأة لعمله: «الفجر يطلع»، وهو عمل جميل ورمزي حقاً، شخص كريتتي. وبتعبير آخر، فهو ثوري .. عمله الجديد يشبه عمله السابق، الأرجواني اللون، الذي كتبه في السنة الماضية بعنوان «الثعبان والزنبقة»، ويتميز بالقوة، وبالجمع بين النسيم وريح السموم، بين الروائح الحامزة والعطور الفاتنة، وعطور بلاد العرب الأصيلة، وكما تتميز ريشته بحمياً جواد عربي، فإن عمله الجديد تخترقه روح متمردة، يتعذر ترويضها، في نوع من الصراع ضد الطبيعة والمرأة، ضد الحب والذات.

«وأهم شيء بالنسبة إلينا، هو أن الأدب اليوناني، مع مؤلف (الفجر يطلع) و(الثعبان والزنبقة)، يغتني، رغم فقره الحالي، بكاتب جديد من شأنه بلوغ المرتبة الأولى. وعندما نتأمل عمليه المذكورين باهتمام، نميز مصدراً أدبياً مجهولاً. إنه يدخل عالم الآداب بإلهام ثقافي، وجمالي، ولغوي، جديد. وهو حقاً الكاتب الجديد، كاتب الشعلة، كاتب الحياة...»

ثم نادى الكريتتي الشاب وعهد إليه بتحرير جريدته. ولم يكد كازنتزاكي يوافق مغترباً لفترة قصيرة، حتى استعاد حريته للذهاب إلى باريس من أجل استكمال دراسته.

وفي رسالة مؤرخة في الأول من أكتوبر ١٩٠٧ تحدث عن انطباعاته الأولى حول باريس. وأخبر والده بالاضطراب الذي شعر به عندما وجد نفسه وحيداً في صخب مدينة كبيرة - «سيارات، صراخ، جموع، مساكن عالية، آلاف الأشياء التي تضايقك...» في حين تحدث لوالدته وأختيه عن مفاجأة سارة تتمثل في كون النساء كلهن يعملن «ليلاً ونهاراً، لكسب العيش وليس كما عندنا، حيث تمكثن جالسات طوال النهار تطرزن، وما أن تسمعن صوت سيارة حتى تهرعن إلى الباب كي تعلقن لاحقاً عما رأيتن...»

١٩٠٨: يوم ٢٥ يناير ١٩٠٨ أجاب كازنتزاكي عن سؤال وجهته إليه أخته، بنبرة مازحة، قائلاً إنه يتابع دروساً فلسفية في جامعتين^(١): وأضاف: «أنا راض

(١) كوليج دي فرانس والصوربون.

لأنني بدأت أتعلّم الـ A. B. C « (اللغة الفرنسية).

غير أن الدراسة والبعد عن الوطن لم يعرقلا اندفاعه الأدبي. وسرعان ما كتب مسرحيتين جديدتين وقدمهما للمشاركة في مسابقة تنظمها جامعة أثينا. ووضع كل آماله في عمله الجديد «فاسغا» لكنه أصيب بخيبة مرة عندما علم أن عمله لم يقبل حتى لدخول المسابقة. ولقد أرسل عدة مقالات من باريس إلى صحيفة تصدر في أثينا لكنها غير بارزة كثيراً.. وكتب إلى ذويه:

باريس (بلا تاريخ)

أمي الحبيبة، أنستازيا وهيلينا

الفرنسيات لسن بشعات مثل اللائي عندنا في كاسترو^(١). إنهن جميلات جداً – ويعتنين كثيراً بتصفيف شعورهن، ولهن بشرة في منتهى البياض والنَّعومة. عندما أتذكر نساءنا.. أنفجر ضاحكاً...».

باريس، يونيو ١٩٠٨

أمي العزيزة،

أنا حزين لعدم قبول «فاسغا».. لكنني سعيد لرؤيتكم بعد بضعة أيام.. سوف نستيقظ باكراً جداً مع هيلينا أو مع أنستازيا.. للذهاب إلى كنوسوس أو إلى كرومنا.. ثم أعود للكتابة. وأنزل مرة أخرى «ما الأخبار إذن؟» ونمزح ونمزح وناكل العنب..

و ذات يوم تصعد أمي.. وتجلس على الصندوق، ويكون طرفا جوربينها جديدين، وأغلق من البقية. وتقول لي، ماسكة خدّها بيدها: «هيا يا بني، ما رأيك في مشروعنا؟» فأقول لها كذا وكذا، ملتزماً بجديّة تناسب عمري (يا ماريغو^(٢))، مهما فعلت فإن عمري ٢٦ عاماً).. وبعد ذلك أرافق والدي إلى الكروم، ذات ظهيرة، وأحدثه مدة ساعتين ونصف الساعة. ونبدأ بالإجراءات.. وفي يوم آخر، أحدث هيلينا عن مشروع آخر نعرفه.. هاهاها! يالها من مزحة!..

ما أطرف هذا العالم! في هذه اللحظة يهتزّ الشارع تحت نافذتي: سيارات، قطارات

(١) ميركليون تسمّى أيضاً «كاسترو» بسبب أسوارها.

(٢) أمه.

(كذا!!)، النهر، نساء بفساتين مقوّرة، أصوات، كنائس عالية مبانٍ ذات سبعة طوابق، مسارح، موسيقى - حياة مضطربة. وخلال بضعة أيام: الهدوء، أشجار الموز، أمي، كامارس^(١) صور أبطال استقلالنا^(٢) تعجبني الحياة هكذا. الانتقال من الضد إلى ضده.. أنا مسرور..

باريس (بلا تاريخ)^(٣)

.. في غرفتي - شكراً يا أنستازيا لأنك لم تقطبي حاجبيك - تشتعل النار طوال النهار. وإنه لجميل الجلوس في جو دافئ، واحتساء الشاي والقراءة بينما الثلج يتهاطل في الخارج، وبين الفينة والأخرى ترفع ستائر النوافذ لترى العالم في منتهى البياض.

الأمر الوحيد السيئ هو أن غرفتي تروق للأصدقاء وكثيراً ما يدقون الجرس حتى أفتح لهم. أتظاهر بأنني لم أسمع، وأكفّ حتى عن التنفّس، آملاً أن يحسبوني غائباً. لكنهم لا يخذعون ويصرخون «كلا، لن نتحرّك من هنا حتى تفتح لنا!».

.. أقوم، افتح، أوبّخهم، ثم أدعهم يدخلون .. يشعلون المدفأة، يبحثون عن الشاي والسكر والبسكوت ويجهزون الشاي. ويسألونني: هل تريد شايّاً أنت أيضاً؟ - تسألون؟ في الفنجان الكبير طبعاً!..

يأتون بالكونياك أو الشمبانيا فنحتسي معاً، وهكذا نضيع الكثير من الليالي. غير أن صاحبة البيت تفرح لذلك، لأنهم، كما تقول لي، يجبرونني على الاستراحة قليلاً من عناء الدرس. لو رأيتهما، أمّاه، لقبليهما، وطليت ثيابها بالقطران، حتى يمن الله عليها بالقوة..

باريس، ١٩٠٨^(٤)

.. كم أن العالم جميل هناك، في الرّيف. لا شك أن السنابل الآن قد ارتفعت بمستوى البحر، مع شقائق النعمان والأشجار المزهرة والزّيزان. ولا سيما الفواكه. رأيت، في يوم سابق، كرزاً ملفوفاً في ورق حريري، مرتباً في صناديق صغيرة مثل أقراص الدواء! فتذكرت الصحون الكبيرة المملوءة بالكرز، وفرحتي عندما تحمّر شفّتي بعصيره. في

(١) الساحة الرئيسية في ميركيون.

(٢) تُزَيّن جدران منازلنا، دائماً، بصور أبطال الاستقلال.

(٣) و(٤) رسائل إلى أهله.

احدى المرات حسبت عدد النوى فكانت مائة وخمسين نواة..

باريس، (بلا تاريخ) (١)

أمي الحبيبة، أنستازيا وهيلينا،

.. لا شيء يعادل فرحتي باستلام رسائلكن. في الحقيقة كثيراً ما أقول لنفسي أنه لا يوجد شخص في العالم يحب أمه وأخته مثلي. قبل أيام، عندما استلمت رسالتكن، ذهبت إلى الجامعة. فاقترب مني صديق وقال لي: «ما بك؟ ماذا حصل لك؟ - وصلتني أخبار من أهلي! صرخت به. من أمي وأختي، هذا ما حصل لي!..»

باريس (بلا تاريخ) (٢)

حدثتني كيف تسير الأمور السياسية هناك، وكم مرة يخطبني يانغو (٣) وراء الباب مع بندقيته، عندما يشعر بالخطر. أنا أتابع حياتي المعتادة أقرأ كثيراً، وأشعر بقلق عصبي عندما أفكر بأنني لن أعود أبداً، لذلك أريد قراءة كتب باريس كلها، قبل رحيلي.

١٩٠٩، بموازاة دروسه الفلسفية وقراءاته، جهّز كازنتزاكي روايتين: «الحياة الامبراطورية» والثيونتروب: Théantropes لتشكلا ثلاثية روائية بعد إضافة «الأرواح المهشمة». غير أن الربيع جاء، وسرعان ما كسب شيطان السفر الجولة.

باريس (١٩٠٩)

أمي الحبيبة، انستازيا وهيلينا،

.. أكملت دراستي .. وعوض البقاء شهرين آخرين في باريس، أفكر في قضائهما في روما .. أه، لو كنت، في هذه اللحظة، أملك بعض المال، لرتبت كتبتي وثيابي وحزمت حقائبي، وناديت السائس، وصعدت إلى القطار، لأستيقظ صباح الغد في إيطاليا! ها هي ذي الحياة التي تروق لي .. وليس مجرد الذهاب إلى طاحونة كاستريناكي مع

(١) رسالة إلى أهله.

(٢) رسالة إلى أهله

(٣) شخص تربطه علاقة بالعائلة.

الاضطرار إلى لف ساقَي بلفافات واقية واعتماد قبعة واسعة الأطراف ووضع خمار على كتفَي، وانتعال جزمَتين طويلتين، وأخذ مطرة ماء، ورسم شارة الصليب قبل أن أقصد الطريق!..

رسائل مزوّقة لأنها موجهة حتماً إلى القبطان ميخائيس، مع أنّه في الحقيقة ليس على هذه الدرجة من الشراسة، إذ يكفيّه أن يقلب الصفحة الأولى المزوّقة جيداً، ليقرأ على ظهرها جزءاً آخر من الرسالة، كلّ مزاح ومناكفة، كما يكتبه ابنه لكلّ من أمه وأختيه.

باريس، ٢٥ يناير ١٩٠٩

والدي الحبيب،

أنا بخير وأتمنى أن تكون «حضرتكم» والعائلة، كذلك.. فرحتي الوحيدة هي أن أتأكد بأنكم على ما يرام. أتساءل عما كان سيحلّ بي لولاكم. كلّ ما أعرفه من أشياء جيدة يعود فيه الفضل إلى حضرتكم.

مع الاحترام والمحبة
ابنكم ن

ونقرأ على ظهر الرسالة نفسها:

أمي الحبيبة، أنستازيا وهيلينا،

.. أحياناً، في الليل، عندما أكون مندمجاً في القراءة تحت المصباح المزوّد بعاكس نور أخضر، بينما الثلج يهطل في الخارج، والنار موقدة في الغرفة، تأتي ماتيلدا، أو أختها سوزان^(١) حاملة قطعة التطريز، وتسألني: هل تسمح لي بمجالستك؟ سوف أطرز جزءاً آخر غير أن النعاس يغالبني ومن شأن صحبتك أن توقظني، هل تسمح؟» أرفع رأسي وأجيب: «بطيبة خاطر، وياليتك في الأثناء توقدين المدفأة وتعدّين قليلاً من الشاي. لأنني، شخصياً أنزعج من ذلك.

— آه، بكل سرور!

(١) ابنتا وكالة الفندق العائلي (بونسيون)

وأثناء غليان الماء، تنهمك ماتيلدا، أو سوزان، في التطريز، منحنية الرأس، فأقول في نفسي: «أنا مستعد لأن أقدم نصف حياتي كي تكون أنستازيا، أو هيلينا، جالسة في هذا المكان، وأمامها، على الأريكة، تجلس أمي، وتدرز بعض الجوارب..

أنا في منتهى القلق لأن المال تأخر. والأسوأ من كل ذلك أن كتبي في الحقائب، وغرفتي تشبه سفينة موشكة على الإقلاع، أو تشبه بيتنا وقت الغسيل..

وكتب من فلورنسا، أي قبل خمسة عشر يوماً من بلوغ روما:

(بلا تاريخ)

أمي الحبيبة، أنستازيا وهيلينا،

.. ها هو ذا الحساب قد بدأ، مساء الخير!

في اليوم الأول كنت أطوف هنا وهناك بحثاً عن مسكن .. وإذا بسيد يقترب مني: «Signore, cercate un casa? ومعنى ذلك: سيدي هل تبحث عن بيت؟ - نعم، سيدي، قلت له، Sapete una? يعني: هل لك علم بوجود واحد؟ ثم رافقني إلى أحد البيوت. ولاحق ثلاث أخوات، الواحدة أبشع من الأخرى، عمر الثانية خمس وأربعون سنة، والبكر ستون (ولقد ذكرتني بالأخوات فوكادو بوليس)^(١). عرض عليّ غرفة صغيرة مزينة بستائر طويلة من الدنتيلا، وثلاث مرايا، وأيقونات في كل مكان، وروائح بخور، وأغصان أشجار - مصلى حقيقي .. والآن أنا مرتاح .. في المساء أكل المعكرونة وأتكلم الإيطالية. في العاشرة نذهب إلى النوم. بونا نوتي، بونا نوتي، سينيورينو! هذه هي حياتي هنا.

«... هنا، الناس لا يتكلمون، بل يغنون .. مجاملون، فرحون دائماً، صاخبون. كل يوم أزور ثلاث أو أربع كنائس. وهي موجودة في كل خطوة. أزورها لأتمتع برؤية رسوم الفنانين الكبار».

(١) جارات في ميركليون تذكرهن نيكوس كازنتزاكي ووصفهن في «الحرية أو الموت».

فلورنسا مدينة ملأى بالسائح، وفي كل مكان نسمع إنجليزيات، في أيديهن دليل السائح، وهن يهتفن: Yes! all right, yes! . قرب البيت الذي نزلت فيه توجد كنائس سان ماركو، سان لورنزو، ثم سانتا ماريا نوفيلا وسانتا ماريا أنونشياتا! هل لاحظتن؟ هل لاحظتن كم هي جميلة لغتهم؟ يكفي النطق بهذه الأسماء للشعور بالإبتهاج..

(فلورنسا، ١٩٠٩) (١)

أنا سعيد جداً .. وكثيراً ما أقول: لولا القطران لما توصلت إلى تحقيق أي شيء! ما همّني إذا كانت ثيابي الداخلية سوداء ورائحتي مثل رائحة رصيف أو ميناء تملأه براميل القطران وحبّال المراكب؟ اليوم وأنا أتنزه شاهدت أشجار لوز مزهرة. لا تستطيعن تخيل مدى تأثري وانفعالي. أعتمر قبعة خضراء، مع ربطة عنق خضراء أيضاً. أنا مثل مرج يغطيه العشب. لا أعرف أحداً ولا أحد يعرفني وأفعل ما أشاء. ألتهم برتقالات في الشارع، أتوقف نصف ساعة وأتفرج على أحد الرسوم..

ولا شك أن القبطان ميخائيس قد أصابه القلق من تنقّلات ابنه. لذلك يكتب له، هذا الأخير، بأسلوب مباشر وبعيد عن الزخرف:

روما، ٢٤ مارس ١٩٠٩

والدي العزيز جداً

.. لم أغادر فلورنسا طلباً للمتعة، بل يتوجب عليّ الاطلاع والدراسة في روما. كلّ هذا يفيدني. إنني أتعذب بسبب دروسي، وأتعذب ضعف ذلك عندما أفكر في التعب الذي تحصل به على الأموال التي ترسلها إليّ. وأنت تعرف أنني لست من أولئك الشباب الذين يجهلون واجباتهم.

إنني أقتصد حتى في قوتي .. سامحني يا والدي على طول هذه الرسالة .. غير أنني لا أجد طريقة أخرى لأبرهن لك على منتهى الإدراك والوعي بما تبذله من أجلي وما لا

(١) رسالة إلى ذويه .

يستطيع أي أب أن يبذل مثله. أتعذب كثيراً في الخارج.

وفي روما لا أتنزه لقتل الوقت، بل أكد كثيراً، لأنني أريد أن أشرف اسمنا ذات يوم.

سنة ١٩٠٩ نُشرت له أطروحته: «نيتشه في فلسفة القانون» ومسرحية تراجيدية في فصل واحد، تدور أحداثها حول أسطورة شعبية، وعنوانها «رئيس العمال»، ومسرحية أخرى في فصل واحد بعنوان «كوميديا». ولو لم ينشر الكتاب الأخير سنة ١٩٠٩ لأثار الكثيرون مشكلة حول الانتحال أو السرقة الأدبية، لشدة ما يذكر هذا العمل بعمل آخر لسارتر، هو «الأبواب المغلقة». غير أن الاثني عشر ميتاً، المحصورين في غرفة موصدة بلا منافذ، ينتظرون، عند كازنتزاكي، مجيء المنقذ، الذي لا يأتي طبعاً..

وفي مجلة «باناتيني» نشر كازنتزاكي، في هذه الفترة أيضاً، بحثاً فلسفياً بعنوان «العلم يعلن إفلاسه».

١٩١٠ - ١٩١٣، ما قيمة الأفكار إذا لم يتم تطبيقها؟ نيكوس يحب غالاتي، وغالاتي تحب، أو تعتقد أنها تحب نيكوس. كيف تتم البرهنة على ذلك للآخرين؟ كيف يمكن الدفاع عن أفكار تحلق أعلى من المياه الراكدة في مدينته الصغيرة؟

سنة ١٩١٠ قررا العيش في عش الزوجية، على الرغم من اعتراض ذويهما، ومن دون المرور بالكنيسة. وهكذا شدَّ القبطان ميخاليس على أسنانه وعلى.. حافظة نقوده. ولا شك أن هذا الرجل الصَّمُوت قد أفلت بعض الكلمات المتهورة. إذ أن الابن، صاحب السمع الرهيف والحساسية الفائقة، أصيب بالانقباض، لكنه ظل يحترم والده، الرائع على أية حال، مع تفويت أي فرصة عليه كي يساعده مرة أخرى.

ومع إله الحب انطلق العاشق الشاب يبحث عن مسكن مثالي. وهو في هذا

المجال، يشبه كشافي الينابيع. فخلال تطوافه الطويل، من دون مال دائماً، وجد بيوتاً واسعة، مشمسة، مطوقة بالحدائق، في أحياء رائعة.

ومن أجل كسب القوت انكبَّ على العمل. ونظراً لعناده واضطرابه وصبره في آن واحد، فقد وظف قدرته على العمل الأسطوري، والتزم بالجلوس على مقعده طوال أربعة أعوام، كي يترجم إلى اليونانية، وفي أسرع وقت ممكن، أكبر عدد ممكن من المؤلفات الأجنبية، من بين تلك التي يعتبرها جديرة به وبمواطنيه. وها هي ذي بعض العناوين:

وليم جيمس : نظرية الانفعال.

ف. نيتشه : أصل التراجيديا.

ف. نيتشه : هكذا تكلم زرادشت.

ج.ب. ايكرمان : محاورات مع غوته.

س. أ. ليسان : التربية المستندة إلى العلم.

م. مترلينك : كنز البسطاء .

داروين : أصل الأنواع.

ل. بوخنر : القوة والمادة.

برغسون : الضحك.

أفلاطون : ١ - في طبيعة الإنسان.

٢ - في الصلاة.

أيون. مينوس. ديمودوكوس. سيزيفوس. كليتوفون.

سنة واحدة من التحدي الذي رفعته المرأة في وجه المجتمع، كانت كافية. وهكذا طلبت الزواج سنة ١٩١١ وحصلت على الموافقة، وتمّ الاحتفال في الكنيسة التابعة لمقبرة هيركليون. وبدل خاتمي الزواج، وضع كل منهما في أصبعه خاتماً من حديد صدى ٤، مصدره بعض القبور.

ومن خلال العلاقات المكتوبة والشفوية مع المقربين منهما، ندرك أن حياة الزوجين الشباب لم تكن قائمة على الدوام. فإلى جانب الأوقات العصبية كان هناك وفاق وعُطل سعيدة في كريت، حيث تجلجلُ ضحكات نيكوس كازنتزاكي، تلك الضحكات التي كان يستخدمها درعاً في مواجهة الشرّ القادم. وكان في الإمكان تلافي كلِّ شيء لولا اختلاف طباعه عن طباع زوجته. لو .. لكنه من الصعب تشريح الروح البشرية. وعندما يئس كازنتزاكي من إيجاد الانسجام في بيته صار يبحث عن فرص الرحيل، من أجل المحافظة على حبّه لزوجته أطول وقت ممكن.

شهدت اليونان، والعالم بأسره، آنذاك، أياماً صعبة: الحرب ضد الأتراك (١٩١٢ - ١٩١٣) ثم ضد البلغار الذين كانوا يطمعون في ضمّ تيسالونيكي، وبعد ذلك اشتعلت الحرب الكونية والحقْد الأخوي الذي قسم اليونان إلى معسكرين متقاتلين، مع الملكية أو ضدها. وهي لعنة ظلت تحط بثقلها على البلاد المنقسمة. تطوَّع كازنتزاكي فتمّ تعيينه في حكومة رئيس الوزراء وسوف يرافق ملك اليونان بمناسبة جولة في ربوع الامبراطورية.

ولقد روى لي فيما بعد:

- لم تعلمين كيف استقبلنا أولئك اليونانيون المفعمون بالفرح. كانوا يرتمون على ولي العهد، ويقبلون يديه. ولأنّ أجمل سجاداتهم المفروشة على الأرض لم تكن كافية فقد فرشوا أجسادهم على الأرض كي تدوسهم قدم الأمير المحرّر.

- كيف كان ردّ فعل ملك اليونان لاحقاً؟

- ما سعر هذه السجادة؟ سأل بصوته الرتيب، ما سعر هذه السجادة؟ وكرر ذلك مثل أسطوانة تالفة .. «ما سعر .. ما..»

ليس بين أيدينا سوى بطاقة بريدية واحدة تعود إلى تلك الفترة. وهي تحمل ختم بريد أثينا، مع تاريخ: ١٩١٢/١٠/١. وهي مرسلة إلى خاريلاوس ستيفانيدس، صديق حميم لنيكوس، وكان يزعجه لحساسيته العالية.

عزيزي

الحرب قادمة من دون أي شك. وإذا استبقنا إنجلترا فإن اليونان سوف تحتل كريت - ربما الأربعاء القادم. هنا تخيم العزلة، السكينة، الغبار. سوف نفعل المستحيل كي نصل إلى الحدود..

وجاءت سنة ١٩١٤ بأفراحها وأحزانها: النصر المرتقب - أخيراً تحصل اليونان على سهول واسعة ولن تقتصر على صخورها القديمة: الازدهار، ولا سيما هبة الآلهة: صديق الروح، الشاعر انجيلوس سيكليانوس.

سنة ١٩١٤ أعلنت وزارة التربية القومية عن مسابقة تخص الكتب المدرسية. وكل كتاب تتم إجازته يظل مستعملاً في المدارس طيلة أربع سنوات متعاقبة، في اليونان وخارجها. ومن ثم يحصل المؤلفون على شهرة واسعة وإيرادات مالية عالية.

شارك كازنتزاكي في المسابقة وتم قبول كتبه الخمسة. وربما ساعدته زوجته في تحرير تلك الكتب؛ ذلك أنه كان يخشى الغيرة التي بات يثيرها اسمه، وطلب منها أن توقع تلك الكتب باسمها فقط. وفيما بعد باعت حقوق الطبع، من دون معرفته.

وما زال اليونانيون، حتى اليوم، يعتقدون، بحسن نية، أن تلك الكتب المدرسية من تأليف غالاتي. إلا أن بعض الرسائل التي وجهها كازنتزاكي إلى صديقه ستيفانيدس، وقد تم العثور عليها حديثاً، تبين الحقيقة^(١).

ميثانا، ٢١ يونيو ١٩١٤

عزيزي خاريلاوس،

.. أعالج نفسي حالياً بالاستحمام في مغاطس كبريت، لأنني متعب قليلاً، أو بالأحرى

(١) شخصان من جزيرة كريت هما السيدان جورجياكي وباباداكي أنقذا رسائل كازنتزاكي خلال بيع منزل ستيفانيدس بالمزاد العلني، في كريت.

لأنني أستطيع توفير قرابة مائتي دراخما. أتصور سأمك القاتل في كاسترو .. لا أعرف إلا دواء واحداً: تأليف الكتب المدرسية .. لقد قلت لك ذلك منذ عدة أعوام، أما الآن فإن فكرتي قد تبدو لك أقل طوباوية بالنظر إلى أن ٦٠,٠٠٠ دراخما قد دد جيبى .

وهناك المزيد! تصور أن البطرياركية قد أعلنت في العام الماضي، في القسطنطينية عن مسابقة لتأليف كتب قراءة خاصة بالصفوف الأربعة في المدارس الابتدائية .. أرسلت كتابين .. وأجيزا .. ومنذ أيام قليلة تلقيت برقية من البطرياركية، تطلب فيها مني كتابين آخرين، لأن الكتب الأخرى لم تعجبهم. أمل أن أنجزهما، وربما أرسلهما أيضاً، خلال عشرة أيام .. هي ذي أعمالي وصفقاتي وتبجحاتي..

أنا، هنا، وحدي تماماً. ألهو مع البحر فيغمرنى. أعتقد أنني لا أرغب في غير ذلك. إنه يملأ قلبي مثلما يفعل الحب. لو أنك جربت مثل هذه الفرحة في هيركليون لاغتبطت طيلة العمر. ينقصك تركيز الذهن، والتعلق بأي شيء من أجل هدف ما- البحر، المرأة، الصيدلية^(١) ذاتك، الخ. أنا دائماً، أهيم بشيء ما، ولذلك أقر بالعرفان والمحبة للوجود. هذا التصور ضروري لي، ومفيد، لذلك أقويه وأرعاه باهتمام ومثابرة. ونظراً لوجودي، هنا، وحيداً، كاد يملكني السأم والتعب. لكنني ألقيت بنفسي في البحر. وشيئاً فشيئاً أدركت أنه يملك كل شيء ويستطيع أن يعطيني كل شيء؛ وجدت فيه ألف بهاء وبهاء، زينته برموز وأفكار، ألبسته حمياً خيالي، والآن، بعد تحضيرات واعية، بدا لي مثل عشيقة فاتنة، غنية بالمعرفة، تضمخ قلبي وروحي وتثير أعماق جذور فكري.

إن قيمة الأشياء هي تلك التي نكون أهلاً لإكسابها إياها. كل شيء يشبه ورقة بيضاء ونحن نكتب عليها جملة تافهة، أو مفعمة بالحماسة .. من جانبي أحاول تسجيل الكلمات التالية: «كلما أضفت مزيداً من القيمة على الحياة، ازدادت قيمتي» وأعمل على استخدام حماستي، دائماً، كأداة للاقتراب من الكمال..

٥ أكتوبر ١٩١٤ (٢)

عزيزي،

يتوجب علينا، أنا، أنت، ومانوليس^(٣)، وأندروكليس^(٤)، أن نشترك في مشروع

(١) كان ستيفانيدس يحلم بفتح صيدلية، وتم له ذلك فيما بعد.

(٢) رسالة إلى خ. ستيفانيدس.

(٣) مانوليس جيورجيا ديس.

(٤) أندروكليس كسيناكي، زميل دراسة أشرف فيما بعد على مناجم كازنتزاكي.

مشارك، من دون أخطاء. لا أستطيع أن أكون سعيداً من دونكم. ولكن، لا تقلق، سوف أجد شيئاً ما، يكفي أن تساعدوني..

إنَّ محاولة سجن بعض الكائنات ضمن قوالب عادية يعادل ارتكاب جريمة. إنهم يتخيلون أنفسهم مركز العالم. لكنهم لا يعرضونها لسخرية الآخرين. ومن حقهم أن يكونوا مُلهمين إذ بفضلهم – والآخرين يصفونهم بجنون العظمة – لا يتعفن العالم في قيح المدّعين لـ «الحكمة»، وفي بصاقهم.

أنجليوس سيكليانوس كان من ذلك الصنف. وعندما تم اللقاء بينه وبين كازنتزاكي، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤، حدثت صعقة الحب. وفي هذا المجال يقول كازنتزاكي «وفي الغد، انتعلنا أحذيتنا الحديدية^(١) وقصدنا جبل أثوس».

ولمدة أربعين يوماً جاب الشاعران الجبل المقدس بحماسة ملؤها القلق والغبطة. أن يكون الإله موجوداً في كلّ الأشكال – ديونيزوس، المسيح، هرقل – فهذا أمر لا يشكان فيه قطعاً، غير أن الرعب الأكبر، والشك الوحيد المسموح به هو الرغبة في معرفة مدى قدرتهما على إيجاد الكلمات القادرة على أن تتسع له؛ ومدى استطاعتهما تمجيده برفع كاتدرائية جديدة به وبإيمانهما.

وبعكس غوته الذي كان ينفي وجود غاية في هذه الحياة وعلينا أن نكفّ حتى عن طرح الأسئلة، ذهب كازنتزاكي إلى أن الحمياً الإنسانية ليست فردية البتة، بل هي إرادة الكون التي تتجلى لأول مرة داخل الإنسان. ومن هنا تأتي المسؤولية، والبطولة، والكفاح.. وفيما بعد يضيف: ما من أمل. الحرية المطلقة؛ وبالتالي الفرح!

مقتطفات من يوميات نيكوس كازنتزاكي خلال عامي ١٩١٤ و ١٩١٥.
الجبل المقدس. نوفمبر – ديسمبر ١٩١٤

١٤ نوفمبر. الساعة السابعة والنصف. رحلنا من أثينا..

١٩ نوفمبر. مشهد جميل لجبل أثوس. صعودنا نحو كارياس كان في منتهى الروعة حقاً.. الإغواءات الثلاثة لدى الرهبان هي: المراهقون، البخل، وحب السلطة. تذكر

(١) تعبير متواتر في أغانينا الشعبية.

الطريقة السرية التي اشتكى بها حاجب دير أثينا من تلك الفضائح.

بلغنا دير ايفيرون. عظيم. ويا لها من لحظة إلهية عندما شاهدنا البحر «إخييساً (المدوي) والقمر. في تلك اللحظة كان القمر ينجز ما قُدِّرَ له – بإضاءة الأشياء الأبدية.

٢٠ نوفمبر (دير ايفيرون). التقينا مساء البارحة رئيس أساقفة ليونتوبوليس؛ إنه مثقف جداً. لكنه يكتب رواية أيضاً. الحضارة تفسد كل شيء: صور الملوك، المشاهد الأجنبية، الكهرباء، الخ، الخ..

Ogni mattina io rinasco (كل صباح أولد من جديد)

.. الحياة: مشروع ما ورائي.

.. الحياة الرهبانية، كما هي، جاهلة ولا أخلاقية، أسمى من الحياة الدنيوية.

ويمكن للتقاليد، حتى وإن اختزلت في حركات خارجية، أن تساعد الفنان على ابتكار عمل فني كبير ذي تأثير اجتماعي لا يحد.

أن تكون للمرء فكرة سامية، معناه أنه يتقدم دائماً نحو الشباب.

ليلة ٢٠ نوفمبر ١٩١٤

تحت ضوء القمر، نزلنا السلم، وفي يد كل منا سبحة، قاصدين السهر.

لحظة أبدية – كما لو رفعتنا أجنحة الملائكة.

٢١ نوفمبر. صلاة السَّحَر. نرتل صلوات العذراء..

«السماء والأرض لم تستطيعا احتواءك.

وبطن امرأة اتسع لك».

كثيراً ما نؤنس الإله بدلاً من تأليه الإنسان.

بيوت الرهبان: شقق من ثلاث إلى أربع غرف. كهرباء، جرس تحت المصباح الكهربائي، ستائر، أطقم شاي، مداقيء، خدم صامتون..

٢٢ نوفمبر. محاورات مع الرهبان .. ضعف إيمان. خوف من الفقر. حب للعالم. روح علمية كاذبة. يا للسذاجة!..

هنا يحطم رعب الجحيم الناس. ولا يقدم لهم الدين أيّ عزاء. قلت لأحدهم إنّ المسيح كان يضحك أيضاً، فغضب.

الجمعة ٥ ديسمبر .. الإضافة إلى جوهر الحياة، التعبير عن ذروة طموحنا. متعلقين بإرادة فوق بشرية، نندفع إلى الأمام.

ما من مشكلة أخلاقية تعوقنا؛ وما ظلّ مؤلماً ومتعذراً الحلّ بالنسبة إلى نيتشه وجدنا له حلاً..

٦ ديسمبر. (دير) يوسافيون. عليّ أن أركز ذهني، وأعبر، بصور دنيوية ودينية، عن قلبي المتحرك مثل البحر. أبتكر عملاً أصيلاً من حيث الإلهام والشكل، يحتوي كلّ ما في تنفّسي من حب وحرارة. أبتكر شيئاً ما يجعل سرّ الحياة يتفتّح مثل الشمس، مثل الزنبقة.

٧ ديسمبر . (دير) القديس بولس. الحب هو طريق الخلق الوحيد. ولا ينبغي أن تخالطه التشنجات والصرخات بل يكون عميقاً، واسعاً، هادئاً ومتوازناً. (أفلاطون، دانتي، بيتهوفن، رودان).

٨ ديسمبر... هذا المساء هزّني تولستوي بعمق. هروبه المأسوي - اعتراف بالهزيمة. كان يرغب في ابتكار ديانة فلم يبتكر سوى فنّ وروايات. إنّ أفضل ما فيه - وكان يدرك ذلك - لم يتمّ التعبير عنه.

الأحد ١٤ ديسمبر. [دير] دوخياريو... روى لنا راهب، كان دركياً في السابق، كيف تحوّل إلى رجل دين: قرأ السيرة الذهبية لأحد قديسي القرى، عندما جاء ليعتقل أحدهم. وهكذا بدت له الكلمات أحلى من العسل.

دير خيليانداريو . [قال لنا] باناريتوس: «لم أصر راهباً بسبب الميل بل بسبب الفقر... - وهل أنت راضٍ؟ - بفضل الإله وحتى إذا رأيتني أتنهّد فأنا لا أفعل ذلك تعلقاً بالأرض خسر... عليها كلّ يوم، لكنني أتنهّد تعلقاً بالسماء...»

١٤ ديسمبر . ثمة أناس يقتلون أرواحهم ويموتون فعلاً.

السبت ٢٠ ديسمبر . هذا الصباح قرأنا النشيد الثالث لدانتي. لن أنسى تأثيري أبداً....»

ويختتم :

فكرة: إعادة تنظيم الزهد الهليني، اليوناني. كيف يمكن جعل جبل أثوس بؤرة حياة روحية.

٢٣ نوفمبر . في الليل، نتحدث ونحن في الفراش، عن الخلق. وفي لحظة سريعة. في ثانية واحدة، لا نكاد نبلغ ذروة انفعال حتى يتولد قلق مجبول من فرح وسرّ خفيّ وفضول: إلى أين ستتجه قوة الخلق الحرّة، مستقلة عنّا؟ وما أن نبلغ قمة انفعال، بفضل موضوع معيّن (ديونيزوس) حتى ينبثق فجأة، موضوع آخر، كامل الوضوح، شفافاً، جاهزاً لأن يتحوّل إلى عمل فنيّ. حينئذ نتخلّى عن الموضوع الأول ونتعلّق بهذا العمل..

فليسقط الأدب، والقوالب الضيقة للأجناس الأدبية. ثمة خلاص واحد: معتقد ديني. هو وحده يستطيع احتواء روعي كلها؛ هكذا فقط يليق به الإنكشاف.

٢٤ نوفمبر (دير) ستافرونيكيّا:

(خلق) عمل كامل. مثل ذكر النحل الذي يخصب الملكة ويموت. كذلك أنا، «الحياة الامبراطورية».

ما من نشارة جانبية. كلّ قوتي مركّزة في ديونيزوس والمسيح وثيا^(١).

٢٦ نوفمبر. ليس الخبز ضروريا ضرورة الفكرة.

نحن الآن أكثر ارتياحاً مما كنّا في البداية.

نفس يُخصّب القرون، ويهبُ وجهةً ما لكلّ الأرواح. ما زال المسيح يُحيي المؤمنين.

٢٨ نوفمبر. (دير) باناغودا. - وضع خطة، كيف يتوجب أن تكونَ خلال عشرة أعوام.

٢٩ نوفمبر. (دير) كَارَاكَلُو: في المساء، وكلّنا في سرير، تحدّثنا أيضاً عن رغبتنا الأكثر جوهرية والأكثر سموّاً: خلق دين. كلّ شيء ناضج. أه كيف بوسعنا التعبير عن أقدس وأعمق ما عندنا.

٣٠ نوفمبر. العيش دائماً على القمم. أه، يالسذاجة الضجة المتولدة عن العادة! كيف نخلّص أرواحنا وكيف أرمي بالسهام التي أحتفظ بها في جسدي؟

(١) الحروف الأولى من عنوان عمل أو مشروع عمل، يعتقد ب. بريفيلاكسي أنه «تيوفانو» الذي استبدله المؤلف لاحقاً بعنوان «نيسافور فوكاس».

جبل أئوس . [تأليف] كتاب شبيه بكاتدرائيات رودان: حَجْنَا الروحي إلى جبل
أئوس. كيف عشنا سلالتنا، معتقدات أسلافنا، كيف سَمَوْنَا، في كل مكان، بأرواحنا،
كيف مَجَدْنَا الحياة التي تندفع في السموات مثل سهم من نعمة الإله.

الفن ، هو الإيمان الذي يوجّه فكر الرسّام والمهندس المعماري والملحن، وقاطع
الحجارة. الدين الذي يسمو بكلّ شيء. كيف قرأنا دانتي، بوذا، الانجيل. كيف تحدّثنا عن
اليونان وعن الحياة. العذراء، المسيح، الملائكة، الطبيعة، الهواء الذي لم تدنّسه
المرأة....

ثم تبدأ سنة ١٩١٥ بداية جيدة. ويكتب نيكوس كازنتزاكي واثقاً من نفسه:
دخلتُ دورة الإبداع. كلّ شيء على ما يرام. جسمي سليم، أشجار اللوز أزهرت في
بستاني وروحي مضاءة وواثقة.

عليّ أن أهرم عدّوين: «المدغدغ»، والمتشنج غنائياً، أي المؤقت والتّافه. المجرّد. ينبغي
أن يتحوّل كلّ مفهوم من المفاهيم إلى صورة فنية. سوف أنتصر على كلّ شيء بالتّكشف.

٢٠-١-١٩١٥. تأثر عميق في متحف الأكروبول...

٥-١١-١٩١٥. ينبغي ألا أكتفي، في كل موضوع، بأفكاري المرتجلة، أو حتّى
المتعلّقة ، وإنما أتأهب وأقول : في الأعلى ، في ما هو أعلى ، ماذا يوجد؟ حتّى تبلغ قوتي
سَمْتَهَا ..

فبراير ١٢ مارس. أدرس دانتي. طموحاته تربكني وتستنهضني ..

وبعد جبل أئوس بدأ انجيلوس سيكليانوس ونيكوس كازنتزاكي يفكران في
حجّ تاريخي «بحثاً عن ضمير تاريخهما» كما كتب كازنتزاكي في دفتره : ميسترا ،
اسبرطة ، تايجيت ، ميسين ، دلفي ، طيبة ، ميغا اسبيالون ، الأكروبول ...

وتناوب بينهما الفراق واللقاء الدائم ، والمحاورات المشبوبة ، والرغبة الجامحة
في التوصل إلى توليفة بين بيزنطة وبلاد الإغريق .. الأول في راحة وطمأنينة ، على
ساحل البحر ، وقرب الغابة ، مثل إله معبود من زوجته الرائعة ايفا. والثاني في

شقة برجوازية في أثينا ، صحبة غالاتي ، سعيداً باسترجاعها أملاً إيجاد
الانسجام دائماً ، مستبقاً الكارثة ، مع ذلك ... وأحياناً ترافق غالاتي نيكوس
لزيارة سيكاليانوس حيث تكون ايفا في زيّ تاريخي عتيق ، مع جدائل شقراء
تبلغ ركبتها ، وتستقبل الأصدقاء بروح سيدة مجتمع عظيمة ، وتعلمهم طريقة
درز وفتل الصنادل القديمة.

يوم ١٩ مارس سجل كازنتزاكي في دفتره :

قال لي شاب يدعى مركاتي ، اليوم ، إنني أشبه تولستوي. وكنت شديد التأثر لأن
تطور تولستوي هو ما أسعى إليه.

كلّ تطوري الجديد أدين به لرحلاتي في جبل أثوس ، وميسترا ودلفي ، ولقراءاتي
الأخيرة (برغسون ، طاغور ، كلوديل ، باريس ، أوكن ، الخ ، الخ ...) ولرفقة انجيلوس
سيكليانوس.

وفي هذه الليلة تحديداً - كان كازنتزاكي موجوداً في ميغاسبيلايون - يوم
١٩ مارس ١٩١٥ ، بعد أن استمع إلى الأناجيل الاثني عشر ليوم الخميس
المقدس ، فكتب :

تأثر شديد في الكنيسة. لاح لي المصلوب أكثر قرباً منّي ، أشد شبهاً بي. تأثرت جداً بـ
«الإله المتألم» وقلت في نفسي : فلتأت القيامة مع التّشبّث والحب والجهد. فرح ، انتصار
على الشهوات ، خروج من الجسد ، حرية. بساطة وسكينة متكونتان من جوهر كلّ
الأهواء التي خضعت للعين الإلهية. روح شبيهة بالنور ، شبيهة بماء النبع الصافي.

لن نجد تمجيداً «مسيحياً» من هذا القبيل ، لدى كازنتزاكي ، إلا في «فقير
أسيز». غير أنه استطاع أن يجعل روحه شبيهة بالنور ، بماء النبع الصافي ،
والمحافظة عليها سليمة حتّى النهاية.

٢٠ مارس. أشكرك ، يا إلهي ، لأنك خلّصتني من العلم ، من الحقيقة ، من الفن ، من
الواجب ، من كل الكلمات وكلّ المثل. أشكرك لأنك أنقذتني من موت لا استطيع تحمّله ، إذ
أنه متعارض مع طبيعتي السامية. أنت وحدك ، أبدياً ومشرقاً ، تستطيع تهدئة
الرّوبة العاصفة بقلبي ...

غير أن العاصفة تتربص به :

٨ يونيو (١٩١٠). أه ! الرحيل ، الرحيل ، للخلاص من مجتمع الناس . في بيتي (١) على ساحل البحر ، الهروب (وحيداً مع نفسي) (٢). هذا المساء إنكسرت روحي مجدداً في اتصالات طويلة وتافهة ، في أشياء مجترّة ألف مرّة ، بشاعات ، أهواء صغيرة ..

إلهي ، كيف أنجو ، كيف أخلص من ذلك؟ القرف يخنقني ، قرني تجاه نفسي ، لأنني أنحط ، لأنني إذا لم أسافر ، لن يكتب لي الخلاص ! بي حاجة إلى البكاء ، إلى الصراخ : أه ! كم وددت لو لم أوجد! صرختي تتوجّه إليك ، يا إلهي ، فاستمع إلى رجائي.

وما لبث أن ذهب إلى جزيرة صغيرة ، هي سيفنوس ، حيث أعتكف في دير عذراء الجبل ، من ٩ إلى ١٩ يوليو :

أكتب ، أكتب ، انحلت العقدة وانبجس البكاء. أحسّ بالراحة لأنني كتبت بصراحة مطلقة. وسرعان ما أصابني المرض ، قيء وحمى. الأمر بسيط ، الجسد يغتاز قليلاً أخي الجسد لا حال تدوم.

٢٤ يوليو. أغادر الدير ، غداً ، في أثينا ، حيث أشتاق إلى غالاتي.

٢٥ يوليو. فرحة العودة. دائماً أعود في حال أفضل. أكثر رقة ، أكثر هدوءاً ، أفضل حالاً. ومع ذلك يعود البشر بطبائعهم البائسة إلى تكدير صفائي فأسافر من جديد طلباً للشفاء.

٢٥ - ٢٥ أغسطس. أنا في سيكيا حيث فرحة الحياة. عندي ، متوازنة بشكل إلهي. لا شي . ينقصني:

Laudotosi, misingnore, per it fratello Angelo, che e'bello et robustoso et casto et forte

٢٥ أغسطس. أسافر إلى أثينا. يا لها من فرحة ، يا لها من قبلات سرية ، عندما وحدثني غالاتي ، مساء ، وبشكل مفاجيء ، جالساً أمام الباب المشبك. لكن ، يوم ٣٠ أغسطس . هو اليوم الأكثر فظاعة - مشاحنة فظيعة. سافرنا معاً إلى سيكيا.

(١) كان كازنتزاكي يحلم ببيت في سيكا ، قرب انجيلوس سيكليانوس.

(٢) باليونانية ، مونوس بروس مونون» أي : وحيداً قرب ذاتي.

(٣) حمداً لك يا إلهي ، عنّي أخي انجيلوس ، فهو جميل وصلب وعفيف وقوي.

٣-٤-٥ سبتمبر. أيام مريضة ... رسالة أثيمة. أحسست أن شيئاً واحداً يوجد ،
النور.

لقد فرضت المشكلة الأخلاقية نفسها عليّ بوضوح مطلق وتقبلها بطيبة متشددة ،
بعد معركة فظيعة، تمردت فيها العناصر السفلى على العناصر الأعلى. انتصرت
وأصابني الهزال ، مثل هرقل الذي بعد أن رأى الجيم ، صعد نحو النور.

ودائماً خلف أثر هرقل ، في أولمبيا ، إذ كتب كازنتزاكي :

كم إنَّ الناس يخطئون في حقِّ الوجه المقدس لهرقل ، البطل المتصوف : حياة ملأى
بالزهد والكفاح والأحزان العميقة والتطهر الداخلي النهائي ...

٧ سبتمبر. جولة رائعة فوق التلة التي شاهدنا منها فوهات «الآلفي» ولدى عودتنا
، لمنا أضواء حمراء مثل الزهور ، موزعة على حافتي الطريق. إنهم زوار الاحتفال
الشعبي وقد فاجأهم الليل. وجدت السلوى ، هذا المساء ، في الحب وفي بساطة الحياة.

أن أفلت من شرك المجتمع ، أستمع ، مثل الإله قبل الخلق ، بالصمت العميق
وبالنعمة

٨ سبتمبر ... لم يعد يوجد شيء بالنسبة لي ، إلا عملي. المرأة تصرفت بلا جدارة،
والإنسان انحط أمامي. حاصرتني كل البشاعات ، وثمة خلاص واحد : عملي (الفن
والدين: جوهر إرادتي).

الهروب. وحيداً أمام ذاتي. إهمال التفاصيل ، الدنئات ، تحطيم سلاسل الناعورة ،
لأخلص من كل مشكلة تقنية أو فكرية ، ومن كل وثاق :

(١) «omniveggente, renigator ditutto, di mi maestro» ينبغي عدم نسيان أبرز
ممثلي الفضيلة: المسيح ، بوذا ، ميكائيل ، أنجلو ، بتهوفن.

١١-١٢ سبتمبر. سيكيا. يوم من أشنع أيام حياتي. إنَّ الحياة المشتركة باتت كارثة
لكلينا (٢). «ما هو سام في كلينا لا يمتزج» لا بد من نهاية فظيعة ، هادئة ، محتومة ...

(١) راثياً كل شيء ، طارحاً كل شيء ، سيداً على ذاتي.

(٢) هو وزوجته.

هي أيضاً سوف تشعر بالراحة وأصير سيد ذاتي ، حرّاً. «كلّ أعمالي شعارها وهدفها :
(١) Come l'uomo s'eterna . هذا ما توصلت إليه (٢).

تأسيس ديانة ، تأسيس ديانة مهما كان الثمن ، تلك هي الفكرة. الهاجس
التي سوف تسكن كازنتزاكي طيلة أعوام ، دافعة بميوله الغريزية نحو الزهد
وإنكار الذات عبر الضحك ، إلى حدود قصوى. وعندما يبلغ صفاء الرؤية بعد
معارك قاسية ، ويدرك أنّ «الأسطورة الجديدة» تهرب منه ، يلتجئ إلى الشعر.

في «المأدبة» وهو كتاب يعود تأليفه على الأرجح ، إلى ما بين ١٩١٨ و ١٩٢٠ ،
يذكر كازنتزاكي ، بأسلوب توراتي وعلى شكل اعتراف ، حلمه بزهد أراد أن
يكرس له عامين من حياته ، وفي هدوء جبل أثوس ، ولم يستطع استكمالها إلا
بطريقة متقطعة ، خلال إقامات عديدة في أماكن اعتزال مختلفة. فعمّ كان يبحث
في ذلك التنسك الخيالي ، داخل مضيق عميق وضيق مثل بئر؟

أستجيب إلى ايقاع قاس ، أتطوّع في جيش بدأ السير لبلوغ الأمل الأكثر جنوناً ...
أنتصر بالإيمان ، أنا أيضاً ، كما كان يفعل الزاهدون ، على المماحكة الفارغة والخوف
والموت ...

ولكي يبدأ ، فقد قسم ذاته إلى معسكرين غريمين : الأعلى والأدنى ، الواضح
والغامض ، الروح والجسد ، وجعلهما يتواجهان :

... قلت لنفسي : سوف أذلّ رغبات الجسد وأقلصها قدر المستطاع. فإذا أراد النوم ،
أسهر. وإذا أراد الأكل ، أصوم. وإذا أراد الجلوس ، أقف وأتسلق الجبل. وإذا أحسّ بالبرد
، أخلع ثيابي وأمشي على البلاط ... وعندما أهزم الجسد ، ألتفت إلى الروح وأقسمها ، هي

(١) كيف يصير الإنسان خالداً.

(٢) من بين الأعمال المخطط لها في تلك المرحلة ، لم تُنشر سوى أربعة «المسيح» ، و «نيسافور فوكاس» و
«عوليس» و «هرقل» وهي مسرحيات شعرية ، والملاحظ أنّ «هرقل» نُشرت فقط ، في مجلتيّن تصدران في كريت
وفي مصر ، وما زالت مفقودة حتى الآن.

الأخرى ، إلى معسكرين : أسمى وأدنى ، إنساني وإلهي. وسوف أقاتل الأهواء الذهنية الصغيرة ، القراءة والذكرى والابتهاج بالنصر ، والعدالة ، والصداقة والحنان ، والفرح والحزن.

وعندما أنتصر للمرة الثانية ، أعلن في نفسي عن تقسيم جديد : في الأسفل ، الأمل ، العدو الأخير ، وفي الأعلى ، شعلة الإله التي سوف تلتهمني من دون دخان ولا حركة ، في الصمت وفي الظلمات العميقة.

كلا ! كلا! لن أتوصل ابداً إلى التعبير عن الألم والشهوة في تلك الحفرة العميقة داخل صومعة التنسك. وليس السبب في ذلك أنني لا أرغب ، أو لا أجرو ، بل لأن ذلك الموت يدق عن القبول ، وما من كلمات تستطيع احتواء لذته.

تنتهي «المأدبة» نهاية غير متوقعة. ففي اللحظة التي يظن الزاهد نفسه مستعداً وقد أن الأوان كي :

ينتهي الاحتفال ويدوي السوط في الهواء ، وتندفع روحي ، شرارة عملاقة ، فوق أسوارك يا بابل ، وترتمي في الشوارع كي تحرق آلهة الخشب ، وتذيب عجول الذهب وتطوق خاصرتك ، فتزمرين متوسلة المغفرة...

في هذه اللحظة الحرجة تحديداً ، يحل حلم وينير الفكر المعتم لدى الزاهد: دخلت البيت الأبوي ورأيت والدي جالسا ، كعادته ، متقاطع الساقين ، فوق الأريكة. وما أن رأني حتى وثب بشراسة وصاح :

– أتأتي مرتدياً جبّة كاهن؟ هل شبعت من العالم؟ أين عرفت العالم؟ هل تزوجت؟ هل فقدت ولداً؟ هل جربت الفجور؟ هل عملت؟ أغرب عن ناظري!

وما لبث الشيخ أن جلس وانفجر بضحكة مريعة :

– إلام تدعوني؟ همس. إلام تدعوني؟ إلى عرسك؟ هل أنادي عازفي كمان وراقصين؟ هل أذبح خرفانا؟ ... هوذا ابني ، ابني الوحيد ، يتخذ له امرأة ... فلينجب أطفالاً وهكذا أنتصر ، أنا ، على الموت.

التفت بهدوء ، نظر إلي ، سكت طويلاً. ترققت دمعة من عينيه. لقد تملكه الهدوء والحنان :

- في أية حال جئتني ، نازف الدم ، خائر القوى ، حتى شعرك بدأ يتساقط يا بني ، عيناك انطفأتا ، وأحدوب ظهرك ، وتدنثرت بجلباب ، وصرت تطرق الأبواب مثل شحاذ. هل نضبت سلالتي؟ ماذا فعلت بالدم الذي وهبتك إياه؟

وبكل هدوء تبخر كل شيء ، مثل الندى ، في الهواء ... أه ، لقد علا صوت أبي فجأة ، في عزلتي ، مثل نداء أعلى من نداء المرأة :

- انهض. هل تبحث عن الإله؟ هاهوذا ، إنه العمل ، المملوء بالشراك ، والتحسس ، والعناد والقلق. ليس الإله قوة توصلت إلى توازن أبدي ، بل هو القوة التي تُخل بكل توازن ، من أجل توازن أكثر سمواً في كل مرة. ومن يسلك الطريق نفسه ، في دائرته الوثيقة ، ويكافح ويتقدم هو الذي يجد الإله ويتعاون معه. انهض ، انزل بين الناس ، تعلم كيف تحبهم وتقتلهم - الحب هو الاحترام ، والمحبة والقرف. لا تأمل خلق شيء وحدك. لن تسمو إلا إذا كافحت مع الناس ، مع الرأفة بقلبنا البائس ، والحق عليه. تعال بكل ضعفك وعجزك وأوهامك. سوف تتخلص منها بالكفاح ... انزل ، ابحث أيضاً عن موقعك واضرب. العدو هو الإله الذي يرتدي جبّة رهبان ويمسك بسبحة ، اللّا نظيف ، اللّا - متزوج ، الكسول.

... مرت الأيام والشهور. وحلت الأمراض والهذيان. ثم أقبل الربيع ... في ذلك اليوم قمت بجولة طويلة. تمتعت أنا أيضاً بحرارة الشمس مثل حشرة الأرض ، واستعدت قواي ... إنه الربيع ، فكرت ، «الإغواء الأكبر». هذا الإغواء الذي لا يستطيع الرهبان منعه من تخطي عتباتهم.

تملكني الدوار ، استندت إلى شجرة. تأملت الطيور. تجمع الشعر والقش من التراب وتبني أعشاشها على عجل. كان أديم الأرض مفعماً بالحياة ، يتحرك ويعمل ، وأحسست بنسغ الشجرة التي أستند إليها ، يصعد حتى الذروة ويحاور التربة والحجر والمياه والهواء والشمس كي يصنع منها زهوراً. شاهدت المادة ، العاهرة الكبيرة ، ذات الوركين الواسعين ، تسقط باكية عند قدمي المسيح مثل ماري مادلين ، فتتغير هيئتها تماماً.

شعرت بشفقة عارمة على الأرض التي تحملنا وتغذيها. وحطّ حزنٌ دقيق عن الوصف ، على قلبي ، لأنني أسأت في الكلام عنك ، أيتها الأرض الأم ، أنا الواثب في أحشائك ، ممثلاً بالظمي والندى.

الفارس ، هو الذي يستطيع ، عندما يندفع حصانه ، أن يحمل كأساً ممثلة بالماء ،

من دون أن يترك قطرة تراق. وأنت أيتها السيدة الأمازونية ، حافظي على قلب الإنسان
سويًا ، راسخًا ، ممتلئًا.

يستطيع نشيد ينبثق من قلب طين الحياة أن يقهر أكبر خطيئة مميتة. إلهي ، إلهي
أنصت إلى النشيد الذي تردده الحياة ، وهي في شرك الموت! ... وفي اللحظة ، وأنا منك
بالمرض ، ومفتون بالربيع ، استمعت في داخلي إلى نشيد الحياة ينبثق من ذاتي ، وتردده
آلاف الأفواه ، ومن حشرات ودواب ، ومياه ، وأعشاب ، وبشر ، مثل صلاة ، مثل أمر
وشكوى.

أه ، يا لعذوبة الحياة ! كيف تغني لامبالية - مثل الحسنون ذي العنق الأحمر ،
منتشياً بأريج الأجااص البري وبالعش الدافئ الذي تلمع فيه بيضتان ... «فلاغرد أولاً ،
ثم أحضن البيض ، فلاغرد أولاً!» ولم يفهم بعد أنه يقف على فخّ قناص الطيور ...

لا نعرف من سنة ١٩١٦ إلا العرض العالمي ، في منتصف شهر مارس ، لأوبرا
مانويس كالوموريس : «رئيس العمال» المقتبسة من مسرحية كازنتزاكي.
ونعرف أيضاً أن كازنتزاكي صار عضواً في جمعية العلوم الاجتماعية
والسياسية، يوم ٢٠ أغسطس من العام نفسه.

وفي سنة ١٩١٧ كان هناك «زوربا». زوربا ومنجم الفحم العتيد الذي لم يكن
يوجد في كريت بل في جنوب «البيلوبونيز» ، في «براستوفا» التابعة لـ «مانى» ،
قرب خليج صغير ورائع ، يتميز برمل ناعم وينابيع مياه حلوة تنبجس في البحر
وعلى الشاطئ. وكثيراً ما تحدّث نيكوس عن الماعز التي كانت تأتي وتضرب
الرمل بحوافرها حتى ينبجس الماء. ومازال المسنّون في «مانى» يتذكرون
كازنتزاكي وزوربا وكوخهما. ويشيرون بفخر إلى المغارة التي كان يلجأ إليها
نيكوس للقراءة والكتابة. ويتذكرون أيضاً سيكليانوس ، وصوته المدوي
عندما ينشد أشعاره ، وطريقة نومه على مصطبة صُنعت خصيصاً له ، فوق
الأمواج !

لقد وجدتُ خليج براستوفا الصغير ، كما وصفه لي نيكوس تماماً. غير أن

هناك أمراً واحداً يؤلمني الإفصاح عنه وكتابته - لم يكن لدي ضيعة «ستوبا»^(١)
كسرة خبز واحدة تقدمها لنا. زيتون. طماطم ، وبعض التين. ولأن سكان «ماني»
يعيشون منسيين من حكومة أثينا ، فهم على حق عندما يقولون إنهم يعيشون
«وراء الشمس».

انهار المنجم فتركه زوربا وكازنتزاكي ، أحدهما ارتحل قاصداً مناجم
خالسيديك ، ثم صربيا ، والثاني إلى سويسرا^(٢).

فينا ٢٥-٥-١٩١٧

عزيزي أنغيلاكي^(٣) ... أنا Surheureux^(٤) أي أنني أعيش نوعاً من البؤس والقلق.
أنا وحدي ولا أستطيع الضحك ، وبالتالي الارتياح. حركة موسيقية هائلة. هذا الأسبوع ،
التاسعة لبتهوفن ، براهمز ، شتراوس. والرقص.

«دائماً ، ن»

غريندلولد ٥ أكتوبر ١٩١٧

عزيزي أنغيلاكي ،

«الجبال الظليلة والبحار الصاخبة» توجد بيننا وصوتنا لا يجد صدى ، أنا أزقق
كل يوم ، وأكتب أحياناً إلى غالاتي ، وأحياناً إليك ، وإلى فارانداتوس^(٥) ... غير أنني لا
أملك أية إجابة وأخشى المراقبة الإيطالية على الحدود ، وهي مراقبة متشددة
ولامبالية...

أكتب لي ، أرجوك ، رسالتين شهرياً ، إحداهما ودية ، تتحدث فيها الروح عن الأشياء

(١) ضيعة صغيرة قرب براستوفا

(٢) مروراً بفينا

(٣) محام من آسيا الصغرى. صديق حميم لكازنتزاكي. كان موظفاً في البنك واستقال آنذاك كي يلتحق
بكازنتزاكي في القوقاز.

(٤) بالفرنسية في الأصل ويمكن ترجمتها حرفياً «فوق سعيد» وكأنه تجاوز السعادة إلى نقيضها.

(٥) جان فارانداتوس ، محام ، صديق وشريك في منجم براستوفا.

الأبدية التي تُربكنا أحياناً ... في المساء - والثانية تجارية تماماً ، تلخص سير الأعمال كلها. أرجوك.

لم تتوصل روعي إلى السكينة بعد. وكما قطعة تريد الولادة وتبحث عن موضع مناسب في أرجاء البيت وفي الجوارير والخزائن ، وتحت الأسرة ، ولا ترضى أبداً بسبب القلق والخشية ، أركض أنا أيضاً من جبل إلى جبل وأبحث عن موضع الدُفِية. وأعتقد أن سويسرا ليست مناخي المناسب. لو أن سفاكياناكي^(١) يأتي ، على الأقل ...

زيوريخ ، فريغوتستراس ١٤

٢٧ أكتوبر ١٩١٧^(٢)

... إليك كيف أعيش. مادياً ، تقنين المعيشة الغالية جداً ... روحياً ، حركة موسيقية عظيمة ... وفي المجالات الأخرى ، ما من إثارة عُلَيَّا.

مكتبات ، ولكن كما تعلم ، لم نعد ننتظر أشياء مهمة من الكتب. هناك بضع لوحات في المتحف ، جميلة جداً. إن شاء الله ، سوف أذهب إلى باريس في الربيع: هناك فقط ترتاح روعي ...

١٥ نوفمبر ١٩١٧

عزيزي أنغيلاكي ،

... هنا في زيوريخ ، أسكن في القنصلية العامة لأن القنصل صديق عزيز ... أحتاج إلى مجموعة من الرجال المسكونين بالرفعة القصوى وباشعاع الإيمان والفرح والانضباط. أعمل وحيداً ، أتجول في الجبال، وأحياناً يلوح لي وجه نيتشه، مربكاً مثل حدس موجه. لذلك أريد أن أحصن نفسي وأذهب إلى جبل شاهف جداً كي أتمكن من حمل عبء قلقي وطموحاتي من دون انحناء، أذكرك دائماً بتأثر عميق، لأن ما يجمعنا هو شيء في منتهى الصوفية والتجانس، نفس الحنين الذي «لأما ماتر» وللشرق. هنا، أعني جيداً تفوق عرقي وعندما تتلاشى كل هذه الحضارة الافرنجية عن وجه الأرض الرائع، نعود نحن،

(١) كوستا سفاكياناكي ، استاذ موسيقى وملحن ، وصاحب ثقافة واسعة.

(٢) رسالة إلى جان أنغيلاكي.

الشرقيين، كي نجدد بذار الحياة. سابقي هنا، أنا الشرقي، ومثل العنكبوت، أكل قلبي
كي أنسج، بصلابة، سلسلة الأمل الجديدة..

زيورخ ٥-١٢-١٩١٧ (١)

أنجزت عملاً، هذه الأيام، وبدأت بآخر، وأشعر بكل الغثيانات والانفعالات العصبية
التي تتملك المرأة الحامل، وسوف أذهب غداً إلى «أروزا».. وإن شاء الله سوف أجد ما
أبحث عنه، وأعود إلى دحرجة صخرتي السيزيفية..

روحي مثل روح المسلم عندما يصلي، متجهة نحو الشرق. أه، في الضباب الكثيف، في
الرطوبة والثلج، لينبثق الجبل الأزرق، البحر، خرقة حمراء فوق نخلة، الرمل الساخن،
القوس العربي، الفلاحة بجرتها على رأسها، حافية القدمين، سمراء، ناهدة. روعي
تشتعل مثل دمشق في منتصف النهار، وتجرتني رقصة زنجية في اصابعي العشر، بينما
أنا جالسٌ بهدوء في مسارحهم، أقام أفكارهم الصغيرة الهزيلة، ونساءهم السمينات
الشاحبات وأسنانهم الذهبية. أه! يا لروائع الميناء الشرقي، ببرتقاله وبطيخه المتعفن،
وزوارق «القايق» المتأرجحة ذات اليمين وذات الشمال، والأقدام الحافية الملطخة
بالوحل!... هذا ما أعطتني إياه أوروبا - الأشمئزاز من كل ما ليس شرقياً ينتمي إلى
جنسي. لقد وجدت نفسي، أنا المنحدر من سلالة العرب، على جزيرة كريت الأفريقية. وإن
شاء الله، إن شاء الله يتحقق سفرنا إلى الشرق ما دام دمنا «يعيش ويحكم» (٢).

ويزداد إيمان كازنتزاكي بسلطة الروح المطلقة. إذا عرف المرء كيف يريد شيئاً
فإنه يحصل عليه. بل يستطيع سحبه من العدم. فكرة طالما كررها في
«كريستوف كولبوس» (٣).

(حاول كريستوف كولبوس، في البداية، إقناع رئيس دير عذراء الأطلسي، والقبطان
ألونسو والقبطان خوان، ثم ايزابيل نفسها فيما بعد).

كريستوف كولبوس (غاضباً):

جيل بلا إيمان، ملوث، كافر بالنعمة، محكومٌ بالموت!

(١) رسالة إلى ج. انغيلاكي.

(٢) تعبير يوناني شعبي.

(٣) «كريستوف كولبوس أو التفاحة الذهبية» مسرحية لنيكوس كازنتزاكي.

هذا الجيل يتحدث عن الجنة الأرضية ويشرع في الضحك!

أبدأ، يا قبطان ألونسو، أبدأ، يا قبطان خوان، لن تجدا الأرض الجديدة، اعلمنا بذلك مني، لأنكما لاتحملانها في أحشائكما!

الأرض الجديدة تولد أولاً في قلوبنا، وبعد ذلك فقط تنبثق من البحر...

ويتوجه إلى ايزابيل التي لا تصدق وعود كريستوف كولمبوس:

إننا نقول «غير موجودة» عن كل الأشياء التي لم نرغب فيها بعد... إذا كانت لا توجد [الجُزر] فلماذا وُلدت؟ إنها موجودة لأنني موجود!

سعيدٌ هو، يا ملكتي، من يحمل حلم الليل طيلة النهار ويجهد كي يحققه.

هذا هو الشباب والإيمان، وبهذه الطريقة وحدها يكبر العالم...

١٩١٨ - يوم أول يناير، يقوم جان استافريداكي، وميشال غونالاسكي، والأنسة م. ك.، ونيكوث كازنتزاكي، برحلة عبر الجبال السويسرية: كوار، ماران، بيتر مولينيس، دافوس بونتريزينا، سيلفابلانيا... قمم شاهقة، تطلعات ومحاورات راقية، ويحدث سوء تفاهم أو تأسف أحياناً، لكن من دون سطحية أو أفكار دنيئة.

ويدون كازنتزاكي ألوان القمم، وأشكال الأشجار المتبلورة، والسيول المتجمدة، والقمر، والفجر، والطائر الوحيد، الذي يحلق على امتداد الثلج الواسع، حركة بُنيةٍ قدمت له باقة زهور... مساء ٩ يناير في بونتريزينا، داخل الفندق الفارغ، لم يحتدم الحوار، فاقترح نيكوس أن يتحدث عن الحب. وجرت قرعة وكان هو أول من افتتح النقاش:

أمثال الحب بالوثوب الحيوي، (١) النبات، (٢) الحيوان، (٣) البشر، (٤) تزاوج الأرواح الذكرية والأرواح الأنثوية، (٥) توحد مؤسسي الديانات... وأضاف إن العلاقات بين الناس الذين مثلنا لا ينبغي أن تكون جسدية، بل نفسية، متضمنة كل أهواء الحب... فاحتدم النقاش، واحتج الجميع قائلين إن كل هذا الطرح معارض للطبيعة،

وتضحية مريضة ، ويضفي طابعاً دينياً على مجموعتهم. أجبْتُ بأنه يتوجب علينا التضحية بالسعادة الفردية وتحويل الأهواء ، ونستطيع خارج دائرتنا فقط ، أن نعقد صلات دُنيا ... علينا أن نضاعف جهودنا كي ننقذ فضيلة تطلعاتنا.

١٠ يناير. وصلنا إلى سيلفابلانا. أفكر بشدة في نيتشه ، وفي لُوسالومي. غادرتنا غونالكي. حزن الوداع

مرّت الأيام وزادت الجماعة السعيدة سانت مورينز وبيغريس وتيافنكستل ... مشاهد خلابة ، محاورات نصف جدية ، نصف ايروسية مع الفتاة ... عودة إلى زيوريخ ، حفلات ، مآدب ، أحزان...

١٣ فبراير. تقابلت مع «أ». كانت الأمطار تهطل. ذهبنا إلى «هول ستيوب». كانت ترتدي مجرد فستان من القطيفة السوداء، وعلى جيدها العنبري تبرز دنتيلا بيضاء ناعمة. عيناان جميلتان تشعان ذكاء. احتسينا زجاجتي «ديزالي» وتناولنا أكلة «الفوندي». مرح، ضحك. اقتنيت لها قرنفلة حمراء: بشارة.

أعقب ذلك علاقة حب دامت أربعة اشهر. تخللتها فترات يسر وعسر. فترات يظن المرء فيها أنه اقترب من السعادة، وأخرى يشعر فيها أنه وحيد ويائس. يوم ١٤ يونيو، سوف تسافر «أ» فجراً. وتعود الدفاتر إلى تسجيل انتظام الرحلات عبر الجبال والوديان. ولن تذكر أية كلمة أخرى عن الفتاة المتعالة التي تقبلت خلال تلك الأشهر الاربعة ان تعيش متلقية بركة، أو لعنة، رجل مهم ...

ومن أجل الاقتراب من حالته الروحية في تلك الفترة الدقيقة، وبالنظر إلى أن أية رسالة عن تلك الفترة لم يتم إنقاذها، سأجمع في مصادفة عشوائية بعض الجمل المستخرجة من أربع أوراق مزدوجة ومنتزعة من دفتر مدرستي، احتفظ بها كازنتزاكي.

١٥-١٦ فبراير: في مطعم أوستر، أضاءتها الشمس ... جميلة جداً وقد قلت لها ذلك.

١٨ فبراير^(١). في القنصلية اليونانية، حول مائدة الغداء. بلا حراك، شاحباً شحوب الموت، على عتبته. أختنق. قلت لنفسي: علي أن افتح الباب وأغادر هذه الأرض. أختنق!

(١) انه يوم ميلاده، وبالتالي، فهو، كما اعتاد ذلك، يوم امتحان ضميره واتخاذ الكثير من القرارات الكبرى ...

٢٠ فبراير... حدثتها عن انشادادي إلى الدائرة الأكثر سقواً وإشعاعاً للألوهية، وكيف أن الفن لا يسعني. أتخلّى عن الربح المؤكد لأنني مقتنع بأن «عشرة انتظارات أفضل من خمسة مؤكّادات...»

حدثتها عن أسلافي، العرب، والأمر الذي تلقّيته كي أحاكهم وأحرق سفن أمالي وأغزو كل «كريت» جديدة، بإجبار روحي على الاندفاع نحو ذرى جديدة.

١١ مارس. يوم رائع. في غاندريا وثب قلبانا. قلنا: هنا نكون سعيدين. عدنا سعيدين ...

١٣ مارس. تحدّثنا عن الحب. قرأت «مأدبة» افلاطون. الحب الصريح أفضل من الحبّ المتستر ... ناكفتها لأنها متحذقة وقلت لها: أريد أن أكون قبطاناً في السفينة التي ترسلها ملكة سبا، كل ثلاثة أعوام، إلى سليمان، محمّلة بالقروود والطواويس...

١٧ مارس... يوم جميل جداً. يفترسني همّ البحث عن مبرر جديد لوجود الحياة. قلت لها: الآن صرت أفهم الإله بشكل أفضل لأنني أعمل مثله، بتعدد وجوهه. وسلكننا معاً درب الحب. لم أعد قادراً على القيام بما هو مؤقت وزائل. أهب نفسي كاملة في كل خطوة...

١٩ مارس. استثارة فكرية كبيرة. جسدي يذوب مثل فتيل الشعلة. أحس بالإله يتغنّح حولي مثل امرأة وأريد الإمساك به لحماً ودماً. قرب المدفأة في «سيهوف» كنت أرتجف بكاملي...

٢٠ مارس. اليوم قلت لها: «أه، لو كان معي، حول مائدتي، أربعة رجال، كي أتحدّث معهم وأجبل الإله!» ارتعشت مدركة مدى بُعدي عنها، بعدي الشديد، إلى حدّ الانفصال المروّع ...

وسوف تعود «أ» بعد تسعة أعوام، متزوجة وأماً لطفل، أما نيكوس كازنتزاكي فقد دفع المرساة وأبحر وحيداً في بحر «أوديسته» التي كرهتها تلك المرأة إلى حدّ رفض الاستماع إليه وهو يقرأها لها..

لقد تألم كازنتزاكي كثيراً، ولأسباب عديدة، وكثيراً ما أوحى لي بذلك في رسائله. كل النساء اللاتي أحبّهنّ حتى ذلك الوقت حثّنه على العمل. كلهنّ، ما عدا واحدة: إلسا. وإلسا بعيدة... المنال.. وكانت كل واحدة منهنّ، تحبّه بطريقتها الخاصة وتأمل مع ذلك أن تراه يغيّر من طباعه «كما لو كان في الإمكان مطالبة

شجرة موز بإعطاء برتقال» (١).

نعم، لقد تألم كثيراً، لكن ذرة واحدة من المرارة لم تبق في روحه. فلا وجود لكائن يحبّه ويتركه يشتكى من قلة الاحترام والعطف. وأكثر من ذلك: لقد علّمني كيف أحبّ كلّ النسوة اللاتي أثريته وصقلته مثلما تفعل الموجة بالحصاة، والأصابع البارعة بحبة العنبر...

أثينا، ٢٨ سبتمبر ١٩١٨

عزيزي أنغيلاكي

لقد جئت إلى أثينا لمقابلة وزير الخارجية (٢) ولسوء الحظ لم أتمكن من ذلك، فبقيت في موقع الحيرة، يملأني شعور بالاشمئزاز إزاء التغيرات التي لاحظتها هنا، وإزاء المتكالبين ومحدثي النعمة. تحصلت على رخصة من الحكومة السويسرية لاستيراد ٥٠٠ طن من الخروب... وأنا أعمل مع شركة يونانية سويسرية متخصصة في تجارة الخروب والزيت والتبغ. ومن المفترض أن تحصل اليونان، في المقابل، على الحديد، وبعض الآلات، والنسيج والأدوية وخشب البناء الخ، الخ... إذا استطعت الحصول على إجازة عدّ إلى أثينا لبضعة أيام حتى نتفق.... لأن الأمر يتعلق بصفقات كبيرة...

سواء أكانت «صفقات» كبيرة أم صغيرة، فقد كُتِبَ عليك في «الكتاب العظيم» ألا تحصد منها شيئاً، يا عزيزي نيكوس. فهل تتذكر «مقبرة أمالنا»؟ والخطة الخمسية التي علّقته فوق سريرنا، في غوتسغاب «على ذروة السعادة في تشيكوسلوفاكيا»؟ لقد كانت ترسم قائمة بكل ما يتوجب علينا إنجازه، والأمانى التي من حقنا تقديمها كي تتحقق خططنا.

كَمْ كنتُ أنتظر ساعي البريد بلهفة آنذاك! كان يأتي من البعيد، مع الشمس أو برفقة الزوابع الثلجية، وعندما تنزّ خطواته على السلم الخشبي الضيق، أسرع إلى لقائه. غير أن كلّ الأفاق ظلت مغلقة، من كلّ صوب... ومع ذلك فإن أفكارك وكلّ ما كنت تقترحه، حقّه آخرون.. أفلام، سيناريوهات، كتب، منشآت جامعية،

(١) جملة كان نيكوس كازنتزاكي يحبّ ترديدها.

(٢) فينيزيلوس.

اتحاد دولي لحماية السلام... وثمة من حقق ذلك انطلاقاً من تصوراتك وخططك نفسها، من دون أية إشارة إلى إسمك. ذلك ما لم نكن نتوقعه آنذاك. أتذكر فقط كيف كنت تنهض من نومك أكثر تصلباً من عادتك، كي تضع صليباً أحمر كبيراً على الأمل الخائب. ولم تمض السنة الأولى كلها عندما حصلنا على مقبرة ظريفة تزينها الصليبان القرمزية.

لقد تَلَأَفْتُكَ الثروات الملموسة إلى الأبد. ومع ذلك زارتك المعجزة، مراراً، وجاءت لتحنني أمام بابك، مثل جمل ينتظر أن تمتطيه.

من زيوريخ كنت تنادي الشرق بصرخات مدوية. فجاء «بطريقة أخرى»، كما يليق، من دون فولكلور أو أحلام يقظة تجاوزها الزمن، جاء مع مشاكله الحارقة، والجديرة وحدها بفكر ثاقب.

وعندما عُيِّنَ كازنتزاكي مديراً عاماً في وزارة الاسعاف الاجتماعي، بتوسط فينيزيلوس، هياً بحماسة خطة شاملة لإنقاذ اللاجئين اليونانيين في القوقاز.

أثينا ١٠ يونيو ١٩١٩

عزيزي انغيلاكي، أنا سعيد بكثافة انشغالي، أفعل الخير من دون عراقيل كبيرة... اليوم تلقيت من أيدييوس برقية من الوزير. وهو يصدّق على تقرير المتعلق بتنظيم لجنة لإعادة اللاجئين^(١)...

إنّ الكفاح والاتصال بالناس يُريحانني جداً، وكما تتقوّى أنت، بالسباحة في البحر، اتقوّى من جانبي، بمصارعة بني البشر... أعمل كثيراً في الوزارة، حتى في الليل.... وفي أعماقي، يلمع وجه الإله.

(بلا تاريخ) (٢)

مشروع الرحلة يسير جيداً. أدرس كلّ مشكلة مدة خمسة أو ستة أيام، ثم أقدم

(١) أرسلت اليونان بقوات لمحاربة الاتحاد السوفياتي، فبدأ البلاشفة يزعمجون اليونانيين في القوقاز.

(٢) رسالة إلى انغيلاك.

مذكرة للوزير أعرض عليه فيها كل الحلول الممكنة... وأشير عليه بالحل الأمثل في نظري. وهكذا أدلي برأي فيبدي ارتياحه. وكثيراً ما يرسل بهذه المذكرات إلى فينيزيلوس^(١) مبتهجاً. لهذا يتقبل خطتي الخاصة بالشرق...

توصيني بالآأرهق نفسي. إن الحرية واللذة، بالنسبة إلى تكمنان في العمل إلى حد يتجاوز واجبي، وعندما تنتهي ساعات العمل ويذهب الموظفون «الثانويون» مرتاحين، أبقى حراً وأعمل تحت جناح الإله العظيم. أفكر فيك كثيراً واتذكر «السفر الكبير» - سماء الشرق ليلاً، الهلال، القرى الوسخة، أقمشة الكاليكوت الملونة والمناهل الظليلة في منتصف النهار...

(أثينا، بلا تاريخ) (٢)

أنا أيضاً، أجلس إلى هذا المكتب، والشرق كله يرقص فوق هذه الوثائق، والمذكرات، وسجلات السلاجئين. أعمل بطريقة رائعة. أنهك نفسي. وعندما أذهب إلى المكتب أثب مثل أيل وأقول لنفسي: أم، متى أشرع في العمل، وفي توجيه بعض الناس، وأرى إرادتي متجسدة في أعمال يومية وأعاين بذلك قيمة روعي. وزير ي حضر غداً. إنه يوم التقرير المخيف. نعم، أو، لا، سوف نرى. أذهب كل يوم إلى الوزراء وأناضل من أجل تحميسهم.

أتناول العشاء في مطعم اسفيكاكي^(٣) ثم أعود فوراً إلى الوزارة حتى منتصف الليل. أحس بدوار الإنهاك اللذيذ. لقد ضعفت كثيراً - وهذه طريقة من الطرق التي يبذل فيها المرء دمه من أجل وطنه...

بسرعة فائقة، ٢٥ يونيو ١٩١٩

عزيزي أنغيلاكي. سنسافر خلال عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً، على الأرجح. سوف أعيذك في القسطنطينية، في مركز القيادة، هناك... أما أنا فسوف أتقدم باتجاه روسيا - القوقاز - وفي «الجسر»، حيث سأنشئ مصالح أخرى.

يجب أن تصير موظفاً معنا. وسوف تعين رئيساً للقسم «أ». وعندما أسافر أريد منك أن تعوضني كمدير، لأنني منزعج من ترك الأعمال التي بدأتها هنا، نصف جاهزة...

(١) كان فينيزيلوس آنذاك، في باريس، يشارك في «مؤتمر السلام».

(٢) رسالة إلى أنغيلاكي.

(٣) مطعم قريب من الوزارة.

«أزرع في كل الرياح» ذلك ما يصلح شعاراً لكازنتزاكي. فالرجل ذو الإرادة الحديدية، الرجل الذي لا ينهك، لم يتوصل قط إلى ملازمة موقعه بعد إنجاز مهمته. إذ سرعان ما يتمرد روحه وجسده، وتسكنه الحمى. وليس العمل الجنوني هو الذي ينهكه، بل الرتابة والمقعد المريح. إنه يشبه حاجاً يهرب، أمام بركة ماء، خوفاً من رؤية وجهه، مدنساً بالماء الأسن. هل هناك رغبة في رؤيته ينتعش من جديد؟ تكفيه حجرة ضيقة على شاطئ البحر، أو على قمة أحد الجبال، وقلم وورق، وفواكه كثيرة، وكائن بشري يحبه ويقف إلى جانبه، وها هو ذا نشطاً ومستعداً ومعافى، مزدرياً الزمن ومزدرياً ذاته، غير أمل في شيء، غير مطالب بشيء، غير قابل للقهر. ممضياً أياماً وشهوراً وأعواماً، إذا لزم الأمر، في ملاحقة الكمال.

مع ثورة ١٩١٧ طلب اليونانيون المقيمون في ما وراء القوقاز - أرمينيا، جورجيا، أذربيجان - وكذلك في ايكاتيرينوسلاف ونوفوسبيرسك، من الحكومة اليونانية أن تعيدهم إلى بلادهم، بسبب مطاردة البلاشفة والأكراد^(١) لهم. ومعنى ذلك أن أولئك الفلاحين المتعودين على أراضٍ خصبة، سوف يعيشون على أراضٍ غير خصبة في اليونان، وفي ذلك مراهنة خطيرة. وأدرك كازنتزاكي فوراً فداحة المشكلة، ووافق فينيزيلوس على قرارات مديره الجديد في وزارة الاسعاف الاجتماعي.

ولا يتكلم كازنتزاكي بطيبة خاطر عن نفسه. وحتى عندما ينتقل بنا الحوار إلى تلك الأعوام التي كرّسها للعمل الاجتماعي، يتذكر، بوجه خاص، التأثير البالغ الذي استقبلت به اللجنة اليونانية لإعادة اللاجئين في باكو وتفليس وسوهوم واريغان والقسطنطينية... نعم، في القسطنطينية. إذ كانت اليونان آنذاك لاتزال تعيش حلمها الكبير الذي عاد يتحقق في زمن فينيزيلوس: إنشاء دولة تتمتع بالحكم الذاتي على «الجسر» ويكون الهدف منها توطين اليونانيين القادمين من القوقاز «هؤلاء الحراس الرائعين للتخوم اليونانية».

(١) شاهد كازنتزاكي يونانيين مقيدين مثل الدواب من قبل الأكراد.

ومن أصدقائه الذين ساعدوه على إنجاز مهمته، هناك ثلاثة انتقلوا إلى الضفة الأخرى، وهم هيرقليس بوليمارخاكي، العملاق الكريتي، الذي كان يشغل رتبة مقدّم (في مجال العدالة العسكرية)، وجان ستافريداكي، وجورج زوربا. وما زال على قيد الحياة جان انغيلاكي الذي سيدخل عتبة التسعينات قريباً، وجان كونستانتاراكي، زميل نيكوس كازنتزاكي أيام الدراسة ومدير بنك بارز في أثينا. ويتفق الاثنان على القول بأن كل شيء قد سار وفق الخطط التي وضعها كازنتزاكي. وأن مهمتهم دامت حوالي سنة ونصف السنة، وقد أسعفوا آلاف اليونانيين، وأعدّوا مستشفيات، وتم نقل الراغبين في مغادرة روسيا بنظام كامل - حيوانات، آلات، بشر، تم نقلهم على متن بواخر يونانية ...

غير أن فينيزيلوس أُجبر على الاستقالة، وقد تألم، لذلك، كل اللاجئين الموظفين في ثيساليا الغربية ومقدونيا، ودفعوا ثمناً باهظاً ...

فهل هذا هو السبب الذي جعل كازنتزاكي يتحاشى الموضوع؟ ... وكان يمكن اعتباره لامبالياً ومترفعاً عندما التجأ مجدداً إلى عزليته. غير أن الرجل الذي يسجل في دفاتره «حتى لا ينسى» طيبة سيكليانوس الذي ينهض فجراً كي يوقظه، كما يسجل ترقق دمعة في ساعة وداع، أو بقعة حمراء على كتف امرأة يغازلها، أو حركة طفلة تقدّم له باقة زهور برّية، هذا الرجل الذي يعتبر النسيان بمثابة خطيئة مميتة ومهرباً للجبناء، كان يدوّن عذاب العالم: ظلم وراء ظلم، جريمة وراء جريمة، انتصارات نادرة، هزائم شخصية، كلها تنطبع في دماغه ولا شيء يمحي.

من ستافريداكي الذي حصده الموت في زهرة شبابه، إلى فارفارانيكولايفينا التفليسيه، ذات العينين السوداوين الواسعتين على شكل زورق صغير، التي تجرّأت على مطالبة بهجر كل شيء من أجلها، وزيّنت مكتبه، يوم الرحيل، بورود حمراء، لا أشك في أنه حملها معه كما لو كانا لوحة زيتية رسمها غوستاف مورو. هو، بعيد، وهما متجاوران، يمدّان إليه يداً، أحدهما أسمر مثل خبز طفولتهما، والأخرى مجبولة من صدف ولؤلؤ، غريبة متلاشية، وغمامة شعرها الطويل،

السوداء طائفة في الريح، ضائعة إلى الأبد، مبتعدة عنه إلى الأبد.

وهذا الصدر الذي يختزن كل انفعال، كثيراً ما أوشك على الانفجار بسبب ثراء الذكرى. ومع ذلك فإن رجل الآداب، الذي يكره الأدب، لم يكن ليفتح المغلق إلا إذا توضحت رؤاه من دون إنهاك، وتخلصت من كل مادة معرقة، تجعلها غير نفّاذة. كثيراً ما يُقارن بفكتور هيغو. لكنه أقرب إلى هوميروس. وعندما ينجز لوحاته بضربات هائلة من الفرشاة يصير أقرب إلى بيكاسو غرنیکا، أو أحد رجال الكهوف.

لقد تضاعف تدريجياً تعلقه ببناء الكلمات حتى وإن شابته الكاتدرائيات. ولم يعد يثق إلا بـ «الكلمة» المشغولة والناضجة في أعماق ذاته، مروراً بإنبيق القلب والصليب.

وغالباً ما تحزنني رؤية أعمال جيدة يلقي بها في سلة المهملات، فأسأله:

– لماذا تعمد إلى التمزيق مرة أخرى؟

– لقد أفرط الدماغ في إملائها، يا لينوتشكا، ولم تأت من صُلبي بعد.

لذلك لم يظهر عمله «المسيح بعد الصليب» إلا بعد عشرين عاماً. إن بوب (أي الكاهن الأرثوذكسي) غريغوريوس – «الآكل وحده» واللاجئين المصلوبين والبوب فوتيس العادل، ومانوليس الثائر الملهم ورفاقه من الحواريين المبشرين، ليسوا حقيقيين، لكنهم صاروا كذلك. وتجمع الصحافة الأجنبية على اعتبار هذا العمل رائعة فنية. ويعلن ألبير شويتزر أنه لم يقرأ شيئاً مؤثراً أكثر منه. وهلت له الكنيسة المسيحية الشقيقتان، الكاثوليكية والاصلاحية (البروتستانتية)، بل وأوصتا بقراءته. وحدها الشقيقة الثالثة، أي الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية^(١) اتهمت الكتاب بالتجديف. بل إنها جهزت عقوبة الحرمان الكنسي وإعلان الحكم. غير أن التدخل السري للأميرة ماري بونايرت أنقذ الكنيسة والحكومة اليونانية

(١) باستثناء بطريرك القسطنطينية الذي ذهب به الأمر إلى نصح كنيسة كريت بدفن كازنتزاكي وفق الطقوس الأرثوذكسية.

من ذلك الخطأ.

١٩٢٠. بعد استراحة قصيرة في أثينا، التجأ كازنتزاكي إلى جبل البرناس، وأقام في أحد أديرة دلفي، ثم كريت، حيث أقام أيضاً في أحد الأديرة. وهناك عاد إلى كتابة مسرحية «هرقل» التي أنهاها ثم أرسل بها إلى مجلة كريتيّة.

ويسجل في دفتره :

٢١ أغسطس ١٩٢٠. غالباً ما أذهب إلى بيتنا الريفي لرؤية أهلي، أمي ملفوحة بالشمس، مشرقة، عنيدة، سليمة. ووالدي، مسودّ تماماً، صامت، متقلب، فظ، يراقب العمال الذين يجنون العنب. أنظر إليه منصرفاً إلى مهمته وأقول في نفسي: كم يشبهني من حيث المجابهة والعناد والتفاني! ومع ذلك ما أبعد أحدنا عن الآخر! ويكفي أن يتحول العنب إلى رقصة نساء في فيينا، أو بيت صغير للتنسك حتى انكبّ على مهمتي بالحماسة ذاتها.

٢٩ أغسطس ١٩٢٠ [دير] فرونديسي. صلاة الستار (العصر). يدخل النسيم من النافذة المفتوحة إلى الكنيسية، ويقلب صفحات كتاب المزامير الموضوع على المقراً. في السماء، أمام الموقد، يمسك لي حامل المصابيح قنديل الزيت كي يضيء لي أثناء تسجيلي بعض الملاحظات حول «هرقل».

١٩٢١. لم يعد إلى أثينا إلا من أجل الاستقالة، وكان ذلك أيضاً شأن وزارة فينيزيلوس، يوم ٦ فبراير ١٩٢١. وسوف يسافر إلى باريس، وألمانيا، ثم إلى البندقية، ليعود مرة أخرى إلى بيته الذي لم تعد ناره تدفئه، فيرتحل صحبة كوستا اسفاكياناكي إلى كيفسيا، في سهل أتيكا، تحت ظلال الصنوبر. وهناك يتفرغ للعمل وللمحاورات المثمرة، وزيارات سيكليانوس، والنزهات الطويلة المعطرة بالمصطكا، والزعر البرّي والقويصة. وذلك التراب الخفيف الذي ترفعه الرياح في غيمة شفافة وعطرة، مناسب للتأمل. كان يمكن للمسيح أن يولد في أتيكا. وهو في ذهن كازنتزاكي على الأقل، يعود إلى العالم ويُصلب من جديد ويبعث في «المسيح» أي المسرحية الشعرية التي كتبها كازنتزاكي في كيفسيا، صيف ١٩٢١.

وخلال ذلك العام البعيد اخترق كازنتزاكي الذي بلغ ٣٧ عاماً، طاقاته ودون

محاورة، جرت في كريت، بينه وبين مانوليس جيورجياديس، يوم ١٨ أغسطس ١٩٢١ :

لا أهدف الفنّ للفنّ، بل أريد إيجاد معنى جديد للحياة والتعبير عنه. ومن أجل بلوغه هناك ثلاثة دروب : (١) درب المسيح: متعذّر البلوغ. (٢) درب القديس بولس (مزج الفنّ بالفعل: رسائل شعرية تقويّة)، لكننا نحتاج إلى مسيح. (٣) درب الفنّ والفلسفة (تولستوي، نيتشه). سلكت الدرب الثالث ولهذا فإن كلّ ما أكتبه لن يكون كاملاً من زاوية الفنّ، لأنّ نيتي تتجاوز حدود الفنّ.

غير أنني أشعر بمزيد من الراحة ... عبر الكتابة، وأدرك جيداً أنّ ذلك غير كافٍ البتّة. ومن أجل بلوغ هديّ يتوجب عليّ أن أقوم بوثبة. وبعد إنجاز هذه الوثبة - ولا يمكن أن تكون وثبة فنّ، بل هي وثبة حياة - سوف أتوصل إلى تعبير عن روحي، قد يكون فعلاً وتبشيراً، وليس أدباً.

فهل أكون قادراً دائماً على تلك الوثبة؟ إنه لأمر شبه مستحيل. وهنا تكمن مأساة حياتي.

ولدى وصوله، ذات مرّة، بغتّة، إلى أهله، كتب :

كانت أمي تستعد للذهاب إلى صلاة العصر. وعندما دخل والدي ورأني فجأة، اضطرّ إلى الاستناد على الباب. كان عاجزاً عن الكلام من شدة التأثر.

وبرفقة لفتيريس، عاد كازنتزاكي إلى نزهاته الطويلة :

«صرت أتردد على زيارة أهلي، وكرومنا ...» كما دوّن في دفتره، ليضيف :

٢٢ أغسطس. انفصال مؤلم عن والدي. لأول مرة يقبلني والدي على جبیني. أما والدتي فقد رافقتني حتى الدرب المغبر. مرارة لا تطاق. أفضل للمرأة ألا يولد.

١٩٢٢-١٩٢٣ لم تترك زوجة كازنتزاكي الأولى من رسائله إليها سوى ثمانين رسالة تغطّي بضعة أشهر من العامين ١٩٢٢ و ١٩٢٣. وما سبق لنا إدراكه، يتضح جلياً من تلك المراسلات : أنّ كازنتزاكي مازال يحبّ زوجته ويُعجب بأفكارها اليسارية وأن الحياة الزوجية صارت مستحيلة، وأنّ زوجته

كانت تسوق كل أنواع المبررات كي لا تسهر على مرضه في فيينا برغم دعوته إياها بالحاح.

وقبل أن يغادر اليونان، مرة أخرى، أراد ترتيب وضعه المالي. وبالنظر إلى نجاح كتبه المدرسية الخمسة، فقد اقترح على أحد الناشرين سلسلة كتب تاريخ للمدارس الابتدائية. ووافق الناشر. ونستنتج من مراسلاته أنه ألف تلك الكتب، بل وأرسلها بالبريد طي مظاريف مسجلة. غير أن زوجته أكدت أنها لم تتسلم تلك الكتب قطعاً. وهكذا ضاع جهد آخر كبير ومضن، بسبب مصير أعمى.

من ١٩ مايو إلى ١٩ أغسطس، أقام كازنتزاكي في فيينا. وهناك كتب رواية «عام من العزلة»^(١) والصياغة الأولية لكتاب «بوذا» الذي عاد إلى صياغته وإعادة صياغته لمدة أعوام كثيرة.

النساء في فيينا جميلات جداً. وكان بوذا يحثه على إنكار الجسد من جهة، بينما تجرّه إلى المتعة، من جهة أخرى، تلك الحفلات، والشوارع، والمقاهي، والمكتبات، والمتاحف، والنظرات الزلّقة والمداعبة. ومن باب المصادفة أو بسبب جموح الروح، كما فسّر له الدكتور شتيكل، تلميذ فرويد، غطت وجهه فجأة حساسية جلدية ومنعت عليه الاقتراب. وها هو عاشق الجمال والمشمئز من المرض، سجيناً خلف قناع شنيع. وهكذا ظلّ وحيداً، مرتبكاً عاجزاً - وهذا ما لاحظته ألف مرة - عن قياس درجة حرارته بنفسه، أو اعداد مشروب ساخن أو ضمادة ... ولا يصرّح إلا بالحقيقة «العارية» عندما يخاطب زوجته :

فيينا، السبت (١٩٢٢) (٢).

الآن، ومع تصوّرنا الجديد، لا تدركين مدى التأثير الذي يتركه في الناس تحت وطأة الجوع واليأس. ويا له من بؤس، يا إلهي، وكم ترى سيدوم؟ اليوم ذهبت لاقتناء جريدة، دخلتُ بُنيّة في الرابعة عشرة تقريباً، كانت تحمل على كتفها كيساً كبيراً مملوءاً بالعلب. أردتُ مساعدتها على التخلص من حملها الثقيل فلم استطع رفعه. ابتسمت

(١) أتلّفها فيما بعد.

(٢) رسالة إلى زوجته.

الطفلة، غير أن جسدها كان معوجاً، وكتفاها منحنيين، وساقاها هزيلتين مثل قصبتيْن.

وبالأمس كانت هناك امرأة جالسة على حافة الرصيف، متربعة، بينما يظهر جسمها عارياً حتى السرة، تحت تنورة رمادية رثة. كانت في منتهى الحزن والجوع والقنوط. إن الخجل هو بذخ الأغنياء. وهناك فهمتُ تلك «الأخت» المنتمية إلى ديانتنا الجديدة. أفضل للأرض أن تملك! وتتخلص السماء من خزي الحياة الراهنة.

كنت أتأمل اللوحات الفنية، والتحف المعروضة في الواجهات. وكانت، حتى السنة الماضية، تبعث في الفرح. أما الآن فقد بت أدرك أنها ليست سوى أقنعة لإخفاء الحقيقة. أقنعة تخدع الجبناء. وأصبح في داخلي، وأنا أسير في شوارع المدينة، : إلهي، متى تنزل مثل ريح صرصر، مثل ميغاس^(١) التي تنزل من ذرى البرناس كي تطهر الأرض؟

(فينا) ٢١ مايو ١٩٢٢^(٢).

.... أهوال فيينا المنهارة لا يمكن وصفها. لقد تم إعداد شرطة خاصة لمنع اليائسين من الإلقاء بأنفسهم في الدانوب، ليلاً. والكثيرون منهم يتمكنون من مغالبة الشرطة وينتحرون، ومنهم، بوجه خاص، الأمهات مع أطفالهن. وفي الليل تتسكع آلاف النسوة كي «يقدمن أجسادهن» طلباً للأكل. ايروس (إله الحب) جائع. ما من مرارة أظع. أول أمس كان هناك اجتماع ضم ٨٠٠٠٠٠ شخص. لاشك أن هناك ثورة قادمة ...

فينا ٢٥ مايو^(٣)

... يا إلهي، كم أفكر فيك وكم تبدو لي حياتي مأسوية. أنا الآن، كما يقول بوذا. *il sempore alzato* ، الوقت دائماً، على أهبة الرحيل ...

فينا، يونيو ١٩٢٢^(٤).

عزيزتي،

لو أنك فتحت باب غرفتي ورأيتني لرافت بي من شدة الأمي. أنا الآن متمدّد على فراشي، وجهي مضمد بكمامات أغيرها كل نصف ساعة. لا تستطيعين تصور مدي ألمي. وحيداً في الفندق، مع رعونة خرقاء من شأنها أن تثير شفقتك، أضع الضمادات وأعالج

(١) ريح شمالية.

(٢) و(٣) و(٤) رسالة إلى زوجته.

نفسى بالمضادات الحيوية الخ... لا أستطيع الأكل ولا الخروج، لكنني أتعلم كل ذلك بصبر وهدوء. ولا تثور أعصابي برغم اشمئزازي من الأمراض. لن أرسل لك بهذه الرسالة إلا بعد شفائي التام، حتى لا تقلقي. أحزن فقط لأنني أضعت فرصة الكشف، من نظرتك، إنك تحبينني قليلاً. وفي عيني تترقق، هذه اللحظة، دمة حمقاء. ربما لأنني مريض، ربما لأنني أحبك كثيراً.

فينا ١٢ يونيو ١٩٢٢ (١)

عزيزتي، اليوم سأخرج، إن شاء الله. ما أوسع فرحتي بالتنفس، ما أسعدني بالشفاء، وبعدم الحقد على أحد، وبوجود هدف أمامي، وبالتوتر مثل قوس! إلهي، كم تأملت، ولكن بهدوء، لأنني كنت أشعر أن ذلك الألم ليس سوى مجرد مداعبة، مقارنة بالبؤس اللامتناهي للعالم. لا ينبغي لرؤية البؤس الكبير أن تتلاشى في الأمان البسيطة. هذه الفكرة تزودني بالصبر والتروي. ارسل لي ببعض الجرائد. لا أستطيع الانعزال عن اليونان، وعن احتضارها المريع.

فينا ١٨ يونيو (١٩٢٢) (٢)

.... تعالي! ... ولكن مع صديقاتك. وإلا فإنك سوف تضجرين معي ...

بوضوح في الرؤية ونقد ذاتي، يحلّ مزاجه ومزاجها :

فينا ٣ يوليو (١٩٢٢) (٣)

... ثم أقول في نفسي : إن رفقتي مملّة جداً، فكيف تستطيع غالاتي أن تتنفس بقربي؟ سوق تظل عيناها على أثينا ... وتثور أعصابها. وتغدو حياتنا لا تطاق أكثر، كل يوم. وفي النهاية تفضل السفر، وعندئذ تعود شهادات الحبّ عن بعد. هو ذا موتنا.

ماذا يتوجب عليّ أن أفعل؟ أقول لك إنني مريض، ماذا أجني من وراء ذلك؟ سوف تأتين وتتألمين معي، وتعالجينني، وعندما أشفى، نعود إلى الحكاية الأبدية ... «يلقون بنا في الشارع»، البشر يثيرون اشمئزازك، «لا تحسّن بأية فرحة» (٤) - ومع ذلك تبقيين هناك. بسبب الجبن والتخاذل.

حياتي هنا ليست عيداً، البتة. عندي هموم لا أحثّك عنها ... هل لدينا مبرر

(١) (٢) و (٣) رسالة إلى زوجته.

(٤) أقوال منتقاة من رسائل غالاتي، إليه.

للانتحار، وتبديد كل الأعوام التي تبقت لنا كي نعيشها؟ أشك في ذلك ... قد لا تصدقني ذلك. لكن، لو أنني فقدت ذلك الأمل لقتلت نفسي مؤخراً. أعمل منذ الرابعة صباحاً لأنني لا أستطيع النوم. والصفاء الذي أتمتع به يحول دون ركزي وراء الأوهام. لقد تجاوزت فكري وقلبي تلك الحدود المسموح بها، منذ وقت طويل. أقول ذلك بكل بساطة لأنه صادق.

هل هي مصادفة؟ لقد تحققت توقعات الدكتور شتيكل : اختفى القناع الشنيع ذو الطابع الجنسي - حسب وصف المحلل النفساني - من وجه نيكوس كازنتزاكي، حال مغادرته فيينا.

نعرف الحال التي كان عليها نيكوس كازنتزاكي عندما بلغ برلين في خريف ١٩٢٢ : فيينا، بوذا، النساء الفاتنات جداً، قناع الجنس ... أما دمه العربي - ومن فرط ما كرّر ذلك لنفسه، اقتنع به - فلم يكن ليتطابق دائماً مع متطلبات الزهد البيزنطي الصارمة في علاقتها الوثيقة بصرامة العقل الهيليني.

فيما بعد حدثني عن «يهودياته» وجعلني أحبهن كلهن : راحيل، إلسا، ليا، إيتكا ... كان ياما كان، لم يكن ومع ذلك كان ... حكاية جديدة تبدأ :

مقتطفات من يومياته خلال العامين ١٩٢٢-١٩٢٣.

١-١٠-١٩٢٢ . مؤتمر المصلحين الراديكاليين للتعليم. ذهبنا إليه مع دانييلديس^(١)، حشد من الشباب، من معلّمي المدارس، في ثياب تشبه ثياب العمال. وثمة عملاق أشقر في العشرين من عمره انكبّ على الأكل قبل أخذ الكلمة. وهناك امرأة شاحبة، عرجاء، بهية الطلعة مثل غالاتي. وأخرى، شقراء، بشعة، تكلمت بانفعال ثم عادت إلى مكانها وطفقت تلتهم حبة نقانق.

٢-١٠-١٩٢٢ . ذهبت مرة أخرى إلى المؤتمر. عندما التفت، رأيت فتاة ترتدي بدلة حريرية صفراء برتقالية، ومن دون أن أنظر إلى وجهها، وقد «سحرني» اللون، دَنَوْتُ منها ... وبدأت أكلّمها : «هل أنت يهودية؟ - نعم.» عيناى شريقتان رائعتان ... «وأنت؟

(١) ديموستين دانييلديس، عالم اجتماع، ورجل ذو ثقافة عالية، كان يقود حركة شبابية «يونانية جديدة» في ألمانيا.

- عربي. - وهذا الخاتم؟ - خاتم سحري». وضحكنا. وفي النهاية قلتُ لها : «أريد أن أهديك كتاباً، وبي فضول لمعرفة أيّ كتاب ستختارين. - إذن ليس لإرضائي بل لإرضاء نفسك». - طبعاً، بأنانية».

اختارت بعض الكتب التعليمية. وقالت : «أنا شاعرة. وسوف أهديك، بدوري، أحد كتبتي».

في الطريق تحدثنا بوذ. وكان يوم عيد يهودي^(١) Verso'hnungstag ويتوجب عليها الصوم كامل النهار. قلت لها «لو سمحت، اقترفي خطيئة من أجلي، ولتكن الأخيرة، أو بصورة أفضل، لتكن الأولى. تعالي لتناول العشاء معي».

رفضت. ثم قبلت ...

أثناء تجوالنا حدثتها عن الإله، الإله خارجنا، ثقيل، أرعن، كسول. أما نحن (أي الإله الأكثر تقدماً والأكثر حرية) فنسهر ولا ندعه ينحط. ونكلمه كما يخاطب الجنود قائدهم. نقول : - عليك أن تفعل هذا : عندما يجزر البحر (ينسحب)، لا يتبقى ماء للنوارس والأسماك والسرطانات، فعليك أن تعيد خلق البحر. أنا أصلي، وعليك أن تنصت. وإذا لم تكن لك أذنان، عليك أن تخلق واحدة على يسار رأسك وأخرى على يمينه. قرأت لي بعض قصائدها، جميلة جداً. مزامير، أوامر للإله. وأنشدت «نشيد الإنشاد». يا لعذوبة الإيقاع! كأنه مزيج من الأسبانية والعربية ...

فرح، في الشارع كانت تقفز وتحتضنني صارخة. شعرها ذو زرقعة ضاربة في السواد، أنفها معقوف قليلاً، وبشرتها مبرقشة بالنمش. أنشدت إحدى قصائدها : «كلّ ليلة من ليالي نافذة مفتوحة يطلّ منها، دائماً، رجلٌ آخر، على أحلامي».

شيء لا يغتفر! كان بوسعي مجالسة أية فتاة أخرى. ومن شأن حاجز الجسدين أن يتحطم بالطريقة نفسها ويحدث التعارف بين الشقيقين. حقاً لبضع لحظات (الجنس ليس هدفاً بل وسيلة)، تنكسر الأغلال وتحرّر الأرواح، ولا نشعر أنّ الرجل والمرأة كانا شخصاً واحداً، كما قال افلاطون، فقط، بل، وكذلك كلّ الأرواح، والرجال والنساء، وكلّ الحيوانات، كانوا يشكلون كائناً واحداً في الماضي... إنّ الحب (أي عبد الجسد) يوحد الكائنات. يا لها من فرحة، يا لها من نشوة منذ اللحظة الأولى! الأجساد تنفجر، وشهوتها

(١) يوم كيور، أو يوم الغفران.

تخفّ، والروح تثب فوق الرصيف بين البشر المكتئبين، المعرقلين، الأغبياء، الغارقين في
جحيم عدم التمييز.

ليت الإنسان يستطيع المحافظة على تلك النشوة، بلا صراخ أو وثوب ديونيسي، بل
بهدوء وانضباط وثبات! وهكذا كانت الشخصيات المغناطيسية. لماذا يجذب المسيح
الناس؟ لأن جسده انفتح، وروحه انحنى على كل الأجساد البشرية، كمن يمسك
بالمفاتيح، ساعياً إلى فتحها بحزم ولطف.

الروح قادرة حتّى على ترويض الدواب. ومن يعلم بما يخفيه الحبّ؟

٣-١٠-١٩٢٢. في الغد قصدت المؤتمر متأخراً ساعتين. لم أشاهد البدلة البرتقالية.
حزن. وفجأة أحسست بعينين تراقبانني على يميني. التفت ورأيتها تبتسم لي، وجهها
يلمع مثل المرمر في الشمس. كانت تضع شالاً بائساً بلون الزيت المحروق.

تملّكني فجأة شعور بالنّدم من نشوة البارحة، الديونيسية. لم أعد أحس بأي
اندفاع نحو ذلك الكائن الذي يلمع بالتأثير. ولم ألتفت مرة أخرى، لرؤيتها. عند ذهابها
أعطتني كتابها الشعري الصغير، كانت تضحك، وتمدّد اتحاد الأمس. لكنني متعجّل
للذهاب. لاحت غريبة، تماماً، ولامبالية، بالنسبة لي. ولثانية واحدة، عندما انحنيتُ
رأيت عينيها تمعنان النظر فيّ - مرتبكتين، يشوبهما زعر خفيف. انقبض جسدها ...
وها أن موجة رافة تهزّني :

- ما هو الـ weltanschauung بالنسبة إليك؟ سألتها وأمسكتُ بها كما العادة، من
ظهرها، وعصرت كتفها الهزيلين.

- Bruder, zerstören die welt! (أيها الأخ، تخريب العالم!) Bruder, der
Hoss! (أيها الأخ الحقدا!)

- يا أختي، أجبته، يا رفيقة الكفاح، ما الحق في الحقيقة، إلّا الأب القاسي للحبّ.
الحقد هو البداية الحزينة والبشعة، التي تفتح وتهيّء طريق الحب ...

- إنك تسمو بفكري، وتطهر قلبي، أيها المجهول! كيف جئت هكذا من الشرق
ووجدتني؟ أه، كم تجلّي الأفق، وكم تتوسع روحي.

- أفكر في كتابية «مأدبة»، قلت، نكون فيها المدعوّين الوحيدين، أنا وأنت يا راحيل.
نحن، أي الكون. الرجل والمرأة، الزوج الإلهي. وسوف نتحدّث عن الحبّ، والحقد،

والإله، والحرب، ونحن نحتسي، بهدوء، خمراً مقدسة تملأ جسدنا المجبولين من صلصال.

– نستطيع معاً تقويض العالم وإعادة بنائه!

ثم ضحكت وأمسكت بذراعي. وطفقت تنشد بصوت خافت، وباللغة العبرية، «نشيد الإنشاد». وفي الشارع الصاخب، بين المنازل العالية والبشعة، وفي بهو المترو، كنت أنصت إلى النشيد العبراني. إنها الكنيسة، زوجة الإله، تخاطب سيدها.

٦ أكتوبر ١٩٢٢ . جلسنا في المساء في دكان حلويات روسية. حدثتني عن التلمود، وعن وطنها البعيد.

قلت لها :

– ألع حياتك وروحك كما ألع غابة. خوف خفيف. وأبسط ضجة تتضخم. الكلمات تصير مثل القنابل، قوى مريعة، مختبئة. ونحن نحررها. كلمات: خبز، إله، سمكة، حجر، بحر، تنفجر في قلبينا ... أشعر برأسي كالفلك. عندما تمطر أو تتلج، وأنا أتجول حاسر الرأس، في الجبل أو على شاطئ البحر، أشعر بأن العالم كله قد غرق، وأن لعنة الإله قد حلت. وإذا هو الفيضان حتى العنق، بالنسبة لي. غير أن رأسي يطفو على سطح المياه، مملوءاً بكل بذارات الخير والشر ...

امتلات عيناها دموعاً. شدت يدي وقبعتها.

– كم انتظرتك!

وكتب كازنتزاكي يقول عنها أيضاً في دفتره، إنها قالت سوف تعود، غير أن مانعاً طارئاً في آخر لحظة، جعلها تعتذر. فاغتاز هنيهة وفكر في عدم العودة إلى رؤيتها أبداً. وكتب في دفتره :

يا للانعقاد من مرارات وخيبات قادمة. لقد قادني صوت، ربّما كان قادماً من لدن الإله.

وكتب إليها بأسلوب التوراة المزخرف دائماً :

انظر، إلهي، إلى هذه الفتاة الفاتنة راحيل. جبينها يقدح شرراً مثل فكرة جلييلة،

عينها عذبتان ومتوحشتان كعيني لبؤة مقدسة تحرس العابد. قلبها مجبول من لحم ودمع وكبرياء. ويداه الرقيقتان، يا إلهي، تمسكان بعالمك العظيم فوق الهاوية.

١٦-١٧-١٨ أكتوبر ١٩٢٢ . قلت لها : أنت يهودية، روح كاسرة، سبينوزا شايلوك - تريدين الانقضاض على كل معارفي، وعندما لا يتبقى لدي ما أعطيك إياه، سوف تهجريني.

تحدثنا عن تأثير الشهوات الشبقية في الروح. قلت لها : «ليس هناك سوى طريقين للأرواح الباسلة : إما أن نفرق في هذه اللحظة وإلى الأبد، وإما ألا نفرق أبداً. ومن جانبي سوف أستثمر أي قرار تتخذه. الآن اكتب مؤلفاً عن بوذا. فإذا توحدنا جسدياً سوف أحس بكل مرارة الأجساد الباحثة عن الوحدة المطلقة من دون أن تتوصل إليها، وأدرك حدود اللذة، ويغدو عملي مرأً بسبب عبثية كل الجهود. وإذا بقينا صديقين فقط، سوف أقهر الرغبة في داخلي، كل لحظة، وأحس بحدود كل سعادة ويصير عملي عميقاً مثل حلم. أما إذا افترقنا فإن هذه الحياة كلها سوف تكتسي بمرارة لا تطاق، ويتأمل بوذا مرتجفاً مشهد الحياة الرديء. ومثل النحلة سوف أصنع عسلي من كل شيء. أنت حرة تماماً، اختاري الدرب الذي تريدين، وأنا سوف أثمر دائماً. لن أنسى أبداً فرحتها بهذه الحرية التي وهبتها إياها.

١٥ نوفمبر ١٩٢٢ . قالت يائسة، إنها لن تغادرني مرة أخرى أبداً، لأنها لن تنجح في نهبي نهباً كاملاً.

١٩ نوفمبر. قالت لي لو اكتشفت أمها أنها معي، لماتت كمدأ ...

تلك هي الحيلة الجميلة التي استخدمها «يهوه» متنكراً في إهاب فتاة رقيقة، جميلة ونابضة، وشاعرة ذات رؤيا فوق ذلك، كي يمسك بالكريتي ويمكنه من كشف بعض ألغاز التوراة. التوراة التي يعرفها جيداً بسبب إعجابه بالشرعية اليهودية، هو القائل في شبابه «إن اليهود ملح الأرض!». وعندما كان طفلاً حصل على موافقة والده كي يدخل «الغيتو» ويعلمه السيد الحاخام اللغة العبرية.

مرت الأعوام، وعادت الفتاة إلى بلادها، واعتقلت. ولم ننجح في استقدامها إلى اليونان، ثم تزوجت وأنجبت طفلاً ... وفاجأتها الحرب وهي في باريس، فانكبت

على إنقاذ أطفال جنسها. وتخلت عن الشيوعية، ولم تعد تبشّر بالحق. غير أن الشاعر أراد أن يخلّد منها صورة الشعلة الأولى. وهكذا في «الأوديسية» كما في «تودا-رابا»، نجد «رالا» ذات البدلة البرتقالية، تضحّي بكلّ شيء من أجل مثلها الأعلى الثوري، مفضلة الموت على التواطؤ مع اشتراكية أدى بها الوهن إلى أوضاعها الراهنة.

وتدور عجلة الأقدار بسرعة. وفي حين يبرز في الاتحاد السوفياتي، عالم جديد ويولد في الدماء والحرمان، يتلاشى في آسيا الصغرى عالم قديم يعود إلى ثلاثة آلاف سنة، أيونيا المزدهرة والكنيسة المسيحية الأولى، مع ما عصف بذلك التلاشي من حرائق ومجازر. وكانت الحرب العالمية الأولى قد بلغت نهايتها إلا بالنسبة لليونانيين الذين ظلّوا يقاتلون منذ ١٩١٢. ونظراً لانجرارهم الطائش وراء تفاؤل السيد لويد جورج والوعود الخُلبية للحكومة الفرنسية، وبدل التوقف عند ازمير اليونانية، والقسطنطينية، فقد تقدّم اليونانيون نحو سانغاريوس وأنقرة. وحصل ما حصل. وتغيّرت المواقف السياسية والاقتصادية لحلفائنا حتّى قبل إدراك الملك قسطنطين وقيادته. وتمكّن كمال أتاتورك، وقد سلّحه هذه المرة نفس الذين دفعوا به إلى تحويل حرب تحريرنا إلى حرب غزو، من كُنس الجيش اليوناني ورميه في البحر. وكان هناك، مع ذلك الجيش، مليون ونصف مليون مستوطن يوناني، ظلّوا يلعنوننا محقّين. وهكذا انضمّ إلى الملايين الستّة من اليونانيين المصابين بداء السلّ وسوء التغذية، والخارجين لتوهم من عبودية أربعة قرون، مليون ونصف مليون من لاجئي آسيا الصغرى، بعد أن حالفهم الحظ في النجاة من الأهوال التي مارسها أتباع حرب «تركيا - الفتاة»، إلى جانب ما يناهز مئتي ألف أرمني، وقلول جيش فرانغيل ...

ولقد حدّثتنا السيدة هـ. بواربييه، كشاهدة عيان، عن مأساة ١٩٢٢، في عدة مناسبات. كانت النيران التي التهمت أيونيا تعود إلى الاشتعال في عينيها : السوداوين، وهي تخبرنا :

«تزوجت فرنسيّاً، كما تعلمون، ولم أشأ مغادرة «بروسّا». غير أن الفرنسيين جلبوني بالقوّة على متن سفينة حربية. وأعطوني مسدّساً :

- هل تجيدون استخدامه؟

- نعم !

- اطلقي الرصاص عليهم إذا !

- أيها الكلاب، أنا يونانية ومسيحية! هل تريدون مِنِّي أن أقتل إخوتي؟ ارحمهم! توسّلتُ إليهم مقبلة أقدامهم. لكنهم لم يستمعوا إليّ. كانوا يطلقون الرصاص عليهم ... ويحرقون بعضهم ... كان خليج إزمير يعجّ بالجثث ... عندئذٍ فقدت رشدي وطلبت من الله أن يعاملهم بالمثل....».

لقد أثرت مأساة أسيا الصغرى، والأجواء الملتهبة، بشكل خاص، في كلّ من فيينا وبرلين، تأثيراً عميقاً في روح نيكوس كازنتزاكي وأعماله.

وإذا كان المصلحون الجذريّون الكبار للتعليم، مثل كافيرو، وهيلكر، قد نادوا، في مؤتمر برلين، بإصلاح التعليم في المدارس، فإنّ هدفهم الأبعد كان تحقيق الإصلاح الشامل للمجتمع كله. أمّا نيكوس كازنتزاكي الذي كان يكره أنصاف الحلول، فقد هاجم جذور الشرّ :

لا ينبغي البدء من المدرسة، بل من أسس المجتمع نفسه الذي لا ينبثق من المدرسة. ومن أجل مساعدة المجتمع على التقدّم، لابدّ من العزم على قطع جذوره المتعفّنة، وتحرير الناس من العراقيل التي تمنعهم من النموّ.

وهكذا وصل كتاب «الزهد» - وقد بدأه كازنتزاكي في فيينا، متحدّثاً فيه عن عقيدته - إلى صيغته النهائية في برلين. ولن يضيف عليه سوى فصل واحد، هو الفصل الأخير، وعنوانه «الصمت»، وكان قد حرّره بعد بضعة أعوام، أثناء رحلة إلى سيبيريا.

ولم يكن راضياً عن «بوذا» أيضاً. فقد مزّق ثلاثة آلاف بيت، وأعاد الكتابة كلها بالنثر الإيقاعي. كان يريده أكثر بساطة وقناعة، ويريده «افريقياً» أكثر.

وتغيّرت روحه أيضاً. فلم يعد ينتظر كثيراً العثور «عَمَن» يبحث عنه، ويكتشفه. يا للأسف! لكنه سوف يتقدّم دائماً، كما لو أنّ أمله لم ينقطع. ليزداد

شعوره بالعزلة.

وفي الوقت الذي أطلق فيه انجيلوس سكليانوس نداء دلفي، أملاً أن يتولى أبولون، صديق اليونان، إكمال المعجزة، تعرّف كازنتزاكي، وراء القناع العمالي لدى لينين، على منقذ البشرية القادم. وهكذا لن تكون دلفي سرّة العالم ابداً. ذلك البيثيا^(١) الجديدة تستقرّ الآن في الشمال، في عاصمة حمراء ذات أسوار مسنّنة، قرب كاتدرائية مجنونة ذات عمّامات عديدة ملوّنة.

ولأنّ كازنتزاكي يحبّ سكليانوس ففي ذلك سبب إضافي كي يخاطبه بقلب مفتوح :

... أفكر فيك، أنا أيضاً، وأعيش في ترقّب حماسي، منتظراً أصداء نجاحك.

ومع ذلك فقد افترق درّبانا. ولا يعود ذلك إلى حذر، في لحظة صعبة، من نزاهة حكمي، ولا إلى كونك نسيت قناعاتنا وعدت إلى سلوك الطريق القديم ... بل لأنني أشعر أن إلهي يغوص أكثر فأكثر، في الصحراء ويريد تجاوز المعركة الأخيرة، الأمل^(٢).

ولن تمحي أيام برلين من ذاكرة كازنتزاكي أبداً. ونظراً لانغماسه في الأوساط الثورية، لن يقترب من «الألمان الأريين»، واجداً فيهم، الإنسان المعذب أبدياً.

وتعرّف، بتوسط د. دانييلديس، على مجموعة من الشباب اليوناني، وبات يأمل في نهوض بلاده وتجديدها، لبضعة أعوام. وبفضل «راحيل» لمس بأصابعه جوهر الشغف اليهودي. وكانت لفنون الرسم، والأدب، والمسرح، والموسيقى، نساء يجسّدنّها، من أجل الاشتعال معاً في مواجهة الظلم المستفحل في العالم.

التعاليم اليهودية، وخاصة دروس الحاخام نخمان، وفروبنيوس مع «ديكاميرونه الأسود»، وراحيل التي كانت تزيّن ركبته، وهي طفلة، كي تلعب معها مثل دمية، وإيتكا التي لم تكن تملك شيئاً للذهاب إلى حفلة، فباعت جديلتيّها، ثم ليّا، وروزا، ودينا ... والسّا تلك المرأة الجميلة الصامتة في إيينا،

(١) عرافة تجترح المعجزات باسم الإله أبولون في معبد دلفي. (المترجم)

(٢) رسالة نسخها نيكوس كازنتزاكي على دفتره.

والتي جاءت بالمفاتيح الذهبية .. كيف ينفصل عن كل هؤلاء كي يذهب لمقابلة زوربا في صربيا؟

وكما هو شأن الكثير من رسائل كازنتزاكي، فقد ضاعت أيضاً رسائله إلى زوربا. لكن، بحوزتنا رسائل زوربا، وإنها لفرحة كبرى أن نستطيع العودة إلى قراءتها.

وها هي ذي بعض المقتطفات :

نيش، صربيا، ١٧ يوليو ١٩٢٢ (١)

... تلقيت رسالتك الأخيرة ووجدت أنك تفرط في مدحي، لا تسخر من فكرة امتلاكنا قيمة أخرى، وبحثنا عن شيء أفضل من الآخرين؟ من جهتي، كل الذين عرفتهم، رأيتهم يقتصرون على المال وحده، وعندما ينجحون في الحصول على المال يتوقفون فوراً، يتفادون الأصدقاء، يبحثون عن مهر. يتزوجون، يعيشون رتابة الحياة الزوجية، تقودهم امرأة - طيبة أو سيئة - ولا شيء أكثر. وأنا لا أصنفك ضمن هذا النوع، أنا فقط، - لأنني لم أتزوج إلا من باب المزاح. السيدة زوجتي توفيت، وحسناً فعلت، ومازلت أضحك على أصدقائي الذين أشفقوا على مصري آنذاك ... الآن لدي أطفال. وأنت الوحيد الذي تدرك فكرتي عن أطفال، لا يحركون في شعرة، ولا يمسونني أو يؤثرون في، ولا يبهرونني ... أحبهم مثل أصدقائي، وإذا أعطيت عشر دراخمت إلى واحد من ابنائي، أفرح كما لو أعطيتها إلى شخص آخر، وأشعر بالدرجة نفسها من الفرح.

ليس لي أمل في أي واحد من أولادي، لأنني أرفض أن يكون لي ذلك. أعتبر أن تبعية المسن للشباب أمر خطير جداً، أي أنني أعتبر من البائسين كل أولئك المسنين المضطرين إلى السكن مع كنتهم، أو مع صهرهم، مهما كانت طيبة، ومهما كان طيباً ... لأن العجوز المسكين لم يحب، بل الابن هو الذي أحب الكنة، والابنة هي التي أحبت الصهر ...

لابأس! هذا كله تدركه أفضل مني .. أنا الآن لا أخشى الإله، لا أخشاه مطلقاً، مطلقاً. ربما يعود ذلك إلى أنني نفذت تعاليمه. لا أخاف الموت لأنه لا يساوي شيئاً. وكما أنني لا أساوي شيئاً بدوري، فأنا لا أخشى أخطر عناصر الطبيعة، مهما فعلت، وحتى إذا جاء

(١) الكتابة، والرسم، واللغة، والتنقيط، عند زوربا، في منتهى الفانتازية. وهو أيضاً يخاطب نيكوس كازنتزاكي بإجلال وباستخدام ضمير جمع المخاطب حيناً، ويرفع الكلفة حيناً، وفق مزاجه.

ذَنْبٌ مُذْنَبٌ لِيَضْرِبَنَا وَيَحُولِنَا إِلَى سَلَاطَةِ طِمَاطِمٍ، فَأَنَا أَضْحَكُ ..

سأسألك حول نقطة أخشاها وتتملك أحاسيسي بقوة. الشيخوخة تخيفني، ولا أجد شيئاً لطرد هذا الخوف، وأجد شقاءً عارماً في الاضطرار إلى القول إنني عجوز، عندئذٍ انحنى أمام كل ما أكره، وأفقد حرיתי. وأجد نفسي تحت رحمة قرار عائلي يأمرني بمراقبة وحش، طفل صغير، حتى لا يحرق نفسه، حتى لا يسقط، حتى لا يتعلم الرذالات.

كل هذا أجده في منتهى الضيق .. أنا الذي أذهب إلى كل مكان، ومن دون خوف، إلى غابات جبل أتوس، وروسيا، كما كتبتَ تمدحني ... أنا، أصير حارساً لعدة أحفاد متوحشين؟ فيبلون ثيابي من دون أن يكون لي حق الكلام والقول إنني أنا البائس الشقي، أستفزع كل ذلك؟

أكتب إليك كل هذه الحماقات، محاولاً التحرر، ولهذا السبب أجوب الجبال لربح المزيد من الأموال، لكي تخافني عائلتي وتفكر في عندما أموت.

أفضل أي نوع آخر من الموت، كأن تلتهمني الذئاب والدببة، ومهما كان نوع الحيوان القادم فأنا أقول له على الرحب والسعة! إذا لم ننجح في إيجاد مأوانا المنتظر حيث نعد حساءنا، من بطاطا وخضار وما تصادفه أيدينا، فالشقاء حليفنا!

أحييكم دائماً بمودة.

الوفى لكم ج. زوربا.

ملاحظة : بالنسبة للعمل، سوف أراسلك مرة أخرى.

المنجم. قرية غريبفتسا.

١٨-١ نوفمبر ١٩٢٢ (١)

«عزيزي السيد كازنتزاكي،

تلقيت رسالتك المؤرخة في ٢٠-١٠-٢٢ وأجيب.

أنا بخير. أقوم بأشياء. لدي مشروع فائق الأهمية حتى بالنسبة إليكم. أي أنه يتوجب عليك أن تتبع حياتي كي تقتنع بأن الإنسان الذي يريد، يستطيع أن يفعل ما يريده، بعون الإله.

(١) لعل المقصود (١٨) أكتوبر (١) نوفمبر ١٩٢٢، (المترجم).

أنا، أدركت، منذ قليل من الوقت، أنني لم أت إلى العالم حصاناً أو ثوراً على سبيل المثال. وحدها الحيوانات تعيش لتأكل ... ولكي أنجو من هذا النوع أعمل ليلاً ونهاراً، وأنا سعيد بذلك، وبالمعركة المريعة للحياة. ومع ذلك أتوصل إلى مواقف في منتهى التعقيد

لنتحدث الآن عن وطننا اليونان. ليس لدينا سوى هدف واحد. اليونان هي دائماً اليونان ... حضرتك تعرف الكثير، الكثير من الأشياء الكبيرة، أكثر مني بكثير. أخبركم فقط بما توصلت إليه وأدركته في عائلتي منذ بضعة أيام ...

.... تصوروا إذن، يونانياً طبيباً، وهو شقيقي، يحب دابة ... صورة رجل لا قيمة له^(١). فكيف تراني، أنا الأمي البسيط، لا أمارس عبادة الشخصية؟ غير أن العالم من شأنه أن يكون سعيداً لو كان يشبهني مثلاً. فعندما أشاهد، هنا، شجرة كبيرة، كبيرة جداً، شجرة زان أو كستناء، أعجب بها. وعندما أرى الآن أحجار التوتيا في الحقل، داكنة الاخضرار، جد داكنة، بلون الأوكسيد المضيء، أعجب بها، أو بالأحرى أعجب بخلق الله، وبالطبيعة.

ويستحيل علي أن أحب أو أعبد انساناً فانياً، أدنى مني، لأنني اعتقد أن الإنسان الذي لا يسعى إلى فعل الخير ... واكتشاف أشياء من دون إزعاج جاره، ليس إنساناً.

إن الحزب في اليونان يعني المصلحة والملك هو أداة المصلحة. وكل أداة سيئة ينبغي أن تقتل، الأسلحة، المدافع، السكاكين المدببة الخ، الخ ...

تصوروا، يا سيد كازنتزاكي، أن طبيباً مقدونيا لا يفهم اللعبة الأوروبية، ولا يدرك أن أوروبا هذه، وجدت شعباً مضطهداً فشككت نوعين من الشرطة داخل اليونان من دون أن تدفع الرواتب. شرطة ملكية يتوجب عليها قتل أتباع فينيسيزيلوس، وأخرى فينيزيلية يتوجب عليها قتل الملكيين، أما الشعب فهو يؤكد أن فينيزيلوس صديق الوفاق، وأن غوناريس صديق الألمان ...

فالشعب لم يفهم ... ولم يهتم بإيجاد وزير محب لليونان، وقادر على رؤية مصالح اليونان. ومعنى ذلك أن الشعب ينبغي الوفاق كي ينجو من المجازر ...

(١) ملك اليونان.

عندما نلتقي سوف نتحدث حول كل ذلك. أما الآن فأنا أحاول ضمان وسائل عيشي ... والكتابة إليك كي تأتي، إلى هنا، وتدرك كم هو جميل أن نكون حقاً. فعلى سطح الأرض توجد الحياة، توجد أزهار، وتوجد أشياء جميلة، بكميات كبيرة، لكنها لا تثير بهجتي لأنني أجد أنواع الشرور والآلام مختلطة على سطح الأرض، في كل مكان. وفي حين كانت الفأس تحفر وتستخرج كنوزاً، سواء أكانت ذهباً أم فضة، ويمكن أن تكون حديداً وهذا أجدي، صارت أداة للزراع والحصاد، وتستخرج الفحم من أجل تدفئة بيتك الخ، الخ»

نيش ٣٠ ديسمبر ١٩٢٢

عزيزي السيد نيقولا كازنتراكي

استلمت رسالتكم منذ ثلاثة أيام. وأنا سعيد بقولك إننا سوف نذهب إلى روسيا. عندما أتمكن من السفر معك أكون سعيداً.

سوف نقوم برحلة رائعة، ونذهب معاً إلى بحر آزوف، زوجتي الروسية الأولى تنحدر من تلك المدينة. وهناك سوف نجد عائلتها ... وحتى إذا كانت امرأتي قد تزوجت فإنهم سوف يستقبلوننا. وبصفتي كنت الزوج الأول فمن حقّي أن أكذب بالقول إننا جننا من أجلها.

بعد ذلك نجوب «بيلاروسيا»^(١)، وهناك نجد زوجتي الثانية، الجميلة، وسوف نستغل كل أقاربها وأصدقائها. وسوف يقبلون يدينا لأنهم كانوا يحبونني كثيراً! كنتُ رجلاً شهماً، ذلك ما كانوا يقولونه عني آنذاك.

بإيجاز، لدي الكثير من الشغل ... جئتُ إلى نيش لاقتناء أكياس نرسل فيها البضاعة إلى إنجلترا. وحال وصولها إلى المصنع، سوف أفهم أية معجزة ستحدث. ما من شيء خارق، أو قد يكون ذلك نجاحاً كبيراً في أحسن الأحوال. وعندئذ يمكن للمشاريع التي أشرتُ إليها أنفاً أن تتحقق.

١٩٢٣. إذا كانت راحيل قد نفخت على الجمرة أملة رؤيتها تتشكل على هيئة رسول جديد، فإن إلسا «أ» ... الألمانية القادمة من إيينا في موعدها، والمتشعبة

(١) روسيا البيضاء.

بهولدرلين ونوفاليس وريلكة، استطاعت أن تحت «تو ايبون ذاخري» الدمعة العذبة، على الانبجاس، كحافز وحيد لروح معذبة.

أول لقاء بين إلسا ونيكوس تم في يونيو من العام نفسه، في دورنبورغ. وكان يوماً حاسماً، كما دون نيكوس في دفاتره. ولقد كتب مفعماً بالسعادة :

يداك في يدي، أتجول فوق هذه الأرض، كل لحظة، أستأذن الشمس، والهواء، والأفكار، والفراشات، وأغني بصوت خافت حتى لا يسمعي الإله، أغنية حب سعيدة...

وزار برفقة إلسا معظم مدن القرون الوسطى التي مازالت في ألمانيا. ثم اصطحب كازنتزاكي محبوبته إلى رافين، في أسيز، قرب قديسه المفضل. وهناك تنتهي علاقتهما الغرامية، لتتحول إلى صداقة دائمة.

دفاتر ١٩٢٣ :

دورنبورغ غوتستشلوس. بونسيون^(١) فيشر. يونيو ١٩٢٣.

إقامتي في دورنبورغ حاسمة^(٢). الليلة الأولى : حديقة، ومطر خفيف، عثرت على جُعل أخضر وصدفة. في قاعة الجلوس هناك نزيلتان، إحداهما «grob» شقراء، رجولية ... والأخرى، هادئة، صامتة : إلسا ...

١٥ يونيو. ذهبت مع إلسا إلى نومبورغ ... وتحادثنا بشغف، داخل محل حلويات. قلت لها «لا تضيعي نفسك، ساهمي في بعض الأعمال الشجاعة، لا تتركي روحك تنطفئ» وكانت تنصت، مذهولة ومرتبكة. فجأة أدركنا ... أننا أضعنا موعد القطار. واضطررنا إلى قضاء الليل في كوسن.

قرأنا هوميروس، بوذا، التوراة. وها هي ذي جملنا المعتادة : «من دون مكافأة!» ... «الإجابة عن غمرة القدر!» ... وكلماتنا الأخيرة : «ما من جواب. فلنترك الإجابة تنضج مثل ثمرة!».

جاءت راحيل. لقاء حاد. كنت في قاعة الجلوس، مع إلسا، أحدثها عن طفولتي. وفجأة انفتح الباب، ودخلت راحيل مع «ل». يا للخشونة التي استقبلتها بها! (كانت

(١) فندق عائلي.

(٢) التشديد من نيكوس كازنتزاكي.

عائدة من بولنـدة) «ماذا شاهدت؟ كيف تقدّمت؟ هل لديك ما تضيفينه إلى ما سبق ورأيناه؟» (مثل جنرال يستقبل ضابطاً عائداً من مهمته)

يوم ٢ يوليو ١٩٢٣ نسخ كازنتزاكي بيده رسالة بعث بها إلى إلسا :

فليبارك الربّ تلك الأوقات المملأى والرائعة، الأوقات التي أمضيناها في دورنبورغ، نزهاتنا في البستان الغاتن، محاوراتنا، الضحك، الصمت، المطر، وفوقنا ذلك الذي كان يحتضن كلّ شيء، قوس قزح الملون. وفي رأسي المعتم تحوّل كلّ شيء إلى نور، وشمس، وحبّ. اليوم وأنا أشتغل على كتابة «بوذا» صارت الكلمات تأتي مثل خيول فرانزمارك الصغيرة، واضحة، بسيطة، ذات عيون شرقية واسعة، وأعناق حارقة مثل أعناق الصبايا رائحة هو قلب الإنسان، هذه العضلة الممتلئة بالأسرار، والتي تلتهم كلّ شيء، من دون أن تشبع، هذا الحداد الخارق الذي يُشعل معدن الحياة المعتاد ويطرقه ويحوّله إلى سيف لامع، أو إلى كأس ذهبية.

بوذا، هذا الصباح، رقص في حضني مثل امرأة.

وبعد بضع صفحات، نجد رسالة أخرى، إليها :

استعادت حياتي وجهها الزاهد. أصارع الكلمات طوال النهار، وأجبر الأفكار الواسعة على الانحباس داخل هذه الأجساد الفقيرة، الضيقة وغير المكتملة، أهب دمي إلى تلك الأشباح، وأتألم كثيراً، وبلا انقطاع، لأنني لا أحصل غالباً إلا على صور مشوّهة لمشاعري.

.... الفنّ بالنسبة لي هو مخرج الجبناء، خطيئة كبرى. يسحر قواي، أعطيه دماغي ودمي، وأستمتع بجماله لأنني مازلت لا أقوى على تجاوز الجمال والبشاعة ... أن أراك، ونضحك ونمشي، ونسكت! ما هذه الأرض؟ إلى أين تذهب؟ من أين جاءت؟ لماذا؟ سبحان الله، ما من جواب. ونحن نبدع ذلك الجواب، كل يوم، بضحكاتنا، ودموعنا، ودمنا. حمداً لله. نحن أحرار من دون رجاء أو سيّد!

ومن بوتشو، وهي ضيعة صيادين صغيرة، على ساحل البلطيق حيث أقام كازنتزاكي ما بين ١٢ و ٢١ يوليو، برفقة راحيل وصديقاتها، كتب إلى المرأة التي يحب :

البحر الممتد بلا حدود، يزمجر أمامي، رمادياً، تلتهمه الشمس، جزعاً قوياً، مثل قلب

كبير. لستُ حزيناً ولا سعيداً، ولا هادئاً الأعصاب. ففي هذه الأيام، حيث يغزو البحر نظري من جديد، التزم العقل البشري الصغير بالصمت، مرتجفاً، ودخل الإلهام الكبير للكون في جسدي الأسمر الصلب.

«أنت أيها الكون العزيز بين يديّ المداعبتين!» أشعر به دافئاً وغريباً مثل جسم بشري. ثمة لحظات لا أستطيع فيها إمساك دموعي. لا، فكلما دخلت في قلبي أكثر، هنا، على هذا الشاطئ المقفر، ازداد شعوري بأن حزنًا لا حدود له يغزو دمي.

مبارك هو البحر الذي يقتل الضعفاء ويهب الأقوياء أفكاراً صارمة. مبارك هو قلب الإنسان، هذا المصارع العظيم الذي يخوض معركة ضد الموت كي يكشف سرّه. مباركة هي، ثلاثاً، كل لحظة هائلة يتحد فيها جسدان - لرجل وامرأة - ويلهوان على حافة الهاوية، مثل طفلين على شاطئ البحر.

وينقطع تسلسل الدفاتر انطلاقةً من ٢٨ أغسطس ١٩٢٣. وفي نهاية نوفمبر تصل غالاتي إلى برلين لتغادرها في نهاية ديسمبر. «هل كان من الضروري القيام بمثل هذه الرحلة المرهقة، من أجل رؤية أشياء، سبقت لي رؤيتها في السينما؟» تلك كانت شكواها.

ويمكث كازنتزاكي في برلين حتى ٣١ ديسمبر، ولا يغادرها إلى «لايبزيغ» إلا لبضعة أيام، كي يساعد «المستغرق»^(١) كارل ديتريش على ترجمة كتابه «الزهد»، ويرافقه صديقه دانييلديس.

١٩٢٤. أول يناير من هذه السنة يبدأ كازنتزاكي رحلته. ألا يدلّ ظاهر رحلته على حجّ باتجاه المناطق التي كان فيها سعيداً مع إلسا؟

ثلج في دورنبورغ. وفي السنة الماضية، في غوتشلوس، أعطته المديرة فراش غوته.

دفاتر ١٩٢٤:

(١) المستغرق: (على وزن المستشرق): المتخصص في الحضارة الإغريقية! (المترجم)

قيل لها إنني كاتب، فاعتقدت أنني سوف أسعد كثيراً إذا نمت في فراش زميلي ...
لكنني لست رومنسياً ، ولا امرأة، ورفضت النوم في فراش «الجبار» ...

نمت في سريري، الذي نمت فيه السنة الماضية، وفي الحلم شاهدت هذه الرؤيا:

الحرب مشتعلة والجنرال ينظر إلي. قال لي : - لا تذهب! تعال، وحارب أنت أيضاً!
وتملكني نوع من الرعب. في أحلامي عندما أذهب إلى الحرب، أو نحو خطر ما، تنتابني دائماً رعشة خوف، بينما، في الحياة، أتصرف بشجاعة كلما تطلبت المناسبة. ونظراً لكوني غير شجاع في أحلامي، فانا أعتقد أنني جبان في أعماقي. ويبدو أنني أتوصل إلى السيطرة على خوفي من باب الكبرياء، لأنني أخجل من نفسي. وتواصل حلمي كما يلي :
توقفت مرتعداً، لكنني كنت مستعداً للقتال. ثم فكر الجنرال قليلاً وقال لي : - لكنك لا تستطيع القتال على اليمين، لأنك تنظر أيضاً إلى اليسار. لذلك سوف تحمل المؤن إلى اليمين وإلى اليسار لكلا الجيشين ...

يوم ٢ يناير، تجول كازنتزاكي في الثلج، ومكث يستريح، مدخناً، أمام المدفأة،
متأملاً تمثالاً صغيراً لنفرتيتي ينوي اهداءه إلى إلسا :

وضعت نفرتيتي أمامي ... ومكثت اتأملها بفرح عارم حتى أحسست بأن الزمن شيء عميق حقاً، فيما وراء الامتداد الميقاتي، وأنه غني، ملون، مقدس، منساب، أبدي، مملوء بمفاجآت اللمس والسمع - مثل الموسيقى، مثل الماء ...

بعد منتصف النهار ثمة امرأة [إلسا] ... ألقت بحفنة ثلج على نافذتي. كيف علمت بمجيئي؟ الأصوات الغامضة للأرض تتكلم وتحرّض جسد المرأة الحار. تبحث روح الرجل عن منفذ للهروب من هذه الأرض المحاصرة، والتوجه إلى خلاصه. فتأتي المرأة، تجسداً إلهياً لكل القوى المعاكسة، وتوقفه وتضمّه ...

... لقد ولدت [إلسا] في قرية ثلجية صغيرة في المانيا، ومع ذلك يلمع فيها حنين إلى الشرق. عندما يملكها الحب - قالت لي - في الحلم أو في اليقظة، تحلم بأراضٍ استوائية. كما لو أن النوم والحب من طبيعة واحدة ... ذكرى وتحرّر مفاجيء. ثمة فصيلة من الشياه تعمد، لدى اقتراب الانجاب، إلى القفز فوق السياج، وتركض ضائعة، لمدة أيام، متجهة صوب البلد الذي وُلدت فيه. كذلك الحب يوقظ في هذه المرأة الشمالية الشابة، والصامتة، ذكريات وانفعالات، وبعد آلاف السنين، ترحل باتجاه الجنوب حيث رأى أسلاف الإنسان النور ...

.... لدى عودتي هذا المساء، وجدت على المائدة ضيفاً جديداً. إنه بروسي عجوز، ضامر، مربع، منقوش في جذع شجرة، مستنفذ بالعمل. عندما يتحرك، يئز مثل بيت خشبي متداع. يلتزم الصمت ويأكل بلا فرح، ومن دون مضغ - مثل شخص يرمي حطباً في موقد ...

ارتبكت لحظة. شاهدت تحول الإنسان إلى بهيمة، وأكثر من ذلك، إلى مادة، رأيت الروح تثبت بلا حراك داخل الجسد المنطفيء، بلا نسغ، بلا ذكرى، بلا خيال ...

لو كان في إمكاني بَعَثُ هذا العجوز! فجأة تملكني قلق مريع. كما لو كنت أحاول إنقاذ المادة كلها، ومن ثم الروح، وليس هذا العجوز فقط.

عندما فرغنا من الأكل جرجر الشيخ نفسه واستند إلى المدفأة وثقل جفناه. تجاوزتُ خوفي واقتربت منه وبدأتُ أتكلم. لكنه ظل غائباً لا يريد الإنصات. حاولتُ أن أوقظ فيه صورة القرية التي ولد فيها وصورة زوجته وأحفاده. غير أن كل شيء فيه بان منطفئاً: زوجته ماتت ولا يكاد يتذكرها. - هل كان شعرها كستنائياً؟ أم أشقر؟ - كان أبيض! لا يتذكرها إلا بشعر أبيض. أبناؤه كشفوا عن جحودهم وتقاسموا أراضيه قبل موته، وأحفاده يضايقونه ...

- هل سافرت؟

- نعم سافرت.

- أين؟

- هنا وهناك، كيف أتذكر ذلك؟

- هل تذكر أين احتسيت أفضل نبيذ؟ وأين رأيت أجمل امرأة؟

- ها ها ها!

ابتدأ يضحك بصوت خافت وعيناه تبرقان. وشرع يتذكر.

وقليلاً قليلاً بدأ يعود إلى الحياة ... وكل الذين عرفهم - من أصدقاء وأقارب ونساء وأعداء - أدرك فجأة أنهم يثوون تحت التراب ... من دون أن يعي ذلك، وإذا نوع من الانفصال يلطف صوته، ويدفئ ركبتيه. وتضيء عيناه. فيشع بطيبة لم تكن ملكه.

وها هو ذا الآن ينظر وراءه، ويشاهد كل شيء من أعلى، من بعيد، ومن دون انفعال،

من دون متعة، مثل روح سامية. دام كل ذلك ثانية واحدة ثم هوى من عليائه، أحس بالارهاق وأراد الاتكاء على المدفأة، والاستغراق في النوم. لكنني منعتة من ذلك، أمسكت بركبتيه، أبعدت ظهره عن المدفأة، أمطرتة بالأسئلة، سمته العذاب، أبقيته بحضر وقلق...

وفي منتصف الليل، تركته، أخيراً. أرهقت أنا أيضاً ونمت. ودائماً أحاول تذكر أحلامي، لأنها تساعدني كثيراً في يقظتي.

أمامي بحرٌ داكن يغلي، وكانت السماء واطئة وحالكة السواد. نظرت في البعيد إلى مركب مندفع بشرع مثلث تنفخه الريح، ويشع نوراً. ولدى رؤيته هتفت بهلع:
- قلبي !

بين ١٠ و ١١ يناير، تظهر «السيدة الصغيرة»^(١) مجدداً :

... لم أعود بعد هذه المعجزة : كائنات بشريان، بالأمس كان أحدهما يحمل الآخر، كائنات من عرق وحياة وبلاد مختلفة، يتقابلان فجأة ويتحدان جسدياً. ويتعرفان إلى بعضهما أفضل وأعمق من أم وابنة، من أخ وأخت. قالت «ليس لي غيرك في العالم!» هذه الجملة البسيطة جعلتني أرتجف بسبب اللغز الذي يلفنا ...

يوم ١٨ يناير ١٩٢٤ . غادر كازننتزاكي المانيا. وكانت ايطاليا لاتزال تجذبه، لذلك قرر العودة إلى المدن التي زارها أثناء سنواته الطالبة.

٢١ يناير - أتسكع في نابولي ولا أصدق عيني. صياح في الشارع، تين شوكي، قشور برتقال على الأرض، خرق ملونة على كل الشرفات ... حياة ملأى بالروائح، والأوساخ، والصياح، والشتائم، رجال يبصقون، يدخلون أصابعهم في أنوفهم مطوّلاً، يؤمّون كثيراً، يتكلمون وحدهم مثل مشعوذين، ممثلون سابقون يتزينون بالريش، ويتلفعون ب «بكرينات»^(٢)، ويعتمرون قبعات على طريقة نابليون، جادين، مثيرين للسخرية، شحاذون يرسمون «المادونا»^(٣) على الرصيف ويلتقطون القروش القليلة التي يرمي بها المارة، عليها. في منتصف النهار شاهدت امرأة منحنية الرأس إلى الوراء، على كرسي، وأخرى تدعكها ... اقتربت خائفاً ... كانت تمشط لها شعرها!

(١) هكذا كانت تدعى إلسا في غوتشلووس.

(٢) Pe'lerine وشاح نسوي طويل الأطراف. (المترجم)

(٣) صورة العذراء (المترجم).

وفيما بعد، عندما رأيت أول حمار في الشارع، كدت أهرع إليه لأقبله، كما لو رأيت يونانياً...

يا للمرارة. كم تلمع العيون الواسعة، ملتهبة، في أسمال، واسترخاء! كل هذه الروح تضيق لغياب الانضباط. تتلاشى في ارتجالات متوهمين، في أغاني خفيفة، مرحة، في هيجان عقيم... قال لي مراهق رائع وشاحب. «لماذا التفكير؟» «كل شيء باطل أمام مثل هذا الجمال» ومن شأن التفكير هنا أن يقطع الإنسجام. أناس الشمال يفكرون بغريزة دفاع ذاتي، طلباً للهروب من البشاعة المحيطة بهم... أما الفكر هنا فهو غير مُجدٍ.

حقاً، إن هذه المدينة حورية بحر، وهذا البحر أيضاً. لقد تملكتني كل هذه العذوبة، وسحرتني، فبت سعيداً، عاطلاً. يتوجب عليّ الابتعاد بسرعة عن هذا المكان.

وفي السنة نفسها ذهب أنجيلوس سكليانوس كي يحجّ إلى القدس، وتذكر صديقه، فكتب إليه رسالة طويلة أرفقها بصورة له «كي أذكرك بوجهي» كما قال. وهذه السطور المفعمة بصور شعرية وحيوية صوفية، تشهد على عمق الصداقة التي تربط بينهما، وعلى اختلاف طبيعة كليهما، وطريقته، في التوصل إلى الهدف ذاته: «بلوغ ذروة الذات».

صديقي المحبوب،

... في حين كان يتوجب عليّ، بعد افتراقنا، أن أترك رأسي يتحول إلى حجر في مفترق طرق أو في سيل، بحيث ترسم عجالات القرن حولي شبكة طرقات كثيفة بما يكفي حتى تعكس، في شكل ذي امتلاء صوفي، مشكلة حريتي - أدركت أن قليلاً من المقاومة، مهما كان ضعف المقاومة الروحية، قادر على امتصاص انفعالات الكون وتحويلها، بوسائله الخاصة، حتى تنبجس - مثل فجر فوق كل موجات الزمن الأفقية، مثل جسد إله متوج بالزنابق، وممتلئ بإيقاع جديد لا يُقهر. تجربتي خلال هذا الوقت، كما كتبت ذلك في مكان آخر، تشبه تجربة فرس القتال الذي كان الاسكندنافيون القدامى يهدونه إلى ربة الحرب، فلا يتوقف، في المعبد البعيد، عن التعرق وإفراز الزبد ما دامت هناك معركة تنشب في مكان ما، من الأرض، وهذا هو السبب تحديداً الذي يجعله أشبه بتجسيد لسكينة صوفية لا حدود لها... فإذا كان جسدي الروحي بعد هذه التجربة، لم يعد مروّضاً مثل إله معادٍ... بل تحرّر تماماً، ببلوغ درجة الصفاء التي يغدو العمل الأكبر ممكناً، انطلاقاً منها وحدها، وهو العمل الوحيد الذي يستحق أن نسّميه عملاً، والذي

يستطيع اجتياز كل الطبقات الراهنة للمادة ويسبغ على كل فعل أرقى درجات الشرف، إذن، إذا رفض جسدي الروحي كل نوع من أنواع «الحياة المختلطة»، وهي حياة كل «الناس المفكرين» بلا استثناء، فإنك لن تغزو ذلك إلى مبالغتي، بل سوف نستقبله فوراً في عمق تنفسك. كما تستقبل هواء الفجر الطاهر. وكان في إمكاني مخاطبة أناس ضحوا ظاهرياً بملكوتهم الغنوصي^(١) المزعوم، وباتوا يتحركون بكثافة حيوية وروحية، ويجهدون أنفسهم من أجل إعلاء صرامة كيانهم الأسمى. غير أن مثل أولئك الرجال المرتقين إلى تلقائية ممتلئة وواعية، ليس لهم وجود، وأنت تعرف ذلك، وإذا كانوا موجودين، هل يتجاوز عددهم الثلاثة؟ لا أعتقد.

أما بالنسبة للآخرين، فانا متأكد من أن جذور كيانهم المفكر معروضة في منتهى السطحية داخل الرواسب الراهنة للتاريخ، وهم أبعد ما يكونون عن مركز المعركة، حتى أن الأحجار والأشجار من شأنها أن تهتز أكثر منهم بتأثير «كلمة» الحياة الأسمى، والحال أنهم يستطيعون أن يحققوا، في ذواتهم، وحدة الفكر والفعل المطلوبة على هذا المستوى...

عندما كنت أجهد نفسي لأتمكن من إخراج أدنى حصاة، أجعل بها الفضاء حولي يتلألأ مثل زمردة، كنت^(٢) دائماً في ذهني. ولقد تشبثت بك رغبتني المحتدمة، وظلت تحتفظ بك دائماً، أود، إذا لم يرهقك ذلك، أن أعرف توقك الأعماق إزاء مشكلتك المماثلة، كما قد تصيغها أنت من أجلي. تعرف أنني لم أطلبك بتاتا، وأنني بقيت صامتاً أمام صمتك، لكن الوقت حان كي أطلب منك ذلك. لن تتردد في إجبار نفسك على اعتراف كامل، يحق لتعليقي الكامل وفوق البشري بك أن يطلبه منك للمرة الأولى - والأخيرة إذا لزم الأمر.

«دائماً لك»

«أنجيلوس»

هذه الرسالة التي نسخها نيكوس كازنتزاكي في دفتره، قد تكون رداً مناسباً لسكليانوس:

... أفهم صراعك. وأعرف أنه يتوجب على المرء في اليونان أن يكون شجاعاً كي يدافع عن نفسه، ولا ينحط.

(١) نسبة إلى الغنوصية، وهي نزعة فلسفية دينية، تسعى إلى إدراك كنه الأسرار الربانية. (المترجم).

(٢) تشديد على ضمير المخاطب، في نوع من الإيحاء بالتسامي (المترجم).

عندما كنت في اليونان، كنت أقول إنه يتوجب علينا أن نتوحد، نحن الثلاثة أو الخمسة، الذين نريد الوفاء لمثلنا الأعلى ومحاولة المقاومة، من دون أن تقتصر على المقاومة، إذ يتوجب علينا الهجوم أيضاً، كي نتمكن من تحويل المادة، وكذلك أحشاء الناس الذين يعارضوننا، إلى روح.

شعرت أن ذلك سابق لأوانه في اليونان. وبالنسبة لنا، نحن الرجال الثلاثة أو الخمسة، ما زلنا في مرحلة الأغراض، أو الطلائع، وسواء شئنا أم أبينا، سوف نعيش ونصل ونموت معزولين، ليس من العامة، بل من أتباعنا. أنا أيضاً مثلك، وحيد. وإذا كنت قد اخترت موقع معركتي في الخارج، فإن ذلك ليس ناجماً عن جبن بل عن معرفة عميقة ومؤلمة بقواي. لقد وهبني الإله غرائز واندفاعات، وذبذبات نور، وظلمات، ومادة وروحاً، وأنا أختار أفضل الظروف كي أحول المادة إلى روح وأخوض المعركة. بهذا الشرط وحده سوف تكتسب حياتي وشخصيتي - ضمن الكل - بعض القيمة، التي قد تكون زهيدة، لكنها بمستوى إمكاناتي. إن معرفة العصر الذي كتب علينا أن نولد فيه، وضبط أفعالنا وفق إيقاعه، هما الشرط الضروري لأي انسجام خصب..

هجرني أعز أصدقائي، وما من أحد في العالم يهتم بي، ولهذا أهتم بالجميع. أشعر أنني حرّ وأنني أستطيع التصرف في حياتي كما يروق لي، من دون أن أزعج أحداً. إنها الاستقلالية الأسمى، العزلة الأتقى، الصمت الإلهي بالنسبة لمن يعملون. أرجو من الله أن يديم هذا الصمت وهذه العزلة طوال حياتي.

فلنأخذ كل ما يمكن أن يُعطيه كل بلد. ولننتفع بأفضل ما في موارد هذه الأرض الخالدة، المحبوبة...

يوم ٧ فبراير من العام نفسه، سرد كازنتزاكي، في دفتره، لقاءً مع مارينيتي في فندق «لندن» بنابولي:

سألته ما هي المستقبلية. - التعبير عن جمال ونبل المحركات، والقاطرات، والطائرات، والحياة العصرية بعامة. لقد كان الإغريقي القديم يتأمل وجه الإنسان باحثاً عن رمز لتخليد جماله. أما أنا، فأرغب في فعل الشيء نفسه، عندما أتأمل محركاً.

- إن رسم وجه إنسان، أو محرك، وكل الظواهر بشكل عام، أجبتّه، ما هو إلا الوسيلة التي يستخدمها الفنّ. لكن الجوهر كان، ولا يزال، متمثلاً في ما يستشعره الفنان خلف الظواهر وما يحاول التعبير عنه من خلالها. ما هو جوهر كل الظواهر، حسب

المستقبلية؟ وما الوجه الذي تعطيه المستقبلية للقوة الغامضة والأبدية التي تفعل فعلها في ما هو أبعد من الإنسان والمحرك؟

- لم تتوصل المستقبلية إلى ذلك بعد. إنها تصارع. تنظر إلى المحركات، والقاطرات الخ.... وتكدّ بأناة، من خلالها، كي تصل (إلى تفسير).

- هذه طريقة العلم وليست طريقة الفن! فالفنّ، بالمقابل، هو نتيجة اتصال حُدسي بالحقيقة الكبرى. رؤيا. ثم، بكل بساطة، ومن دون جهد، تأتي التفاصيل وتعبّر عن ذاتها.

مكث مارينيتي متأملاً، إنّه من طبيعة انفجارية، قتالية، ساذجة، شجاعة.... ذهبنا جميعاً، مع كتيبة من تلاميذه، إلى المسرح. محاضرة لمارينيتي، معرض رسوم (مهمّة). رقصات تعبيرية، مسرحية درامية: قاطرتان (١) inomorate del capostazione . دراما قصيرة لمارينيتي: عذراء على الجدار، مائدة وسلّة مهملات.

جهود مثيرة للسخرية، وحدها الرسوم كانت ذات قيمة، الموسيقى عادية، ولا تثير حتّى الضحك. ومع ذلك فإن الشجاعة التي يتحمل بها مارينيتي التهكمات، تثير الإعجاب، صرخات، مقاطعات، تصفير، ضحك - وهو يتابع.... كانت القاعة كلها، هي المسرح، وهذا الرجل هو المأساة. يريد الإتيان بالجديد لأناس يقاومون ويشتمونه. ثمة شيخ خرج عن طوره وصاح: (٢) No vogliamo capire! -

بعد زيارة إلى بومباي، يوم ١٨ فبراير، نسخ في دفتره رسالة موجهة إلى راحيل:

أقبية بومباي ملأى وغاصة، النساء جميلات، يخرجن من الحمام... عقيمات. الرجال فرحون، شهوانيون، روحانيون، ساخرون ومتعبون، كل الآلهة - اليونانية والأسبورية، مجتمعة في بؤس ديمقراطي، تضحك، وتتقاسم في ما بينها، بكل تخاذل، الهبات والأرواح. والمدينة بكاملها، مستلقية على شاطئ البحر، كانت هناك تتعفن مثل جيفة.

(١) بالايطالية في الأصل ومعناها: قاطرتان عاشقتان لرئيس المحطة! (المترجم).

(٢) لا نريد الفهم (المترجم)

وتعرّفت النسر الضخمة، النسر الرائعة، في الهواء، على النتونة. الأرواح الإلهية تغلي، ومن بركان، كأنه فمه، تكلم الإله.

راحيل، لم يسبق لمنخري استنشاق مثل هذه البهجة، طيلة الأعوام الأخيرة، منذ أن صرت أقيس درجة تعفن العالم. أشعر أن نسرأ إلهياً يسكن جمجمتي، مشرع الجناحين. إنه جائع ولا يحب بني البشر، ويفكر في راحيل، ودينا، وايتكا، كما يفكر في Mitgeherinen (١).

يوم ٢٥ يناير، في أسيز، سجل كلزنتزاكي في دفاتره :

... الأجراس تناغم عميق ... صوت سان - روفان (٢) الوقور، ثم صوت ناعم وفضي متأت من سانتا - كلير، يعانق التموجات الذكورية الصارمة، وتتمايز أصوات الأجراس بوضوح ضمن اتحادها وامتزاجها، مثل الرجل ذي البشرة السمراء البرونزية والمرأة ذات اللون اللحمي الشاحب. وعندما تسكت تلك الأجراس، لحظات، ثم دنغ! سانتا كلير تدق مرة واحدة، مثل تحد وإثارة. وبعد قليل، دنغ! مرة أخرى. وها هو الصوت الثقيل لسان - روفان يخفت، ويصل من بعيد صوت سان فرانسوا. عندئذ تبدأ في الأجواء لعبة فرح وحب، أشبه برقصة.

أبدأ لم يسبق لي أن لاحظت بأن الأجراس نفسها لا تفتقر إلى علاقة جنسية..

كنت أقرأ «لي فيورييتي» أساطير القديس فرانسوا، الذي عبّر عن مقتله الشديد لهذه الحياة، وحبّه للبشاعة، والتواضع، والفقر، وتحمّسه للعودة إلى السماء، ومغادرة هذه الأرض البائسة... وفجأة فتحت المختارات اتفاقاً فقرأت أغانينا الشعبية:

أمسكوني كي أقوم ، أمسكوني حتى أجلس،

انصبوا لي غصناً، هنا، كي أستريح،

وهاتوا لي المزهري كي أغني بهدوء،

أه، يا لشاربي الفاحمين، وحاجبي المرسومين بدقة،

وأنت يا تسامبا (٣) المزهوة، مرمية على الظهر!

(١) رفيقات النسر.

(٢) أسماء كنائس (المترجم)

(٣) الشعر المضاف إلى الورا «ذيل الحصان» (المترجم).

أَوَاه ، ستلتهمك الأرض السوداء والتربة البائسة!»

لو انتشرت الأفكار الأساسية لسان فرانسوا - الفقر ، العفة - في العالم كله، ولو صار العالم كله فرانسيسكانياً، لذهب إلى خسارته.

ولو أن سان فرانسوا بشر بفضائل سهلة الممارسة.. لكان تأثيره صفراً.

لا بدّ من تعظيم مثال أعلى يكون دائماً فوق إمكانيات البشر. وهذا ما يوقظ القوة الصوفية والتوتر المؤلم والخصب، داخل الروح، من أجل بلوغ المتعذّر بلوغه، ومن هنا القلق، والبكاء، وعدم الرضى الأبدى. هكذا فقط، تصير الحميا أقوى لكي يتوتر الإنسان مثل قوس، ويرفض المساومة ويبلغ المثل الأعلى.

أتجول في أحضان هذا الجمال الأرضي - الربيع، الهواء، الأغصان المزهرة - وأتحسّر على الغرفة الصغيرة التي تسكنها... اليهودية «ل» في برلين - سمكة رنكة على المائدة، فجاجين غير متجانسة ومثلمة، ملائ بشاي يشربه يهود وروس وهم يدخنون ويتحدّثون عن الإله، والثورة. أما الهدوء، والغزليات، وفصول الربيع الأرضية، فليست من نصيبنا، الروح تتألم وترغب في التفتح.

ويضيف لاحقاً:

١٣ ابريل . اغادر أسيز . الكونتيسة تبكي (١) :

ويطول توديعه لإيطاليا : بادوفا، البندقية، وأخيراً برنديسي (من ٢٩ ابريل إلى ٣ مايو) وهناك يتذكر إلسا التي فارقها في رافان:

.... أحبّ المرافئ كثيراً، الهواء المالح، العجائز الوسخات، الصبايا اللائي يرحن ويجئن في المساء بفساتين قصيرة، وعيونهنّ مزينة، وأصواتهنّ بخاء. لست مقلهاً، أجلس على شاطئ البحر، وأتذوق اللحظة، بأناة وعمق. أنظر إلى كل شيء، أفرن، أنظم، أحس بالإله يثب في داخلي وينتفخ مثل الفقّوس (٢) في البساتين الكريتيّة، كل شيء يلتهب. القطران، البصل، والرجال البدينون الذين بدأوا يتحلّلون، البحر أزرق، النوتيّة ثملون، البيوت الصغيرة مفتوحة على الشارع مع سرير واسع يتوسّطها - ساحة

(١) انظر «موازنة حياة» الذي نُشر بعنوان «تقرير إلى غريكو» كانت الكونتيسة «انريشيتا بوسي» مسنة جداً لكنها جميلة وغنجة وروحانية، وينزل عندها نيكوس كازنتزاكي عندما يزور أسيز.

(٢) أو «الخيار»، (المترجم)

المعركة الوحيدة لدى العمال البائسين. لقد ولدت أفروديت ذات مساء في مرفأ شرقي يشبه هذا المرفأ، عارية، عارمة الصدر، مطلية الأظافر والعينين والشفتين. تلك إحدى تجليات النوتية.

أغادر برنديسي يوم ٣-٥-١٩٢٤

ومثل نشال هارب من عدوه خشية أن ينهبه بدوره، هرع نيكوس كازنتزاكي كي يعهد ببذرتة الجديدة إلى تربة أجداده. بشارة مستقبلية، وقد اتخذ الملاك سمات لينين، ولم تعد الزنبقة سوى شعلة نار بين يديه، ثم «المادونا» - كريت بوشاح الأرملة، ويدها على بطنها، ذلك الرحم الذي تختمر فيه جثث أبنائها بخميرة أجيال قادمة.

استراحة قصيرة في أثينا. لقاءنا الأول. يسر كلانا الآخر ويبحث عنه. القبلية الأولى، محتشمة، قبلية أخ.

ثم في «ليدا». وحدنا مع البحر. انزعاج وفرح ممتزجان. مفاجأة اكتشاف تمثال أمير من كنوسوس، أصيل، وراء قناع منقوش على عجل في خشب زيتون ملوي، وانزعاج متأث من رفضه أن تحول أية خرقة دون جسدينا والبحر. ومع ذلك كان ذا طبيعة في منتهى الاحتشام، وتوجب علي الانتظار، والعيش إلى جانبه في جزيرة، كان أكتشف دوافع سلوكه في ليدا وإجلاله للعنصر المجدد... -furcht-bare Qual - عذاب مريع - كتبت في دفتر. لقد تعذبت إذا، كي تترك لي فرصة التفتح. وما زلت أرى وجهي في حدقتيك اللتين بلون البندق. مرأتان سحريتان، تعكسان صورة مَجْمَلة تهبك قوة وثقة.

هيركليون، ١٩٢٤ (١)

رفيقتي العزيزة، العزيزة،

ذهبت إلى البحر منذ الصباح وبقيت أنتظر. اليوم تأتي إلسا، وسوف تبقى بضع ساعات ثم تذهب. الجو غائم، ، والسماء تمطر رذاذاً، أشعر بالخجل عندما أفكر بأن

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

كريت ستتمرأى، تحت مثل هذا اليوم الكئيب، في عيني تلك المرأة الرائعة. أحيانا أحس بكريت مثل جسدي، وأشعر بمسؤولية شخصية إذا رحت متألقة، مستغرقة في الشمس، ضاحكة، أو بالعكس. ربّما لن نلتقي بالسا، لأنها قالت لي في رسالتها الأخيرة بأنها لم تقرر المجيء بعد. سوف أنتظر في الميناء إذن... وأكتب إليك. إذ أنك أحببتّها، من خلال بعض جملها، تلك المرأة المنغلقة، الشغوفة والصامتة. إنّها لطيفة، سمراء، وليست جميلة بتاتاً، عنيدة...

«عوليس» يكبر ويلتهم أحشائي. أحاول، أثناء الكتابة، خنق الصوت الصغير المريع الذي ينادي في داخلي باستمرار بأن الحياة شيء آخر، شيء أعمق، أكثر إشراقاً، وأشدّ نزيهاً من هذه التمارين بالحبر.

كيف اقتصرتُ على أن أكون عالماً، على أن أولف كتباً، وأحوّل هدف جهدي الفظيع إلى مجرد نقل لحرارة الجسد الساخن للإنسان والحيوان، وتحويل قداسة ذلك الجسد، إلى كتابة على ورق فاقد للحياة ومفتقر إلى الدم؟ أنا رجل اللمس، أنا الذي لا أصدق إلا الأشياء التي ألمسها، أنا الذي ركّزت كلّ قيمة الحياة في يدي. وليس في الخيال الأكال للحشيش!

رفيقتي العزيزة كان في إمكاني الرحيل بلا عودة. وهكذا أغادر الأرض، بكل بساطة وهدوء - ليس لأنني لا أشعر بقيمتها، بل من فرط إحساسي بها تحديداً، ولأنني أحسّ بها أكثر ممّا هو مسموح به للإنسان. ما من تفاصيل تستطيع الاستحواذ عليّ، وتقييم فكري، أو تجعلني سجين حلقة من العادات المحبّبة إليّ. أنظر بوضوح شديد وبقسوة إلى الحلقة الواسعة. إلى الدائرة الأوسع. وما أن أمشي وأرى، لأول مرة، جبلاً جديدة، وأنهاراً، وأشجاراً، وبشراً، حتّى أراجع وأكفّ عن التعلق بمغادرة الأرض.

أتذكّر، عندما بدأ الظلام يخيم وكنا متمدّدين على الرمل الدافئ، أنت جالسة، وأنا مستلقٍ على ظهري، أتذكر كم كنت أرتجف محاولاً موازنة قوى الكون المتناقضة والمخيفة، وتثبيتها في سكون خارجي، تلك القوى التي التجأت، لثانية واحدة، إلى جمجمتي، وتجسّدت فيها. فماذا كانت تعني؟ هل هي رجل وامرأة مستلقيان، مساء، أمام البحر - لكن هل يوجد شيء آخر أسمى من ذلك، في الكون كله؟ كنا جيشين بعمر القرون، ممتلئين بالحب، والحق، والفضول، والترقب.

كنتُ مدركاً ذلك، وأحاول تدريبك، من خلال كلمات بشرية تافهة، ممسكاً بيدك، في عتمة سراديب الموتى، سراديب موتى الإله.

كانت هناك لحظات تكرهينني فيها، أو تحبينني، أو تريدان الذهاب، وأخرى تريدان فيها البقاء معي إلى الأبد، وهكذا عشت بالتناوب، كل الجواهر المقدس والمتقلب لقلق الإله. ثم، عندما تبرز النجوم، ويهدأ الصراع، ويلين قلبك - لأنك، من دون إدراك، كنت تتوافقين مع الحركة المقدسة والمشرقة للسماء، أي للأرض.

أتكلم، وتحملني فكرة وجودنا معاً أمام البحر، في الصحراء. لقد خيم الظلام والسماء تمطر برتابة، بيأس، وأنا أتابع كتابة هذه الرسالة حتى أبقى قليلاً معك...

... ظلت السفينة راسية لمدة يومين في الميناء ثارت عاصفة هوجاء حالت دون الرسو. واليوم ارتحلت السفينة إلى الاسكندرية. وهكذا لم أر إلسا. أنا مقتنع بأن ذلك أفضل..

هيركليون (سبتمبر ١٩٢٤) (١)

رفيقتي العزيزة

أسكن وحدي في بيت جيورجياديس، قرب البحر. أحياناً، في هذه العزلة الكاملة، وأنا أتأمل الأمواج، والصخور، وتحليق الغربان، أحس فجأة بالسعادة. أكتب طوال النهار، وفي بعض المرات أبتهج لأن ما أكتبه يبدو لي ممتلئاً بالحرارة، والألم والحب، صرخة في منتهى الصدق. ينتهي الإله، طوعاً أو كرهاً، بالاستماع إليها.

أه، لو كنت أتمتع ببعض الهدوء والوقت، كي أتوصل إلى ذلك! أوجد الآن في سمّتي قوتي، ولا أريد إضاعة ساعة واحدة. منذ الفجر، أنحني على الورق وأكتب وأصارع كي أنقذ روحي. وسوف أفعل ذلك ما دمت قادراً. ليس من أجل أن يعرف الناس بوجود رؤيا مشبوبة و متموجة في هذا الرأس الأسود، بل من أجل إنقاذ روحي حقاً، وذلك بعد اختفاء جسدي الزائل. رفيقتي، كل يوم أحس بفكري يتقدم، وقلبي ينجلي، وبأن عودتنا إلى العيش معاً، من شأنها أن تجعلني أفضل، معك، أهدأ وأكثر حرارة. وإذا مت فجأة فإن عيني المغمضتين سوف تمتلئان بمراى بحر «ليدا»... وصخرتنا، والأصداف الساخنة، وأشجار الليمون المحروقة، وجسدك المشيق الصلب، وشفتيك المزمومتين، الضننيتين بالكلام. هذه الأرض ملأى بالمعجزات، وقلبنا لغز يحول كل جحيم الأرض إلى نشوة مقدسة. هل تذكرين تلهفنا على تحويل «ليدا» إلى فردوس؟

أكتب «عوليس» (٢)، قلبي يذوب، عوليس، هيلينا، نفرتيتي، يا إلهي ما أشد قلقي

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) كتاب «الأوديسة».

لإنقاذهم، وإيوائهم في بيت شعري في منتهى الكمال. إنَّه الكتاب الذي سوف أحمله معي إلى القبر - مثل المصريين القدامى الذين كان بحوزتهم زورق خشبي صغير من أجل اجتياز الجحيم. لو أننا كنَّا معاً في الزورق نفسه، فوق المياه الباطنية الداكنة، يا رفيقتي! طيلة هذه الأيام، والليالي، أمسك بك في فكري، بقوة هائلة لا يمكنك عدم الإحساس بها، مهما كان عجز الحواس البشرية. أقول لنفسي إنَّه البحر المزمجرب باستمرار أمامي، ولهذا تأتي أحلامي هذه الليالي ممتلئة بحضورك، بطريقة غير معترف بها ولا يمكن أن تقال.

وهكذا فإنك مرتبطة، في قلبي، بعنصر خالد، هو البحر. مبارك هو، يا رفيقتي بحر ليبيا!

... مريض. عدة أيام في الفراش - حمى وغُسر تنفس. أعرف : أنها صدمة نفسية. أتحرَّر من بعض الأشخاص، وخاصة ليفتيريس الذي كنت أحبه، ولا يحدث ذلك من دون إنهاك نفسياني. حصل لي الأمر ذاته مع سكليانوس، وفيما بعد، مع أسفاكياناكيس. جسدي يطيع روعي باهتمام ووفاء. سوف يتوصل إلى الفهم، متأخراً قليلاً، وهو يصارع ليقتفي أثر الروح.

اليوم أحسَّ بأنني في وضع أفضل، أمل الذهاب إلى البحر غداً. السماء خريفية، سحب خفيفة وبروق مذنوقة، في المساء. معي، في سريرتي، دفتر أسجَل عليه، باستمرار، ملاحظات حول «عوليس». هناك بضعة أحلام ساعدتني في الليالي الأخيرة. علامات جيدة. هذا يؤكد أنَّ اللاشعور يعمل وأنا أثق به مطلقاً. ولا أثق بالمنطق البائس، الضيق والمتعجرف، لدى الإنسان.

في هذه الأيام والليالي تلمع قبة أفكار برؤية الحضارات الكريتية والمصرية - لإنهما المرحلتان الأوليان في رحلة عوليس الثانية. أشعر بسعادة في منتهى القسوة واللا إنسانية. خلال إصابتي بالحمى كنت أغمض عيني وأراني أودع كل الأشخاص الذين أحبهم. وكانوا كلهم نساء. إذاً فإنَّ النساء، فقط، هنَّ اللائي سوف يأتين لتوديعي ويبكين. أعرف، ما من رجل واحد، بمن فيهم والدي - لأنَّ عدد النساء سوف يكون كبيراً آنذاك.

رفيقتي العزيزة اكتب لي مطولاً. إنَّ رسائلك جافة، صارمة، كالتقارير. كما لو أنك تخشين أن يقرأها أحدهم. أه، دعي القلب يعوي!

اليوطوبيا الكبرى
1939 - 1924

هيراكليون (خريف ١٩٢٤) (١)

رفيقتي العزيزة،

تسيطر عليّ الروح مرّة أخرى، طائراً دموياً كاسراً. أنحني على الورق، كامل النهار، فاتمّزق وأتعذب بدرجة لا أستطيع وصفها لك. «وكما جمجمة تتصدّع، مفرقة على نار المحرقة، أنصت، في سكون أفكاري، إلى الأرض كلها تتشقق!»

هذه الكلمات التي كتبتها مرّة في «بوذا» أشعر بها، بآلم وعمق. أنا الأرض ونار المحرقة والفكر الرائق ... ليس لديّ أيّ أمل، أو فرح، أو وهم.

أعرف أن لعبة الظل والضوء كلها، على وجه الأرض، وكلّ التظاهرات الرائعة : من زهور، ونساء، وبحر، وحشرات، وأفكار، ما هي إلّا دخان زائل يصعد من مفترق حواسنا الخمس.

ومع ذلك فأننا مسرور، أحبّ كلّ تلك الظلال بعنف، وأهب دمي كي تبعث، وتعيش فيّ، أبديةً، في لحظة، حتّى تستطيع الخلاص من البؤس والانحطاط، والموت. مع أنني أعلم أن مجمّتي، برغم صلابتها وهذيانها، سوف تتحطّم، وتقرّبها موجات الدود السّبع، فتفرّغها.

أجهد نفسي كي أعيش في أن واحد، كبرياء كلّ جهد وخلود كلّ لحظة. رفيقتي، كم كانت قليلة تلك السويّعات التي قضيناها في «ليدا»! متى أتمكن من العيش بقربك مجدّداً - حتّى لا تحزني أكثر من صمتي، ولا من كلامي، وتتمكّنني من معاشية أحزاني وأفراحي، والإمساك بروحي بين يديك مثل كرة برونزية؟ أعمل الآن على كتابة «الأوديسة». قلبي زورق شراعه أصفر، وممتلئ من الجوّجؤ إلى الكوئل، بـ «عوليس». لقد بدأ رحلته الثانية، ليجتاز كريت، أفريقيا، البحر الأبيض المتوسط، ويلتقي بأفكار، ونساء، وأعمال كان يرغب فيها، يتجاوز حدود الإنسان ويذهب - خالقاً الإله بجوّجؤ زورقه.

تعتقدين، يا رفيقتي أنني نسيتك في هذه الرحلة المريّة والأخيرة. ولا ترين نفسك جالسة في المركب، هادئة، صامتة، منضبطة، مهيمنة على قلبك، مضمومة الشفتين، نهمة، ومزهوّة. إلى أين نذهب؟ لقد وجّهنا الدفّة نحو الهاوية - غير أنّ عيوننا لا تكل من التمتع بهذا العالم. أنظر إليك فيهتزّ قلبي، لكنّ يديّ تمسكان جيّداً بالدفّة، وأنا ابتسم

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

إليك كي أشجعك...

أمضيتُ الليل كله معك، في الحلم. واستيقظت على شفتي وجفني مذاق حضورك الليلي. فهل هذا هو سبب كتابتي إليك اليوم؟ - لست أدري.

إنه المساء. ، لقد اشتعلت طيلة النهار، أشعر بالياس والصفاء - كل معركة النهار الفضيلة في خلاص محتدم وملح باتجاهك. إنها مكافأتي على يوم العمل، أجرتي.

أحمد الله، يا رفيقتي، على وجودك، أشكر يوم ١٨ مايو الذي رأيته فيه لأول مرة، وكل أيامنا وليالينا المقدسة في ليدا...

الماضي مثل سجادة تلتف وتتدحرج، يجرني القهقري إلى بلاد الذكرى. لم أعد شجرة، نسفاً تحميه أعوام اللحاء، بل نحلة متخبطة تحت رحمة عنكب عملاق. مومياء ما زال قلبها يدق.

هل كنت في موضعي «على متن المركب» الذي حملك إلى الضفة الأخرى؟ وعوض أن نغوص معاً في الرمال السوداء، لماذا تحولت إلى «ديبوك»^(١) جديدة؟.

يا لهذا الاسم من فخ، هذه الكنية التي ناديتني بها ذات يوم في «أرض إسرائيل»! اسم تنبؤي لأنني اليوم سجين سائس عربية لا يُرى، لكنه يمسك بالعنان جيداً...

كم مرة، متناسية الغياب، هرعت إلى عائدة لآتيك بالأخبار الجديدة:

فأعلمك بأن الراية منكسة فوق قلعة أتيب لأنك قضيت نحبك في فريبورغ... ثم رسالة من ألبير شويتزر يعترف بك أخاً، ثم كلمة شجاعة من الفاريز دل فايو، عندما كانت قبرص تسلك درب كريت الدموي...

هل تسمح لك عيناوي، وما زالتا تتوقفان عند التفاصيل، بالرؤية، أنت، يا جواهر الأشياء؟ هل أمتلك، هل أستطيع، أنا أيضاً، أن أمتلك تينك العينين السحريتين اللتين كانتا تقودانك في عزلة رحلاتك الطويلة؟

(١) شخصية أسطورية لفتاة، في الأدب العبري، يعيش خطيبها الميت في داخلها.

(هيراكليون ٢٧-١-٢٥ (١))

رفيقتي العزيزة،

أفكر فيك كل لحظة، أتصور كل متاعبك، وترددك، واندفاعات الرغبة - مغامرتك الشخصية تكبر في متحوّلة إلى رعب وعبث كونيّين، وإيقاع الكون يتجسد ويشكل ويكتسب صوتاً، وعذوبة، في وجهك الشاحب، المزهو، والجميل. كيف أكتب إليك. كيف أجعلك تشعرين، إلى الأبد أنني لا أنسى شيئاً، وأن نجومنا الثلاثة تقلّلاً دائماً في رأسي، وأني معك - سواء شئت أم أبيت، وسواء شئت أم أبيت؟

إذا أراد الناس، بشكل عام، أن يختبروا إحساساً ما، ويتوصلوا إلى وعيه، فإنهم يطلقون عليه اسماً. أما أنا فلا أبحث عن اسم - لكن ما أستشعره هو وحدة سرية تتضمن كل الرقة والقسوة، من دون بداية أو نهاية، إنه تعرّض إلى قوتين بلا وجه، قوتين رهيبتين تزوّبعان وتصارعان للتحرّر من أجسادنا الزائلة.

وإذا أنت استطعتِ الشعور بذلك دفعة واحدة، فسوف تكتسبين قوة، تجعلك تدركين أن العزلة لم تعد موجودة بالنسبة إليك، وأن العالم قد صار له معنى، والحياة صارت لها قيمة لا تُضاهي، قيمة أبدية...

رفيقتي، أيها المحيا المحبوب، أود، أنا أيضاً، أن أكون بقربك. لقد تعذبت وخبرت من الغم والفرح المتجدّدين، ما أظنّه كافياً ليُجعلني، أفهم كل أفراح وأحزان إخوتي وأخواتي، سوف نتحدّث عن ذلك، ومن جديد سوف أصارع كي أكسر مرآة فرّدانيتك، وعندئذ تشعرين بروعة العيش، والرؤية والسماع، والمشي تحت المطر أو تحت الشمس، والارتجاف من اليأس أو من اللذة، وتشعرين كذلك بكائن بشري يثب، بقربك، على نفس الإيقاع المقدس والجَزَع.

رفيقتي العزيزة، هل أتمكن من رؤيتك، ذات مرة، خارج اليونان؟ هل نمشي مرة أخرى معاً؟ كما فعلنا على شاطئ ليدا الفظيع، ونتوصل، كما حدث لنا هناك، إلى تحويل الجحيم إلى فردوس، بالصبر والمثابرة والحب؟

...أحياناً، وأنا أمشي، أشعر بالريح والمطر على رأسي الأفريقي، فأرتعش من اللذة. إلهي، إنني أعيش، أحسّ بالريح والمطر، أتعذب... كل رؤيا الأرض والسماء تنشج مثل ثمرة نارية بين أوراق وجودي الداكنة...

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

وكتب إلى ليّا :

كاندي ، ١٠-٣-١٩٢٥

ليّا ، ليّا ، رفيقتي - العزيزة - صاحبة سمك الرنكة، أيتها اليهودية الجميلة الرائعة... كم أفكر بعمق. أمل رؤيتك هذه السنة. سوف أذهب إلى فلسطين هذا الصيف - لقد صرت صهيونياً. أه، لماذا لم أكن يهودياً؟ لا أشعر باية صلة تربطني بشعبي! أشعر أنني في بيتي، وفي مناخي، عندما أكلم يهودياً ويهوديات، وأضحك، وأسكت...

ليّا ، أرجوك، اكتب لي، حدّثيني عن حياتك... أنا أخ، رفيق حقيقي يحبّ ويتعذّب. ارسل لي صورتك. لا تنسي ذلك!...

هيراكليون ٢-٥-٢٥ (١)

... في المساء، حتى منتصف الليل، أقرأ أي شيء، فلسفة، كتباً شيوعية، شعراً، ولا أعطي أية أهمية للاختيار، عوليس ما زال يكبر، ويلتهم قلبي. أرسلت لي راحيل بطبعة ألمانية جميلة من كتاب «غاندي» للمؤلف ل. رولاند، وكتبت تقول لي: «ها هوذا رجل لا يحبّ الكلمات مثلك» هذه اليهودية الصغيرة على حق. لكنها لا تدرك - فهي يهودية شابة جداً - إنه ليس من الجيد التسرّع في طلب تطوير الروح. أنضج دائماً بصعوبة فائقة، ذلك أن لولب روحي المضغوط جداً لا يتمدّد إلا ببطء قاس. توصلت أخيراً، في موضوع الايديولوجيا الشيوعية،، إلى نتائج غير منتظرة، تحيل إلى الوراء كل نظريات القديمة. دائماً الشيء ذاته. فقد تحررت من زمن العلم الذي تملّكني، ثم من زمن الفلسفة، كذلك سوف أتحرّر من الفنّ - ولن يتم لي ذلك إلا إذا أحببته حباً مميتاً، وعملت من أجله بكل شغف، وانصرفت إليه بكاملي. إنّها، كما أعتقد، طريقة الإله، إذ هكذا تحرّر من النبات، والحيوان، وهو يصارع اليوم للتحرر من الإنسان. لقد حاولت دائماً توحيد عدوين متكاملين: الهوى والوضوح، الهوى الملهب، والمنطق في أن واحد. فلا يعدّل العقل التهاب القلب ولا يربك القلب صفاء الروح...

هيراكليون ٢١-٥-٢٥ (٢)

... اليوم عيدك ولم أرغب في تركه يمرّ من دون الحديث إليك. أنا أيضاً أبارك اليوم - ذلك المساء في محطة القطار - الذي رأيته فيه لأول مرة. أرجو من الله أن نبقي رفيقين إلى

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس

نهاية هذه الحياة الزائلة والمملوءة بالمرارة - مع الكثير من المتاعب والكثير من الأفراح،
كما يليق بقلب الإنسان النابض..

(هيراكليون، ربيع ١٩٢٥) (١)

رفيقتي العزيزة

... أحاول هذه الأيام بعث أرواح الأسلاف القدامى في كنوسوس: أعيش رؤياي كلها،
أرى الوجوه، أبكي، أضحك، أحب مع كل النساء المتبرجات، ومع كل الرجال المزهوين
ذوي الأجسام الضامرة. أما «عوليس» فإنه يمر ويخرب حضارتهم المنحطة.

هذه النشوة الخلقة تملكنتي مرتين أو ثلاثاً في حياتي: مرة في سيفنوس، ومرة
ثانية في جبل أثوس، وثالثة في قرية سويسرية قرب لوغانو، ثم في ألمانيا قرب إينا. إذن
أكثر من ثلاث مرات بفضل الله، ويبدو لي أنني ولدت من جديد ونجوت، وسوف أحاول
العيش أكثر في هذه النشوة على مستوى بسيط جداً، ويومي ...

كان نيكوس كازنتزاكي يقطع نشوق الخلق، بين فترة وأخرى، ويذهب في
رحلة قصيرة إلى اليونان، وأحياناً، إلى بعض البلدان البعيدة. وفي هذه المرة، بعد
شهر أمضاه في أثينا، وأعقبته زيارة قصيرة إلى إيجين، تمكن من تحقيق حلمه في
القيام برحلة عبر الجزر اليونانية.

وفي رسائل تلك الفترة نعثر على المذاق الذي حافظ عليه كاملاً، حوالي عشرين
عاماً، كي يجعلنا نتذوقه لاحقاً في كتابه «ألكسيس زوربا».

تينوس ٩ أغسطس ١٩٢٥ (٢)

رفيقتي العزيزة جداً،

سبحان الله على كل شيء! كان البحر جميلاً في «سيرا» فجراً. البيوت تتلألأ مثل كومة
جماجم، بيضاء نظيفة، مطلية بالكلس، مع ثقوب سوداء في النوافذ المفتوحة. في الساعة
الثامنة صباحاً تلوح تينوس، الجزيرة الجافة، يونانية بشكل نموذجي، بلا أشجار،
بلا ماء، بيوتها مطلية بالكلس الأزرق أو الأصفر الصلصالي ...

لم نعثر على مأوى، فالفنادق ملأى. ذهبنا إلى شاطئ سوف نقضي فيه هذه الليلة.

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس

وسوف يتأخر طلوع القمر فنرى النجوم : حبات تين بيضاء، رائعة. أنا سعيد بتلقي هذه الهدايا الحلوة من الأرض. في الغد سوف نستقل زورقاً شراعياً باتجاه ميكونوس. وهكذا نذهب إلى السعادة الصغرى ...

الجبال هنا، كما أحبها تماماً : عارية، ملفوحة بالشمس، مرتمية في أحضان سماء صافية الزرقة. غير أن الناس سمجون. ومع ذلك تعرفت على صيادين في الشاطئ وتحدثنا عن المجوفات المعروفة بزهر البحر، والأخطبوط، والساحرات...

أكتب إليك وأنا جالس في شرفة مقهى، في عزّ الظهر، وأشاهد النساء يتجولن على الرصيف المشع، تحت مظلاتهن الصغيرة، صارمات. متبرجات، ولا يُحتملن. قلبي يتحطم شفقة. ما من خلاص. لو أنني أتمكن، قبل موتي، من النفخ على المياه اليونانية الأسنة بعنف محتدم!

ميكونوس ١١ أغسطس ١٩٢٥ (١)

رائعة هي ميكونوس يا رفيقتي. نادراً ما تمتعت بهذا العمق، كما في اللحظة التي شاهدت فيها المدينة الصغيرة البيضاء، وكأنها مغطاة بالثلوج، مع شرفاتها المطلية بالكلس، متألئة مثل مدينة أضواء، فوق بحر ذي زرقة داكنة مخضرة. وعندما دخلت الأزقة الضيقة شعرت بفرحة لا توصف وأنا اكتشف كل زاوية : سلالم ناصعة البياض، أعمدة، أقواس، أبار في ساحات صغيرة، تين، دُلب، تحيط بكل ذلك طواحين هوائية، تدير أجنحتها بتكاسل. كل شيء رائع : المدينة، الهواء، الألوان، الجبل القاحل، الناس البسطاء، لهجتهم، التين، العنب، الزعتر، النعناع...

(ميكونوس) ١٢ أغسطس (١٩٢٥) (٢)

نمت بشكل رائع. السماء تدور حول رأسي مجدداً، والمركب الشراعي يتأرجح بهدوء في الميناء بينما كلب ينبج على بؤبؤ سفينة. نازوس لم ينم. أصابه برد... مقاومته ضعيفة. واليوم لم يستطع المشي، وتوجب عليّ الصعود بمفردي كي أذهب إلى دير بانوميريا. وجدت في الكنيسة خمس فتيات يُزَيْنَ أيقونة العذراء (قطعة خشب متفحمة لا يكاد يسهل تمييزها). ولقد زخرقنّها بزهور من شمع، وقماش رقيق، وزهور برية، وشرائط، وهن يضحكن ويغنين كما لو كنّ يجملن عروساً شابة. أفكر فيك دائماً،

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس

أصارع كي تستعيدي عافيتك وتجيئي بقربي. عندئذ تصير الليالي والأيام جميلة،
وسوف نتحدث بهدوء ونتفّسح. وتكتسي الجزيرة كلها بالعدوبة والروعة...

ناكسوس، ١٥ أغسطس ١٩٢٥

يرتجف قلبي عندما أشاهد قلعة ناكسوس. أتكع في الشوارع العتيقة المألوفة
وأذكرك - وأتعرف إلى المظاهر: بيوت كثيرة تداعت، وينابيع جفت، وأشجار تين
اقتُلعت. والمدينة تموت. ثمّة بضعة شيوخ وعجائز، وقليل من الشباب المتوانين. وفي
الليل لا تضاء إلا أنوار قليلة، وتنغلق البيوت كلها في وقت مبكر جداً، والرجال يشبهون
العناكب في العتبات.

شاهدت البيت الذي سكنا فيه (١)، والمدرسة، ونوافذ بعض الفتيات:

أوغستينا، كليو، جاكوب، الشبابيك منهارة... البعض منهّن مات، والبعض ارتحل.
وفي الليل تضياء الميناء منارتان أشبه بموكب جنائزي.

قلبي ثقيل وفرح في آن واحد، مثل قلب عوليس لدى عودته إلى ايثاكا. وثمة تفاصيل
كثيرة، مما عايشته، ستتضمنها «الأوديسة». أطوف في الشوارع معانقا كل ما أستطيع
من الجثة المحبوبة...

مثل الشمس في حركتها، متماثلة من دون أن تكون هي نفسها، تعكس أفعالنا
ورغباتنا الحميمة عوالم متبدلة.

معلم وتلميذة، أخ بكر وأخت أصغر منه، عاشق وعاشقة، كنا أشبه بشرنقتين،
وَضِعَتَا في مفترق طرق العالم، فنختار ببطء، كلاً على حدة، سجنين قشرتيننا كي
نتوحد لدى كل ولادة - نَغْفَتَيْن (٢) عاجزتين عن تحريك أجنحتنا في أمورغوس (٣)
المثالية، فراشتين شائطتين في فلسطين المتأججة.

(١) اضطرت عائلة كازنتزاكي، بين ١٨٩٧ و ١٨٩٩، إلى اللجوء في ناكسوس، هرباً من مجازر الاتراك ضد
اليونانيين.

(٢) طور من تطور الشرقة عندما تتحول إلى عذراء.... (المترجم)

(٣) إحدى الجزر اليونانية.

وصلت إلى أمورغوس يوم ٩ سبتمبر، مية أكثر مني حية. ووفق ميثاق سرّي، كان يتوجب علينا أن «ننتزع» من إلها عشرة أيام، كل عام، كي نعيش معاً، «وحيدين متواجهين». ومن دون اكتراث أبحرت برغم هيجان رياح الصيف الشمالية، في بحر ايجه. ولقد اعترف لي نيكوس فيما بعد، بالرغبة التي تملكته في إلقاءي من السفينة إلى البحر، عندما شاهدني على تلك الحال.

أمورغوس هي إحدى الجزر اليونانية النموذجية في عرائها السماوي... بالنسبة للآخرين. أما بالنسبة لي فهي رجل ضامر، ذو سحنة سمراء برونزية، ورأس صغير مستدير - يمكن مقارنته بمحارب «المعركة» في لوحة أوتشيلو الموجودة في متحف اللوفر. لم ينجح أحد في رسم صورته. لكن أوتشيلو تمكّن من ذلك. في صخب الفرسان والخيول المزركشة، وحده، مكشوف الوجه، متماسك الأعصاب، منغمس في المعركة بقدميه، لكن عينيه تنظران إلى أبعد من هذه العوالم - وجه ذلك الحشد نفسه، والمفتقر إلى وجوه، لكنه يقاتل من دون أن يستكشف قدره.

رجل ذو نظرة منكدة وملاطفة عندما يتفرّس فيك، بعيداً، ضائعاً في تأمل الكواكب، ذلق اللسان أو صموتاً، بقية الوقت. فيصطحبك إلى قلب صمته، غزير العصارة مثل ثمرة ناضجة، ويسمح لك باقتفاء أثره، بكل طيبة خاطر، على دربه الوعر.

عندما لا ينكبّ على كتابة «الأوديسة» - أسمعه منذ الفجر يقطع الأبيات ويعدها على أطراف أصابعه - يترجم طاغور. وعندما أذهب لأستريح، يكتب رسائله، تلك الرسائل المماثلة للاعترافات أمام أكثر المقربين إليه.

أكملت^(١) جولتي في جزر بحر ايجه. هذه الرحلة كانت رائعة، ملأى بالنور، والألوان، والتناغم. إن اليونان الحقيقية تلمع في هذه الجزر، بين أوروبا وآسيا. أعتقد أنني أدركت للمرة الأولى، عمق الروح اليونانية أولاً، ثم سبب تحول تلك الروح إلى بذخ بعيد جداً عن أرواحنا اليوم. إن هذا الجمال الإلهي يفعل فعله، مثل الأفليون في أجسادنا

(١) رسالة إلى إلسا أ. نسخها كازانتزاكي في دفاتره.

وأرواحنا المتلهفة. أمل أن أكون قد تخلصت منه أخيراً...

كانت الحرية بالنسبة إليّ دائماً، ثمرة الإدراك الإنساني الأكثر نبلاً. وآخر فعل الحب. ولا يتمثل زهدي في إنكار الجسد والروح، بل في الانتصار عليهما من خلال إشباعهما.

هذا الزهد في منتهى الصعوبة والخطورة، لأن هذه الأرض رائعة وقلقنا عميق.

وتلك العجوز كاليبسو^(١)، كم كانت تنصت، كل مساء، على عتبة بيتها الصغير، قرب شاطئ البحر، إلى حكايات عوليس ذي الأرواح المتعددة! فأحدثها عن النجوم، والحشرات، عن الحب والإله، وعن الفراشات والنحل، أنا «ديالي» راوية ملاحم أفريقي، وأحب، وأفهم، بعمق، مثل أعمى، كل ما هو مرئي على هذه الأرض.

أحياناً أخاف عندما أدرك خطورتني على روح من الأرواح. أحب وأفهم بإفراط... وأنا مندفع أكثر من الإيقاع المعتاد، لكنني أعرف أيضاً أنني بذرة إلهية كريمة، عنصر خالد، شعلة حمراء فيما وراء منطق الهندسة الكونية. ولولا هذه الشعلات الحمراء لظل الإله في النباتات إلى الأبد. إن «شيفا» إله الحب والدمار، لدى الهنود، هو وجه قلبي الحقيقي...

يوم ٤ سبتمبر سجّل كازنتزاكي، في دفاتره، أحد أحلامه. وهو حوار مع صديقه، الأستاذ، والشاعر الكريتي ميشال أناستاسيو:

... عندما أرى روحاً بأسلة يملكني انفعال غريب. اضطرب، أفرح، أشعر بالجوع والحب، وينقض طائر كاسر على تلك الروح ويرفض تركها. وكلّ روح، مهما كان جنسها، تبدو لي أنثى، بشارة وحشية، حباً عاصفاً، أسرع، أصارع من أجل تاجيج الشرارة التي وجدتتها في جسد آخر، حتى تتمكن من التهام كل ما حولها، من أجسام، وأفكار، وقوانين سائدة، حتى ترتفع وتتحوّل إلى شعلة عالية، حتى تتوحّد بنار الجمر العملاقة التي أسميها الإله.

وهذه الحاجة إلى تاجيج الشرارة ليست حساباً بل هي غريزة لاحمة تفترس الآخرين وتفترسني، تفترس ما هو سام فيّ. وأنا لا أهتم بالثروات ولا بالهدف ولا بالخلاص. إنّها قوة لا واعية تنطلق.

هل يمكنني مغادرة أمورغوس من دون التحدّث عن الجليّة ماريوريتسا -

(١) ماريوريتسا، صاحبة فندق أمورغوس، تولّعت بكازانتزاكي وقالت له: «يا سيدي نيكوس حتّى في «سانتورين» لا يوجد فلاسفة في مستواك!».

نعش آخر! - كان كانتزاكي يصرخ محتجاً على ما ترتديه من طبقات سوداء - وأنطوناكي، رئيس الطباخين السابق في فندق «بريطانيا العظمى» وابنه المصاب بالصرع؟

ألم يكن انطوناكى هو الذى يعطى نيكوس كازنتزاكى دروساً فى السباحة
أليس هو أيضاً الذى كان يرتدى ثوب اختصاصه الفنى ويقدم لنا، بحركات
كهنوتية، سمك المرجان الناضج فى الفرن، أو المقلي، أو الفراخ المسمّنة على طريقة
ميلانو؟ هل بوسعى نسيان «الفندق الكبير»، فندقهم الضئيل جداً؟ ومشاهد
الغروب القصيرة فى شهر سبتمبر، معطّرة بالتين الأبيض، والليالى الطويلة
المرصّعة بالنجوم، واللحظة التى تأتى فيها مضيفتنا لتجلس منهكة وسعيدة،
أمام «سيدى نيكوس» وتهدّل بأسئلتها الدائمة:

– هل النجوم مسكونة بالملائكة، يا سيدي نيكوس؟ أليس في سانتورين علماء أكثر ممّا في أثينا، يا سيدي نيكوس؟

عسل وحليب إلى «سيدي نيكوس» وحقد وضغينة على الشابة المجهولة المنتظرة بين لحظة وأخرى.

- لو أنك تكتب إليها وتخبرها بعدم وجود أي شيء يؤكل، سيدي نيكوس؟ لا يوجد حليب، مثلاً، لا توجد حتى حراشف سمكة، لا شيء؟ ألسنا في منتهى السعادة من دونها؟

ومع مجيئي تغير مزاجها عندما رأت وجهي الشاحب :

– أه، يا طفلي المسكينة، يا له من شرير هذا البحر! انطونا الكي! انتبه! لا تقدم أكلاً مقلباً اليوم! جهّز شيئاً خفيفاً، ومغذياً، تدبّر أمرك. حمية «أمومية» ملاكنا!

قبل بضعة أشهر من إقامته في أمورغوس، تعرّف كازنتزاكي في كرييت، على ثلاثة أشخاص مرموقين : عالم آثار إيطالي شاب، صار مشهوراً اليوم، وخطيبته

أنا وأخته إدويغ. كنت أنا مهيبة وجميلة وذات حضور كبير. وكانت إدويغ ذات شعر سبجيّ أسود، وبشرة وردية وقامة مشيقة. الأولى يونانية ومسيحية، والثانية يهودية، جوهرة إضافية في مجموعته العتيدة من اليهوديات الرائعات.

وسوف يرد ذكر الأثينية الجميلة في بعض رسائل نيكوس، العائدة إلى الأعوام ١٩٢٥-١٩٢٧. ولقد حاول رؤيتها مجدداً خلال زيارته القصيرة إلى أثينا، إذ كان يحبّ الاختلاء بها والتحدث إليها. وكما هي عادته، فقد قدّمنا إلى بعضنا وأعجبنا بأناقتها وعذوبة حديثها. أما إدويغ المقيمة في ترييستا، فقد تعرفت إليها بعد سنوات عديدة. وانبثقت بيننا صداقة تلقائية، فأذكينا الشعلة الخيرة معاً.

أثينا، ١٠ أكتوبر ١٩٢٥ (١)

صديقتي العزيزة،

خبر سعيد! سأسافر خلال ثلاثة أيام إلى موسكو!

كان كلّ شيء جاهزاً من أجل سفري إلى إفريقيا، وفي آخر لحظة سنحت الفرصة بالذهاب إلى موسكو فتشبّثت بها بسرور ...

هناك يا صديقتي، من يقود مصائرنا - إنه نحن أنفسنا. كلّ ما رغبت فيه، في هذه الحياة الشرسة والمتوحشة، حصلت عليه لأنني طلبته بطريقة شرسة ومتوحشة. إن الحقيقة - وهذا ما أختبره كلّ يوم - شيء في منتهى السهولة، عديم الوجه، عديم الإرادة، سائل أعمى، أحمق ومتضرّع. وهي تتوسل إلى إرادتنا، ويتمثل دورنا في إكسابها وجهاً وطباعاً ...

سوف أكتب إليك من موسكو. أرجوك، لنقاوم النسيان والكسل والموت! ولنحوّل هذا القلب الصغير، الدافئ والزائل، شعلة صغيرة ومشيقة، لا تنوس ولا تساوم.

إلى اللقاء! وليسدّد إلهي، ذلك البربري المحارب الدموي، خطاك وخطاي. ن.

(١) رسالة إلى إدويغ ج. كتبها نيكوس كازنتزاكي بالفرنسية.

١٦ أكتوبر ١٩٢٥ (١)

رفيقتي العزيزة جداً،

سافرت يوم الأربعاء ولم أتمكن، لم أشأ توديعك. لن أنسى السهرة التي أمضيها معاً يوم الأحد - هادئين، حميمين، رائقين، كما قلنا تماماً : لوزتين في قشرة واحدة. لكم وددت البقاء في تلك اللحظة.

هبت عاصفة كبيرة في البحر الأسود. ولم يجرؤ القبطان على الخروج. ربما نطيل المكوث في مرفأ القسطنطينية ...

.. خيم الليل، والسماء تمطر، القسطنطينية تتلأل بأضواء إلى اليمين وإلى اليسار، في أوروبا وفي آسيا. لم يخفق قلبي وأنا اشاهد المدينة التي يحن إليها اليونانيون. في البيوت المضيفة تحت المطر، عشت معركة الرجال بعيداً عن اتفاقيات القومية. أتعذب وأحب وأتمتع معهم بكل الجهد الإنساني، أستشعر همومهم، وعذوبة نسائهم وخببتهم، وتنهدات أتباع حزب «تركيا الفتاة» واندفاعهم، أنا مثلهم، مفعم بالقلق والحب والأمل ... أتذوق مرارة هذه الليلة المطيرة. في قاعة الجلوس الصغيرة تثرثر حولي امرأتان روسيتان، والرجال الروس يحتسون الشاي، وأنا، منحنيماً على ورقة، أكتب إليك وأحاول جعلك تعيشين بقربي، وقهر المسافة، والإمساك بك في هذه اللحظة أينما كنت، واختطافك، لينوتشكا

موسكو، ١٠ نوفمبر ١٩٢٥ (٢)

كم سنة مرّت، كم سنة، يا رفيقتي العزيزة، مرّت ولم أرك! حافة العالم، حافة الزمن، هكذا تبدو لي هذه المدينة المحمومة حيث أتسكع وأعيش. لم أتمكن من فهمها بعد، قباب ذهبية للكنايس، أعلام حمراء ذات منجل، نساء بشعات جداً، أفسدتهن العمل والحرية، والرجال مسكونون بالفكرة - كل هذا سديم، وأنا الذي أحب السديم بشرط اكتشاف الإيقاع الذي يعيد النظام، أتمتع وأصارع، ولقد أصبّت بالهزال.

كل الأيام أقضيها في المتحف، والوزارات، والاجتماعات العمالية، والجامعات الماركسية، منتبهاً للجهود الهادفة إلى ابتكار فن جديد - هنا أعيش إغواء الأرض

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

الجديدة، من أجل الخلق والمحق، ومن أجل العثور على إيقاع وإضافته إيقاعاً على الحياة كلها. وهذه الحياة الراكضة بلا اكتراث، تضحك وتبكي، وتلعب، وتسلك طريقها، وتسخر من كل الذين يريدون إنقاذها. أتذكر جان جاك روسو المسكين، عزيزي. ألتقي فتاة تدعى جُولِييتَا في أحد شوارع البندقية، وأصطحبها إلى بيته من أجل قضاء الليل. وعندما تعرّت جُولِييتَا، دخلت الفراش، وبدأ جان جاك المسكين يَعْظُمُها كي تعود إلى الطريق السوي! هكذا يبدو لي الشيوعيون المبشرون بالأخلاق والدّاعون جاهدين، إلى بناء عالم شريف، عادل، وطيب.

... أسكن في بيت يدعونه «بيت الحكماء» لأنه لا يستقبل إلا العلماء. ويوجد منهم قرابة عشرين، بين رجال ونساء، البيت رائع ... فوق النهر، نظيف، مريح، وهادئ. لم أتعرف إلى أي «حكيم»، أعمل وحدي في قاعة الجلوس الزرقاء الصغيرة حيث توجد نخلة في أصيص، أمامي. «الحكماء» الآخرون يعملون في قاعة الجلوس الخضراء، الكبرى، ولكل واحد مائدته الصغيرة. لا أكلّمهم بتاتاً، وهذا خطأ من جانبي، فربّما كان بينهم أحد المرموقين.

أول أمس زرت مدرسة رقص ... وكنت المتفرج الوحيد. رقصت أمامي قرابة ثلاثين فتاة، شبه عارية، لمدة ثلاث ساعات. وكان الجوّ يعبق برائحة العرق ومسحوق الأرز. تأملت «إخوتي الأعزاء، أجساد النساء» قلقاً، يائساً ... لن أتمكن من لمس أي جسد منها، قلت في نفسي، كما لو كانت أشباحاً، كما لو لم توجد. كانت الرقصة من نوع الباليه الروسي التقليدي، ما من طارئ، أو جديد. لاحظت ذلك إلى المدير، بصوت خفيض، لدى المغادرة «وماذا كنت تريد، إذاً» فأخبرتها بما أريده من الرقص، فتملّكها الخوف. عندئذ ضحكت وقلت لها: «إني أمارحك». كنت ثائر الأعصاب، معذباً، فالرقص والمرأة والموت، تثير في ذلك الإحساس الحلو - المرّ نفسه الذي يميّز الحياة ...

موسكو ٢٠ نوفمبر ١٩٢٥ (١)

... تلقيت رسالتك للتوّ. فإذا حياتنا تندفع في التلوج، مفعمة بالحزن، والفرح، والألوان الفاقعة، والألغاز. تحت نافذتي «يمرّ» النهر، متجمداً، وقد توقفت فوقه، وفي هذه الساعة الغسقية، آلاف الغربان النّاعقة، وعلى الضفة الأخرى، ما بين أشجار البتولا العارية، تلمع قبة ذهبية. وسرعان ما استعادت حياتي إيقاعها، كما لو أنني ولدت هنا،

(١) رسالة إلى أيليني ساميوس.

في هذه الثلوج، مع الغربان والقباب الذهبية. أعمل ، وأدرس نظام كل وزارة ... كما لو أن ذلك سيفيدني في اليونان الصغيرة، البائسة والإلهية. هذه الرحلة جاءت في أوانها، في وقت كنت أصارع فيه طلباً للتحرّر من إغراء الفنّ ... متى نتمكن، نحن أيضاً في اليونان، من محاولة تنظيم أنفسنا كي نبلغ ما يتعدّر بلوغه؟ ما يثيرني في روسيا ليس الواقع الذي بلغوه بل الواقع الذي يتطلعون إليه من دون أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا بلوغه. وفي هذا الوهم تكمن قيمة الإنسان كلها، ومن أجل نشوة مماثلة يحلو العمل والموت. أن تستمتع الجماهير البشرية - من عمال وفلاحين ونساء - وتأكّل أفضل، وتستنير، هو بالتأكيد هدف جدير بالإنسان، أما أنا فأعتبر كل ذلك أوهاماً صغيرة، ملموسة وعملية، فتأت بالنسبة لقلبي الذي ما إن يأكّل حتى يزداد جوعاً.

رفيقتي العزيزة جداً، هل يتاح لنا الاحتفال بعيد الميلاد معاً؟ أشعر أنني موجود في طرف العالم، ولا وجود لأي جسر. سوف أحتفل بعيد الميلاد وحدي، في كنيسة صغيرة، أعرفها، ذات قباب خضراء صغيرة، بين عجائز ساذجات ذوات عيون زرق..

.. إلهي، يا لها من عزلة، ويا للنشوة القاسية التي تغزو قلبي! أتذكرك جيداً، أحس في يدي اليسرى، بوجهك كله : الأنف. الفم، الذقن، العنق - كيف يمكن أن تضيع هذه الأشياء؟ وحتى لو ذهبت ونسيتني، فأنا سوف أحتضن ذكراك مثلما أحتضن جسداً.

قديسة، مقدّسة، غريبة، هي هذه المدينة، ووجهك هنا يكتسب بريقاً جديداً، كما لو كانت تضيئه هذه الثلوج والمشعة، مثل القباب الذهبية أمامي ...

٢٧ نوفمبر ١٩٢٥ (١)

هتفوا لي من سفارتنا، للتوّ كي يبلغوني بوجود رسائل لي. أنا قرب النافذة وانتظر أملاً أن تكون هناك رسالة منك. زوبعة ثلجية فظيعة، كل شيء غارق في الضباب والثلج الكثيف. النهر لا يُرى، بعض «الطنابر»^(٢) المحملة تمر متناقلة، بطيئة، مثل أشباح، والغربان تنقع. الروح تصرخ عميقاً، وكلها حنين ... قلق عجيب يملك قلبي. والحياة تلوح لي حمى مؤلمة، بلا هدف، ومضطربة. ويبدو لي أن الوضع الطبيعي الوحيد للإنسان، والحيوان، والإله، هو الموت. فما جدوى هذا الصراع، وما جدوى هذا الولع،

(١) رسالة إلى ايلينس ساميوس.

(٢) عربات ذات عجلتين (المترجم).

ولغز الرجل والمرأة ، لماذا تتحرك قلوبنا، وأيدينا ورُكبتنا، بهذه الطريقة؟ ...

وعندما وصلتُ رسالتك وقرأتها، ازداد حزني، ووجد صدى، كم فكَّرتُ فيك، ملازمة فراشك، تصارعين عدوك غير المرئي، مجدداً! أه! لو أمرض أنا أيضاً حتى يحق لي الحديث عن المرض! ذات مرة، كما أخبرتك أصبتُ بمرض في فيينا، فما أشد فرحتي وكبريائي عندما أدركت أن روحي ترفض الهلع، وإذا كان لا بد أن تموت فإنها سوف تتقبل ذلك واقفة، من دون شكوى، ومن دون تمرّد - كما يخرج المرء من اجتماع، يفتح الباب ويكف عن الوجود.

لو كنت قريبك لرويت لك حكايات تحببها، حتى تمر الأوقات الصعبة مسربةً بالفرح. هل تذكرين كيف انتصرنا في ليذا؟ ...

موسكو، ٢٠ ديسمبر ١٩٢٥ (١)

... أتحدث هنا مع «قادة» عديدين، وحدها أعمالهم واندفاعاتهم ونارهم المقدسة ذات قيمة، أما أفكارهم فتبدو لي في منتهى السذاجة. لا أشبع من رؤية الثلوج، والغربان، والكنائس الشرقية، والفلاحين الضخام، والنساء المتزينات - قلبي يتمزق لأنني سوف أغادر موسكو.

راسلتني راحيل قائلة إنها ستأتي ... هذه الفتاة تمزق قلبي حقاً. ليتني أستطيع أن أحسن إليها! لو أجعلها تضحك قليلاً، على الأقل! ... أتمنى أن تأتي إلى أثينا فتتعرفني عليها. هل يأتي يوم نلتقي فيه، نحن الثلاثة، في جزيرة يونانية؟

... اليوم في بيت شيخ مسن، وهو رجل ذو قيمة عالية، امتلأت عيناى بالجمال. إنه رجل متفرد يعيش وحيداً، وهو نبيل قديم، يملك أجمل مجموعة من الأيقونات. ولا يمكن وصف جمال العذراوات، والملائكة، والقديسين الذين بحوزته. لقد ابتكر طريقه خاصة، وهو الآن مدير متحف المقدسات في موسكو، حيث يطبق طريقته ويحصل على نتائج مذهلة. إذ يعمد إلى نزع مختلف الطبقات المضافة إلى الأيقونات ... فيتوصل غالباً، تحت ثمانى أو عشر طبقات، إلى الأيقونة الأصلية. ولقد أراني عذراء كبيرة تعود إلى القرن التاسع عشر. وبعد أن نزع إحدى عشرة طبقة لونية اكتشف الأيقونة الأولى العائدة إلى القرن الحادي عشر. كيف أصف لك جمالها؟ ... مكثت أطوف في قاعات العالم ساعات

(١) رسالة إلى ايلينس ساميوس.

طويلة، وأنصت إليه يكلمني وصوته يرتعش هياماً بالأيقونات. وهو لا يظهر أيقوناته لأحد. لكنه رآني في المتحف وتحادثنا قليلاً - ثم دعاني.

أعتقد أن في حبنا، وشغفنا بشيء خارج ذواتنا، يكمن خلاصنا الوحيد. هكذا يُهزم القدر، فننسى، وتتغلب على الموت. هذا الشيخ وعدني بالمجيء إلى اليونان في الربيع. يريد أن نذهب معاً إلى ميسترا وجبل أثوس. وسوف تتعرفين عليه. يا إلهي، ما أكثر الأرواح الرائعة التي توجد في العالم! أية قوة تمتلكها الأرض التي تلد وتغذي العديد من النساء الجميلات، والرجال الرائعين!

٢٤ ديسمبر (١)

عدتُ إلى صديقي المسن. أراني اليوم أيقونة رائعة أخفاها عني في الليلة الأولى. هناك أسطورة روسية تقول بأن فلاحاً شاباً كان يتجول في الريف، خلال فصل الربيع، فأصيب بصاعقة ومات. ثم صار قديساً. أما أيقونة القرن السادس عشر. فهي كما يلي: عشب أخضر، أخضر يانع، يتوسطه شاب رشيق مرتدياً بدلة وردية - بنفسجية. شاب جذاب يقف وقدماه تلامسان العشب لمساً خفيفاً حتى كأنه يرقص. وخلفه، في الظلمة الكثيفة، أزهار ذهبية رقيقة - تشبه النجوم. وفوقه السماء ملبدة بغيوم مخيفة وممزقة ومشحونة بالكهرباء. إنَّها روح الرجل الذي يرقص ملامساً عشب الأرض المقدس في حين ترسل السماء صاعقتها المميّنة.

لن أنسى قوة الصاعقة واستخفافها اللذين علّمتني إياهما تلك الأيقونة.

رفيقتي، رفيقتي العزيزة، كم وددت أن أكون معك هذا المساء! كل هذه الصور المرة والإلهية تملأ قلبي وروحي بغنى كبير. كوني، على الأقل، في صحة جيدة، كوني سعيدة. وليأتِ العام الجديد طيباً، متروياً، مع أيامه العشرة (١)....

١٩٢٦. أصابع غير مرئية تحرك لي حبات سبحة الزمن. ١٩٢٤،
١٩٢٥، ١٩٢٦، وما يعادلها من قطرات غسل على يدي المبسوطة. «الأيام العشرة

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٢) الأيام العشرة التي تواعدنا على تخصيصها لنا، كل عام.

التي هزّت عالمي» صارت ألف يوم، عشرة آلاف يوم، ولم تعد تحصى ...

من ٢٧ يناير إلى ٢٥ إبريل ١٩٢٦ عاش كازنتزاكي في أثينا، في قلب المدينة التجارية. وبعد طلاقه الرسمي التجأ إلى أخته الثانية، في غرفة ضيقة تشبه صومعة ناسك، تكدّست فيها الكتب والأيقونات، مع قناع نيتشه فوق الباب. وفي هذا الملجأ سوف يكتب انطباعاته عن الاتحاد السوفياتي. ويعبر عن رأيه بصراحة قاسية. فيكشف عن محاسن النظام ومساوئه ويعبر عنها بكل وضوح. فهو أبعد ما يكون عن النفاق. وبذلك يثير غيظ اليسار واليمين، بينما يمتدح الوسط جمال الأسلوب وقوته. ومع ذلك تزداد شهرة كازنتزاكي. ويتوّج كأبرع من كتب في جنس «دقاتر الطريق».

والمقالات التي نشرت في الصحيفة الأثينية «إلفتيروس لونغوس» سوف تنشر لاحقاً في جزئين بعنوان : «ما شاهدته في الاتحاد السوفياتي». وفيما بعد وإثر زيارته الثالثة إلى الاتحاد السوفياتي، تمّ تشذيب الكتاب من الإحصائيات ونُشر في مجلّد واحد، أُضيف إلى سلسلة «الرحلات». وكما عرفنا، فإن كازنتزاكي كان يكره أثينا. ومكّنّته صحيفة «إلفتيروس لونغوس» من قضاء عيد الفصح في «الأرض المقدّسة».

- في إمكانك مرافقتي، إذا شئت! قال لي ذات يوم، وهو ينظر إليّ من طرف عينه.

أذهب إلى فلسطين، وحدي، برفقة رجل! حتّى لو كنت الإله، الأب، فإن الأوصياء عليّ سوف يفضحونني!

- حاولي الحصول على بطاقة صحافية. وهكذا يغرّ الأوصياء عليك، وباركونك، نصحني نيكوس الذي تجعله المحبة ماهراً ولبيباً، أحياناً.

- سوف أكلم خالتي الطيبة خاريكلي في الموضوع.

- من الأفضل أن تذهبي إلى فلاخوس.

وسرّ جورج فلاخوس، صاحب جريدة «كاثميريني» وأعطى الفرصة للصحافية المرشحة.

– موافق! إذا أعجبتني مقالاتك فسوف أنشرها! مري غداً لتأخذي يداي
الصحافية.

لقد حافظت بحبّ على تلك البطاقة الصغيرة البيضاء، المستطيلة، كانت أخفّ
من ريشة لكنها تعادل وزنها ذهباً فوق كفة قدري. وها هي ذي الآن مفتاح
سجني! إليّ بعرض البحر!

من بين أفراد مجموعتنا الصغيرة^(١) كنت الوحيدة التي لم تخرج من اليونان
قط. هل أعترف؟ لقد كنتُ أتألم من ذلك كما لو كانت بي عاهة. وفي المدرسة كنت
أبتدع عواصم سوريلية: «في باريس قد أضيع محمولة فوق رصيف ألي
متدحرج... ومن قمة برج إيفل يمكن للجميع التزحلق على مزقة من أبنوس...
الرجال مقرفصين بقبعات من قش مربوطة مثل طيارات ورقية... والنساء مثل
الأمازونيات بعضهن يحملن مظلات. المظلات الباريسية ذات الطبقتين المتراكبتين،
واحدة للشمس، والأخرى للقمر...

لكن ماريكا سرعان ما اكتشفت التدجيل فكتبت لي تقول مغتظة: «إذا تماديت
بالكذب فلن تظلي صديقتي»، وكثيراً ما عاودتني الرغبة. لكن، ماذا أفعل؟...

يوم ٢٥ ابريل امتطينا متن السفينة، في طقس هادئ، قاصدين حيفا.

فلسطين – الكتاب صار جسداً لجسدنا، رسالة حب وقتل تتكرر أبداً.

«الغولغوتا» عارية. مشهد قمرى. ما من طائر في السماء، ما من شجرة على
الأرض. ولم يعد للريح شبابة تنفخ فيها، والشمس تنضج ثلاث جثث معلقة في
أشجار بلا أوراق.

وعلى صفحات الرق الصفراء الكبيرة، مبقعة بقطرات دم، هنا وهناك،
موسومة بأثار أقدام ما تزال طرية للمسيح، أربع ذبابات صغيرة لا تكاد تُرى، في
رفة عين:

ثلاث فتيات ورجل. أية ذكرى من تجاربنا يتوجب عليّ اقتلاعها من النسيان؟

(١) رافقتنا كاتي وماريكا بابا يوانو.

تعقبنا ظلّه في أسواق معطرة بالقرفة لا تقل غرابة عن الوجوه المتحجّبة، ولا تقل رطوبة عن أبار الصحراء... شاهدناه مقرّفاً قرب نار موقدة، على ضفة بحيرة طبرية، يشاطر الصيادين أكلهم. وراقبنا تحولاته العديدة. وتمتّمنا بالنّحيب على شاهدة قبره، وناديناه بأصوات انتصارية، مع المؤذن، برقبة مشرّبة وكفّين على الأذنين.

نسينا الإله ورسله كي نتعرّف أكثر على رفيق دربنا، مستمتعاً بشغفه، متحملاً صمته الثقيل. وأخيراً كتبت لنا رؤية اثنتين من «يهودياته»: في القدس، مع مجموعة من العلماء، كانت إلسا الصامته، المشغوفة، القادمة من إيينا. وفي تل أبيب، ليّا، أو «جونون» الرائعة القادمة من بولندية، وقد استقرت على ساحل البحر، في المدينة الناشئة.

وبسبب النجاح الكبير الذي حققته حفلات كاتي وماريكا، أضفنا قبرص إلى جولتنا، وكدنا نتراجع عن زيارتها لشدة ما أنكفراق إلسا رفيق دربنا. ولقد كتب كازنتزاكي آنذاك:

قبرص هي حقاً وطن أفروديت. إذ لم تسبق لي رؤية جزيرة أكثر أنوثة منها، أو استنشاق هواء أكثر تشبّعاً بالشهوة الخطيرة. أشعر بالاسترخاء. وفي المساء عندما تغرب الشمس، وتداعب النسمات البحرية المراكب الصغيرة، وتخرج النساء للتنزه على الشاطئ، تسترخي روحي، مثل أفروديت، القديسة العاهرة.

هنا، تتغلغل فيك عذوبة عميقة، مثل رائحة الياسمين. ويداعب أذنك صوت تنصت إليه مبتهجاً: الفكر اندفاع معاكس لإرادة الحياة. توتر الروح وإشباعها هما من أكبر الخطايا السلفية. كلّوا، ناموا، احبّوا، تجولوا على شاطئ البحر.. (١).

عزيزتي، عزيزتي قبرص! لقد غادرت أفروديت تلك الأمكنة منذ زمن طويل، تاركة محلها لـ «أريس». نعم لقد تغيّرت الحياة كثيراً في قبرص، منذ ذلك الوقت. وحدها كلمات سلطان الحجاز الهرم، المنفي إلى هناك، ما زالت تحتفظ براهنيّتها: «من بحر يهوذا إلى المحيط الهادئ، قال لنا، سوف يثور المسلمون كي يرموا

(١) نص غير منشور لنيكوس كازنتزاكي.

باليهود إلى البحر. وإذا لم يحدث ذلك في العام القادم، فسوف يحصل بعد قرن!...».

غادرنا أثينا التي عُدنا إليها، وهرباً من القِيظ التجأنا، أنا وشقيقتاي، إلى جبل بيليون. وظل نيكوس بالعاصمة يعمل بكدّ. وعرضنا عليه أن يأتي للراحة في تسانغارادا^(١). ويجلب معه آلة كاتبة لنعلّمه كيف يستخدمها.

(نهاية يونيو ١٩٢٦) (٢)

... الآن، أخلي مكتبي من الكتب العبرية والروسية الخ. وهو ممتلئ بكتب إسبانية، دون كيشوت، كالديرون، لوب دي فيفا، سانتا تيريزا. بايديكر اسبانيا، الغريكو، (٣) kultur der Araber، الخ، الخ...

هناك أناس مجهولون... يأتون، أو يرسلونني ليقولوا لي إنهم أحبوا مقالاتي لو أنني أنشر أشياء جيدة حقاً، فسوف يسكتون كلهم، أو يشتمونني...

أخرج وحدي ليلاً، تحت القمر الرائع، وأتجول. كلّ شيء جميل على هذه الأرض، وأنا سعيد، لأنني أستطيع، بحماسة فائقة، أن أتوحد بالأرض وبالسما، وأجعل لحظة حياتي القصيرة، خالدة، وبتحرّري من كلّ أمل وخوف، متخلياً عن كل طموح، وفي منتهى الصفاء والتأثر، أهيّم على وجهي، مستأذناً العالم بالذهاب. أفكر فيك دائماً خلال عزلاتي، وأحياناً يرسل جسدي ظليّ نحو القمر. أه، لو تَمَكَّنَ أنت أيضاً، في عزلتك، من رؤية هذا القمر بحماسة وصفاء...

(نهاية يونيو ١٩٢٦) (٤)

عزيزتي لينوتشكا،

لدي عدة مشاريع في رأسي ولم أتخذ قراراً بعد. اقترح عليّ كافافاكيس أن أذهب إلى حيث أريد - قلت له: إسبانيا، مصر، الهند، ولم يرفض. سألني عما إذا كنت أرغب في الذهاب إلى رومانيا أولاً. فاحتفظت بجوابي.

(١) ضيعة في جبل بيليون

(٢) رسالة إلى إيليني ساميوس.

(٣) ثقافة العرب، (المترجم)

(٤) رسالة إلى إيليني ساميوس.

... أفكر في الذهاب إلى تسانغارادا في شهر يوليو القادم. سوف أحمل آلة كاتبة سهلة النقل، إذا استطعتُ اقتناءها، حتى تعلّمَنّي كيف أستخدمها. قبل مغادرتي أريدُ رَقَنَ نص كتابي حول روسيا، من أجل النشر... جمعت كل ما أملك من كتب حول اسبانيا، والغريكو، الخ... رأسي الآن ممتلئة باسبانيا. أريد إنهاء زيارات هذه البلدان، كي أتمكن من العمل بهدوء، ومن دون إغواء...

أخيراً، ها هوذا نيكوس تحت سقف بيتنا. كان فرحاً، وخجلاً، وحذراً، مثل طفل أُهْدِيَ كرة حمراء.

أول درس في الرقن. لكن ما أسهل إنجاز العمل عوضاً عنه، بينما ينغمس هو «في بحر الأبيات (الشعرية) الأفقية».... فلا أقاطعه إلا لتقديم فنجان القهوة وشراب الفواكه - جَوْز أخضر من اختصاص دِيَامَنْتُولَا^(١). وأنتظر نزوله كي نذهب للنزهة تحت أشجار الزّان والكستناء... والاستراحة في الباحات الصغيرة النّديّة للكنائس، وإرواء عطشنا من ينابيع كثيرة، والتزام الصمت من أجل الإنصات إلى حوارها (الينابيع) مع الحشرات، ونسيم الأغصان... وشمّ تربة الغابات والهواء المالح، القادم من البحر... ورؤية حدود جبل سكيروس متمرئية من بعيد، وربما مرتفعات جبل أثوس أيضاً، مع هبوب الريح...

ونثرثر في المساء مع ديامنتولا وفانّي وأمهما، مشيقات القوام مثل الماعز الجبليّ، متحفّظات كسائر الفلاحين اليونانيين. ونذكر أن وراء مظاهر الثروة في هذا الجبل السحري يختفي فقرٌ محزن حتى ليخجل من الكشف عن نفسه... وكثيراً ما يقتصر غذاء الناس، في الشتاء، على طحين الكستناء. وفي أيام الزّفَر^(٢) يتقاسم كل ثلاثة أشخاص بيضة واحدة. فيحنّ المرء إلى استعادة مذاق الخبز البائت! وتتنهد ديامنتولا معترفة لنا: «ليلة عيد الميلاد أقف أمام بابنا وأنتظر. فتغضب فانّي والدتي. أعرف جيداً أننا لا نتوقع شيئاً من أحد، لاننا لا نعرف أحداً من شأنه أن يفكر فينا. لكن ذلك أقوى منّي... أنتظر ساعي البريد مثلما

(١) الإبنة البكر لمالكة البيت.

(٢) أيام يُسمح فيها بتناول اللحوم. (المترجم)

ينتظره الجميع....».

لاقت مقالات كازنتزاكي، حول قبرص وفلسطين، نجاحاً كبيراً. وبالنسبة لرحلة نيكوس التالية، اختار كافافاكيس اسبانيا. ونظراً لعدم تمكن نيكوس من اصطحابي، فقد وضع خطة للقائنا المقبل، قال لي:

– لقد أعجب جورج فلاخوس بعملك. أنا متأكد أنه سوف يقبل بتعيينك مراسلة لصحيفة «كاثيميريني» من باريس. ما أكثر المباهج التي تنتظر هناك! أي غنى لروحك! لكن، لا تسافري عن طريق مرسيليا، اذهبي عن طريق روما. وهناك سوف أنتظرك لدى عودتي من اسبانيا. ونسير في شوارع روما، اليد في اليد!

(أثينا) ٢٤-٢٥ أغسطس ١٩٢٦ (١)

حبيبتي! أثينا هادئة اليوم، والشعب المسكين مسرور بسبب الإطاحة بـ «بانغالوس» (٢) وحلول «كونديليس» (٣) محله. والجنود أنفسهم الذين خدموا النظام القديم يخدمون الجديد، بشراسة وقلة وعي. وهذا يثير اشمئزازي. الشعب، بل كل الشعوب، لا تدرك جذور الشر وتفرح بتغيير سيدها، من دون أي فهم أو كرامة.

ربما يؤخر هذا الحدث سفري. أنا جاهز للخير وللشر، بقلب سوي، مستقل. والأحداث الخارجية تسقط علي من دون أن تخل بالتوازن الصعب والمأسوي لروحي الواقفة، العنيدة. من بين كل التعريفات التي سعتُ إلى وصف الإله، يعجبني هذا التعريف: «الرب قلب واقف في ساعته».

لينوتشكا الحبيبة... أحاول توطيد سيرة سلوكي في ذاتي أولاً، ثم في الحياة الخارجية: مغادرة اليونان، تكثيف العمل، إنجاز «الأوديسة»، الانخراط في حركة عالمية خصبة، وتكوينين معي لأطول وقت ممكن – يا شريكتي! الحياة في منتهى القصر، ولا تقدر بثمن، ومن العار تبديدها في التفاهات.

(حوالي ١٩ أغسطس ١٩٢٦) (٤)

لينوتشكا الحبيبة، كان كل شيء جاهزاً لرحيلي بعد غدٍ، السبت، عندما جاءت غالاتي (٥) لرؤيتي وطلبتُ مني انتظارها حتى نسافر معاً، يوم الخميس ٢١ أغسطس.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) و (٣) جنرالان دكتاتوريان تسلطاً على الحكم في اليونان.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس. (٥) كانت غالاتي ترغب في السفر إلى باريس وتخشى الذهاب بمفردها.

أوراقها ليست جاهزة بعد. وافقتُ مقتنعاً بأن مغادرة غالاتي لأثينا من شأنها أن تنقذها.

إذا أكملتُ رحلة اسبانيا ولم يتمكن كافافاكيس من إيفادي إلى مصر والهند، سوف أفكر في قبول منصب مراسل في باريس ... ثمّة ضواحٍ رائعة حول باريس، وهي في منتهى الهدوء، وقد قيل لي بأنه يمكن العيش فيها بـ ٢٠٠٠ دراخما شهرياً. وفوق ذلك فإنّ باريس في هذا الوقت تتحوّل إلى مركز مهمّ للحياة الثقافية والروحية. وهناك روس يمرّون بها. ولقد قدّم مسرح موسكو العبري المعروف، عدّة عروض فيها، هذا العام، الخ، الخ

٢٤ أغسطس ١٩٢٦ (١)

اختفتُ غالاتي. ذهبنا معاً لالتقاط الصور الضرورية لجواز السفر، واشترينا الأوراق المدموغة الخ، الخ ... لكنها لم تظهر. من المؤكد أنّها لن تسافر. لقد قمتُ بما أستطيع فعله بكلّ حبّ ... من دون طائل. المادة انتصرت على الروح.

.... بدأ مطر ناعم بالهطول. عادتُ لتتملّكني القشعريرة المظلمة التي تبعثها في الأمطار الأولى. تمنيتُ لو كنت معك في هذه اللحظة العسيرة. أنا وحدي في الغرفة، وللأرض رائحة تربة حديثة الحرث.

... نزلت هذا الصباح إلى بيرّي واقتنيتُ تذكرة إلى مرسيليا ...

الباخرة أتيكّي ٢٩ أغسطس ١٩٢٦ (٢)

لينوتشكا الحبيبة، هذه الرحلة رائعة، وتشبه تلك الرحلات التي قمنا بها معاً: البحر، النذاوة، والفرح بمغادرة اليونان. الرّكاب لا قيمة لهم، رجالاً ونساءً، باستثناء يهودية شقراء، أنيقة، ذات يدين جميلتين ... أنا في قاعة الجلوس حيث تعزف موسيقى شنيعة. وهناك امرأة ترتدي الأخضر، ترقص. شاهدتها في بيرّي تودّع الرجل الذي كان يرافقها بطريقة جدّ مؤلمة، حتى أنّ قلبي تفتّت. وبعد رحيلنا أحاط بها كثير من الرجال، فكانت تضحك، ومع حلول الليل صعدت، ممشوقة القوام، مبهجة، إلى جسر السفينة برفقة رجل. وتفتّت قلبي من جديد لأنني تذكرت ليدا (٣). هذه الحياة فظيعة، غريبة، تتجاوز قوانا، ومن أجل المحافظة على وحدة روحنا وسموها، يتوجب علينا بذل جهد

(١) و (٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٣) «ليدا والأوزة»، في المتحف البريطاني.

متواصل ومرهق. هناك قانون لا-إنساني، فوق إنساني، يحكم الأرض، وإذا أردنا السيطرة عليه وتحملّه، يتوجب على قلبنا أن يتحطم. ترى، مقابل أية جهود تمكنت، داخل جسدي الفاني، من السيطرة على ذلك القانون المريع. لن أستطيع أن أصف لك ذلك أبداً. يا لينوتشكا. وإذا توصلنا إلى العيش معاً، سوف تدركين الجهد الهائل الذي أبذله للمحافظة على ذلك التوازن. أحسّ بعزاء كبير عندما أفكر بأنك توجدين، وأنني سوف أراك، ونبقى معاً، نتحدث أو نصمت. كم ستدوم هذه الفرحة؟ أطرح السؤال وقشعريرة لذة وموت تخترق كياني. ليكن الله معنا، ليحفظ الله روحنا متيقظة طاهرة دائماً، من دون مساومة غير مشرفة. ما أقصر هذه الحياة وما أشد تبديدنا لها في الدنّاءات! ليس هناك عزاء أكبر من قهر الدنّاءة. أحياناً، أتأمل فينوس غاربة، ثم المشتري (جوبيتر) صاعداً في السماء، وبعد لحظة، أريس وهو ينبثق، أرجوانياً، من البحر. كلّ هذه النجوم صارت ملكنا، وهي تثبت اللحظات الإلهية التي عشناها معاً. متى تأتي الليلة التي أستطيع فيها تأمل هذه النقاط المضيئة الخالدة من دون أن ترتجف روحي؟

مدريد، ٤ سبتمبر ١٩٢٦ (١)

لينوتشكا الحبيبة،

أنتظر أن تتّضح انطباعاتي حتى أتمكن من الكتابة إليك بهدوء. أثناء اجتياز جبال البيرينيه، فجر الأول من سبتمبر، وجدت نفسي أمام خطر محقق. إعصار فظيع
..... وقد حادت قطارات عديدة عن السكة، وكان هناك العديد من الضحايا. لكن قطارنا نجا. لقد تنبأت لي امرأة أرمنية بهذا الخطر، وبأنني سوف أبلغ هدف حياتي، لكن فيما بعد ...

.... مدريد، مدينة أوروبية كبيرة ... متحفها أعجوبة كبرى. كيف أعبر لك عن تأثري عندما دخلت إلى القاعة التي تضم قرابة ثلاثين لوحة للغريكو؟ أتعجل الرحيل لزيارة طليطلة! إلهي، ما أشد فرحة العيش وامتلاك عينين! ...

... حتى الآن بدا لي الرجال بشعين جداً، والنساء كذلك. العجائز منهّن، أقرب إلى المسوخ، والشابات نشطات، مزعجات، يضعن وشاحاً على شعورهن دائماً، ويتزيّن، وهنّ جدّ متوقّعات، لكنني لم أعجب بعد، بأي واحدة منهّن. ربّما لأنني انصرفت بكاملي إلى الغريكو، وإلى عنف الاتصالات الأولى بهذه الأرض الجديدة.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

الرجال الذين التقيتهم حتى الآن لا شأن لهم ... ومع ذلك فإن البلاد ذات طابع قاسٍ،
تقشفي، زهدي - نشعر أن الفرسان ذوي الوجوه الحزينة وُلدُوا هنا، وماتوا من أجل
فكرة مجردة من الماديات. مرتفعات قشتالة تبعث هلوسة مماثلة للإثارة التي وُلدتُها
فيما جبال أريحا. والقرى الأسبانية تشبه القرى العربية كثيراً - بلا ماء، بلا أشجار،
مع حجارة مماثلة في الجبال المحيطة. والبشر قليلون هنا أيضاً، كأنهم مَنحوتون في
الصخر بدورهم، إنهم أناس ضامرون، بارزو العظام، غائرو العيون، حليقو الرؤوس.
لم أكن أتوقع مثل هذا التشابه، وأنا سعيد بالتمكن من الفهم العميق للتاريخ الزهدي،
المتقشَّف والمأسوي، في هذه الأرض الشهيرة المتردية،

أهيم في الشوارع وحيداً، صامتاً، ملتهب العينين، وانتشبع بهذه الرؤيا الأفريقية ...

مدريد، ٦ سبتمبر ١٩٢٦ (١)

فرحة عارمة بالعودة وبالكتابة إليك. اليوم انفعلت بشدة. إذ تعرفت على مؤسس
متحف الغريكو، المركيز دي لا فيغا إنكلان. دعاني إلى تناول العشاء في بيته. وتحدثنا
عن الغريكو كما لو كان صديقاً، جدّ معروف، وجدّ محبوب - وعن زوجته، وابنه،
وأعماله، وطباعه، وبعض الطرائف المتعلقة به. كنت أول كريتي يأتي لزيارة الغريكو،
بعد ثلاثة قرون. فجأة، وعندما كنّا نتناول الفواكه ونحتسي نبيذ مالقا اللذيذ، أشار
المركيز إلى الخادمة، وبعد هنيهة، لاح أحد الخدم حاملاً لوحة كبيرة. وما أن رفع الغطاء
المخملّي الذي يغطيها، دفعة واحدة، حتى وثب قلبي : كانت أمامي رائعة أعمال الغريكو
: القديس لويس في القدس، وطليطلة في خلفية اللوحة. عثر المركيز على هذه اللوحة، منذ
بضعة أشهر، في دير أسباني، فاقتناها. لم تسبق لي رؤية بشرة صدفية لامعة مثل
بشرته، ولا وجهاً أكثر طيفيّة، ولا عيين زرقاوين أشدّ غوراً، وكانت السماء رمادية
وخضراء، مثل بحر هائج.

كان المركيز، بجانبه، ينفخ بهدوء، مثل بهيمة، إذ كانت سعادته عارمة. ولقد وهب
الدولة عشرين لوحة للغريكو، لكنّه ينوي الاحتفاظ بهذه، حتى موته. وعندما يسافر
يودعها في خزائن بنك اسبانيا، خشية أن تتعرض للسرقة.

أخال أنني سعيد. لقد تعذّب قلبي كثيراً، واستمتع كثيراً، وفهم الكثير من الأشياء،
حتى أنه لم يعد، مع التوتر، سوى طيف، وينتظر الموت بلامبالاة، في أية لحظة.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

أفكر أحياناً أن قلبي تجاوز الحياة والموت - أرى كل الأشخاص وكل الأشياء الزائلة
في الأرض بشغف عارم حتى يبدو لي أنها تتلاشى، وتغوص في عيني.

لينوتشكا، أيتها الروح المحبوبة، والجسد المحبوب، سوف أبذل كل جهودي لتثبيت
وجودنا، نحن الاثنين، في الأثير السامي والمتلألئ، حيث نتنفس اليوم. ما أقصر هذه
الحياة، يا إلهي! فلنبذل قصارى جهدنا كي نصون علاقتنا الإلهية. لو كنت معي في
إسبانيا، لكانت هناك إسبانيا أخرى...

٧ سبتمبر ١٩٢٦ (١)

قبل قليل رأيت بريمو دي ريفيرا ... رجل قليل الذكاء يحركه مع ذلك إلهام أسمى
منه - إنه الإلهام الذي يدفع بالناس اليوم إلى التطرف، في تنظيمات اليمين المتطرف أو
اليسار المتطرف...

أعمل بلا انقطاع. أهيئ كامل النهار في الوزارات، أدرس القوانين، أسعى إلى معرفة ما
أنجز في إسبانيا منذ الحرب، في مجالات الاقتصاد، والسياسة، والتجارة، والصناعة،
والزراعة، والعلوم، والفنون الخ ...

أعود إلى كومة من الكتب، ولا أكاد أنام، لقد تملكتني مجدداً هوس الذهاب إلى آخر
المهمة التي بدأتها. فلتحلّ النعمة بوالدي الذي وهبني صحة سبعة ...

مدريد ١٠ سبتمبر ١٩٢٦ (٢)

... الأيام ملأى والليالي بلا نوم. أشعر بهيجان عصبي، ولا أحد بجانبني كي يرعاني،
ولا أترك أية راحة لروحي.

أول أمس، شاهدت سباق ثيران. وكانت صدمة لا توصف. لا أريد أن أحدثك عنها
حتى لا أعيش هولها من جديد.

عدت الآن من الاسكوريال ... ذهبت إلى هناك لمشاهدة لوحات الغريكو الخمس،
بالخصوص ... يا إلهي، يتوجب علي المرء رؤية أعمال الغريكو ولمسها ... اللمس، النظر
... هل تتذكرين كم أحبّ حواس الإنسان؟ جسد الإنسان المقدس؟ هكذا أكون قد لمست
ذلك الكريتي، اليوم في الاسكوريال وكلّ يوم في مدريد وبعد غدٍ في طليطلة. أنا منك
وسعيد. الغريكو صار درساً بالنسبة لي، قدوة، يدلني على الطريق التي يتوجب عليّ

(١) و(٢) رسالة إلى إيليني ساميوس.

سلوكها... إلهي، اجعل لقاءنا مثمراً.

... تعرفت على دون خوان رامون خيمينيث - أكبر شاعر في اسبانيا. تحدثت معه مطولاً اليوم، وأنا أودعه ... كانت مفارقتي للغريكو في متحف مدريد قاسية، حاولت حفظ ما رسم من وجوه وأجنحة، وملائكة، وبشر، وألوان ... لأنني لن أراهم مرة أخرى...

طليطلة، الاثنين ١٥ سبتمبر (١)

لقد وصلت حتى المأوى القاسي للغريكو. كان قلبي يدق بقوة أثناء المسيرة بين مدريد وطليطلة. كم تمنيتُ، منذ شبابي، إنجاز هذه الزيارة إلى الـ Genosse المدهش! «قدر الإنسان الحقيقي هو أن يحقق في سنّ النضج، ما أراده في الطفولة» وكلّ ما أردته تقريباً حصلت عليه بالكفاح، مع صعوبات جمّة وبفضل اندفاع الروح وحده. عندما تفحصت طليطلة، ثم عندما بدأت، ببطء وبكثافة، أهيّم في شوارع المدينة، وأستعيد حياة المباني القديمة، ثم اجتزت عتبة مسكنه، ودخلت الحديقة، وعندما صعدت إلى البيت، إلى الغيتو - كان الغريكو يحبّ اليهود إلى درجة أنه أمضى حياته قاطناً في حيّهم - باركتُ، مرة أخرى، لحظة ميلادي.

مع ذلك لم يرتبك رأيي : لم تكن طليطلة كما كنتُ أتوقعها - أين هي القدس وميكونوس وموسكو! تلك هي المدن الثلاث التي أدهشتني. ولم تكن طليطلة مشهداً مأسوياً كما تمنيتها، هل تذكرين جبال أريحا؟ هذا المشهد يذكر بكريت، في نواحي كنوسوس. زياتين وتربة حمراء. والضّبعة تغطي منحدر تلة يجري في سفحها نهر التاج. هناك فقط، على صخور ضفة النهر، أحسست، وفهمت بعنف، روح الغريكو. هذا أكبر تأثر حصل لي اليوم في طليطلة. ثم فرحة أخرى وقت الغسق، إذ دخلت إلى الكاتدرائية الغوتية الشهيرة.

كلّ النور تركّز على زجاج القرون الوسطى، فبدت الكنيسة تتلألأ بكاملها والقديسون يسبحون في نور قرمزي، أخضر، وأزرق. كانت تلك إثارتي الثانية. والثالثة : في مكتب البريد عندما استلمت الرسائل، كانت هناك رسالة منك، ورسالة من إلسا، ورسالة من ليّا، وثلاث من راحيل.

... اليوم طفتُ في المدينة فقط، زرتُ بعض الكنائس، حاصرتُ الغريكو. غداً سوف

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

أراه. بلغت ذروة التعب. أخال أن جسدي سيتلاشى، دفعة واحدة، بسبب الإفراط في التوتّر. كتبتُ لي إلسا : «Ihren körper sorgen und nicht ganz vergessen, damit noch etwaz bleibt zum tasten»^(١) أنا أيضاً أحبّ جسد الإنسان وأشفق عليه - لكنني اعتبره وسيلة. لذلك أهمله كثيراً. لا أريد إلا شيئاً واحداً : أن يصمد وأن يحمل الروح، دون أن يخور...

١٦ سبتمبر^(٢)

أحد أروع أيام حياتي! ما إن دخلت إلى متحف الغريكو، بعد أن التقطت بنظرة عنيفة كل الصور، والألوان، واللّمعان، والأيدي الإلهية - حتى انطلق قلبي يدق بشدة إلى درجة أنني بدأت أتحدث وأمزح مع الحاجب الهرم. وهكذا، بالمزاح، تمكّن قلبي من وقت يبلغ فيه الهدوء. عندئذٍ انصرفت بكاملي إلى كل عملٍ على حدة. ما من صورة، لا شيء يستطيع التعبير عن كنهه الغريكو. الألوان - زرقاء، خضراء، خمريّة - تلمع مثل المعادن، والجسم البشري رياضي، قويّ، منيع، وفجأة ها هو ذا الوجه الضامر يعلو ويتموج مثل شعلة. اليوم، كما لم يحدث لي قط، شعرت بروحي تعيش. هذا اللقاء بين الكريتين كان في منتهى الحدة والالتهاب، يا لينوتشكا!

وبعد سحر الغريكو ووجه إسبانيا الزاهد، ها هي ذي إيطاليا :

بيزا، ٢٨ سبتمبر ١٩٢٦^(٣)

... جُبتُ المدينة الصغيرة الفاتنة، كامل النهار، على طول ضفة النهر، وزرت كاتدرائياتها الشهيرة، ومقبرتها المتفرّدة بجداريات غوزولي وأوركانيا. ما أبعد هذه الروائع عن الشعلة والخشونة الإسبانيتين! كل شيء هنا متناغم، منضبط، وفق روح الفن. أتذكر الغريكو. كيف بوسعي الآن أن أحبّ هذه الروائع بعد نشوة الكريتي الصاعقة. روعي تدرك التناغم الذي توحى به أعمال النهضة الإيطالية ... أما أنا فأصرخ مع الكاهن الإسباني الشرس الذي قال لـ فيليب الثاني : «فلنشيّد معبداً يُقال عنا بسببه أننا مجانين!» الجنون هو القطيعة مع التناغم القديم والسموّ الجنوني الذي

(١) اعتنّ بجسدك ولا تنسَهُ كلياً، كي يظلّ شيئاً قابلاً للمس.

(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

يستبصر ويؤسس توازناً مستقبلياً في أعلى مستوى، - هي ذي الشعلة التي تلامس دماغى وتشعله.

أهيم في بيزا، وغداً فلورنسا، وقلبي يثب. إنّه يحاول الإفلات من إغواء هذا الجمال الذي لا ينتمى إلى عصرنا، لكنه من القوة بحيث يستطيع شلّ أشد الأرواح ببساطة. ليس من طبيعتي الموافقة على ربطتي إلى صاري السفينة، مثل عوليس، الذي فرط في حريته. أريد الإنصات إلى الإنشاد كله، والشعور بالدوار كله، ولهذا يتوجب عليّ أن أكون حراً كي أحسّ برعشة الخطر الدائم. وهذا ما فعلته حتى الآن في حياتي، وأنت تعرفين ذلك، ولهذا السبب كان تطوري على تلك الدرجة من الألم، والبطء، والتلهّف، وكان، في الوقت نفسه، تصاعدياً دائماً، من دون مساومة.

إنّ عودتي الآن، إلى إيطاليا، هي التي جعلتني أعي الطريق التي قطعتها خلال العامين الآخرين. لقد باتت إيطاليا، حالياً، ورائي، بعيدة عن تطلّعاتي السامية. أسمع غناء جنّيات البحر (كما في هذا المساء) متأملاً مياه النهر القرمزية، والنور الرطب الباهت، فيمتلئ قلبي بالمرارة. وأحياناً أقشعر لأنني أدرك تعرضي للخطر. هل تذكرين تلك المرأة في تفليس، عندما قالت لي فارفارا نيقولايفنا في حديقة الحصباء والخيزران الأحمر: «ماذا يهمّ الواجب، والوطن، والفنّ؟ تعال، نرتحل!».

لو كنت بارد الرأس، جافاً، عاقلاً، فاقد الحسّ، لما تعرّضت لأي خطر. لكنني أشعر بالمجازفة في كلّ لحظة. وأثناء هذه الرحلة إلى إيطاليا، غرّتني جنّية بحر أخرى، هي الأعذب والأوفى - الموت - لا أعتقد أنّ هناك سعادة تفوق الموت بالنسبة لي، لأنني مفرط في حبّ الأرض، والهواء، والمرأة، والروح، والبحر، ولا أشبع من ذلك الحبّ.

لينوتشكا الحبيبة، من الأفضل أن أكفّ عن الحديث إليك هذا المساء. لم أعد قادراً عل التحكم في قلبي. ربّما، لو كنت قربي، لما قلت شيئاً، ولتَمَكَّنْتُ فجأة من رؤية عينيّ تمتلئان دموعاً. وبعد ذلك أضحك محرّكاً رأسي...

فلورنسا، ٣٠ سبتمبر (١)

وصلت هذا الصباح. «بونسيون سافونا رول».

أنّا فوجئت وفرحت لأنها لم تكن تتوقع مجيئي بهذه السرعة. وكانت إدويغ قد

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

سبققتني إلى هنا.

تجولنا في المدينة القديمة، اللطيفة. عدتُ إلى مشاهدة أعمال جيوتو، ماساتشو، ميكاييل انجلو... كل هذا جميل، لكنه بعيد، بعيد، بعيد... أريد مغادرة إيطاليا بسرعة. يوم ٢٠ أكتوبر سوف أقصد أسيز...

ودّع كازنتزاكي صديقتيه الجديدتين أنا وإدويغ، وقصد روما حيث حدّد لي موعداً. من خلال رسائله، يمكن أن يبدو، لمن لم يعرفوه، رجلاً قلقاً، ممزقاً، دائماً، بين رغبتين. وفي الحقيقة كان يبرهن على استقرار رائع. كانت «الفكرة ونقيضتها» تتصارعان في روحه، من دون انقطاع. غير أن غريزته أو عقله الحاجج يختار الطريق التي يتوجب سلوكها ويلغي أي ندم أو أسف غير مجديين. وحدها الرسائل تبين الصراع الداخلي. وهي تشكل نوعاً من التحليل النفسي الذاتي، ووسيلة تحرر تبعث ذلك التوازن المشرق الذي يحسده عليه كل الذين يقتربون منه».

من روما، يوم ١٠ أكتوبر ١٩٢٦، إلى إدويغ :

... حدّد لي موسولينى موعداً بعد غد. وسوف أسافر إثر ذلك مباشرة. عندي كثير من الشغل في أثينا... وأشعر بالخجل لأنني لم أنجز شيئاً حتى الآن. جمل قليلة، أفكار كبيرة وآلام شخصية كبيرة - لكن الحياة واجب أوسع وأعمق. يتوجب علي القيام بالهجوم الأخير حتى أكمل واجبي قبل أن أتوارى تحت الثرى.

هل ينبغي توديع كل الأشخاص الذين أحبهم؟ هوذا القلق العارم الذي بات يخنقني في الأسابيع الأخيرة... أهذا هو الدرب الذي ينبغي أن أسلكه؟ هل أتخلّى عن كل فرح شخصي؟ الطريقة الأخصب لتطوير روحي، وأفضل من ذلك، لتطوير روح العالم؟

صديقتي العزيزة، هوذا قلبي ينزف من جديد، ويتردد، ولا يريد، لا يستطيع التقرير بعد.

فليات إلها المدهش Pietro il martira، لنجدتي ونجدة ذاته...

يوم سفري رافقتني ماريكا إلى بيرّي. ونصحنا صديق خبير في السفر : «لا

جدوى من الحضور في الموعد، فالبواخر اليونانية تقوم في منتصف النهار، ولا ترفع المرساة إلا مع قدوم الليل».

لكن الباخرة التي ستقلني رفعت المرساة في الموعد المحدد، باتجاه إيطاليا. وتم سحب جسر العبور إليها فعلاً. وعلى الرصيف كان هناك أشخاص مازالوا يؤشرون بمحارمهم مودعين. تملكني اليأس، لخوفي من ضياع فرصتي الأخيرة. لكن ينبغي الإيمان بالمعجزات. عندئذ بدأت الباخرة تهتز، وتحرك مروحتها ببطء، وتقفز بالدخان الأسود، وتتأرجح في مكانها. وتمكن رجل ذو شاربين كثين من إلقاء، مثل أكياس، في زورقه، لاعتناً أمه وأباه. جذف قليلاً واقترب بنا من البهيمة السوداء الهائلة.

يا لفرحة كل لقاء جديد! وكما لو ظن نيكوس أن لن يراني مرة أخرى، أبداً، فقد ابتهج كثيراً وشدّ على كتفي يهصرهما بقوة حتى جعلني أصيح من الألم، ورافقني منذ الفجر إلى المتحف، والشوارع والأزقة الخالية، والكنائس والمعبد، ليقتراح عليّ خططاً أخرى، على الفور...

ونظراً لذوقه الرفيع، فقد كان يختار، إذا سمحت له إمكانياته المالية، فنادق من النوع العائلي الخاص، بعدد محدود من العمال المهذبين، والموائد المنفصلة، والسجادات الناعمة، والأضواء الخافتة. وكان يوجد فندق من هذا الطراز في ساحة بربريني. وفيه ارتحنا كثيراً. كانت روما متألفة: تيتيان، تنتوريه، ميكائيل انجلو... وأمام عيسى بقرنيه الصغيرين، انتشى نيكوس: «والحال أن طفلة في الخامسة من عمرها فسّرت لنا لغز هذين القرنين!» هتف مكرراً كلمات ابنة أخته، ألكا، التي قالت وهي تشاهد بيض عيد الفصح أمامها: «أنا فرحة إلى حدّ الإحساس بقرون تنبت في رأسي!».

يوم ١٣ أكتوبر ١٩٢٦، استقبل موسوليني نيكوس كازنتزاكي. ويرى كازنتزاكي أن الخير والشر يتعاونان وينتهيان إلى الامتزاج كي يساهما في القضاء على الظلم في العالم، لذلك لم يكشف فوراً عما في شخصية موسوليني من جنون، عظمة وضعف.

- ما هي أهم سمة تلفت انتباهك في الفاشية؟ سألته ذات مساء.

- اشتراكها في عدة نقاط مع الشيوعية.

- كيف ذلك؟

- نفس الإلغاء للحرية الفردية والإيمان نفسه بمستقبل أفضل. لكن...

- لكن؟

- الفاشية تتذأبُ بين الماضي والمستقبل، وكثيراً ما تستخدم وسائل تجاوزها الزمن، وغير مجدية، كما تحاول إيجاد تعايش بين الذئب وفريسته... وفي كل الأحوال يُعتبر موسوليني وجهاً مأسوياً لتاريخنا. إنه مقتنع بمهمته التاريخية، ومستعد للموت في أي لحظة.

- ماذا سيحدث إذا مات موسوليني؟

- إذا أخذنا بالاعتبار الفوضى التي ستعقب موت موسوليني، وانتهيار الفاشية، واندلاع حرب كريمة، وتلاشي الآمال المبالغ فيها لدى الشعب الإيطالي، في وقت قصير... إذا فكرنا في كل الذين يضطهدهم النظام الفاشي، وفي الحقد الذي سوف ينفجر بين السادة القدامى وبين الذين سوف يحاولون الحلول محلهم، عندئذٍ ربما يكون بوسعنا التنبؤ بأن موسوليني سوف يشكل، في الواقع، أفضل أداة لمستقبل ما بعد الشيوعية...

الباخرة ميكالي، برنديزي، ٢٠ أكتوبر ١٩٢٦ (١)

حبيبتي،

... البحر رائع، أُعْطِيتُ حجرة حمام، لي وحدي، أقرأ متمدداً على المرقد، غير أن روحي معك، يا حبيبتي. كوني شجاعة، ولتقتنعي بأن البطولة وللحب معيناً واحداً. ولو كان بوسع الإرادة، والعناد، والإيمان بسلطة الروح المطلقة، أن تخترق الجبال والبحار، لشعرت، في كل لحظة، أنني أنحني عليك وأنفث لك روحي. سوف يتم كل شيء كما نرغب، يكفي ألا تفقدي الشجاعة. أنا في منتهى المثابرة، وأعتبر الحياة الخارجية في غاية الخضوع للحياة الداخلية إلى درجة أنني لا أشك في شفائك، وفي ترتيب وضعك، وفي

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

سفري إلى باريس، وانهماكي في العمل نهاراً، وتناولنا العشاء معاً، في المساء، وتمتعنا بذلك. وبعد ذلك نحدّد لنا هدفاً جديداً - وسوف نبلغه ثم نتجاوزه مجدداً - ما دامت روحنا حيّة، ونحن نحبّ بعضنا.

أنا سعيد لكونك من طبيعة بطولية، رزينة، صامتة، ملأى بالتفهم والحيوية، وأنا أشعر بك، دائماً تسيرين بجانبني مشيقة وأكثر انسجاماً. لا نحتاج إلى أي شيء آخر كي تتحول هذه الحياة الزائلة إلى معجزة، فبالإيمان، والحبّ والإحساس المتبادل بالأنفاس الحارة، خُلق «الإله» وكتب له الخلاص.

تورفو، الخميس صباحاً (٢١ أكتوبر ١٩٢٦) (١)

لم تهبني اليونان أية بهجة. لقد بدا لي الناس مقلّصين، بشعين، غارقين في السياسة الضيقة. وفي الشارع يتناقشون أدياً حول فينيزيلوس... كورفو، رائعة - لكن الوقت قصير. كلّ شيء رائع: الجبال، البحر، الألوان، لكنها سلبية مُرخية.. مميتة بالنسبة لروح تصارع. إنّها تذكرني بنابولي والأندلس. ربما كنت لا تعرفين ذلك، لكن، حتّى القديسة تيريزا، المحاربة العظيمة، عندما وصلت إلى الأندلس، أحسّت بروحها تتقلص وتتخدر في ذلك المشهد المفرط في عذوبته ورطوبته وحرارته. فغادرتّه.

اشتريت عنباً أسود وأبيض، وتفاحاً رائعاً. جلست على شاطئ البحر، فوق مرتبط سفينة حديدي وأكلت بهدوء، وبطء، مثل زاهد ياكل، ويشكر ربّه، في أن واحد، على العنب والتفاح والجوع. فكرت في «عوليس». فغزت روعي صور عديدة. ومن جديد انتفخ الشراع المثلث لمركبه الأسود، في صدري. واستمعت إلى البحارة يشتمون ويجذفون، وراقبت الصبايا يحُمّن حول المركب الذي وصل للتوّ، شممت الثمار المتعفنة وهي تتحلّل في الماء المالح، وتأمّلت، في عرض البحر، لمعان اللّجة الإلهية. كلّ هذا مقدّس، كلّ شيء يملك روحاً خالدة ويتوجب عليّ إنقاذه. ليتني أتمكن فقط في هذا الجدول العبثي القذر، للضرورة اليومية، من كتابة بيت شعري جميل، وإنجاز عمل شجاع، واندفاع مشبوب! منحنية فوق كنيسة نورتردام مثل نورس شرقيّ، مثل ميزاب، رأت روعي الربيع قادماً معك، يا لينوتشكا، مع متعة العمل الصارم وحبّ الليل.

(أثينا)، «الزنزانة»، الجمعة مساءً (٢)

عدت إلى الحجرة الضيقة، إلى «الزنزانة» بتأثر شديد. كلّ شيء في مكانه - تماثيل

(١)، (٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

العذراء، الكتب، الأريكة، وفينوس القبرصية ...

... بدأتُ حالاً عملي المريع والمتعب. رتبتُ دفاتر ملاحظاتي، وضعتُ خططاً أولية للمقالاتي. والآن حلّ الليل، وأنا متعب، وأكتب إليك لاتسلي قليلاً.

... هذه «الزنزانة» عزيزة عليّ وهذا ما بدأ يقلقني. لا أريد أن تحجزني أية نقطة في الكون. لكن، ربما تجددين لي، في الربيع، ما ينقصني في باريس - زنزانة أخرى؟ أتلّهِف إلى إغلاق دورة الارتحال وبدء عمل جديد...

أثينا ٣ نوفمبر ١٩٢٦ (١)

وأخيراً، عندما يبدأ حلول الظلام وتتلأشى صور العذراء في الزنزانة، يمتلئ الهواء الغسقي بحضورك، يا لينوتشكا. أشعر بالإرهاق كل مساء، وعندما أكتب إليك أرتاح ... أحياناً أخرج، حوالي منتصف النهار، وأذهب إلى «الزابيون» لقضاء وقت وجيز - الشمس متألقة وجبل «الهيئات» عارٍ مثل إله، والبحر يتلألأ - وأنا سعيد لتمكّني من العيش في أثينا من دون إلقاء التحية على أحد، ولوجودي، بهذه الطريقة، في مدينة إلهية ومقفرة ...

٨ نوفمبر ١٩٢٦ (٢)

لم تُعرف بعد نتائج الانتخابات، والصحف فقدت صوابها ... أمّا المقالات (٣) فسوف تنشر خلال بضعة أيام، عندما تهبط الأرواح اليونانية قليلاً. أكتب إليك بصعوبة لأن أصابني تؤلمني من كثرة النسخ ...

أثينا، ١٥ نوفمبر ١٩٢٦ (٤)

أكتب كثيراً، ولا أكاد أنام، وقد تملّكني قلقٌ روحيّ حاد.

كتبت في مجلة حديثة الصدور، فصلين حول روسيا، أثارا ثورة، هنا، في أوساط المثقفين. وبدأت معركة فلسفية: قال عني الشيوعيون إنني هرطوقي ومتصوّف، وجاء بعض الشباب إلى زنزانتي واعترفوا بأن قلوبهم تنشرح لأول مرّة.

وهناك ماديّون سيردّون عليّ... وأنا سعيد لإحساسي بقوة هائلة، وصفاء روحي

(١) رسالة إلى أيليني ساميوس.

(٢) رسالة إلى أيليني ساميوس.

(٣) المقالات التي كتبها نيكوس كازنتزاكي عن إسبانيا وإيطاليا.

(٤) رسالة إلى أيليني ساميوس.

كبير، وقوة نفسية وفكرية لا تصدق.

لا أدري بعد أن كنتُ سأسافر. لم أرَ كافافاكي. كتب لي رسالة مهذبة جداً كي يقول لي إنه سوف يتصل بي... جهزت أربعين مقالة ولم أسلمها بعد، لأن اليونان الآن مستنقع، والجميع لا يفكرون حالياً إلا في الانتخابات والحكومة.

لن أسافر، وسوف أعمل على الذهاب إلى باريس قريباً. وهناك أشياء كثيرة يجب إنجازها. إذ ينبغي أن أقابل، في باريس، شيوعيين بالمعنى الواسع الذي أعطيه لكلمة شيوعية، وأعبر عن تصوّر جديد للفكرة.

أفكر في الذهاب إلى كريت بعد ثلاثة أعوام لأقدم نفسي كنائب شيوعي. ولعلّي هكذا أجد الفرصة لمخاطبة الفقراء والجائعين، بكلمات بسيطة. إنّها الطريقة الجديدة للإعلان عن ديانتنا...

١٦-١١-١٩٢٦

الطقس رائع جداً. شمس صيف. وما من قطرة مطر منذ عشرة أشهر. الأرض قاحلة، ما من زهرة أو ورقة، وحدها أشجار النارج في الحديقة الملكية انخدعت وأزهرت. الهواء عابق كما في الربيع...

أثينا، ٢٢ نوفمبر ١٩٢٦ (١)

..... أحسّ بقرابة تربطني بأفريقيا. لقد حدثتك كثيراً عن الأقنعة. راحيل شعرت، لشهور عديدة، بدماعها يترجرج - وبمثل هذه الحدة شاهدنا، أنا وأنت، تلك الأقنعة الأفريقية...

لا جديد بالنسبة لسفري... صحيفة «لوغوس» لا تملك مالأ. وصحيفة «فيما» رفضت متهمة أيادي بالشيوعية.

أتلّهف لإنهاء الأسفار، يا لينوتشكا، والتمتّع بالهدوء في باريس. وينبغي أن أذهب لرؤية راحيل التي استلمت منها رسائل مقلقة. ينبغي أن أراها. كيف؟ بالذهاب إلى باريس؟ إلسا أيضاً سعيدة لأنها تأمل أن تراني في الربيع، في أحد الكيوبترات. الاسرائيليون يرسلونني رسمياً ويدعونني إلى ذلك.

أرأيت يا حبيبتي، إنّ قلبي يتمزّق في كلّ الاتجاهات. أه، لو كنت عشرة. عشرة أجساد

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

وأرواح. الآن يتوجب عليّ الاستقرار، لمدة عامين على الأقل....

٢٧ نوفمبر ١٩٢٦ (١)

حبيبتي،

أمر، كل هذه الأيام، بمرحلة نفسية صعبة، وحرجة جداً. أصابني هزال شديد ولم أعد قادراً على النوم. جاءني، قبل بضعة أيام، طبيب صديق وأبدى هلعاً، أراد أن يخضعني للتصوير بالأشعة، الخ.... وأجبرني على تناول زيت السمك، وعلى مزيد من الأكل المغذي، الخ....

٢٩ نوفمبر ١٩٢٦ (٢)

... عندما أجيء سوف أخبرك بالضجة التي أحدثتها المقالات عن إسبانيا. لقد اعتبرت صوفية وخطرة في نظر الماركسيين الأرثوذكس هنا. سيردون، وهم الآن ينددون، لكن بعضهم يقف إلى جانبي. وفي هيراكليون ما زال لفتريس يكتب ضدي... إلهي، يا له من ريف، يا للروح الضيقة، يا لغياب الإلهام الرباني...

سيُنشر لي، هذه الأيام، مقال حول الأزمة اليونانية الجديدة، وسوف أرسل به إليك. وكما ترى فقد وجدت نفسي في مركز الحركة، من دون أن أرغب في ذلك. أمل أن تنضج اليونان في غضون سنتين أو ثلاث سنوات وتشهد حركة كبيرة. ينبغي أن تشفي لأن أمامنا الكثير من الأعمال... قف! هذه الكلمة الأخيرة في رسالتك أعجبتني ودعمت قلبي. هناك طائفة بوذية تدعى: «الواقفين دائماً!» لنكن مثلها...

أثينا ١٣-١٢-١٩٢٦ (٣)

انتهيت من بحثي الذي حدثتك عنه حول ما بعد الشيوعية، لقد أسميته هكذا «الميتاشيوعية» وسوف ينشر فيما بعد - لأنه يشكل خطوة حاسمة في حياتي وعليّ أن أزن كل كلمة. وهو قطيعة كبرى مع الشيوعية - قفزة إلى الأمام، لا إلى الخلف. وسوف يغضب أصدقائي الشيوعيون. أما الذين يوافقونني الرأي فسوف يسيئون الظن من جديد.

(١) رسالة إلى إيليني ساميوس.

(٢) رسالة إلى إيليني ساميوس.

(٣) رسالة إلى إيليني ساميوس.

... ب. (١) وصف لي حياة أصدقائه في باريس.... واستأت لاكتفاء أولئك الشباب بالعيش بطريقة في منتهى العقم. كأنهم سلاله عرق خائر القوى. يقرأون، ينتشون، يثرثرون وينمّون، عاطلين، مبددين أوقاتهم في اهتمامات تافهة.... لقد كان شبنغلر محققاً عندما دعانا (٢) felahenvolk .

ومن الطاف الله أننا، نحن الكريتين، لسنا يونانيين. وأنا سعيد بدمي الإفريقي، وأعمل بمثابة، وكما يروق لي في الوقت نفسه، من دون انتظار مكافأة... لينوتشكا، هناك أيام لا أعود قادراً فيها على تحمّل البشر. وأشعر فقط بوجود بضع نساء إلى جانبي، وعلى المستوى نفسه، وهنّ أيضاً لا يشعرن براحة وجودهنّ.

أول أمس تمشيت من أليسيديا إلى تاتوي، ثم عدت إلى كيفيسيا، كي أرهق جسدي قليلاً - وأهدأ. كانت الشمس رائعة، والحقول تخضر، والجبال تلمع، زرقاء، مرسلة بخارها. تماكنت نفسي، وتمكنت من النوم هادئ البال...

أثينا ٢٠ ديسمبر ١٩٢٦ (٣)

... أكتب الآن، أي أصحح سيرتي الذاتية التي قرأت عليك بعض صفحاتها في سان ستيفان بتسانغارادا ... أنظر إلى الوراء فأشعر بالسعادة متأتية من أيامنا في سنة ١٩٢٦.

١٩٢٧ . عادت فكرة الحصول على دير مهمل، وجعله مجمّعاً للفنون، تسيطر على رسائل كازنتزاكي. وكما حدث له دائماً، من عدم إصغاء الحكومة اليونانية إلى ندائه، فقد يَمّ وجهه نحو باريس رغبة منه في الهروب من اليونان والإنعزال من أجل العودة إلى «الأوديسة»:

أثينا ٢ يناير ١٩٢٧ (٤)

... أمس، كان اليوم الأول في العام الجديد. انبثق في الحلم القديم مجدداً: تحويل دير القديس يحيى الصياد إلى مركز روحي... لقد تملكنتني فكرة المجمّع من جديد...

(١) الشقيق البكر لكاتي وماريكا.

(٢) حرفياً: «شعب فلأحين».

(٣) و(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

٧ يناير ١٩٢٧ (١)

... الكثير من الضجر، يالينوتشكا، والكثير من الهموم . ينبغي أن أستقر أخيراً قرب أشجار وشمس مشرقة، حذو طريق سوي ومستقيم، وأبدأ بالعمل، فأراك في المساء، ونتحدث وتعيشي معاً، ونتنزه.

من الضروري أن أفكر ملياً وأبدأ بالعمل. لقد هيمن عليّ اليوم حزن فظيع. عندما أجيء سوف أخبرك بالسبب. أحاول التغلب على هذه الأزمة....

١٨ يناير ١٩٢٧ (٢)

قررت صحيفة «إيفتيروس لوغوس» فجأة أنه يتوجب عليّ الذهاب إلى أفريقيا أولاً. وهذا لأنه ضروري لـ «الأوديسة»... وسوف يُنجز...

قدمت إلى الناشر «روسيا» وثلاثاً من مسرحياتي، وسوف تصدر في الربيع...

(أثينا) ٢٠ يناير ١٩٢٧ (٣)

صحيح أنني أرغب في حياة شظف وزهد، غير أن القلب البشري الذي يخفق في صدري، نهم جداً.

فكرة وجودك في باريس تجعل قلبي يثب، وتقوّي لهفتي. بعد ثلاثة أيام أسافر قاصداً مصر والسودان، حتى الخرطوم. سوف ألقى نظرة سريعة، متلهفة، على ذلك العالم، وأعود بسرعة لأكون في منتصف شهر مارس، بباريس. ارتجف من فكرة اقترابي من القدس، من دون أن أتمكن من العودة إلى زيارتها. ومن شأن إلسا أن ترتبك لرؤيتي وتتألم لمغادرتي السريعة - ربّما إلى الأبد.

ثقيلة جداً، هي الحياة، وفي غاية العمق، وقلبي لا يكاد يسعها. عندما أجيء سوف أعلمك بسبب حزني هذه الأيام. لا تشغلي بالك بهذا الأمر. أنا هكذا. ولقد تأملت كثيراً في حياتي، حمداً لله. لكنني أربّي قلبي وأكبحه حتى لا يولول. أحياناً لا أتمكن من ذلك ويلوح حزني.

(١) و(٢) «(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(أثينا) ٢٢ يناير ١٩٢٧ (١)

سأسافر غداً مع كالموك (٢).... أرجو أن يستفيد من لقائنا. سوف أعطيه بمقدار ما يريد أن يأخذ، وليكن الله معه! وإذا صار شخصية بارزة فلا شك أنه سيتنكر لي - كما فعل لفتيريس واسفاكياناكيس. أما إذا خسر فإن الجميع سوف يقفون ضدي ويقولون إنني حطمته. أتقبل هذا وذاك كمكافأة تليق بي حقاً. من دون مكافأة! من دون مكافأة! هذه صرخة قلبي.

... سوف ألقى نظرة عنيفة على أفريقيا، وألتقط ما أقدر عليه من أجل «الأوديسة» وبعد جمعي للغنائم الملتقطة في روسيا، وفلسطين، وقبرص، وإسبانيا، وإيطاليا، ومصر، والسودان، سوف أذهب للعمل في باريس. أه، لو أن حضورك يستطيع تلطيف هذا القلب الشرس والمثلهف، قليلاً!

القاهرة، أول فبراير ١٩٢٧ (٣)

(The Palace Hotel)

... روجي تمتلئ بالشرق من جديد. كم أتحسّر لغيابك! أنا الآن أزور المساجد والأسواق، هذه المدينة أعجوبة.

القاهرة، ٢ فبراير ١٩٢٧ (٤)

كنوز المتحف لا يمكن وصفها. قبر توت عنخ آمون كله من ذهب.... إن كل تلك الزخارف، والجواهر، والأواني والأدوات الذهبية، وذلك الألق الغريب والمربك... تبعث شعوراً بالهول لأن كل ذلك الجهد الإنساني من دون طائل، إذ تبتلعه الأرض كما سوف تبتلع قلوبنا التي تحب وعيوننا التي لا تشبع من النظر.

تعرفين كم أحب الفن المصري - همتُ ساعات عديدة مرتعشاً. أية فرحة، أي ألم، أي جهد في قلبنا لإنقاذ هذه الحياة السريعة! تسكعت مثل عوليس وسعيت إلى ملء مركبي بكل هذه الثروات.

لينوتشكا، كنتِ معي دائماً، ولقد أمسكت بيدك كي أتمكن من تحمّل كل ذلك. بدت لي هذه الحياة مثل حكاية باطلة، سراب صحراوي وأحتاج إلى جسدك الدافئ حتى أتشبث

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) تاكيس كالموكوس، رسام، صديق وجار في «إيجين».

(٣) و(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

به - مثل شخص يسقط في هاوية ويتمسك بدغل صغير، سوف أحدثك عن أبي الهول عندما أراك. الأهرام سخيقة، لكن أبا الهول عين مريعة، واسعة، تنظر برعب إلى الصحراء. لم أر استحضاراً أكثر أصالة لروح الإنسان الباسلة والضائعة...

الأقصر، ٧ فبراير ١٩٢٧ (١)

أه، يا إلهي، متى نتمكن من إنجاز هذه الرحلة الرائعة إلى مصر معاً؟ إنه الشرق، كما نحبه، مفعماً بالضوء والعطور ورماد أجيال لا تحصى، مرت، بعد أن تأملت وأحببت وتلاشت.

النيل ينساب هادئاً، فيروي ويخصب ما يدركه. وكل ما لا يسقيه يظل عقيماً غير مخصب إلى الأبد. كذلك هو الفكر يجري، يسقي، ويخصب الهاوية، لقد أحببتك كثيراً، يا لينوتشكا، هنا - على هذه الأرض القديمة، الحارقة، المملوءة بالجهود والكبرياء. لو كنت معاً لعشنا هذه اللحظة بعنف وأحببنا بعضنا - قبل أن نموت. هنا، الاتصال بالموت - وهو اتصال عنيف وشهواني - يرى في كل لحظة ويجعلنا نرتعد. ما نحن إذن. ولم نضيع في الترهات وفي الانفعالات الصغيرة؟ مقبرة الفراعنة الكبار، رائعة، رائع هو الرمل الحار العقيم، بعيداً عن ماء النيل، رائع هو النيل بخضرتة وحيواناته وفلاحيه. وأنا الذي أحب الشيء ونقيضه، بعنف، أستمتع الآن بوجهي مصر - الأخضر والرمادي.

أعظم ما شاهدت هو أبو الهول، وفي البعيد، وراء الأشجار، الصحراء المتربصة... أتأمل النيل، عريضاً، بطيئاً، مقداماً، وفي مياهه تسبح تماسيح فاتحة أفواهها المخيفة، وفوقها تحلق طيور زرقاء ذات بطون صفراء، أو صفراء كلها، مثل الكناري. فأختلج فرحاً لرؤية الطيور الملونة تلهب الهواء.

يا لهذه الأرض من أعجوبة، كم أن كل شيء منظم فيها من أجل متعة العينين والذهن! لينوتشكا، لقد تحولت المرارة التي أحس بها، لغيابك، إلى حزن عميق من رؤية العالم بمفردي. فليكن الله معك... وليكتب لنا السعي في الأرض معاً! كم تبقى لنا من الوقت كي نعيش؟ عوض إحراق الحياة بشخ وبؤس، لنحرقها من الطرفين!

اعتاد المصريون القدامى وضع تابوت على موائد مآدبهم كي يتأملوا الموت أثناء انغماسهم في الشهوات. إن مصر كلها تمتد مثل تابوت، وأنا أرتجف من شدة التأثر واللهفة...

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

بلاد العرب ، مخيم في الصحراء (١)

١٣ فبراير ١٩٢٧

لينوتشكا الحبيبة، الليل يخيم، وأنا أكتب إليك تحت خيمة، في الصحراء. منذ ثلاثة أيام ونحن نضرب في الصحراء على ظهور الجمال، وغداً إن شاء الله، نصل إلى دير سيناء. قرب خيمتنا، قام أدلاؤنا البدو الثلاثة، يساعدونهم سبعة آخرون التقييناهم في الطريق، بإشعال النار، وترتيب الأمتعة في شكل دائري، وربطوا الجمال حولها، ثم بدأوا يعدون الطعام... الخادم الأسود يجهز لنا أرزاً باللحم والتوابل. أكتب إليك مستلقياً على سرير ميدان أهده لي رهبان «رايثو»، وأشعر بالانزعاج عليك.

برد قارس، وقطرات مطر كبيرة تسقط، دخلنا اليوم إلى الجبال الشرسية، الصحراوية، وكلها من حجر الغرانيت. نخلة نصف ميتة هنا، وطائر رمادي هناك. نتقدم على ظهور جمال كبيرة جداً، وأنظر إلى كل شيء بلهفة، أما «كالموك» فهو يغفو قليلاً. ولا نتحدث بتاتاً. في المساء نمكث مع البدو، قرب النار، وأذكر لهم الكلمات العربية القليلة التي أجيدتها، ثم نضحك. مساء البارحة نطقنا، فجأة، بالجملة المعروفة في القرآن: لا إله إلا الله، محمد رسول الله! وفي الحال لمعت عيونهم فرحاً ورفعوا أيديهم إلى السماء.

فكرت طيلة ثلاثة أيام على إيقاع سير الجمل الرتيب والبطيء... وفي ذهني، توارد شريط حياتي - ما أنجزت وما يتطلب الإنجاز، تأملت لأنني لم أنجز شيئاً مهماً وقررت أن أتغير وألا أموت هكذا من دون إكمال واجبي. أفكر في الناس الذين أحببتهم، وفي الأفراح والألام التي سببتها لهم. لاحت لي إلسا في منتهى الحزن والشحوب، ساكبة دموعها الساخنة، كعادتها، على يديّ أه، لن أراها مرة أخرى، أبداً! شعرت بذلك في القدس وتمزق قلبي. دائماً عندما أفكر فيها تتملكني رغبة جنونية في الموت. لينوتشكا، ها أنذا فريسة أفكار سوداء، مرة أخرى، هنا، في الصحراء، تحت هذه الخيمة الشرقية حيث توقفت في استراحة. أفكر فيك بقوة وأرغب في حضورك إلى حد أنه يتوجب عليّ، هذا المساء، أن أجبرك على التفكير في...

١٨ فبراير (٢)

أكتب إليك من قمة الجبل المقدس، ٢٥٠٠ متر ارتفاعاً، حيث أملى الله الوصايا العشر

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

على موسى. أشاهد شبه الجزيرة العربية كلها... اليوم عيد ميلادي. أنا سعيد وعياني تستمتعان بالرؤية التي رغبتُ فيها منذ أعوام عديدة.. بلاد العرب. البحر الأحمر من جهة، والخليج الفارسي من الجهة الأخرى. والجبال القاسية في الوسط، وفي البعيد تلوح الصحراء، بيضاء، مدخنة...

البحر الأحمر، ٦ مارس ١٩٢٧ (١)

الحلم المذهل - التنقل على ضفاف بلاد العرب، والارتقاء في البحر، والتدحرج على رمل الصحراء، ورؤية النخيل والجمال، بعيداً جداً، وجمع أصداق البحر الأحمر الجميلة - أوشك على النهاية... أول أمس، في الصحراء، ومع هبوط الليل، خيمنا، أنا وطعمة البدوي، قرب عين صغيرة، تحت النخيل. أشعلنا النار، وأعدنا الشاي، وأكلنا معاً، ثم تمددت متأملأ سماء الصحراء المتألئة بالنجوم. نجوم كبيرة، معلقة، ساكنة وعميقة، وطعمة بجانبني ساجداً، يصلي، ووجهه باتجاه مكة - وكنت أفكر فيك... منصتاً إلى كل الأصوات الغريبة الخافتة في الصحراء. فسمعت الجمل يمضغ عشباً جافاً وجدها تحت ظل النخلة، ورأيت النجوم تدور، وأعدتُ بناء حياتي كلها في داخلي، وكذلك عنادي، وكثافة روعي، وتوحشها، وشهوتها، عبر الأرض. أه، كيف بوسع الغبار أن يغمض عيني؟

هكذا أحسست، في ذلك المساء، غاضباً، بالمصير المتواضع للإنسان وكرهتُ تقبله. لا أريد لك أن تنطفئي إلى الأبد، وتذوي الشعلة التي تأكلنا. انفجرتُ في داخلي قرارات جنونية وأردتُ، تحت تأثير الصحراء الوحشية، تغيير حياتي.

في مساء الغد توغلنا في ضباب وردي مريع - هبت الخماسين وصار الجمل يدور ويُرْوَب في مكانه، والرمل يجلد وجهي ويدي ويجرحها. فأبتهج لأن عوليس كان ينبغي أن يجرب هذا الإحساس. كان العذاب مهولاً - وعارمة كانت الفرحة عندما وصلنا إلى دير يوناني، على ساحل البحر، فرح بالنار، وبشراب الفواكه، والقهوة، والضحك، والأكل، والأغطية النظيفة، والنوم العميق. أمضيت خمسة أيام إلهية في دير بلاد العرب الصخرية، منتظراً مجيء السفينة. شرفة فوق الأمواج، زوارق شراعية، أرجوانية، نظيفة، نساء داكنات، يضعن خلاخيل فضية في أعقاب أقدامهن، ووراءنا الرمال اللامتناهية، وأمامنا البحر الأحمر، الأزرق والأخضر..

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

الاسكندرية ، ٩ مارس ١٩٢٧ (١)

... أغادر مصر يوم ١٣ مارس وسوف أبذل قصارى جهدي كي أصل بسرعة إلى باريس هنا، توجد حركة أدبية، وكثير من الأصدقاء الودودين، الخ. أحبهم كثيراً، لكنني أفضل أن أكون وحدي. إحساسي بمصر حاد جداً ولا أريد الحديث عنه، مع الناس.

سوف أكتب إليك قريباً من أثينا... لا تحزني إذا هاجمتني الكأبة مجدداً. لقد أفلتُ منها قليلاً، بالسفر. والآن تترصدني في أثينا. لكنني سوف أسافر. وعندما أعود سوف أحدثك عن ذلك... فليحفظنا الله دائماً متيقظين، سخيّين، ومتألقين...

وبالفعل كانت الكأبة تترصد نيكوس كازنتزاكي في أثينا. لكن، ومن حسن الحظ، في ذلك الوقت تحديداً، كان بانديليس يريفيللاكي، الشاعر الكريتي ذو الثماني عشرة سنة، يدخل لتوّه، إلى الساحة الثقافية. وهكذا تحصل كازنتزاكي على «أخ» سوف يظلّ وفياً له حتى الموت.

أثينا، ٢٧ مارس ١٩٢٧ (٢)

لينيوتشكا الحبيبة ،

لتكن هذه، إن شاء الله ، آخر رسالة أبعث بها إليك من أثينا، حيث أقيم منذ بضعة أيام. حلم بلاد العرب انتهى - وبدأت اليقظة، الآن، وهواء أثينا الخانق يضايقني من جديد.

أكتب مقالاتي عن مصر وبلاد العرب، لأسافر بعد ذلك مباشرة... أشعر بفرح شديد لأنني سأراك، يا حبيبتي. أريد أن أستقرّ وأشتغل. إنّ حياتي تتبدّد وعليّ أن أستعجل. وبالنسبة لـ «الأوديسة» ينبغي إكمالها في باريس...

(أثينا) ١٦ مايو ١٩٢٧ (٣)

... أنا أسف... ها قد مرّ شهران وأنا أجري وأصارع. وعود، وتراجعات. لقد مرضت بسبب ذلك. لم أعد قادراً على النوم. أول أمس، كان كل شيء جاهزاً لسفري، انتظرت توقيع العقد وفجأة فشل كل شيء...

(١)، (٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

هل في ذلك علامة على أن الرحلة يجب ألا تتم؟ تعبتُ وضعفت. سوف أذهب إلى جزيرة بحثاً عن العزلة... ربما أبطل بذلك شؤم القدر السيئ...١

وسافر كازنتزاكي إلى ايجين، حيث اعتزل وانكب على العمل، في انتظار أيام مؤاتية أكثر.

ايجين، ١٤ يونيو ١٩٢٧ (١)

... أبعث إليك بمقالاتي عن أفريقيا من أجل إدخال البهجة على رتابة حياتك، كما أبعث إليك بصفحتين من إحدى المجلات التي نشرتُ فيها بعض الأبيات. أشتغل ما دمت أخشى عدم الصمود، ساعات عديدة في اليوم مع حمى شديدة، كما لو كنت ساموت غداً. الأناشيد الأربعة والعشرون في «الأوديسة» سوف تنجو وتكتمل خلال بضعة أشهر، وليس بعد عامين. عندئذ أصير إنساناً حراً. هنا، في اليونان، يؤكدون أنني لن أتمكن من ذلك. ولقد كتبتُ إحدى المجلات قبل أيام: «لم يتمكن غوته من إنهاء مشروع مماثل، فهل يقوى كازنتزاكي على ذلك؟».

إن كازنتزاكي يقوى على ذلك، لو أحصل على بعض الهدوء فقط! أحياناً يأتي صديق^(٢) لزيارتي، يوم الأحد، ثم يغادر في المساء. لست أدري إذا كان ما أكتبه على درجة من القيمة، إنني أكتب لضرورة داخلية، هروباً من الاختناق.

ايجين تشبه أمورغوس قليلاً. لكنني لا أتنزه مطلقاً. تفصلني عن البحر مسيرة عشر دقائق ولا أذهب إليه لضيق الوقت. أكتب من الساعة الخامسة صباحاً إلى الليل. في الثامنة مساءً، عندها أتوقف عن الكتابة، على درجة عالية من التعب، أخرج إلى شرفتي وأتأمل الجبل المقابل، والبستان المجاور، والنجوم الأولى، فأتذكر تسانغارادا عندما كنا متمددين على العشب، متلهفين، متنافسين على رؤية أكبر عدد ممكن من النجوم...

ايجين ٣٠ يوليو (٣)

... هذا الصباح، كتبتُ في بداية النشيد الثامن (من «الأوديسة») هذين البيتين:
أَلْعَابُ فُكْرُنَا الْمُحْتَدِمَةُ الزَّائِلَةُ، سَحَابَاتُ دُخَانٍ مُنْبَثِقَةٍ مِنَ الرَّأْسِ، وَمِيضٌ فَوْقَ

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) هو يانديليس يريفلاكيس الذي نشر آنذاك عمله الشعري الأول.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

السَّهول الرُّطبة - بشرًا

وشعرت بمرارة شديدة حتى عشت عيناى، مَا نَحْنُ؟ نتعثّر فوق الأرض، يحافظ الجسد على دفئه لبعض الوقت -نصرخ، نتالم نحب، وفي رقة عين، يتلاشى كل شيء. ومع هذه البلية، أفكر فيك بمنتهى الحزن، والسعادة والحميّا حتى تتكثف الحياة كلها، والموت كله، في اللحظة الوجيزة التي سوف أراك فيها في المحطة، تحت الظل الخفيف، وأشدُّ على يدك...

ايجين، ٢٠ سبتمبر ١٩٢٧ (١)

Daragaya maya (٢).... أكملت «الأوديسة» وأشعر بالارتياح.... أمل أن تكوني قد استلمت «الزهد». أشك في وجود ثلاثة أشخاص يتفقون معي في الفكر. السيدة لامبريدي ترجمت الكتاب إلى اللغة الإنجليزية وأرسلت به إلى ناشر. من المستحسن أن يترجم هذا العمل إلى الفرنسية حتى ينشر في إحدى المجلات. عندما أقبل سوف نحاول...

ساكتب، هذه الأيام، مقالات لـ «إلفتيرو ذاكيس» (٣) عن بوذا، ولينين، وغاندي، ودوستويفسكي والغريكو، الخ.... هناك عمل هائل ينتظرني إذن. عندما أصل إلى باريس ينبغي أن تكوني في صحة جيدة حتى تتمكني من مساعدتي. لا تنسي أنك «سكريتيري».

أتلّف لرؤيتك مجدداً، كي أنسى، ونتذكّر معاً، ونبدأ حياة جديدة. ليتني أتمكن من البقاء في باريس. اليونان تخنقني.. كلهم يعتبرون كتاب «الزهد» عملاً فنياً، وليس صرخة بحث وقلق، وذلك لعدم وجود واحد منهم يملك هذه الصرخة....

ايجين، ٣٠ سبتمبر ١٩٢٧ (٤)

جدّ طارىء آخر آخر، بالأمس... فبمناسبة الذكرى العاشرة للثورة الروسية ستنظّم احتفالات متميِّزة في موسكو، ولقد دعت الحكومة الروسية شخصاً أو شخصين من كل بلد. ومن اليونان دعت شخصاً واحداً، أنا، من باب المصادفة. سوف أذهب إلى موسكو،

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) «عزيتي» بالروسية لكن بالحروف اللاتينية (المترجم).

(٣) تمكن كازنتزاكي، بواسطة ب. يريفلاكى، من اختيار المقالات التي تهّمه لنشرها في «موسوعة» إلفتيرو ذاكيس التي كانت في طور الإعداد آنذاك.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

على حساب الحكومة السوفياتية، وأقيم هناك عشرين يوماً، وسوف يرافقوننا للتجول، هنا وهناك، الخ.... ولدى عودتي إلى اليونان ربّما أنشر سلسلة مقالات... أنا في غاية التأثر من العودة إلى رؤية روسيا...

... سوف أحمل نسخاً عديدة من كتاب «الزهد» باللغة الإنجليزية، كي أهدّيها إلى بعض من سأقابل في موسكو. هناك مجازفة في الدعوة إلى «الميتاشيوعية» لأن الشيوعيين يكرهون ذلك... لكنّه أمر ضروريّ.

... أنا غارق في المخطوطات، مع إرهاق شديد وتوتر عصبي... وأشعر بقلق لا أعرف مآتاه... اكتب لي كي لا تنسيني من الآن إلى شهر ديسمبر...

إيجين، ٥ أكتوبر ١٩٢٧ (١)

، Dragaya maya

سوف أؤلف كتاباً بعنوان «ميتاشيوعية» معك في باريس. كلّ شيء ينضح في هدوء وضنيّ، وأشعر بأنني سوف أراك في ديسمبر، لامحالة. لقد اشتغلت كثيراً وتعذّبت كثيراً هذا العام، وأودّ الاستقرار في باريس بطريقة تجعلني لا أضع قدمي في اليونان لسنين طويلة. أشعر... أنّ روعي تكتسي بطلعة ما، وأنّ حياتي تكتسب نوعاً من الوثام.

حالياً يبدو لي الماضي، كله، سائراً في خطّ متعرج، والبحوث عبر دروب شتّى، تتوصل أخيراً إلى التناغم والتلاقي في نقطة ثابتة ومشعة. أتمنّى، إن شاء «الإله»، أن أنضج بهذه الطريقة، وأغتني حتى الموت، من دون إنكار أي شيء، وأنّ تصير حياتي كلها، كما يقول المتصوّفة البيزنطيون، «وحدة متنوعة». ما من وهم، ما من جبن، أريد التحديق في السديم من دون اضطراب. ولا أرغب في أي شيء آخر.

٨ أكتوبر ١٩٢٧ (٢)

السماء تمطر بغزارة، ومن النوافذ أشاهد السهل ينغمس. الأرض تدخن والجداول تلمع. أشعر بالسعادة، وبيعض البرد، ورائحة التربة تبعث فيّ النشوة... أفكر فيك بهدوء، ورواق، كما أفكر في البحر، والأرض، والموت، والخلود.

أرسل إليك بثلاث زهرات كشمشة كانت أختي قد بعثت بها إليّ من بيتنا الأبوي...

(١)، (٢) رسالة إلى ايليبي ساميوس.

أثينا، ٢٠ أكتوبر ١٩٢٧ (١)

داراغايا مايا... انتهت «الأوديسة». أنا (...) (٢) الطقس رائع، سوق تكون رحلتي رائعة...

بعثت لك ببعض النسخ من كتاب «الزهد». هنا، تعم إثارة كبيرة. إذ نشرت «بوليتيس»، عدداً من المقالات المادحة، وبدأت «نهضة» غلينوس تنشر سلسلة مقالات. بعضها إلى جانبي، والبعض الآخر ينتقدني. المياه اليونانية الجديدة تحركت قليلاً، لكنني سأسافر، لن أرد، ولن أزعجهم... ما من صحيفة وافقت على مقالاتي التي أعدها حول روسيا.

ثمة ربح عاتية (تهب) ضد الشيوعية. تمكنت أخيراً من إقناع «برويا» بالموافقة على عشر مقالات سوف أسلمها عقب عودتي من موسكو.

٢٢ أكتوبر ١٩٢٧ (٣)

بلغنا القنطرة اليونانية... انغمست في قراءة الآداب الصينية واليابانية القديمة، وتوسّع قلبي، وتأثر بصرخات الحب والألم المتأنية من القدم. إلهي، ليتني أتمكن من نقل الانفعالات التي شعرت بها، إلى «الأوديسة»، باتقان كامل، من أجل إنقاذها.

٢٣ أكتوبر، الأحد (٤)

وصلنا قبالة القسطنطينية فجراً: مآذن، أيا صوفيا، أوروبا وآسيا مجتمعتين، الضباب الصباحي - كل ذلك أربك قلبي وفتنه بلطف. سنة ١٩١٩ لدى مروري أمام القسطنطينية، هتفت «بعد أعوام وقرون سوف تعودين إلينا مجدداً، نعم، مجدداً سوف تعودين إلينا!» أما الآن فإن ذلك المقطع الخطابي الوطني بعيد عني. أستمتع بالقسطنطينية كما هي، بلا أي تحسر وطني، أستمتع بها استمتاعاً بحيوان يتدفأ تحت الشمس، ولا يهتمني من يملكه. يتوجب علينا أن ننظر إلى هذه الأعجوبة ذات يوم، كما نظرنا إلى القدس. كم عدد الأشياء التي «تتوجب علينا»!... الحياة، الصحة، البساطة، الحب - كلها سوف تنجز! أخالني مَرَكزاً لبعض القوى، زوبعة عناصر لا مرئية تلتف حول إرادتي الثابتة. وهكذا أمل أن يتحقق كل ما نرغب فيه.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) يبدو أن هناك سطرأ (أو أكثر) قد سقط من كتاب المؤلفة أثناء الطباعة (المترجم).

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

أوديسا، الثلاثاء ٢٥ أكتوبر ١٩٢٧ (١)

أمضيت ساعات قليلة في أوديسا، لكنني تمكنت من رؤية سحنات يهودية محببة - عيون سود، أنوف معقوفة، شفاه سفلى ضخمة - والآن أكتب إليك من عربة القطار الذي يقلني إلى موسكو...

كيف. بلغناها في الصباح المبكر، وفي القطار تعرّفت على يهودية، لم تكن شابة، غير أنها ممتعة. خرجنا إلى المدينة وضحكنا وتحدثنا، وعُدْتُ الآن لأتابع الرحلة. أه، لو كنّا معاً! هذا ما أكرره لنفسي في كل لحظة، يتوجب علينا أن ننظم رحلة كبيرة كي نكون سعيدين. هكذا فقط، بالجمع بين الصداقة والحركة، أتذوق كل وجود الفرحة. تأثرت كثيراً عندما وضعت قدمي على الأرض الروسية، السوداء الخصبة، وتنفست الهواء البارد والثابت، وتأملت حشود الناس الصامتين الصابرين. الروح تتسع، وتريد تجاوز حدودها، كي تتحد مع كل هذه الأرواح، وتنفخ على هذا الصلصال البشري الخصب. ما كتبته في زاوية صغيرة من الأرض يبدو لي معيباً وريفيّاً. قليلون هم الأشخاص الذين استمعوا إلى صرختي - ومعظمهم خبثاء، بلا إيمان. وأنا أنظر إلى هؤلاء النساء وهؤلاء الموجيك (٢) مدركاً أنّ صوتي لن يصلهم أبداً، لأن الوسائل التي أستخدمها في منتهى الضعف.

ما معنى الفن؟ هل هو جملة جميلة، ومقارنة جيدة، وبيت شعر رفيع؟ كل هذا ضئيل ولا يلامس الأمواج البشرية الكبيرة. وحدهما الإيمان والعمل، المسيح أو لينين، جديران بالعيش، حالياً. أما الآخرون فيوجدون كي ينتظروهما أو، في أحسن الأحوال كي يمهّدوا لمجيئهما بصرخاتهم الزيفية غير الملفوظة بوضوح.

أه، هل أتمكن ذات يوم، وهل يتسع وقتي، لتدمير الحدود، لا حدود اليونان فحسب، بل حدود الفن أيضاً، كي أتحرّر من الجمال، وأقنن شغفي بالمرأة، وأتعاطى عملاً وحشياً قاتلاً؟ لست أدري. سوف أخدم الجمال قدر المستطاع وأجعل «الأوديسة» جميلة قدر المستطاع - ليست هناك طريقة أخرى كي أتحرّر من الجمال. لينوتشكا سوف أراك مرة ثانية في موسكو...

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) الفلاحون الروس.

موسكو، ٢٧ أكتوبر (١)

حبيبتي، وصلت إلى موسكو. السماء تمطر، والوجوه تلمع في الهواء الداكن. شاهدت ما أحب، بعجلة، وتلهف. تجولت طوال النهار، وأنا الآن اكتب إليك من الغرفة المريحة التي أنزل فيها ضيفاً على الحكومة السوفياتية. غداً سوف أذهب إلى كامينيف كي أرى إن كانت هناك رسالة منك. وسوف أقابل استراتي وباربوس أيضاً. أمامي الكثير من العمل، عمل كثيف خلال عشرين يوماً، وأريد توديع هذه الأرض الروسية التي قد لا أعود إلى رؤيتها أبداً...

موسكو، ٢٩ أكتوبر (٢)

كنت عائداً إلى الفندق، بعد أن بعثت إليك برسالة، عندما جاءت سكرتيرة كامينيف بالسيارة أتية لي برسالتك، قدّمتها لي مبتسمة وقالت: «هذا الصباح انتبهت إلى تغير لون وجهك عندما قيل لك بأنه لا توجد رسالة إليك وأردت أن أفرحك بجلبها على جناح السرعة. هل هي الرسالة التي كنت تنتظر؟» نظرت إلى الظرف وقلت مبتهجا: «نعم، هي ذاتها!»

٣ نوفمبر (٣)

الأيام والليالي تمرّ، ولا أكاد أنام أو أكل. تملكنتني رغبة جامحة في رؤية أشخاص، ولم أعد راغباً في التعرف على الأشياء والمنظمات. أريد التعرف على الصينيين واليابانيين والسويديين والأمريكيين - أرواح متعدّدة، أنقضّ عليها بوحشية خفية وبربرية كي ألمسها وأرى ما الذي تجلبه.

حتى الآن لم أكتشف، عند أي شخص آخر، توتراً روحياً وقلقاً نفسياً، في مستوى ما أعيشه. لكنهم أنجزوا أعمالاً ومارسوا تأثيراً، لا أدعيهما.

٤ نوفمبر (٤)

تغير (٥) tempo الحياة في الاتحاد السوفياتي، وهو الآن مختلف عنه في العام ١٩٢٥. أمّا الإيقاع الرسمي فهو أهدأ، وثمة بعض التبرّج. الوصوليون وصلوا وكفّوا عن الحركة، والنساء بدانّ يُشبعن أدنى رغباتهنّ، والرجال مُتعبون. ومن حسن الحظ أنّ الصراع الداخلي الكبير بين تروتسكي وستالين يذكي جذوة الروح الروسية. تواجه

(١) و(٢) و(٣) و(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٥) مكنّا أوردها كازنتزاكي في الاصل وتعني «إيقاع الحياة» (المترجم)

روسيا حالياً وضعاً حرجاً، وفي كل يوم تصطف طوابير الناس أمام المحلات التجارية من أجل قليل من الطحين...

(موسكو) ٥ نوفمبر ١٩٢٧ (١)

تلقيت خبراً سيئاً جداً للتو. هناك شاعرة جميلة جداً تعرفت عليها هنا، وتدعى ليليان جورجيفنا خاراسوفا، توفيت منذ خمسة عشر يوماً. أحضرت لها هدية وراسلتها طالباً رؤيتها. فجاءت خالتها لتخبرني أنها ماتت...

في غرفتي الصغيرة، أشاهد عبر النافذة، السطوح المغطاة بالثلج، والرجال بأنفاسهم المدخنة في البرد. موسكو مزينة بالأحمر لأن موسم الحج الكبير يقترب.

أنا سعيد. بتمكّني من مشاهدة هذه الأيام وعيشها. ما هي القوة التي تحوّل أشد رغبات روحي إلى واقع؟ أرتجف لأنني أعرف أن تلك القوة سوف تبطحني أرضاً بشكل مفاجيء، وتملأ عينيّ النهمتين بالغبار. قلبي هذه الأيام، جاهز للانفطار ولا أستطيع حبس دموعي. موت ليليان خاراسوفا يسكنني خفية. ينقضّ عليّ شبح فتظلم عيناوي. من المؤكد أنني لم أحبّ تلك المرأة قط، لكنني رأيتها تختلج وهي تقرأ لي قصائدها، كم كانت ترغب في زيارة اليونان حتى تتمتع بالشمس والنور، وليس كي تموت! أه، يا لينوتشكا، كيف بوسع روح الإنسان ألا تتحطّم؟ ها هي ذي الاحتفالات السوفياتية قائمة بظل امرأة ماتت في ريعان الشباب...

كلّ ما أراه، هنا، وأسمعه وألمسه - من ثلوج، وبرار، وبشر وأفكار - ينبغي أن يتحوّل إلى أبيات في «الأوديسة» وأن يشكّل مادة كتابي عن «الميتاشيوعية»، الخطف، السلب، الوصول في الابّان، قبل الموت.

إنّ كتاب «الزهد» الذي كتبته بدمي، هو صرخة مريضة سوف يتم الاستماع إليها بعد موتي. لا يفهم الناس حالياً سوى الشكل الشعري. غير أنّ الوجه المستقبلي للإله ينبثق بين الصّور والجمال الغنائية، حائراً، أبعد من اليأس والأمل....

يوم ١٠ نوفمبر، في موسكو كانت لكازنتزاكي مفاجأة سارة: لدى خروجه من مجلس النواب برفقة الكاتب الألماني آرثر هوليتشر، تناهى إلى مسمعه صوت

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

امرأة تناديه. وكانت إيتكا. وقد دَوَّن تلك اللحظة في دفتره :

فرح عارم تأثر، اضطراب. عدنا إلى الفندق واحتسينا الشاي وتحدثنا. إنَّ حدُس هذه المرأة وأحكامها وأحاسيسها الشهوانية في منتهى الروعة. كلَّ القوى موجودة فيها. حدثته إيتكا عن حياتها، وآلامها الماضية، وطلاقها، وابنتها الصغيرة ايفون.. فكتب نيكوس معلقاً في دفتره :

كم تتفانى في خدمة الحزب! دَرَسْتُ الطب وها هي ذي تتخصص في طب الأطفال. إنَّها ماركسية متحمسة.

يوم ٢ نوفمبر دَوَّن ثلاث كلمات فقط :

مجلس النواب. تكلمت.

كلمات غامضة. لكن الرسائل اللاحقة تبين لنا حرارة خطابه الذي جعله يخشى أن يُسحب منه جواز سفره، إثر عودته إلى اليونان.

وبعد ذلك يسجل كازنتزاكي أسماء العديد من الشخصيات التي التقاها في الاتحاد السوفياتي، والمحاورات التي دَوَّن خلاصاتها في كتبه ودفاته الخاصة برحلاته. لكنه يعود دائماً إلى إيتكا التي يدعوها : «القسم الماركسي في روحه».

زرت إيتكا. كانت تلاعب ابنتها - بهجة وعمق أمومي. تأملت، بتأثر شديد، تلك المرأة الرائعة، المتجذرة في الأرض. ليقني، كنتُ في بساطتها وبدائيتها...

كان مجلس النواب مفعماً بالحماس هذا المساء. ومُنِحَتْ أوسمة إلى كلِّ من كلارا زكين وبيلا كون، ومارثي، وسادول، وألماني وصيني. تأثر، وصيحات حرب. أمضيت الليلة عند إيتكا. مع الفجر حدثتني، مرّة أخرى عن حياتها، وكيف أحبّت، وكيف تريد الكتابة...

يوم ١٣ نوفمبر، ذهب كازنتزاكي لزيارة باناييت استراتي الذي استقبله في غرفته بفندق «باساج» وهتف باليونانية : «موري^(١)، مرحباً بك! كيف الحال؟»

(١) «موري» : نداء مألوف في اليونان.

ووصف كازنتزاكي صديقه الجديد : «إنه ممتلئ بالحياة، والمرح، والقوة. نفكر في البقاء بالاتحاد السوفياتي معاً».

يوم ١٥ نوفمبر دون ملاحظة مثيرة :

ارتباك شديد : أمامي إمكانيّتان أو ثلاث للبقاء في الاتحاد السوفياتي.

فهل كان يحسّ بأن نضجه لم يكتمل بعد، للإقامة في الاتحاد السوفياتي، أم كان يخشى العودة إلى اليونان ومنعّه من مغادرتها مرّة أخرى؟

لا أريد أن أغلق هذه الدفاتر من دون نقل هذه المحاورة بين كازنتزاكي وأحد الشيوعيين المقتنعين :

هذا الرجل زار القوقاز، صيفاً، وتمتّع، لأول مرّة، بالشمس والهدوء والهواء والبحر. وعاد متغيّراً. قال لي : «الشمال متوحّش، الشيوعية الروسية تزعجني حالياً. ينبغي توظيف الشيوعية وفق مناخ كلّ بلد وكلّ روح. الحياة ليست متوحشة في كلّ مكان بالقدر الذي نتخيله هنا. لقد عشت، واستلقيت تحت الشمس، وأكلت فاكهة... لعبت مع البحر. وتصالحت مع الطبيعة وبدأت تتفتح في أعماقي weltanschauung (١) جديدة».

أولغا ماركوفنا ب. أمضت الصيف في القرم بدورها، وتغيّرت ...

(موسكو)، ١٦ نوفمبر (١٩٢٧)

... أفضل مسرح شاهده هو المسرح العبري. ستانيسلافسكي شخصية بارزة غير أن مسرحه - برغم أداء ممثليه الرائع - تحوّل إلى «جمال قديم». وكلّ من يعيش في روسيا يدرك أن ستانيسلافسكي، بإلحاحه على الجانب المدهش في مسرحه، بات متجاوزاً. وأنا أعرف صعوبة الحكم على أفضل ما في عصرنا، لأن هذا «الأفضل» ما زال يعاني من نقائص تقنية، تغلبت عليها التصورات القديمة...

خاركوف، ١٧ نوفمبر (٢)

قررنا، فجأة، أن نسافر مع بعض المدعوين، ونحن الآن في القطار المتجه إلى القوقاز. أنا وإستراتي، نشغل مقصورة خاصة بنا. ونقضي النهار في استرخاء، نتحدّث نقرأ

(١) رؤية للعالم (المترجم).

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

وننظر عبر النافذة إلى روسيا الالامتناهة تحت الثلوج. بعد غد، سوف نكون في باكو، ثم في تفليس حيث ينتظرني قبر صديقي الحبيب (١)... ستدوم هذه الرحلة ستة عشر يوماً ثم نعود إلى موسكو... أنا في غاية الانفعال والتأثر لقدرتي على جعلك تأتيين إلى موسكو. إستراتي لا يريد مفارقتي، ويخطط لعيش مشترك في موسكو، وأنا أشعر بأن حياتي كلها سوف تتغير وتتجدد إذا توصلت للعيش في هذه المدينة. لا أستطيع الحسم الآن، ولم أعد أجد على التمني بأن نتجول، ذات يوم، على الأرض الروسية، معاً.

القوقاز، ٢٠ نوفمبر (٢)

نجتاز القوقاز، والجبال التي كانت أول من شاهد البشر، تنتصب مغطاة بالثلوج. في العصور البدائية، مرّت الأجناس الالاهبة من آسيا إلى أوروبا، عبر هذه الشّعاب...

باكو

الأمطار تتهاطل. بحر قزوين رمادي، وقلبي مفعم بالحنين لأنني أفكر فيك. فرحي الوحيد هو يانايت إستراتي الذي يرافقني، وأشعر أنه سوف يظل صديقاً وفياً، ودوداً، ومفيداً، طيلة ما تبقى من أيامي. سوف نساfer معاً، إلى اليونان، حيث أحاضر، ثم ينتقل إستراتي إلى مصر لقضاء خمسة عشر يوماً، وبعدها يعود إلى موسكو.. نفكر في شراء بيت صغير في موسكو... وأعتقد أننا سوف نسعد بذلك، لأنك تصيرين قادرة على المجيء كي تستريحي وتساعدينني كثيراً في عملي. وسوف تكون لك غرفة خاصة... وتسير الأمور الأخرى بشكل جيد. وحالما تتجسد الفكرة، غير الواضحة حالياً بالنسبة إليّ، سوف أكتب إليك، يا لينوتشكا، لا تتصورين مدى شوقي إلى حضورك...

موسكو، ٦ ديسمبر ١٩٢٧ (٣)

داراغايا مايا !

... سأسافر غداً إلى كييف حيث سأبقى مع إستراتي حتى ٢٠ ديسمبر، ثم نقصد اليونان معاً، وفي حين يزور استراتي مصر، سأبقى أنا في اليونان - ايجين، حتى عودته. ونفكر في العودة، بعد ذلك، إلى موسكو.. أنوي أن أرسل إليك، من أثينا، بالمال الضروري لسفرك إلى موسكو، حيث ستلحقين بي في الربيع... هنا، المناخ رائع، والحياة رحيبة وعميقة...

(١) و(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

كليف، ١٠ ديسمبر ١٩٢٧ (١)

حبيبتي،

الأيام هادئة هنا. استراتي مريض نوعاً ما، وأنا أقضي معظم النهار إلى جانبه، فأرى عدداً كبيراً من الناس. كل واحد منهم لديه حكايات مأسوية رهيبة. هذه العيون الروسية رأت أهوالاً. وكل روح عاشت وتمتعت وتعذبت كما لا يحدث في أوروبا. ولهذا فإن أبسط إنسان هنا، مهم، ومشغ بوميض حريق كبير.

يوم الأحد تقصد تقصد أوديسا. أخشى أن تعترضني صعوبات في اليونان لأنني نشطت في مجلس موسكو وتحذت بانفعال. إذا منعوني من الحصول على تأشيرة لمغادرة اليونان فإن كارثة سوف تحل بي...

استراتي يحب امرأة رائعة توجد في باريس. ستأتي لتعيش معه في روسيا. ومن المستحسن أن تريها... قال لي إنها امرأة فذة. إذا صرتما صديقتين فسوف يكون ذلك أمراً مفرحاً جداً...

كليف، ١٥ ديسمبر ١٩٢٧ (٢)

داراغايا مايا، أكتب إليك مرة أخرى من كليف. الشمس ساطعة، باردة وجافة، والأنهار متجمدة، مناخير الناس والخيول تدخن، قلبي مملوء بالحزن والتأثر - أرغب في ألف شيء وشيء ولا أشبع، يبدو أن الموت يقترب وأنا أستعجل، لينوتشكا، وددت لو كنت معي، لأن لك روحاً شجاعة وجسداً يروق لي... أنا سعيد لأننا سوف نلتقي فوق الأرض الروسية. كوني على ما يرام فقط.... هنا الحياة تلتهم البشر، إنها في منتهى العنف والقسوة - لكننا سوف نتحمل معاً. يملكني الدوار عندما أفكر بأن الزمن يمر وأنا لم أنجز شيئاً بعد.

صديقة إستراتي سوف تحدثك عن كل ذلك... هل تريدان المجيء إلى روسيا؟ هل في إمكانك القدوم إلى أوديسا في شهر مارس؟...

في أثينا سوف أنتظر منك رسالة حاسمة... حياتنا لن تكون سهلة، وأنت تعرفين كم تكون الحياة مضجرة معي، لأنني سوف أعمل طوال النهار ولن أراك إلا في المساء، فأكون حزيناً وصامتاً حيناً، منفتح القلب وفرحاً حيناً آخر، وسوف تكون لي اتصالات

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

ومراسلات منتظمة مع أشخاص أحبهم، وهذا من شأنه أن يزعجك. أما الحياة المالية فسوف تكون متواضعة، فقيرة، كما كانت دائماً، منذ مغادرتي بيت أهلي. لكنك لست سيدة مجتمع، بل بسيطة ومقدامة، وسوف تقوي فيك روسيا هذه الخصال، وربما انعكس عليك عملنا المشترك بشكل جيد...

القسطنطينية، ٢٤ ديسمبر ١٩٢٧ (١)

اجتزنا البحر الأسود وها نحن أولاء قبالة القسطنطينية. السماء الغائمة، المطر الناعم، أيا صوفيا، الأسوار البيزنطية، أشجار السرو، كل هذا الحسن القديم لا يغزو قلبي. لكنني سعيد لأنه كان لي وقت كاف، منذ سبع سنين، للتمتع بكل ذلك، بكل ما في روحي من قوة محتدمة ورومنسية. أما الآن فأنا أفلت منه، وأشعر أنني تركت جنّيات البحر الساحرات خلفي، ليس لأنني تخلّصت من كل الجنّيات بل لأنني قابلت الجنّيات العصريّات، وربما جنّيات المستقبل. وبدأت أنصت، محمّوماً إلى نشيد الهاوية، الأكثر عصرية. إنّ الجنية الكبيرة، السلافية، ذات العينين الخضراوين، والصوت الحاد، والعنق النازف، توجد حالياً في الشمال، في بلاد الثلوج. سأعود إلى اليونان من أجل الوداع. ومع ذلك ينزف قلبي، فما زال على الأرض اليونانية بعض الأشخاص الذين أحبّ - أختاي، وأمّي، وامرأة أو امرأتين. أفكر في أناك. وأتعذب، كيف سأغادرها؟ لم نتبادل كلمة حب واحدة قط - ولن نفعل ذلك أبداً - ومع ذلك أشعر بمدى تأثرها وفرحها عندما أعود، بعد كل رحلة، إلى رؤيتها. نختلي، ولا يأتي أحد، فنشرب الشاي، ونتحدّث ساعات ثم نفرق بصعوبة، فأتابع، أنا، تجوالي في النور، وتغرق، هي، في الصمت والعمّة. أما الآن فقد انتهى كل ذلك. وهناك امرأة أخرى سوف تتألم - وأنت تعرفينها. عندما كنت في روسيا، راسلتني لتعبّر لي عن مدى انتظارها لي كي نشترك في عمل كبير، ملحة على مجيئي بسرعة لأن لها، كما قالت، مشاريع كبيرة، ولا تستطيع العيش بعيداً عن «الوحش»، كما تلقبني. أما الآن فسوف أقول لها «وداعاً» إلى الأبد. ستحزن روح أو روحان - وربما غالاتي أيضاً - أما البقية فسوف تسعد بالتخلّص منّي...

إنّ حياة واسعة وعسيرة تنفتح أمامي. ولنا، أنا واستراتي، أعمال كثيرة صعبة سننجزها عبر روسيا. مقالات وكتب، وعمل تنظيمي، ودعاية في الخارج. وأنا أعتمد عليك كمساعدة... وعليك أن تتعلمي أشياء كثيرة كي تساعديني، عليك أن تعملي معي وتقاسميني أتعابي بقدر ما تستطيعين... اكتب لي إلى أثينا، وحدّثيني عن أفكارك من

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

٢٥ ديسمبر ١٩٢٧ (١)

ما زلنا قبالة القسطنطينية... كتبتُ مقالات للصحف، والآن نحضر، أنا وإستراتي، نص المحاضرة التي سنلقيها في أثينا. أبرقتُ إليك من الباخرة. أرجو من الله أن يقودنا إلى الطريق القويم.... أما أنا فكنت أفضل العذاب، والجوع، والحب، واليأس... لكن كل شيء يأتي مريحاً ويثير خجلي. ربما وهبثني الحياة في روسيا قلقاً هائلاً، ربما حلت بي كارثة كبيرة وقد أن أوانها...

١٩٢٨. جرت الأحداث في أثينا كما كان متوقعاً.

استقبل ياناييت إستراتي بلهفة وفضول. وقدم عنه كازنتزاكي، لمن لا يعرفونه، صورة حية، في مقالة صدرت في آخر أيام السنة. وهكذا لاحت ١٩٢٨ مكرسة للعمل الذي يطمح رفيقا السلاح إلى إنجازه.

وتمّت المحاضرة في مسرح الحمراء حيث احتشد جمهور كبير. وكان المنظور مغرياً: إيجاد ناطق رسمي يتعرّض بدقة وشجاعة، إلى البؤس المموه لدى القسم الأكبر من الشعب اليوناني، ويدين الظلم المستفحل في البلاد.

وهكذا اختار الصديقان المواجهة، وبلغ الحماس بالحاضرين حدّ الهذيان. وكان ردّ الفعل متوقعاً من الزاعمين أنهم حراس الإله والعائلة والحرية، في هذه الأرض. وهكذا استدعي ديميتري غلينوس للمثول أمام القضاء، لأنه ارتكب، في نظرهم، خطأين في منتهى الخطورة: وضع تلك المحاضرة تحت رعايته، ونشر كتاب «الزهد» في مجلة «النهضة»، كما استدعي كازنتزاكي بعد اتهامه بإهانة الدولة والدين. أما ياناييت إستراتي فقد أبلغ بضرورة مغادرة البلاد في أقصر مدة ممكنة. وفي الوقت نفسه كانت البرجوازية الكبرى توفد مبعوثيها في مهمة جلب «ذلك المتوحش» الذي يثير فضولها بزيّه المضحك وحذائه الرمادي، الطويل ذي اللفافات، وبنطاله الأخضر الزيزفوني كسراويل الصيادين.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

في الأثناء كانت هناك مفاجأة تنتظرني في مودون: بيليلي !

ومن عسى تكون الصديقة التي اختارها صديقنا المدهش إستراتي؟ كنت أنتظر بوهيمية جامعة ومبرقشة بالزينة والألوان فإذا بي أمام سيدة أشبه بعذراء خارجة من كنيسة قروسطية: الابتسامة الرصينة ذاتها، والنظرة النفاذة ذاتها، والصوت ذاته، وكأنها خارجة لتوها من تراتيل عن ألام المسيح، مستقيمة، مزغبة، عميقة وشفافة، «هل تريدان استخدام حمامنا؟» اقترحت علي ذلك، بعد لحظات قليلة من لقائنا الأول. شعرت بالقلق وبدأت أتفحص نفسي. هل يبدو علي الإهمال؟ فقالت بيليلي مازحة: «إنني أمكن كل الأصدقاء من هذه الرفاهية الصغيرة التي كثيراً ما يُحرم منها المرء في باريس، أليس كذلك؟».

بعد الحمام والشاي والحديث عن ياناييت، كاتباً وإنساناً، وعن مشاريعه، وأمالنا المشتركة، لم يعد يذهلني شيء:

- متى نسافر؟

- في أقرب فرصة.

- اتفقنا يا بيليلي. سوف تجدان في رفيقة طريق وأكثر من ذلك: أختاً. أعدك بذلك.

لدي وصولنا إلى مرسى يرى شاهداً ياناييت يؤشر، واقفاً على متن زورق خفيف، ويصيح فور تعرّفه علينا «إلى الاتحاد السوفياتي! بسرعة إلى الاتحاد السوفياتي!» رافساً مثل ممسوس. أما نيكوس فكان يحاول المحافظة على التوازن. وبدأ صاحب الزورق، ضاحكاً وشاتماً في وقت واحد، بينما شرع الركاب ينظرون إلينا بحذر...

كان هناك سببان يدفعان بي نحو العودة إلى فرنسا: الاستشفاء في بلومبيير، وخيبة أمني من مواصلة التعاون مع صحيفة «كاثيميريني». وفي المقابل وافقت بعض الصحف والدوريات الفرنسية على أن أرسلها بمقالات من الاتحاد السوفياتي.

كيف سنعيش في الاتحاد السوفياتي؟ كان ذلك همّي وانشغالي. هل أصبح عبئاً على الرجل الذي يحبني؟ وهل يتطلب الأمر «التزاماً» مع الاتحاد السوفياتي؟

أثينا، ٣ يناير ١٩٢٨ (١)

كيف سنعيش في الاتحاد السوفياتي؟ في استقلالية تامة. ذلك أن إستراتي سوف يحصل على ما هو ضروري وأكثر، بفضل كتبه المترجمة والمنشورة باللغة الروسية، وكذلك مقالاته. وأنا، سأحصل على المال مقابل المقالات التي سوف أبعث بها إلى «موسوعة» إفتيرو ذاكيس... وإلى الصحف الروسية، التي طلبت منّي ذلك، وهي تدفع مكافآت جيدة. وثمة رغبة في ترجمة كتبي هنا، كما أنني وافقت على كتابة سيناريوهات مع إستراتي، للسينما السوفياتية.

وهكذا نحصل على المال الضروري، مع الاحتفاظ بحريتنا.

أفكاري حول الشيوعية تعرفينها جيداً، ولقد عبّرت عنها بطريقة قاسية، لكن واضحة، في كتاب «الزهد».. لست سطحياً، ولا ضيق الأفق، ولا ماركسياً. عندما تأتين إلى موسكو سوف يكون من المستحيل ألا توافقيني.. إن عملنا لا يُخضعنا لأية عبودية ولسنا أدوات أحد. وقد نلاقي بعض الصعوبات لأننا لسنا ماركسيين تقليديين. غير أن هذه التحفظات الفلسفية تأتي في المرتبة الثانية؛ والواجب شيء آخر، وهو ما نقوم به.

إستراتي كاتب مهم جداً - أقرأي «العم أنغل» (ولاسيما «كوسما») و«كودين». فهي أعمال تعجبني. أحكامك قاسية وصحيحة.. إنّه رجل رائع، في منتهى البساطة، والحيوية، والاندفاع، والطيبة، والطهر. ويتمتع بمزايا أحبها.

أثينا، ٨ مارس ١٩٢٨ (٢)

لينوتشكا العزيزة، لقد حُدّدت المحاكمة (٣) يوم ٣ أبريل. وثمة اتجاهان: فالقضاة يريدون من باب الإشهار، جعلها محاكمة مدوّية، وإدانتنا في نهايتها. والسياسيون يريدون إنهاءها بسرعة لأنهم منزعجون. فأي اتجاه سيتغلب؟ سوف نرى. نحن مستعدان، ولن نمر إلى الهجوم مهما كان المبرر، أمّا إذا تم استفزازنا فسوف نعبر عن

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) المحاكمة المتعلقة بنشر كتاب «الزهد» الذي أرادت الكنيسة الأرثوذكسية بسببه، معاقبة كازنتراكي بالحرمان الكنسي، وظلت تتأمل مطوّلاً، حتى نُسييت لبعض الوقت.

قناعاتنا من دون لفّ ودوران.

... ماريكا ستسافر يوم ٢٧ مارس، متأسفة على عدم حضور المحاكمة.

أثينا ١٤ مارس ١٩٢٨ (١)

لينوتشكا الحبيبة، أشعر بفرحة عارمة عندما تصلني رسالة منك. فكم تدوم تلك الفرحة؟ سوف أبذل قصارى جهدي حتى تظل دائماً. أعرف حدود البشر، ومدى ضيقها، وأعرف قانون الزرع والإزهار والإثمار والتلف، لكنني أعرف أيضاً قوة الروح التي ليس لها سوى هدف واحد، هو الأسمى: ولا يتمثل في إكمال الطبيعة بل في «التغلب» عليها.

ياعزيزتي لينوتشكا، يتوجب علينا بذل ذلك الجهد، كي نحافظ، نحن الاثنين، على الحماسة في أعلى مستوى، سواء في الروح أو في الجسد، أو في القلب!

أنا أقبع هنا مثل أسير حرب. سوف تجري المحاكمة بلا شفقة لأن القضاة، كما يقال، يريدون ضربنا، أنا وغلينوس، بلا رحمة، لترهيب الآخرين. ونحن نعدّ مرافعاتنا واضحة، حيوية، بلا ضعف أو وقاحة. وهذه المحاكمة التي تشبه محاكمات القرون الوسطى سوف تكون شيقة ومهمة كما يبدو.

وقد يُلقى بنا في السجن لمدة ستة أشهر، في أكثر تقدير؛ أما إذا حوكمنا بثلاثة أشهر فقط، فيمكنني عندئذ الحصول على تأجيل التنفيذ.

.. الجزء الثاني من كتاب «روسيا» سيطلع خلال عشرة أيام، وبعد عشرين يوماً يكون كتاب «المسيح» منجزاً، بعد ذلك أبدأ العملية مع «غوليس» «ك»^(٢). أنتظر انتهاء خدمتنا في روسيا حتى نتمكن، بعد ذلك، من اللجوء إلى صومعة هادئة، وسط الأشجار الكبيرة، مع طرقات مستقيمة، قرب مدينة عملاقة! كم أحس باستعداد كبير لبدء الصياغة الثانية لـ «الأوديسة»!

.. اشترى وكيل النيابة كل ما نشرته، لأن حديثه يتمثل في البرهنة على أنني أريد تخريب الدين، والأخلاق، والوطن، الخ.. إنه لمن العار أن يعيش المرء مع أمثال هذا الشخص.

(١) رسالة إلى إيلين ساميوس.

(٢) يتعلّق الأمر بتراجيديتين شعريتين. «المسيح» و«غوليس» «ي» لأن كازنتزاكي قرر إهداءه لي.

(أثينا، بلا تاريخ) (١)

تلقيت بالأمس رسالة من باربوس يلحّ فيها على مشاركتي بالكتابة في صحيفة «لوموند».. إذا ما أرسل لي بمكافآت، احتفظي بالنصف، واعطي النصف الآخر للمترجم.

.. ما يسمى «المجد» بدأ يحوم حولي، في اليونان؛ أستلم رسائل، وهناك كتابات نقدية عني، كما أن الكثير من الشباب يأتون لرؤيتي. إلهي، ما أبعد روعي عن كل هذا البؤس! لا أحتاج إلى أكثر من العزلة، والعمل الشاق، وبعض الأرواح الباسلة متجسدة في المرأة..

إيجين، ١٤ أبريل ١٩٢٨ (٢)

حبيبتي لينوتشكا

أكتب إليك من بيتي الصغير في إيجين، النوافذ مفتوحة، وثمة نسيم عطر يهب، إذ أن الحقول المجاورة غاصة بالزهور - زهور لأولؤ كبيرة صفراء، بابونج، قويسة، زعتر.. - بريفيلاكي جالس قبالي، يقرأ «المسيح». فجر الغد سوف نذهب إلى معبد «أفي»، لقد أشرق وجه كيرا زوئي عندما رأتني، وسألتني عن أخبار السيدة ايليني. أطفالها بخير، وقد حملت إليهم بيض «الفصح» وألواح شوكولا وعصافير يابانية. لعبنا وضحكنا معاً. صباح الاثنين نعود إلى أثينا. فلتشرق إيجين دائماً في ذاكرتي، على الرغم من سوء ضيافتها لك. هنا عشت بعمق نادر، كتبت أشعاراً جيدة، وخبرتُ سعادة الإنسان المنعزل وهو يبدع.

١٥ أبريل، عيد الفصح (٣)

عدتُ وبريفيلاكي من معبد «أفي». قصدناه فجراً، وكانت الجزيرة تتضوّع بأريج البابونج وأزهار الوزال. تمددت نصف عارٍ على رخام المعبد الساخن ونمت بضع دقائق. ولقد سعدت برؤيتك في الحلم. حلمت أنك كتبت قصيدة جميلة جداً عنوانها: «كيف نمتُ معه». ما زلت أتذكر كل التفاصيل التي سوف أحدثك عنها عندما نلتقي. رأيتك بطريقة في غاية الروعة والحيوية حتى استيقظت متأثراً، كما لو فاجأتني رؤيا.

على متن الباخرة لينين، ١٩ أبريل ١٩٢٨ (٤)

هأنذا أخيراً في عرض البحر المحبوب. أوجد الآن قبالة معبد سونيون، والبحر رائع وهادئ، والنّداوة تلامس صدغي، وقلبي منقبض كأنه يتوقع شؤماً. غير أن الروح

(١) و(٢) و(٣) و(٤) رسالة إلى ايلين ساميوس.

تدفعني بعيداً عن اليونان وأرجو من الله ألا أراها قريباً جداً.. أبرق لي استراتي أمس، يسألني عن أخباري ويعلمني أنه سيسافر إلى كييف، وفي انتظار ذلك فهو موجود في يالطا، جزيرة القرم الرائعة، حيث ينتظر غوركي.

يجب أن أنجز السيناريو في شهر مايو، وأعتقد أن استراتي سوف يُسرّ بالتحاقى به إلى يالطا.. ومع ذلك يتوجب عليّ إنجاز أعمال كثيرة هذه السنة: سيناريوهات، رحلة في نهر الفولغا، وكتاب عن «الاتحاد السوفياتي» باللغة الفرنسية. وفي الربيع القادم أذهب إلى سيبيريا، وربما إلى اليابان، وأخيراً إلى ألمانيا، حيث أكتب سيناريو «بوذا» الذي أعتمد عليه لضمان معاشنا المادي وطمانينتنا. سوف أقيم قرب فيينا بالنسبة لـ «الأوديسة».

تلك هي خططي.. كيف ستتحقق؟ سوف نرى.

إزمير، ٢٠ أبريل (١)

رحلة رائعة! أمامي ساحل أيونيا، إزمير، شمس دافئة وجبال متناغمة، كل الوسائل لسحر قلب الإنسان الساذج. خفق قلبي لحظة، ثم سرعان ما كشف «الزيف» واندفع نحو الأعالي، مثل سهم كاتدرائية.

كييف، ٢٧ أبريل ١٩٢٨ (٢)

لا ينبغي أن أكتب إليك كل يوم، حتى لا أكتب إليك كل ساعة، وكل لحظة. الخطط تتغير من فينة إلى أخرى. ويعود السبب إلى الوضع، هنا، وإلى طبع استراتي. في هذه الظهيرة جدّ قرارٌ جديد: لن يسافر باناييت استراتي إلى باريس؛ ربما سافرنا بعد عشرة أيام، وربما بقيت في كييف، إذا لم أعد إلى أوديسا، لإكمال السيناريو، وربما قصدت موسكو، وأخيراً ربما نذهب كلنا إلى ألمانيا! يا الهي، متى تنتهي هذه الدوامة؟

٢٨ أبريل (٣)

تحقق اليوم بعض الاستقرار المؤقت. سنبقى في كييف أربعة أيام أخرى، كي نشارك في احتفالات أول مايو، وفي تكريم أوكرانيا لشاعرها الأكبر: شفتشكو.

هاهي ذي خطتنا الجديدة: رحلة إلى سيبيريا لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر، وعوض الكتابة عن روسيا (هناك كتابات كثيرة تُنجز عنها الآن) سوف نؤلف كتاباً عن

(١) و(٢) و(٣) رسالة إلى ايلين ساميوس.

سيبيريا.

أكتب إليك في غرفة الفندق، الساعة السابعة مساءً، ضوء كثيف. مائدة تتوسطها سَمَاور^(١) طويلة، عالية مثل قبة، تغلي. على يساري بيليلي تدير الحنفية وتجهز الشاي، هادئة متألقة.. وعلى يميني استراتي يدخن ويشرب قهوة وشايًا، وأمامي التشيكي الحبيب الذي يروي لنا «حكايات». سنشاهد في الثامنة والنصف شريطاً ذائع الصيت، وغداً نذهب إلى الريف.

منتصف الليل. عدنا من قاعة السينما. هذا الشكل الفني صار يثير اهتمامي كثيراً، الآن. وأدرك صعوبة كتابة السيناريو. سوف أعمل مع سينمائي روسي إذا لزم الأمر.. .. سوف تملكك مشاعر عنيفة في روسيا، لأن الحياة هنا تعاش على مستوى راقٍ، وهي قاسية وبطولية. ويمكن لجسدك أن يتقوى أيضاً ويخضع للروح.

دنيير، ٢ مايو^(٢)

لينوتشكاي، سنستقل الباخرة فجرًا، لنصل بعد ست ساعات في البحر، إلى أوكرانيا، لحضور الاحتفال الخاص بشاعرها الأكبر: شفتشكو..

نجتاز الآن ضفاف الدنيير الرائعة برمالها البيضاء وصفصافها النابت في الماء، وقراها الواطئة، وكنائسها، ذات القباب الخضراء المدببة مثل رؤوس البصل. كل هذا سوف نعود إلى رؤيته معاً، وبطريقة أفضل أثناء نزول نهر الفولغا.

بعد الظهر

استلقينا على العشب حول تمثال شفتشكو.. وشرعنا نتأمل الناس، والأزياء الأوكرانية الرائعة، ونتمتع بالشمس.. نضيع وقتنا في الحديث عن الحياة، والحياة تمر كما لو كانت بلا غاية! مساءً: انتهت الاحتفالات، الخطابات، الأغاني الأوكرانية، وفرحة اللقاء بعدد من اليهوديات. أتلهف إلى العزلة والعمل.

٣ مايو^(٣)

سافرنا عبر النهر، طيلة الليل، عائدين إلى كييف. استراتي مرهق جداً. اليوم مُفطر، والنهر ممتلئ بالطين والأمواج، والطقس بارد. هذه الحياة سوف تأتي على استراتي،

(١) غلاية شاي روسية - «المترجم».

(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

لأنه مريض ولا يسعى إلى الراحة. عليه أن يخفف من التنقل وأن يكتب، ويعود إلى الأرض، ويسترجع حياة الفلاحين البسيطة التي من شأنها أن تجدد خلاياه.

كيبف، ٥ مايو ١٩٢٨ (١)

.. أنا متعب جداً. يوم رحيل استراتي كان برنامجنا.. مانهاية كل ذلك؟ لست أدري. استراتي تنقصه الإرادة وتتغير رغباته باستمرار.. صارت الحياة لا تطاق بسبب تبديد استراتي لها. ينبغي تنظيم كل ذلك وإلا ضعنا. بيليلي ترى الأمور بوضوح لكنها، مَرْضِيّاً، أعجز من أن تتدخل، إنها تنقاد مثل النائمة مغناطيسياً.

٦ مايو (٢)

أكتب بهدوء في غرفتي، لا أكلّم أحداً، ولا أرى أحداً. لقد استرجعت إيقاعي أخيراً. السيناريو يتطور تدريجياً. إنه أصعب مما قد يُتصور، إذ يتطلب كثافة بصرية، ومنطقاً يطور الأحداث. أمل، مع ذلك، أن يكون جيداً، لأبدأ بالثاني، الذي أضع فيه كل آمالي: «بوذا».

كيبف، ٨ مايو (٣)

استعادت حياتي السكنية منذ رحيل استراتي.. لقد صارت غرفتي مثل الشارع. يأتي الناس ويخرجون بلا انقطاع، ويأكلون ويتحدثون بأصوات عالية، ويزعجونني. أما الآن فالزم الصمت طوال النهار، وأكتب، من دون رؤية أحد. لست سعيداً، لكن هذا الإطار، يعوّض السعادة قليلاً. السيناريو ليس تاريخياً، مثلما تخوّفت، بل يأخذ طابعاً إنسانياً، درامياً.. والعناصر التي تشكله هي الإنسان المكافح، والمرأة العاشقة، والبحر، والشمس..

٩ مايو (٤)

تهب اليوم رياح ساخنة من الجنوب، من تركستان، لم أخرج طيلة النهار. بقيت أنحني على النافذة وأتحسس أنفاس الشرق.. و«برعب» أعيش ما يسميه الناس «عزلة» وأدعوه «غبطة». في هذه اللحظات أحس بعمق أنني حرّ. وأعترف أنني لا أرغب في رؤية سواك: فضلاً عن شخصين أو ثلاثة آخرين ولكن هؤلاء، لوقت وجيز فقط. حبي لك يُؤنسني، أعني أنني أصير جسماً يختار ويقول: «أريد هذا الشخص، ولا أريد ذاك».

(١) و(٢) و(٣) و(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

عندما أكف عن الحب أحصل على استقلالية لا إنسانية. أرجو من الله أن أحتفظ بك حتى مماتي، كما الآن، وأن توحّديني بالدفع الإنساني - حتى لا أضيع. أحبك وأستغرب إحساسي بالحنوّ، تجاه ذاتي، وبالشفقة أيضاً، خليط من الغم الذي لا يطاق والفرح، في أن واحد؛ إنني أستجيب لطبعي البشري الذي طالما صارعته، وأمسك بوجهك بين كفيّ مثل شيء دافئ، زائل ثمين، ومحبوب، وأرتعش عندما أفكر في موتي، لأن أصابعي لن تتمكن عندئذ من لمس فمك، وأنفك، ورفيف جفنيك، وعنقك.

كييف، ١٥ مايو ١٩٢٨ (١)

حبيبتي. أودّ أن أرسل إليك بالسيناريو حتى تطلعي عليه. هذا التدريب سوف يعود علينا بفائدة كبيرة. أعتقد أن الأسلوب العصري سوف يتأثر عميقاً بالسينما.

لابدّ من قوة رؤيوية كبيرة، ممتزجة بالمنطق، وبالجنون في الوقت نفسه. إنّ العقل الاستدلالي من شأنه جعل الفيلم مضجراً، والجنون وحده، هو الذي يجعله فوضوياً. لو كنت أعرف التقنية جيداً لأنجزت أشياء مهمة، لأنني أمتلك عنصرين أساسيين، لكنني ساكتفي بشحن قوتي لتكون أكثر مضاء في «الأوديسة».

تلقيت منذ قليل بطاقة من استراتي. قال إنه لن يعود، وسوف يظل ثلاثة أشهر في موسكو. يريد أن يتعرف «على بعض الناس كي ينجح» ولا أعرف ماذا يقصد بـ «النجاح». إذ أن كلمة «النجاح» عندي ذات مضمون مختلف وداخلي تماماً. وله المضمون نفسه عند استراتي لكنه لا يعرف ذلك. إنّ استراتي ذو طبيعة مفعمة بالأحاسيس والصور، مع روح بدائية ونبيلة.. وما ينقصه هو الدماغ، والانضباط الشديد، والتوازن في أرقّ مستوياته.

يجب أن نقطن في موسكو أو لينينغراد، لأن كل ماعداهما ريف. في موسكو ثمة صعوبات كبيرة في السكن، لكننا سوف نوفق في الضواحي. يكفي أن تتقبلي هذه الحياة وتتمكني من العيش مع شخص مثلي. أنت تعرفينني جيداً ويمكنك التقرير على ضوء ذلك. عمل، هدوء، ضحك، إيناس، سفر.. عندما نقدر على ذلك، حياة بسيطة، عزلة في معظم الأوقات، حياة بطولية وبسيطة.

كييف، ١٨ مايو (٢)

.. حزين جداً اليوم، وأحدثك عن ذلك كي أرتاح قليلاً. إنّهُ الغسق، ولم أخرج طوال

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

النهار، مكثت أطالع كتاباً رائعاً لموسيناك حول السينما. بعض الفصول تفتح أفاقاً واسعة فأقول في نفسي.. ينبغي أن أعمق هذا التعبير الجديد عن الروح. إنَّ قدرة الإنسان على خلق شخصيات وأفكار وأهواء، ثم القضاء عليها، بواسطة الضوء والظل، بدأت تؤثر في. وكانت فكرة بوذا الذي يخلق العالم، بشكل مماثل، من خلال الضوء والظل، داخل تلافيف روحه الندية، قد غزتني قبل ذلك.. وأنا أتطلع الآن إلى تحويل الأفكار المجردة إلى صور بسيطة، واضحة. وينبغي أن تكون «الأوديسة» غنية بالصور، وتكون عين عوليس آلة تصوير، تعيد خلق الكون في غرفة مظلمة.

كتبت رسالة حاسمة إلى استراتي، أمس، وتتوقف حياتنا المشتركة المقبلة، على رده.. لكن الطريقة التي يرى بها ب.استراتي، الحياة في الاتحاد السوفياتي كانت تزعج كازنتزاكي.

كييف، ١٧ مايو ١٩٢٨

عزيزي باناييت!

في بطاقة أرسلت بها إلي، كررت كلمة «النجاح» ثلاث مرات، وهكذا أشعرتني بأنك تعرض نفسك لخطر كبير. «النجاح» عندي يعني: «ابتكار عمل كبير». وهو كذلك، عندك أيضاً. لكنك تبدد ذاتك في أنشطة زائلة ومؤذية. لم يعد أمامنا، أنا وأنت، وقت كافٍ لتبديد قوانا في مطاردة أهداف أدنى من هذا العمل الكبير، كما يمكننا أن نضيع أيضاً. مقابلة شخصيات بارزة، وتعلم الروسية، والكلام، والانتظار، والاستسلام، تدريجياً ولا شعورياً، لأساليب متعارضة مع هذا التصور للحياة وسيرها - هذا ما توحى لي به بطاقتك الصغيرة.

إنَّ حبي القوي لك، ياباناييت، هو الذي يدفعني إلى بذل المستحيل من أجل إعادتك إلى «الغابة» أي إلى روحك. حتى الآن لم ننجز شيئاً - باستثناء بعض التمارين لتعلم السحر: التعبير بالكلمات عن القوة الفظيعة، الغامضة والرائعة، التي تلتهمنا. ونحن الآن جاهزان: لقد أحببنا وتألّمنا وتمتعنا، ونقف الآن على ذروة الخط البياني للإنسانية - فلنخلص من السقوط!

هذا الجهد من أجل «الخلاص»، هو الهدف الوحيد لصداقتنا. وأنا شخصياً قررت تركيز كل قواي لتحويل الخط المنحني إلى سهم. فإذا تركتني وحيداً سوف أحاول «النجاح» وحيداً، أما إذا حاولنا معاً فإن المهمة لن تغدو أسهل، بل أعمق وأغنى.

بوضوح غير بشري أرى الدربين اللذين يتفرعان أمامنا، في هذه اللحظة من حياتنا ومن صداقتنا. والآن، وأنا أكتب إليك، أحس أنني أمسك بذراعك وأدفعك، وأنا في منتهى التأثر. (١)

يوم عيدك، ٢١ مايو ١٩٢٨ (٢)

حلّ الربيع اليوم في كييف - شمس، ريح ساخنة، والنساء ارتدين فساتينهن البيضاء المطرزة.. وفي هذه الأونة انفجرت أمطار قوية، دافئة معطرة.. مطر الصيف يثير في حنواً عارماً. معنى الموت يتغلغل في روحي بهدوء كبير.. الحب، الموت، الأباطيل، الألم الفظيع المتأتي من اللحظة الزائلة - أه، قلبي يختلج بقوة. أتذكر مرتين هطلت فيهما أمطار صيفية على الأشجار المزهرة. مرة في «ماني» وأخرى في «أسيز». أه لا أستطيع الموت في مثل هذه اللحظات! لم يسبق أن لاح لي توحيدي بالأرض أكثر بساطة وإغراء. العودة: أن يستيقظ المرء من تحت التراب لثانية واحدة، ويلقي نظرة على النور، والبحر، والمرأة، والرجل، ثم يعود إلى الارتواء في التراب. أنا وحيد هذا المساء، والسماء تمطر، وثمة شجرة قبالي، مزهرة قبل أوانها، والموت يشير إليّ بهدوء ساحر، ولا أدري لماذا لا أقوم وأتبعه. لينتوشكا، لا يستبقيني سوى أمي، وأنت، وشخصين أو ثلاثة، آخرين.

كييف، ٢٦ مايو (٣)

... لا أعرف مشاريع استراتيجتي، لكنني أعتقد أن ميله يزداد للانخراط في الحزب والتحول إلى رجل ممارسة. لو أن قريحته نضبت لكان ذلك هو الحل الأمثل.. أما أنا فقد اتخذت قراراً قطعياً بالابتعاد عن كل تلك الممارسات الزائلة - حتى الشجاعة منها - وعدم خيانة قائدي الكبير عوليس - بوذا.

من الطبيعي أن تكفّ روسيا عن تزويدي بالانفعال الأول المحموم للتماس البكر، أ- لأنها لم تعد، هي ذاتها، في مرحلتها البطولية، وقد بدأت تتقدم تدريجياً نحو توازن اعتيادي، هو جوهري لا محالة لكنه لا يثير حماسة روحي؛ ب- لأنني لست رجل ممارسة ولا أستطيع الاهتمام الدائم بتطوير نظام اجتماعي. أحب النزول الأول للروح،

(١) رسالة كتبها نيكوس كازنتزاكي، بالفرنسية مباشرة.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

ذلك النزول العنيف الذي يقتبس النار. أما البقية، أي كيفية تجميع اللحظة المريعة في ضرورة يومية عاقلة، فهي لا تهمني بافراط. فرحي الأعمق هو رؤية القوة الغامضة التي تستولي على الإنسان وترجّبه، مثل عاشق، أو مصروع، أو مبدع. إذ أنني، كما تعلمين، لا أهتم بالإنسان بل بمن أدعوه، بطريقة ناقصة، الإله.

بدأت بالعمل على سيناريو جديد — «لينين».. رؤيا لا تدوم سوى هنيئة.. أه، لو أنك تتصورين اللذة التي أشعر بها عند التفكير في قدرتي على توضيح تلك الومضة بواسطة الصور، وتمكن الملايين من مشاهدتها. لكن لا بد من إيجاد سينمائي كبير. ربما في موسكو. أدرك جيداً معنى الفيلم الناجح، غير أن التقنية تنقصني. أما الومضة فأمتلكها.

كييف، ٢٩ مايو ١٩٢٨ (١)

ليتنني أستطيع التحرر من اليونان! ينبغي ذلك. أما العيش مطولاً هنا، فلا أريده، لأنني لا أعرف اللغة، ولن أتعلمها، وهكذا يستحيل عليّ الاتصال المباشر والعميق بروسيا. ما من صحيفة، أو كتاب، أو حوار — لا شيء. أشعر بالكآبة. سوف أطلع على أكبر قدر ممكن من الاتحاد السوفياتي ثم أرحل. أين وكيف سنعيش، سوف نرى.. «أذهب، واختر طريقك» كما يقول الكريتيون. وكلانا كريتي، بفضل الله.

في بيكوفو الكائنة في ضواحي موسكو الكبرى، عاد كازنتزاكي إلى العيش مع باناييت استراتي وبيليلي، في بيت خشبي وجدته لهم ايتكا. وإلى «ليّا» كان قد اشتكى، في نوفمبر ١٩٢٧، من القانون القاسي الذي استعبد ايتكا. وبعد عام واحد، كانت ايتكا التي تسكن أيضاً في بيكوفو تتردد على زيارته وتترجم له الصحف والكتب الروسية، وتناقشه حول المشاكل الساخنة في الأحداث الثورية. وكتب نيكوس، آنذاك إلى ب. بريفيلاكي:

..هنا التقيت مرة أخرى إحدى صديقاتي اليهوديات في حلقة برلين اللاهبة.. إنها مسكونة بالحداسة والاندفاع، والقوة والإيمان، وفي منتهى التعصب للحزب. هذا اللقاء مفيد لي، لأنه يثلج صدري.

غير أن باناييت استاء من زيارات إيتكا المتكررة. لقد خاف على مستقبلي مع

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

نيكوس، وراسلني ليخبرني بذلك. ولم يكن يعرف «ميثاق الأيام العشرة سنوياً»..
إذ لم نتوصل بعد، أنا ونيكوس إلى إدراك ما يختلج في قلبينا إدراكاً جيداً.

وسوف يقول لي نيكوس حال وصولي إلى موسكو: «إذا وافقت على أن تصيري
زوجتي، فإنني أعدك بوضع حد لماضي. ولن تكون هناك امرأة أخرى».. ولم تكن
هناك امرأة أخرى فعلاً، غير أننا تمكنا من الاتفاق على الربط بين الماضي والحاضر
والمستقبل، بالمحافظة على صلات وثيقة بأصدقاء الماضي.

بيكوفو، ١٤ يونيو ١٩٢٨ (١)

من الضروري أن نقوم هذه الأيام برحلة مضجرة إلى يالطا.. حيث يوجد استراتي..
وسوف نعود بعد عشرة أيام. ابقى بضعة أيام، إذن، عند إلسا، واستريح.. ولولا خوفي
من تقاطع قطاريننا لذهبت إلى مينسك لاستقبالك.. لينوتشكا الحبيبة، في هذه اللحظات
الآخرة التي تسبق لقاءنا، أحس برجفة خفيفة. فليقدنا «إلهنا» في هذا الوقت الصعب.

بيكوفو، ١٥ يونيو (٢)

..أنا الآن في بيكوفو، مسافة ساعة عن موسكو، في غابة صنوبر واسعة. وهناك
عيبان في هذا المكان: الرطوبة والبعوض بأعداد هائلة. استراتي يعاني من بعض التوعك
بسبب التغير المستمر في درجة الحرارة، وهو يفكر الآن في السفر إلى القرم.. استلمت
البارحة رسالة من اللجنة التي وافقت على السيناريو واعتبرته أفضل ما أرسل إليها..
سنذهب اليوم إلى موسكو وسوف نقترح على جمعية أخرى مواضيع لثلاثة
سيناريوهات أخرى.. اثنين من وضعي، والثالث مقتبس من «العم أنغل».

نشرت بعض المقالات في البرافدا حول المشاكل العمالية في اليونان، وأستطيع أن
أرسل إليك ألف فرنك، لكن بصعوبات كبيرة.

عندما تأتين، وسواء رحلنا أو بقينا هنا، سوف نعمل معاً، وأمل ألا تعرقلنا المسائل
المالية.

لينينغراد، ٢٦ يونيو (٣)

إقامتنا هنا كانت في غاية الأهمية. أمضينا ليالي بيضاء في البداية، ثم شاهدت في

(١) ، (٢) ، (٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

الارميتاج لوحات أحبها: رامبرنت، الغريكو، الأيقونات، والتقيت شخصين أو ثلاثة، ومن بينهم شاعر صوفي مسيحي، كبير (١) أهداني أيقونة جميلة وتحدثنا عن القلق الإنساني.

تجاوزت مطولاً مع استراتي، قبل أيام، في إحدى الغابات، حول موضوع قدومك. أوضحت له الوضع ببساطة، لكن بطريقة حاسمة. وهو يخشى أن نواجه صعوبات مالية. غير أنني أوضحت له كيف سنعيش معاً بتواضع، وبساطة، وانصراف إلى العمر. أما هو فالفشل من نصيبه دائماً بسبب طريقة عيشه.. وسوف ننفصل عنه إذا لزم الأمر.

٣٠ يونيو ١٩٢٨ (٢)

باتت الرحلة الآن شبه مؤكدة: الفولغا - اليابان. وسوف نبعث بمقالات إلى «المجلة الفرنسية الجديدة» وإلى صحف ألمانية وروسية. ينتظرنا عمل هائل، لكنني تحملت مسؤولية كل ذلك للمساهمة قدر المستطاع، في العيش المشترك مع استراتي. وعندما تنتهي هذه الرحلة سوف نعود إلى باريس.. ونؤلف هناك، ثلاثة أو أربعة كتب حول رحلتنا، وألجأ، أنا، إلى عزلة صارمة كي أعود إلى كتابة «الأوديسة». وإذا بقيت تريدين العيش معي، حتى ذلك الوقت، يالينوتشكا، سوف نتقاسم العمل، وتشرعين في الكتابة معي، ومساعدتي ونقوم حين نشاء، بـ «رحلات» إلى إسبانيا أو غيرها. أما إذا لم تعودي تريدين استنشاق الهواء الذي أستنشق، فسوف تفارقيني، حرة، مرتاحة البال، وأنغمس وحدي في عزلة مطلقة. أنا قوي جداً وأستطيع مقاومة كل شيء. كما أنني مستعد دائماً لمواجهة أي طارئ. وهكذا لا أجبر أحداً على أن يداريني. ستراسلك بيليلي لتطلب منك أن تُحضري لها مسدسها وبعض الأشياء الأخرى.

العيش مع استراتي يسير نحو الأحسن. غير أن بيليلي - التي تعتبر رفيقة مناسبة لاستراتي - تقبّر أحياناً. واعترفت لي بأنها تحقد علي، في بعض الأوقات، حقداً قاتلاً. لكنني أفهمها وأوضح لها الأسباب. أمل أن يكون تأثيري إيجابياً في استراتي - وهذا عزائي.

لينوتشكا الحبيبة، مصيرنا مدهش. إذا تحقق الحلم المتعلق بسفرنا، فمعنى ذلك أن هذه الحياة تعطي أكثر مما نطلب منها. وعندما تعارفنا لم أكن أحلم بالنجاح الراهن.

(١) انظر «تقرير إلى غريكو» (نيوقلا كليثوفيف الذي ترجم له كازنتزاكي بعض القصائد: «الفرح، قافلة الحرير...» انظر توداد رابا.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

لقد نقرنا الحياة نقرة قوية فانطلقت باندفاع إلهي. اتمنى، بمشيئة الإله، ان تقاسميني
أفراحاً كبرى ومرارات كبرى، وليس الرداءة أو الضجر.

دَوْن نيكوس في دفاتره الهلع والاحترام اللذين أوحى له، بهما، مرة أخرى،
كفاح الإنسان. ذلك الكفاح غير المتكافئ ضد عناصر الطبيعة، الكفاح العنيد
والمميت.

«إلهي لا تقتلني! هذه هي الصلاة الوحيدة التي يتوجه بها أقوام الإسكيمو إلى
ربهم».. وكتب في موضع آخر: «في المتحف، شاهدنا أسراب الكلاب المربوطة لذلك
الإله، ملطخة بدم كثيف».

لو طُلب مني وصف السا «أ»، لكرّرت مع الآخرين: «المرأة الصغيرة
الصامتة»، لمقدرتها الفائقة على «خلق» الصمت. صمت أحلام، وأعماق بحرية،
ثري وساحر. ومع ذلك فإن السا تتكلم، بكثرة، لكن بصوت أبخ، بل خفي
وبأسيم. وكانت عيناها وشفاتها المجدتان تشددان على هذه الكلمة المعبرة أو
تلك. فتحني رأسها قليلاً وتسعى إلى التعبير عن فكرتك الحميمة، أو إكمالها.
فتشعر كأنك تناجي روحك.

وكانت الأيام القليلة التي قضيتها في بيتها، بين باريس وموسكو، في منتهى
الأهمية بالنسبة لي.

لقد سُرّت بالعثور على أذان صاغية فتحدثت بطلاقة عن أعزّ ذكرياتها. ولم
يكن حبها يقتصر على فصل الربيع، بل يغطي كل الفصول: بالطريقة الفريدة
التي «يحب» بها المرء، من دون المطالبة بمقابل.

أوضحت لها وضعي، فشجعتني «نعم، يمكنك أن تثقي به، يا إيليني، فبرغم
النار التي تلتهمه، يحافظ على توازنه وحالته السوية. سافري ولا تندمي مهما
حصل. سوف أرافقك بأفكاري، وأكون معك في الأوقات العصيبة. إنه عارٍ
وأعزل. ويذكرني بالقديس سيباستيان والسهام توشك على اختراقه. عليك أن

تغطيه وتحميه من هذه السهام».

ثم اقتربت أكثر من ذلك «الاقتران الغني»، تلك الفكرة التي تسعى إلى التجسد:
- هناك أيضاً بعض التناقضات، طبعاً.. لكنه أول من يعترف بها، ويصارعها.
في استطاعته أن يكون أنانياً، بالكامل، لكنه ليس كذلك إلاّ إزاء عمله. وكان في
استطاعته أن يكون قاسياً، وهو ليس كذلك إلاّ تجاه نفسه.

- إنه يجازف بتدمير ذاته! صحتُ قلقة. وحسبما عاينته وعرفته قد يدمر
نفسه لفرط سعيه إلى التسامي بروحه. ومع ذلك، فإن الأمر الغريب هو شعوري
بالراحة إلى جانبه، كما لو كنت في مأمن، تحت سنديانة كبيرة، قرب نبع.

- هل تتذكرين ذلك الكريتي الهرم الذي أثر فيه كثيراً، يا ايليني؟ أراهن أنه
حدّثك عنه كثيراً. كان ذلك الشيخ منحنيّاً على جدول متأملاً حياته، مائة سنة،
تمر.. وعن سؤال طرحه نيكوس أجاب:

- الحياة، يا بني، تشبه كأس ماء بارد.

- فهل تحس أنك ارتويت، يا جد؟.. واصلت سؤاله ضاحكةً.

- اللعنة على من يرتوي! صاحت إلسا وعيناها تتقدان، يا صديقتي ايليني،
ستمسكين بكأس الماء البارد بين راحتيك. فلتحلّ بك اللعنة إذا تركت قطرة واحدة
تضيع.

وبعد أسبوع أمضيته عند الساأ. في دوسلدورف، ركبت القطار إلى موسكو،
متسلحة بالمسدّسين اللذين طلبتهما بيليلي، وكأنني أقصد الاتحاد السوفياتي
لأمارس أعمالاً فوضوية. ولم نكد نجتاز محطة مينسك حتى استقبلتنا
«بالألايكا»^(١) بأنغام الترحيب.

(١) آلة موسيقية مثثلة الشكل وذات أوتار ثلاثة «المترجم».

كنت أقرب من جهد الإنسان الساعي إلى تجاوز ذاته، والتخلص من الأنانية، والاستماع إلى شكوى الجائعين، وتدعيم قلبه لمواجهة الآمة الخاصة، كنت أقرب منه لمشاطرته نجاحه، غير المنتظر، وفشله المحتوم.

«إذا كان لك قميصان، بَعْ واحداً واشترِ وردة!» يقول الصينيون.

«ماذا تحملين ياسيديتي، في ذلك الصندوق الضخم، سألنا رفيقة رحلتنا، وهي امرأة لاتزال تحتفظ بجمالها، وقد استقلت القطار من باطوم قاصدة لينينغراد «سبعة أيام بالقطار». لماذا يبدو عليك القلق؟

- إنها هدية لصديقة مسنة.. كانت غنية في الماضي، وصارت تعيش حياة البؤس.

- برتقال ومندرينة، طبعاً!

- كلا.. بل مائتا وردة بيضاء.. لأنها تحبها كثيراً!..».

«إلى بيكوفو؟ يستحيل عليك الذهاب بمفردك! إذا لم يأت أحد لاستقبالك حتى المساء، سوف أرافقك، ارسل من يرافقك!».

ابتسم رئيس المحطة من تفسيراتي المرتبكة «نيتشيفو! اشربي شاياً، وكُلي قليلاً من «البليني» وانتظري بهدوء. لن أنساك!».

جلست على حقيبتتي، كما لو كانت صخرة تتدفق عليها موجات متقاربة، من الرفاق ذوي الجزمات المصنوعة من جلد الخرفان، والأوشحة الحمراء، والأثواب البيضاء، ومكثت أعدد التوقعات، عندما لاح في مجال رؤيتي، رجلٌ هزيل، وملوح البشرة، يؤشر لي، ويضحك بصوت عال، ويشد بيده كتف امرأة مسنة، مندهشة، وربما كان يروي لها حكاية، وحده الله يعرف ماهي، وبأية لهجة اخترعها. وكان نيكوس فعلاً، وقد جاء إلى المحطة ليطلع على مواعيد القطار، فلما لمحني، أراد أن يكسب الوقت قبل أن يهرع إليّ، وقد بدوت له مثل رؤيا.

كانت بيكوفو كما وصفها تماماً: داتشا - شاليه، أو بيت خشبي على الطريقة الروسية - في غابة صنوبر معتمة. وهناك مستنقعات سوداء، كان باناييت

وبيليلي يأملان السباحة فيها ذات يوم.. بعوض، ومطر لا يتوقف، ثم ايتكا، والعدو غير المتوقع، تلك الحشرات التي كنت ضحيتها الوحيدة.

أعجبني كل شيء في نيكوس كازنتزاكي ولم أعد أخشى إنذاراته التنبؤية عن «الاتصالات والزيارات التي قد تزعجني». كنت أخشى أمراً واحداً: أن أكون أدنى من المهمة الموكولة إلي. غير أن فرحنا لدى كل لقاء جديد، وحزننا لكل فراق، كانا يمناً وبركة.

كنت قد أحببت بيليلي، وبدأت جاذبية باناييت تفعل فعلها. لم يكن هناك من يماثله عندما يشرع في سرد حكاياته عن «برايلاً وبلوست».. لكنني لا أنفي تألمي من تقلب مزاجه، إلى حد توتر أعصابي!

كنا نتحلق كل ليلة، حول غلاية السماور، فنشرب الشاي، ونعد خطأ دقيقة. ولا نكاد ننام حتى يبدأ بياناييت بتمزيق تلك الخطط، مبتهجاً بفعلته. ومع الفجر ينادينا، وهو في قميص النوم، إلى غرفته، من أجل إعادة التخطيط. فنتوصل إلى خطط تفصيلية جديدة، وقرارات جديدة «نهائية» لا يحترمها إلا برهة من الزمن. وحدها بيليلي كانت تحافظ على ابتسامتها التي تشبه ابتسامة صورة عذراء من القرون الوسطى. وكنت أحس بـ «ثعبان» الغضب ينساب على امتداد ظهر نيكوس، لكنه يحافظ على هدوئه، ولا يظهر شيئاً.

أذكر أيضاً، ذات يوم في تفليس، عندما هربت من الفندق في منتهى السخط، وقد أردت وضع نهاية لكل شيء.. وفي مرة أخرى — وهذا ما ظل يُضحك نيكوس حتى نهاية حياته — ضقت ذرعاً بدوري، وبقيت أصرّ على أن البطاطا «في بلادنا» ترفض الماء أثناء طبخها. وكاد باناييت يختنق غيظاً لعجزه عن رفع يده في وجهي.

لقد تهوّر نيكوس في أمر مهم: كان يخشى قدراته العملية — ولم يكن ليتحلى بها — فعين باناييت أمين مال. لكن باناييت لم يكن قادراً على الاحتفاظ بفلس واحد في جيبه. فكان يقدم مساعدات مالية لكل قادم جديد. فيستلم أحدهم مبلغاً ليركب طاقم أسنان، والثاني لشراء نظارات، والثالث لاقتناء تذكرة سفر بالقطار

كي يلتحق بنا من أقاصي الاتحاد السوفياتي. وهكذا رأيت ذات يوم، شخصاً
بائساً جاء من أوديسا:

«هأنذا ياتوفاريتش باناييت! أنت منقذي! لن أغادرك أبداً!» صاح مقبلاً
باناييت على خديه.

وإذا بـ «ابننا الضال» يفتح كتاباً ويقربه من ضيفه، العامل مثله، والمصاب
بالسل مثله:

– توفاريتش نيقولاي فاسيليفيتش، عندما تحدثنا في أوديسا، كنا في هذه
الصفحة. والآن، انظر جيداً. الأوراق تدور بسرعة، ونحن اليوم نوجد في هذه
الصفحة!

أحتاج الى مجلدٍ كامل على الأقل، كي أصف رحلاتنا في الاتحاد السوفياتي،
ونزولنا عبر نهر الفولغا، وتنقلاتنا عبر جورجيا وأذربيجان وأرمينيا، وفوق قمم
القوقاز، وإقامتنا على شاطئ البحر الأسود، المشمس والساحر.

بعد تبديد المال الذي وفره نيكوس بصعوبة فائقة، واختلاسه تدريجياً، انتهى
حجنا إلى الاتحاد السوفياتي نهاية مثيرة للشفقة. ذات مرة في تفليس، وبين
وجبتين باذحتين مع تشيمادان^(١) وشاشليك وناباويولي^(٢) وتشيناندالي^(٣) متدفقة
بإفراط، تملك البهجة باناييت، بحضور نخبة من الشعراء الشباب المتحمسين،
فضحك ضحكة صفراء وسدد لنا لكمة:

«أصدقائي، FINITO LA MUSICA^(٤) هو هو هو! كنت أريد أن أعلمكم بذلك
قبل فترة.. ها ها ها! لم يعد في حوزتنا فلس واحد! وإذا لم نرجع إلى موسكو هذه
الليلة، يتوجب علينا التقشف والحمية.. وجبة واحدة في منتصف النهار، صحن
شربة كثيفة فقط، وفنجان كاكاو مساء. بُولشي أُوغُوتُشَات نَتُشَامُ!^(٥)»

(١) شخص يتولى إراقة الخمرة وفق تقاليد جيورجية قديمة: الساقى.

(٢) و(٣) نوعان من الخمرة الجيورجية.

(٤) «انتهت الموسيقى» والمقصود بها: انتهى الأمر «المترجم»

(٥) «لا أستطيع أن أقدم لكم أكثر».

وداعاً أيتها الأحلام الجميلة! كم بكيتُ خفيةً، ونحن نفقد بطاقات التنقل الصغيرة التي وهبتها لنا الحكومة السوفياتية، وتمكننا من استخدام كل السفن والقطارات الروسية!

وحده نيكوس تمكن من إتمام تلك الرحلة التي بدأت تحت رعاية سعيدة. أما باناييت وبيليلي وأنا فقد غادرنا الاتحاد السوفياتي في بداية يناير ١٩٢٩، ولم يكن باناييت يشك طبعاً، في أنه لن يعود إليه أبداً.

كانت إصابته بالسل في مرحلة متقدمة، ويرفض الاعتراف بذلك، وينجح في خداعنا بمقاومته الخارقة وهو يذكرني بكاتب آخر، مشهور وصاحب نزوات مثله، وقد توفي في الفترة نفسها تقريباً: د.هـ.لورنس.

كان محباً للسفر، ومبشراً بلا انقطاع، وساعياً الى جعل العالم يضحى بمصالحه الخاصة من أجل القضية الكبرى، ومنقاداً لنبوات غضب ضد أصدقائه وضد فريدا^(١) وأعدائه، ناسجاً علاقات صاخبة مع الجميع، لا ينقصها النبل والسخاء والحميّا، لا يعكرها النفاق - شخص لا يطاق لكنه يُحب، في الوقت نفسه.

كان ينتعل جزمته الطويلة ذات اللفافتين، وقد صنعت من جلد رمادي اللون، ويرتدي بنطال فروسية وسترة عسكرية سيئة التفصيل، متعددة الجيوب، ويتنقل منحنياً تحت وطأة آلة تصويره التي تشبه آلة مصور جوال، وجيوبه محشوة بالأقلام والسكاكين والمقصات والكلاّبات والمبارد - إذ كان مهووساً بنظافته ويحب الاعتناء بيديه الرقيقتين والسجائر، والليمون، والفلفل الأحمر نصف المقضوم، وقناني زيت الزيتون الصغيرة، من دون أن ينسى علبة الأقراص المُحلّاة والمعطرة، التي كان يمصّها ثم يبصقها، ويقدم منها للحاضرين.

ياويلنا إذا فقد الليمون ساعة تناول الشاي. كنا نترك الشاي الساخن يبرد ونركض في اتجاهات المدينة بحثاً عن ذلك النوع اللعين من الحمضيات..

(١) زوجته فريدا.

– يَسْتُ ليمون، توفاريتش؟

– نِيَاتُ!

– لماذا «نيات»؟ ألا توجد ليمونة واحدة في الاتحاد السوفياتي؟

كم مرة اجتزنا جسر غابة نيجني – نوفغورود تحت المطر الغزير؟ كم مرة جُبنا كازان، واستراخان، وباكو، وباكوم؟ وراء مطاردة الليمون دائماً، وأسناننا تصطك من البرد، وجباهنا تنزّ عرقاً. بينما يزمجر باناييت مثل بحار ملتهب الدماغ، متذكراً كل شتائم والده: «سوف.. أمك وأبيك! سوف.. شاربيي عمك الأكبر!.. سوف.. روسيا السوفياتية!» ثم يتمالك أعصابه، ويبحث في جيوبه، ويقدم لنا أقراصه التي بصقها مرات، كي يهدىء من غضبنا العادل.

ومثل الألعاب التي تمنعها شحنة رصاصة من الانقلاب، لم يكن باناييت يترك المجال لشيء، أو لشخص، كي يقلبه. كان يجبرنا على تعقبه، قلقين غالباً، مرهقين أحياناً، ومدهوشين لدى كل تمرد جديد لمزاجه. وبعد جولة فروسية طويلة على الحدود التركية، أتعبتنا كثيراً حتى أثقلت حركاتنا، رأيناها يحاذي خطر الموت مرتين، لكنه يعود منتصراً في كل مرة، مُلوحاً بعلمة «الأسبيرين» العاشرة، صارخاً بأعلى صوته: «علبة كاملة في ليلة واحدة! لا شيء أفضل من هذا لمقاومة – النزلة الرئوية – أوكد لكما ذلك!».

وهكذا كان يستعيد قوته مجدداً، بإدمان الأسبرين، والشاي والقهوة، والمشاحنات العنيفة، في حين كنا نشفق عليه كل مرة ونظنه أشرف على الهلاك.

يضاف إلى كل ذلك، تلك الضجة التي تحيط به من الصحفيين، والمصورين، والسياسيين والفلاسفة الاشتراكيين.

كان ذات مرة عائداً من لينينغراد وقد تملكه الغضب بسبب الإساءة إلى عائلة مناضل بلشفي قديم، فتناول الهاتف مندداً بما حصل لعائلة كومبرون، ثم انهار في فراشه خائر القوى، منتظراً صواعق أولئك «السفلة» في الكومسمول. كانت لعبته خطرة، قاطعها صحافي شاب عندما سأله بنبرة مازحة:

«عزيزي توفاريتش استراتي، هل سمعت بالكارثة التي حلت بمجموعة من الصحافيين الغربيين، في عرض البحر؟.. يالها من مأساة شنيعة!.. عاصفة، عاصفة ملعونة، ولم يُسعف أحد.. اختفوا من دون أن يتركوا أثراً...».

وإثر جولة شملت موسكو، بعد الفولغا، واذربيجان، وجورجيا، والقوقاز، استأذنت نيكوس كي أذهب إلى برلين، وأنتظره هناك، عند ماريكا^(١). أما باناييت وبيليلي فقد قاما بزيارة خاطفة إلى برلين ثم توجّها إلى فيينا، وهناك انفصلا إلى الأبد.

كان شتاء ١٩٢٩ قاسياً.. نزلت الحرارة إلى ٤٥ درجة تحت الصفر. ولم يكن باناييت يقاوم البرد إلا بمعطفه الخفيف ذي اللون الرمادي المخضر. أما نيكوس فكان يرتدي «الماتيوشكا»، وهي عباءة مبطنة بالفرو ظل يحتفظ بها منذ إحدى زيارته السابقة إلى الاتحاد السوفياتي. وكنت أكثر حساسية تجاه البرد، مني تجاه السخرية، لذلك جبت الشوارع مرتدية معطف ضابط قيصري سابق، بعد أن جردناه من شرائطه ونجومه. ونظراً لصعوبة الحصول على جزمات، كنا ننتعل أحذيتنا البائسة التي جعلنا نتزلق على الثلج. ولم تكن ماريكا بجانبني كي تدفئ حذائي، باستبداله، كل خمس دقائق بحذاءها، كما فعلت ذلك لاحقاً في شوارع برلين الجليدية.

ومن حسن الحظ أن القطار الذي أقل نيكوس لم يختف في ثلوج سيبيريا، كما أخافه بذلك باناييت. فقد أصر نيكوس على المراهنة، ونجح فيها، كما نجح معطف الماتيوشكا الذي كان يقيه. وحده بنطاله الذي يشبه بنطال الوقاد، رفض خدمته، وأجبر مالكة على رتقه كما اتفق، بعقد بحرية كبيرة.

وكانت تلك الرحلة في الحقيقة، أشبه برحلة داخل كاسحة جليد، عبر الاتساع «القطني» في سيبيريا، كما كان لها تأثير استشفاء بياتي، أو إسفنجة ناعمة ومنعشة، مسحت صخب الأشهر الأخيرة من ذاكرة الشاعر.

(١) كانت ماريكا آنذاك تعيش مع صديقتنا السيدة فانيا ليمان، التي اختفت في «بوفنوالد» مع ابنتها جوني.

وعوض التعرّف على الشعب الروسي المكافح من أجل التغلب على مختلف أنواع
القهر والبؤس، لم يتعرف نيكوس، مرة أخرى، إلا على قلبه. ولا شك أنّه تمكن في
امتداد بياض البراري الروسية الفاتنة، من تصور نهاية «عوليسه» ذي الأرواح
السبع، وإغمائه في جبال الجليد العائمة في القطب الشمالي..

أيتها الروح، لا مجال للمواربة هنا، فما عادت تنطلي الحيل.

حوّلي، إذا استطعت، تلك الضرورة المريعة إلى كبرياء

بشجاعة، لا بضعفٍ أو بسالة ساخرة.

لنمتطّ صهوة الفيل الأبيض الذي تقدّم، لنذهب

بلا انذهال، بلا مقاومةٍ، إلى حيث يقودنا.

في طريق المنفى، تماماً كما لو كنّا اصطفيناه. (١)

بيرم، ٤ فبراير ١٩٢٩، ليلاً (٢)

لينوتشكا العزيزة، أنا الآن على سفح جبال الأورال، عند مدخل سيبيريا.. وحيداً في
مقصورة.. والصمت الإلهي الذي يطهر الروح البشرية، ويغذيها، يغرقني في سكينته
ويخصبني، مثل نيل مصر. من بين كل مقصورات سيبيريا، هناك واحدة فقط ليست
دافئة جيداً، وكانت من نصيبي. ولقد عُرض عليّ تغييرها.. لكنني فضلت العذاب على
فقدان عزلتي. في الليل يصير البرد قاتلاً برغم وقاية «الماتوشكا» غير أنّ ذلك لا يهمني
مادام ثمناً لعزلتي.

أطالع وأكتب شعراً، وأتأمل.. ما أروع هذه المعالجة بالصمت! المشاهد رتيبة: ثلوج،
صنوبر، ضيعات صغيرة، زلاجات، جزمات «فالنكي» (٣) و«شوبا» (٤).. وهذه الرتابة
هي نوع من صمت خفي ومريح. غداً ندخل إلى سيبيريا، وسوف أكمل هذه الرسالة التي
تغريني، لأنها توهمني بحضورك يالينوتشكا، فيلمع وجهك الحبيب شاحباً ومزهواً في
زاوية «المقصورة».

(١) الأوديسة، النشيد الثالث والعشرون، الأبيات ٦٨٤ - ٦٨٩ من الترجمة الفرنسية التي أنجزتها جاكلين مؤاتي -
فين.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) جزمات مبطنة بالفرو.

(٤) عباءات من جلد الخروف مبطنة بالفرو.

٧ فبراير كما أعتقد (١)

كراسنويارسك

..بعد كراسنويارسك صارت الأرض وعرة، وجميلة جداً. نهر جينساي في غاية الروعة. مشاهد أخرى جميلة: شروق الشمس وغروبها في سبيريا، شروق وغروب لطيفان، ناعمان، طاهران.. اليوم تكلمت لأول مرة، جلست في المقطورة المخصصة للمطعم مع مبشر فرنسي عاش خمس عشرة سنة في منشوريا. حدثني عن الحياة والروح، وآلام البشر. وهناك كان قلبي يخفق. لست أدري لماذا يبدو لي الناس النأؤون أكثر قرباً وإخاءً.

٨ (فبراير) ليلاً (٢)

ليل وحوذية، اجتاز الأغار، نهر متجمد، بارد، محبط، ثم فندق صغير، دافئ جداً، شاي، أتجول، ظلام، بيوت واطئة، نساء قويات وحمراوات، دور سينما، أضيع طريقي، برد قارس، أخيراً وجدته، والآن مستلقياً على الأريكة المخملية (لا شك أنها تعجّ بالبق) أكتب إليك وأتذكرك بحب. أتلو إلى طلوع النهار حتى أقرأ برقيتك.

ذهبت إلى مكتب البريد. لا شيء. سوف أعود إليه. البرد فظيع هنا. الحليب يُقطع بالسكين. وهو متماسك مثل الجبن. الحياة عذاب. النهر رائع، بعد تجمد أمواجه. المتحف رديء. والمدينة لا قيمة لها.

١٠ فبراير ١٩٢٩ (٣)

..فجأة أعلمت بأن القطار سيغادر، ركضت، والتحقت به منطلقاً، والآن أكتب إليك من المقطورة.. سوف أبذل المستحيل كي أكون معك في بداية أبريل. ينبغي أن نشاهد معاً إحدى العجائب: أشجار الكرز المزهرة قرب برلين، في فيدر، إنها واحد من أجمل الكنوز التي شاهدتها في حياتي، يوم ١٣ أبريل ١٩٢٣، وسوف أستمع برؤيتها مجدداً، معك.

تشيتا، مانشوريا، ١١ فبراير ١٩٢٩ (٤)

..كلمة حول هذه المدينة الصينية الصغيرة. بحيرة بايكال جميلة، لكن بحيرة سيفان أجمل. وخلف البايكال تبرز جبال رائعة.. ذاب الثلج كله تقريباً، وبدأت القطعان ترعى.. «تشيتا»، مدينة صينية لطيفة جداً. صاحب الفندق يوناني، غداً صباحاً أقصد هاباروفسك.

(١) و(٢) و(٣) و(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

١٢ فبراير ١٩٢٩ (١)

فجراً. في انتظار القطار الذاهب إلى هاباروفسك.

مساء البارحة فرحت فرحاً لم أكن أتوقعه. يوجد هنا في تشيتا مائة وخمسون يونانياً، وعندما علموا بقدومي اجتمعوا في أحد البيوت ودعوني إليه. فتحدثت إليهم بحماسة واهتمام لمدة ساعات عديدة. رجال بسطاء، خبازون، اسكافيون، ماسحو أحذية، وهم يجتمعون كل مساء لكسر العزلة. ولديهم، كما قالوا لي، أسئلة كثيرة لا يستطيعون الإجابة عنها. ما الشيوعية؟ لماذا انهزمت اليونان؟

لماذا خلق الانسان؟ ما معنى الشرف؟ هل ستنشب حرب أخرى؟ إلى أين نحن ذاهبون؟

لو كنت المسيح لكان أمثال هؤلاء، أتباعي. حب، حماسة، ثقة. المثقفون عقيمون، لثيمون، وملعونون. كنت مرهقاً، حزيناً. ومع هؤلاء البسطاء، استعدت ثقتي بالإنسان! تشيتا! مدينة صغيرة في منشوريا! لم تكن موجودة حتى البارحة. أوآه، ريزن، ريزن، ريزن! كما قال ريلكة! (٢)

منشوريا، ١٤ فبراير ١٩٢٩ (٣)

نحن الآن نجتاز حدود منشوريا، ونحاذي نهر أمور. مناظر رتيبة، سهول قفراء، مغروسة بأشجار بتولا صغيرة، وأحياناً تلوح قرية، فينزل الجميع، ويركضون نحو «الكيبباتوك» (٤)، ويملاؤن أباريق الشاي بالماء الساخن، ثم يعودون راكضين إلى القطار. بالأمس سجل ميزان الحرارة ٣٦ درجة تحت الصفر، لكن عربات القطار جيدة التدفئة. فبدأ عذاب آخر: الاختناق. النوافذ مسدودة، وتحت العنوان المعروف: «تعقب النجم الأحمر»، سوف يكون الجزء الأول بعنوان «الإنسان البلشفي» والثاني بعنوان «الإنسان ما بعد البلشفي». لدي حالياً خطة متكاملة مع تفاصيل كثيرة.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) يوضح نيكوس قول ريلكة، محوراً أياه، من «ريتن، ريتن، ريتن»: الذهاب على صهوة حصان، إلى «ريزن»: السفر أو الارتحال.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٤) ماء ساخن للشاي، وهو موجود بوفرة في كل محطات الاتحاد السوفياتي.

١٥ فبراير، هاباروفسك (١)

وصلت مبكراً جداً، في الصباح، مدينة جميلة، والبرد لا يزال فظيماً، ومامن غرفة في الفنادق. سوف أنام في الممر.. أجوب الشوارع المزدهمة بالصينيين، والثلوج، وجهي يؤلمني كثيراً. قبل لحظات توقفت فلاحظ لي شخص أن أنفي قد ابيض، أخذت قليلاً من الثلج وفركته مطولاً.

١٦ فبراير (٢)

تأخر القطار أربعاً وعشرين ساعة، سابقي سجيناً هنا يوماً كاملاً. مساء البارحة ذهبت إلى السينما لمشاهدة شريط جنكيز خان. شاهدت المقاطع التي رأيناها معاً في موسكو وقد ازداد إعجابي بها.. كانت العشيّة رائعة. الثلج أزرق، ونهر أمور أزرق وواسع، وفوقه بدأت تتلألاً نجمة خضراء. أحاول التخلص من الحزن، باحثاً عن كل ماهو جميل، لأتشبث به حتى لا أسقط. نمت في الممر. الحمد لله، خُبرتُ شدائد أكبر.

فلاديفوستوك، ١٨ فبراير ١٩٢٩ (٣)

..بحثنا، أنا ورفيق طريق روسي، عن غرفة، حتى منتصف الليل؛ كلها «زانيتا» (٤). نمت مرة أخرى في ممر فندق صيني بائس، غير أنني حصلت اليوم على غرفة جميلة جداً.

ريح، ثلج، برد، المحيط الهادئ متجمد، مغطى بالضباب. والمدينة تغص بالصينيين، وبالمحلات الصينية. كوميسيون (٥) لكنني لم أعثر فيها على شيء، لا شيء، ومع ذلك أؤكد لك (٦) أنه يوجد هنا تبذير كبير في الشاي والزبدة وكل ماهو مطلوب، ولاسيما الخبز! أؤكد لك أيضاً بأنني لو استطعت لبقيت هنا إلى الأبد.. مايزعجني هو عدم وجود أي كتاب في حوزتي، ولا أستطيع الحصول على واحد، حتى في فلاديفوستوك.. حاولت شراء كتاب في النحو الصيني حتى أطلع على سر هذه اللغة، فما وجدت.

إنها المرة الأولى التي أرى فيها مثل هذا العدد الكبير من الصينيين، وهم ينظرون بعيونهم الصغيرة، الحادة المحتالة، الساهرة، مع استعداد للنشل، والصراخ، والقفز،

(١) و (٢) و (٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٤) محجوزة، بالروسية.

(٥) محلات تجارية روسية كبيرة.

(٦) اتفقنا على أن كل جملة تبدأ بـ «مع ذلك، أؤكد لك» تعبر عن معنى معاكس.

مثل القروء. ومن الواضح أنهم قساة، أجلاف، لصوص، أذكفاء، من دون أي غنى داخلي. قبل بضعة أيام، عندما كنت أتأمل في هاباروفسك، غروب الشمس على جليد نهر أمور الشاسع، سمعت شيخاً صينياً مقرقفاً، يغني بصوت خافت وهو يتأمل النهر، أغنية رتيبة، تشبه هذدة طفل، مفعمة بالولع.. وفجأة أدركت أنه أخي البعيد، ووثب قلبي. بقيت أنظر إليه — كان أشبه بقرد مسلول — وعندما استدار ورأني، انحنى أكثر وسكت.

سببيرا ٢٠ فبراير ١٩٢٩ (١)

لينوتشكا الحبيبة،

أجوب ، سببيرا مرة أخرى، في الاتجاه المعاكس. ولقد تقلصت الثلوج في أيام قليلة. وضعتُ أمتعتي في المقصورة لثمانية أيام — حتى كراسنويارسك. أنا الآن وحيد وصامت. أنظر حيناً إلى السهوب اللامتناهية، وأصحح «الأوديسة» حيناً آخر، أو أتأمل وأدخن. في فلاديفوستوك لم أجد أي كتاب. فمكثت مختلياً بنفسي. لا ينبغي أن يملكني الضجر والكآبة. ولتمر الأيام والليالي من دون أن تتعكر الروح. أفكر في أشياء كثيرة، وأترك قراراتي تنضج، أخطط للعمل والسلوك الحياتي، يبدو لي أن هذا الانعزال الثقيل، وهذا الصمت، سيعودان عليّ بنفع كبير.

٢٣ فبراير (٢)

لم أنطق بكلمة واحدة طوال النهار، وظل فمي طاهراً، مقدساً كما لو تناولت قرباناً للتوّ. أعتقد أنه لا يوجد أسمى من الصمت.

مساء ٢٣ فبراير (٣)

انقضى هذا النهار أيضاً. بقيت وحيداً في المقصورة واشتغلت على «الأوديسة» أه لو كنت قادراً على بدء الأربعة والعشرين نشيداً، فوراً! أشعر بفرح عارم يجعل النهار يمرّ مثل ومضة. هل تتذكرين كيف كانت ساعاتنا تمر في موسكو، عندما كنّا ننقح بعض القصائد قبل النوم؟ متى أراك، ومتى ننقح الأبيات الجديدة معاً، فتمر الساعات بيننا

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

خاطفة؟ كل شيء سوف يحصل، كل شيء سوف يسير على مايرام، أملي كبير.

كراسنويارسك، ٢ مارس ١٩٢٩ (١)

مدينة لطيفة لكنها غير مهمة. إنها الرتبة الروسية أينما حللت. لقد أزيلت كل الخصائص المحلية، الجذابة والخالدة، وحلت الرتبة محلها: نوادٍ وتعاونيات الخ. كان يوجد في فلاديفوستوك مسرح صيني رائع. أردت الذهاب إليه. «رومنت!» لقد «رمّموه» أي أنهم حولوه إلى مسرح سوفياتي، على الطريقة الموسكوفية. أخشى أن أجد الأمر ذاته في تركستان.. لقد تعرفنا على روسيا متأخرين جداً.

فولوديا، ٦ مارس (٢)

دخلت إلى روسيا القديمة المقدسة. وفي المحطة أخذتني يهودية بولونية إلى بيتها، بالقوة؛ لديها سرير مخصص للأجانب. وهكذا مضيت الليل مع عائلة يهودية، وتكلمت بالألمانية. واسترحت جيداً. المدينة رائعة، كثيرة الكنائس والقباب على شكل حبة التين، خضراء، زرقاء، ذهبية. وعلى اليمين جدول صغير يخترقها، وكذلك على يسارها، توجد أديرة جميلة جداً، وعالية جداً، وهي تشبه أديرة نوفغورود، لكن تاكدي أن نوفغورود أجمل.

ياروسلاف (٣)

مدينة لطيفة، لكن لا شيء فيها غير مألوف. هناك كنائس كثيرة، ويوجد بالخصوص دير في وسط المدينة، يشبه الكرملين. لقد حوّلت الكنائس إلى مخازن، وحُطمت الأعمدة، وخلعت الأبواب. وعلى الجدران الخارجية تلوح رسوم جدارية جميلة مخفية بالثلوج، ونصف محوّة. إن رؤية الفولغا متجمداً، في منتهى الروعة، وثمة برج أجراس، صغير جداً على هيئة بصلة، ذو لون أزرق رائع.

٩ مارس (٤)

افتقدتك اليوم كثيراً. لقد شاهدت شيئين رائعين؛ كنيسة تغطيها، من القاعدة إلى

(١)، (٢)، (٣) و(٤) رسالة إلى إيليني ساميوس.

القمة، لوحات جدارية في منتهى التالق والوضوح، وتشبهان تلك التي رأيناها في نيجني - نوفغورود، غير أن الألوان خارقة. ذكريني، فيما بعد، كي أحدثك عن هاتين الكنيستين، لأنهما أجمل ما رأيت في روسيا.

روستوف، ١٠ مارس (١)

مدينة صغيرة وجذابة. أمضيت النهار بكامله في زيارة الكنائس - ذات الطراز الروسي الخاص، مع ايقونات جميلة، ورأس ملاك رائع. لكن لم أبلغ حد الاثارة.. كان الطقس رديئاً: ريح وثلج وجليد..

موسكو، ١١ مارس ١٩٢٩ (٢)

..ما أن وصلت إلى موسكو حتى قصدت بيت ايتكا. وهناك وجدت رسالتك.. لقد فرحت بقراءتهما وباطمئناني على صحتك وعدم نسيانك لي.. جبتُ موسكو كلها بحثاً عن فندق.

قالت لي ايتكا، خارجة عن طورها، إن استراتي تحدثت إلى مجلة «لي نوفيل ليتيرير» في مقابلة بائسة، فأثار عدااء الجميع هنا، وباتوا يؤكدون على ضرورة مراقبة أمثاله.

ظل كازنتزاكي، بين ١٣ و ٢٠ مارس، ينتظر في موسكو، الترخيص الضروري من أجل زيارة تركستان. وعندما لم يتمكن من الحصول عليه، قرر التغاضي عنه.

موسكو ٢١ مارس (٣)

حبيبتي، سأسافر غداً إلى تركستان، ولا يهمني إذا أعادوني! لكنني أمل مع ذلك، أن تسير الأمور على مايرام.

..إن ستيفان زويغ ناقد ممتاز. أما القصص التي قرأتها له، فليست كذلك. أسعى إلى قراءة كتاب ج.روث: (٤) Die Flucht ohne Ende. وهناك كتاب آخر أحتاج إليه، هو: «كاليبان يتكلم» للكاتب غيبينو.

أفكر في «الأوديسة» ليلاً ونهاراً. إلهي، ما أكثر نقائصها! ما أفضع أبياتها! ياللعار!

(١)، (٢)، (٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٤) «هروب بلا نهاية».

إنه عمل رهيب، قاس ومنهك. لقد عشت مشكلة البيت الأول، ورأيت كم تعذبت للوصول إلى صياغته النهائية؟ ثم أدركت كم صار ممثلاً، ناضجاً، وموحياً، الآن. ينبغي أن أتعذب بالطريقة نفسها مع الأبيات الـ ٣٣٣٣ التي تشكل «الأوديسة». لهذا السبب أحتاج إلى الهدوء وراحة البال، في جبل - وإلا لن تكتب لي النجاة.

لينوتشكاي، مازلت أفكر أنك سوف تساعدني ونتعذب معاً من أجل تلك الأبيات.

أورنبورغ، ٢٤ مارس ١٩٢٩ (١)

الثلج في كل مكان، وأحياناً تلوح مناظر لطيفة جداً، وزرقاء. الفولغا متجمد. وصار لسمارا التي مررنا بها من قبل مظهر مختلف (٢). لا يصدق المرء أن هذه الأرض المقفرة والثلجية يمكن أن تنتج البطيخ والشمام، والرمان، كما رأيناها خلال السنة الماضية.

دخلنا إلى كازخستان. ثلوج - لكنني شاهدت فارساً يسرع على صهوة حصانه الأسود بين الثلوج، وكأنه في صحراء رملية. فجأة، لمحت في قرية على يميني، قبة مسجد خضراء اللون. وثب قلبي فرحاً - نحن في بلد إسلامي.

رأيت جملاً رائعاً، في السهل الواسع المغطى بالثلوج، يجر طنبراً. بدأت البيوت الخشبية تختفي تحت الثلوج، فتبدو بيضاء رائعة الجمال، في الثلج. إنه الشرق: امرأة في المحطة ترتدي «سرفاراً» (٣) أصفر، وهناك شيخ دخل للتو إلى المقطورة، وقد بدأت أسمع صوته الشجي الموقع يردد أغاني شرقية بصوت خافت، ينبغي أن أدخل إلى بخارى مهما كان الثمن.

٢٥ مارس (٤)

أدركنا الفجر في الصحراء الرملية المبقعة بالثلج. كثبان تتموج، وأشجار ورد قصيرة ومصفوفة تجاهد كي توقف تموج الرمال كما في صحراء استراخان - هل تذكرين؟ - الهواء معتدل، إنه الربيع. بيوت ذات شرفات واطئة، جمال، رجال بقبعات تترية ملونة - لقد بلغنا عالماً آخر، متوغلين في آسيا.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) كنا قد زرنا سمارة في عز الصيف.

(٣) يقصد الشروال التقليدي العريض الذي ترتديه النساء.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

٢٦ مارس ١٩٢٩ (١)

توقفنا في مدينة صغيرة على حدود تركستان. لدى نزولي من القطار، شاهدت رجالاً بشعور مستعارة طريفة، ملتفين في عباءات مبطنة، خضراء وحمراء. وكان هناك أفندي يجلس منثنى الساقين ويرتل القرآن ويشحذ، وقد غطس حتى ركبتيه في البطاطا والبصل والتفاح والنقود.

هذا المساء سنصل إلى طشقند، وهناك يتقرر مصير رحلتي. لقد قررت الوصول مهما كان الثمن.

مساء ٢٦ مارس (٢)

وصلنا إلى طشقند وبدأنا نتقدم نحو سمرقند. لا أحد طلب مني الترخيص. أمل أن يكون الخطر قد انتهى، غداً، حوالي منتصف النهار، سوف أضع قدمي في المدينة الشهيرة، مدينة الإسكندر وتيمور لك. أنا في غاية التأثر لكنني حزين أيضاً، لأنك لست معي.

نزلت هنيهات في أول محطة بعد طشقند، وهي مشهورة بالتفاح. كان الليل مخيماً، غير أنني ميزت تفاحات جميلة. ركضت. وما أن امتلأت يداي حتى انطلق القطار فتشبثت به وركبت لاهثاً. تفاحات رائعة كبيرة. وأتمنى عليك مجدداً - إذا مت - أن تفرحيني، أنا عاشق الثمار، بجلب أكداً منها، حتى أودعها.

سمرقند ٢٧ مارس (٣)

..أنا الآن في مدينة أشبه بمدينة خرافية، مدينة ألف ليلة. فتحت ستارة المقصورة فجراً. وفي الخارج شاهدت السهل وأشجار اللوز المزهرة! شمس مشرقة، حرارة، أشجار مبرعمة، بساتين ومياه، مسلمون يرتدون جلابيب ملونة، وعباءات مختلفة الألوان، حمير مستكينة، جمال. انتصف النهار وأنا أهيئ - السوق رائعة، ذات طابع إسلامي، حشود من البشر في أثواب مبرقشة، ووجوه مغولية، نساء مبرقعات بـ «الفيريتجي»^(٤) السميك، وفي الأنحاء تبدو آثار كثيرة رائعة، ذات ألوان خضراء وزرقاء كما في يريفان. قبرا تيمور لك، وبيبي خانم، يوجدان في وسط المدينة، قرب السوق.. وأحياناً تلوح

(١) و(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٤) الخمار.

مئذنة رائعة أو قبة فيروزية. وفي كل الجهات رجال يرتدون أسماً ملونة، وصخب، ووحل، وأريج يتضوع من أزهار اللوز، وهناك في الوقت نفسه رائحة عفونة لا تطاق، متآنية من المياه الراكدة والبول. الطقس حار جداً وقد خلعتُ سترتي. تعرفت إلى الخوجة مرادوف وهو تاجر اصطحبني إلى منزله: بيت ظليل مبني بالأجر، ومفروش بالسجاد الجميل، وفي جهاته الأربع توجد أربعة أقفاص موشحة بالدنتيلا وملأى بطيور الكناري. هناك صناديق عتيقة، كثيرة العدد، وأباريق عربية. احتجبت النساء في الخدر. فتح التاجر صندوقاً وأراني قطعاً نقدية تعود إلى عصر الإسكندر، الخ.. اشتريت منه سماتاً قديماً مطرزاً من طراز هندي، وتحفة رائعة من قبر بيبي خانم، واشتريت أيضاً قلنسوات مطرزة.

سمرقند، ٢٨ مارس (١)

..تجولت طوال النهار - جوامع، قيصريات (٢)، شوارع - وأكلت البطيخ الأصفر والعنب، وقد اعتمرت قلنسوة صغيرة مطرزة وتمتعت بمشاهد عجيبة لا توصف. إنَّ أجمل مسجد هو مسجد عمر (٣) الذي مازال سليماً، وهنا توجد مساجد كبيرة متعددة لكنها منهارة، فهنا نصف قبة ذات لون أخضر رائع، وهناك أعمدة محطمة، وتشاهد أحياناً مآذن مائلة كما في يريفان.

لكن المدينة، بطابعها الآسيوي، أجمل بكثير من القدس. هنا قلب الشرق. ويرى المرء أشياء غريبة جداً مثل تلك العباءات المبطنة الملونة، والجلابيات، والعمامات الخضراء، البيضاء، والصفراء، وأحذية البابوج الحمراء والملتوية من الأمام مثل جندول صغير، وهي تشبه تلك التي تزخر بها المنمنمات الفارسية.. كم تمنيت أن تكوني معي!

بخاري (٤)

عندما وصلت - توجد المحطة بعيدة عن المدينة مسافة ١٣ كيلومتراً، حتى لا تفقد النساء صوابهن (٥) - كان الليل مخيماً. خفت الحرارة وهبت نسائم رقيقة. وجدتني مباشرة وسط بخاري: جمهور كثيف من المسلمين المتنزهين بعد الغروب. تصوريهم

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) أسواق.

(٣) في القدس.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٥) أي لحجب النساء بعيداً عن الأنظار.

مكسوين مثل رؤساء الأساقفة ورؤساء الأديرة وعلى رؤوسهم تيجان أسقفية عالية.

وهناك الكثير من آلات «الزُورنا»^(١) وأصوات نادلي المقاهي، وباعة الحمص المملح، والشحاذين، و«السنثوري» يتوسطها المغنون: شابٌ جميل جداً، وثلاثة شيوخ لهم أصوات حادة، والروائح المتمازجة: بهارات وياسمين وبول.. والمدينة القديمة مسقوفة بالخشب، حتى ليخيل للمرء أنه يتجول في بيت كبير. وثمة فندق وحيد، كرية. تجولت حتى منتصف الليل واكتشفت الجوامع الكبيرة اللامعة، المقفرة.. ولم أنم جيداً.

ومنذ الفجر عدت إلى التجوال.. وباختصار يبدو لي أن بخارى شرقية وصحراوية أكثر من سمرقند. والبيوت منخفضة أكثر، وأمامها مصاطب، وكلها مبنية بالآجر، أما الجدران فلا تخترقها سوى نافذة واحدة أشبه بكوة حصن. وعندما تهب الرياح حارة مثل اليوم تتفتت الجدران بغبار لا يطاق. والناس هنا ليسوا ملونين مثلهم في سمرقند. كل شيء رمادي كالغبار. وفجأة تبرز من تلك المساحة الطينية، عجائب فيروزية: قباب جوامع رائعة مع حلقات ناتئة مثل ثدي جميل. هنا تدركين كيف ضحى الأفراد من أجل إعلاء الفكرة، في أبرز عصور الحضارة. وهذه الديار الخاصة المجبولة من طين جاف وقش، ضحت بنفسها من أجل إعلاء بيوت الله بينها. ما أجمل مسجد بخارى! وفي حين يبدو مسجد يريفان (وحتى مسجد عمر) قصيرين نسبياً، نجد المساجد هنا، فارعة بقبة مستندة إلى حزام دقيق، يزيد لها رونقاً ورشاقة.

أما سوق البازار فلا قيمة لها، بعد أن أضفى عليها الطابع السوفياتي، بحثت النهار كله عن خاتمك^(٢) سدى. والصاغة الآن إما من الروس أو من القوقازيين، وتخيلي التفاهات التي يبيعونها.

والنتيجة: كانت سمرقند بالنسبة لي، اكتشافاً لشرق ساخن، وملون. وتتمتع بخارى ببعض الملامح الشرقية التقليدية: الخطوط، الألوان، الاحتشام. إنها فاتنة، ثلاثاً بالنسبة لروح تحب الصحراء. ومن سوء الحظ أن كلتيهما تسيران نحو الانحطاط: إذ بدأتا تتحضران، أي تفقدان روعيهما، وتقلدان موسكو التي تقلد أوروبا، التي تقلد أميركا.

(١) آلة نفخ موسيقية.

(٢) كنت أتمنى الحصول على خاتم فيروز.

سازور مَرُو، تلك المدينة الكبيرة التي ابتلعتهما الصحراء منذ قرن، إنها بومباي الصحراء، لا أريد الإطالة في بخاري لأنني أعرف أن التفاعل الذي أحسست به سوف يتلاشى.

٣١ مارس (١)

زرت مَرُو ولم أتوقف فيها سوى ساعة واحدة. ذلك أن المدينة الشرقية عندما تتلف لا تحتفظ أثارها بقيمة تذكر. فالبيوت مجرد جدران من أجر تمتد في الصحراء، ولا تكاد تتميز عن الأرض. وحده الجامع يحافظ على بقية من جمال. أما في مَرُو فلا وجود لجامع.. قصدت أحمد أباد كي ألتحق بالقطار الذي سيقطني إلى طشقند.. صحراء مريضة، هي «كاراكوم» حرارة لا تطاق، وقد شعرت بالاختناق داخل القطار. فالغبار ينفذ إليه أيضاً، فاستنشق التراب. وأتخيل الآن كيف يكون الصيف عندما تبلغ الحرارة ٨٠ درجة، والسكان المحليون هنا، مثل البدائيين، يلبسون ثياباً ثقيلة، مع جوارب وردية سميكة، وقلنسوات كبيرة من جلود الخرفان، أكبر من قلنسوات القوقازيين بثلاثة أضعاف. على يساري تلمع جبال فارس على بعد مسافة قصيرة، لو مشيت بضع ساعات لوصلت إليها. ليتني أستطيع تسلق الجبل ورؤية السهل تحت سفحه! غيوم، حرارة عالية، بضع أشجار، والمحطات ملأى بالأزهار..

بحيرة أرال، ٤ أبريل ١٩٢٩

حاصرتني مئات الأفكار خلال الساعات الطويلة التي أمضيتها في القطار: فكرت في الوقت الضائع الذي لم أنجز فيه ما كان يمكن إنجازه. ولو مت غداً، لما خسرت هذه الأرض شيئاً. لقد بددت قوتي في طرق شتى، عوض تركيزها في نقطة واحدة، بالعناد والحماسة اللذين أقدر عليهما. لقد أن أوان التركيز. إذ هذا تعطشي للسفر، بعد الإفراط فيه، منذ عام. وعلي أن أستفيد من هذا التشبع وأفكر ملياً. ولا بد من البقاء بعيداً عن اليونان مهما كلف الثمن. ينبغي أن أؤلف الكتابين (عن الاتحاد السوفياتي) وأن يُنشر. وبعد ذلك «الأوديسة».. ومع ذلك، فحتى هذه الأخيرة لم تعد تشدني كثيراً، أحس بمرارة لا توصف. ما أريده شيء آخر. ما أريده أستطيع بلوغه إذا ركزت جهودي على هذا الهدف. إذًا، علي الافتراض أن كل الأعوام التي مرت، كانت تحضيراً واستعداداً؛ فلينته الأمر أخيراً. مازالت أمامي أربعون سنة أعيشها وهذا كافٍ. لكن يتوجب علي ألا أضيع

(١) رسالة إلى إيليني ساميوس.

مجدداً وراء ماهو زائل وخارج عن هدي. «ليس البشر هم الذين يهمونني بل الشعلة التي تحركهم» هذه الجملة التي فرضت نفسها عليّ مؤخراً، تُسلط الضوء على روحي وتساعدني كثيراً على الحسم في اختيار هدي. كل ماهو وحشي ولا إنساني في ذاتي، وكذلك القوة الإلهية التي تقودني - Damanisches - يتوضحان من خلال تلك الجملة. تماماً مثل اقترابي من الناس والأفكار، أو ابتعادي عنهم. وهكذا أُمَيِّز، عبر التفاصيل الكثيرة، في حياتي وفي الكون، ذلك الخط الأحمر الذي أتعبه ويتعقبني.

٥ أبريل (١)

مساء البارحة حادّ القطار عن سِكَته قليلاً. ولقد انزاحت المقطورة التي أوجد فيها عن السكّة تماماً، وانعزلت عن بقية العربات، وتعالّت ولولات النساء وبكاؤهن، الخ.. لكن لم يُجرح أحد.. وهكذا كادت كأبتي تنتهي إلى الأبد.

مازالت عودتي تتواصل مع بعض الصعوبات.. أتحمل كل شيء ماعدا الرائحة.. ومنذ أن حددت طبيعتي وفق الجملة البسيطة التي كتبتها لك، لم أعد أدري لماذا صرت لا أستطيع ربط أية صلة خارجية بما نسميه الشعب والشعبية، والمساواة. ليس هناك أي حافز شيوعي يقود جهودي كي أحس بالراحة؟ وإذا كنت أتلاءم فإن ذلك يعود إلى قدرتي على فعل ما أريد بجسدي، وليس إلى تمتعي بوجودي مع الشعب. وهكذا يأتي حلمٌ أحياناً (وكان ذلك يحدث بكثرة خلال فترة الشباب) أو جملة (كما هو الشأن حالياً) لشرح روحي دفعة واحدة، ورسم خط، مستقيم، من دون تعرجات، ومن دون سفسطة، أخيراً، ففسير عليه - أنا، وفكري، وعملي.

هذا الشعور لا ينبغي خلطه بما ندعوه «الأرستقراطية» الخ.. فأنا لا أحس باتصال عميق بالشعب فحسب، بل باتحاد معه أيضاً. وهذه الوحدة في منتهى العمق إلى درجة عدم توقفها على الاتصالات الخارجية. بل هي نقيضها. تماماً مثل الماسة التي تعتبر تبلوراً ألفياً لروح الفحم من دون أن تكون ذات صلة به. بل إنّ مظهرها هو النقيض تماماً. ومع ذلك فإن الماسة هي جوهر - عرق، أو دمة الفحم كلّها.

لينوتشكاي، هذه الرسالة تأخذ نبرة اعتراف ومناجاة، لأنني أكتب إليك وأنا أمرٌ بازمة.

أدركت أن الثلوج، منذ أورنبورغ، لاحت من جديد، لا متناهية والأنهار متجمدة مع

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

برد شديد، وفي المحطات هناك أحوال مرعبة.

١٩٢٩. ما أن وصل نيكوس إلى برلين ونسي الكرز المزهر في فيردر، حتى تفرغ إلى همٍّ واحد: الوفاء بديونه إزاء روسيا المصلوبة، كي يتمكن من العودة في أقرب وقت إلى دحرجة حجر سيزيف.

لم يحاضر سوى مرة واحدة في برلين أمام جمهور منتخب، وتحدث بلا تحفظ كعادته. لكن هذا القادر على جذب انتباه أية مجموعة صغيرة من المستمعين، لم يكن موهوباً منبرياً.. وما أن شرع يتكلم حتى ضاقت حنجرتة وخفت صوته، والأسوأ من كل ذلك أنه لم يستطع الارتجال. وهكذا أدرك حدوده ورفض إعادة الكرة. وعبثاً حاول بعض الأصدقاء، مثل هيلين ستوكر، وأرثر هوليتشر، وايفور كيش، استبقائه في العاصمة الألمانية. ذلك أن صخب المدن الكبرى ينهكه. ولا يغذي قريحته الإبداعية سوى الاتصال بالعناصر الأولى — التراب والماء والنار والبحر.

وهكذا ركبنا القطار، ذات ليلة، باتجاه مكان ما في تشيكوسلوفاكيا. فهل أُصَدِّق عندما أؤكد أننا لم نكن نعرف أين سننزل؟

ظل كازنتزاكي مستنداً إلى زاوية مقعده، يدخل الغليون في ضوء مغبش داخل مقصورة الدرجة الثانية، غير مبال ببقايا روائح الثوم والجعة غير المهضومة في أنفاس الآخرين. وفجأة انحنى، هو المتحفظ، نحو راكب مجاور، وقدم له كيس تبغه، وبدأ الحوار. وإذا القدر يتجسد في فتى تشيكي أفادنا كدليل:

— لا تذهب إلى براغ. انزل معي في يواكيمستهل. ولا تخش مقبرتنا الواسعة.. لأن الراديوم^(١) المشع لا يرحم.. غير أنك تستطيع بعد مسيرة ثلاث ساعات، أن تبلغ مرتفعات غوتسغاب التي يبلغ علوها ١٢٠٠ متر. وكل من يراها يتمنى ألا يموت.

(١) تعرف يواكيمستهل بغزارة مصادرها من الراديوم المشع.

«غوتسغاب.. غوتسغاب.. هبة من السماء، همس نيكوس وهو يلكرني
بمرفقه. حبيبتي لينوتشكا، هل مازلت تؤمنين بالمعجزات؟».

تأملنا ملياً مقبرة يواكيمستهل المؤثرة: كان الدرب وعراً، ووصلنا إلى طرف
قرية غوتسغاب مع قدوم الليل، منهكين من التعب، فلجأنا إلى أول فندق. وفي
صباح الغد جرنى نيكوس عبر درب طويل ضيق، من دون استكشاف القرية:

– أعتقد، يالينوتشكا، أن المعجزة تنتظرنا قابضة مثل حيوان صغير. وعلينا ألا
نعود خائبين.

كنت أثق به دائماً عندما يتعلق الأمر بالبحث عن مأوى جديد. وفي تلك المرة
أيضاً، سلك أقصر درب كي يكتشف المكان الذي سيتحول لدينا رمزاً للسعادة.
فرجة غابية مضاءة بنور الشمس ومزينة بالصنوبر والأرز. وهنا، وهناك، تزهو
مثل زهور اللؤلؤ في الحقول، بيوت فاخرة، مطلية بالكلس. استمع إلينا السيد
القصير، كراوس، وزوجته أن..ن..نا، باحترام:

– تفضل من هنا، سيدي المدير! تفضلي سيدتي المديرة! تكرما بزيارة بيتنا..
لن ينقصكما شيء.. سوف نعتني بكما!

«مدير» و«مديرة» الريح، هكذا تحصناً في معسكرنا الجديد. وبدأنا حياة
جديدة على إيقاع شمس.

كانت لنا غرفتان في الطابق الأول مزودتان بعدة نوافذ، ولحافات سمكة
مبطنة بالريش، نكافح كل ليلة كي نغطي بها الأقدام والأكتاف في وقت واحد.
وكان كل شيء نظيفاً. كُلُّ ذلك، إلى جانب الخدمة، بسعر زهيد جداً. وفي الطابق
الأرضي يوجد الإسطبل الذي ينظف مرتين في النهار بالماء الساخن، وعين ماء
متدفقة، والمطبخ الذي لا تنطفئ ناره.. ولم تكن هناك الروائح المعهودة في
المزارع بل دفء أبقار تتنفس وتشخر معنا. وكان ثمة ديك يشبه كل الديكة في
العالم، وبعض الدجاجات البيضاء، ومعزاة شقراء. وتحت أشجار الزان المحيطة
بنا تتجول الطباء، بينما تقفز أسماك «الترويت» في مياه جدول يجتاز مرُجنا. ولا
يتبادل سكان الغابة زيارات كثيرة. وحده الخيط اللامرئي لساعي البريد يربط

بين تلك المزارع كل صباح.

في ذلك الهدوء المطلق، وضع نيكوس كتابه عن الاتحاد السوفياتي. وكان قد خطط في قطار سيبيريا المتجه به نحو فلاديفوستوك، في تأليف عمل من مجلدين، يضم من ثمانمائة إلى ألف صفحة، تحت عنوان منفّر: Homo bolchevicus الإنسان البلشفي، و Homo métabolchevicus الإنسان مابعد البلشفي. فلم يخرج من ريشته إلا كتاب صغير، «غني ورؤيوي» حسب تعبير الناشر غراسيه، ويتوسط الرواية وأدب الاعتراف، مع عنوان مازال يثير الاستغراب حتى الآن: Toda - Raba. لماذا تودا - رابا التي تعني شكراً بالعبرية؟ لا شيء إلا لرنين الكلمة الجميل في الأذن.

وكتب كازنتزاكي على الصفحة الأولى من مخطوطته:

هذا الاعتراف على شكل رواية ليس فيه سوى بطل واحد. إن آزاد وجيرانوس وسو-كي وراحيل وأناندا والرجل ذا الفكين الكبيرين، ليسوا سوى وجوه مختلفة لمضير واحد عايش الواقع وعكسه - وهو واقع معقد، غامض، ومتعدد الوجوه - في الاتحاد السوفياتي. وحده «الزنجي» يوجد خارج البطل وفوقه.

والزنجي المقصود هو تودا - رابا. أما خالقه فهو نيكوس كازنتزاكي الذي توقع منذ سنة ١٩٢٩ نهوض أفريقيا استجابة لنداء لينين، تماماً مثلما توقع سنة ١٩٢٧ ذلك الدور الذي سوف تلعبه مصر في العالم الإسلامي، وإنهيار الإمبراطورية البريطانية والحرب الأيديولوجية التي ستندلع بين الشيوعيين القدامى «الواصلين» والشيوعيين الشباب في بداية معركتهم. ويصف نيكوس كازنتزاكي انطباعاته واستخلاصاته حول ما تمكن من رؤيته في الاتحاد السوفياتي إلى ميشال أناستاسيو^(١).

.. صار الثوريون أناساً مستقرين في الرفاهية، ومتحولين بسرعة إلى محافظين، وإلى رجعيين تدريجياً.

(١) اعتاد م. أناستاسيو قراءة رسائل كازنتزاكي المطولة في حلقة أصدقاء مشتركين.

لا أقصد القلب من وراء هذا الخط البياني الضروري، والمفيد أحياناً، لتطور الإنسان. فمن طبيعة الأرواح أنها لا تستطيع الاستقرار أبدياً في حالة توتر، وتسعى إلى الراحة، وبحبوحة العيش، مثل النبات حتى يدركها النسيان. والروح لا تتميز كثيراً عن المادة.. وباختصار، أكرر: إن أغنى وأخصب مرحلة من مراحل تطور الإنسان ليست مرحلة تحقيق مثله الأعلى بل مرحلة الهجوم.. وفي الاتحاد السوفياتي تتطور الروح نحو المادة بسرعة مفرطة. ذلك أن الحركة العمالية الروسية ذات عمق كوني، وأي سقوط مبكر يعتبر في منتهى الخطورة بالنسبة إلى الرفاق الذين مازالوا في مرحلة العنف والتهور التي تسبق الهجوم.

ولعله من المفيد أن نعود إلى دفاتر نيكوس كازنتزاكي ورسائله التي تغطي الأعوام ١٩٢٢ - ١٩٢٩ كي ندرك مدى معاناته من أجل لجم اندفاعات قلب متحمس دائماً.

كان العالم القديم ينهار في الاتحاد السوفياتي فاسحاً المجال أمام ولادة عالم جديد. ويتمثل واجبنا، حسب كازنتزاكي، في مساعدة العالم الجديد على التشكل والازدهار.

ولقد جاهد، تحت تأثير غالاتي ثم «يهودياته» فيما بعد، من أجل تقليص روحه التأملية وتوسيع مجال الفعل والممارسة. وكان الشاعر فيه يتمنى التحول إلى رجل ممارسة ذات يوم. وبوضوح الرؤية الذي يميزه، أدرك منذ رحلته الأولى إلى الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٢٥، أكبر عائق أمامه:

أن تستمتع الجماهير الشعبية - من عمال وفلاحين ونساء - وتاكل أفضل، وتستنير، هو بالتأكيد هدف جدير بالإنسان، أما أنا فاعتبر كل ذلك أوهاماً صغيرة، ملموسة وعملية، فُتاتاً بالنسبة لقلبي الذي ما أن ياكل حتى يزداد جوعاً. (٢٠ - ١١ - ١٩٢٥).

ما كتبتة في زاوية صغيرة من الأرض، يبدو لي معيباً وريفيّاً. قليلون هم الأشخاص الذين استمعوا إلى صرختي - ومعظمهم خبثاء بلا إيمان. وأنا أنظر إلى هؤلاء النساء

وهؤلاء الموجيك مدركاً أن صوتي لن يصلهم أبداً، لأن الوسائل التي أستخدمها في منتهى الضعف (٢٥ - ١٠ - ١٩٢٧).

لم يُرضه المضمون المادي البحت للشيوعية. وعبثاً حاول البحث عن تصور أوسع لدى الموفدين الكثيرين الذين زاروا موسكو بمناسبة الذكرى العاشرة لثورة أكتوبر:

تملكتني رغبة جامحة في رؤية أشخاص (...) أنقضّ عليهم بوحشية خفية، وبربرية، كي أُمسهم وأرى ما الذي يجلبونه. حتى الآن لم أكتشف، عند أي شخص آخر، توتراً روحياً وقلقاً نفسياً، في مستوى ما أعيشه. لكنهم أنجزوا أعمالاً ومارسوا تأثيراً، لا أدعيهما ٣ - ١١ - ١٩٢٧ (١)

ثم يكتشف المنحنى البياني الذي مازال غير واضح، لكنه محتوم مع الأسف: تغير إيقاع الحياة في الاتحاد السوفياتي. ثمة بعض التبرجز.. ومن حسن الحظ أن الصراع الداخلي الكبير بين تروتسكي وستالين يذكي جذوة الروح الروسية.. (٢٤ - ١١ - ١٩٢٧).

وفي حين يندفع الثوري فيه نحو الحياة النضالية، يتألم الشاعر من نقص الممارسة ويتنهد:

قلبي لا يحس بأي فرح. ما أتمناه الآن، قبل كل شيء، هو التمكن من الاعتزال والتفرغ للعمل.. (١٧ - ٤ - ١٩٢٨).

..أه لو أتمكن من إيجاد الهدوء في مكان ما، وأبدأ بالإبحار في «الأوديسة»! (٩ - ٥ - ١٩٢٨).

هذه الأمنية الأخيرة سوف تتحقق. وفي غوتسغاب تمكن كازنتزاكي من إنهاء عمله حول الاتحاد السوفياتي، بفضل الهدوء والتأمل. وما أن أرسل بـ «تودا - رابا» إلى الناشر «ريدري» حتى انكب على كتابة رواية أخرى، بالفرنسية «القبطان ايليا» وبطلها هو والده. ثم هياً حاله، بقليل من الاضطراب، كي ينغمس في

(١) سبق ورود هذه الفقرات في موضع آخر من الكتاب، والمؤلفة توردتها بتصرف، الآن «المترجم».

مغامرته الكبرى «الأوديسة».

أما أنا فقد غادرت غوتسغاب للاستشفاء في بلومبييرد وظل نيكوس بمفرده يمر أحياناً بأزمات كآبة قصيرة. غير أن غوتسغاب سوف تتألق في ذكرياته اللاحقة إلى حد التساؤل عما إذا وجدت في الواقع أم في الحلم فقط..

ما فعله «استراتي» من رفض كامل للشيوعية الروسية، ودور فكتور سيرج في الدفع بذلك التمرد، لم يترك نيكوس كازنتزاكي لا مبالياً. وإذا كان استراتي لا يمتلك سوى «دماغ عصفور» فإن فكتور سيرج بالمقابل كان ثورياً محنكاً. وكنا قد سكنا في بيته بلينينغراد، قبل نفيه إلى سيبيريا. لقد ترجم تروتسكي، وعرف لينين ورفاقه الأوائل، ويمكن الوثوق به. لكنه كان حذراً من الشاعر كازنتزاكي الذي يضيع وقته في محاورات ماورائية مع الشاعر الروسي نيقولا كليووف.. وبعد أن صارت كتابات باناييت استراتي تحرّض على كره الاتحاد السوفياتي، ازداد أسف كازنتزاكي لأنه لم يكلف نفسه عناء ربط علاقة أفضل مع فكتور سيرج. وهنا تظهر نبرة المرارة، النادرة في مراسلاته، كما في هذه الرسالة:

غوتسغاب، ١٠ أغسطس ١٩٢٩

عزيزي سيرج،

تمتزج المحبة التي أكنّها لك بالم حاد جداً. لم نتوصل إلى الاتفاق دائماً، وأسباب سوء التفاهم كثيرة توافق في بعض المسائل. هناك سبب يمكن الاعتراف به وهو: لستُ ماركسياً وبالتالي، فأنا في نظرك غير قادر على إدراك الواقع المعاصر. وإذا لم أكن ماركسياً فإن ذلك يعود إلى عمق حسي الميتافيزيقي. إذ أنني لا أرضى بالتعميمات والتبسيطات في مجالات النفي والإثبات؛ ويعود ذلك أيضاً إلى كوني لست رجل ممارسة. ولو كنت كذلك لكانت الماركسية ملائمة لي، وأصبحت قاعدة فعل صارم وخصب، وحيدة.

لم تعتبرني سوى متصوف! أو Büchevwurm! لقد كتبت اعترافاً حول الاتحاد السوفياتي، في شكل رواية، شخصيتها المحورية زنجي يُدعى تودا - رابا. أمل أن تقرأ هذا الكتاب لتكتشف في ذلك الزنجي، وجهي الحقيقي، وكياني العميق، ونهمي الإسكندري.

أما الأقنعة الأخرى - أي الشخصيات السبع التي تتحرك في هذا الكتاب، فليست

سوى أقنعة مناسبة أضعها كي أتمكن من التحرك داخل المجتمع، والاتصال مع الناس، مع بعض التهذيب والمنطق والهدوء.

لم ترَ مني سوى الأقنعة الأكثر سطحية، ولهذا، عندما أفكر فيك يا عزيزي سيرج، أشعر بمرارة كبيرة لأنني أدرك قيمتك، وأتمنى أن أحبك مثل رفيق في السلاح، وأعرف أن ذلك بات مستحيلاً^(١).

«ن»

وبخصوص باناييت:

الخميس^(٢)

قرأت منذ قليل مقالة باناييت. فضيحة!.. إن صياغتها جميلة، حية، ملفتة، وغنية في جانب التحقيق. غير أن كل ما يقوله عن روسيا، وطريقته السطحية في التعميم، تجعل تلك المقالة استفزازية ومتجهمه. لا شك أن ما يقوله باناييت صحيح، غير أنه وجه واحد من الوجوه العديدة للحقيقة. إن أي شخص يعمم الخير أو الشر، يكون إما سطحيًا، أو لئيماً. أما باناييت فهو بكل بساطة، مسطح، مثير للعاطفة ومشبوه في أن واحد. وهذه المقالة سوف تسيء إلى روسيا. وباختصار، أقول إنها استفزتني، لأن باناييت ركز على حالة خاصة، ونسي كل ما رآه جيداً وإيجابياً في روسيا.

كتاب ويتمان^(٣) مفرح! إنه عمل عظيم، وسوف نقرأه معاً عدة مرات. كتاب يعجّ بالريح، والبحر، والضوء، والفرح.

كان نيكوس يبالغ في نجاعة توسط قديسه «مار جرجس الأنثى» كما كان يدعوني مازحاً. إذ أن هيلين ستوكر لم تتوصل إلى نتيجة تقريباً، في برلين. لقد أعجب الناشران الألمانيان غريهتلين ودري ماسكن بكتاب «تودا - رابا» لكنهما لم يتجرأ على نشره. وفي المقابل نشرت بعض المقالات حول الاتحاد السوفياتي، في صحف ألمانية، كانت من حسن الحظ، تدفع مكافآت جيدة، الأمر الذي يسر لنا تمديد إقامتنا في الجبل. وفي فرنسا ظل «روبيرفرانس» الذي راهنا عليه، يماطل

(١) رسالة كتبها نيكوس كازنتزاكي بالفرنسية مباشرة.

(٢) بطاقة إلى ايليني ساميوس.

(٣) «كتاب العشب لويتمان».

مطولاً.

كان نيكوس يحترم كل نقد موضوعي لكنه لا يستسيغ السخرية الفرنسية كثيراً. وكنت مجبرة على إعلامه بالتطورات ولا أوفر عليه مرارة بعض النتائج.

وكمثال على ذلك أذكر طريقة استقبالي من السيد أوبييه « مدير منشورات «مونتاني»، إذ قدمتُ إليه، بطريقتي الخرقاء دائماً، رسالة مفرطة في المدح من ناشر أجنبي، يتحدث فيها عن عبقرية كازنتزاكي، برفقة المخطوطة..

وبعد أسبوعٍ عدت في الموعد، وطرقت الباب.

- ها ها ها! عبقري! دعيني أضحك! مَنْ هو هذا السيد الذي يكتب بضمير المتكلم؟ من يظن نفسه؟ طيب، خبريه على لساني بأنه لن يُقرأ أبداً في فرنسا!

غوتسغاب ١ سبتمبر ١٩٢٩ (١)

صديقتي العزيزة جداً،

أه ما أجمل الحديث معك! مكثت وحيداً، طيلة شهر، ولم أنبس بكلمة واحدة تقريباً. أحس بأنني سعيد وحزين وحرّ مثل أرنب برّي يرقص تحت ضوء القمر. أشعر أن الحياة فظيعة وبسيطة وأن البشر وحدهم أدنياء ومعقدون. بإمكانني العيش في هذا الجبل المقفر سنواتٍ وأجيالاً. يوجد كل ما يلزمني: الهواء، الريح، الغابات، بعض الأبقار، ورأس ممتلئ بالمناظر الطبيعية، والأحلام والأزهار، والوحوش. وكذلك *nuova et antica pazzia* (الجنون الجديد والقديم).

أحياناً تغزو ظهري، في هذه السعادة، قشعريرة صغيرة، وهذا الحب الجامح للعزلة يملأني برعب مقدس. أذكر.. كنت ذات مرة على قمة جبل آخر في تايغيت، وكنت وحيداً مع بعض أشجار الصنوبر العالية في الباحة؛ وفي كل مساء، عندما أضع المزلاج الحديدي وأوصد الباب، وأسمع أزيز المزلاج، أقشعر من السعادة؛ ولقد وعدت نفسي، عندما أموت، بأن أخذ معي ذلك المزلاج وأحاول إدخاله، هو الآخر إلى الجنة..

حبّ جامح للعزلة.. عزلة قاسية.. مقدسة.. لا ترحم.. هذه الأناشيد لا تني

(١) رسالة إلى إدوين ج. كتبها نيكوس كازنتزاكي بالفرنسية مباشرة.

تتردد في مراسلات نيكوس كازنتزاكي. وكذلك: لا أنام جيداً.. تنتابني الكوابيس..
لست أدري لماذا تخنقني كآبة شنيعة.

بعد نزول الوحي، وتشكُّل العمل في صورته الأولية على الورق الأبيض، تأتي
مرحلة الحمى والإنهاك.. ولا يمكن أن تتجدد قواه آنذاك إلا بحضور كائن
محبوب، معجزة اللوزتين في قشرة واحدة التي يُنشدها راوية الملاحم القديمة في
كريت، مدهوشاً:

ما هذه المعجزة إذن
الغريب مع الغريبة
يصيران أهلاً
وحبيباً لحبيبة!

غوتسغاب ٢٩ سبتمبر ١٩٢٩ (١)

أتحاشى مراسلتك ولا أعلم السبب. إذ، ما أن أبدأ بالكتابة حتى تتملكني مزارة لا
تطاق، شيء لا يفسر، لكنه في منتهى العمق بحيث لا أقدر على مقاومته. وهكذا فإن من
شأنى أن أجعلك تتألقين بلا داع.

تمضي حياتي هنا بهدوء، من دون تغير. أستيقظ باكراً، أتمدد على سريرك، أصحح
«الأوديسة» يؤتى لي بالحليب، أتناول طعامي.. الطقس - فليذهب إلى الشيطان! - رائع،
وأنا مضطر للخروج، فإذهب بعيداً وراء الغابة، وأبقى هناك أربع، خمس ساعات، ثم
أعود.. أكل.. ولا أشرب الشاي في الخامسة، لأنه كما تعرفين، مبرر لي كي أستعيد كائنات
أحبه، لا أكثر. وكثيراً ما أذهب إلى فيزانثال (٢) حتى أرهق جسدي وأتمكن ربما، من
النوم.. أعود إلى البيت فأنام بشكل مزعج، برغم النوافذ المفتوحة وهبوب ريح إلهيه.
تنتابني الكوابيس، أنتظر بفارغ صبر، كما أخشى، لحظة انبلاج الفجر لأبدأ العمل.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) أوبسرفيزنثال التي يستغرق الذهاب إليها والعودة منها خمس ساعات.

غوتسغاب، الاثنين صباحاً^(١)

استلمت كتباً هذا الصباح.. منذ الفجر كنت أنسخ وأصحح «القبطان ايليا» وفجأة وجدتني أمام كومة من الكتب. تركت المخطوطة ولم أعرف من أين أبدأ. تسمعين بحمار بوريدان. ذلك ما حدث لي. تصفحت تلك الكتب بتهيج، وفي الأخير اخترت «الحيوانات التي ندعوها وحشية».

أريد أن تكون صورة كريت متكاملة لذلك ينبغي ترك «القبطان ايليا» يستريح لأسابيع عديدة.. راسلت «الناشر» روبير فرانس، وشكرته وطلبت منه أن يحسن إشهار كتاب «تودا - رابا» حتى لا يضيع بين أكداس الكتب المنشورة حول الاتحاد السوفياتي.

الاثنين مساءً^(٢)

هل ستسافر ماري إلى الكونغو؟ كيف نستطيع قضاء شهر هناك، نحن أيضاً؟ شهر واحد يكفي كي أمتلك الرؤية التي أحتاجها لـ «الأوديسة». هل ستتخلي ماري عن منزلها الصغير؟ خسارة، لسنا متأكدين من إمكانية العيش في باريس، وإلا كنا احتفظنا به. هناك مئات الأشياء تشغلنا حالياً: كتبك وكتبي، الناشر، خطط باباندريو، الكونغو، الهند، كالموك القادم، رحلة قصيرة إلى إيطاليا من أجلك، «الأوديسة»، «القبطان ايليا»، «فياراموسكا»^(٣).. بدأت الحياة تكتسب مذاقاً وأنا سعيد لشعوري أنك دائماً بقربي.

١٩٣٠.. الصياغة الثانية لـ «الأوديسة»، وقد بدأها كازنتزاكي منذ أول أكتوبر ١٩٢٩، تشرف على النهاية. وكذلك ما وفرناه من نقود. وبدأت محاولتنا من دون أمل كبير في النجاح وكان بريفيلاكي يبعث بالصحف والمجلات والكتب إلى نيكوس، بطريقة منتظمة، فيقرأها ويرد بنبرة مازحة حيناً، وفي شكل اعتراف حيناً آخر.

كان يدرك أنه وصديقه الشاب يمتلكان المؤهلات لتمثيل اليونان في باريس، لدى معهد التعاون الثقافي. لكنه يعرف أيضاً أن صديقه باباندريو ليس متنفذاً ولن يحط بثقله كي يقنع وزير المالية «ماريس» وهو كريتني أيضاً وصديق

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) رواية كنت أكتبها آنذاك، وكانت تضحكنا بطريقة جنونية.

كازنتزاكي» بالتدخل لصالحه. ويعرف فوق ذلك أن فينيزيلوس لا يحبه. إذا ما العمل؟ كيف يجد عملاً يجعله مفيداً لبلاده ويمكنه من متابعة أعماله؟

في بداية هذه السنة كان بريفيلاكي يستعد لتأليف كتاب عن الغريكو. فتبناه صديقه الأكبر الذي يعيش في أحد الجبال ويسكن بيتاً يخيم عليه «سكون فوق - أرضي»، وبدأ يزوده بالنصائح والتشجيع، ومع ذلك لم يتخل كازنتزاكي عن مشروعه القديم المتعلق بتأليف كتاب حول الرسام الكبير ذي الأصل الكريتي.

غوتسغاب، ١٥ مارس ١٩٣٠ (١)

..البارحة رأيت حلماً جميلاً عن الغريكو. أمضينا الليل معاً، أكلنا وتحدثنا باللهجة الكريتية، استيقظت ثم عدت إلى النوم، فتابعت الحلم. ومن المؤكد أنني لا أستطيع سرد هذا الحلم بالكلمات، لكنني أتذكر تفاصيل كثيرة، وقد وضعت خطة كي أروي فيما بعد محاوراتي مع الغريكو. كان ذلك أمراً مبهجاً..

كان يجلس إلى مائدة الكتابة صيفاً، ويفضل السرير، شتاءً، مع قفازين لا يغطيان الأصابع، حين تبلغ الحرارة درجتين تحت الصفر. وينغمس هذا العازف الشيطاني في العزف على دفاتره - ملاحم، روايات، مسرحيات كوميدية - بسحنة عاتية، ومزاج بشوش، من دون أن يحتدّ عندما أقاطعه لأمر تافه.

يرفع ساعده، والقلم في يده، ويرفع رأسه مبتسماً ثم يدندن مازحاً:

«مرحباً بك ك ك ك!» ويضيف «إلى متى؟» (٢)

عندئذ أضع فنجان القهوة، أو الفواكه، أو الصفحة المصححة، على المائدة سعيدة بسعادته. وأجيب «حتى مابعد الموت!» من دون أن أتصور الموت موجوداً!

كان يحب الضحك والإضحاك، والاستلقاء تحت أشعة الشمس، وتأمل النجوم. ويفرح، إذا كان أول من يراها، لأنني أغضب.

(١) رسالة إلى ب. بريفيلاكي.

(٢) ضمناً: «إلى متى تدوم سعادتنا؟».

وكانت النزعات الطويلة على طرقات مستقيمة توقّع أفكاره. وكان يحتاج إلى الكلام لإنشاء مواضيعه: «الإنجليز يدخلون غليونهم: يَسْ، يقولون، متأملين. يَسْ. ويتمهلون، فينضج الحل في الصمت. أما نحن فنبدأ بالكلام. وكلمة لا، أو نعم، عندنا، تشغل فكرنا. فتتشكل فكرتنا أثناء كلامنا...».

«تودا - رابا»، «القبطان ايليا». «الأوديسة» في صيغتها الثانية التي تتضمن اثنين وأربعين ألف بيت، «تاريخ الأدب الروسي».. وعشرة مشاريع أخرى.. كل ذلك يتطلب عدم إضاعة الوقت.

غير أن أقوى الأجسام وأقصى الأرواح تحتاج بدورها إلى تغيير المناخ. وبعد الجبل أغرانا البحر. بحرنا، الأبيض المتوسط الرائق، والمعطر برائحة البطيخ الأحمر.

دقت ساعة الوداع. وعلى عتبة بابنا غير نيكوس رأيه وفتح حقيبته باحثاً عن النسخة الوحيدة من مخطوطة «الأوديسة» ليسلمها إلى فيليب كراوس الأب:

«يا صديقي أعهد اليك بعلمي. حافظ عليه، أرجوك، حتى عودتنا!»

- ألم نقرر الذهاب نهائياً؟ قلت له.

- لقد قادنا الإله إلى هذا المكان. لنترك له المبادرة مرة أخرى. إن دروبه لا يُسبر لها غور...»

وكنا نريد الإقامة في باريس لبعض الوقت، حتى يتمكن نيكوس من كتابة سلسلة جديدة من المقالات لموسوعة إغثيروداكيس. إذ كنا نأمل الكثير من تلك المقالات. ومن أجل حصر النفقات تمكن بعض الأصدقاء من العثور على غرفة مريحة لنيكوس في الدائرة الخامسة عشرة، كائنة في شارع بلبلو. أما أنا فقد قررت ابنة عمي ماري استضافتي عندها.

لكن صعوبات غير متوقعة كانت تنتظرنا في باريس.

باريس ١٣ شارع بلبلو
١٩ ابريل ١٩٣٠ (١)

أخي العزيز،

أنا في باريس منذ بضعة أيام، ولا أشعر بأي فرح.. والأسوأ من ذلك: أنني مضطر إلى إعادة المقالات التي بعثت بها إلي، لأنه يستحيل العمل هنا. مامن مكتبة تضم الكتب المساعدة التي أحتاج إليها: في المكتبة الوطنية لا توجد أعمال ماير وبروكهاوس، ولا حتى الموسوعة البريطانية! غداً سوف أزور السفارة الألمانية لعلمي أجد فيها بعض القواميس. زرت المكتبات من الصباح إلى المساء، بلا طائل. ذهبت إلى مؤسسة «لاروس» توصلت إليهم، وجئتهم برسائل توصية من سفارتنا حتى يسمحوا لي بالاستعانة بالكتب التي لديهم. مستحيل. رفضوا من حيث المبدأ.

وفي رسالة إلى ادويغ:

أجول ببصري في شتى أنحاء الأفق ولا أعرف أين أثبتته أه! (٢) *l'isola nostra*، كريت! كم تشبه باخرة تسوطها الرياح! حلت سنة ١٩٣٠ ونحن بعيدون ومتباعدون! أحياناً يستبد بي الشوق للعودة إلى كريت، والاسترخاء على شاطئها، والإنصات إلى الأمواج المالحة، أو الارتحال بعيداً جداً، باتجاه جزر الماركيز، تاهيتي، ساموا.. في داخلي شيطان بحري يمزقني ويأكلني، مد وجزر، ولا أريد الإنصات إليه، وأنصت إليه، وأعرف اسمه فأرتعش وأبتسم. هل هو الموت مرتدياً جلباباً من وراء البحار؟

بعد ثلاثة أعوام من الحرية يتوجب علي العمل (٣) أحسد دورو (٤) المقيم في وطني بغداد، وأرثي لحال أنا المنفية في أثينا. باريس تضطهدني وتضنيني، روجي فيها تشعر بالضالة، مثل حيوان مفترس ملاحق.. (٥)

وصدر في اليونان قانون يتعلق بترجمة كلاسيكيات اللغة اليونانية. فارتفعت صيحات نيكوس المتفائل دائماً: «لنطلب منهم تكليفنا بترجمة أفلاطون! (٦)».. ولكن

(١) رسالة إلى ب. بريفيلاكي.

(٢) جزيرتنا «الترجم».

(٣) لكسب القوت.

(٤) دورو ليفي، شقيق ادويغ، عالم آثار شهير.

(٥) رسالة كتبها كازنتزاكي بالفرنسية مباشرة.

(٦) هناك فرق شاسع بين اللغة اليونانية القديمة واللغة اليونانية المستحدثة «الترجم».

لماذا نقتصر على الترجمة فقط؟ فلنعدّ قاموساً فرنسياً — يونانياً. ولنترجم من اللغتين: الديموتيكية والكاثاريغوسا. لا وجود لقاموس من هذا النوع، ومن شأنه أن يسهل عمل المترجمين..»

وكان ذلك غير كاف، فيواصل: «لننشيء سلسلة «كتب زرقاء»^(١) ولنترجم كتباً جيدة مخصصة للجمهور العريض» وكذلك: «لنترجم سلسلة كتب للأطفال وننتقي أفضلها، من دون استثناء ذلك الشيطان الكبير: جول فيرن..»

وبدأ كازنتزاكي يرسل الناشرين فيما سعى صديقه الشاب بريفيلاكي إلى إقناعهم بإلحاح. وأسفر ذلك عن توقيع عقدين. أحدهما من إلفتيروذاكيس الذي كلفه بترجمة كتب للأطفال. والثاني من زيميتراكوس الأب، ويتعلق بترجمة القاموس الفرنسي — اليوناني العتيد. وتم بعد ذلك تقاسم هذه المهمة بين كازنتزاكي وبريفيلاكي. فترجم كلاهما أربعين ألف كلمة تقريباً، وراجع كلاهما عمل الآخر.

وهذان العقدان أعادا إليه الشمس: «سوف أذهب إلى أحد الشواطئ؛ لابد أن نجد على ساحل البحر ما يعادل غوتسغاب.

— دعني أرافقك. لقد تأملت كثيراً خلال الأشهر الأخيرة.

— أنا؟.. تأملت؟ كيف عرفت ذلك؟ أنت، يالينوتشكا، لا تتذكرين سوى الأشياء السيئة، أما أنا فلا أفكر إلا في الفرحة الذي عشته».

ثم ضحك وشد كتفي، وشرع يردد ثرثرة مالكة البيت في شارع بلبلو: «كانت أستاذة غناء — قالت — وكان لها تلاميذ كثيرون. لم أر منهم أحداً، باستثناء هكتور، كلب «الكانيش» الذي يؤنسها عندما تجلس إلى البيانو. في اليوم الأول، أردت أن أكون لطيفاً، فحاولت مداعبته.

— حاذر أن تفعل ذلك! صاحت العجوز. كلا. كلا، لا تقترب، أرجوك.. إنه

(١) أي كتب خرافات وأساطير «المترجم».

غيور، هكتورى الصغىر، إنه عَطِيل حقيقى!.. انتبه! يغار حتى من المرحوم زوجى! وكلما زينت صورته بالزهور شرع هكتور فى البكاء.. وهل تعرف اسمى؟ السيدة عندليب! أفضل مغنية محترفة فى الدائرة الخامسة عشرة!»

سانارى، ١١ يونيو (١)
منتصف النهار، على مقعد.

لينتوتشكا الحبيبة،

وصلت للتو. أودعت أمتعتى فى مستودع الأمانات وأسهرت إلى الوكالة العقارية، كان الوكيل يتناول غداءه، فجعلته ينزل من الطابق الأول: «كل البيوت مؤجرة فى سانارى، ياسيدى، ابحت فى مكان آخر!»

ودلنى على طريق «ادروسك» التى تتطلب مسيرة ساعة على القدمين، لكن هناك ترامواى حتى منتصف الطريق. فأتجهت صوب المرفأ، ووجدت المحطة. وبقيت أنتظر على مقعد. الميناء لطيف، والحرارة مرتفعة جداً، لكن ثمة نسمة بحرية منعشة..

مقاطعة البروفانس جميلة جداً، وتشبه اليونان تماماً: سَرُو، صنوبر، شقائق النعمان.. أما سانارى فتشبه ايجين.. وفيها زوارق ومراكب شراعية، وسمك مقل (وصل الترام، وقد نادانى صياد لينبهنى. ليكن الله معى. إني ذاهب!).

الساعة الثانية ظهراً

لا شيء! كل الغرف محجوزة، لقد تأخرت فى القدوم.. القرية جذابة، هادئة، على ساحل البحر. كآبة. ساعود وأقصد «لاساين» ومنها إلى «السابليت» ثم «فابرغا».. وهكذا أجوب القسم الجبلى الداخلى فى البحر «الرُعن» بكامله. حرارة مرتفعة والأرض تقضوع، الوزال مزهر، وكذلك الرتم والزعر. أشجار تين كثيرة. كريت تماماً.

سانارى، السابعة مساءً (٢)

عدت بعدما جُبت الرُعن كله، منهوكاً، جائعاً، ملفوحاً بالشمس، ظمآن. لا شيء.

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

من حسن حظك أنك لم تسافري معي وإلا أنهكت كثيراً. أما أنا فاقاوم. وكثيراً ما أفكر
بأننا لو كنا من الأغنياء لربحنا الكثير، وخسرنا الكثير أيضاً؛ أنا سعيد بهذا العذاب
بحثاً عن متر رملي نستلقي عليه معاً.

مساء السبت، «كأن» واحسرتاه (١)

لا شيء في سان رافائيل.. عدتُ إذن إلى كان.. تخيلي شاطئاً بعرض مترين، يحاذيه
طريق مزدحم بالسيارات كما في شارع الشانزليزيه..

الشاطئ الذي نبحت عنه، مثل غوتسغاب بحرية، لا وجود له. لا شك أن هناك
واحداً في مكان ما، من فرنسا، لكن أين؟ كل شيء هنا متحضر، ويتعذر الاقتراب منه.

صباح الأحد

نمت هنا «جوان لي بان» على هذا الشاطئ المشهور.. ليلة رهيبة. إذ أن الشاطئ
يعجّ بالبعوض والحرارة القاتلة. عندما سألت فتاة الفندق عن سبب شهرة هذا
الشاطئ، أجابتني: هنا، كلهم تقريباً يتكلمون الإيطالية ! E la reclama, Signore (٢).

الأحد، بعد الظهر (٣)

فيلغراننش..

بعد خيبتني في كأن وجوان لي بان، وصلت إلى هنا. إنها مدينة صغيرة ولطيفة، ذات
طابع إيطالي بحت. عدد الفرنسيين قليل. وعلى شاطئ البحر المقفر تقريباً، يوجد نخيل،
وزهور، وغار، الخ. وجدتُ فندقاً ممتازاً، وأنا الآن جالس في الحديقة وأكتب اليك. غداً
سأبحث في كل الاتجاهات. أرتدي القميص الأصفر الفضيض (اتسخ كثيراً وغسلته)..
وبجбин أسود لفحته الشمس، أطوف طوال النهار، باحثاً عما سيكون مأوانا.

١٦ يونيو (٤)

عثرت على فيلا رائعة ذات حديقة.. طبعاً ليست الأفضل، لأنها ليست على شاطئ
البحر، ومثل هذا الشرط لم يعد قابلاً للتحقيق.. أتلهف لرؤيتك ولمسك. إن شاء الله،

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) «والدعاية، سيدي!».

(٣)، (٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

ربنا الشرقي العظيم، سوف نقضي شهور الصيف الأربعة^(١) كما نشاء: نبقي وحيدين،
نعمل، نتحدث، نسكت، لكن معاً دائماً. الحياة رائعة لأننا رائعان ونحب بعضنا.

..تعالى في أقرب وقت ممكن. بيتنا جميل، هادىء. وفي الحديقة ورود كثيرة، وشجرتنا
دراق مثمرتان، وأشجار ليمون وبرتقال الخ.. كل شيء لنا.

تأتى الأشياء دائماً بطريقة أخرى. ففي ثلوج غوتسغاب كنا نحلم باليوم الذي
نحرق فيه باطن أقدامنا على الرمل الملهب حتى البياض، كي نسرع بعد ذلك من
أجل بلّها بالموجة. لكن القدر قرر غير ذلك. لا شاطئء، ولا رمل، ولا سباحة.

وعوض ذلك: حديقة متوسطة، حديقة دير لا ترانا فيها سوى القطط، وتغصّ
بaltham المحبوبة التي سحرت شبابنا: طماطم، بازنجان، فلفل، عنب أبيض، دراق
وردي.. ودفلي..

قبيل مغادرتي باريس، تلقيت نبأً سعيداً.. لقد أُعجب جان كاسوب «تودا -
رابا».. وهذا الكاتب الجيد الذي كان رجلاً كريماً أيضاً، أراد مساعدة زميل
مجهول، وعرض كتابه للنشر في دار «فوركاد».

تملكني الفرح، وأسرعت إلى محطة ليون، من دون أن أنسى إرسال برقية إلى
نيكوس. غير أن برقيتي لم تصل. «نذير شؤم» زمجرتُ مغتابة. «بل بشيرخير،
أجاب نيكوس المتفائل دائماً، وأضاف: أتمنى من الله، أن أسمع الأنباء السارة من
فمك، دائماً!».

كان نيكوس قد استقر حذو طماطم «ه» عاري الجذع في الشمس، وبدأ
بترجمة كتب الأطفال. وقد بدا ملوّح البشرة، مستعيداً نوعاً من الفتوة والإشراق..
غير أن الإغواء الكبير جاء من «نيس». وعلى الرغم من تعود نيكوس عدم مقاطعة
عمله في الصباح فقد صار يختلق المبررات كي يذهب للتنزه بين الزهور
والخضار. ولو كنا أغنياء لغطتنا أكداس من الفواكه. ولأننا لم نكن كذلك، فقد

(١) هكذا في الاصل، تجاوزا.. المترجم.

كان يعود ومعه البطيخة الحمراء الأكثر طقطقة في حياته، والبطيخة الصفراء الأضوع عطراً وبالتين ذي قطرة العسل السائلة. ونذهب مشتبكي اليدين بحثاً عن السمك. وكنا في موسم سمكة الرنكة الطازج الذي نحبه منقوعاً في النبيذ الأبيض. نعم، لنا ثروة طائلة: قبو لخزن الخمور!

وخلال تلك الأشهر الصيفية الأربعة ترجم نيكوس أو اقتبس عشرين كتاباً للأطفال، اختارها بعناية من الآداب العالمية: «شوز الصغير» لدوديه، «كوخ العم توم» لبيشر ستو، «كاري الفيل» لموكيدجي، «النحلة» لبونسل، «اوليفر تويست» لديكنز، «رحلات غيلفر» لسويفت، الخ... الخ.. ووضع أيضاً مخططاً تفصيلياً لروايته الجديدة «يوم ممطر» رؤية حياة كاملة، مكثفة في يوم واحد.. وموقعها بين حلمين - زيارة الغريكو وتجلي بوذا.

حوالي نهاية سبتمبر أعلن بريفيلاكي أنه سيأتي إلى باريس لاستكمال دراسته. فهل سننتقل للإقامة في إحدى الضواحي الباريسية كي يتمكن الرجلان من العمل معاً في إعداد القاموس؟

كنت أمل ذلك. وكانت لابنة عمي ماري خطة بدت لنا قابلة للتحقيق. فبدأت أرتب الحقائق قبل انتقالني إلى باريس مستكشفة.

بقيت لحظة أتأمل بابوجينا التترين اللذين اشتريتهما في كازان وقد لمعا بكل ألوان الأرض الروسية.

- لقد اهترأ كثيراً تنهد نيكوس، لينوتشكا، هل س...

- لندفنهما في الحديقة، اقترحتُ عليه، كي أقول شيئاً ما.

- مثل قطة؟ إذا لم تقرري أخذهما حقاً، فلنعدّ لهما جنازة لائقة أكثر.

وتم ذلك فعلاً. إذ فتش نيكوس في أدراجيه واختار أفضل سماط صغير طرّزته أخته هيلينا، وبعض الورق الحريري الذي صقله بكفه:

- هذا المساء سوف نذهب لرمي زوجي حذاء البابوج في البحر! قال بعد أن حزم الرزمة.

- يجب أن نضيف حجراً كي لا يقذف بهما المد إلى الشاطئ.

فذهب يقطف آخر حبة رمان في الحديقة وأعاد فتح الرزمة ثم وضع الثمرة الصلبة في حضن الحذاءين العجوزين:

- هبة لقارون! قال بنبرة حزن، ومن دون هدية، لن ينقلهما إلى الضفة الأخرى..

وما زال يرن في أذني صوت الارتطام المكتوم بالأمواج. فأسترجع خيلاً طويلاً مرتسماً في خلفية معتمة، لذلك الرجل الذي كان يجيد إضفاء مذاق خاص على كل الأشياء. وحدها النجوم اللامبالية، وصديق ذو قوائم أربع، كانت شاهداً على هوسنا.

وفي انتظار الأحداث التي ستقرر مصيرنا بدأتُ بأجراء سلسلة مقابلات صحافية في باريس مع بعض الشخصيات المنتمية إلى الوسط الأدبي، ولا سيما الكونتيسة دي نواي، وجورج دو هاميل، واندريه موروا الخ، الخ.. وفي نيس حاول نيكوس إيجاد حلول لمشاكل عديدة يتوقف عليها حضور بريفيلاكي إلى باريس، وتعاونهما في مجموعة من الأعمال على نطاق واسع. لكن المال الذي لم يعد كافياً أجبر نيكوس على العودة إلى اليونان.

بعد ظهر الأحد (١)

(نيس، ١٩٣٠)

قديستي جرجس (٢)

أتلهف لسماع حكاية مقابلتك للكونتيسة دي نواي.. ينبغي، يالينوتشكا، أن ينتهي هذا الوضع. حياتي صارت تافهة مثل الآخرين. عندما أفرغ من عملي مع بريفيلاكي سوف نتخلص من كل هذا البؤس ونذهب للتمتع بالجبل، والهدوء والمراسلات النادرة، من دون أعمال. لا أنا، ولا أنت ولا «الأوديسة»، نستطيع مواصلة هذه الطريقة في العيش.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) سبقت الإشارة إلى أن كازنتزاكي يعتبر ايليني بمثابة القديس جورج أو جرجس. «الترجم»

وفي انتظار ذلك يتوجب علينا الاكتفاء بالقليل، وتقبل الضرورة مؤقتاً، مع إجبارها على إعطائنا أفضل ما تستطيع. ثم نتخلص منها.

نيس، مساء الثلاثاء^(١)

قرأت البارحة في صحيفة «لوتون» مقالاً عن المعهد. وقد سافر فاليري إلى جنيف لتقديم تقرير حول التعاون الثقافي. ربما تمكنا من الحصول على ذلك التقرير؟ أرجوك، يا قديستي جورج، أن تهتمي بذلك.

حاولي الحصول على ثمن جيد مقابل العاج^(٢)! سوف نجهز من ذلك، غرفة في بيتنا، وأخرى مع الفتيروذاكيس، وثالثة بفضل القاموس. ينبغي أن نحصل بدورنا على Home! ^(٣)، أنه لمن الضروري أن يكون المرء ساكناً في مكان ما.

كنا نحلم ببناء بيت، مرة في سالزبورغ، وأخرى في نيقولاسي، قرب برلين أو حتى في مودون، أو فانتني - أو - روز، لذلك يتابع نيكوس:

حتى الآن، مازال بيتنا «الطائر» مَبْنِياً بالضباب والإرادة والسيوف. لكنه سوف يتدعم، لأنك معي وأنا لا أخشى شيئاً.

نيس مساء الأربعاء^(٤)

May May gwan^(٥)

هذه آخر ليلة أقضيها في نيس، فيلادي بيرفانش. لا أريد توديعها من دون أن أكتب إليك كي أعبر لك عن مدى وجودك معي في هذه اللحظة، وعن حياتنا التي كانت ودية عميقة، وسعيدة، هنا. ولولاك لصار كل هذا الجمال، والشمس، والبحر، والعزلة، في منتهى الإنهاك بالنسبة لي، وصارت حياتي لا إنسانية. لأنك أنت التي تضيف عليها العذوبة.

في داخلي نزعة لكره البشر.. قوى فظيعة، مظلمة. ولا أكاد أحافظ عليها متوازنة. أعتقد أنه لا يوجد في العالم سوى أناس قليلين أحسوا مثلي برعب الحياة والموت. مامن وهم يخدعني، ومامن سذاجة تجعلني أنسى، أعيش بلا أمل. وحتى عندما أبدع بيتاً

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) منمنمة بيزنطية منقوشة في العاج كنا نأمل بيعها.

(٣) بالانجليزية في الأصل: البيت. «المترجم»

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٥) بطله رواية وايت «مطاردة في بلاد الصمت» وكان نيكوس منغمساً في ترجمتها.

شعرياً جميلاً، يسخر أحدهم في داخلي، ويتهمكم، ويذكّرني من أين جئت، وإلى أين أذهب، وبأنه لا يوجد خلاص. لكن، عندما أرفع عيني - وكم حدث لي ذلك هنا، في فيلا دي بيرفانش! - وأراك ترقنين بالآلة الكاتبة، أو تنصرفين إلى شؤونك البسيطة، البشرية، في أعمال البيت، تغسلين صحناً، أو تعدين شايًا - عندئذ فقط أعزّي نفسي، وإذا باللحظة الزائلة تكتسب نوتر الأبدية وامتدادها. فأقول لنفسي: ربما كانت هذه اللحظة البسيطة جداً، والإنسانية جداً، جديرة بأن تجعل الإنسان يتحمل مشقة الولادة من دون اكتراث بالموت.

مرسيليا، ١٧ أكتوبر ١٩٣٠ (١)

لينوتشكا الحبيبة،

ذهبت أمس إلى الوكالة.. عرض عليّ مقعد في الدرجة الثانية، لرحلة «بيري»، مقابل ٧ إلى ١٠ جنيهات، لكنني لا أملكها. ولا تكاد نقودي تكفي لمحل في الدرجة الثانية، الاقتصادية.

تلقيت رسالتك، وأشكرك على ما ذكرته من أشياء جميلة. ليتني أستطيع الانقلاب على «الأوديسة»! لنأمل! ولأنك معي، فأنا أمل ذلك.

قصائد أنا دي نواي جميلة جداً، ولكن كيف أترجمها؟ سوف أحاول.

ميناء مرسيليا القديم رائع جداً، مثل صقلية تماماً. وهناك وفرة في الفواكه، والسمك، والأصداف.. نساء متبرجات، ماجنات، وشوارع ضيقة؛ وبيوت مدعومة حتى لا تنهار. ألوان، صياح بالأسبانية والإيطالية، نظرات مأكرة. أتناول عنباً، وقطعة خبز، وزيتوناً أسود.

لدى العودة إلى اليونان التجأ نيكوس إلى أمه. وأمضى شهراً في حياة نباتية، وحنان لا يكاد يظهر، وكلمات لا تكاد تُنطق، معطرة بأكبش القرنفل، والعسل، والقرفة.

ثم انكب على عمله من جديد. وقبل سفر بريفيلاكي إلى باريس وقّع الصديقان

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

عقداً نهائياً مع ديمتراكوس. ثم سافرنا إلى ايجين حاملين في أمتعتنا أربعين ألف بطاقة سيملاً نيكوس كل واحدة منها بكلمة فرنسية وما يناسبها باللغة اليونانية الديموتيكية، والكاثاريفوسا.

استضافنا انفيلاكي - في بيت ريفي قديم يتوسط أشجار الزيتون والفسق والتين والعنب. وكانت هناك، تحت الشرفة، شجرة مصطكا، نستعمل راتنجها طيباً لحلوياتنا، ونخلة، وصنوبرة رائعة تغطيها بظلالها.

ويتلألاً البحر عبر أوراق الزياتين. ومع ظهور النجوم الأولى، يرتفع صوت حراس السجن - ليذكّرنا بأن بشراً يحبسون بشراً آخرين في تلك الأقفاص.

ومن الشرفة الخشبية التي كان نيكوس يعدّ فيها القاموس، كنا نتأمل غروب الشمس ساكنة شلالاتها التي من ذهب وفضة مذهبة. وما أن يتلاشى الموكب الملكي حتى تلوح افروديت شاحبة مثل عرق اللؤلؤ.

١٩٣١. كان نيكوس يمضي الوقت، من الفجر إلى الليل، غاطساً في بطاقات القاموس من دون كلل. وأثناء نزهاتنا المسائية على شاطئ البحر، أو داخل الجزيرة، كثيراً ما يتنهد قائلاً «ما يحزنني أكثر هو تبديد أفضل سني حياتي.. وعدم قدرتي على التغلغل في الغنى الداخلي...»

ويحاول إفادة بريفيلاكي، الموجود في باريس مع همومه الخاصة، ببعض تجربته:

الصقر الذي اختطفنا من الجمجمة، يشرب دمنا كي لا يموت. وينبغي أن نتركه يفعل ذلك، لأننا إذا طار من هذه الأرض، سوف نضيع بدورنا..

ووصلت أخبار «المعرض الكولونيالي» حتى ايجين. فمن جهة، كانت باريس تجمع في غابة فانسان، كل الروائع القادمة من شמוש مختلفة، سوداء أو صفراء، من الرمل أو من الغابة، من ريح السموم أو من الأمطار الاستوائية، بينما من جهة أخرى ذلك الجبل الشاهق - توراها رهو هي - الذي حدّثتنا بيلي عن روعته بمناسبة زيارتها لأثينا. ولم يكن نيكوس ينتظر المزيد كي يرفع المرساة

«أنا طائر مهاجر، يالينوتشكا، لست فلاحاً ولا صياداً. ضعي يدك على صدري لتحسي كم يرتجف منتظراً رياحاً مؤاتية..»

كان يتكلم ومنخراها ينبضان. لكن مازالت هناك المحاكمة بسبب كتاب «الزهد» الذي اعتُبر مناهضاً للدين والوطن. تلك المحاكمة التي لن تحدث أبداً، غير أنَّ التلويع بها يعود من فترة إلى أخرى، مهدداً. لقد طلب غلينوس من نيكوس أن يجهز دفاعه.

بحث نيكوس بين أوراقه عن نص كتبه في اليونان سنة ١٩٢٥، يتضمن كل شيء حول القضية. فأضاف إليه بعض الكلمات ثم أعاده إلى أحد الأدراج^(١) ومن أجل تغيير وجهة مزاجه المتعكر، حاول استخلاص الجانب الفكاهي من القضية فصاح: «يا إلهي، ما أغرب أطوار البشر! في جوّ حار وخانق.. سيزدحم القضاة، والمحامون، والنائب العام، في قاعة ضيقة، فتثور أعصابهم، ويرشح عرقهم ويصرخون متففين!.. وهكذا يشعرون بالزهو، لأنهم خدموا.. العدالة!»

ويضحك ضحكته الكبيرة المنقذة.

في باريس ظل بريفيلاكي يرافقنا قدر استطاعته إلى منتزه فانسان، كأننا النحل يدخر العسل، من الصباح إلى المساء. كان الطقس حاراً، بل حاراً جداً. والأنواع المستجلبة إلى المعرض الاستعماري، من خيزران، وبردي، ونيلوفر في البرك، فضلاً عن الأجسام البشرية، تتضوّع بعطور الجنوب. ويدوي في النهار والليل، قرع الطبول والطبالات الأفريقية، وعزف المزامير الحاد. وفي كل منعطف يلوح قناع، أو أسد، وحش نصفه حيوان ونصفه إنسان، عمود أحمر أو أسود، كوخ أو معبد.. بعد مرور أعوام عديدة، استطعت بمفردي أن أتأمل «أنغكور فات» الحقيقية، تلك الزهرة التي لم تقطف أو توضع في مزهرية. غير أن فرنسا وفرت لنا في ذلك المعرض الكولونيالي رؤية ما يشبه الحلم.

وأراد نيكوس أن يوفر عليّ أتعاباً غير مجددة، فسافر وحده إلى النمسا، بحثاً عن ملجأ هاديء في الجبل.

(١) يوجد النص في آخر هذا الكتاب.

تُوراهزهُو هي، الجمعة ٣٠-٦-١٩٣١ (١)

قديستي حرجس،

لا شيء! ذلك ما حققته بعد مسيرتي الفظيعة..

غداً أذهب بالأوتوبيس إلى بريدليتز، وسان ميكائيل ثم لينز. جولة قاسية، ومصاريف، وتعب. سوف أقرب من تشيكوسلوفاكيا. وإذا لم أجد شيئاً سوف أعود إلى غوتسغاب. عزائي الوحيد أنك لست معي وأنني وفرت عليك هذا التعب.

أفكر مجدداً، وبارتياح، في بيت آل كراوس الجميل. فهم يعرفوننا، ويتحلون بخدمة ممتازة ورصانة فائقة.. سوف أطلب منهم تهيئة مدفأة لنا..

حببتي أنا متعب، متعب.. تورمت قدماي من تسلق الجبال، والذهاب من فندق إلى آخر تحت المطر. لذلك أعتبر غوتسغاب بمثابة واحة.

وهكذا تعود إلينا، هناك، حياتنا المقدسة: عمل، راحة، متعة مسائية بعد الجهد.. إن أناساً فقراء مثلنا، عندما يجدون شيئاً رائعاً، مثل ذلك البيت على قمة تشيكوسلوفاكيا، والسعادة، ينبغي أن يعوا بأن كل ذلك هبة لا تتكرر من القدر.

وفي الأثناء سوف ننظر صوب ايجين، لنتخيل بيتنا «المستقبلي» على شاطئ البحر، والصخور.

أنا سعيد بوجودك وأطلب من الإله أن يميّني قبل تلاشي هذه السعادة.

مساء الأحد، في بيتنا (٢)

(غوتسغاب، يونيو ١٩٣١)

كلما إقتربت من البيت ازداد خفقان قلبي. الطبيعة تلمع تحت الشمس، والفلاحون يحصدون، يتضوع أريج ناعم، بينما يلوح زغب رؤوس النباتات الشوكية مثل أجداد شائبين، وبعضها لم تتفتح براعمه البنفسجية المستديرة.

مررت بالدروب نفسها وشعرت بالحنين إليك بجانب. اجتزت الجسر الصغير فقفزت سمكة فوق الماء. بشير خير. فوئب قلبي مثلها.

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

كانت هيلدا، الأولى التي تعرفت عليّ. ومن أعلى المنور حيث كانت تملأ المستودع بالعلف، مثل علم أحمر، صاحبت «مرحى! مرحى!».

وكان كراوس يحصد بمنجل كبير «هز ديركتور! سيدي المدير!» وأسرعت العجوز تضحك وتبكي: «وأين السيدة المدير؟»

صعدت إلى غرفتي.. وطلبت للعشاء حلياً، وزبدة، وبطاطا. وأنا الآن جالس على أريكة غرفتي وأشعر بالسكينة والعذوبة والغبطة. الطيور تغرد، والبيت يتضوع برائحة العلف والصنوبر والسهل. والشمس بدأت تغرب.

الأربعاء، الخميس، الجمعة، السبت، الأحد، لم أتوقف في الليل ولا في النهار. نمت ليلة واحدة، أما بقية الليالي فقد أمضيتها في القطارات على نحو فظيع.. بالأمس، في لينز تمددت قليلاً على مقعد عريض، على ضفة الدانوب ونمت. كنت لا أكاد أغمض عيني قليلاً، ولو في الطريق، حتى أحس بأنني سأنام..

وهذا، هو أول يوم أشعر فيه بالهدوء والراحة التامة. مامن مشهد طبيعي يعادل هذا المنظر.

حدسي يشعرني بأشياء جيدة.. ففي الأفق عمل جاد، وهدوء، وسكينة، وسعادة، عندما نتحدث معاً، مرة أخرى، كل مساء، مثل روحين محظوظتين، لا تشوبهما شائبة، ومثل جسدين يتحابان ويتبادلان الاشتها..

وكتب إلى ب. بريفيلاكي:

١٧ يوليو ١٩٣١

غوتسغاب، إرزجبيرج..

أخي العزيز،

لن أنسى سهراتنا في باريس أبداً. أحتفظ منها بذكريات في منتهى العذوبة..

راسلني، أرجوك، كثيراً، وسامحني إذا كنت متحفظاً في كلامي وفي رسائلي، أريد ولا أستطيع، كسر القشرة الصلبة التي تلف قلبي.. وهكذا أعددت قناعاً، خدع كل الذين عرفوني تقريباً. وسوف أترك أسطورة مختلفة تماماً عن وجهي الحقيقي، الجامع بين

القسوة واللين، بين العناد والياس.

بعد استشفائي في بلومبيير كان الاتفاق أن ألتحق بنيكوس في الجبل. غير أن سالزبورغ كانت في طريقي، وكان الإغراء كبيراً. وبفضل بطاقتي الصحفية حصلت من غير تعب، على كل الدعوات الضرورية لحضور «نصف شهر الموسيقى». لقد مرت أكثر من ثلاثين سنة ولم أنس فرحي ولا خيبتني من رفض نيكوس المجيء لمشاركتي سعادتي. ولم يحسم أمره حتى بإمكانية رؤية ستيفان زفيغ الذي كان يريد التعرف عليه، وسماع نوزارت، وبرونو والتر، ورينهاردت، ومويسى. وكتب:

إلى القديس جرجس ص ١ ب الآلة الموسيقية،

من سوء الحظ، لا أشعر بأية رغبة أو متعة، في التعرف على أحد.. أسف على ما أسببه لك من حزن، وعلى عدم رؤية كاسي^(١).. أشتغل على «الأوديسة» من الفجر إلى الساعة الثالثة بعد الظهر، أشرب قليلاً من الحليب البارد وأترجم جول فيرن. ولا يسمح لي استعداد روحي حالياً بتذوق مباحج الموسيقى المرغوبة. إلى العام القادم.

صبر.. وصريير أسنان.. وعام قادم.. لازمة مؤلة لا تخدع أحداً حتى وإن ترددت بلامبالاة أو مرح. عندما لا نتمكن من تحقيق أي فرح صغير! رحلة، أو حفلة، أو ثياب جديدة، أو زيادة الأصدقاء، نؤجله إلى العام القادم! وعندما يغطس نيكوس في «أوديسته» لا يبلغ اليابسة إلا برحلة إلى بلاد بعيدة، شبه متعذرة.

ولأول مرة لم تدو ضحكة نيكوس المجلجلة عند لقائنا. جاء يستقبلني في يواكيمستهل بسحنة كئيبة «لا شك أن روحه لا ترغب في الكلام». ولحسن الحظ أنه من طبيعة مرحة، إذ سرعان ما استعاد بشاشته.

مازلنا في شهر أغسطس ونيكوس قلق: «ماذا سأفعل عندما أنهي الصياغة الثالثة لـ «الأوديسة»؟ ولم يكن يتكلم كثيراً عندما ننحدر من الدرب الوعر المؤدي إلى يواكيمستهل، عائدين منه صعوداً. محملين بالأجاص والتفاح وبعض أسماك الرنكة المدخنة، لكنه في الطرقات السوية المستقيمة، على المرتفعات، يترك العنان

(١) داني بابايوانو.

لأفكاره، بارز الصدر ورأسه إلى الوراء، فنتعقبه بصعوبة، مأخوذين بقوة اندفاعه.

ويتنهد نيكوس قائلاً: «أه، لو كانت لي عشرة سواعد، أو أفضل من ذلك، لو كان يتبعني اثنا عشر مريداً. فلدي أفكار كثيرة، أفكار كثيرة كان يمكن أن تتحقق...»

يوم ٤ ديسمبر ١٩٢١ اكتملت الصيغة الثالثة لـ «الأوديسة». وكنا معزولين عن العالم بسبب عاصفة ثلجية عنيفة، وبعد يومين احتفلنا بعيد القديس نيقولا، كان الثلج والصقيع في الخارج، والدفء الإنساني داخل البيت. «دفء فوق أرضي».

ولو كنا قادرين لسافرنا إلى أراض بعيدة. لذلك دعا نيكوس «أخاه» الأصغر بريفيلاكي ليقضي عيد الميلاد برفقتنا. وفي الأثناء كان يتساءل عن نوعية عمله الجديد.

لم يكن يجب تبديد جهده في أعمال صغيرة. حتى رواياته صارت بعد عشرين عاماً، تكتسي ببعد ملحمي.

يقال إن لينين عندما يري الاستراحة كان يترجم قواميس أو يتعلم لغة جديدة. أما نيكوس فكان يترك روحه تتغلغل في بئر، أو في لغة الروح الإنسانية التي لا يسبر لها غور.

وينصحني قائلاً: «اختاري روحاً عظيمة، وكرسي نفسك لها بالكامل. انظري مدى الفرح الذي يملكك وأنت تؤلفين كتابك عن غاندي. عندما تنتهين منه سوف أساعدك على اكتشاف روح أخرى عظيمة.

رأيت، في أي عمل ستشرع؟

– لست أدري بعد. هذا لا يدعني انام.. أن أتخلّى.. أن أتخلّى من كل شيء بي رغبة لكتابة مدونة في سبعة فصول. تكون الفصول الستة الأولى معبرة عن مواقف زهدية مختلفة. ثم تأتي رؤيا بوذا.. لست مستعجلاً. أترك الموضوع

ينضج في داخلي.. المهم هو تقديم نفسي طعاماً لحيوان مفترس من الحجم الضخم. هكذا فقط أتخلص من الحشرات الصغيرة.

كانت السنة توشك على النهاية. وبعد خزن العلف والوقود والبطاطا والبصل، انصرفت عائلة كراوس لشغل الدنتيلا، وتزويد المدافئ بالوقود المدخر. وتغير المشهد الشتائي أمامنا، إذ اختفت الغابة تحت محيط ثلجي أبيض بلا ضفاف.

وكان الصمت عميقاً إلى درجة أننا كنا نخفض أصواتنا خشية أن تهشمتنا صرخة مثل كأس بلور. لقد تغير كل شيء، المذاق، الشم، البصر، اللمس، وصولاً إلى خفقات القلب.

أعارتنا عائلة كراوس خشبتيّ تزلج فلم ننجح في استخدامها. وكنا نمكث في بيتنا الشبيه بكاسحة جليد تنفث الدخان الكثيف، وننتظر وراء النافذة مجيء ساعي البريد كي يضع بين أيدينا جمرات متقدة، أخباراً جديدة من العالم الخارجي:

– لينوتشكا، سيأتي بانديليس!

فرح. وتعليقات على الحدث.

وفي طنبر تجره أجمل بقرة، نزل نيكوس إلى يواكيمستهل لاستقبال صديقه. وفي حين انصرفت إلى الفرن، هياً كراوس الابن المفاجأة. وهرعت هيلدا مرحبة لتضيء شجرة عيد الميلاد.

كان كليووف على حق. «فالفرحة قافلة حرير ومطرزات تأتينا من الشرق».. وذكرتنني أول شجرة عيد ميلاد بملوك المجوس. وكان فرح لا ينسى: الصديق، وما جلب معه من عرق الروم والنوافذ المزينة، الخ...

١٩٣٢ بدأت سلسلة من المصائب التي لم يسبق لها مثيل تحل بنا و ببعض الأصدقاء الذين حاولوا مساعدتنا، أيضاً.

وهكذا أفلس الناشر «فوركاد» الذي اقترح عليه جان كاسو نشر «تودا - رابا»، وتلاه الناشر «هومنت».. وأفلت رينودي جوفنال الذي كان ينوي بدوره نشر «تودا - رابا» من موت شنيع، في آخر لحظة، لكنه لم يفلت من آلام الحادثة، إذ اشتعلت النيران في استوديو «أفضل سينمائي فرنسا» الذي أقنعتة مادي سوفاجو بسيناريوهات نيكوس. وأخيراً فإن روبرفرانس الذي كان يأمل نشر «تودا - رابا» ضمن منشورات «ريدز» أو غيرها، اختفى في ريعان شبابه.

وفي الأثناء تعاون الصديقان الكريتيان من أجل إنجاز خطتهما الخمسية. وبدأ نيكوس بمراجعة سيناريوهات. لينتهي بعد أسبوعين من «دون كيشوت» و«بوذا». وأعقبهما سيناريو ثالث أجدّ، بعنوان «كسوف الشمس» يتعرض إلى عبثية الحياة المعاصرة، وأهوال الحرب، وضرورة سعي الشعوب إلى التآخي.

وفي موازاة ذلك «وتلك عادة نيكوس»، انكب على مراجعة «بوذا» «في شكل مسرحية» وقال لي ذات مساء وهو يحشو غليونه بتبع خشن: أودّ أن أكسبه جناحين، يالينوتشكا، جناحين ملائكين كما يفعل الغريكو مع رسوم ملائحته.. لكن ذلك يتطلب مني التسليم بأنه لن يُقرأ أبداً.. وهكذا أكتب بحرية».

ومن اليونان جاءنا خبر كارثة جديدة: تراجع ديميتراكوس ولم يعد راغباً في القاموس، ولا في الكتب التي طلبها سابقاً. وارتاب نيكوس فيمن يختفي وراء مثل ذلك القرار المنحط. لكنه لم يسمح للكارثة الجديدة بأن تدمره. وبعد إنجاز السيناريوهات الثلاثة بدأ يفكر في «مدام بوفاري» و«الديكامرون» وهذا الأخير بدا له اكتشافاً «سيخرجنا من المأزق بلا شك».

يوم ١٥ مارس ١٩٣٢، وفي تلك الأجواء الشبيهة بأجواء «الأحرار المحاصرين»^(١) - وكان فوركاد قد أشهر إفلاسَه - أعلن لغتريس عن قدومه. تأخر الشتاء، وذهبنا لاستقباله على الحدود الألمانية، بواسطة الطنبر الذي تجره أجمل بقراتنا، دائماً. ومن جديد زهل السيد كراوس، وغيره من أناس المحطة،

(١) العنوان الذي أعطاه الشاعر اليوناني الكبير ديونيزيوس سولوموس لقصيدته حول محاصري ميسولنغي.

أمام مشهد التدفق الكريتي: العناق، والضرب على الأكتاف، والضحك الصاخب، وما إلى ذلك.. حتى فكرت مبتهجة: «هاهي ذي كريت! هاهي ذي كريت! هاهو ذا البُعد الكريتي!».

كان لغتيريس سعيداً. إذ أرهقته السنوات الثلاث التي أمضاها في ألمانيا. وفرح بالمجيء للراحة، ورؤية أخيه الأكبر، وسرد تجاربه علينا، وقراءة آخر ما كتب.

واستمع إليه نيكوس متلهلاً: روايته جيدة، وكذلك المسرحيتان والترجمة الأمينة لـ «الإنياذة»^(١). إذ كان نيكوس يحرص دائماً على تشجيع الكتاب الذين يعرضون عليه أعمالهم. وعندما أستغرب تسامحه المفرط إزاء الشباب، يجيبني: «أنا أيضاً، عندما كنت في سنهم، كنت أكتب بشكل رديء. لا ينبغي إحباط الذين يتعبون من أجل الكتابة».

أراد لغتيريس أن يمتّع السيد كراوس بمشاركتنا في الاستماع إلى ثلاثية بتهوفن الموسيقية التي أتى بها، فدعاه إلى سهرة موسيقية. وظل فيليب كراوس ينصت في صمت عميق. سأل لغتيريس.

– موسيقى رائعة، أليس كذلك أيها الصديق؟ ألا تشعر بأنك إنسان آخر؟

– نعم، نعم، سيدي المدير.. لكنني أثناء عزف الموسيقى كنت أتساءل أين سترمي بكل تلك الابرة؟ في المرج، هه؟ وإذا ابتلعتها بقراني!

وتواصل الانسجام حتى اليوم الذي اغتاز فيه لغتيريس ومزق مخطوطاته فطارت مع الريح الشمالية فوق البيت.. وظل نيكوس يمسح شفتيه بينما انفجرت بالبكاء، مدركة أن لغتيريس قد مزق قلبه للتو.

لقد تكاثرت المحن الصغيرة على نيكوس. غير أن رسالة والدته، من دون أن يدركها مرض نو سيدووحة، أثرت فيه بعمق.

أشعر هذه الأيام الحزن لا يشعني. لقد حلت بي إحدى تلك الآلام التي لا تطيع تمزيعي. أغمض نفسي بآفة حتى لا أصرخ. مه! اني أدرك أن آفة شبيهة بآفة خذوة

(١) إذا لم تخني الذاكرة.

بتعزيتي..

ذلك ما كتبته إلى بريفيلاكي من دون أن يذكر سبب ألمه. لأن في ذلك اعترافاً بالموت، وتقبلاً له. لقد أكثر من الحديث عن الموت في رسائله. لكنه، موته الشخصي، فالمرء، قد يتقبل الموت لنفسه، وليس لمن يحب.

كنت أراقبه من طرف خفي، وأطرح على نفسي ألف سؤال وسؤال: ماذا بوسع السنجاب أن يفعل، وكذلك شجرة اللبلاب، أمام مشهد سنديانة مصعوقة؟

وبدأت الرسائل تأتي بالحاح متزايد من باريس: بريفيلاكي يحضر لامتحاناته، وصديقتنا المجهولة مادي سوفاجو لم تعد قادرة على إدارة أعمالنا بمفردها. وصار ذهاب كازنتزاكي إلى باريس ضرورياً، إذ، كما يقول المثل اليوناني «الوجه قاطعٌ مثل الشفرة».

لكن نيكوس كان في أمس الحاجة إلى العزلة. ومن أجل ربح الوقت طلب مني أن أستبقه إلى باريس. واتفقنا على التوقف في الطريق كي أذهب رومان رولان، وأقدم له مخطوطتي حول غاندي، لأز كتابه، هو الذي عرفني على المهاتما وجعلني أحبه. وبسذاجة، ذهب بنا الظن إلى أن رسالة اتهامية التي أعطاني إياها ستيفان زفيغ كانت كافية. لكنها لم تكن كذلك. إذ رفض رومان رولان استقبالي، وأعلمني أنه لا يقرأ المخطوطات مطلقاً.

٦ مايو، صباح الجمعة (١)

فديسي جرجس الجريح، الحبيب

تلقيت رسالتك منذ قليل وخرجت عن طوري. يجب أن يكتبي رسالة إلى رومان رولان، دون أن تكون رسالة متوسلة، كما لو كنت مدمنة. بر عليك أن تُوردي هاتين الجملتين اللتين بعثت بهما إليك طي الرسالة، حتى يفهم المير الكبير أنه جرحٌ كائنٌ عيباً وتصرّف بطريقة غير مشرفة.. وسوف تكون هذه هي الأولى التي يلقى فيها يد العون على درجة عالية من الكبرياء والنبيل، ولن ينسأما، رسالة (٢)..
(١) رسالة إلى ايمني ساميوس.
(٢) رسالة إلى نيقان (الشارع).

ثم وصل كازنتزاكي إلى باريس بدوره في اليوم الأول من يونيو، متأبطاً «الأوديسة» كي يعرضها على بريفيلاكي (ألف وتسعمائة وأربع وثمانون صفحة: أربعون ألف بيت شعر مخطوط بيده). وعرضت علينا ماري ابنة عمي، استضافتنا في بيتها الشاهق، في بولونيا - سور - سين. وجاء بريفيلاكي ليسكن قريباً منا. وأقترح اقتباس «كالاندريا» للكردينال بيبينا، و«ماندراغور» لمكيا فيلي. وسرعان ما أُرْفِقَ القول بالعمل.

تدهورت حالتنا المالية واضطرت إلى بيع ما نملك من قطع ذهبية بسيطة. وفي حين كنت أُنْهَمِك في شغل البيت كان نيكوس يذهب، والتمثال الصغير لدانتي في يده، للتنزه في غابة بولونيا. ولا بد أن «يخطيء» طريقه دائماً ويدخل إلى المقبرة، ويضيع، ثم يعود منهكاً. فهل كان يخطيء حقاً، أم أن القبر الذي حُفِر في كريت مؤخراً، كان يجذبه إليه من دون معرفته؟

وعندما لا يكتب يقرأ فاليري ومالارامي، والمختارات الشعرية التي أعدها بنفسه. وإلى تلك الفترة تعود هذه القصيدة القصيرة لمورياس، في ترجمة غير منشورة:

أنا الذي أحمل أبولون على أطراف أصابعي العشرة

أنا خرافة السوق المبتذلين.

إتاوة كانت، ولا تزال واجبة

اليوم، وفي سالف الزمن، ومنذ عهد قريب.

عُثِر في إحدى المجلات اليونانية على ترجمة سيئة لـ «أسطورة حب وموت كورني كريستوف ريلكه»:

- اللغة الديموتيكية لا تنجح في استيعاب مثل هذه النصوص، قال لي متأملاً بصوت خفيض. تذكرني: «البحر، البحر، المتجدد أبداً» حاولت مراراً، من غير طائل..

- وماذا عن: reiten, reiten, reiten,

- ترجمة ذلك حرفياً لا تجدي نفعاً باليونانية. ربما: خَبِياً، خَبِياً، خَبِياً؟ ربما..

ثم انتقلنا إلى ذكر اسم «الفلورنسي.. العظيم. فتحمس نيكوس وقرأ لي الأبيات الأولى من «الكوميديا الإلهية» لدانتي، التي شرع في ترجمتها إلى اليونانية الديموتيكية ببراعة فائقة، ولن ينهيها إلا بعد أعوام كثيرة، ليقدمها هدية لا تضارع، لليونان.

كان صبوراً جداً أمام مخطوطاته، لكنه لا يعرف مثل ذلك الصبر في المدن الكبرى. إذ أنهكته أربعة أشهر في باريس برغم جهود بريفيلاكي، ومادي الرائعة، ووالدتها، وبعض أصدقاء نيكوس، وأصدقائي. لقد ظلت الأبواب التي طرقها أصدقائنا محكمة الإغلاق، كما ظلت الأذان صماء. بينما حرّض غونغورا، وسرفانتس، والغريكو، ناسكنا المتوحد، على رفع المرساة. وفي نهاية سبتمبر ودّع صديقه مكتئباً وسافر وحيداً إلى إسبانيا:

الأربعاء، مدريد، كال سان فرناندو (١)

يونسون أبيلا (أكتوبر ١٩٣٢)

سافرت من دون توقف، ليلتين ويوماً. كانت الأمطار غزيرة في بايون بحيث تلاشت كل رغبة في الإقامة.. شاهدت المحيط الأطلسي لأول مرة؛ كان بارداً، أصفر اللون، موحلاً، كريهاً. ولم تعجبني بياريتز مطلقاً. عندما بلغت ايرون تعرفت إلى رفيق طريق، وهو فرنسي يمتلك أراضي في المغرب. هنا تختلط الأصوات والنساء والأطفال والمؤن والأغاني. ولقد أيقظني شخص منذ منتصف الليل، نافخاً في مزماره، وتبين أنه شحاذ يريد نقوداً. وصلنا إلى مدريد حوالي الساعة والنصف مساءً. وذهبت للتبضع مباشرة. ولقد ركضت مدة خمس ساعات وزرت خمسين فندقاً عائلياً - بونسون - أرخصها لا يليق بنا، وأغلاها لا نقدر عليه؛ وفي الختام وجدت فندقاً رائعاً، مثل الذي نزلنا فيه أثناء زيارتنا لروما، وربما كان أفضل.. قد أكون متعباً بعض الشيء، لكنني لا أشعر بذلك.. فأنت حاضرة في كل لحظة؛ لا تتركيني من دون رسائل مطولة وملأى بالتفاصيل..

أول ما فعلت في مدريد هو شراء كيلو غرام من التين الشهي. ولقد التهمته في الشارع. كانت حبات التين تتغلغل في أحشائي، باردة حلوة. وهكذا تلاشت، تدريجياً، كل متاعب

(١) رسالة إلى أيليني ساميوس

السفر. العنب يباع بثمانين سنتاً أسبانياً (فرنك واحد وستين سنتيماً) وهو شهى أيضاً. وثمة كميات وافرة من البطيخ الأصفر، والموز.

مدريد ٨ - ٩ أكتوبر ١٩٣٢ (١)

..استعادت حياتي إيقاعها، كما لو كنت أعيش هنا منذ أعوام. ومع ذلك لم أشرع في الكتابة بعد؛ أقضي النهار في زيارة المتاحف.. لم أرتبط بصداقة مع أحد، ولا أتكلم، راسلت روبيو (٢).. ولم أر خيمينيث (٣) بعد، أريد، قبل ذلك، أن أشبع بمدريد وشوارعها ومتاحفها وناسها.. حضرت أول أمس سباق ثيران: مشهد رائع وفظيع. يستحيل عليك أن تتحملي ذلك، يالينوتشكا، أما أنا فسوف أعيد الكرة لأن تلك المشاهد تهمني لأسباب عديدة.

ألف أكبر مسرحي إسباني، يدعى بينافنتي، مسرحية بعنوان «روسيا، القديسة روسيا» وقد عرضت البارحة لأول مرة. وقبل رفع الستار رتل المؤلف (ويبلغ من العمر حوالي سبعين عاماً) صلاة لروسيا، مفعمة بالدفء، والحب، والتفهم، والشغف. ولحسن الحظ، فقد تم نشرها في الصحف، فاقتنيت نسخة، لأترجمها إلى «ككلوس» (٤) وتتمكني من قراءتها.. إنه يقول ما أقوله تماماً، ويتحدث بدوره عن روسيا «المصلوبة».

مدريد، ٩ أكتوبر ١٩٣٢ (٥)

ذهبت مساء البارحة إلى المسرح الذي يرتل فيه بينافنتي صلاته إلى روسيا. انتظرته طويلاً أمام المدخل. كانت السماء تمطر رذاذاً، والرياح تعصف؛ وأخيراً وصل، نزل من سيارته فعرفته من خلال الصور الكاريكاتورية التي نشرتها الصحف؛ هرم، نحيل، نضر بعد، أنيق، ذو لحية صغيرة، قصير، لطيف. أرسلت له ببطاقتي مع رسالة؛ وبعد بضع دقائق جاءت سكريتيته وحددت لي موعداً في بيته، غداً، الاثنين، بين الثانية والرابعة..

مدريد، ١٤ أكتوبر ١٩٣٢ (٦)

..أمل أن أشرع قريباً في ترجمة نيسافور فوكاس (٧). إذا لم يربطني شيء هنا، وعندما

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) تيموتايو بيريث روبيو، رسام، ومدير متحف الفن الحديث في مدريد.

(٣) دون خوان رامون خيمينيث، شاعر غنائي أسباني كبير.

(٤) مجلة أدبية تصدر في أثينا.

(٥) و(٦) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٧) نيسافور فوكاس، مسرحية شعرية لكازنتزاكي انكب على ترجمتها للفرنسية مع تحويلها لتصير درامية أكثر.

أشعر بأن وجودي ليس ضروريا، سوف أذهب إلى الجنوب وأختار مدينة صغيرة هادئة. فربما تمكنت من العمل هناك. إن مدريد جميلة وفيها متاحف كثيرة. لكنها تفتقر إلى الهدوء. في المساء، بين السابعة والتاسعة، أذهب إلى السينما. ولقد شاهدت فيلماً رائعاً: شانغريلا، الحياة في الغابات الأفريقية، حسب رحلة جونسون الشهيرة. وهذا المساء سأشاهد فيلم روني كير «إلينا بالحرية»..

أنفق أقل ما يمكن. وأفقد صوابي عندما أرى الفواكه. تصوري البطيخة الصفراء الواحدة - هناك أكداش على الأرصفة - ذات الكيلوغرامين تباع بثلاثين سانتيموس، وكذلك البطيخ الأحمر. أما الموز الرائع فهو لا يكلف سوى فلسين. غرقتي تغص بالتفاح والتين والأجاص ولا أتوصل إلى أكلها.. لو كانت هناك نقود! لنأمل أن ينقذنا «غاندي».

الشوارع الرئيسية تكتظ بالبشر كما لو أنهم يشاركون في تظاهرة، بعيون متقدة، واسعة، سوداء، لدى الرجال والنساء. أصوات وضحكات كما في معرض. الناس طيبون دافئون خذومون.. وهذه المرة ترك عندي غويا انطباعاً قوياً. أما الغريكو فلم يتطور في داخلي، وظل في المستوى ذاته. لكن بعض لوحات غويا، وخاصة الأخيرة، احتلت مكانة عالية في روحي.

أطلب منك معروفين آخرين؛ قبل إعادة «فاليري» إلى بريفيلاكي اسحبي نسختين من «نخيل» ومن «المقبرة البحرية» سوف ندرجهما في الانطولوجيا الشعرية.

مدريد ٢٠ أكتوبر ١٩٣٢ (١)

.. ما أخبرتني به ليس مفرحاً، لكننا سوف نصمد قليلاً، وربما تغيرت عجلة القدر. أقتصد قدر الإمكان؛ ولا أنفق سوى بيزيتين يومياً.. وهكذا أستطيع المثابرة حتى شهر ديسمبر، وحتى ذلك الوقت قد تتطور الأمور نحو الأفضل. زارني خيمينيث مساء البارحة: هو ذاته دائماً، سيد عظيم، مهووس بمشروعه الإبداعي، عميق، جاد، هادئ، متحفظ وودود. وعدني بإعلام أصدقائه..

أنا متأكد من أنه سيبذل قصارى جهده، وربما نجحنا.

زرت بينافنتي، قليل الكلام، هرم، أنيق، لكنه بارد. لا أدري كيف استطاع كتابة تلك «الصلاة» الجميلة. شاهدت أيضاً مسرحيته «روسيا، روسيا المقدسة»: رديئة، مقاطع

(١) رسالة إلى إيليني ساميوس.

طويلة، حيل قديمة، لكنها عادلة وحارة. أما من الناحية الأدبية فهي ضعيفة. سأقابل هذه الأيام، في بيت خيمينيث، أورتيجا إي غاسيت (وهو أكبر مفكر هنا).

أطالع باستمرار كتباً أسبانية مفيدة. لكن ذلك لا يكفي. ينبغي أن تكون مخطوطة «نيسافور فوكاس» جاهزة عندما أسافر إلى باريس. سنحاول مع «بيتوف» موت روبير فرانس صدمني. هل يعود الذنب إلى «تودا — رابا»؟ صرت أتساءل عما إذا كان هذا الزنجي يؤذي بالسحر. أرجو من الله ألا يؤذينا نحن أيضاً.

لا أدري ماذا أفعل مع «ذ»^(١) كيف أتصرف مع مخلوق سيء يريد نقل القضية إلى المحاكم؟ يقيناً ليست هناك وسائل أخرى أمام أي رجل شريف للدفاع عن حقوقه. علينا أن نتحلى بالصبر والمثابرة قدر المستطاع.. أسف لعدم وجودي معك حتى أخفف من همومك اليومية. صبراً، صبراً، صبراً فوق الأرض..^(٢)

٢٦ أكتوبر ١٩٣٢^(٣)

تحدثنا مطولاً مع روبيو. رجل دافئ، عاطفي، يعجبني.. يتحدثون هنا عن مجيء «هيريو». هل أبعث إليك بمقال تقديمه للنشر في «لوموند» أو «لي نوفيل ليتيرير»؟ ما العمل للحصول على المال؟ هل أكتب إلى رونو بخصوص مكافأة المقال؟ عندما ينتهي كل ما لديك من نقود (وأخشى أن يحصل ذلك قريباً جداً) سوف أتجاوز انزعاجي وأراسله. إلهي، كم أسعى إلى إخفاء القلق الناجم عن صعوبات حياتنا المادية! أتشجع، أشد على أسناني، ولا أنبس بكلمة. لكن فراقنا ينهكني.

٣١ أكتوبر ١٩٣٢^(٤)

ألف شكر على الرسالتين. لقد فرحت بهما كثيراً على الرغم من مضمونهما غير السار كثيراً. لكن الجوهرى موجود: وجودنا في توافق وثيق^(٥) وما تبقى ظلال تمر ولا تلطخنا

(١) الناشر اليوناني الذي كلف كازنتزاكي باعداد القاموس الفرنسي - اليوناني، وسلسلة كتب الأطفال.

(٢) تصرف في بيت شعر لبول فاليري.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٥) بالفرنسية في الأصل: (notre existence si unie)

بالسواد.

قرأت رسالة «غراسيه» بهدوء. إنه على حق: «كتاب زاخر ورؤيوي»^(١) وخال من الزنا. سوف أكتب «ريدر».

تلقيت خبراً مريعاً من الإسكندرية، أمس: توفي واحد من أفضل أصدقائي، هو ج. بتريزيس، كان سليماً قوياً ورائعاً.. ما أبشع هذه الحياة، وما أشد عبثيتها وهولها. بقيت، طيلة النهار، أرتجف سخطاً، والآن لا أستطيع الحديث عن ذلك..

لم أنتقل بعد إلى بيت روبيو، لأنه لا يريد أي مقابل. إنه فقير ولا يمكن التصرف بهذه الطريقة. كيف أحصل على المال قبل وصولي إلى باريس؟ كيف أتوصل إلى المحافظة على هدوئي مع هذه الحاجة البائسة؟

علم نيكوس بوجود شهود في أثينا مستعدين للإثبات بأنه لا يجيد الفرنسية وأن ترجماته ليست جيدة، فكتب إلى بريفيلاكي.

مدريد أول نوفمبر ١٩٣٢

..هاهي ذي جهودنا على الصعيد العملي تذهب أدراج الرياح، اتحد الجميع من أجل افتراسنا. أحياناً يملكني هاجس: أن أصعد إلى الجبل ولا أعود للنزول منه أبداً. ليس لدينا ما نتقاسمه مع البشر، ولا نحتاج إلى ذلك، وهم لا يحتاجون إلينا، بل يحاصروننا - حتى الأفضل بينهم - بطرق عديدة، كي يجعلونا نستسلم، كما لو كنا عينات أولى من نوعٍ مستقبلي، وحتى الظروف الطبيعية المحيطة بنا، تعادينا؛ فلا الهواء، ولا الطموحات، ولا الفكر الإنساني، تشكل «مناخنا» وهذه ليست رومنسية، ولا تمرداً ولا ضعفاً، ولا حتى قوة. أحس أنها شيء أعمق، وأكثر تصوفاً وعضوية. سوف نرى!

وكتب إلى صديقه الشاب رينو دي جوفنال:

..إن القطبين المتضادين في الروح الإسبانية، «نادا» (لا شيء) والهوى، يمنحانني المناخ القاسي الذي يلائمني؛ أتنفس هنا براحة تامة. لو كان في استطاعتي لأقمت هنا في قشتالة، كما لو كنت «في بلادي» (الغريكو) أحب وضوح العرق الفرنسي وعقله الذي لا

(١) هكذا وصف الناشر غراسيه «تودا - رابا» ورفض نشره.

تشوبه شائبة، وأعجب بهما؛ لكنني أحس بالاختناق بعض الشيء، في ذلك الأفق المحدد.
إن مواجهة «نادا» هي ما أحبه، وما أجده هنا، في التراب، والهواء، والطواحين الهوائية
لسيدنا دون كيشوت^(١)

(مدريد، بلا تاريخ)^(٢)

لينوتشكا الحبيبة،

..المساعي هنا تسير وفق حماسة ولا مبالاة يتميز بهما الأسبان.. لأول مرة تقلبد
السماء، اليوم، بالسحب، وينزل الرذاذ. لكن هناك حرارة معتدلة. مناخ مدريد من
المناخات الأكثر جفافاً في العالم.

..أنا بدوري أفكر كثيراً في بريفيلاكي، هل سنبقى دائماً ميممين شطر «الأنانغي»^(٣)؟
لقد بذلنا ما في وسعنا. ماذا نضيف كي نجلب الحظ؟ لم أعد قادراً على النوم، وبدأت أهزل
من جديد.. الهموم تأكلني خفية. ماذا أفعل حتى لا أعود إلى اليونان؟ كم أتمنى أن أوافيك
بخبز سار من هنا! أجبْتُ «غراسيه» بأن عليه أن يعذرني على بقائي وفيّاً لأصلي.

ومن ترياست كتبت ادويغ تخبره بأنها أصيبت بكسور في الذراع، وتلازم
الفراش.

مدريد، ٦ نوفمبر ١٩٣٢^(٤)

Amica cara^(٥).. حدثتني عن المصادفة والفضيلة الشخصية ومختلف وجوه
تدخلهما وانتظامهما - تلك أشياء غامضة لا أستطيع الإجابة عنها بدقة. ومن خلال
حياتي الشخصية أعرف مايلي: ثمة أمر فظيع في الروح البشرية، رُمح من نار ونور،
يخرق كثافة المادة والظلمات. وثمة ضحكة صغيرة ساخرة واستفزازية تخرج
منتصرة دائماً من كل تجربة. أم أجد السعادة مطلقاً إلا في قمة اليأس الأكبر.

لماذا؟ لأنني ثابرتُ (مزموم الشفتين، ممثلي القلب بالحق على الموت) من أجل بلوغ
القمة. وكان كل شيء منظماً، حولي، ضدي. وعندما رأيت كل هؤلاء الأعداء، أحسست

(١) رسالة كتبها كازنتزاكي بالفرنسية.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) الحاجة، الضرورة.

(٤) رسالة كتبها كازنتزاكي بالفرنسية

(٥) حديقسي العزيزة، بالانطالدية «أ» - حم»

بالاستعداد والنشاط والصدق والصمت — وأخيراً، بالنصر. ويحسبني أصدقائي سعيداً لأنهم يجهلون الصراعات التي سبقت النصر، لأنهم لا يعرفون أن سعادتني هي الزهرة الأسمى ليأسي وكراهيتي لكل الأشياء الأرضية. لست متمرداً رومانياً، ولا متصوفاً يتنكر للحياة، ولا سفيهاً يصارع المادة. أحب الحياة والأرض والإنسان والحيوان والأشياء الزائلة. أدرك قيمتهم، وكذلك حدودهم. لا يخالجنني أي وهم، ولم أسقط في أي فخ — مع المرور بكل الفخاخ — مثل جردن مرز يدخل إلى الفخ ويلتهم الطعام المعد لاقتناصه — ثم ينطلق إلى فخاخ أخرى، مدركاً أن الأخير — فخ الموت — ينتظره، وعندما يدخل إليه، لن يخرج أبداً.

صديقتي العزيزة.. الكلبة الخائنة تفرط في تبسيط كل شيء؛ لهذا أزدري الكلام دائماً. لكنك نبيلة وقادرة على فهم الهالة التي يحيط بالتعبير عنها، والمتموجة حول الكلمات. لهذا السبب أيضاً (وليس لإصابة ذراعك بكسور فقط) أحدثك وأكشف لك قليلاً عن سري.

وفي الشهر نفسه، كتب إلى ليّا، من مدريد أيضاً.

عزيزتي، العزيز ليّا،

أخيراً استلمت رسالتك الطيبة. كم مرة جبت الأرض من أجل مقابلتك! بحثت عند مثل أعمى خلف الجبال والبحار. أرا! أنت "كن في البلاد المقدسة التي لا أريد ولا أستطيع نسيانها. متى أرى محياك الجميل؟ أحياناً تبدو لي الأرض في منتهى الاتساع والرحابة، وأحس أن روحي المتعددة قد دُمرت إلى الأبد. لكنني متأكد أن ضحكاتنا وأصواتنا سوف تدوي معاً من جديد، سعيدة برغم كل شيء.

أنا سعيد تقريباً.. وهذا يعني أنني لم أعد في حاجة إلى السعادة. أرى، أسمع، أفكر، أكتب شعراً جيداً، أتذكر، ألثم الحياة الرائعة العميقة بنهم، كعادتي. وفي كل لحظة أودع كل شيء. في كل لحظة أرى كل شيء لأول مرة. أدرك العذوبة جيداً وأحبها. أعرف الهوى جيداً وأحبه. كل شيء مقدس وأنا لا أشبع قط. لا أعب كما تؤكد راحيل، بل أتقدم حتى حافة الهاوية، وهناك أدرك أن كل شيء حكاية حنات. بلا هدف، رائع وعجيب، يتجاوز أية غاية. وليست إثاكا بالنسبة إلى عوليس. تلك الجزيرة الصغيرة، بل هي السفر إلى الجزيرة الصغيرة التي لا وجود لها.

..لا أعرف شيئاً عن حياتك، صديقيني، أرجوك، أحبك كثيراً، وأنا صديق طيب. يقول

بانايت استراتي إني قوي؛ لست أدري. ما أعرفه هو قدرتي على أن أفرح وأتعذب مع كل الذين أحب. لا أنسى شيئاً، وأحس بأنني وثيق الصلة ببضع أرواح أحبها.

توفي روبير فرانس وعاد ريدير بعرض جديد: طلب منّا أن نشترى مسبقاً خمسمائة نسخة من «تودا - رابا» (وهو الذي سينشره) بخمسة عشر فرنكاً للنسخة الواحدة. وهذا يتطلب سبعة آلاف وخمسمائة فرنك، وهو مبلغ لا نملكه. وهكذا تبخر أملنا مرة أخرى في طبع هذا الكتاب، في فرنسا، لدى ناشر كبير.

ومن حسن الحظ أن المشاكل المالية لم تتسبب في نضوب قريحة الشاعر، ففي يوم ١٥ نوفمبر أخبرني نيكوس:

أكملت اليوم نشيد دانتي. ويتكون من مائة وسبعين بيتاً. أطول قليلاً مما كنت أرغب. سأرسل به إليك بعد بضعة أيام طالباً منك أن تطبعي منه خمس نسخ، وتقديمي نسخة إلى بريفيلاكي من أجل رحلته. ولسوء الحظ لا أستطيع حالياً أن أودّعه بهدية أخرى.

..سأذهب بعد قليل إلى «الأتينيو» وهناك سألتقي بعض الأصدقاء، وأقابل أونامونو.. جاء بوريبا في آخر لحظة واتفقنا.. إنه متفائل، كما أن مدير السينما أبدى إعجابه بـ «دون كيشوت» وحدد موعداً لمناقشة الموضوع بعد.. خمسة عشر يوماً! وهكذا يمر الوقت ولا أدري إن كنت سأقدر على مواصلة العيش هنا..

مدريد ١٨ نوفمبر ١٩٣٢ (١)

..ثمة امرأة مجدداً، تسعى إلى إيجاد وسيلة تمكننا من الاستقرار في مدريد.. الآمال ضعيفة لكنني أفعل ما أستطيع.

شاهدت البارحة Mädchen in Uniform. إنه أجمل فيلم في حياتي. رائع الإخراج والسيناريو. بسيط، عميق، لاذع، إنساني، رصين، مؤثر.. توقفت الآن عن أكل الفواكه واقتناء الكتب. وعندما أسكن عند روبيو سوف أتوقف عن الأكل أيضاً. أعرف أن النجاح هنا يتطلب الصبر والمكابدة.

الأحد، منتصف الليل (٢)

..غادرت ماري غرفتي منذ قليل. كانت مرتاحة، نضرة، مبتهجة. سلمتني رسالتك

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

وفرحت كثيراً لرسالة غاندي^(١). فليصدر أخيراً! فرحت أيضاً بإكمال بريفيلاكي امتحاناته. كان ذلك يقلقني كثيراً.

بلازا دل بروغريسو^(٢)

حاشية: انتقلت إلى الغرفة الجديدة، وهي واسعة ومشمسة.. استلمت للتو رسالة من أنغيلاكي تجدينها طي الرسالة. قال إننا ربحتنا قضية الكتب^(٣).. هذا جيد، برغم أنه لن يساعدنا مالياً حتى الآن.. وحتى عندما نستلم النقود، لن تكون هناك قيمة للدراخما. إنه مكسب معنوي..

٣ ديسمبر، مساءً^(٤)

..أدركت من خلال أغنية شعبية سمعتها أول أمس أنني عشت حياتي سدى. ولو عدت إلى هذه الأرض لاخترت، بالتأكيد، طريقاً آخر. لكنني لا أتمنى العودة إليها. عندما أشم رائحة التربة المبلولة، ينقبض قلبي وتملأني العودة إلى حضن الأرض بفرح مرّ. أتذكر أنني التفتت، عند منعطف الشارع، أثناء توجهي إلى الميناء، ورأيت أمي - لآخر مرة - واقفة على العتبة تبكي. وهي الآن موجودة في الضفة الأخرى وتناديني. ولم تعد الأرض تزدريني. لا يمر يوم من دون أن تتملكني هذه الرؤيا، ولا تمر ليلة من دون رؤية أمي في الحلم. لقد اكتسب الجحيم تألقاً غير معهود، وأعتقد أنك الوحيدة القادرة على استبقائي في هذه الأرض.

ليس ذلك ما أريد التحدث عنه.. أحتاج إلى «الأوديسة» أكثر من أي وقت مضى، كي أمنع قلبي من التفتت، إنها تشبه الخمرة التي تزود بالنسيان. لكنني لم أتوصل إلى الانتشاء وفقدان الذاكرة مطلقاً.

مدريد، ٨ ديسمبر^(٥)

حلمت الليلة الماضية بأنني أتحدث عنك إلى شخص آخر، ولم أتذكر بعد استيقاظي سوى هذه الجملة: «إيليني عندما تكون بجانبني تغمرني بالنور، أما الأخرى (لا أدري من هي) فتلقي بي في الظلام» فرحت لأن ذلك صحيح.

(١) راسلني غاندي بخصوص موضوع كتابي.

(٢) ساحة التقدم. رسالة إلى إيليني ساميوس.

(٣) الكتب التي ترجمها أو اقتبسها كازنتزاكي ورفض الناشر اليوناني دفع مكافأتها.

(٤) و(٥) رسالة إلى إيليني ساميوس.

على هذه الورقة تجدين التصويبات الضرورية التي طلبتها مني. بعض المقاطع أعجبتني كثيراً، وكذلك الخاتمة الهادئة. صحي وسوف نرى فيما بعد.

.. أول أمس كان يوم عيدي^(١) فقررت الذهاب إلى المطعم، ما أذا الأكل الساخن! أتناول عادة، وجبتين في المطعم أسبوعياً، والبقية في البيت: شاي، كاكاو، زبدة، زيتون طيب، سردين مملح، وفواكه.. وهكذا سمنت. ولم يعد جسدي مرهقاً^(٢) كما في الفندق. فلا تقلقي. ذلك أنني أنفق أقل، وأكل أفضل..

قرأ بوريبا «ليديو» على مدير المسرح لكنه وجد المسرحية غامضة.. وهو أكثر تفاؤلاً بالنسبة لـ «دون كيشوت». لا شك أن «ليديو» ستحقق نجاحاً كبيراً إذا تمت الموافقة على عرضها. تذكرني «توبان»^(٣).

«كالاندريا»، «دون كيشوت»، «ديكامرون» بوكاتشي، ماندراغوري (ليئو - ليديا) لكيافلي، «كسوف الشمس»، كرسي تدريس اللغة اليونانية الجديدة في جامعة مدريد، والجائزة الأدبية التي كانت ستتوج كتابي عن «غاندي»، عرض ريدر الجديد لنشر «تودا - رابا»، «نيسافور فوكاس» الذي أراد جوفينال عرضه على بيتوف، كلها آمال، انهارت مثل قصر من ورق.

لو كنتُ مع رفيق درب، آخر، لَلَعَنْتُ يوم ميلادي. غير أن نيكوس الذي لا يرقص مثل زوربا، كان يتمتع في أخرج الأوقات، برد فعل غير متوقع، فيمط شفتيه اشمئزازاً، أو ينطق بكلمات مؤثرة، أو يتحول إلى «خيميائي» منكب على تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، فتتقبله فرحاً بمتابعة الصعود في الدرب العسير. عندئذ يصرخ «مبارك هو العائق» منتشياً بتعاقب المصائب، «مباركة هي المحنة التي تمكننا من محاكمة روحنا، والحكم بأنها تتمتع بالجدارة!».

ومع ذلك كان يعرف بدوره، لحظات حزن عميق؛ كتب لي بعد موت عزيزته الكونتيسة أنريشيتا بوتشي:

الموت يطوقني من كل جانب، ما من يوم، أو ليلة تمر من دون أن تظل روحي خرساء،

(١) «عيد الاسم» الذي يصادق عيد قديس يحمل الاسم نفسه. وهنا القديس نيقولا «الترجم».

(٢) إرهاب الإفراط في الأكل!

(٣) «توبان» مسرحية لمارسيل يانيول عرضت في مسارح كثيرة قبل الاعتراف بها.

مُسَقَرَة على الموت الأول الذي ضربني في مارس، وشق قلبي^(١)

لقد ظل القبطان ميخاليس وحيداً، يصرف وقته في إطعام الطيور واحتساء العرق، وكان يجلس في مكانه المفضل، أمام النافذة، ويقطع الخبز قطعاً صغيرة، يضعها على منديل فوق ركبتيه.

وتقلق أنستازيا. ذلك أن والدها لا يكاد يأكل. ويكتفي بارتشاف بطيء لعرقه، بحركات رتيبة، ولا يدرك أحد ما نوع الأفكار التي تدور في رأسه.

لقد راهنت أنستازيا على تعلقه بأحفاده فحاولت إقناعه بالإقامة في بيتها. وكانت حفيدته كليو، الأثيرة لديه، هي الوحيدة القادرة على إخراجه من صمته المطبق. وحكت لي، ذات مرة، بتأثر شديد:

«يكن لي جدي مودة خاصة. عندما أذهب إليه أجد دائماً الفواكه وخبز «الفرانزولا»^(٢) الذي أحبه، كما أجد صابونة معطرة على صندوق الخزانة.

— وبعد ذلك؟

— بعد ذلك رفض الإقامة معنا، وفضل العزلة والطيور والعرق.»

ولا تشبه أيام القبطان ميخاليس الأخيرة، أيام بطل «الحرية أو الموت» في شيء. ذلك أن القبطان ميخاليس الحقيقي، مات على فراشه، في غبطة كثيراً ما تحدث عنها الأطباء. ففي أيامه الأخيرة صار يتهيا له أنه يرى ابنه الذي مات صغيراً أثناء ليلة هروب من الأتراك. فهل أفرطت ماريغو، بسبب الذعر، في إعطاء يورغاكي الصغير مغلي الأعشاب المنومة الذي كان يقدم للأطفال الرضع حتى لا يبكوا ويجلبوا بنادق الأتراك؟ ذلك ما تتهامس به العائلة من دون أن يؤكد أحد.

وهاهو ذا قارون يأتي الآن، كي يأخذ القبطان ميخاليس أيضاً. نادى القبطان ميخاليس ابنته: «أنستازيا، اجلبي كراسي، مزيداً من الكراسي! ألا ترين؟ لقد جاء

(١) إشارة إلى موت أمه.

(٢) خبز على الطريقة الفرنسية.

الأقارب والأصدقاء ليسلموا على ابني يورغاكي العائد..» ثم يخاطب شبح ابنه الميت: «مرحباً.. مرحباً!!!» متمتماً بفرح لا يوصف.

وفي مدريد صعد نيكوس بالخبر. ولكي لا يسقط بدوره في العدم، فقد اختار الهروب. ولم يقدر على مراسلتي خلال الأيام الأولى. فقلقت كثيراً. وكان يعرف ذلك. فكتب معذراً عن صمته:

بالادوليد، ٢٧ ديسمبر ١٩٣٢ (١)

حبيبتي لينوتشكا

أكتب إليك من بالادوليد. أجوب شمال اسبانيا أملاً إرهاباً جسدي. أول أمس كنت في سالامنكا، وغداً سأذهب إلى بورغوس، وبعد غد، إلى سرقوسة، وبعد ذلك.. لست أدري. أشاهد بشراً آخرين، كاتدرائيات، متاحف، تماثيل للمسيح، لوحات، ولا أكاد أكل. وأمل أن أرهق كما ينبغي، خلال الأيام القادمة، لأن ذلك يلائمني. افكر فيك كل لحظة، لم يعد يوجد أحد في العالم. متى نلتقي؟ أعرف أنني سأجد رسالة منك حالما أعود إلى مدريد، وهذا أمر مفرح. كل ما أشاهده حالياً في منتهى الجمال، لكن روعي كتيمة (٢)، وغير منفذة، أميز الأشياء بصعوبة، وفمي مملوء بالرماد.

ميرندا، قرب البيرينيه، ٢٩ ديسمبر (٣)

غادرت بورغوس في الرابعة والنصف، ويتوجب عليّ انتظار قطار سرقوسة ثلاث ساعات، هنا. كاتدرائية بورغوس قلعة حقيقية، ذات اندفاع وروح حربية. لا تتحلّى بنبل نوتردام لكنها ذكورية، متوحشة، عدوانية، وقد أعجبتني. أعجبنى كذلك قصر قديم ورائع يعود إلى القرن الخامس عشر. وفيه استقبل الملوك كريستوف كولمبوس لدى عودته من أمريكا، وهو أقرب إلى بيت اقطاعي قديم في منتهى البساطة والقيمة. أضع وافي الرقبة الصوفي الذي أعطيتني إياه ويجمع بين الرمادي والأحمر والأزرق، ولا أشعر بالبرد بتاتاً. ربما أنزل، بعد سرقوسة، إلى أليكانتي.. لم يُرهق جسدي بعد كما أريد، وكما ينبغي. لم يسبق لي التفكير فيك بمثل هذا الحب والحماسة. لم يعد يفرحني شيء غير رؤيتك.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) بالفرنسية في الأصل Opabue.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

سَرْقُوسَة ٣٠ ديسمبر (١)

برد قارس، أجوب الشوارع جيئة وذهاباً، بلا هدف، المدينة رائعة على النهر، لكنها لا تهمني. كاتدرائيتها الشهيرة، ضخمة غير متناسقة، وسخيفة. وتمثال معجزة العذراء المكسوة بالذهب، محاط بالشموع، والقناديل، والقساوسة، والنساء. أولئك النسوة يتعبدن لأثار قدميها على الرخام ويبكين بجانب طبق القرابين الفارغ. ومن بين كل الناس الذين رأيتهم يدخلون ويخرجون ويصلون (نساء كثيرات يمددن أذرعهن مثل المصلوبات، طيلة ساعات) هناك رجل واحد بدا لي مؤمناً حقاً: فلاح دسّ يده في جيبه، وأخرج منه فلسين ثم وضعهما في الطبق.

شاهدت أزقة ضيقة، كما في نابولي، غسلاً على السطوح، فتيات بشعات مع شرائط على شعورهن، حشوداً من القساوسة والشحاذين، أسواقاً على الأرصفة. شاهدت كل ذلك مراراً، لكن قلبي ظل متحجراً..

سَرْقُوسَة، ليلة ٣٠ ديسمبر (٢)

تلقيت للتو خبراً مفرحاً بعض الشيء.. خصصت لي وزارة الخارجية الإسبانية مبلغ أربعمائة بيزيتا شهرياً حتى أكتب مقالات عن الحركة الفكرية في إسبانيا.. لا شك أن مبلغ أربعمائة بيزيتا ليس كبيراً لكنه كافٍ للعيش في مدريد وسوف يمكننا من التجول في إسبانيا خلال فصل الربيع.. أنا سعيد لأنك سوف تتمكنين من مشاهدة الغريكو وطلليطة ومدريد والاسكوريال.. فليشرق النور أخيراً! ولتغرب سنة ١٩٣٢ من دون أن تتكرري! ولنتمكن من العيش معاً، بعيداً عن اليونان!

وفي حين كان نيكوس يتلقى ذلك العرض «المفرح بعض الشيء» في مدريد، عُرض عليّ في باريس الذهاب إلى إنجلترا لتعلم اللغة الإنجليزية، مع وعد بالعمل حال رجوعي بعد بضعة أشهر من التدريب. تقاطعت رسالتانا. وكثيراً ما كنا نطلب من الله أمراً فيهبنا الكثير. ولعلّه يتسلى بارتباكنا في الاختيار.

وطلب مني انغيلاكي الذي عمل محامياً لنا، أن أحضر إلى اليونان كي.. أحسب بدقة عدد الكلمات في كل مخطوطة من مخطوطات كازنتزاكي!

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

مدريد، الأربعاء، منتصف الليل (١)

٥ يناير ١٩٣٣

١٩٣٣. حبيبتي، عدت لتؤي من السفر ووجدت رسائلتك، وكذلك البرقية. لا ينبغي، طبعاً، إضاعة فرصة الذهاب إلى إنجلترا وتعلم الإنجليزية. أقول لك ذلك بكل هدوء وإقتناع.

سوف أرى غداً ما يتوجب عليّ عمله بالنسبة لما كُلفت به، هنا. أنا الآن أسف على قبوله. لكنني فعلت ذلك كي أتفادي اليونان. سوف نرى. ربما انفتحت أمامنا طريق أخرى. أية طريق؟ عملي الوحيد هو ألا أرى أحداً، وألا أعيش بين البشر. كل اتصال مضمّن - وأسوأ - إنه غير مجدٍ.

أواه يا قلبي اتبع دربك، مثل الكركدن (٢)!

..اعذريني على التأخر في الكتابة. كان الألم لا يطاق.. كما لو أن نصف جسدي سقط في هاوية، كما لو غاص نصف في الأرض، قبل دنو ساعتي. لذلك فضلت الهروب. جبتُ مسافة ألفي كيلومتر من دون أن أتوقف تقريباً، مع أكل ونوم قليلين جداً، وكوابيس لا تنتهي. حاولت إلهاء روعي حتى لا تعوي، وإرهاق جسدي حتى أدجنه. وبالأمس، في أليكانني أحسست بالانفراج لأول مرة، قرب البحر وتحت الشمس. والآن عاد الهدوء. وما أريده هو عدم رؤية أحد، وعدم التكلم عدّة أعوام، والجلوس على الأرض، إذا أمكن، قبالة البحر، وتأمل الصحراء. لكن أين وكيف؟ كيف أهرب من الناس؟ كيف أصير لا مرئياً؟ الوقت حرج وليس لديّ متسع من الوقت أضيعه في التفاهات. لقد بدأت الجذور، كما ترين، تشدني نحو الأرض.

لدى عودتي، وجدت، هنا، بطاقة من باناييت. وهانذا أنسخها لك:

«دير نمتز، كاربات مولداقيا، ٥ ديسمبر ١٩٣٢. عزيزي نيكوس، ماهي أخبارك؟ أنا قلق عليك، مريض جداً ولا أستطيع نسيان وجهك المتفرد! إذا كنت لاتزال غاضباً، سامح، وخبرني بأنك مازلت حياً. صديقك باناييت».

سوف أكتب إليه هذه الأيام.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) بالفرنسية في الأصل.

غداً صباحاً أضع هذه الرسالة في البريد.. لم يصبني شيء. هذا الجسد لا يتصدع، ماذا ينبغي أن يحدث له كي يتهشم؟ حالتي حسنة. لم أضعف، ولم أشعر حتى بالتعب، على الرغم من مختلف أنواع الحرمان التي تكبدتها عمداً. من المؤكد أن جسدي سوف يتحطم ذات يوم، بشكل مفاجيء. سوف نرى. بدأت أنتظر ذلك ببعض التلهف. أنتِ الجذر الوحيد الذي يحافظ عليّ واقفاً.

٥ يناير ١٩٣٣ (١)

حبيبتي. كنت خارجاً لوضع هذه الرسالة في البريد عندما تلقيت رسالتك الرابعة.. عزيزتي لينوتشكا، أفهم ما تقولين لي، لكنني لا أستطيع، لا أستطيع.. صوت صارم في داخلي يمنعني من العودة إلى كريت للتأكد من الميراث الذي تركه لي والدي. كيف أفسر الأمر، مادام خارج أي منطق. أشعر بالخزي من إنجاز هذه الخطوة. أشعر بالخزي ولا أريد.. هيلينا^(٢) لديها الكثير من الأقارب الأوفياء وسوف يحمونها.. لعلنا نجد شيئاً ما، بالنسبة إليّ، أنا أيضاً، في إنجلترا - مثل تدريس اليونانية القديمة أو الجديدة في بعض المعاهد، الخ... وربما وجدنا، هنا، شيئاً دائماً لكيلينا..

حالياً لا نستطيع العيش في باريس. ومن يدري؟ ربما، فيما بعد، لأنه يتوجب الاستقرار في النهاية.

هنا، كان يتوجب عليّ التوقف.

كانت هذه الرسالة مثيرة إلى درجة أنني أجّلت إتلافها باستمرار. وعندما عدت إلى قراءتها بعد عشرين عاماً، شعرت بأنني في حلٍ من الأمنية التي تعبّر عنها، والتي اعترف بها نيكوس في «تقرير إلى غريكو» وتسلّط عليها هذه الرسالة ضوءاً أسطع:

مدريد ٥ يناير، مساءً (٣)

.. تأثري بموت أبي يصعب وصفه. لم أحدث أحداً بذلك، حتى روبيو، وأجبرت نفسي على الاحتفاظ بالهدوء، الأمر الذي زاد في إنهاكي. لم أستطع الحؤول دون انفجار روحي إلا بالصمت، والهروب، والتطواف كما فعلت، عبر إسبانيا، والصوم، كما فعلت، مطولاً.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) شقيقته الصغرى.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

أكرر لك، ليس الحب هو ما يربطني بوالدي، بل هو جذر كبير، سميك وعميق، وقد قُطع الآن. ترنحت الشجرة كلها. وسوف تكون لهذه الواقعة عواقب وخيمة على حياتي. والآن، وأنا أشعر بعودة الهدوء، أرى تلك العواقب تلوح الواحدة تلو الأخرى. ويأتي في مقدمتها ذلك الشعور بالتححرر. كان هناك كابوس يخيم على حياتي، والآن بدأت أتنفس.. وأسترجع قواي، وأعلن استقلاليتي، حريتي الذاتية. وأفعل ما أريد من دون أن يحاسبني، في داخلي، أحد. أحسبني الآن نَسْراً كاسراً تحرر من قيوده. وتلاشى الظل الذي كان فوقني، هبط وغاص في التراب.. الآن وقد غاب الذي أتى بي إلى العالم، أولد في العالم.

هذه الكلمات شنيعة، وأقولها لك وحدك، لأنك أحسست بذلك منذ أعوام عديدة عشناها معاً، وأتمنى أن تحرقني هذه الرسالة، أرجوك، حتى لا تبقى شاهدة، فما من أحد يستطيع فهم هذه العقدة كما أحس بها حقاً. لقد تعزيت، وتحررت، وسوف تتقوى روحي. لم أعد أخشى شيئاً، أو أحداً. وهذا التحرر زعزعني ومزقني، كان الألم الناجم عن موت أمي مطبوعاً بالمرارة العاطفية، شكوى طفل مهجور في العتمة، وقد أفلتت يده من الكف الأمومي الحبيب. أما خسارة الأب فهي عزاء ممزق: حرية، تنفس عفوي، مثل رضيع يولد وتؤلمه رئتاه، إذ تتمددان من أجل التنفس.

..يستحيل الكلام، كنت قادراً على الصراخ فقط، لكنني لم أشأ ذلك. سامحيني لأنني أتعبتك. لكنني لن أشعر في المستقبل بمثل هذا الزلزال الذي يغلق فمي. أكتب إليك كل شيء، لكنه لا شيء، ولا يعني شيئاً، غير أنك سوف تفهمين ما لا يُقال، وتضيفين عليه المضمون الذي ينقصه..

لا أجد أي مبرر للعودة إلى كريت، كما أسلفت القول إليك.. كان ينبغي أن أكون هناك قبل النهاية المشؤومة، وحتى في ذلك الوقت، لدي قناعة بأن تلك العودة غير مجدية.. وإذا لم يتم العثور على بعض الأموال، فمعنى ذلك أنها مدفونة في مكان ما، تحت الأرض. ذلك ما فعله والدي، ذات مرة عندما مرض مرضاً خطيراً، ثم عاد إلى نبش الأموال المردومة. ولا شك أنه فعل الأمر نفسه حالياً. إنها غريزة كهفية مظلمة، بصرف النظر عن هوسه الدائم بالتأكد من أن أبنائه لن يستفيدوا بعد موته، ولن يفرحوا بموته. غرائز غول ضاربة في القدم.

وكتب في اليوم نفسه إلى ب. بريفيلاكسي:

..لو لم توجد ايليني لاتخذت القرار الحاسم: لا حاجة بي للمدن والأحاديث. عزلة،

عزلة وصفاء!

وجدت مساء البارحة رسالتك. تزعزعتُ بسبب أثينا، وأنا أقرأ الرسالتين، قرفاً وفرحاً أيضاً بوجودنا وحيدين، مجهولين. وما نسعى إليه، يبدو للجميع لا عقلانياً وعتيقاً.. لأنه خالد.

اعذرني على عدم اتباع نصيحتك. ما قلته لي صحيح، عقلاني وضروري. غير أن صوتاً داخلياً يزمجر ويستوقفني. وأحياناً أنصت إلى هذا الصوت المزمجر برغم لا عقلانيته ومطالبته لي بأشياء، ربما تكون فوق طاقتي، إذ يريد جعل حياتي لا تطاق، ممتلئة بالقلق، والارتباب.. وجعلها في الوقت ذاته بطولية أكثر. أقول بطولية لأنني لا أجد كلمة أخرى. ربما كانت كلمة «الصفاء» أو «الكبرياء» أدق بكثير. هنا، وفي هذا الظرف قد تزداد الزمجرة نمواً بسبب ازدرائي لذاتي، لو أنني هرعت إلى قبر أبي، ليس من أجل تناول حفنة تراب وذررها على رأسي، بل من أجل فتح خزنته ورؤية ما تحويه. أدرك كل البراهين التي تمنعني من التصرف على ذلك المنوال. إن العظمة اللامرئية للإنسان الذي يسمو بنفسه فوق تلك البراهين، تشير عليّ بالآفة.

(مريد) ١٠ يناير ١٩٣٣ (١)

حبيبتي

قصتك أعجبتني كثيراً، برصانتها ومرارتها.. وهذه القصة ليست عملاً أدبياً فحسب، بل أكثر من ذلك، إنها وثيقة إنسانية، وهذا سبب إعجابي بها.

وكما كتبت لك بالأمس، مازلت ألحّ وأعتبر أنه من الضروري أن تذهبي إلى إنجلترا.. إن الفراق يحزنني ويرهقني؛ فليكن الأخير! وإذا لم ترتاحي في إنجلترا تستطيعي العودة آنئذٍ، والمجيء إلى هنا. أمل أن أنجح في الاستقرار بشكل مريح. كل شيء يتوقف على إيجاد صحيفة في أثينا، مستعدة لنشر مقالاتي عن إسبانيا، لقد راسلت في هذا الشأن كلاً من «الفيتيروس لوغوس» و«كيكلوس».

..إن يوم سفرك يقترب وأنا أراسلك بكثرة حتى تسافري من دون أي تردد. يحزنني طول غيابك لكن من المفيد أن تتعلمي الإنجليزية وتطلعي على أشياء جميلة (لندن، المتحف البريطاني، إلخ..). تخلصك من حياتك المتعبة في باريس. فرحت بما قلته عن بريفيلاكي. أتمنى أن يتجاوزني، تلك هي الوسيلة الوحيدة لنبلغ الخلاص معاً.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

حبيبتي تخلصي من كل القلق السابق. إن سنة ١٩٣٣ سوف تكون أفضل.. شجاعة،
هدوء، إيمان، وفرح بوجودنا معاً وبهذا القدر من الاتحاد.

مدريد، ٢٧ يناير ١٩٣٣ (١)

إلى قديس جورج انجلترا،

أخيراً استلمت رسالتك وقفز قلبي. تأملت طابع البريد الانجليزي مطولاً وفكرت أننا
مجانين بسبب طريقة عيشنا مثل السياح. من دون نقود، لكننا نتمكن من مشاهدة
بلدان جديدة بإقدام لا يصدقه أحد، حتى أن الجميع سوف يقولون بأننا نحصل على
أموال من جهة ما، تُيسر لنا السفر.. ونحن وحدنا نعرف، منذ أعوام، بأن تلك الجهة هي
الروح. (٢) Time is Soul!، ولا شيء آخر. لم أحلم قط برفيق أكثر اقداماً منك! هناك كلمة
واحدة يمكن أن تعبر بدقة عن نوعية إيقاعنا: Ortsa (٣)، إننا لا نخشى شيئاً. ولا يعود
السبب في ذلك إلى عمق صلتنا فحسب، بل إلى نوعية طبيعتينا أيضاً، حتى قبل أن نلتقي.
أنا شخصياً، ولاسيما بعد موت والدي، أشعر بحرية وجرأة لم أكن أتوقعهما. وعندما
تصلني رسالة لتبلغني - وهذا يحدث كثيراً - بوجود محنة جديدة، أبتسم بازدياد للقدر
المعادي وأقول: «لن تُصيبيني!».

هكذا أفكر فيك، بعيدة جداً - تبدو لي انجلترا في نهاية العالم لأنني لا أعرفها - وأتمنى
لو تتمكن الروح من تأكيد حضورها حتى عن بعد. عندئذ ترينني بقربك، جالساً أمام
المدفأة الإنجليزية، صامتاً، هادئ البال، باسطاً يدي باتجاه النار، مبتسماً لك. ليكن
الله معك، يا حبيبتي، خلال أيام الفراق الصعبة.

هنا، الطقس بارد جداً، والثلج ينزل بكثرة، أول أمس كانت مدريد بيضاء بكاملها.
وفي الأثناء ألزم غرفتي، وأسجل بعض الملاحظات حول المقالات التي ساكتبها عن
إسبانيا، أطلع، وأترجم الشعر الإسباني المعاصر. ولقد أرسلت بما ترجمته من شعر
خيمينيث إلى صحيفة «كيكوس» لأنها وافقت على أن أرسلها بما أستطيع وأريد، كل
شهر. وهكذا أتمكن من سداد بعض ما يتوجب علي.

(١) رسالة إلى إيليني سامبيري.

(٢) «الوقت من روح» مع روضة للمثل المعروف Time is money.

(٣) «إلى الأمام!».

وستنشر كيكلوس أناشيد دانتي الثلاثة. سوف أبعث لها بنشيدى^(١) أيضاً، الذي تحمس له بريفيلاكي، ولست أدري إذا كان محقاً. أفكر في كتابة نشيد آخر، لأنشره في نهاية ترجمتي «للكوميديا الإلهية»، ويتحدث عن انبعاث دانتي.. وعندما ينضج سوف أكتبه في بضعة أيام. الوقت! الوقت! أه لو كان الوقت كله ملكي، تسعة أشهر من العزلة معك، وثلاثة أشهر في السفر السريع بصحبتك!

كيف أعيش هنا؟ حتى أنا لا أعرف. إنها معجزة حقيقية: تكاثر أرغفة المسيح الخمسة.. كتب لي باناييت رسائل مطولة: هو الآن في دير، ملازماً فراش المرض، ولا يستطيع الكلام، ولا المشي. زوجته جميلة جداً، وتبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة (طالبة كيمياء).. وصف لي، بمنتهى الانفعال والحيوية، سلوك بيليبي.. لكن كيف أصدق؟ نحن نعرف باناييت جيداً. وأخيراً عرض علي أن نؤلف كتاباً معاً، ليسلمه إلى دار «غراسيه» للنشر، فنستلم عشرة آلاف فرنك، فوراً.. ثم نفكر في سفر جديد.. إنه مجنون حقاً. لكنه لم يختلف عن باناييت ذي الأرواح السبع، الدافئ، الممتلئ بالحياة.

(مدريد) أول فبراير ١٩٣٣ (٢)

..استلمت رسالة متحمسة من صحيفة «كاثيميريني» تطلب مني أن أرسل كل ما أريد من مقالات.

قابلت اليوم وزير التربية القومية، وهو شخص في غاية اللطف. وسوف أقابل هذه الأيام، شخصيات عديدة. سوف أصير متخصصاً في الإسبانية، لكثرة ما أعمل. لا أرى سوى روبيو. مامن خطر إذا ارتبطت ببعض العلاقات، لا تقلقي فانت آخر فرحة في حياتي. Schluss- Fin بعد ذلك - الموت.

مدريد، ٧ فبراير (٣)

كتب لي بريفيلاكي يائساً، ويقول لي إنه يختنق في اليونان، يريد السفر، ولا يدري كيف؟ يشتغل على كتابة «الغريكو» ويشعر ببعض الراحة من ذلك.

لا جديد من كريت. لكن الجرائد تحدثت عن بعض مآثر الشجاعة عند والدي، وأنا أجهلها. وقد يؤلف أحدهم كتاباً كي يمجد بطولته. أما أنا فلا أعرف الكثير عنه لأنه لم يكن يتكلم كثيراً. وهناك بعض المسنين في كاندي مازالوا يتذكرون ويحكون.

(١) نشيد كتبه كازنتزاكي عن دانتي.

(٢) و(٣) رسالة إلى ابليبي ساميرس.

لم أتلق شيئاً من باناييت منذ أيام عديدة. بعثت إليه برسالة حارة. وقلت له انه يستحيل علينا أن نؤلف كتاباً مشتركاً عن الاتحاد السوفياتي، وربما فكرنا في كتاب آخر، يتناول محاوراتنا، على سبيل المثال. سوف أكتب إليك حالما أستلم رسالة منه. أنا أيضاً أشفق لحالته وأتمنى أن أراه مرة أخرى.

وخوفاً من حدوث الأسوأ فقد أكثر نيكوس من رسائله إلى باناييت، مخفياً قلقه ضمن نبرة مازحة:

مدريد، ٨ فبراير ١٩٣٣

عزيزي باناييتاكي^(١)

عندما كان الزاهد المسلم الكبير أبو الحسن راعياً يصلي إلى الله، سمع صوتاً يقول: «ياأبا الحسن، ياأبا الحسن، لو كشفت للناس كل ما أعرفه عنك، لرجموك حتى القتل بالحجارة!» فأجاب أبو الحسن: «أي، إلهي! حذار! لو كشفت للناس كل ما أعرف عنك، فالويل لك!» عندئذ سُمع صوت الإله: «هه، هه! يا حبيبي أبا الحسن! احتفظ بسرك وسوف أحتفظ بسري، يا أخي!»

يعود هذا الحوار إلى ذهني كلما فكرت في حياتنا، وكلماتنا، وأفعالنا، وفي لقائنا، وذلك الهوس بروسيا، فأضحك سعيداً، بعينين تبرقان طيبةً ومكشراً مثل غولك «كوسماس» الذي أحبه. يقيناً بعد نحو ثلاثين عاماً (كتبت «عشرين» ثم أدركت أنها قليلة جداً).. عندما نقرر مغادرة مكاننا في الأرض، سوف نجدنا - هزيلين، مكرين، ثرثارين جداً (شيخين) بلحيتين بيضاوين طويلتين - في مقهى شرقي، أنت مدخناً نارجيلتك، وأنا، غليونني، وسوف نحاور - بكلمات أبي الحسن وضحكة كوسماس - ذلك الإله - سرابنا الشرقي، أواه! ما أجمل الحياة وما أقصرها، ما أجدها وأحلاها، وما أجدها بنا، ياأبا الحسن - باناييتاكي! كلا لن تذهب قبلي، سوف ندخل إلى الكواليس معاً - كما في تلك الليلة المشهودة في باكو، عندما قفزنا إلى المسرح متخاصرين، ثم وثبنا إلى الكواليس كي نتفرج عن قرب، ونلمس بأصابعنا الخبرة تلك المعجزة الخارقة والبسيطة في أن واحد، تلك الفتاة التي كانت ترقص مكسوة بالذهب مثل مطران: زهرة البترول. سوف نفعل الأمر ذاته، ونثب إلى الأرض كي نجس هذه الراقصة العجيبة بدورها، والتي أغرتنا كثيراً على المسرح - الحياة، الغانية الصغيرة.

(١) صيغة تصغير باللغة اليونانية. وكانت تروق لباناييت.

هل مازلت تذكر بن يهودا؟

الطبيب: «لم يبق لك من العيش سوى شهرين!»

بن يهودا: «أنا؟ ولكنني لا أستطيع أن أموت، لدي فكرة كبيرة»

أما أنت، يابانايثاكي، فلديك شيء أكبر: أنت فكرة كبيرة، طبعاً ولحسن الحظ، من دون أن تدرك ذلك، أه، أيها الجاهل الكبير! أنا واثق بك، ولا أخافك. سوف أموت في سن الثالثة والثمانين، خلال شهر مارس؟ تعال معي إذا أردت، فنهر الفولغا الأسود ينتظرنا.

كم سأكون سعيداً برؤيتك في مدريد! لن أأخذك إلى المتاحف - اطمئن. بل إلى أماكن صغيرة في هذه المدينة نصف الأفريقية، لترى إسبانيات صغيرات بخصلات شعر على الصدغين وهزات خصر قاتلة، ولدي أشياء شيطانية كثيرة تحب سماعها.. رأسي الأسود يعج بأشياء جميلة وسوف أطلقك إياها، كلها. لكن رومانيا بعيدة جداً، وديرك حصين، وزوجتك تسهر عليك، فإذا استيقظت في منتصف الليل كي تهرب، تمسك بك من قميصك، أواه يادون كيشوت الجديد، رفيقتك دولشينا هذه، واقعية جداً، وسوف تعيدك إلى الطريق السوي - فراشك.

أفكر بقضاء الصيف في أحد الشواطئ المقفرة على الأطلسي. وسأكتب «الأوديسة» في صياغتها الرابعة. أه! لماذا لا تجيد اليونانية! وإلا كنت اكتشفت روعي كلها، في هذه الملحمة. مَنْ سيفهمها في اليونان؟ بريفيلاكي فقط! الصراخ، الصراخ في الصحراء يهبني فرحاً لا ذعاً، في منتهى الصفاء والمرارة - ذلك هو الفرح الوحيد الذي أحب. إنه لا إنساني، وحشي، متوحد - كل ما أحتاج اليه. تعرف (أنت لا تعرف شيئاً) كلمة بوذا: «اتبع دربك وحيداً، يا قلبي، أيها الكركدن العجوز!»

إلى اللقاء، يا شقيقي! اعتنِ بجسدك - فليس لروحنا حمارٌ آخر على هذه الأرض. عالجه ولا ترهقه كثيراً، غِذِه جيداً، لا تقدّم له خمرة (ولا كونيكا، ولا عرقاً، طبعاً) ولا تجعله يدخن كثيراً (منذ متى صارت الحمير تدخن؟) لا تفكر، افتح عينيك، انظر ببساطة، تنفس بهدوء، قل: أنا نبتة! أنا نبتة! وسوف تتطور فيما بعد وترتقي إلى درجة أخرى، فتقول: «أنا حيوان! أنا حيوان!» ثم درجة أخرى أيضاً - وهكذا تُشفى وتستعيد هيئة الإنسان المفكر الذي يشرب ويدخن ويسافر - فنلتقي.

أخي العزيز، مرة أخرى، إلى اللقاء. ن. (١)

مدريد ٢٠ فبراير ١٩٣٣ (٢)

أنا سعيد لتمكنك من رؤية أشياء جميلة. لكن هل نسيت الروائع الفارسية والبوذية في المتحف البريطاني؟ إنها مذهلة. هناك أيضاً توجد «ليدا» اليونانية المحبوبة. ينبغي أن تريها، وكذلك حصان البارثنون. تأملها جيداً، وبعيني أنا. إذ قد لا تحين فرصة لأزور لندن قريباً.

سأرسل إليك كتاب باناييت غداً.. إنه كتاب جيد جداً، نقي، صادق، مدخله متقد، مثل باناييت الحقيقي؛ لكن، لم يكن يتوجب عليه الحديث عن بيليلي ب تلك الطريقة. تلك المرأة التي أفرحته كثيراً وضحت بالكثير من أجله. غير أن باناييت غير مسئول.. وهو مثل المجنون، نغفر له كل شيء. إنه مادة بشرية تغلي بلا مراقبة وبلا شكل.

تلقيت رسائل عديدة من خاريلوس، رسائل مؤثرة، مُرة، مفعمة بالحنين. وهو بدوره يضع تحت تصرفنا بيته في ميسارا (بيت إقطاعي واسع مع بساتين، وأقبية، وحمام، الخ..) ووصلتني كذلك رسالة من صديق ناشر في الإسكندرية، وهذه الرسالة تنضح مرارة أيضاً، ويطلب مني المساعدة المعنوية. ورسالة أخرى من متحمسة ونبيلة من باترا.. أنوى أن أبعث إليك بنشيد دانتي.. احتفظي به في حقيبة يدك من أجل قراءته.. (٣)

يوم الاثنين (٤)

كرنفال، طبول، أقنعة، قصاصات ورق ملونة، هنا. كل ذلك يبدو لي تافهاً، لأنه يفتقر إلى الفرح الحيواني الحقيقي، وكل هذه الطقوس فقدت مضامينها. فصارت أسوأ من الصلوات الدينية. أحياناً تحدث أعمال تعصب في الكنائس يقشع لها البدن. مازالت الكنيسة تحتفظ بمكانتها بسبب هذه الأرواح الظلامية المتخلفة. لكن الكرنفالات صارت قشور بطيخ بلا بطيخ.

(١) رسالة كتبها نيكوس كازنتزاكي بالفرنسية.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) نسخ نيكوس هذا النشيد في فكرة مصغرة ليهدئها لي.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

الثلاثاء، ٢٨ فبراير (١)

قلت لك لا تقلقي من المستقبل. فلا قيمة لعملية لذلك. وكل ما نفعله هو إفساد حاضرننا. فالمستقبل قد لا يأتي، وقد يحدث أمرٌ ما، فيتغير كل شيء. من الأفضل استغلال اللحظة الراهنة حتى النخاع. ينبغي أن تفكري في كيفية الاستفادة القصوى من إقامتك في إنجلترا، وليس في شيء آخر. وأفضل وسيلة لخدمة المستقبل هي العمل الجيد في اللحظة الحاضرة. ولو فكرتُ بدوري في وضعي، غداً وبعد غد، لخسرت اليوم كل شيء. وما أنا عليه اليوم - بعلمي الشاق - يجعلني لا أخشى المستقبل. إنها فلسفة بسيطة لا تقتصر على الشاعر وحدها بل تغتني بمنهج مكتسب.

لم يكتب لي باناييت بعد، وأنا قلق لذلك. كم أشتاق إلى رؤيته! لأنني أخشى رحيله أيضاً، ولا أجروء على مراسلته، مرة أخرى، حتى لا يفهم أنني قلق بشأنه.

مدريد، ١٣ مارس ١٩٣٣ (٢)

لم تصلني أية رسالة من باناييت.. سأكتب إليه اليوم مجدداً. أنا في منتهى القلق. في انتظار ذلك، أفكر هذه الأيام في النشيد الذي سأكتبه عن الغريكو: يزور القصر، فيبلغ بأن الملك لم يقبل رسمه للقديس موريس. منتصف النهار. يمسك في يديه بكرة راتنج بلسمية. ثم تفاصيل كثيرة.. إلى حين قدوم الملك الذي رسمه خلال أعوامه الأخيرة في طليطلة، فيرفعه، ويتزوع جناحاه بالراتنج البلسمي - ويعيده إلى طليطلة. سوف يكون النشيد ناجحاً إذا حافظتُ على سكينة روعي. وأنوي جعله على مستويين، كما فعلت في «دفن أورغان».

لا أدري إن كنت قد قرأت الصحف. الحرب تقترب. والخطر موشك. ينبغي اختيار المكان الذي سيفاجئنا فيه الإعصار.

العزلة! العزلة! «الأوديسة» في صياغتها الرابعة طالت كثيراً، وصارت تنخر دماغي.. أطلب منك هذه الخدمة، اكتب لي وصفة إعداد المربى. حاولت البارحة صنع مربى البرتقال فحصلت على مغلي برتقال. وضعت كمية كبيرة من السكر من دون نتيجة. ماذا حدث؟

في موازاة اطلاعه على الشعراء المحدثين عمق نيكوس كازنتزاكي، في مدريد

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

دائماً، دراسة الكتاب القدامى - من فلاسفة وشعراء وروائيين ومتصوفين:
غارسيلازو، فراي، لوي دي ليون، غونغورا، رويت، سان خوان دي لاكروث،
كوفيدو.. وشاهد، الاستعداد للحرب الأهلية، وأنصت إليها وأستنشقها. فكتب
«رائحة البارود في كل مكان»، «وفي القرى الصغيرة توجد مصانع للمواد
المتفجرة، وهناك قنابل تنفجر وتجرح، ولاسيما في الأندلس.. لكن المدينة
الجامعية رائعة، والطلاب يتدفقون حيوية وحماسة. ثمة اسبانيا جديدة تكافح
للخلاص من الملكيين والفوضويين جميعاً..»

أما «الأناشيد» فكانت ذات طبيعة انفجارية. كان كازنتزاكي يتألم من رؤية
الوقت يفلت من بين أصابعه، فصار ينادي، في داخله، تلك الأرواح التي يحبها كي
تزوده بالشجاعة.

ذلك أن ما يهم الشاعر هو الإمعان في المغامرة الكبرى، وإنجاح العمل الهائل
الذي يسكنه: «الأوديسة».

فكتب إلى بريفيلاكي بتاريخ ٦ فبراير ١٩٣٣:

الحياة قصيرة. وعلينا ألا نبدد طاقتنا. ينبغي أن نترك أعمالاً عظيمة عندما نؤازر
التراب أخيراً، وتبدأ، الفراشة الهائلة ببسط جناحيها، كما قال خيمينيث.

ثم استشهد بأبيات غونغورا المتعالية، والتي تناسب مزاجه:

Ven Muerte, Quando Quieras; no Me Espanta

La Tronadora Voz De Tu Eloquenzia

Porque, Frente A Su Fallo, Se Levanta

El Sereno Latir De Mi Conciencia (١)

وكتب إلى صديقه المحتضر باناييت:

عزيزي باناييتاكي،

أخيراً تلقيت رسالتك وعرفت أنك موجود في بوخارست. كم أتمنى أن أكون فجأة
أمامك وأشرب معك مجدداً، ولبضعة أيام، قهوة الحياة السوداء ذات النكهة الطيبة!

(١) تعال أيها الموت متى شئت: إن صوت فصاحتك المدوي لا يخيفني؛ ففي مواجهة حكمك يعلو خفقان ضميري
الرائق.

اعطِ الإله والشيطان اثنتين أو ثلاثاً من أرواحك السبع واحتفظ بما تبقى لك، لصديقك الذي يحبك، وللطرقات الهائلة التي يسلكها الجوال الكبير. إنَّ حياتنا الحقيقية ستبدأ الآن. لأننا صرنا بؤرتين حقيقتين للحكمة. كنا لا نفقه شيئاً كما يقول شاعر شرقي آخر أحبّه، هو ميرزا عبدالبيدر. والآن سنبدأ بجبل الطين الذي جمعناه، وباللعب على شاطئ العالم. أفكر فيك بنهم هائل حتى أنك لن تستطيع الرحيل وحدك أبداً. ربّما كان هناك نهر فولغا آخر تحت الأرض نستكشفه معاً.

قرأت كتابك دفعة واحدة؛ وأحببته كثيراً — حيوي، عميق، إنساني. لكن أكثر ما أعجبني هو المدخل — الذي يعبر عن باناييت الحقيقي — وهو محترم، وقح، نبوي، متعطش للعدالة و... للظلم. الظلم إزاء بيليلي، لأنك كنت قاسياً جداً، أو إذا شئت، فقد أفرطت في العدل، وهو ما يشكل تجاه النساء منتهى الظلم. فالنساء، كما تعلم جيداً، لهن عالم آخر — مادي ومعنوي وفكري — وروهن مشحونة، ومترقرقة بالشهوة. وهن بريئات حتى في ذروة خيانتهم، (ولاسيما في هذه الحال)، لأنهن يستجبن لقوة دافعة خفية، تحت — أرضية، قبل — إنسانية، في منتهى العمق. إنهن وفيّات دائماً لتلك القوة الدافعة — وفي ذلك تكمن فضيلتهن العظيمة والحزينة. يستطيع الرجل أن يكون حراً أحياناً، في لحظة بطولة ونشوة، أما المرأة فلا تستطيع ذلك مطلقاً. ومثل هذه الحرية — التي تشرف الرجل — تبدو لها عصياناً لقدرتها — عيباً. لهذا السبب وجدتُ غضبك علي بيليلي غير عادل. وفوق ذلك: ألا يتوجب علينا الصفح الكامل على امرأة وهبتنا لحظة سعادة؟

إلى اللقاء أيها الصديق العجوز! اكتب لي ولو كلمة واحدة، إذا أحسست بأنك مازلت ضعيفاً. لكنني سأكتب لك دائماً، رسائل مطوّلة، أملاً قهر المسافة والغياب، قليلاً. ن. (١)

في عيد الفصح جاء نيكوس إلى باريس، حسب الاتفاق، من أجل لقاء سريع. واستضافته ابنة عمي ماري، مجدداً، في شارع إرلنجر، بالطابق السابع؛ حيث توجد غرفتان صغيرتان وشرفة مشمسة. كانت ماري بعيدة، فأقام نيكوس وحيداً، منتظراً وصولي من لندن. اشترى قليلاً من الطماطم والفواكه والخبز. وبدأ بكتابة «نشيد الغريكو» حتى لا يشعر بالضجر.

(١) رسالة كتبها نيكوس كازنتزاكي بالفرنسية.

كان لقاءً قصيراً، قصيراً جداً. بارقة عشرة أيام لم يتعب فيها نيكوس من الكلام: «أه، يالينوتشكا، ما إن تسافري حتى أكن في زاوية، في تجويف شجرة، وأشعر مثل نحلة، في صنع العسل. لكن، عندما تكونين موجودة، أشعر أنني عسل بكاملي، وأبارك يوم ميلادي...»

وأخيراً دقت ساعة عودة نيكوس إلى اليونان. لكن أين سيجد العزلة التي يتطلع إليها والتي سيلتحق به إليها «شقيقه» المحبوب. ومن حسن المصادفة أن ابنة العمّ ماري حصلت لتوّها، بالمراسلة، على بيت ريفي جميل في إيجين، قرب الشاطئ. وهناك استقر كل من بريفيلاكي وكازنتزاكي وعادا إلى عملهما بحماسة.

إيجين، ٢٣ إبريل ١٩٣٣ (١)

حياتنا بسيطة جداً، كما قد تتوقعين: المنزل مريح، جديد ونظيف؛ وقد أنفقنا بعض الأموال لجعله أنسب للسكنى.. جلبتُ مكتبي والكتب والمقاعد، الخ. أمامي توجد صورة كبيرة لك، وفوق سريري لوحة جسم عارٍ للفنان كالموك، وعلى اليسار إلسا، والصحون الإسبانية الأربعة معلقة على الجدران مع بعض الأيقونات. أستيقظ في الخامسة صباحاً وأكتب «الأوديسة». لم أجد إيقاعاً بعد، لكنني سوف أتوصل إليه.

إيجين، ٧ مايو ١٩٣٣ (٢)

وصلت إلى النشيد السابع للأوديسة، لكنني تركته منذ يومين حتى أتفرغ لكتابة المقالات المطلوبة مني. أكتب من الصباح إلى الليل، يدي تعبت كثيراً، لأنني أنسخ المقالات كي أرسل بنسخ إلى صحف أخرى، في مصر وكافالا، الخ..

إيجين، ٣٠ مايو (٣)

لينوتشكا الحبيبة،

أول أمس ذهبت إلى أثينا.. تهربت من بني البشر وطففت بالمتاحف.. ومع ذلك التقيت بعض المعارف.. كلهم مبتهجون بمقالاتي عن إسبانيا، ويقولون إنها رائعة، مذهلة الخ.

(١) و (٢) و (٣) رسالة إلى إيليني ساميوس.

كل ذلك يحزنني ويبين أن الكتابة الجيدة تتجاوز مداركهم؛ فهم يفهمون التفاهات فقط ويتحمسون لها. لو كنت أقل قسوة وتطلباً إزاء نفسي، أو ضعيفاً أمام إغراءات النجاح، لاكتفيت بهذه الأكاليل السهلة للنجاح.

الحياة في ايجين لم تتغير - البحر، الرياح، العمل، محاورات حول الغريكو، ثم حنيني إليك. لم أستطع البقاء في أثينا لأنني لم أجد الهدوء الكافي للتفكير فيك، وأفرح كثيراً عندما يخفق قلبي بهذه الطريقة عندما أفكر فيك. تكتسب الأشياء معنى وتحاط بهالة من الكآبة.

(ايجين) ٨ يونيو ١٩٣٣ (١)

عاد بريفيلاكي صباح اليوم من أثينا، يائساً. لا وجود إلا لأعداء.. هجمت عليه ديخاميني (٢) بأسرها: لماذا يسكن معي؟ لماذا يعيش منعزلاً؟.. كلهم ناقمون علينا. نميمة وافترء على مارिका لأنهم علموا بإقامتها عندنا ذات يوم. أما ل.ن. فقد سكب (سكبت؟) الزيت على النار. وضع مثير للشفقة. فقد عاد بريفيلاكي مشمئزاً.

أعمل كثيراً في كتابة «الأوديسة» وتنقيحها. وبالأمس تركت العمل قليلاً لأقرأ الجريدة بلهفة. تعلمين طبعاً أن الملكيين حاولوا قتل فينيزيلوس.

طارد القتلة، داخل سيارتين، سيارته، مسافة خمسة كيلومترات، وأطلقوا نيران مسدساتهم وبنادقهم ورشاشاتهم! لم يصب فينيزيلوس لكن زوجته أصيبت بجروح قليلة الخطورة، من أربع رصاصات، في حين مات مرافق كريتي، وتحولت السيارة إلى ما يشبه المصفاة. الفوضى عارمة وكريت تتملل. وأنا، على الرغم من عدم تعلقي بفينيزيلوس أشعر بالقرع والعار من مطاردة ذلك الشيخ المسن بتلك الطريقة، وهو الذي ضاعف مساحة اليونان! اليونانيون وحوش!

١٣ يونيو (٣)

الوضع في اليونان مريع، وطننا يسير نحو الهاوية. أشعر بالقرع والغضب. ثمة بالتأكيد يونانان، والالتحام لم يتم، وربما لن يتم قريباً. ثمة روحان مختلفتان جداً، وليست احدهما طيبة والأخرى سيئة، بل إحداها سيئة والأخرى أسوأ. أشعر بحزن

(١) رسائل إلى ايليني ساميوس.

(٢) الحي الذي يوجد فيه بيت غالاتي.

(٣) رسائل إلى ايليني ساميوس.

كبير من رؤية الغباء والشراسة والانفعال، التي تنقُض بها يونانٌ على الأخرى.

(ايجين) ٤ يوليو ١٩٣٣ (١)

لم استلم رسالة منك بعد. لعلها تتعطل في نيسالونيكى حيث تجرى انتخابات. تشهد اليونان فوضى عارمة، وحقدًا عنيفاً ما بين الملكيين وأنصار فينيزيلوس غير أن الفينيزيليين انتصروا في النهاية. وهذا أفضل، لأن الآخرين يريدون إعادة النظام الملكي. كل ذلك يثير اشمئزازاً مميتاً. لكنّ التزامي بالعزلة، وتفرّغي لأعمالي الإبداعية، يجعلانني في منأى عن كل ذلك القرف، فلا يكاد يمسنني إلا بشكل سطحي..

(ايجين) ١٢ يوليو ١٩٣٣ (٢)

..حرارة شديدة، أستحم في البحر حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، أحترق، أعمل كثيراً.. الأبيات القليلة التي أبعث بها إليك تعبر عن صفائي. إلهي كم أنا قادر على العمل لو توفّر لي قليل من الرفاهية!

أتلّف إلى استكمال الحُرّاس الخاصين بـ «الأوديسة» (أكملتُ ذلك بالنسبة إلى دانتي والغريكو) وسوف أحاول كتابة نشيد لك، ياقائدة كل الحُرّاس الخاصين، كي أعبر لك عن حبي الغني المتعدد الأشكال، والدائم. فهل أتوصل إلى ذلك؟ صعب، لأنني أعيش كل هذا الانفعال، ولو لم أكن تحت تأثيره لكان الأمر ممكناً. لكن عيش الانفعال أفضل من رؤيته يتحول إلى ذكرى.

ايجين ٧ أغسطس ١٩٣٣ (٣)

تأخرت في مكاتبتك لكثرة الزيارات هذه الأيام. كل هذا الصخب لا يلائم روحي. ما جدوى المحاورات والصراخ، وكل هذه الاستعراضات الطأؤوسية؟ في هذا العالم، لا أطلب سوى أمرين يملآن قلبي: كتابة الأثر (٤) OBRA، وأنتِ، وكل ما تبقى باطل، ضجيج مرهق. كنت أستمع إلى الحديث وأتحدث أيضاً، لكنني لم أكن أفكر إلا في شيء واحد: العودة إلى البيت، وكتابة رسالة طويلة وحادة إليك، فتح كل الهويسات (٥) حتى تتدفق مياه الحب بكل حرية. كلما أحببتك أكثر قلتُ جدوى العالم عندي.. لأنني أستطيع استبداله بعالم أفضل، أكثر دفئاً، وبساطة. تماماً كما كنت سأخلق حياتي

(١) و (٢) و (٣) رسائل إلى ايليني ساميوس.

(٤) الأسبانية في الأصل «الترجم».

(٥) هويس القناة يستخدم لرفع السفن أو خفضها من مستوى إلى آخر «الترجم».

كلها، لو كنتُ الخالق.

عدت إلى الاهتمام بترجمة «الكوميديا الإلهية» لدانتي. وأنا الآن أصححها بيتاً بيتاً، وقد صارت أفضل بكثير، وأدق. أه لو أستطيع نشرها! لكن، أين أعثر على ثلاثين ألف دراهم؟ وهو المبلغ الذي يتيح نشرها خلال شهرين.

نضج البطيخ الأصفر والأحمر، والتين، والعنب. قطفنا البارحة حبتي التين الأولين في «المزرعة ماري» إنها أفراح صغيرة، لكنها كبيرة جداً بالنسبة إلي، كما تعلمين.

أرسل إليّ لفتريس بترجمته للنشيد الأول من «الكوميديا الإلهية» لدانتي. فظيعة ومع ذلك يزعم أنها أفضل، بما لا يقاس، من ترجمتي. سوف يجد نفسه أمام مبرر آخر للكآبة والحقد عندما يدرك الحقيقة. وسوف يظل وجودي سبباً لعبوديته وارتباطه، وحقده أيضاً. لكنها ليست غلطتي فأنا أسعى إلى مساعدته، قدر المستطاع، كي يتحرر. غير أنه لا يتمكن.

ايجين، ١٥ أغسطس ١٩٣٣ (١)

..أتممت في عشرة أيام، أناشيد «الجحيم» الثلاثة والثلاثين، وغداً أدخل إلى «المطهر».. الترجمة في تحسن. أريدها في مستوى ترجمة باليس لـ «الإلياذة». وسوف أنجح في تحقيق ذلك، بالتأكيد، إذا عشت. يكفي أن يتوافر لي متسع من الوقت، لبضع سنوات أخرى، كي أترك أثراً راسخاً بصلابة في الأرض اليونانية، أي الأرض الكريتية، ولا أعتقد أن النضج هو ما ينقصني. كل هذا اليقين، والحيوية والفرح، أدين به سراً ومن دون أن تعلمي، إليك يا حبيبتي..

لقد حاول نيكوس اللعب على عنصر الزواج لكنه لم يوفق، فأضاف:

إنَّ حياة المرأة مع الرجل تآزر ومغامرة وتجول في بلدان مجهولة، نشوة، حياة يومية وفي الوقت نفسه، حلم لا يصدق، يثير فيك دموع عرفان الجميل والانفعال المؤثر. هل تذكرين كم مرة تعجبنا أثناء نومنا معاً: «ما هذه المعجزة، ما هذا الشيء الغريب الذي يجعل الغريب والغريبة، قريبين وصديقين في ذروة التوحد»؟

عناقيد الدالية بدأت تنضج؛ أنزل كل يوم قبل شروق الشمس؛ أقطف عنقوداً كبيراً، وألتهمه. وأبارك، مثل عوليس، الأرض، والكرم، والشمس، والمطر. كل القوى تعاونت

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

لإنضاج هذه الأعجوبة ذات الحبات الجميلة

نحو الثامنة والنصف، تصعد باغونا - الأرملة المرحلة التي تخدمنا - آتية بالحليب. أظل منكباً على أوراقتي، ولا أرفع رأسي، أهمهم بتحية الصباح، ثم تذهب. وحده الله يعرف أية فكرة كوَّنتها عني! لم ترني إلا وأنا أكتب، مستغرقاً، أخرس، ولا أضحك. وفجأة يأتي أحدهم فيدوي الجوار بقهقهاتي!

.. في الليل أنام على الشرفة وأتأمل النجوم. كم وددت لو كنت معي، في تلك اللحظة. إذ يخونني التعبير كما يقول دانتي *li tacer è bello* الصمت جميل. لكن سوف تأتي ليلة أمدّ فيها يدي و... يالها من معجزة! عندما ألمس جسدي. عندئذ لن أقول شيئاً لأن قلبي يشرع في خفقان مجنون. فأدرك أنها السعادة الكبرى. يقول القديس فرنسوا: *frate leone, iscrive che il questo e perfeta le tizia* أيها الأخ ليون، دُون، إنَّ في ذلك، تكمن السعادة المطلقة.

ايجين، ٢٠ أغسطس ١٩٣٣ (١)

اليوم جاء خاريلاوس بغتة. تصوري فرحي! قطفنا تيناً وعنباً، وضحكنا. حاولت تنشيطه قليلاً. لكنه هرم، ومثقل بالهموم. ولم يعد يعمل. إذ طرده الملكيون من عمله ولم يعد يعرف ماذا يفعل. تأثرت كثيراً لحالته. ولقد بذلت قصارى جهدي، فنشط قليلاً، لكنه سيسقط في الهاوية حال رحيلة.

الأجواء فظيعة في اليونان. ولا يمكن وصف دناءة الحاكمين، وبؤسهم، ولؤمهم. مامن ضوء في الأفق. لو لم يكن معي دانتي وعوليس وأنت لأختنقتُ قرفاً وغضباً. أما الآن فلا شيء يمسنني «نضج خبزي»! خبز الملائكة وليس الخبز الآخر.

أنتظر سكوريوتيس بعد غد.. وقد طرده الملكيون هو الآخر. وسوف يجد نفسه في الشارع. إنَّه أفضل وأشرف موظف في اليونان.

أما يوم الأحد فسوف يأتي خاريثاكيس (٢) الطبيب.. وهو الآن فقير بدوره، ويسكن قرب «دافني»، في بيت صغير بناه بين أشجار الصنوبر، ويكافح من أجل قوت المخلوقتين (٣). يتلهف لرؤيتي وفتح قلبه بصراحة، كما قال.. ليتني أقدر على مساعدة

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) أحالت الحكومة الملكية كل أتباع فينيزيلوس، وخاصة الكريتيين إلى الاستبداد.

(٣) زوجته وابنته.

أصدقائي بطريقة أنجع.

ايجين ٢٢ أغسطس ١٩٣٣ (١)

إذا كُتِبَ البقاء لرسائل الأشهر الأخيرة، فإن الذين سيتصفحونها، في المستقبل، لإتمام سيرتي الذاتية، سوف يقولون بأنني لم أحب أحداً باستثناء الفتاة التي يبدأ اسمها ولقبها بالحرفين إ. س. وهي يقيناً ايليني ساميوس، وينطقون باسمك. وبالتأكيد إنهم سوف يضيفون: مؤلفة كتاب «غاندي» الشهير و.. أول امرأة أدخلت الاختزال الكتابي إلى اليونان^(٢). ولا نعرف شيئاً عن طباعها، إلا أن تمكنها من العيش، حتى آخر حياتها، مع رجل مثل شاعر «الأوديسة»، يدل على تحليها بمزايا كبيرة مثل الصبر، القدرة على التحمل، والشجاعة. ذلك أن الحياة لم تكن سهلة، بالتأكيد، مع ذلك الرجل الذي حاكمه معاصراه لفتيريس ألكسيو، والأديبة الشهيرة، السيدة غالاتي، محاكمة في منتهى القسوة.

ولن يدرك أحد - إلا إذا أنقذت هذه الرسائل - أنك «سبع نساء، بل سبع عشرة امرأة» عندي، وآخر فرحة في حياتي.

(ايجين) ٢٨ أغسطس ١٩٣٣ (٣)

Ocoz, coz, coz, O my pretty little coz!^(٤)

..مرّ هذا العام، باستثناء نجوم مارس العشرة، مظلماً، مرّاً. فليرحل بلا رجعة! تعرفين غاييتي المثلى: ثمانية أشهر للعزلة والعمل، وأربعة أشهر للسفر. وربما تمكنا من العيش بهذه الطريقة إذا حصلتُ على نصيبي من تركة والدي. وفي الأثناء أمر بشهور عصيبة لأنني لا أملك مالاً.

جاء سكوريوتيس^(٥) لرؤيتي هذا اليوم. وأفرحني كثيراً. ولقد عرض عليّ أيضاً قبول أحد المناصب (منصب مدير المكتبة الوطنية الذي سيصبح شاغراً) .. إذا أسقطت الحكومة..

شيء رائع أن تطالعي كتباً إنجليزية.. تتمتع هذه اللغة بتناغم مثير، مثل ماء

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) كان نيكوس يمازحني، إذ أنني تعلمت الاختزال في تولميرس بارك وفكرت في إدخاله إلى اليونان.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٤) «كما يروق لك». شكسبير.

(٥) باناييس سكوريوتيس، صديق وفيّ لنيكوس كازنتزاكي، ومصلح لنظام السجون في اليونان.

يجري، اقراي أشعار كيتس الرائعة، وكذلك براوننغ وتينيسون.. وهذه الجملة لشكسبير: Ocoz, coz, coz, my pretty little coz that thaou..didst know, hou many fathom deep lam in love.. ياله من لغة إلهية! ياله من تناغم! كم تعبر هذه الجملة تعبيراً دقيقاً عن اختلاجات قلبي!

أثينا، ٢ سبتمبر ١٩٣٣ (١)

حبيبتي لينوتشكا،

أمضيت نهار الأمس بكامله مع رينو وزوجته اللذين قدما من اليونان.. واليوم سنذهب إلى الاكروبول والمتحف، وفي الغد نسافر إلى دلفي، ثم بعد غد، إلى ميسين، وأخيراً إلى أولبيا.. سيقيمان ثمانية أيام، وأنا مضطر إلى مرافقتهم. لكن همومي تزداد لعدم تمكني من العمل، وافتقاري للمال اللازم من أجل استضافتهم. اقترضت ألف دراهما، وأنفق بلا حساب. لا أتركهما يدفعان شيئاً، وأشعر بالأسف لعدم قدرتي على دفع ثمن إقامتهم في الفندق. (لقد نزلا - اللئيمان! - في «فندق بريطانيا العظمى» بـ ٦٠٠ دراهما في اليوم!!)

ايجين، ٨ سبتمبر ١٩٣٣ (٢)

عدت بالأمس إلى ايجين، وعاد الزوجان جوفينال على متن سفينة أخرى. تناولنا الغداء وتحادثنا وأحضرنا قليلاً من التين والعنب والعسل والحلوى والجبن والزيتون الخ، الخ.. لقد ابتهجا كثيراً. وأثناء غروب الشمس تنزهنا معاً ثم افترقنا في الحادية عشرة ليلاً. وفي تلك الليلة فكر جوفينال في تأسيس دار نشر يونانية في أثينا.. وقد يتحقق هذا المشروع خلال العام القادم. لكنني لا أريد المساهمة فيه لأنني لا أحب خلط الصداقة بالأعمال.. أهديت السيدة جوفينال تحفة جميلة من جلد وكذلك عذراء الورود (٣).. إنها امرأة يهودية مفعمة بالحيوية والذكاء.. إذا سكنا في باريس سوف نذهب إلى زيارتهما لمأماً..

رأيت باباندريو، بالأمس، وقال لي بأنه حال استلام السلطة سوف ينشيء كرسي أستاذية للأدب اليوناني الجديد ويعينني فيه.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) أجمل أيقوناتنا.

ايجين ١٠ سبتمبر ١٩٣٣ (١)

..هاهوذا الخريف. طقس منعش في النهار، وبارد في الليل. البحر مزبد، لا مجال للسباحة. مازالت توجد ثمار كثيرة، غير أنها توشك على النهاية. الأرض تتعري، والغيوم تلوح تدريجياً فوق الجبال. نحتاج إلى مدفأة في المكتب. وينبغي كذلك تصليح الأبواب والنوافذ مرة أخرى، حتى لا يتسرب الماء والريح. سوف يُنجز كل ذلك عندما تجيئين، وإلا فلن أكرث برفاهيتي.

ايجين ١٨ سبتمبر (٢)

عندما يتحد الرجل والمرأة تبتهج السنوات. ربما كان ذلك هو أكبر فرح للإنسان على الأرض، والسعادة الوحيدة التي ليست وهماً مادامت مستمرة. وكل ما تبقى باطل، أو ربح، ويثير اشمئزازي بعمق. فليحدث الأفضل لنا. يروق لي الاستسلام أحياناً لأيدي القوى المريعة التي ندعوها حظاً، ومصادفة، وقدراً، وأثق بها. فلتبتسم لنا أخيراً.

الآن، بعد ذهاب بريفيلاكي بت وحيداً، السحب تمرّ بيضاء، وأحياناً تنزل قطرة مطر. أخرج إلى الشرفة، أبسط كفيّ مثل بوذا، أستلم جرايتي في كفي، وأفكر فيك.

الجيران.. ذهبوا، مامن صوت يعكر الهواء. وفي البعيد قليلاً، بيتان أو ثلاثة، كلاب تنبح وطاووس يزقق.

غداً أنهى الصياغة الثانية لدانتي وأبدأ بالشروح. أعتقد أنه سيُطبع قبل عيد الميلاد. لقد اشترى ميلاخرينوس (٣) ورقاً ممتازاً، ونأمل الحصول على المال في أقرب الأجل.

ماأرغب فيه، هو أن يحدث شيء في اليونان. وربما صرت أستاذ أداب أجنبية في الجامعة.

إذا تحقق ذلك سوف نمتلك home «مسكناً» ونضمن سفرة أكيدة كل عام. وأمل في الأثناء تسوية مشاكل الميراث.. على أية حال أنا أعمل جيداً هنا، والمناخ يحييني، والمعيشة تكلفني مائة وعشرين فرنكاً في الشهر.

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(١) أيوستولوس ميلاخرينوس، شاعر رمزي، صديق نيكوس كازنتزاكي. صاحب المجلة الأدبية «كيلوس» ومحررها. وكان رجلاً في منتهى الاستقامة.

ايجين ٤ أكتوبر ١٩٣٣ (١)

استلمت مجلة «لي نوفيل ليتير» (٢) محتضنة رسالتك مثل حبتي لوز في قشرة واحدة.

فرحت كثيراً ونزلت مباشرة لأغطس في مياه البحر الدافئة الشفافة، ثم استلقيت على صخرة حتى أنشف. واستسلمت لنعاس خفيف، لأنني لن أعمل بعد ظهر اليوم، مستمتعاً بفرح قادم. سوف تأتين وترين هذا البحر وتفرحين برؤية إلهية لـ «سارونيك». هنا الوحدة السامية والهدوء: كما لو كنا نوجد في طرف الأرض فلا يأتي أحد لإزعاجنا؛ إن أثينا في آخر العالم كما كتبت إليك. وبعد أن جاء الناس مرة أو مرتين وأدركوا أن القلعة لا تشكو من أي صدع، عادوا إلى ديارهم بهدوء وانكبوا على مشاغلهم الصغيرة. لم يسبق لليونان أن كانت على هذا القدر من الطيبة والتلاؤم والاستضافة، بالنسبة إلي. إن أسلوب حياتي وقدرتي على العيش سعيداً، بلا حقد، بعيداً عن بني البشر، يجرد الناس من أسلحتهم فيتركونني أعيش بسلام. وعندما تجيئين سوف تزداد متانة القلعة المحمية بأسوار ماسية. وسوف ندخل إليها، أحياناً، من نحب، فيغادرها بهدوء، محتفظاً بصورة عن حياتنا الرائعة، لأنها في منتهى البساطة والطيبة وسط الشراسة والتعقيدات البشرية.

ثمة أسباب عامة، بصرف النظر عن الأسباب الشخصية، تضطرك إلى المجيء هنا.. فمع هتلر دبت الفوضى في العالم، وأخشى أن تنفجر كارثة كبيرة، فجأة، وتكوني في بؤرة النار.

أرجوك لا تنسي الكتب المدرسية.. لا بد أن تؤلفي أنت أيضاً، وأعتقد أنك سوف تنجحين أفضل مني، لأن أسلوبك أبسط.. سوف أعطيك بعض الأفكار وتؤلفين كتاباً. وإذا أجزأ أحدها، يكون ذلك مدعاة للسرور، لأهميته.

لو كانت مجلة رينو تدفع مكافآت لراسلتها. لكن هل تدفع؟ كتب إلي مراراً طالباً مخطوطات. أما «صامويل» فإنها بلا مقابل.

لا أريد شيئاً من باريس. لدينا هنا كل هبات الإله: زيتون، عسل، جبن، شمس وبحر..

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) «المستجدات الأدبية» «المترجم».

ايجين ١٥ أكتوبر ١٩٣٣ (١)

..نستعد لقدمك. قبل بضعة أيام حاولنا مع كالموك تسوية الدرب المؤدي إلى البحر، حتى لا تُجرح قدمك. اشترينا خيوطاً مزودة بصنابير وقصات حتى تذهبي إلى الصيد والاسترخاء. طَيَّنْتُ الجدار الخارجي لأنه كان متصدعاً قليلاً. طلبت مؤونة حتى تكون الخزانة ملاءى. أفعل كل ما أستطيع. وثمة عنقود عنب مخبأ في مكان ما ينتظرك.

كم وددت لو كنت هنا للتمتع بالشمس وجمال بحر «سارونيك».. هناك زوارق صيد ذات أشعة حمراء وبيضاء تمر في البعيد، والأسماك تنط وتلمع، أما الجبال فتشبه لوحات مرسومة على الزجاج. إنه لأمر مؤسف أن أتأمل كل ذلك من دونك. لكنك سوف تأتين وتجدين الشمس وكنوز الحياة الأرضية كلها.

متأثر جداً لاقتراب يوم لقائنا. أصابعي العشر ترتعش. اقبلك، يا حبيبتي، على كتفيك وكفّيك.

ايجين ٣١ أكتوبر ١٩٣٣ (٢)

..أنتظرك ولا أرغب في العمل. ذلك أن فرحتي بلقائك قريباً، تستل مني قدرتي على التركيز. وكما في شهر مارس، بباريس، عدتُ إلى كتابة نشيد جديد كي أتسلى. وهو يشبه نشيد الغريكو، عن جنكيز خان. لست أدري إن كان ناجحاً. إنه كثيف، ممتلئ بالرنين والقوة. أتمنى لو أدرك مدى جودته! سوف تخبريني بذلك عندما تُقبلين.

باتت العزلة ثقيلة الوطء الآن، لأنني أنتظرك. وهذه الأيام الخريفية ذات عذوبة لا توصف، عذوبة ناعمة وشهباء.. البحر هادئ، وبين الفينة والأخرى تنزل قطرة مطر. وفرة من السفرجل، ومكتبي ممتلئ به.

لو كنتُ يابانية وخطاطة لعمدتُ، بعد الاستحمام والصوم لتطهير جسدي وروحي، إلى ارتداء أحلى كيمونو عندي وأمسكت بالريشة كي أسجل في «كاكيمونو»^(٣) أو اثنين، خيبتنا ونجاحاتنا المتعددة، المختلطة، والمتموجة في الضباب الخفيفي، كما تتلاشى من ذاكرتنا.

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) لغة يابانية تستخدم للتخطيط والرسم.

نباتات معترشة، ثعابين متموجة، شلالات مياه عمودية، صور متحركة حبل بالنسغ، أثيرية لا تكاد تدرك، انعكاسات هاربة في مرايا قصديرية أتى عليها الزمن، حالات مزاجية، حمياً جسدية، وكل ما تسطحه كتابتنا الغربية وتعلّبه.

لم يجد «الغريكو»، كما اكتشفه بريفيلاكي، من يشتريه، برغم أصالته. ولم أنجح بدوري في إدخال الاختزال إلى اليونان. ولم يستول باباندريو على السلطة، وبالتالي لم يستطع توفير منصب لنيكوس. ولم يؤدّ الاكتتاب من أجل نشر «الكوميديا الإلهية» مترجمة إلى توفير المال الضروري. ولم يمثل المسرح الوطني المسرحيات المترجمة التي طلبها. وفي فرنسا أفلس ناشران، ومات ثالث، وتخلّى رابع عن وعوده بسبب حادث دنا به من الموت. وفي اليونان لاح بعضهم قليل الأمانة.. وفي النهاية تخلّى نيكوس عن نصيبه من ميراث والده إلى أخته الصغرى التي كان يحبها. ولإكمال هذه السلسلة السوداء أذكر أنني تعرضت إلى حادثة سرقة في باريس، فحُرمت من آخر ورقة نقدية بألف فرنك، وكنت أنوي اقتناء بطاقة العودة إلى اليونان بذلك المبلغ.

في لفة «الكاكيمونو» الثانية، وجهٌ كأنه مرسوم على الماء، وجه صارم وباسم في أن، ذو جبين واسع، وعينين متقدتين. وفي الخلفية سلسلة موجات متعاقبة، هي البلدان التي زرتها معاً: فلسطين، الاتحاد السوفياتي، تشيكوسلوفاكيا، فرنسا، إنجلترا، إيطاليا، إسبانيا، الصين، اليابان، وعزیزتنا إيجين، نصف الشفافة، مثل الطحالب البحرية، والبحر أيضاً، البحر الشاسع، والجبال والغيوم والسماء المرصعة بالنجوم، وزيارات أصدقائنا الدامين، سواء الذين التقيناهم في هذا الكتاب أو أولئك الذين لا يتسع المجال لذكرهم جميعاً.

حياة عذبة، هادئة برغم اضطراباتها، كانت تكتسب إيقاعها من الموجة العظيمة المؤدية إلى الهاوية.

بقيت في باريس مفلسة تماماً، وبعد تردد طويل تجرأت على الاعتراف بالكارثة إلى نيكوس:

ايجين ٨ نوفمبر ١٩٣٣ (١)

حبيبتي لينوتشكا،

عندما عدت مساء البارحة من أثينا، وجدت الرسالة التي تخبريني فيها بعملية السرقة.. لا تهتمي، يا حبيبتي، فكل ذلك لا شيء. سوف نتدبر الأمر ونسدد ديوننا. تلك محن صغيرة تزول، من دون أن تترك أثراً. المهم، أن لا أحد يستطيع زعزعة وجودنا معاً. إن لحظة نقضها معاً تمحو كل البؤس والحقد في المصير اللئيم، الأعمى.

أعتقد أنك سوف تتخلصين من كل ما يضغط عليك الآن، مثل ضباب تبدده الشمس، عندما تأتين وتسترخين على الكرسي الهزاز (الذي سيعطينا إياه كالموك) مُنصتةً إلى همسات البحر الرائق، مغمضة عينيك وأنا بقربك، أحدثك. أنا الآن لم أعد أخشى شيئاً أو أحداً - بشرط واحد - هو أن أشعر بك قريبة مني.

بعد الظهر ٨ نوفمبر ١٩٣٣

جاء كالموك فانقطعتُ عن كتابة هذه الرسالة. تناولنا المجرفة ومهدنا لك درباً يُمكنك من ارتياد البحر على أرض صقيلة. اشتغلنا كثيراً وتعرقنا، ثم عدنا. فأشعلتُ بابور «البريموس» وقلّيتُ سمكاً، وأعددتنا سلاطة طماطم بالثوم، وشربنا قدحاً على نخبك. وبعد ذلك تناول كالموك الصنارة وذهب للصيد. يومٌ جميل وهادئ. وأنا سعيد باقتراب اليوم الذي ستتنزهين فيه هنا.. لا تفكري في شيء، لا تقلقي، نمتلك ما لا يمتلكه الملايين: اليقين بأن كل ما قد يصيبنا لن يتمكن من بلوغ سعادتنا.

أقبل يديك، وقدميك اللتين تعبتا من السير، وعينيك الواسعتين اللتين بكّتا، وركبتك اللتين أحبّ، والكتفين الضامرتين اللتين طال حملهما لهذا العبء، وشفتيك اللتين أتلّهن إليهما. أقبل جسدك الحبيب كله.

ايجين ١٢ نوفمبر ١٩٣٣ (٢)

ايلينا كونستانتينوفنا،

استغرقتُ النهار كله في تهيئة غرفتك وكنت سعيداً جداً. كل شيء هنا ينتظرك بفارغ الصبر.. هذه الحياة معجزة كبرى، غير مؤهلة. فلا نحتاج إلى أية حياة أخرى قادمة أو أي فردوس. هذه الحياة تكفي، بل إنها أجمل من المطلوب!

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

أنام حالياً في غرفتك، كي أعيش فرحة حضورك، مسبقاً. أتطلع في الفضاء الفارغ وأتخيلك، رائحة غادية، في المساء، مقلداً تلك الحركات الحبيبة. وأعرف أن الفرح الذي أشعر به الآن، سوف تزداد كثافته، ألف مرة، في مواجهة الواقع.. علقت على الجدار أيقونة للعذراء، وصحنين إسبانيين، وعلقت حبات رمان، ووضعت على طاولتك بعض الكتب والبطاقات البريدية، ومجلة «لي نوفيل ليتيرير» وحبات سفرجل. إنها لحظات مقدسة، ملأى حناناً، هذه التي أعيشها وحيداً، مهياً غرفتك. ومع ذلك أشعر، يا حبيبتي لينوتشكا، ببعض القلق: فهذا الفرح يتجاوز ما يحق للإنسان امتلاكه. أحياناً أقول ربما كنا على درجة من الطيبة مكنتنا من امتلاك الحق والقوة لتحويل هذه الأرض الخائبة إلى فردوس. لقد امثحنا كثيراً في الرزايا والأفراح وخرجنا منتصرين. فليحفظ «الإله» قلوبنا، هكذا دائماً، صامدين، طاهرين، لا يقهران.

١٩٣٤. كان الإغريق القدامى يحبون ايجين لجفافها. ويقال إن أريستوفان وُلد فيها، وأن أفلاطون يؤمها للراحة. أما معاصرونا فيحبونها لجودة جرادها، وفستقها، وسمكها^(١) المتفرد، واسفنجها. ولقد عمَد اللصوص الدوليون، المتخصصون في علم الآثار، إلى نهب معبد «أفي» في ايجين، كما في إيجين، وتفكيك الأفاريز والواجهات المنحوتة التي تعاني من التحلل والجفاف في ميونيخ، بعد أن حُرمت من ملاطفة الصنوبر والنسيم البحري. وتشهد على النهب تلك الأعمدة المجردة في رقصها المهشم، قبالة سونيون.

قطعة من أرض أتيكا، استيقظت ذات يوم مقطوعة الحبال، غيمة ساقطة من السماء، مثقلة بوعود خُلبية، جانحة بين الأمواج. صغيرة، لكنها ليست صغيرة جداً، بعيدة، لكنها ليست بعيدة جداً^(٢)، شعبية لكنها ليست مزدحمة، ولقد نجت من السياحة Made in Europe المصنوعة في أوروبا. ميناؤها جميل، عاصمتها مثل «قريب من العائلة فقير»، هضابها موشاة بشجر اللوز والكنائس المنهارة، جبلها أجرد، أراضيها الكلسية مزروعة بكروم العنب. سكانها مبتسمون محبّون

(١) سمك ذهبي مسطح ذو لحم رقيق، يصعب نقله بعيداً، ويسميه أهل ايجين «كاتسولا».

(٢) توجد «ايجين» على بعد ثمانية عشر ميلاً من «بيري».

للتورية، والكسل. قاحلة من جهة أثينا، مغروسة بالزياتين من ناحية أبيدور، أفريقية باتجاه الجنوب.

شهدت في الأزمة القديمة مجد الانتصار، ودمار الحروب. ومنذ حوالي مائة وأربعين عاماً اختارها اليونانيون أَكَلَةُ الثَّوم، ومطاردو الأتراك بالسكين والمقلع، عاصمة لهم، ليفضلوا عليها أثينا فيما بعد، ويحولوا أول مدرسة فيها إلى سجن من سجون الحق العام.

وهكذا فإن المسافرين إلى ايجين بحراً يمكن أن يصادفوا في السفن بعض رجال الدرك بصحبة لصوص، معظمهم من الشباب، يدخنون والقيود في أيديهم أو يتحدثون مع جلاديهم أو يلتزمون الصمت. وخلال السنوات الأخيرة من الاحتلال الألماني، كان يُشاهد أيضاً سجناء سياسيون في الأصفاد، لأنهم أرادوا كسر قيودنا.

ومن كان يدري أن قلبي سيخفق لإيقاع آلة «السانتوري» بعد مرور كل تلك السنين، وأنا أتذكر تلك الرحلات البحرية القليلة؟ ومن الذي مازال يذكر ذلك الرجل السمين الذي كان ينشد الأم جزيرتنا، برأس مائل وعينين ثابتتين؟ كانت أنغام السانتوري الخافتة أشبه بمطر خفيف يبلى الجسر. في ذلك الوقت كانت الموسيقى لاتزال تعبق بطابعها المحلي، تماماً مثلما يتمكن المرء من تمييز أهته من ألف. أما الآن فيكفي أن تدير زراً فيخرج ماهب ودب. سمعت بنساء شرسات خنقن أزواجهن بسكب حساء فولٍ خاثر. وهذا الحساء الجديد، حساء الموجات، يمكن أن يقتل اليوم حيوانات أقوى من الإنسان.

كان من الطبيعي أن يختار كازنتزاكي كريت، لأنه كريتي لحماً ودماً، لكنه مجرد إنسان في نهاية المطاف، فكان يخشى الاستسلام لداعبات الأهل. لذلك اختار ايجين الجزيرة المعزولة تماماً، ولاسيما بعد ذهاب آخر سفينة: عزلة قريبة من العاصمة.

كنت أفضل أتيكا، لخوفي من تلك الصخرة العائمة، في البداية. ثم أدركت أن الحب يمكن العاشقين من العيش حتى فوق عمود.

لا أسعى إلى تجميل زوجي كما أنني لا أسوِّده، ولم يكن من السهل دائماً،
استنشاق الهواء المضطرب حوله. لكنه لم يكن ليفرض رأيه على الآخرين. وعندما
وجد نفسه أمام خيار التنازل المريح أو الكرامة، لم يتردد. فرفض الجراسي
المريحة بكل كبرياء.

أحببتُ ذلك الرجل الفاتن الحكيم، وأعتقد أنني أينعت تحت فيء شجرته
المعرفية، بمقدار ما سمحت لي طبيعتي.

«عشت ثلاثين سنة معي ولم تتعلمي شيئاً!» اشتكى ذات مرة خلال أيامنا
الآخرة في فرايبورغ لأنني تدمرت من تهوُّرنا المدمر.

— عمُّ كُنَّا نبحث في الصين؟ لِمَ وافقنا على ذلك الطعم اللعين؟

رفع عينيه المدهوشتين، كعادته، ويداه النحيلتان مستندتان إلى مُتَكأَي الكرسي
المريح، وقال:

«ما جدوى النظر إلى الوراء، يالينوتشكا؟

— لأنك.. لأنك تعذبت كثيراً..

— ما أغرب أطواركم أنتم، بني البشر! همس وهو يهزُّ برأسه. أنا لا أفكر إلا في
الفرح الذي نلته، أما ما تبقى فلا يهمني كثيراً!»

أحببت ذلك الرجل لأنه لم يسعَ قط إلى إثبات تفوقه وترفعه، ولم يلحَ على
تحويلي إلى «مُتفلسِّفة» كنت بسيطة، فتركني كذلك، محترماً طبيعتي.

غير أنه حررني من عُقدٍ زرعها في أوصياء عاثرون. علمني ألا أخجل من
ضعفي. ولم يمكنني من الحصول على الشهادات الجامعية التي كنت أطمح إليها.
لم أصر عالمة إلى جانبه. لكنه وهبني الحب، الثقة، الحنان، الحقول والغابات،
الجبل، البحر، والأنهار، والأسفار الطويلة التي لم أكن أحلم بها، والحكايات
الكريتية أو الأفريقية، وتعرّيه الكامل والنموذجي أمام الإله. وحدهما، غاندي
وهو، كانا يستطيعان العيش والحكم بأبواب مشرعة: الإنسان الذي يحكم مدين
بالحقيقة كلها لشعبه. ومن حق الشعب أن يطلع على فكره، وعلى حياته، كما لو كان

يطالع كتاباً.

لم يكن «صمتنا» أمام البحر سوى تورية وتلميح. ففي الصيف كانت هناك ألف شبابة تصدح، غير مرئية. وفي الشتاء، كانت الليالي تمر مسكونة بالقلق، أحياناً. إذ تنقُضُ الريح الشمالية على الصخور وترش الأمواج بيتنا الذي يصمد أمامها، وكأنه صخرة مأخوذة من البحر، بدوره. وتطقطق النوافذ، كما لو أن قافلة عربات من نوع «الطنابر» العتيقة تمر تحت نوافذنا.

لو كنتُ وحدي لتملكني الذعر. لكنه كان هناك، هادئاً، تحت نوسان فتيلة مصباح النفط، يلاطفني ممسكاً بيدي، وهو يقرأ بصوت عالٍ حتى يوفر الإرهاق على عيني الهشتين:

«اليوم سأعلمك الفلسفة..»

— أليس من الأفضل أن تروي لي حكاية كريتيّة؟

أما «الفلسفة» فكانت مجسدة أمامي في شخص رفيقي: الطيبة، عدم الحسد، امتلاك الحد الأدنى الضروري (أيقونة، قطعة عاج، أو أية تحفة آتية من آخر العالم..)، رسم صورة ذاتية مثالية وتثبيتها على الجدار من أجل التطلع فيها ومحاولة التماثل معها.. العفو عن المسيئين.. التمتع بالأرض، والسماء، والبحر، الخرفان والأبقار، الخبز الأسمر والزيتون.^(١) quanto perdrices, perdrices, quanto oraciones oraciones وعدم السماح للرفاهية أن تخدرك. فإذا جاع طفل في أطراف الأرض فإنها مسؤوليتك، وعليك أن تجعل روحك متأهبة دائماً.. وتظل واقفاً حتى دنو ساعتك، بدماع غربي وقلب أفريقي.

نعم، كان قلب «الفلسفة» أفريقياً. فكانت تجيد الضحك والمداعبة.. «كانت تدخن» الغليون، وتستمتع بحساء السمك، وتسبح، وتجف في الشمس، وتنزل إلى المدينة لتسوق، فتعود وجرابها زاخراً بالحكايا.

«صباح الخير، ياستراتيس! متى تتزوج؟»

(١) «عندما يكون الحجل، يكون الحجل، وعندما تكون الصلاة تكون الصلاة» (القديسة تيريزا دافيللا).

— ماذا تقول يا «كير» (١) نيكوس؟ ألا تعرف بأن المرأة تطالب بزوجي حذاء؟
كان ستراتيس، مجنون القرية، يعلق زوجي حذائه حول رقبتة. ويتنهد سعيداً
لإصابته بالتيفوس «الحمى الصفراء» في طفولته، ونجاته من الالتحاق بالمدرسة.
لا يوجد إنسان يستطيع الادعاء أنه طرق بابنا وعاد خائباً، كان نيكوس
يتفرغ للضيافة والصدقة أكثر من تقديسه للعمل. لكنها صداقة قنوعة
ومتحفظة، بعيداً عن المقاهي والاجتماعات العامة، ومن دون معارك صاخبة.
وكان يستمع إلى اعترافات الأرواح أيضاً، فيأتيه المهانون والمضطهدون طلباً
للنصح:

«كير نيكوس، فاجأني زوجي.. وسوف يطردني إذاً..»

ذلك أن كيريا ماريا عجوز فقدت أسنانها. وأضرّت بها الولادات العديدة.
وزوجها يتهمها بكونها خلية عشيق ابنتهما.

— إذاً.. ماذا، كيريا ماريا؟

— إذا لم أصطحب «الخطيب» في زورق..

— في زورق؟

— نعم، في زورق.. لكن بشرط..

ثم وضعت في كف نيكوس رزمة ديناميت (٢) صغيرة ملفوفة في ورق جرائد.

— هل أفعل.. أم لا أفعل؟.. ما رأيك كير نيكوس؟

السعادة تفتقر للحكايات عادة.

من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٧، أوتنا ابنة عمي ماري، مرة أخرى. وهذه المرة في لسان
أرضي صغير يلامس البحر، شمالي الجزيرة، قبالة سالامين وميغارا. وفي الغرب

(١) كير، اختصار «كيرْيوس»، السيد، باليونانية. ومؤنثها كيريا، السيدة. «المترجم».

(٢) كثيراً ما كان الصيد يتم بالديناميت آنذاك، ويُنعى العديد من الضحايا.

توجد قناة كورنثيا، وإلى الجنوب قليلاً، ترتفع جبال البيلوبونيز مُشرفةً على «إبيدور» و«ميثانا».. وإلى الشرق توجد عزيزتنا تالة «هيمات» ذات الظهر المحدوب والوجه المستأنس. وكانت لنا دالية أيضاً، و«مصطبة بحرية» خاصة تحاذي الأمواج، وشجرة تين، ومقصورة عالية على شكل برج عاجي.

عمل مكثف في النهار، شاي في الساعة الخامسة، ونزهات مع محبي الليل. يقظة وردية، منتصف نهار عُنْبري، غروب قرمزي، وليل مرصع بنجوم من ذهب نوم مُهدّد بأمواج مالحة. رياح شمالية في الشتاء، وجنوبية صيفاً، ثم غربية تذكرنا بهدأة السعادة.

وعدد غير قليل من الزوّار المخالفين للمألوف: من رسامين ونحاتين وشعراء، شباباً وشيباً، وروائيين، من الأصدقاء القدامى أو من المبرعمين حديثاً، يونانيين وأجانب.. وكثيراً ما كنا نستبقهم كي يشاطرونا طعامنا البسيط.

وفي سنة واحدة، هي ١٩٣٤، أَلَف نيكوس، بالتعاون مع البرفيسور بانيتسوس، كتابين مدرسين، وثالثاً ساهم فيه بقسط كبير. وكتاب أبجدية، وأعدّ صياغة جديدة لـ «الأوديسة»، تسعة أناشيد أهداها إلى «الحراس الخاصين» بـ «أوديست» هـ: لينين، دون كيشوت، هو ذاته، محمد، نيتشة، بوذا، عيسى، القافية، وهيلينا. وترجم كذلك «الآلة الجهنمية» لكوكتو، بطلب من المسرح القومي اليوناني.

في شهر يناير ١٩٣٤ دَوَّن نيكوس في دفاتره، بأسلوب برّقي، حلماً أثر فيه كثيراً. وبعد ثلاثة وعشرين عاماً تذكره وأورده في «تقرير إلى غريكو»:

شفتان مرتعشتان، شفتا امرأة، لاحتا معلقتين في الهواء، بلا وجه: ثم تحرّكتا، فسمعتُ صوتاً: «من هو ربك؟ — بوذا!!» أجبتُ من دون تردد؛ غير أن الشفتين تحرّكتا مرة أخرى: «كلّا، إنه ايبافوس!.. ايبافوس إله اللمس الذي يفضل الجسد على العتمة والذي كما الذئب، لا يشبع من الأخبار السعيدة. فلا يثق بالعين، ولا بالأذن، يريد أن يلمس، ويمسك بالأرض والإنسان في يده، ويحسّ بحرارتها تمتزج بحرارته، فيتوحد بهما. ثم يجعل من روحه جسداً كي يتمكن من لمسها. إنّه الإله الأكثر وثوقاً بذاته، والأكثر انكباباً على العمل، ذلك الذي قدّمناه على الأرض، ويحب الأرض، ويريد إعادة

خلقها على صورته وهيأته. ذلك هو إلهي.

أشجار التين ترسل أوراقها الأولى، أيادي صغيرة شفافة مبسوطة نحو السماء، والمرج يموج بشقائق النعمان وبأزهار اللؤلؤ الكبيرة الصفراء، والسوسن الأزرق والأبيض. فيما البنفسج البري يتشبث بالصخور معطر الشاطئ.

ولم تنته القضية المعلقة بالناشر. وترجى انفيلاكي، نيكوس كي يأتي إلى أثينا لمقابلة الناشر: *فالحضور هو السلاح الأكثر مضاءً!* قال له مستشهداً بالمثل الشعبي. لكن نيكوس أبى أن يكلم شخصاً لم يعد يحترمه. فذهبت إلى أثينا بدلاً منه:

ايجين، الأربعاء (ربيع ١٩٣٤) (١)

ربما علمت بأن «لي نوفيل ليتيرير» قد نشرت نقداً مطولاً بقلم فينبرغ، مدح فيه كتابك «غاندي» (٢). لقد فرحت كثيراً. إذ أن ذلك النقد سوف يخدم الكتاب.. أما بالنسبة إلى «ذ» فأنا أقبل بالتسوية.. لأننا نحتاج إلى المال..

ايجين، الأربعاء (٣)

جاءتك رسالة من الناشرين وسمحتُ لنفسي بفتحها، لأنني متلهف.. سيترجم «غاندي» إلى الألمانية أيضاً.. تعالي بسرعة لتتفرغي إلى كتابك «شليمان» وسوف يصير أفضل:

إلى الأمام، يالينيو! لن أتركك بلا رعاية مادامت الريح

تحرك شعري، سوف أمسك بيدك.

ونتجول معاً على اليابسة، فلا تتذمر

لقد كتبتُ اليوم، هذه الأبيات لـ «الأوديسة» وفكرتُ فيك كثيراً.

في نهاية يوليو شعرت بالآلام حادة بينما كنتُ أسبح في البحر: مرض مجهول

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) صدر ضمن منشورات داشو ونستلي، نوشاتال، باريس.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

يعلن عن نفسه. تأهبت للذهاب إلى أثينا من أجل العلاج. لكنني أخضعت نفسي للعلاج في ايجين أولاً، ثم اضطررتُ إلى لزوم الفراش والسفر إلى أثينا.

ايجين ٨ أغسطس ١٩٣٤ (١)

حبيبي القديس جورج المريض،

في وقت مبكر من هذا الصباح توقفتُ جحش أمام بابنا ونزلتُ عن ظهره سيّدة، تتبعها خادمة، حاملةً أغطية. أسرعْتُ لأفتح الباب: «مِسْ مازيورا! (٢) أه، ايليني ليست هنا!»

جاءت لتصطحبنا، وقد هيأت غرفتين في منزل السيد ولتر (٣) لنقيم فيهما حتى شفائك.

لقد تأثرت شديد التأثير بطيبتها. امرأة نادرة...

دون جوان (٤) تناول قرص الدواء الثالث، وحاولتُ أن أناوله زيت الخروج بالقطارة. فتبين أن ذلك مستحيل. اشتريت قليلاً من «القطايف» (٥) وخلطتها بالمسهل، فالتهمها كلها، لاعتقاً شواربه.

ليس هناك ما أضيف. كتبت نشيداً جديداً وقررت جعله افتتاحاً للأنشيد الاثني عشر السابقة.

ايجين ١١ أغسطس ١٩٣٤ (١)

قرأت رسالتك مرات عديدة بحزن متزايد.. أفكر فيك كل لحظة. ولا يمكن التعبير عن مدى حبي وغمّي. أخجل من العودة إلى تكرار كلمات دافعت عنها سابقاً. لكنني عندما أفكر فيك، أشعر بأنني لا أملك شيئاً آخر في العالم.. الكتابة حاجة لا تجلب لي أي فرح لأنني لست مثقفاً جافاً ولا يملكني الغرور بأن ما أكتب ذو قيمة. وهكذا فإن الكتابة ليست عزاء. أنتِ الوحيدة في العالم تستطيعين منحني فرحة الحياة، ومبرر الوجود. لقد

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) عالمة آثار أمريكية شابة كانت تعيش في ايجين.

(٣) ألم آثار ألماني لعب دوراً خلال احتلال الألمان للجزيرة.

(٤) قطناً.

(٥) هكذا في الأصل. «الترجم».

(٦) رسائل إلى ايليني ساميوس.

تملكني من جديد أسى من عدم قدرتي على تبيان مدى قيمتك عندي. وعلى العكس، كنت
الجا إلى إخفاء عواطفى في لحظة الحنو الأكثر عاطفة تحديداً، فأتظاهر بالخشونة إزاءك
من دون التوصل، أو الرغبة في التوصل إلى معرفة السبب. أه، عودي في صحّة جيدة إلى
ايجين ولن أعيد الكرة أبداً..

ريح وطقس منعش. أذهب للسباحة. أنجزت النشيد، وأطالع رواية «الطباقي»
لهكسلي. إنها رواية جيدة، غنية جداً وحاذقة، لكنها مفرطة في الذهنية..

ايجين ١٥ أغسطس ١٩٣٤ (١)

أخبرتني مس مازيور بأنها رأتك، وبأنك مازلت مريضة. أمشي وأجيء في البيت
يائساً لا أستطيع التفكير ولا العمل. والنشيد الذي أكتب، كي أهديه إليك، يخرج قطرة
قطرة مثل الدم.

أجيزُ أحد كتبنا المدرسية، وهكذا سنكون في منأى عن الهم المادي لبعض الوقت.
أذهبي، بعد شفائك، إلى بعض المحلات المتخصصة، واستعلمي عن مذياع ببطاريات..
أمل أن نتمتع بالموسيقى في عزلتنا الشتوية.

هنا، ما من جديد.. وصلتكِ فقط مجلة من مصر، نُشرت فيها بعض المقتطفات من
كتابك عن «غاندي» ولم يرد شيء عن «تودا - رابا». يبدو أن مصيره ليس كمصير كتابك
الذي نُشر حوله الكثير. وهكذا أتحرق من إغراء الكتابة بالفرنسية مرة أخرى.

ايجين ١٨ أغسطس ١٩٣٤ (٢)

أبعث إليك بخاتمة نشيدك^(٣)، ولا أدري إن كان سيعجبك؛ والآن هل تستطيع الكلمة
أن تكون نداً لقلب الإنسان؟ وكما يقول متصوّف بيزنطي: الإله آهة ودمعة وديعة،
فذلك هو الحب. ولا يمكن أن تستوعبه إلا الدمعة الوديعة والتنهدة. والعمل.

من حسن الحظ أن هيلينا شقيقة نيكوس جاءت للإعتناء به في ايجين. لكنه
تعب في تجاوز الكأبة التي تملكته من فراقنا. فكتب لي، يوم أول سبتمبر: «أبذل
جهداً فظيلاً كل مساء كي أبادل هيلينا الكلام».

وفي ذلك الوقت الصعب أعلن صديقانا مادي وبيار سوفاجو عن مقدمهما:

(١) (٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) «هيلينا»

الجمعة (سبتمبر ١٩٣٤) (١)

كل شيء على مايرام وضيّفانا مبهجان.. يقضيان ساعات على الشرفة ويكتبان أو يقرآن، ذهبنا اليوم إلى المدينة، واشتريت سمكاً وفواكه كثيرة. المائدة تعجّ بالغذاء البسيط والطيب.

ايجين الأحد (٢)

..قرأنا قصائدك مرة أخرى: رائعة. ولاسيما قصيدة «موسيقى»، إنها واحدة من أفضل ما كتبت، نغمة جديدة، عميقة، فاتنة. أنت واحدة من أعمق وأفضل شعراء اليونان. بلغت القمة دفعة واحدة، من دون تعثر أو تلمس. غنّت مادي قليلاً، اليوم، بصوت تشوبه بحّة لكنه جميل.

ايجين، الخميس (سبتمبر ١٩٣٤) (٣)

وصلتني قصائدك، كلها جميلة. ترجمت بعضها إلى الفرنسية وأعطيتها إلى بيار سوفاجو. وسوف أترجم المزيد.. يبدو لي أننا صرنا أصدقاء مع بيار. قاومتُ كرهى للنظريات الإشراقية وآمال التناسخ التي يبشر بها سديّ، وتعلّقت بالرجل الرائع، الذكي، الدافئ المختفي وراء كل تلك الحلويات البوذية.

أمضيت سبعة أشهر مريضة في الفراش وتسليت بكتابة قصائد قصيرة. وكنت أبعث بواحدة في كل رسالة إلى نيكوس. لتهدئة ألم الفراق. فكان يبالي طبعاً في تقييم شعري. ولحسن الحظ أنني بقيت أتذكر حكاية علي باي الجميلة التي رواها لي ذات يوم:

«كان علي باي شيخاً تركياً هراماً يبيع التوابل والبهارات في دكان صغير كائن في «ميغالو كاسترو». وذات يوم جلس أمام دكانه يروّح عن نفسه في الظل، منتظراً زبائنه النادرين، وغالبيتهم من الأطفال الذين يأتون إليه لاقتناء القليل من الفلفل أو القرفة بقيمة فلسين. كان يروّح عن نفسه ويشعر بأن الحياة جميلة. وفجأة توقف أمامه صديق: — من أين جئت، أيها الصديق؟ — من أسطمبول، يا علي باي. — وعمّ كنت تبحث في أسطمبول؟ — ذهبت لزيارة

(١) و(٢) و(٣) رسائل إلى ايليني ساميوس.

السلطان.. - الباديشاه؟ - فديتك يا علي باي، نعم إلى الباديشاه! وأراد الباديشاه، صاحب النعم الكثيرة، أن يعرف أخبارك. فأمرني قائلاً: «أخبر علي باي أنني أحبه كثيراً، وارسل إليه مع سلامي، بحمولة أكباش قرنفل وقرفة.. مائة أوقية من القرفة، ومائتي أوقية من الفلفل الأسود، وثلاثمائة أوقية من...»

فوقع علي باي مغشياً عليه، ونسي الترويح عن نفسه. وظل الزائر يتكلم، ويتكلم، والأوقيات تزداد، وتزداد، حتى غرقت ميغالو كاسترو في القرفة وأكباش القرنفل.

وفي الأخير همهم علي باي متلماً:

- تكلم، تكلم دائماً، يا صديقي. تكلم، أعرف أنها أكاذيب لكنها ترؤووق لي!

ايجين ٣ أكتوبر، الأربعاء (١)

..البارحة.. لدى عودتي في ساعة متأخرة من الليل فرحت فرحاً شديداً: اقتنى الزوجان سوفاجو - الغورغوني (٢) - رأس الجؤجؤ الذي كنا نشاهده في الورشات، وجاءا به إلى بيتنا (٣). إنها الآن في المدخل تنظر إلى البحر. وسوف تصير عذراءنا «نوتردام» التي لا تفارقنا. ليت كل ما نتمناه يتحقق، فتشفين، ويساعدنا بيار على الذهاب إلى باريس، ثم نبني فيما بعد، بيتاً صغيراً في ايجين!

يقيناً صرنا، أنا وبيار، صديقين.. تلقيت برقية من مينوتيس (٤) لكن ما من نقود. لحسن الحظ أنك بعثت لي بالآلف دراخما، لأنني دفعت للبقال أكثر من خمسمائة دراخما هذا الشهر. غير أنني سعيد فالضيافة تامة.

وقبل أن يغادر نيكوس بدوره، ايجين، تلقى رسالة من روجيه مارتن ذي غار، وهو إلى جانب جان كاسو وجان هيربير ورينو دي جوفينال، من الأدباء

(١) رسالة إلى ايليبي ساميوس.

(٢) زخرفة هندسية تشكل رأس امرأة مفتوحة الفم وشعرها من الثعابين، وتزين بها مقدمة السفن أو الجؤجؤ «المترجم».

(٣) صار بيتنا في ايجين، آنذاك يعرف بـ «بيت الغورغونيا» والآن يوجد ذلك الجؤجؤ في متحف الدراسات التاريخية في اليونان.

(٤) تدخل الممثل الكريتي أ. مينوتيس لدى إدارة المسرح القومي من أجل تكليف كازنتزاكي بترجمات مسرحية، ولم يتم تمثيل تلك الترجمات لاحقاً.

الفرنسيين القليلين الذين أعجبوا بـ «تودا - رابا».

أشكر بصدق على التكرم بإرسال كتابك لي. قرأته دفعة واحدة باهتمام كبير، واستفادة مستمرة. إنه يُقرأ باندفاع. كما كُتب تماماً. كتاب مُربك وعنيف، يزخر بالقوة المكثفة والإيمان، كتاب إنساني، مؤثر، يدفع إلى حب المؤلف..

١٩٣٥. كثيراً ما تعجبنا من «المعجزات» التي كانت تأتي لإنقاذنا، من وقت لآخر. لقد لزمنا الفراش مطولاً حتى بدأت أفقد الثقة في جسمي، كما في ألتهنا الحامية، عندما اتصل مدير صحيفة «أثينا اكروبوليس» بنيكوس كازنتزاكي كي يكلفه بإجراء تحقيق في اليابان والصين، أي بالتحديد، في ذلك الشرق الذي كان يحلم به بقوة شبه مؤلمة، قال لي مقبلاً عيني:

«سوف أنظر بأربع عيون، يالينوتشكا، وأعدك بأن نزور اليابان والصين معاً، ذات يوم. أما هذه الرحلة فهي من باب التعرف..»

وقبل رحيله إلى الشرق فكّر في أكثر أصدقائه «شرقية» أي باناييت، وكانت رسالته الأخيرة إليه مشرقة بالتفاؤل:

أثينا، ٦ فبراير ١٩٣٥

عزيزي باناييتاكي، عزيزي أليعازر الذي لا يحتاج حتى للمسيح، أنت يا الأعلى من أليعازر، سلاماً!

ما أجمل العيش على هذه الأرض الصغيرة والقدرة على الحب! حبّ ذلك «الهايدوك» ذي المؤخرة الرصاصية الذي يسقط واقفاً، دائماً! سلاماً يا أخي، يارفيق المهارات، ياغوليس الخالد!

بعد ثلاثة أيام أسافر إلى الصين واليابان. وأنا سعيد برؤية الوجه الأصفر للإله، والعينين الشبيهتين بعيني قرد، وتلك الابتسامات الماكرة، والأقنعة العجيبة لآسيادنا في المستقبل. وسوف أعود بعد خمسة أشهر. وفي انتظار ذلك، أضع تحت تصرفك بيتي الصغير (ثلاث أو أربع غرف، مطبخ، فيرندا، مصطبة، دالية عنب، بئر، وشجرة تين) في ايجين، على شاطئ البحر، إنه ساحل رائع! تعال ياعزيزي باناييتاكي، وسوف تشعر بالسعادة هنا، مع هذه المرأة الشابة ذات الجمال المذهل، والضحكة والأسنان الخطرة! نحن الاثنين، سعيدان.. السعيدان الوحيدان في العالم لأننا نلعب بالنار ولا نحتاج إلا إلى

قلوبنا الجميل، النهم والنازف. نلتهمه في النهار فيبعث ليلاً. نحن بروميثيوس وأجنحة بروميثيوس في أن واحد: نحن كائنات تامان.

أرسلت إليك بنسخة من «تودا - رابا» قبل سبعة أشهر، مع إهداء في غاية الرقة (عندما أفكر فيك يخنقني الحنو). تستطيع التصرف في الكتاب كما تشاء، وإذا أردت أن تقدّم شيئاً للمؤلف، فما عليك إلا أن تشرب نخباً على صحتي، وصحتك، وصحة زوجتك، وبيليلي وإيليني..^(١)

على متن الباخرة «قبرص» ١٨/ ٢/ ١٩٣٥^(٢)

لينوتشكا الحبيبة، يا قديسي جورج!

أخيراً لاح الساحل المصري، في البعيد. ومن كوة الباخرة أميز خطأ غامقاً غير محدد. أنا المسافر الوحيد..

أنا مستلق في قُمرتي. اليوم عيد ميلادي، أفكر فيك وأراجع حياتي متوصلاً إلى قرارات جديدة. أحاول تطهير ذاتي وطرد عيوبي ودعم كل ما هو جيد، حتى أصعد، أخفّ وأنظف، نحو قمتي المتحركة دائماً.

وأنت معي، يا حبي الكبير، وأنا أرتعش من الفرح واللذة والزهو.

بورسعيد، ٢٠ فبراير^(٣)

تعرفتُ على شخص كريتي يعمل مديراً للجمارك (يعتمر طربوشاً ويتكلم العربية) ويعرفني من خلال «كتب» غالاتي: «هل أنت زوج السيدة غالاتي؟ - نعم!» ولا يمكنكِ تصوّر ما حدث: قدّم لي كرسيّاً مريحاً، وقهوة وترحيباً و... وسأخذني بالقوة لتناول الغداء في بيته.. أخشى أن تكون السيدة غالاتي معروفة في طوكيو أيضاً، بالي كالا!^(٤)

بورسعيد، مساءً، ٢٠ فبراير ١٩٣٥^(٥)

ذهبت مع اليوناني إلى بيته وأكلنا لحم طائر التدرج. كيف أصف لك قاعة الجلوس؟ خفتُ وانقطعتُ شهيتي للأكل: كانت الزوجة، قبل زواجها تتعاطى الرسم. ولقد نسخت بطاقات بريدية صارخة الألوان كبيرة الأحجام، وألصقتها على الجدران. وهناك دُمى

(١) رسالة كتبها كازنتزاكي بالفرنسية مباشرة.

(٢) و(٣) رسالة إلى إيليني ساميوس.

(٤) كان يمكن أن يحدث الأسوأ.

(٥) رسالة إلى إيليني ساميوس.

شنيعة فوق وسائد زرقاء، وزنوج مصنوعون من مادة السلولويد، وموزعون على الزوايا الأربع، أصص صينية مرعبة. ثم جاءت السيدة، باردة، متكلفة، لا تعرف هل تتصرف معي كمتشرد، أو كمتوحش، أو كإنسان سام. وكان المذيع يزعم بالأمان أمان^(١) - وقالت لي السيدة، فيما بعد إنها تدمن الاستماع إلى الموسيقى الراقية! جلسنا إلى المائدة: سمك «روجي» (السلطان إبراهيم)، ولحم التدرج العتيدي.. الخادم كاتينا من أصل كريتي، وفي الغرفة المجاورة شرعت حجلة تغرد فهرع السيد وعاد بها؛ هي أيضاً كريتية. جاء بها من كريت كي يتذكر جبالها. وضعها على المائدة، وبينما كنا نبدي إعجابنا بها لطخت السمات. فقفزت السيدة وأعادتها إلى القفص. وتابعنا الأكل، فاحتسنا نبذاً كريتياً، وجبناً كريتياً. وسرعان ما ذاب الجليد بيننا، فسألت السيدة «عن هدفها في الحياة»، وسألتني إن كان يوجد إله. قلت لها «ليس بعد، ياسيدتي» وطلبت مني وصفة في الحياة لإيجاد السعادة. قلت لها: «تطهير الضمير، والتعلق المتحمس بشيء ما في الحياة، مهما كان نوعه، وعدم اللجوء إلى جرح قلب كائن بشري، أبداً» فرحت كثيراً ووعدتني بأن أجدها سعيدة، لدى عودتي بعد أربعة أشهر. عندئذ أغلقنا المذيع فشعرت بارتياح لا يوصف.

في الرابعة والنصف خرجت وطففت في الشوارع حتى السابعة. ملأت جيوبي بالمندريئة الحلوة. وأكلتها في الشوارع. مع حلول الليل، اقترب مني زنجي وكلمني بالإيطالية. أخرج من جيبه صوراً فاحشة جداً وأراد بيعها لي. ثم عرض علي مرافقته إلى البيت أين توجد أخته الجميلة. قلت لا أريد نساء، فعرض علي أخاه. قلت لا أريد رجالاً. عندئذ نظر إلي مذهولاً وتركني.

٢١ فبراير (٢)

وصلت «كوشوما مارو»، وثمة يابانيون قصار القامة، صامتون. الباخرة كبيرة. طباع الصينيين غريبة. خصني القبطان بقمرة رائعة، لي وحدي، فوضعت كتبتي وأمتعتي لأستقر مدة شهر.. نحن الآن في قناة السويس حيث سفن كثيرة، وأشجار نخيل على امتداد الشارع أمامنا، وفلاحون في زوارق مملوءة بالصندرينة، والخبز، والزيتون، والسجائر، وغلايين الحشيش. يسافر معي يابانيون ويابانيات بشعات جداً، وهنود مسلولون وفرنسية كريهة.. هناك فلاح يقفز، ويعيد الكرة، من الجسر إلى البحر، فيضحك الجميع، ويجر المسكين نفسه مبللاً ثم يطلب البقشيش. أما أنا فأشبح

(١) هكذا وردت في الأصل. «الترجم».

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

بوجهي لاشتمئزازي من كل ما يحط بالإنسان.. أدخن غليونني وأفكر في الرحلة التي بدأت. أشعر ببعض الخوف من الرجال الصفر. هل أتوصل إلى حبهم؟ كيف سيكون قلبي إثر العودة؟

ليلة ٢١ فبراير (١)

مازلنا في قناة السويس الشهيرة. على يسارنا صحراء العرب، رتيبة بلا أشجار، ولا حتى بيت واحد. وعلى يميننا الأرض المصرية منبسطة بنخيلها وقراها. وهكذا ننزل إلى البحر الأحمر، بين أفريقيا وآسيا.

تعرفتُ إلى ياباني مسيحي! تحدثنا مطولاً عن الدين. تحمّس وبدأ يؤلف كتاباً سوف يحمل عنوان «كوكو رومان» (كوكورو، باليابانية، تعني «قلب») لأنني سميتُ له المسيح بذلك الاسم. لقد فتنته الفكرة وهاهوذا يشرع، منذ الآن، في تأليف كتاب ليتحدث فيه عن رؤية اليابانيين للديانة المسيحية.. إنَّ البشر في كل مكان متعطشون للكلمة الطيبة، وكثيراً ما تكون الكلمة الطيبة خصبة..

تجلس إلى المائدة، بجانبني، تلك المرأة الفرنسية السّمجّة، لم أكلّمها ولن أفعل ذلك. نتناول وجبات نصف أوروبية، نصف يابانية. والفرنسية تشم وتشمشم، وتمطّ شفيتها اشمئزازاً، فالأكل لا يروق لها. أما أنا فأكل بنهم، لقد بدأت أتأقلم..

البحر الأحمر، ٢٢ فبراير، مساءً (٢)

آتُرُومَا هَا يَا!

ما زلنا في البحر الأحمر، تجاوزنا مكة التي توجد على يميننا. والحبشة على يسارنا.. جبال رائعة، وردية، منيعة، كما أحبّها. أحس أن جدودي ولدوا هنا، رجالاً صحراويين. وعندما أرى الرّمال اللا متناهية يخفق قلبي القديم كأنه يرى وطنه الأوّل. إلهي، كم أنا مختلف عن بقية اليونانيين الذين ولد أسلافهم بين الخُصرة والمياه!

بدأت أتعلّم القليل من اللغة اليابانية. «آتُرُومَا هَا يَا» هي الجملة اليابانية الشهيرة التي تعني «زوجتي!» وعندما أعود سوف أحكي لك حكايتها (٣). وهذا هو اسمك منذ اليوم. كم أفكر فيك، يا حبيبتي! فوق هذه الجبال الوردية كلها أرى شبحين غيمتين، تمرّان متخاصرتين أبداً. أي حتّى موتنا.

(١) و (٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) تحكي الاسطورة عن زوجة محارب نبيل، ألقت بنفسها في البحر كي تنقذ زوجها من الغرق.

كتبتي مقالتيْن أو ثلاثاً .. أفكر في النشيد الذي ساكتبه عن «الصُّفر» .. لي أربع عيون وأربع آذان وقلبان - ونحن نسافر معاً يا حبيبتي.

٢٤ فبراير (١)

أقرأ وأكتب، تكلمت مع الفرنسية، رأيتها ضجرة فعرضتُ عليها كتاباً جميلاً عن الصين. فردتْ ملسوعة: «ولكن، يا سيدي، ما حاجتي للقراءة عن الصين، ما دمتُ ذاهبة إلى الصين؟»..

٢٥ فبراير (٢)

أحياناً يثب دلفين، وحولنا تطير النوارس، وفي هذا الصباح جاء طائر أحمر من الحبشة. غرّد مرة أو مرتين ثم طار. هذا المساء ندخل إلى المحيط الهندي. المسافرون يتململون من شدة الضجر. لا أحد يطالع. يشغلون الفونوغراف (الحاكي) ويرقصون. في البداية كان كل واحد بمفرده، ولا يتحدث إلى أحد، والآن بدأ الجميع يتبادلون الحديث، وحيثما كنت يقترب منك أحدهم محاولاً التحدّث بتعلّة السؤال عن الساعة .. وبهذه الطريقة تعرّفت إلى إنجليزية ثريّة، حيوية، ثقيلة الفكّ، تسافر إلى الصين برفقة زوجها .. ألعب «الدك - غولف» أحياناً .. لكنني أمضي النهار كله تقريباً في القراءة .. خلال ثمانية أيام نبلغ كولومبو .. وتبقى لنا خمسة عشر يوماً لبلوغ شانغهاي .. إنّها رحلة طويلة مضجرة، ولا سيما الآن، لأننا لم نعد نرى اليابسة، ولا شيء غير البحر، بلا نهاية ولا فائدة..

صارت الرحلة رتيبة، والمسافرون يفقدون صوابهم .. فيلعبون الألعاب نفسها ويعيدون الدعابات نفسها، لكنهم يضحّون أقل..

أطالع، يومياً، كتابين أو ثلاثة من المكتبة الفضيعة التابعة للباخرة، وأعيد قراءة قصائدك فأعدّل قليلاً، لكن بشكل مُجدٍ.

كنت أودّ كتابة نشيد جديد غير أن الأجواء غير مناسبة. حرارة عالية .. كل يوم نقدّم ساعاتنا بقدر نصف ساعة. حبيبتي، أنت الوحيدة التي توجدني، وحتى السّفر في المحيط الهندي ما هو إلا أسطورة..

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

أول مارس (١)

آتزوماها يا !

كل آمالنا باتت معلقة على كولومبو! الصيني الجالس قبالي، إلى المائدة، شاحب جداً، لم يعد قادراً على الكلام ولا على المثابرة. ويبدو الإجهاد على الانجليز والانجليزيات، وهم يقضون النهار على مقاعدهم الهزأة ويشاهدون البحر الهائج. وعندما تمر باخرة يركضون إلى مناظيرهم ويتفرجون باهتمام. والفرنسية تسعى إلى تجاذب أطراف الحديث، لكنها لا تطاق. والفينيّة تغازل يابانياً سميناً مثل شمبانزي. عازف الكمان المجري يعزف أو يلعب الورق، ويتحرك نصف عار، بينما ينتظر الألماني مشاهدة أسماك القرش سدى..

كتب الياباني المسيحي اسمي بالصينية وهو يعني ما يلي: نيكوس = Soft Merci-ful Light وكازنتراكي = Flower mountain caps. وهو الآن يحلل اسمك سوف أسعى إلى ختم الاسمين على العاج إذا استطعت.

بعد الظهر حلت عاصفة كبيرة. تأملت البحر ساعات عديدة. كان الزبد ينبثق مشكلاً أقواس قزح، وأسراب الغيوم تتطاير وتلعب في السماء. شعرت بفرح عارم.

٣ مارس (٢)

مساء البارحة لاحت نجوم النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، في قبة السماء. كانت كبيرة، صافية، وشكلها كالتالي: $\times \times \times$ وكنت سعيداً جداً.

كتب الياباني اسمك بالرموز الصينية التي تعني:

Pretty little night thou only choiced.

فكرت أمس في تأليف كتاب بالفرنسية على غرار «تودا - رابا». وأمل أن يكون جيداً. تجري أحداثه بسرعة، خلال خمس دقائق..

٦ مارس (٣)

آتزوماها يا !

قضينا نهار أمس كله في كولومبو. مشاهد رائعة، هنود بأجسام إلهية ضامرة، لونها

(١) و(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

كالشوكولاتة الغامقة، ووزرات ملونة، وعيون لامعة واسعة، ترقّ عذوبة. وصلوا منذ
الفجر في زوارق عالية ذات مجاذيف طويلة يجذّفون بها واقفين، نصف عُراة. وعلى
أرصعة الميناء تنتشر بنايات بشعة، فنادق، بنوك، جمارك، مخازن، وكلّ ما هو رديء ..
لكنني ابتعدت بسرعة وامتطيت مركبة جرّ. وبسرعة، وصمت، سلطنا شوارع كبيرة
حتى وصلنا إلى المدينة القديمة - دكاكين صغيرة تغصّ بالفواكه (موز، أناناس، مَنُغَا،
وعنب وفير) فاقتنيت الكثير.

فرحي عارم برؤية الأجسام والألوان. وما رأيناه في الصورة يتجسد الآن أمامي. لكن
الحرارة فظيعة وأنا أذوب. روائح عفونة وعرق ومسك. والزهور في كلّ مكان، حمراء،
بنفسجية، أو ناصعة البياض. وهناك معبد بوذي في وسط الطريق. وامرأة تقدم
زهوراً حمراء وتشبك يديها متأملة تمثال بوذا.

عُلّق حديثاً إرسال برقي في الباخرة: لقد اندلعت الثورة في اليونان. وأنا قلق جداً^(١)..
جاء قرابة مائة هندي ومكثوا على جسر الباخرة، صامتين. نساء جميلات لا
مباليات، نظيفات، متحليات ببراقع بنفسجية وبرتقالية، وقد رصعن مناخيرهنّ
بأحجار كريمة، وشعورهنّ بالحلي، الرجال يطبخون، ويلعبون الورق، ويدخنون
ويتحدثون، متربعين، هادئين، مع شعلة متناهية النعومة في أجسامهم..

٨ مارس^(٢)

نحن الآن قبالة سومطرة، جزيرة واسعة، كثيفة الغابات؛ تلبّدت السماء، وبدأت
أمطار استوائية غزيرة تنهمر. لون البحر معدني عجيب مثل الحديد السائل. الغيوم
كثيفة، ثقيلة..

أتعذب يا حبيبتي. برقيات الباخرة عن اليونان مثيرة للقلق .. وأنا بعيد من دون
تفاصيل .. رأيتك في المنام هذه الليلة. كنت ترتدين كيمونو، وكنا معاً سعيدين..

بحر سيام، ١٢ مارس ١٩٣٥^(٣)

أتزوما هايا !

توجد سنغافورة على خط الاستواء. وصلنا إليها في الساعة الرابعة بعد الظهر
وسرعان ما نزلت إلى اليابسة..

(١) تمرد فينيزيلي سرعان ما قُمع.

(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

مشهد رائع: شوارع مكتظة بالصينيين وباللافتات الصينية: رموز بيضاء كبيرة مرسومة على خلفيات سوداء، أو مذهبة؛ أو خضراء وسوداء مرسومة على خلفيات بنفسجية غامقة. والصينيون يعتمرون قبعات مخروطية معروفة، ذات حواف عريضة، والصينيات يرتدين سراويل وسترات سوداء طويلة مصنوعة من القطن أو وبر «الألباكَا»^(١) أو الحرير. قاعات حلاقة ومطاعم في الشوارع .. رائحة لا تطاق من الدكاكين والمجاري (لا يمكن التمييز بين رائحة المجاري ورائحة الناس). فواكه غريبة جداً .. أطفال في المزابل، وأشجار رائحة، في كل مكان، خضراء، مُزهرة، ذات عناقيد حمراء، تشبه الأشجار الوستارية (غليسین). أدخن غليونني وأمشي على مهل مستمتعاً بهذه الرؤية الفريدة.

وما أثار اهتمامي كثيراً هو الأناقة غير المتوقعة للمرأة الصينية: منامة بسيطة، جيدة التفصيل، خالية من الزينة، والشعر مجدول أحياناً في ضفيرة طويلة .. أو ملفوف على شكل كعكة صغيرة (لدى المتزوجات)، أما وجوههن .. فكأنها مرسومة على خشب لماع بلا عُقد، وهن يمشين بخفة وعزم مثل الفتيان..

شعرنا بالجوع فجلسنا في مطعم، في الهواء الطلق، ازدحام حول الموائد، وكل شخص أمام صحنه، يأكل ويلعب بعودين مثل المشعوذ. صمت ورائحة كريهة .. الأرز يعبق برائحة «الصيني» .. البيض فاسد، وفي وسط صفار المحّ يلوح جنين الطائر الصغير .. طلبت شاياً فأحضر لي سائل مركّز، يقع في منزلة وسطى بين الشوكولا والشاي، .. وحلاوته لا تطاق. غادرنا المطعم خائبين ومن حسن الحظ أننا وجدنا مخبزة. فاشترى كل واحد منا خبزاً معجناً، وموزاً، وهكذا تعشنا سائرين.

وصلنا إلى منتزه الملاهي Amusement Park العتيق حيث كان المذياع يصدح وبعض أصوات «الغايدا» Gaida الصينية أشبه بقطط في حالة نرؤ. ما العمل؟ لقد دخلنا..

كان هناك ابتهاج متأت من الجمهور الجالس، أو المتجول في المنتزه؛ بوجوه عجيبة ونظرات ملتهبة، قاسية، وذكية جداً. رائحة صابون رخيص، ضجة خفيفة، مستمرة، أشبه بدودة حرير منصرفة إلى القضم.

خيم الليل حوالي الساعة العاشرة، وظهر الهلال أخضر في سماء استوائية. جلسنا أمام الملهى الليلي لنشاهد الفتيات الصينيات يدخلن. وكان ذلك مشهداً مريباً، وأقوى

(١) من الحيوانات الثديية، يستخدم وبرها في النسيج (المترجم)

رؤية في بداية هذه الرحلة. تصوّري كائنات ناعمة، طويلة، كالثعابين، واقفة ومكسوة بحريز بسيط، من تزويق، ومشدّات خضراء، برتقالية، زرقاء سماوية، أو سوداء. ولم تسبق لي رؤية الجسد الإنساني شبيهاً بالسيف، كما في هذه المرة. وتحت الفستان المشقوق جانبياً يلمع النّصل الأصفر من الساق إلى العانة، مع كلّ خطوة، فيلوح ناعماً، قوياً، منيعاً. وتخيلي، على ذلك الجسد الثعباني المتحرّك ببطء، قناعاً مدهشاً؛ مسطحاً، معفراً بالمساحيق، مع حاجبين دقيقين كخنجرين، وفم برتقالي ثابت. والعينان ثابتتان أيضاً تنظران إليك من دون اكتراث، باردتين، فاسيتين، مثل نظرة الحيّة. كنت أشاهدنّ يختفين الواحدة تلو الأخرى، ببطء، وراء باب الملهى، كما ثعابين في جحورها. أو رجل وامرأة، فوق منصة مضاءة، بينما يقود رقصهم ايقاع ناي خفيّ. عرض عجائبي يقشعر له بدنك .. إنّها الشهوة مصعّدة نحو نقطة مميتة من الهلوسة الناجمة عن الأفيون والمرأة.

مرّ الوقت مثل رقة عين، وكان القمر قد احتجب عندما قمنا للخروج. شعرت في الوقت نفسه بالتعب والفرح والقرف - إحساس مضطرب وكثيف كما لو دخّنت الحشيش، واستيقظت مع شعور بالحنين والذعر، متذكراً ذلك الفردوس المضطرب وشوارعه العابقة بروائح المجاري وعطر الياسمين، وفواكهه المقرفة والمعطرة، ونساءه الفاتنات المصابات بداء الزهري - فردوس ينادي روي ويطردها في آن. هكذا تخيلت حوريات البحر أمام روح باسلة وشريفة، لا تريد فقدان أي إغواء في الأرض، لكنها لا ترغب في السقوط أيضاً. من بين الطرق الثلاث التي اكتشفها الإنسان: أن يعطي نفسه كلّ شيء ويفسد، أو لا يعطيها شيئاً ويصير قديساً - تظل طريقة عوليس هي الأفضل..

١٩ مارس ١٩٣٥ (١)

.. لا شيء يفرح. توارت اليابسة من جديد. بحرٌ لا متناه. والآن يخيم الضباب والباخرة تُشغل «قرن الضباب» كي تتفادى الاصطدام. اليوم كتبت مقالاً حول الضجر الخانق على متن الباخرة. لقد فقد الركاب نشاطهم. وفرحتي الكبرى هي رحيل الفرنسية (ستنزل اليوم) .. وهكذا أتنفس قليلاً. كانت تصرّ على الجلوس بجانبتي وقت الطعام.

ماذا أقول الآن عن قلقي إزاء اليونان؟ جاء في إحدى البرقيات أن المتمردين قد هزموا وسيتمّ نفيهم (٢).

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس: (ورد في الأصل تاريخ ١٩ مايو ١٩٣٥. خطأ يؤكد السياق، المترجم).

(٢) نفي فينيزيلوس إلى كورسيكا.

منذ عشر ساعات ونحن متوقفون في البحر ولا نتمكن من التحرك. ضباب كثيف يجعلنا لا نميز على بعد متر واحد، والقبطان لا يجرؤ على التقدم.

حبيبتي لينوتشكا، حلمت بك البارحة: كنا ذاهبين إلى بيت نازوس كيفيسيا؛ وفي الطريق قدمت لنا فتاة جفنة مرمية شفاقة، وفي قعر الجفنة كان يلوح بوذا في نقش خفيف ضئيل البروز.

مياه اليابان، ٢٤ مارس ١٩٣٥ (١)

.. البحر هائج منذ شانغهاي لكنني لم أصب بدوار البحر .. هذا المساء ندخل إلى البحر الياباني الداخلي. وهو يشبه بحيرة، وتنتشر فيه الجزر.

غداً سألقي بنفسي في المجهول؛ من دون إجادة اللغة – وقليلون هم اليابانيون الذين يتكلمون الإنجليزية – ومن دون مال طائل. وسوف أعيش قلق البحث عن فندق بثمن بخس، مرة أخرى، وكذلك البحث عن مطعم، والاستقرار، لكنني أمل الإطلاع على أشياء رائعة تنسيني القلق. لقد شكلت رؤية الصين بداية تعويض كبير حتى الآن. ما أشد اختلاف هذا العالم، من أية طينة مغايرة خلق هؤلاء الناس .. ما من توافق. لكن هناك ما يوحدنا بالتأكيد: الغناء، الحب، الألم، وخاصة الموت. فما أبعد الفوارق التي جئنا منها كي نلتقي حول تلك النقاط الخالدة.. (٢)

كوبي (٣)

... مطر خفيف يوحي باليأس. برد فظيع، وحل. خرجت وتجولت ثلاث ساعات .. دخلت إلى إحدى الحانات. كانت هناك ثلاث نساء من الجايشا (٤) متحلقات حول طاولة، في انتظار الزبائن، تافهات، قصيرات، بشعات .. كل النساء هنا يُلحْنَ لي بشعات وطيبات على العكس من الصينيات اللاتي يتمتع بعضهن بجاذبية مميتة، مع إحياء بالشؤم.

نارا، ٢٦ مارس ١٩٣٥ (٥)

بدأت الجولة صعبة جداً لأنني لا أجيد اللغة. انطلقت من أوزاكا هذا الصباح ..

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٢) فيما بعد تخل كازنتزاكي عن هذا الانطباع الأولي، كما يتبين من مقالاته التي نشرت في «أكروبوليس» بين ٩ يونيو و١٩ أكتوبر ١٩٣٥، وكذلك في كتابه عن اليابان والصين الذي صدر تحت عنوان عام: أثناء السفر، اليابان والصين (منشورات بيرسوس، أثينا، أكتوبر ١٩٣٨).
(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٤) الجايشا: مغنية وراقصة يابانية (المترجم).
(٥) رسالة إلى ايليني ساميوس.

فجأة، في ضيعة بائسة .. شجرة كرز مزهرة.

وصلنا إلى نارا .. أردتُ الذهاب إلى فندق ياباني حتى أختبر مدى قدرتي على التأقلم. كانت ثمة امرأتان أو ثلاث يرتدين الكيمونو ويتدفآن قرب موقد من برونز. لم يفهم ما أريد إلا بعد وقت طويل. وفي النهاية توصلن إلى الفهم .. خلعت حذائي وانتعلتُ خفّين. كانت مثل قفص خشبيّ معطر، وتلمع من شدة النظافة. وضَعْنَ وسادةً أمامي فجثوتُ وجثون مثلي ثم بدأن يحادثنني. فتحت دفتري ودَوَنْتُ بعض الجمل ثم قلتُ: «أنا جائع!» فأتين لي ببعض الأرز، وبأشياء أخرى مشكوك فيها، ذات لون زعفراني ورائحة عقاقير .. يستحيل أكلها .. تناولت حقايبى وقصدت الفندق الأوروبي الوحيد في نارا..

أكثر من ألف غزالة في المتنزه .. زرت كل المعابد، أشعلت شموعاً، قرعتُ الصنّاجات، أشعلت عود طيب باسمك - متمتماً بصلاة إليك. فليستجب لي بوذا .. أنا متعب، ولم أكل، طيلة النهار، سوى تفاحتين، لأنني لم أجروُ على الدخول إلى مطعم ياباني .. لست أدري لماذا لم تكسبني هذه الرحلة أية متعة حتّى الآن. ربما لأنني لم أستلم رسائل منك كلّ هذه الفترة. أنا قلق، ولا أتوصل إلى استعادة رشدي، نحن متباعدان كثيراً، فكيف أستمتع؟

٢٧ مارس (١)

من نارا ذهبت إلى دير هوريو-جي الشهير. رائع، مشرق، معابد «ياغود»^(٢)، طقس ربيعي عذب، تماثيل لبوذا ضاحكاً في الظلّ، رسوم على الحرير، راقصات، وفوق كلّ ذلك ربة الرحمة «كوانون». أجمل تماثيل شاهدته في حياتي .. تهت في متنزه نارا الشهير بالغزلان. ممرّات رائعة على جانبيها قناديل حجرية. ما أجمل المشهد عندما تضاء خلال مواكب الطواف الكبرى..

كيوتو، ٣١ مارس ١٩٣٥ (٣)

حبيبتي،

وصلت مساء أمس إلى هذه المدينة الجميلة. كنتُ مع صديق ياباني، وهكذا تمكنت

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) الياغود: معبد أو هيكل، صيني أو ياباني متعدّد الأدوار (المترجم).

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

من العثور على فندق ياباني جيد^(١). سوف أقيم فيه ثلاثة أيام. ألجأ إلى التخابط بالإشارات وبوساطة قاموس صغير .. بدأت بالتأقلم والأكل في مطاعم يابانية..

في الليل تصير المدينة أبعد ما تكون عن الواقع. فتمتليء بقناديل مختلفة الأنواع كما في موكب، ولا يُسمع سوى وقع القباقيب في الشوارع المبلطة (اشتريت لك زوجي قبقاب كرزي اللون، في منتهى الجمال) واشتريت لك أيضاً مظلة ورقية زيتية..

في أوزاكا ذهبت لزيارة مطابع الصحف وشاهدت الآلات العملاقة. لقد أعلنت الصحف عن قدومي وذكرت ما قلته عن اليابان، من دون استشارتي.

يبدو اليابانيون مهذّبين جداً ولطفاء حتى الآن. وفي حياتهم جاذبية ناعمة، شرقية. أما النساء فيلحن لي في منتهى البشاعة، لكنهن لا يفتقرن إلى نوع من الجاذبية والفتنة: يبتسمن دائماً، ينحنين، يمشين راقصات..

(كيوتو) أول ابريل ١٩٣٥ (٢)

زرت في النهار معابد بوذية ومتاحف. وأعجبت بلوحات زيتية رائعة ذات قيمة فائقة، ولا سيما ذلك الستار العائد إلى القرن السادس عشر، وقد رسم عليه صف من أشجار الخيزران فوق المياه. لون واحد رمادي - فضي؛ للصورة وللخلفية. وحده التدرج اللوني مختلف. رسم بسيط جداً، لكنني لا أعتقد أنني رأيت أجمل منه.

عدت مرهقاً إلى الفندق. أحضرت لي الفتاة بعض الشاي، فوراً، وجّهزت الحمام، فطلبت منها الأكل (بالإشارات دائماً). استرحت ودخنت غليونني، وعندئذ التفتت حياتي وروحي إلى لينوتشكا: أسمى من كل شيء، أحب من الخيزران، أعذب من السفر، فرحتي الكبرى، أكبر فرحة في حياتي، أملئ كله، لا أخشى شيئاً لأنها معي، لا أرغب إلا في أمر واحد: أن تبقى بجانبني .. بفرح وعذوبة وخلود - عندما أفكر فيك يخفق قلبي وتزهو أفكارني بفرح عارم..

وفي الوقت الذي كان كازنتزاكي يقوم فيه برحلته إلى الشرق الأقصى، كان هناك مراسل جريدة يونانية أخرى يقوم برحلة مماثلة. ولقد خاف أن يتفوق عليه زميله المشهور، فوشى به إلى السلطات اليابانية واصفاً كازنتزاكي بالإرهابي الخطير الذي

(١) أي من طراز ياباني.

(٢) رسالة إلى أيليني ساميوس.

جاء إلى اليابان في محاولة لاغتيال .. الميكادو (١) ..

لذلك فإن «الصديق الياباني» الذي تحدّث عنه كازنتزافي في رسائله لم يكن سوى مُخبر سرّي، مكلف بمراقبة شاعرنا. وهكذا تمكن بفضل ذلك الملاك الحارس ذي العينين المشدودتين - تذكّروا قلّة في كوبي، أمام البلاد المجهولة - من التعرّف على ما هو جوهري، وتفادي الإرهاب، والإنفاق غير المجدي.

«في البداية، روى نيكوس، كان الوضع شاقاً. فلا أكاد أنام حتى يأتي من يوقظني ويكلمني باللغة الروسية، وي طرح عليّ ألف سؤال وسؤال.. في محاولة لجعلي أناقض نفسي. ثم هدأ رجال الأمن تدريجياً. وتمكنت من النوم مرتاح البال. وتحول حارسي الأمن إلى ملاك حارس. كان رفيق طريق ممتازاً، يحبّ بلاده، وقادراً على مساعدتي في الاطلاع على ما لا يتمكن السائح العادي من اكتشافه...»

طوكيو، ١٨ أبريل ١٩٣٥ (٢)

أرتاد مسرح كابوكي كثيراً، وكذلك عروض الرقص. أستمع إلى الكثير من الموسيقى، وأشاهد لوحات رائعة. ولقد اشتريت كتاباً رائعاً يتضمن رسوماً يابانية جميلة..

٩ أبريل (٣)

ذهبت إلى كاماكورا اليوم. مطر ناعم وشفاف. كرز مزهر، ممرّات طويلة كلها زهور، نساء يحملن مظلات ملونة، مصنوعة من الورق، ويمشين صامتات، عذوبة، صمت، مشاعر يتعذّر وصفها تمالكت نفسي من البكاء، بصعوبة، لشدة ما رغبت في حضورك. تابعت سيري بهدوء، كما لو كنت أنظّم خطوتي على إيقاع خطوتك..

١٠ أبريل، مساءً (٤)

لم أتمكن بعد من تنظيم مكاسبتي الجديدة، في داخلي. ما زلت أشاهد، وأتجول، وأتعب. الربيع يهيني بهجة عارمة، حياة الشارع، الرسم، بعض المعابد، المصابيح الورقية .. عالم آخر، أعمق صمتاً ونمّنة من عالمنا. مسرح، رقص، نساء بعيدات، نائيات، من كوكب آخر. فتنة ولا مبالاة، كآبة غريبة، رتابة مثيرة. ورؤية التحف

(١) الامبراطور الياباني - (المترجم).

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) و(٤) رسائل إلى ايليني ساميوس.

الغريبة تصطدمني في كل لحظة. ينقبض قلبي؛ عندما أشاهد أشجاراً - قزمة، أشجار سنديان في أصص، أشجار كرز مزهرة أشبه ما تكون بالحب، صنوبراً لا يتجاوز ارتفاعه عشرة سنتيمترات..

١٥ ابريل ١٩٣٥ (١)

تلقيت الصحف، والنبا المروع عن موت باناييت! أنتظر بفارغ صبر رسالة منك حول التفاصيل. الحياة فظيعة ونحن لا نشعر بذلك، ونبددها في تفاهات بائسة. ولا نكتشف سيرنا نحو الهاوية إلا عند موت عزيز. أتلهم إلى العودة كي أراك ونمشي متشابكي اليدين. ذلك هو العزاء الوحيد.. تندلع في الصين حروب جديدة، لكنني أمل رؤية بيكين ثم السفر من شنغهاي يوم ٦ مايو..

١٧ ابريل (٢)

مطر، مطر، برد. أمضيت نهار الأمس بكامله في نيكو.. جبال رائعة، أشجار عملاقة - كريبتوميريا - معابد قديمة مذهلة، تماثيل، رسوم، مماش ذات قناديل حجرية.. أنا الآن في غرفتي، وهي غرفة طويلة، ضيقة، وأمامي موقد برونزي جميل. وعلى الجدار علقت بوذا الذي اقتنيته.. أول أمس ذهبت مع صديق إلى دار جايشا. يستحيل علي أن أصف لك طهارة الأجواء وبشاشتها. بيت خشبي كغيره من البيوت. وفي المدخل يوجد مصباحان من ورق. طرقت الباب فأسرع عدد من الفتيات لاستقبالنا. كما لو كنا نعرف بعضنا من زمن طويل.

انحنين لنا، ملامسات الأرض بجباههن، ثم خلعن أحذيتنا، وقدننا إلى قاعة الجلوس. الأرض مفروشة بالبسط والخشب يتصوّع برائحة طيبة. ولم يكن هناك أثاث، باستثناء مائدة واطئة وموقدين من البرونز، وبعض الوسائد. وعلى الجدار لوحة «كاليوموني» تمثل مشهداً دينياً، جلسنا متربعين وحولنا فتيات الجايشا. تكلمت قليلاً باليابانية فضحكن. جلبن لنا فستقاً وبعض الحلويات، والساكي (٣) الساخن.. فشربنا. تناولت إحداهن آلة الشاميزن وبدأت تعزف، ثانية ساقياها. وقامت أخرى قصيرة جداً، وشرعت في الرقص. نعمة، لطف واحتشام. وكُن يرتدين الكيمونو الصارخ الألوان، وعيونهن مرحة، بريئة. ولم تسبق لي مشاهدة ذلك في أية عائلة أوروبية. كان

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) شراب كحولي ياباني يصنع من الارز المخمر (المترجم).

صديقي يجيد اللغة اليابانية بشكل رائع. لذلك تمكّن من ممازحتهنّ، فكن يضحكن مثل بُنيّات في السابعة. لم أحس ببراءة المرأة كما في هذه المرّة .. كنت أنظر إليهن بهدوء، مكتوف اليدين، مثل بوذا. لم أمد يدي كي ألمسهنّ، خوفاً من تلاشي الرؤيا الساحرة..

غادرنا متأخرين .. فأنحنين مودّعات .. وساعدننا على انتعال الأحذية ثم انحنين لنا مرّة أخرى، مزققات كالعصافير:

شكراً جزيلاً! شكراً جزيلاً!! Arigato Kozaimas! Arigato Kozaimas!

٢٠ ابريل (١)

البارحة تناولت العشاء برفقة سفير ياباني سابق في أثينا. ومرّة أخرى جاءت فتاة لاستقبالنا عند المدخل، ثم انحنيت حتى لامس جبينها البلاط. صعدنا سلّماً نظيفاً جدّاً، ثم جلسنا على الوسائد. ولكلّ زبون الحق في حجرة خاصة. وهي مجردة من الأثاث تماماً. وفيها «تاتامي»^(٢) على الأرض. وثلاث وسادات وثلاثة مواقد برونزية. وعلى الجدار لوحة كاكيمونو تمثل بعض القصب وثلاث زهرات في أصيص. ولا شيء آخر. جاءت النادلة مرتدية كيمونو بنفسجياً، وشعرها مصفف بطريقة هندسية عجيبة. انحنيت وبدأت طقوس الأكل..

.. يصعب وصف جمال هذه الطقوس .. إنها أقرب إلى الطقوس الدينية الصامتة. تقبع الفتاة النادلة، في زاوية، وتظل تراقبك. فتسبر كلّ حركة من حركاتك وتسرع من دون ضجة لتأتي لك بالساكي، أو الكبريت، أو الشاي، أو المناديل، أي كلّ ما تفكر فيه. لقد اشتريت لك اللؤلؤة! رائعة... وأنا سعيد. غداً أغادر طوكيو. «لن أعيدها». أودّع الأرض اليابانية بهدوء.

لا أنام جيداً، وقبل ليلتين استيقظت هلعاً، وكان صوتاً يقول: «أنت جالس على الصوّان ولا تعرف أنّه هواء».

هنا يحدث زلزال خفيف، كلّ يوم تقريباً. وبعيداً عن طوكيو، تعجّ الجبال بينابيع المياه الحارة والدخان المتصاعد. يقيناً إننا نقيم على بركان ما يزال ناشطاً. غير أن الصوت الذي استمعت إليه ليلاً ذو معنى ما ورائي منسجم مع رؤيتي للحياة...

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) نوع من البُسط.

البحر الأصفر، ٢٤ أبريل ١٩٣٥ (١)

التفت إلى الوراء متأملاً ما رأيته وما أحسست به خلال الأشهر التي قضيتها في اليابان. لا أستطيع التوصل إلى نتائج منسجمة، بعد. مباحج ومرارات كثيرة، إرهاق، حماسة، حزن، حرية، ألوان رائعة، رسوم، تماثيل، مسارح، نساء، غابات، معابد، بحار - كل ذلك يعتل في صدري ولا أستطيع التعبير عنه. لكنني سوف أتوصل إليه بالقوة من أجل كتابة المقالات، في حين يظل الجوهرى لـ «الأوديسة»، إذ أنني تحملت هذه الرحلة المضنية حباً في «الأوديسة» وأتمنى إنقاذ أروع ما رأيت بكتابته في بعض القصائد.

... التقيت بعض الصينيين في الباخرة. إنهم كريهون جداً. ومن المؤكد أن هناك أشخاصاً رائعين - مرهفين، من كبار السادة - لكن، أين أجدهم؟ في السفينة أم في الشوارع؟ أتلف لرؤية بيكين، المدينة العجيبة...

٢٧ أبريل (٢)

... تتواصل الرحلة رتيبة. لقد بلغنا أخيراً خليج بيكين الكبير، وغداً نصل إلى ميناء تيانتنسن، ضباب وبرد. أقضي النهار في المطالعة، مسترخياً. لو تمكنت من كتابة بعض القصائد لأحسست بالراحة. لكنني أفقد الراحة. وحوالي أصوات وزعيق راديو، وضجة تافهة تنفّر روعي التي ترفض العمل. وفوق ذلك فإن الطبخ الياباني، على متن السفينة، يثير القرف...

تيانتنسن، ٢٨ أبريل (٣)

إنه الفجر، وصلنا إلى تيانتنسن للتوّ. ونفتظر المدّ حتى ندخل إلى الميناء.. الطقس غائم ومعتدل... أميز الساحل الصيني بصعوبة. زوارق «السامبان» ذات الأشرعة «القشّية» الغربية تجوب البحر... أجهز أمتعتي، وكتبي، وعيني، كي أضع قدمي على هذه الأرض الجديدة...

بيكين، ٢٩ أبريل (٤)

حبيبتي،

أخيراً، أعتقد أنني سعيد، اليوم. بيكين مدينة لا توصف، إنها نظيرة موسكو. طفت

(١) و (٢) و (٣) و (٤) رسائل إلى ايليني ساميوس.

الصباح بكامله في «المدينة المحظورة»... ولا يمكن التعبير عما تزخر به من ثروات، وألوان، ولطف، وكنوز. الأعشاب تنمو فوق السطوح، والرسوم الجدارية تتفتت، والقرميد الخزفي الأصفر يتحطم ويسقط. لم أكن أمل رؤية مثل هذه الأعجوبة. لقد عدت لتقوي، وما زالت عيناى مبهورتين...

... شاهدت أعمالاً فنية رائعة - رسوماً على الحرير في منتهى البساطة، بلا ألوان، لكنها ذات مهارة لا تُضاهى... ينبغي أن يكون «كالموك» هنا! أصص، وأوانٍ خزفية رائعة، لم أشاهد أجمل وأرق منها. ولم أشعر بمثل هذه المتعة في لمس المادة... ينبغي أن يأتي «فروسو» إلى هنا. وقبل ذلك يتوجب أن نأتي نحن إلى هنا، يا حبيبتي، معاً، لأنني أشعر بالخجل ولا أستطيع تحمل هذا المشهد بمفردي. ممرات لا متناهية من الأكاسيا والغليسين المترهرة.

مساءً

ذهبت رفقة سكرتير السفارة البلجيكية، وهو صديق هيربر^(١)، لزيارة بيت نبيل: كان هناك احتفال بعيد ميلاد الجدة البالغة ثمانين عاماً. بيت واسع، وباحته مزينة بشرائط حريرية حمراء كتبت عليها تهاني الأصدقاء والأقارب متمنين لها العيش مائة سنة. موائد مجهزة وحشد كبير من الحضور... ولقد دُعي المسرح الصيني لتقديم عرض في الساحة الرئيسية... وثمة أطفال يمثلون بعض المسرحيات الدرامية والهزلية. أصوات مثل المواء، بدلات فاخرة، مواضيع بدائية وموسيقى صينية ممتعة لكنها رتيبة. سلّمنا على العجوز - كائن جذاب ومتعفن - وتناولنا حلويات فاقعة الألوان. مكثت أدخُن وأتفرّج، وأنصت وأتساءل متى تشبع عيناى...

٣٠ أبريل (٢)

... عدت من زيارة معابد رائعة وقد امتلأت عيناى باللون الأزرق لأنّ أجرّ تلك المعابد من الخزف الأزرق الغامق. لكنني عدت سعيداً، إذ وجدتُ، لدى مروري بالبريد، ثلاث رسائل منك.

«توم (٣)، صرختُ، بسرعة، let me home!».

(١) أعطى جان هيربر رسائل توصية كثيرة لكازنتزاكي، في اليابان كما في الصين.

(٢) رسائل إلى ايليني ساميوس.

(٣) «توم» اسم الشخص الذي يجزّ العربة: غُذّ بي إلى البيت!

٣٠ أبريل ، مساءً

عدتُ من بيت الأميرة. بيت رائع لنبلأ صينيين: حديقة مسورة، قاعات جلوس، ذوق غير منسجم: فإلى جانب لوحة صينية رائعة هناك تفاهة فرنسية. ودخلت الأميرة - تبلغ حوالي الخمسين من العمر - ضامرة، رشيقة، أنيقة، غنجة. قامتها مشدودة في فستان جميل مطرز بالذهب، وتضع في أذنيها قرطين طويلين من اليشب واللؤلؤ. ذاوية لكنها متأنقة. وهي راقصة، وتدمن الموسيقى. وتريد تأليف سلسلة كتب على غرار ألكسندر دوماس، «الفرسان الثلاثة».

ومع ذلك فهي ذكية وممتعة. رأت كثيراً وعاشت طويلاً. تحدّثنا مثل صديقين قديمين. سوف أعود إلى رؤيتها بعد غدٍ ونزور القصر المغلق الذي تحظر زيارته... شاي بورق الورد، حلويات، الخ...

أثينا، ٥-٦-١٩٣٥ (١)

وصلت يوم ٣ نوفمبر. لكن، مجرداً من أي فرح، لأنني لم أجدك في أثينا (٢). أجواء لا تطاق. أهوال لا توصف، بؤس، وحشية. أتلّف للاعتصام بـ «ايجين» حتى نقرر مصيرنا...

أثينا، ٨ يونيو ١٩٣٥ (٣)

عمّا قريب أذهب لتناول العشاء عند باباندريو، وسوف أهديه إحدى التحف. وهكذا أعطي ما أملك وانتظرك كي أعطيك ما تبقى... أقرّ بأن تأخرك في المجيء سوف يجعلني كئيباً...

غداً، انتخابات! يا للبؤس! أصدقائي طردوا كلهم. لا أقرأ الصحف. ولا أكرث لهذه الانتخابات، ومع ذلك أستنشق هذا التحلّ وأتضايق منه...

١٢ يونيو (٤)

حبيبتي،

أشعر بالضيق. أثينا تضطهدني، ولم أعد أتحملها. وهذا سبب المرارة التي تملأ رسائلي...

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) بأمر من طبيبي، توجّب عليّ السفر إلى فرنسا، للعلاج.

(٣) و (٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

يجرّوني من عشاء إلى عشاء، ولا أرغب في ذلك. أجاهد للمحافظة على قناعي. كم وددتُ يا لينوتشكا، أن أكتب إليك رسالة حارة، مفعمة بالفرح، تقرئينها في الخارج فتبهجك قليلاً! لكنني لا أستطيع. أنا حزين جداً، ولا أتمكن من قهر حزني. هناك أسباب عديدة من بينها أجواء أثينا المحبطة، المذلة. كنت أفضل عدم الكتابة إليك وانتظارك، صامتاً.

١٣ يونيو (١)

مقالاتي حول اليابان تترك انطباعاً جيداً لما فيها من جديد... عندما أصل إلى ايجين يتوجب أن أكتب عن الصين أيضاً. هناك عمل كثير في الأفق، لكنني سأتمكن من إنجازه. لا أرغب إلا في الهدوء وراحة البال.

وهذا غير متوافر حالياً. لكنك ستأتين ويأتي معك كل شيء...

لو كانت علاقة نيكوس برفيقة في صحة جيدة، لما خطر بباله كل ذلك الحنان والصبر والسحر. ولو كنأ مع رفيق دقيق دقيق العناية لعالجت جسمي بطريقة أفضل، بل ربما شفيتته «من حسن الحظ أنك مريضة»، قال لي ممازحاً «لو كنت في صحة جيدة لقلبت العالم!»، لم أقلب العالم. لكن بمعاشرة ذلك الشيخ الروحي تقوّت روحي واستطاعت النّهل، ملء الكفين، من أقراح هذه الأرض ومن أتراحها.

ايجين، ٢٢ يونيو ١٩٣٥ (٢)

ما أن وضعتُ قدمي في ايجين حتى تحولت إلى إنسان آخر: فرح، سعادة نسبية، بحر، عزلة. ليس هناك مناخ أفضل لروحي. أتمشّي في البيت وأفكر باستمرار في قصيدتك الجميلة، مع تغيير بعض النعوت فقط: «عندما تبتعدين يا حبيبتي... يظلّ بيتنا الصغير مسكوناً... يظلّ مسكوناً بخيالك الحبيب. ولا أتجرأ على لمس شيء إذ يخيل لي أنني ألمس يدك، فارتجف من حضورك اللامرئي» (٣)

وتثيرني الأشياء الأليفة لديك، بعمق، لأنها ظلت كما تركتها... عدت إلى المطبخ بنفسني والكتب مكدّسة على المائدة الكبيرة. أطلع حول الصين. وأتأمل في «الأوديسة» وأجهّز الكتب الدراسية. ومنذ الغد سأبدأ بكتابة المقالات...

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) يستشهد نيكوس بأحدى قصائدي.

النهار طويل، أنام على الشرفة والنجوم معلقة فوقى. برج العقرب الرائع يدور فوق رأسي. أستيقظ في الفجر فرحاً، ويبدأ كدّ النهار.

من الأفضل ألا يأتي كوكوشكا وزينكا... وليكن ذلك في العام القادم، عندما نكون في بيتنا...^(١) أما الآن فإن زيارتهما سوف تكون تشريعاً وتكليفاً^(٢).

أيام رائعة: أسبح وأجفف جسمي على الصخرة، وقد بدأ يسمّر أكثر تحت الشمس، أشاهد مرور الزوارق، أدخن تبغاً يابانياً وأتذكر كل ما رأيت منتظراً قدومك حتى تعود المحاورات المقدسة والمداعبات الإلهية...

ايجين، ٥ يوليو ١٩٣٥^(٣)

أرجوك أن تبعثني لي.. بكل الخطب التي ألقيت في المؤتمر المناهض للفاشية. لقد دعيت للمشاركة. لكنّ الذهاب مستحيل.

قرأت مقالتك الثانية وهي ممتازة وحيوية.

(ايجين) ١٥ يوليو^(٤)

... أنا مُنكبّ على تأليف «كتاب الأبجدية» أكاد أفقد صوابي. أكتب وأعيد الكتابة. جاء كالموك وتعاوناً، فعدتُ إلى إعادة كتابة ما أعدتُ كتابته. وينبغي، فوق ذلك، أن أعدّ كتابي قراءة للصفّ الثاني...

... أعجبتني قصائدك الجديدة من حيث الجوهر لكنّ شكلها ليس عفويّاً ولا بسيطاً. ينبغي إعادة صياغتها إنها شديدة التكثيف. فإذا لم تتوصلي إلى أعلى درجات البساطة (ناخمان) تصبح قصائد غير قابلة للفهم. تحتاجين إلى البساطة التي تأتي بعد التعقيد. عمل جبار، طموح في غاية السمو، يتطلب منك عذاباً شديداً. إنه مرتفع وعمر...

عوّضت أفراح اللقاء كلّ آلام الفراق. ولقد حدّثني نيكوس بخبث بريء عن تفاصيل حياة العزلة مركزاً على الجوانب الممتعة، صارفاً نظره عن الجوانب المستهجنة أو الكئيبة: ففي يوم كذا... كان لون البحر متفرداً، وفي يوم آخر أزهر الصبّار مثل الأسهم النارية، وفي الليل وعده أحد الأصاقياء بأمر استثنائي، والقطعة اشتبكت مع الحية، وثمة مواضيع جديدة تتصادم، «في صُلبه» وتطالب بالأولوية... ويكون هو أول من يضحك،

(١) البيت الذي كنا نحلم به.

(٢) كان نقص الرفاهية يدفعنا إلى عدم استقبال الضيوف البارزين الذين لا تربطنا بهم صلات وثيقة.

(٣) و(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

راوياً في مغامراته أي بعض خطائه غير المقصودة...

كان الشتاء على الأبواب وبدأت قشعريرة تشبه انسياب بعض الزواحف تجوب
ظهرينا، ولاحت أولى بوادر نشقق الجلد.

ذهبت إلى أثينا لرؤية بعض الأصدقاء الناشرين، ورؤساء التحرير الذين وعدونا
بالعمل، وأصدقائنا في المسرح القومي، ودوراس، مهندسنا المعماري العزيز الذي كان
يعدّ تصميماً لبيتنا القادم. إذ أنني نسيت ذكر قطعة الأرض الرائعة، على سفح متداخل
مع البحر، ذات الثمانية آلاف متر مربع، والتي تمكّن كالموك ونيكوس من اقتنائها معاً.

ايجين، الثلاثاء، ٥ نوفمبر ١٩٣٥ (١)

لابدّ أن نتمكّن من سماع الموسيقى شتاءً. صرت أنام في السادسة، نوماً قليلاً مزعجاً.
أعاني من الأرق ولا أرق، في القيام مع منتصف الليل والانغماس في العمل. إنّ وجود
مذيع قد يساهم في إسعادنا...

اشتغل على «الأوديسا». وسوف أكتب «والدي» عندما أشعر بقوة دافعة. لكنني
سوف أكتبه، بكل تأكيد، من أجل إرضائك...

(ايجين) ٦ ديسمبر ١٩٣٥ (٢)

حبيبتي لينوتشكا،

عرفت أنّ اليوم هو يوم عيدي، بالحادثة التالية: جاء السيد كاتسيمنغو (٣) مبكراً
هذا الصباح لتهنئتي، وكان يرتدي بدلته السوداء الخاصة بالأعياد، مع منديل أزرق
سماوي نظيف ملفوف حول عنقه.

لذلك قررت، أنا أيضاً، أن أحتفل بوضع قليل من حبوب البن في المطحنة، على خلاف
العادة. وهكذا شربت قهوة وتمنيت لنفسني سنة أفضل.

وقت مشهود وما من فرحة في قلبي، ومع ذلك أردت القيام برحلة في الجزيرة. مررت
بـ «ايجين» حيث كانت تنتظرني، في مركز بريدها، هدية – طبعة أنيقة لكتاب «هاملت»،
باللغتين الفرنسية والانجليزية، أرسل بها إليّ بريفيلاكي. فرحت وسلكت الدرب المؤدي
إلى ميساغرو. وهناك استلهمت بداية رائعة لكتابي عن «والدي» فدوّنتها... ثم عدت.

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني سام...

(٣) بقال ايجين الذي علق لافتة فوق صندوق الدكان مكتوبة باللغة اليونانية القديمة: «أخشى الذين بعث لهم
بالدين»

وأثناء مروري بيروكوبي اشتريت ثلاثة أقراص حلوى معتبراً إياها هدايا من الأشخاص الثلاثة الذين يحبونني أكثر: أنت، وأختي هيلينا، والمجهول «س». يوجد لدي، في البيت، منذ البارحة، قليل من الهندباء البرية ونصف سمكة رنكة. قلت في البداية: «ينبغي ألا أسخن الهندباء» - وتعرفين كم تكون كريهة إذا أكلت باردة! - ثم تذكرت عيدي فقررت تسخينها، طلباً للمتعة.

لا يمكن أن تتصوري كم تلذذت بأكل الحلويات، وبعد ذلك احتسيت قليلاً من مشروب أنا، على نخبها. وهكذا انتهى يوم ٦ ديسمبر...

(ايجين) السبت (١٩٣٥) (١)

وضعت خطة لكتابي «وأنا أدخن...» لكنني لا أدري متى أبدأ بكتابته. قلبي كئيب هذه الأشهر، من دون معرفة السبب، ولا أستطيع الدخول في الأجواء المتألقة والضرورية للإبداع... تجري الحكاية في اليابان حيث تُشعل إحدى فتيات الجايشا غليونني وتضع فيه حبة صغيرة سوداء، قليلاً من الحشيش، وفجأة تنبثق الفكرة التي طالما احتضنتها فأستعيد طفولتي في كريت مع والدي، إلى أن ينطفئ الغليون وأسمع ضحكة الجايشا التي أدركت، عندما نظرت إلي، أنني نسيته للحظة، مكان وجودي.

الحشيش يوضح هروبي بشكل جيد، هروبي الكامل، ويفسر أسلوب الكتاب، المتقطع، العنيف والطاقر، وكثرة الصور الهلوسية: الشرق الأقصى وكريت مشتبكين بلا فكك، مشاهد، عيون مائلة، وكريتيون كريمون، إنه تشابك صعب ومذهل...

كل شيء جاهز في ذهني، لكن تنقصني اللحظة الإلهية، الجامعة بين اللامبالاة والنشوة. وسوف تأتي بدورها في الشتاء، خلال عزلتنا... لقد أرهقت من كثرة الزيارات والمحاورات وهموم الحياة. أرجو ألا تخرجني غداً، وألا تحزنك أجواء أثينا.. (٢)

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) بعد تمرّد أتباع فينيزيلوس (مارس ١٩٣٥) الذي قمع بشدة ونفي فينيزيلوس على إثره، إلى كورسيكا، تسلط اليمين المتطرف على اليونان. ويمكن القول بلا مبالغة إن الشعب اليوناني لم يعرف يوماً من الحرية منذ ١٩٣٥، أي منذ انقلاب الجنرال كونديليس ذلك الرجل الفظ والامي.

أول ما قام به كونديليس هو إلغاء الجمهورية. واستدعى الملك جورج للحكم مجدداً بعد استفتاء شعبي مزور. إذ كان عدد المقترعين لصالح عودة الملك أكثر من عدد المواطنين اليونانيين الذين تسمح لهم أعمارهم بالتصويت. أما ما أعقب ذلك : من ديكتاتورية ميتاكساس الفاشية والحرب، إلى الحربين الاهليتين، وتعيين انصار النازية في أهم المناصب، وملاحقة أنصار الديمقراطية، كل ذلك كان من المرارة بحث يصعب تلخيصه في بضع كلمات، ويستحق أفضل من هذه الملاحظة المختصرة.

(ايجين) ٢٤ ديسمبر ١٩٣٥ (١)

الأيام في منتهى العذوبة واللفظ والندوة.. أشعر بالهدوء. لقد مرّت أوقات الكآبة. وربما كان سببها يعود إلى القلق الذي خنقني قبل أن أبدأ بكتابة «وأنا أدخن..» كنت أثور لأتفه الأسباب، ويجرحني أبسط اتصال. لقد استعدت هدوئي الآن وبدأت أعمال الولادة.

١٩٣٦-١٩٣٧. ستكون السنتان التاليتان عصيبتين جداً. وما لم تستطع المحن تحطيمه، كاد أن يؤدي به تبلور حلم : «من لم يزوج ابنة أو يبن بيتاً، لم يختبر هذا العالم» كنا نعرف المثل لكننا نجهل العناء الذي يتحدث عنه.

ولم يتأخر ظهور الصعوبات. كنا نرغب، حسب زعمنا، في بيت ريفي صغير، متناغم مع نمط جزيرتنا. يكون بلا قرميد، ويكفي سطح بسيط تدفئه الشمس، أو تبلله الأمطار، فيبدأ بالرشح فوق مرقدنا... بيت منسجم بلطف مع البحر وظهر جبل هيمات المسطح...

وأردنا أيضاً أن نجعل للبيت خزاناً تحته، نظراً لأننا نبني فوق الصخور، وسلاماً خارجياً من الحجارة، تكون درجاته منحوتة في الصخر، طلباً للبساطة، وقاعة جلوس في الطابق الأرضي تكون بطريقة أقرب إلى سفينة، وغرفة نوم، وبعض الغرف الإضافية. أما السطح فيكون مصطبة محاطة بالشرفات : وَكُر النسر.

اقترحتُ شكل (n) (٢) متضمناً باحة محمية من الرياح. لكن المهندس اعتبره مؤدياً للافلاس، وبتر إحدى ساقيه. وتهلل نيكوس : «حظنا رائع! الغاما (٢) تعجبني أكثر من البي TT. وتبين أن الشكل الجديد جميل ومنسجم مع البيوت المجاورة. ثم إنه لا يمثل أي حرف من حروف الأبجدية بل «غامما»، أي الحرف الثالث... ثلاثة، ثلاثة وثلاثون، ثلاثة آلاف وثلاثة وثلاثون.. الرقم المفضل لدي!» (٣)

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) حرف بي Pi وهو الحرف السادس عشر الأبجدية اليونانية. ويلى في النص، حرف غاما = غ الحرف الثالث (المترجم).

(٣) حتى أن كازنتزاكي كتب الأوديسة في ٣٣٣٣٣ بيتاً! (المترجم).

وعلى الرغم من قلة أموالنا، بدا لنا التصميم الأول مختزلاً وضيقاً. لكن التصميم الثاني أثار اعتراضات جديدة. كنا نريد أن «تدخل الطبيعة إلى بيتنا» غير أن نيكوس كان يفكر في قلعة منقوشة في الصخر. ولقد خطط المهندس لأربعة أبواب «متصلة بالطبيعة» فطلب نيكوس إلغاء ثلاثة أبواب منها. وبقينا نطالب حتى باتت «الفيرندا» «مقطوعة» عن بقية البيت. لكنني ربحت معركة المطبخ. وما أن هدأت عاصفة الأبواب حتى ثارت أخرى : عاصفة السلم الداخلي. أصر نيكوس : «دَرَج واحد يكفي. لا أحب هذه الثقوب الكثيرة في البيت... سوف ندخل من الخارج» وعندما توَّسلنا إليه اقترح... باباً أرضياً على شكل كوة تفتح من فوق!

وجاءت مشكلة النوافذ لتزيد الطين بلة. فرحنا، في التصميم، بالفتحات الواسعة المتراوحة بين ٢,٦٠ و ٦ أمتار. لكنني عندما غبت بسبب سفري إلى أثينا. ووجد البناؤون - سوف أتحدث عنهم فيما بعد - أنفسهم أمام فتحات واسعة، ارتبكوا وقالوا لنيكوس : «كيرنيكوس، مهندسك مجنون! فهذه الفرجات لن تسمح لنا بصب طبقات الأسمنت، وسوف تنهار».

ولدى عودتي وجدت نوافذ صغيرة مربعة. ومتتابعة.

بناء ، فهدم، وإعادة بناء، وإعادة هدم... وطال العذاب سنتين كنا نقطع فيهما رؤوس الوحش فتنبت من جديد، أكثر قوة... ولا يمكن لأحد أن يدرك مدى قلقنا عندما تأتي أيام السبت لدفع أجور العمال الذين يحدقون فينا، جائعين، محطمي الظهور.

كانَ البناء ان ثيودور واغناس عملاقين من لاجئي آسيا الصغرى. وقد أدرك أكبرهما، وهو ثيودور، أن أموال «المعلم» قليلة. فقرر الاقتصاد في كل شيء: «لقد حددنا ثمناً ولن نتجاوزه، يا سيدي نيكوس!» أعلن ذلك وهو يرفع قدمه ليشرب نخباً مع معلمه. «ومتى نبدأ؟» - فوراً!

ثم وقف واصطحب اغناس إلى طرق الحقل حيث وضعنا قضيبين حديدين فتنا ولا هما، وقصدا البحر. ثم عادا وكلاهما يحمل صخرة كبيرة. وطفقا ينحطان الصخرتين المالحتين، حتى لاحتا عاجيتين مع التماعه وردية.

وتمكن ثيودور، بطريقته، من حلّ مشكلة الرمل: «لماذا تشتري يا سيدي نيكوس؟ ها هو ذا الرمل تحت أقدامنا. سوف نغسله بالماء العذب ويسير كل شيء على مايرام!» فيما بعد، سوف يؤدي هذا التفاؤل إلى ظهور رغبة بيضاء تشبه الثلج، على الجدران، وتتلف كتبنا المسكينة...

لدى قدوم العاملين من ايجين، لا ينسيان، كشرقيين حقيقيين، أن يجلبا سمكاً وفواكه وبعض اللوز الطازج من أشجارهما...

وعندما حان وقت التبليط طلب مني ثيودور أن أذهب إلى بيري مع أوامر قطعية: «لا تنخدعي يا سيدة ايلينيتسا! نريد بلاطاً جافاً، من النوع الممتاز».

وعدت في زورق يغصّ بمواد مختلفة، بينها البلاط العتيد. غصّ ثيودور بلاطة فانكسرت قطعتين. وكان شكّه في محلّه. وفي كتاب «الحرية أو الموت» هناك شخصية أكل الجصّ. وهو شخص حقيقي ما زال يعيش واسمه الفعلي كوكيس. ويمكن لثيودور واغناس أن يدخلوا كتاب «القبطان ميخاليس».

وكما فعل في «تودا - وابا» و «الاتحاد السوفياتي»، أراد كازنتزاكي أن يقدم جوهر تجربته في اليابان والصين ضمن كتاب «بستان الصخور». الذي قال عنه كاتب سيرته عزيز عزّت (١): «إنه نوع من مختبر تخضع فيه كلّ تجارب المؤلف إلى اختبار قاس، ولا شك أن كازنتزاكي أراد تقريب كتابه «الزهد» من القارىء، واختبار صلابة النتائج التي توصل إليها في زهده الخاص.

وبالتزامن مع «بستان الصخور» ألف كازنتزاكي كتاب قراءة للمدارس اليونانية في مصر، بإلحاح من صديقه مارسيلوس الذي كان يمتلك مكتبة في الإسكندرية. وسماه «المشروع الكبير» ثم طلب مني أن أوقعه باسمي فقط، مع أنني لم أساهم فيه مطلقاً.

(١) عزيز عزّت: «نيكوس كازنتزاكي، سيرة حياة» منشورات بلون، باريس ١٩٦٥.

(ايجين ٢٢ يناير ١٩٣٦ (١))

... تلقيت مخطوطة الكتاب المخصص لمدارس مصر، وقد أعاد مارسيلوس كتابته بالقلم الرصاصي: فوضى جديدة وعمل متعب، عليّ تصحيحه وإعادة نسخه، منذ البداية.

أعمل النهار كله على تأليف «بستان الصخور» وأتلهف لمجيئك كي تُعلميني إن كان جيداً أو تتوجب إعادة كتابته... أرى أحلاماً غريبة، وهناك خبر واحد سعيد: مات ملك إنجلترا...

ولم يكد نيكوس يكمل «بستان الصخور» حتى تدهورت حالتي الصحية. وللمرة الأولى، يستسلم الرجل المفتقر إلى رقيقة قوية مثل الصخر، شاعراً باليأس. وفي رسائلنا الكثيرة لا تشهد على ذلك سوى رسالتين. إذ أنه لم يجعلني أشعر البتة بأنني أتسبب في عذابه، لا شفويّاً ولا كتابياً.

(ايجين) الجمعة مساء (٢)

حبيبتي لينوتشكا،

لم أتمالك نفسي بعد، ولم أعد قادراً على تحمّل فكرة مرضك، بعد العملية الجراحية، والاستشفاء في يلومبيير... عزائي الوحيد أن أمرض بدوري. ولعليّ بذلك أنصرف إلى ألامي وأرتاح، وربما ارتحت أنت أيضاً...

تمنيت لو كنتُ قادراً على البكاء، فهو أمر بسيط في متناول الكثير من الرجال، لكني لا أستطيع. عيناى جافتان وقلبي منقبض، مثل كرة رصاصية ثقيلة الحمل...

(ايجين الخميس ٧ مايو ١٩٣٦ (٣))

لا تنسي أن تخبري دوراس بالأوضاع باباً للمطبخ مهما كان المبرّر. فلتذهب الرفاهية إلى الجحيم (تذكري كاريل): «داء الزهري، وإدمان الكحول والرفاهية ستقضي على حضارتنا»...

(١) و (٢) و (٣) رسائل إلى ايليني ساميوس.

تلقيت، يوم سفرك، رسالة من مدير ايرثيلا^(١) في التشيلي يقول لي فيها إنه أعجب بكتاب «تودا-رابا». وعرض عليّ ترجمته ونشره ودفع عشرة بالمائة من سعر النسخة. وطلب مني أيضاً أن أبعث إليه بـ «بستان الصخور»...

خلال ثلاثة أيام أنهى الصياغة الأولى لكتاب «والدي». وبدأتُ تتملكني فكرة كتاب جديد. لكنني أفضل السفر إلى اليونان، لأنّ التأليف في وقت متقارب قد يستنفذني، من دون أن أشعر.

(ايجين) الخميس (٢)

انتهى «والدي» منذ أول أمس. لقد أنجزته في وقت أسرع مما كنت أتوقع. والآن سوف أهمله لبعض الوقت داخل أحد الأدراج... وسأذهب أيضاً إلى كريت لقضاء بضعة أيام...

أنا الآن قلق وبلا عمل. أفكر في الكتاب المقبل: «دير الصخور». ينبغي أن تدور أحداثه في الهند (كما جرت أحداث «بستان الصخور» في الصين)... سوف نرى... إذا جاء هيربر... وإذا... وإذا... ربما أبداً، غداً، بكتابة نشيد عن هيديوخشي، البطل الياباني الذي أحبه.

هنا، لا جديد، إذا استثنينا زهور الصبار التي ستفتح قريباً. لو كان عندي عرق لسقيتها، من أجل تأخير تفتحها.

لا شيء آخر، يا حبيبتي. ليكن الله معنا!.... ومهما حدث فإن شعارنا:

High thinking - hard work - adventurous excitement.

(ايجين) ٢٠ مايو ١٩٣٦ (٣)

حبيبتي لينوتشكا

ليكن الله معك، ومعى، غداً عيدك. تأثرت كثيراً عندما اكتشفت أن نبتة الصبار قد أزهرت قبل ليلتين، في الذكرى الثانية عشرة للقائنا. قال حسن. ولتكن هذه السنة مواتيّة - صحة، بيت، كتب أبجدية، كتابك عن «الحاسدية» اليهودية^(٤)، روايات بالفرنسية، كتب أطفال بالفرنسية، الخ، الخ....

(١) دار نشر تشيلية.

(٢) و (٣) رسائل إلى ايليني ساميوس.

(٤) كنتُ قد بدأتُ العمل على حركة المتدينين اليهود وبعض كتب الأطفال، بالفرنسية.

(ايجين الخميس (١)

كتب لي رينو يقول إنه لم يقرأ سوى الصفحات الأولى من «بستان الصخور» ولم يرض عن العمل، لأنني مع اليابان، أي... مع الفاشية! أما هو... الخ، الخ... فأجبتته بأنه حكمٌ سطحي، من رجل ممارسة، على عمل فني. والمستويان مختلفان. ومع ذلك فقد وعد بالاعتناء.... لا أملك مالا، ولست أدري كيف سنتوصل إلى إتمام الطابق الأرضي على الأقل، والانتظار أكثر بالنسبة لبقية البيت...

(ايجين) الأربعاء مساء (٢)

أرهق نفسي كثيراً، أقضي النهار بكامله في ورشة البناء. لا أكل، ولا أنام. كل الجدران بُنيت تقريباً... هذا ليس بيتاً بل هو قصر محصّن. سوف يصير رائعاً، قصرأ حقيقياً. أنا متأكد من ذلك، ومبتهج لأنك ستفرحين به أنت أيضاً. ويكفي أن يتنازل دوراس قليلاً في مسألة الفرجات الكثيرة..

صرت أزعجك بمشاكل بناء البيت، لكن بوذا على حق: فالذي يبني بيتاً يصير باباً ونافذة...

(ايجين) ٢ يونيو ١٩٣٦ (٣)

لم أعد قادراً على العمل بسبب هموم البيت. لقد جاء بيراندلوا^(٤) في الوقت المناسب.

لم أكتب سوى بعض الأناشيد: عن شكسبير وليوناردو وهيدويوشي.. ولنامل أن يتقبلوا الكتب المدرسية. هكذا فقط نتمكن من إتمام بناء البيت. يستحيل، مع الفقر المنتشر في اليونان، بيع أية قطعة أرض.

وفي مقابل هموم البيت التي أجبرتني على التنقل بين أثينا وايجين، شكّل الأصدقاء القدامى والجُدّد، مصدر فتوة بالنسبة لنا.

وما زلت أذكر فرحة نيكوس بروئية جان هيربر، للمرة الأولى، على متن الباخرة، وأسئلة نيكوس حول بوذا، وفيكانندا، والهند، والأشرام. وكذلك محاوراتنا المطولة مع صديقينا الجديدين هلموت فون دان شتاين، وكونراد

(١) و (٢) و (٣) رسائل إلى ايليني ساميوس.

(٤) ترجمة طلبها المسرح القومي.

وستبفاهل - وكلاهما يهودي - وهو الأمر المفرح لنيكوس، أحدهما كاتب من تلاميذ ستيفان جواج العالم المتخصص في هوميروس، والثاني رسام، وموهوب في كتابة الشعر... فكان النقاش يتناول ريلكه، وهولدرلين، وشكسبير وفاليري وكلوديل، من دون نسيان الشعراء الصينيين واليابانيين والعرب، ومتصوفة كل البلدان وكل العصور.

ولقد سكنا ذات مرة عند انغيلاكي كي نسمح لـ رين بليسترا، الكاتب الهولندي، وزوجته الشابة ماري، بتمديد إقامتهما في ايجين لبضعة أشهر، في بيتنا. وكان هناك كلب مشرد يلعب دور ساعي البريد بيننا.

«تعاليا كي تذوقا مربى التين الجديد!» فتصل الرسالة إلى وجهتها بعد تعليقها في عنق ساعينا ذي القوائم الأربع. «نأتي يوم الخميس في الساعة الرابعة!» فيعود الكلب القهقري مخترقا الجزيرة من طرفها إلى طرفها الآخر، وفي الساعة المحددة يكون الشاي جاهزاً على المائدة.

ولم تكن أجهزة الترانزستور والهاتف، والسيارات والدراجات النارية، موجودة آنذاك في جزيرتنا. كانت هناك عربات خيول، مغطاة، وبغال وحمير... وأقدامنا. وعندما يأتي بعض زوارنا على متن السفينة، يُبوق القبطان ستاماتيس ثلاث مرات ببوق السفينة ويقربها من صخرتنا حتى نميز وجوه أصدقائنا بالعين المجردة. وإلا فإن المنظار المقرّب، لدى نيكوس، هو الذي يسعفنا:

«انظري! هذا ميخائيس اناستاسيو وزوجته ايليني! هذا ميناس ديماكيس^(١)، فروسو، يونغو لولاكاكيس!».

ثم نقصد الميناء لاستقبالهم.

وذات مرة تنهّد الشاعر الغنائي تيلوس أغراس الذي مات خلال المجاعة الكبرى: «كم أتمنى المجيء للعيش بقربكما... لقد تأكد لدي أن نيكوس يعرف كيف يعيش بكفاف يومه. كم أود أن أتعلم العيش على طريقته...»

(١) شاعر كريتي ممتاز.

لكن نيكوس كان يعطي أولوية الترحاب للشباب. فيشجعهم، ويحثهم على استلام مقاليد العالم بين أيديهم، وخاصة مستقبل اليونان.

وأذكر في هذا المجال، مجموعة شعراء وروائيي ثيسالونيكي الذين جاؤوا دفعة واحدة ذات يوم صيفي. وفي حين كان نيكوس يحلق لحيته كي يستقبلهم بمظهر لائق، جاء أحدهم، وهو أكبر من في المجموعة، وقدم لي كتابه المهور بإهداء قائلاً: «أرجوك، أن تعطيه للمعلم» ثم استدرك «اعيدي لي الكتاب، أرجوك، لقد أخطأت... كتبت الإهداء بصيغة المضارع، مع أنني ميت...»

وجاء آخر، وهو حفيد أحد أكبر شعرائنا في القرن الماضي، وكان في مقتبل العمر ويتمتع بالصحة والجمال، ليقول لي بلا قلق إنه «فيلسوف محب للموت»! وأمام اندهاشي أوضح لي أنه يؤثر... الموتى! وهؤلاء الشباب مازالوا على الرغم من نزواتهم، يكتبون قصائد رائعة...

(ايجين) السبت ١٩٣٦ (١)

لم افهم جيداً ما قلته لي عن الأكاديمية. هل يتعلق الأمر بجائزة؟ إذا كانت مكافأة عن دانتي فسوف أقبلها. لأنني قدمت الترجمة العام الماضي آملاً الحصول على الجائزة. أما إذا أسندوا الجائزة إلى أعمالي كلها فإن الأمر يتطلب تفكيراً، وربما كان من الأفضل عدم قبولها.

أتفرغ الآن لكتابة الأناشيد. صراع مريض. غداً أتم «الإسكندر الأكبر». أتلف إلى صدور «فاوست» في صحيفة «كاثيميريني». ذلك ضروري حتى يعرف الجميع أن هذه الترجمة أفضل بكثير من ترجمة «هـ» وسوف يرتبك المسرح القومي ولن يقدر على ارتكاب مظلمة...

لكن المسرح القومي ارتكب المظلمة. فأرسل كازنتزاكي مقالة احتجاج إلى صحيفة «كاثيميريني»:

من بين المحاولات الست لترجمة «فاوست» إلى اليونانية... استفدت من واحدة فقط:

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

وهي ترجمة هاجوبولوس. إنها الأفضل - برغم نقائصها. فالبيت الشعري ضعيف يفتقر إلى الإيقاع، واللغة ضعيفة، وهناك مقاطع كثيرة ثقيلة الجرس (ولاسيما إذا استُمع إليها في المسرح)، وهي صعوبات كثيرة أمام أي ممثل يتناول ذلك النص. وعلى أية حال، فإن هاجولولوس نفسه اعتبر عمله، محاولة بسيطة في الترجمة، وكان محقاً.

لقد استخلصت أكثر عدد ممكن من الملاحظات مستفيداً من جهود المترجم الذي سبقني. وحاولت من جانبي، قدر المستطاع، تقريب محاولتي من الأصل الخالد، بفضل بيت شعري أحسن إيقاعاً، ونقل أكثر وفاء للنص، وأكثر صفاء، ولغة أغنى، وأكثر انتشاراً على الصعيد اليوناني، عسى أن يأتي بعدي مَنْ يستطيع الاستفادة بالطريقة ذاتها كي يتقدم أكثر.

ابتداء من اليوم، وكل يوم خميس سينشر العمل تباعاً في صحيفة «كاثيميريني»، وأترك الحكم للقارئ على نجاحي أو انعدامه. وسوف أكون سعيداً أو ممنوناً إذا لاحظ لي القراء وجود بعض الأخطاء مع تدعيم ذلك بحجج مقنعة، وبذلك يقدمون لي يد العون في إنجاز هذا العمل الضروري والشاق...

أهدي هذا العمل إذن إلى ضمائر هذا الزمن، ومنها أنتظر العدل. ولا يمكن لإنسان شريف في «سدوم» البائسة هذه، حيث تدهور العقل حالياً، أن يضع أمله في مكان آخر. نحن أمام محك الزمن: السادة كارثايوس وبستياس ورونديريس من جانب، وأنا من جانب آخر.

أستعيد تلك الأعوام السعيدة ولا أكاد أصدق أنها كانت على درجة من القسوة. يا إلهي، كم كافحنا وكم استغننا بأصدقائنا حتى يتمكن نيكوس من العيش بقلمه!

(ايجين) أول يوليو ١٩٣٦ (١)

... تمر الحياة هنا، هادئة... أنجزت الفصل الثاني من «وكالة الزواج» (٢) ويبدو لي جيداً.

وفي حين كان كازنتزاكي ينكب في ايجين، على إبداع أعمال تصمد برغم كل العقبات، كان ميتاكساس، بمساعدة مَنْ باتوا معروفين، يخرب اليونان.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) ضاعت هذه الكوميديا.

فصار كل إنسان تقدّمي شخصاً مشبوهاً. وخبر البسطاء الذين «بلا وجوه» معنى المسألة البوليسية: فتم نفي الأساتذة الجامعيين، ذوي التأثير في الأوساط الطلابية، إلى الجزر الموبوءة حقاً. ذلك أن الجزر غير الصحية، ذات الماء الموحل، خصصت للمتشددين.

والأسوأ من ذلك هو عملية «تطهير» الجيش من الضباط الفينيزيليين، أي الأحرار. وعندما غزا الإيطاليون منطقة إيبير طلب أولئك الضباط تمكينهم من خدمة الوطن. فطلب منهم أن يقدموا خدماتهم إلى جلالة الامبراطور هايلى سيلاسي. ولم يبق من كوادر الجيش سوى الضباط ذوي الميول الألمانية.

وفي إسبانيا كان الألمان والطيّان يختبرون أسلحتهم الجديدة. وحاولت حكومة بلوم في فرنسا مساعدة الجمهوريين، فمنعتها إنجلترا.

لكننا كنا نعيش بين اليابسة والماء، في صفاء مؤذٍ على المدى الطويل، معنويّاً، أكثر من الوجود في إحدى المدن الجهنمية في أوروبا أو أمريكا.

حلّ الخريف. واقتربت عودة صيادي الإسفنج. وكما في كل عودة، لابدّ من نعي الموتى، والأسوأ منهم، أولئك «المتضررون» جسديّاً الذين يصابون بالشلل ويضطرون إلى التنقل على ظهور الحمير...

في تلك الأزمنة كانت ليلة الانطلاق هي اللحظة الأكثر بهجة عند الصيادين يودعون «الكايمانى كوسمي» (العالم العزيز) وينفقون في ليلة واحدة جلّ مدخراتهم. وفي «الدوديكانيز»، روى لنا مانغليس أن الغطاسين يتنافسون في التظاهر بالثروة حتى أنّ بعضهم يثبت ليرات ذهبية في عقب الحذاء... وفي ايجين المتأثرة أكثر بالخشونة الإسبرطية، يكتفون بآلتي الكمان والسانتوري، والمآزة وإدمان الكحول. كان يوم الذهاب يتم في أجواء الفرح، أما فرح العودة فلا يظهر إلا في عيون الأمهات والزوجات اللائي أنهكن الانتظار.

وها هي ذي يانولا قد تزوجت من غطاس مثالي ذي مستقبل مشرق. سألتها هل أنت سعيدة يا يانولا؟ هل احتفلت بعودة زوجك؟ فأجابت: «طبعاً، يا كيرا

لينيتسا، أنا سعيدة». وكان في صوتها سرّ تتكتم عليه فزاد فضولي.

«إذن تعجبك الحياة الزوجية، يا يانولا؟»

- تعجبني... لكن ثمة شيء يقلقني...

- وما هو؟

- البُعد، يا سيدة لينيتسا.. لم يعد ثمة بُعد بيننا، إذا فهمت ما أقصد...

لا يمكن وصف فتنة أكتوبر في جزيرة يونانية. بعد أغسطس المحمل بالبطيخ الأحمر والأصفر، والعنب والتين، وبعد سبتمبر الغارق حتى الركبتين في براميل النبيذ، عاشق الضحك والفكاهات المملحة، هو ذا أكتوبر الساحر. فهل هو الذي ينوم الرياح ويجعل الشمس تنوس، ويحول البحر إلى بساط صدقي لامع؟

تكفي مُزنة واحدة كي تجرح المعجزة. فتخترق بتلات الزعفران أرضنا القاسية التي سمينها «حقلنا» تجاوزاً، في صمت الليل، رغم عجز فؤوسنا عن اختراقها. وبعد الزعفران يأتي البنفسج متسلقاً الصخور، ثم تنمو الهندباء متشابكة مع العليق.

طمأنينة، هواء خفيف، ظلال خفيفة. كل شيء يبعث على السعادة. لكن اسبانيا تصبح طالبة النجدة، وزيت قنديلنا يشرف على النضوب.

ما من أمل في الأفق الذي انسدّ دون «الأعمال»، وأمامنا جدران بيت لم يكتمل بناؤه وقد ينهار بأمطار ديسمبر.

وأمام البحر الداكن الذي تجوبه زوارق الصيد المضاءة بالمصابيح، كنا نستسلم، أنا ونيكوس إلى لعبتنا... لعبة الهضم:

«لو كنا نملك ... لو كنا...»

- عجة بأربعين بيضة...

- وتشيك، طبعاً (هكذا كان نيكوس ينطق كلمة «شيك»)^(١)

- وحينئذٍ يحلو السفر! مع صحنٍ فيه شريحة لحم بقر...»

وفي ذلك المساء لم يجد نيكوس متسعاً من الوقت كي يرقص رقصة «شريحة اللحم»^(٢) إذ أقبل شاب على ظهر حمار، ليلاً :

- إيه، كير نيكوس! أتيت لك ببرقية!

وكانت البرقية تحمل توقيع جورج فلاخوس، مدير صحيفة «كاثيميريني» الذي طلب من نيكوس القدوم فوراً، من أجل السفر إلى اسبانيا التي اندلعت فيها الحرب، وإجراء تحقیقات.

وكان فلاخوس بديئاً وذكياً ويحبّ كازنتزاكي، فاستقبله بابتسامته الماكرة :

«أعرف أنك تفضّل زيارة «الحمر»... لكنني أرسلك إلى «السود» كما تسميهم.

- لماذا، أنا تحديداً؟

- لأنك سوف تقول الحقيقة. فبيغضك أصدقاؤك وأعداؤك، وأفرح أنا بذلك. هل تذهب فوراً، أم لا؟

وذهب.

مرسيليا، ٩ أكتوبر ١٩٣٦^(٣)

حبيبتي لينوتشكا،

إن الحاجة وحدها، والرغبة في رؤية هذا الجرح الجديد في العالم - اسبانيا - هما اللتان أجبرتاني على مغادرة ايجين. أدفع الثمن غالياً. لكنني أعتقد أن ذلك لن يدوم أكثر من شهر. وسوف يمرّ بسرعة ويتحول كل شيء إلى ذكرى تحت زنجار الزمن...

(١) الصكّ، وكلمة «تشيك» كما ينطقها كازنتزاكي تؤدي أيضاً معنى «التشيكي» (المترجم).

(٢) «بفتيك» في الأصل (المترجم).

(٣) رسائل إلى ايليني ساميوس.

مساء، ٩ أكتوبر (١)

الفرنسيون، بسخريتهم وتهذيبهم، لا يطاقون... ولا يسهلون مهمتي. في كل خطوة أخطوها يغيظونني. لا يكاد المرء ينطق بشيء حتى يرشقوه بنظرة حقد ولؤم... غادرت السفينة وقصدت دكاناً صغيراً لاقتناء قليل من التبغ. نظر إلي صاحب الدكان ضاحكاً وقال: «على بعد ثلاثة كيلومترات يا سيدي!» وسخر مني كل الفرنسيين الموجودين الذين كانوا يحتسون مشروبات ملوثة. لماذا؟ لأنني طلبت تبغاً، ولا يوجد تبغ...

أسبانيا لا تغادر ذهني. أرثي لها وأتألم معها، كما لو كانت كائناً حياً. أتلهف لمعاينة ألامها ومكابداتها وخسائرها. وسوف أتمكن من الكتابة بنزاهة قاسية، ويغضب الطرفان. لكنني لا أستطيع عكس ذلك. بدأت لا أكرث - وهذا آخر تطور توصلت إليه - بأفكار اليسار واليمين، أمر واحد يهمني ويجعلني أفرح أو أحزن: الإنسان، الدودة البشرية الرائعة، والتي تزحف وتصارع من أجل اكتساب أجنحة «الفارقالا أنجيليكا» كما قال دانتي...

لشبونة، ١٦ أكتوبر ١٩٣٦ (٢)

تعبت نهار أمس بكامله حتى تحصلت، في النهاية، على تأشيرة دخول إلى إسبانيا. تعرفت على أشخاص عديدين. وحصلت على رسائل توصية. أمل أن أنجح. أكثر مشكلة هي إيجاد وسيلة نقل. لا توجد سكة حديد ولا سيارات ولا فنادق. لكنني سأوفق...

وفي ورقة مزدوجة، مقتلعة من دفتر، وجدت:

كاسيرس، الأحد، ١٨-١٠-٣٦

شرفات، أبواب مزينة بأعلام إسبانية، حمراء وصفراء. وعلى الكثير منها، قلب يسوع يخترقه سهم، والدم يسيل، أو كتابة تقول: «فيفا خاسوس! (عاش يسوع)».

مشهد رائع: بيت صغير وفقير، باحة مبلطة، حديثة التنظيف. ظل ثلاث عجائز في لباس أسود، جالسات على شكل هلال. إحداهن تقرب مُحرمَة من عينيها الباكيتين بلا شك، وإلى جانبها شيخ يرتدي الأسود بدوره. وثمة امرأة ترتدي السواد، واقفة على العتبة، تتكلم بصوت هادئ واحتفالي في آن، والآخرين يستمعون إليها مُنحنيين. كما في

(١) و(٢) رسالة إلى إيليني ساميوس.

مسرحة جيدة.

كلب أسود يقوده شيخ شُرط أنفه بصليب عميق، مدمى. والكلب يتبعه، شاهداً
حزيناً على إسبانيا.

أجواء حرب : ضجيج، فرح، مصابيح، نساء فرحات، مقام مزدحمة، حانات، جنود
برفقة نساء، والمغاربة صامتون، بلحى سوداء، وجلابيات، ومسدسات، وخناجر،
يذهبون ويجيئون، صامتين، أو يتوقفون ويتحادثون ويغازلون الإسبانيات الواقفات
على عتبات الأبواب...

سيغوليا، ٢٢ أكتوبر ١٩٣٦ (١)

حبيبتي، عدنا للتو من الجبهة. أمضينا ساعات كثيرة في الجبهة مع الجنود
«صعدت إلى إحدى القمم مع بعض الضباط، وشاهدنا مدريد، وبعدها بقليل، جبهة
الأعداء: البقاء هنا خطر. قال أحد الضباط. ولم يكديني كلامه حتى سمعنا أزيز قذيفة
فوق رؤوسنا. فانبطح الجميع أرضاً. مكثت واقفاً لبرهة حتى أرى القذيفة - سقطت في
مكان قريب مرسله دخاناً كثيفاً، وتراباً، وأشجاراً. وأعقبته قذيفة ثانية فتالته، ولكن،
من حسن الحظ، لم يُصب أحد...

أردنا الذهاب إلى طليطلة، لكن هناك صعوبات... أما هنا فقد انتهت الأعمال الوحشية
والأحداث الكبرى، الخ، الخ... ولم يتحقق الحدث الكبير، الآخر، أي الاستيلاء على
مدريد... هناك صحفيون كثيرون (خصوصاً من الألمان) ينتظرون في سالامنكي...

٢٦ أكتوبر ١٩٣٦. بورغوس (٢)

حياتي هنا زاخرة بالمشاهد التي تعتبر جائزة بالنسبة إلينا، وأنت تفهمين ما أعني.
جُئت الحدود الشمالية طيلة أسبوع في سيارة. وذهبت إلى الخطوط الأمامية تحت وابل
من القذائف والرصاص، وجازفت كثيراً لأن بعض القنابل سقطت بقربي. وفي البداية
كنت أمكث واقفاً ثم اعتدت الانبطاح مع الآخرين حال سماع الصّفير... زرت الخنادق،
وشاهدت «الحُمُر» أمامي.

عشتُ أسبوع حرب. قرى مدمرة، أمهات يبكين، أناس يرتدون ثياب الحداد، كلاب

(١) و(٢) رسالة إلى إيليني ساميوس.

وفية، حمراء العيون، على العتبات.

سأعود إلى سالامنكي قريباً حيث يوجد معسكري. وسوف أمكث هناك قليلاً ثم أقوم
بجولة في جبهة طليطلة الجنوبية...

١٩٣٧ . لم تعد «الهدايا» الإسبانية تفارقنا : ذلك العلم الأحمر الصغير الملطخ
بدم شابٍ كان ينبض حياة فقتل لأنه آمن بحرية ممكنة. والصورتان اللتان
وجدتا مع جثة فرنسيسكو لوبيث، صورة زوجته، وصورة كارمنتشيتا، ابنتهما،
ورسالة البنية التي كتبت لوالدها تطلب منه أن يأتي ليرى كيف ولدت القطة أربع
هُريرات... وذلك المفتاح الكبير العائد إلى إحدى الكنائس المنتهكة والمتركة
للعصابات المتعطشة للانتقام.

لقد قيل كلام كثير : أهوال الحرب الأهلية في إسبانيا، ولم يفعل الكثير
لتداركها أو معالجتها. «مكة السردين» الصغيرة التي رفعت رأسها، في منام
نيكوس، خارج مياه البحر كي تتضرع إلى الإله : «إذا كنت طيباً، يا إلهي، لا تهب
القوة للكبار، هبها للعادلين!» صوت سمكة السردين الصغيرة لم يُسمع مطلقاً...

كانت ايجين جزيرة حصينة تخضع للرقابة العسكرية. لكن ذلك لم يحل دون
انعقاد اجتماعات هائجة منذ عودة نيكوس!

«هل توافق على ما قاله لك أونامونو؟»^(١) هل يتوجب علينا حقاً إخفاء الحقيقة
عن الشعب؟ وهل كان أونانومو محقاً في استشهاده بالعهد القديم: «مَنْ يتكشف
على وجه الإله يَمُتْ»؟

– لقد ماتت الأساطير القديمة. وواجبنا أن نخلق أساطير أخرى جديدة.

– وفي الأثناء

(١) صدر تحقيق نيكوس كازنتزاكي عن إسبانيا الحرب الأهلية في كتاب بعنوان «إسبانيا» (سيمون أند شوستر،
نيويورك).

- هناك جانب عملي في قول أوناومو. كيف تُكشف الحقيقة إلى عشرات الآلاف من الشباب أو العجائز اللائي تركهم الكهنة والحكومات المتعاقبة، في جهل مطلق؟ إن ابناً أو أباً أو شقيقاً شيوخياً، بالنسبة إليهن، هو الشيطان.

- وما حاجتهم إلى حرق الكنائس؟

- لا تنسوا أن «الحمر» أحرقوا كنائس، بينما أحرق القساوسة الكاثوليك الكنيسة... وباسم المسيح سمحوا بارتكاب آلاف الجرائم أو رغبوا فيها. لقد وقفوا إلى جانب الشيطان بلا تردد.

- هل هناك أمل بالنسبة لاسبانيا؟

- لا أعتقد. فكل قوى الشر تضافرت ضدها.

- لا شك أن دورنا سيأتي أيضاً.

- سوف يأتي، يقيناً! قال نيكوس بالشعلة التي لا تفارق عينيه: «أقول وأكرر: نحن نجتاز قرناً وسطى جديدة. وسوف تطول. ربما مائتي عام... أنا متشائم جداً بالنسبة للمستقبل القريب...

- لكن الشعوب سوف تستيقظ... فهل كانت الأمهات اللائي تحدثت عنهن منذ قليل، راضيات عن رؤية المرتزقة الأفارقة ينهبون ديارهن ويقتلون أبناءهن، ويرسمون الصليب بحد السكين على أنوف أزواجهن؟

- كان دليلي الضابط معجباً بهم: «يسمعون الأصوات التي لا ندركها... ويرون في الظلام الأشد كثافة، ما لا نستطيع تمييزه... هم نسور أكثر منا، لا يخافون شيئاً، ويحاربون أفضل من أي كان... - أليس من الخطر تعليمهم قتل الإنسان الأبيض؟» سألته مذهولاً من عدم اكتراثه. فهزّ الضابط كتفيه. أما أنا فقد أدركت أن حكم التاريخ قد بدأ يفعل فعله وعرفت أن الغزو الوحشي قد بدأ من إسبانيا. (١)

(١) انظر كتاب نيكوس كازنتزاكي «اسبانيا»

كان الصيف يقترب بسرعة كعادته في اليونان. ولم يكن في بيتنا باب ولا شباك ومع ذلك اضطررنا إلى السكن فيه، لأنّ ضيفينا الهولنديين لم يتركوا البيت الصغير الذي أعرناه لهما. واضطرت مجدداً للسفر إلى أثينا لاستكمال لوازم الأبواب والنوافذ الخ، الخ...

(ايجين، يوليو) الثلاثاء (١٩٣٧) (١)

حبيبتي لينوتشكا،

جاء ن. منذ قليل، وأعطاني رسالتك، لكنه لم يجئني بمجلة «أوروبا» خوفاً من التفتيش... أتمنى أن تسند لي الجائزة على كتاب دانتى... لكنني أشك في ذلك.

أمس جاء بليسترا في وقت مبكر. تجولنا قليلاً وتناقشنا حول المسرح الدرامي وأعطيته فكرة أفرحته.. وأنا بدوري بدأت اليوم أراجع مسرحية «عطيل يعود» توصلت إلى حبكة تبدو لي مشوقة.

أنجزت نشيد الاسكندر، وأعجبني.

تجرات السيدة فوتيني (٢) وعرضت أن تشتري لي... بعض الزبدة! «زبدة؟» قلت لها مدهوشاً، فسكتت المسكينة. ثم عادت بعد قليل: «هل أتى لك على الأقل بقليل من الأرز بالسبانخ، للغداء، يا سيد نيكوس؟» وافقت فرحاً فذهبت بسلام.

(ايجين، صيف ١٩٣٧) الاثنين (٣)

هذا الصباح امتلأ البحر شماماً. إذ تحطم زورق محمل بالبطيخ الأصفر فوصل حتى بيتنا. ولقد هرع حشد من النساء والأطفال وبدأوا يجمعونه. واقتربت مراكب كثيرة، قفز منها الصيادون. حملت «صوفي» كيسين كبيرين مملوءين، وجاءتني بواحد كبير... فرح عارم، عراق، قراصنة حقيقيون! تخيلت ماذا يحدث عندما تُنهب مدينة كبيرة.

أنهيت «النشيد» وبدأت أدرس مأساة «الأم ماري»... (٤)

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٢) والدة يانولا.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٤) تراجيديا ضائعة عن ماري بيكت إيدي.

ايجين، أول أغسطس ١٩٣٧ (١)

وافقت بالأمس على المساهمة بالكتابة يوميا في كاثيميريني (٢) - ثلاثة آلاف دراهما شهرياً - وها أنذا غارق في العمل. وأمل في الأثناء أن يُعاد تنظيم المسرح القومي وأحصل على المنصب الذي أريده. وإذا تم ذلك فإن حياتنا اليومية سوف تكون مضمونة...

٢ أغسطس ، مساء (٣)

أمامي سبعة كتب جديدة ألفها شيوعيون عادوا من روسيا خائبي الأمل. مثل باناييت تماماً. ولهذا أرى أن كتابك عن باناييت سوف يجد ناشراً. فهو مواكب لأحداث الساعة. وكذلك «بستان الصخور» حالياً، بالنسبة للصين واليابان..

أثينا، ١٧ أغسطس ١٩٣٧ (٤)

قديسي جورج الحبيب ،

ذهبت اليوم إلى أثينا للاتفاق مع كاثيميريني حول الجولة في مقاطعة اليلويونيز التي سأقوم بها في سبتمبر مع عشرين فرنسياً من جمعية «بودي». لا أكتب مقالات لكاثيميريني بل أشارك فيها بمسلسل روائي، وبدأت كذلك سلسلة مقالات عن جيد، وسيلين، وروسيا، الخ...

ايجين، ٢٣ أغسطس ١٩٣٧ (٥)

ادى يريفلاكي القسم وتقلد وظيفته ، وهو الآن في أوج مجده (٦) وأنا أيضا بطريقة غير مباشرة، إذ أن الجميع يراسلونني ويطلبون مني التوسط لهم، الخ...

٢٤ أغسطس (٧)

اشتغلت طيلة نهار الأمس، وفي الليل، بينما كنت أشرب كوب الحليب وأتهدأ للنوم فاجاني وصول سيارة ! نزلت منها امرأة ذات قبعة عريضة من القش... «جئت طالبة اللجوء عندك!» قالت ضاحكة: «مَنْ أنت؟ - ألا تتذكرني...» أليكي! كانت ابنة كيفالي (٨).

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٢) كتب نيكوس حكايات روائية غير موقعة.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٤) و (٥) رسائل إلى ايليني ساميوس

(٦) عين يريفلاكي مديراً للفنون الجميلة لدى وزارة التربية القومية.

(٧) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٨) كيفالي ، ممثلة يونانية مشهورة.

جلستُ على أريكة المكتب وبدأت تتحدّث عن أشياء مختلفة، وفي الأخير قالت لي: «لكنك لم تسألني لماذا جئتُ؟ - كان الإغريق القدامى لا يسألون ضيوفهم إلا بعد ثلاثة أيام. وأنا أغريقي - أما أنا فمستعجلة. جئتُ لأنّ مسرحي في ورطة، لم نعد نملك فلساً، وقد تراكمت علينا الديون، وكان من المفترض أن أقدم عرضاً هذه الليلة، غير أنني تركت كل شيء فجأة، ومن دون أن يعلم أحد بوجهتي، حتى زوجي، أردت الانتحار، ثم فكرت فيك فهرعت إليك. دعني أعيش بضعة أيام بقربك، سوف أستعيد الشجاعة وأختار طريقاً جديداً، - تعالي نتناول الطعام عند ماريني! قلتُ، لا يوجد عندي شيء، هنا!

ذهبنا إلى ماريني وأكلنا قليلاً من الطماطم والجبن، إذ لم يكن هناك غيرهما... هيأتُ لها فراشاً على أريكة «الستوديو»، والآن، الساعة التاسعة صباحاً، وما زالت تنام. سأنزل لأجهز لها الحليب (لا تجيد إعداد شيء، حتى بيضة، قالت لي).

.... أحضرتُ الحليب، أعددت المائدة وتناولنا فطور الصباح. لم تُخضر شيئاً معها، فما من مشط، أو صابونة، وحتى منشفة... أعطيتها بعض الكتب، وهي الآن في «الستوديو» تطالع، لا تتكلم، ولا تتحرك، ولا تعرف، كما قالت، كم ستمكث هنا... تبدو يائسة وأنا أشفق عليها، تهب ريح قوية، إنه الخريف...

ايجين، ٢٦ أغسطس (١)

تواصل اليكي الإقامة في بيتنا. لحسن الحظ أنها لا ترزعجني البتة، إذ تلزم الهدوء في الستوديو وتنام أو تقرأ. أطلب الأكل من ماريني فيرسل لنا بالطماطم والباذنجان والفاصوليا، الخ.... نأكل ثم أصعد للعمل. نتناول شاي الساعة الخامسة ثم أعود إلى العمل. وفي المساء نتحدّث عن المسرح وعن حياتها، الخ. إنها هادئة وطيبة. لم يكن لديها قميص نوم فأغرّتها أحد قمصانك. جاءت بقبعة قش فقط. واليوم نشرت الصحف بعناوين كبيرة: اختفاء أليكي! مصيرها مجهول! الشرطة تبحث عنها من غير طائل! الخ. نصحتها بأن تتصل بالهاتف فرفضت... ومن جانبي أتهيا للسفر يوم أول سبتمبر، وعندئذ سوف تضطر إلى الذهاب بدورها. إنها لطيفة ورصينة جداً.

سافر الهولنديان أمس ووعدا ببذل الجهود بالنسبة لمخطوطاتنا... لم أنجز «الأم ماري» بعد، لأن كاثيميريني والإعداد للسفر أربكا الأجواء. لكن التراجيديا ستكون جيدة. ويفضل عدم التسرع.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس

٢٨ أغسطس (١)

مغامرة أليكي فظيعة! ولا يمكن وصف حملة الصحف حول هذه القضية. الشرطة مستنفرة... وثمة تخوف من لجوئها إلى الانتحار، مقالات، الخ... امتلأ البيت منذ مساء البارحة بالصحافيين والمصورين... وأخيراً جاء زوجها اليوم... بكاء، تفسيرات، الخ.... ثم مغادرة... كانت إقامتها هنا لطيفة. أنا متأكد بأن تصرفني كان إنسانياً، وذلك بالإشفاق عليها، وحسن استقبالها...

٢٩ أغسطس (٢)

امتلات الصحف اليوم بالشرح والوصف: ... «ها هي ذي الفيلا التي اختبأت فيها أليكي»... «هذه نافذة الغرفة التي كانت تنام فيها...» «وهذه نافذة الغرفة التي كانت تشرب فيها كأس الحليب، وهذه «الغورغونيا» التي كانت تسترخي بقربها، على كرسي هزاز، وتتأمل البحر...».

٣٠ أغسطس (٣)

جاءتنا السيدة انغيلاكي، أمس، بهدية للبيت، تتمثل في بساط أخضر جميل مطرز بالأبيض... ولك أن تتخيلي الحماسة التي طرحت بها أسئلتها عن أليكي. كثيرون يظنون أنها... عشيقتي... ما أكثر الشائعات حول اسمي من دون مبرر. اتصلت بي صحيفة «كاثيميريني» تلومني على عدم إعلامها بأن أليكي في بيتي، من أجل تحقيق سبق صحفي. أجبت بأنني صحفي سييء، وإنسان شريف.

لكن «كاثيميريني» مبهجة... لأن أروع أعمالي ما كانت لتحقق لي مثل هذه الشهرة، في رأيهم، الخ، الخ...

باتراس، ٦ سبتمبر ١٩٣٧ (٤)

... تعرفين باتراس. ريف. أتسكع النهار بكامله مثل كلب الكاهن، أشرب فناجين قهوة، أكل راحة الحلقوم، أشاهد راقصة متبرجة على منصة المقهى الرئيسية. الرجال بشعون، وأحاديثهم فظيعة. والشباب أسوأ. لم أسمع كلمة روحية واحدة. فقط: الأكل، الغزل، ربح المال...

(١) و (٢) و (٣) و (٤) رسائل إلى ايليني ساميوس

- نعم . - كازنتزاكي أليكي؟ - نعم» ومهما صرت كاتبا كبيراً لن أشتهر بهذه الدرجة.

٦ سبتمبر بعد الظهر ، كافاسيلا (١)

سلكت الطريق وحيداً، ولم أعد أتحمل باتراس... وها أنذا أتقدم باتجاه أولمبيا ... أكتب إليك من محطة ضيقة بائسة، حيث أنتظر... القطار الذاهب إلى كيليني. ومن هناك، أصعد إلى قلعة هليموستي... هذه القرى البائسة، كانت رائعة في القرون الوسطى، وفيها فرسان ومباراة، وبذخ، وألوان...

مستنقعات، يوكالبتوس ، سرو ، كروم عنب، أراض سوداء خصبة، هواء كثيف، حرارة، بعوض. والأحاديث.... كثيبة بلا فكاهاة، بلا روح، النساء ذوات مؤخرات واطئة وسيقان قصيرة، يعشين مثل الاوز وعلى وجوههن كآبة وبلادة كوضمتي عبودية... عزائي الوحيد الآن، هو غليونني. الرّيف جميل، جذاب ، هاديء.

كيليني ، ٧ سبتمبر (٢)

وصلت ليلاً إلى شاطيء ينتصب فيه كوخان أو ثلاثة. - هل يوجد فندق؟ - لتذهب إلى نيكوليتا، قال لي رئيس المحطة الخدوم والثّرثار - هل يكثر البق؟ - لا تنتج قريتنا سوى العنب والبق. - وهل هناك بعوض؟ - نعم. - وحمى مستنقعات؟ - يوجد الكثير من المستنقعات المؤهلة لذلك. - هيا بنا ، قلت وأنا أزم شفتي بلغنا فندقاً صغيراً على شاطيء البحر. نيكوليتا بدينة، شاحبة، حفية. جاءتنا بسمك مطبوخ و «أيولي» وزجاجة نبيذ. يوجد خمسة أو ستة متشردين وحمالين ورجال درك. قال لي أحدهم بصوت خفيض: «خبىء خاتمك، فالجميع هنا هاربون من القانون أو لصوص. أريد أن أستشيرك...» وشرع يحكي لي قصة زوجته التي تكرهه وترفض النوم معه، وتتذكر خالها الذي كانت على صلة به... حكاية لا تصدق، ذات تفاصيل مثيرة. هاجمني النعاس بعد الأكل - هل تريد أن تكون بمفردك أم برفقة شخص آخر؟ سألتني نيكوليتا. - وحدي. - إذاً عليك أن تنام في فراشي... لكنني لا أضيء النور بسبب البعوض.

دخلت ... فإذا أرضية خشبية تنز صاخبة، وكلها ثقبوب... والسريّر ذو رائحة

(١) (٢) رسائل إلى أدلاني مساء يوم

غريبة، ومنخفض لان نيكوليتا قصيرة. تشجعت فخلعت ملابسي، ونمت.

في الصباح وجدت الفراش نظيفا جداً، وقاعة الجلوس مملوءة بالصور، وبحاملات المناشف وتمائيل الجبس للملك قسطنطين، والزهور الورقية، والأصص الخضراء والمطرزات.

صعدت إلى قلعة هليموستي الشهيرة... وفي هذه الظهيرة أجلس بجانب الماء، ونسمة رقيقة تهب. وأشاهد آثار غلارنتسا حيث كانت ترسو سفن الإفرنج، في القرون الوسطى، محملة بالفرسان. رمال ناعمة، قصب، دفلى، مصطكا و أس...

٩ سبتمبر (١)

وصلت إلى أولمبيا. احتفال كبير. سوق شعبي. آلاف البشر، يبيعون الخيول في الدرجة الأولى... قيل لي في الفندق إنهم ينتظرون مجيء اثني عشر فرنسياً. فهل هم أصدقائي؟ سوف نرى... ذهبت إلى المتحف. شعرت بفرح عارم لمشاهدة النقوش، مرة أخرى.

نهار إلهي رائع، أتسكع مع غليونني وأتأمل السهل، حتى البعيد. لا أعرف بعد ماذا سأكتب، لكنني أشعر بنوع من الحركة في داخلي، وثمة مواضيع تختمر.

أثينا، ٢٠ سبتمبر ١٩٣٧ (٢)

عدت من جولتي للتو... لقد استغرقت سبعة عشر يوماً. شاهدت مناظر جميلة واستمتعت برؤية القلاع والقصور، وخاصة قصر مونيمفاسيا. لم يأت الفرنسيون... وفي الطريق رحبت بفرنسيتين، شقيقتين - إحداهما من طراز ايتكا، والأخرى من طراز إلسا - (٣) بقينا اسبوعاً، معاً، ثم تركتهما في ميسترا.

لا أعرف الآن ماذا أكتب، اليونان موضوع صعب ولا يمكنني التعبير بحرية. اتصلي بفكتور سيرج. المهم أن تسمح له بحكومتنا بالمجيء إلى ايجين والإقامة فيها كما يشاء... بلغيه سلامي الحار، وعبري له عن حبنا.

... ينبغي أن نكف عن السفر كلاً على حدة... امتلأت بالصور والأحاسيس

(١) ايفون ولوسيان ميتاير، وصارتا لاحقاً: السيدة ميترال والسيدة فلوري، من أعز أصدقائنا.

(٢) و (٣) رسائل إلى ايليني ساميوس

والخيبات، وعدت مغتنياً بها. سوف تعودين، بدورك، ممتلئة، ومنتبادل بضاعتنا..

ايجين، ٥ أكتوبر (١)

أربكتني رسائلك التي تدعوني إلى باريس وقررت استشارة «كاثيميريني» في الذهاب... شخصياً لا أرغب في السفر إلى باريس، على الرغم من إمكانيات الاستمتاع وأهمية السفر من أجل الكتب...

أما بالنسبة للعمل في لجنة المسرح القومي، فقد قررت إيجاد وسيلة للرفض، بعد قراءة رسائلك. ذلك أن قبولي يعود إلى رغبتني في تحقيق بعض الرفاهية لك. وما دمت تزدرين ذلك سوف أبحث عن مبرر مقنع لرفض المنصب...

أكتب مقالات عن مقاطعة البيلو بونيز. وسوف يكون عددها عشرين. وهي صعبة برغم كل شيء، لأنني لا أريد كتابة أشياء معتادة. ولا يمكن كتابة أكثر من مقالة واحدة في اليوم... (٢)

عندما شاهدت لوحة غريكا لبيكاسو، في باريس، لم أعد أقدر على النوم. أحسستُ فيها بكل ما أحبه في أعمال نيكوس، مكثفاً. فماذا أفعل كي يتمكن المتوحد في ايجين من رؤيتها، هو الآخر؟

لدى عودتي إلى اليونان سعيت إلى إيجاد المال الذي يسهل سفر نيكوس إلى باريس. ونجحتُ جهودي هذه المرة.

وفي انتظار الباخرة التي ستقله في إحدى ليالي أكتوبر، مكثنا نتبادل الوداع، وفرحة الأيام القادمة. فسمعنا ثلاث طرقات على الباب البلوري.

- مرحى، يا وستفاهل! هتف نيكوس الذي يرى في الليل مثل وشق.

- اسمع النبأ السعيد! سيذهب نيكوس لرؤية «الغريكا»!

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٢) هذه الرحلة عبر مقاطعة البيلويونيز، صدرت عن «سيمون أند شوستر» في نيويورك، وبرونو كاسير في اكسفورد، وعن منشورات «بلون» الفرنسية، سنة ١٩٥٨، بعنوان: «من جبل سيناء إلى جزيرة فينوس».

- الغرنیکا ... تنهّد الرسام... غرنیکا... كم أود مشاهدة أعمال بيكاسو مجدّداً، لأنني أمر الآن بمنعطف...

- بع بعض اللوحات و «هوب»! قلت متفائلة.

وبدأنا نتناقش حول إجراءات البيع عندما تدخل نيكوس.

- هل تعرف بيكاسو شخصياً؟

- تقريباً... أعرف أعماله جيداً... يا لها من حافز بالنسبة لي!

- هل تودّ فعلاً مشاهدة غرنیکا؟ سأله نيكوس متأثراً بما سيفعل لاحقاً.

- طبعاً! قال وستفاهل.

- إذاً، لا شيء أبسط من ذلك! سوف تذهب إلى باريس!

وإذا به يخرج تذكرة سفره التي حصلنا عليها بشق الأنفس، والقليل من العملات الاجنبية الضرورية للسفر.

١٩٣٨ : حلّت مثل خرافة جنّيات. كان ياما كان، لم تكن، ومع ذلك كانت... امرأة أميركية ثرية، ذكية وخارجة عن المألوف، كرست جهودها لأعمال سوامي فيفيكانندا. وعمل معها جان هيربير لنشر بعض أعمال سوامي في أوروبا، وكُلفت شخصياً بترجمة كُتَيِّبَيْن إلى اليونانية. وكان جان هيربر قد تحدّث مطوّلاً عن نيكوس لـ «تانتين»، أي الأنسة ماكليود، كما يتحبّب إليها المقربون.

- لا تهمني الحجارة مطلقاً! قالت لي في أول لقاء بيننا في أثينا. لا الأكروبول، ولا متاع الدنيا. أحبّ التعرف على بشر، على كائنات حية. من هو نيكوس كازنتزاكي الذي تعاشرينه؟

كانت مشيقة القوام برغم تقدمها في السن. وقفزت من مقعدها: «هيا بنا إلى ايجين حالاً. أتلهف لمعرفته!

- سوف أنام كل ليلة في غرفة مختلفة، نبهتنا تانتين. لدى وصولنا إلى ايجين. وأرجوك أن نتركي كل الأبواب «متبحة». أحب «غرفة ما يدي» حولي.

لم تغيّر فراشها لكنها تفحصت البيت طويلاً وعرضاً. وتسلمت الشيطان الصغير كي تصعد إلى أعلى مصطبة وتتمتع برؤية بحر سارونيك. ورفضت أية مساعدة:

– لم تتعرفني إليّ إلا منذ البارحة، وتزعمين أنك قادرة على مساعدتي؟ أعرف نفسي منذ ثمانين عاماً، وأعرف كيف أتدبر أمري، بمفردي.

ولما جلسنا إلى المائدة لم تأكل تانتي سوى بياض البيضة.

– ايليني، هذا الملح (صفار البيض) نظيف، لا ترمي به.

– طبعاً، يا تانتي، قلتُ، من دون أن أفعل ذلك.

– إيلين، هذا الملح نظيف. هل سترمين به؟ كررت بنظرات قاسية.

ابتلعتُ الملح دفعة واحدة، فأعطتني تانتي أول درس في الاقتصاد، قالت:

– عندما كنت صغيرة، كنت أخبئ ما أدخره من نقود قليلة فوق بابي، أيام التنظيف... لا أحب التبذير، وحتى اليوم مازلت ألتقط علبة كبريت، إذا سقطت. اقتصدي يا ايليني ولا تبذري. لكن تعلّمي كيف تعطيني وتساعدين القضايا الكبرى. عندئذٍ يتوجب عليك العطاء بملء اليدين! وليبارك الله!....

ثم التفتت نحو نيكوس:

– ما تلك المخطوطة الضخمة التي رأيته منذ قليل على طاولة مكتبك، يا نيكولو؟ سألته. هل هي «الأوديسة» التي حدّثني عنها جان هيربر؟

– نعم... طفلنا، يا عزيزتي تانتي...

– حدّثني عما تقول فيها! لماذا لا تنشرها إذا كانت جاهزة؟ ماذا تنتظر؟

وظفّق نيكوس يسرد الحكاية الخارقة لقرصانة... الرحلات، النهب والسلب، حرائق القصور، الهجرات، تشييد المدينة الطوباوية، الخراب، الخ....

وكانت تانتي تنصت مذهولة. وحلّ الليل وهما جالسان متقابلين،

كالمتواطئين، و«الأوديسة» على ركبتيهما مثل غنيمة صُغِبَ الحصول عليها فازدادت قيمتها.

وجئت أقطع خلوتيها :

- تعالا، لتجديد قواكما. المائدة جاهزة.

- أنتِ أمرتني تانتين غاضبة تقريباً، اذهبي واجلبي محفظتي. إنها على السرير. وعودي بسرعة!

- ما المبلغ الذي تحتاج إليه، يا نيكولو، لنشر «الأوديسة»؟

- اِحْمُ... الف وخمسمائة دولار تقريباً!

فوقعت صكاً بالمبلغ. وبذلك تمكناً من طبع ثلاثمائة نسخة ممتازة - وهي الطبعة الأولى من «أوديسة» كازنتزاكي باللغة اليونانية. أما الثانية فكانت طبعة أبسط. ولقد وضعتها على نعش نيكوس، يوم رحيله الكبير. فلم يتمكن من ملامستها والتربيت عليها كما كان يحب أن يفعل.

وبعد أن قدمنا الصك إلى الناشر ترجأني نيكوس كي أهتم بالتصحيح.

ولم يسبق لي ممارسة مثل ذلك العمل. فقبلت وطلبت مساعدة هيلينا أخرى، زوجة ميخاليس أنستاسيو. ولم يكن يسمح لنا إلا بإجراء تصحيحين على كل تجربة مطبعية. فكانوا يجلبون لنا الأوراق، ونصحح أخطاءها، ثم تُطبع. ونعود إلى رؤيتها، في اليوم نفسه، خلال السحب النهائي، في المطبعة. وعملنا أكثر من ثماني ساعات يومياً، إذ قيل لنا بأننا إذا لم نحترم ذلك الإيقاع فسوف تزداد كلفة الكتاب.

وعندما تعترضنا بعض الصعوبات نتصل بنيكوس في ايجين، فيستغرب «وهل يصعب عليك تصحيح بيت من الشعر، بنفسك، وإضافة تفعيلة أو إلغاء أخرى؟ أو تغيير كلمة بأخرى؟»

(ايجين الاربعاء (١))

فرحت برسالتك. فلتعرض «ميليسا» (٢) وسوف يشجعني ذلك على كتابة مسرحيات أخرى. وإلا...

لا أكل الحلويات الآن. ولا أفعل ذلك كي تجديها [لدى عودتك] بل لاختبار قوتي. أعيد قراءة «الأم ماري». أتعب لكني لم أبدأها بعد. أنتظر مصير «ميليسا». المسرحية تختلف تماماً عن القصيدة. أستطيع كتابة قصائد من دون أن تنشر، ومن دون أن يقرأها أحد. أما العمل الدرامي فهو أشبه ما يكون بتجسد للفكر، كما يتم تحقيقه في التثبيت، إذ يغدو جسماً مستقلاً عنك، ويرغب في العرض. وإذا لم يعرض في المسرح تتلاشى قوتك الخلاقة، ولا تتمكن من الكتابة مرة أخرى...

(ايجين الأربعاء (٣))

أحرر يومياً كتاب القراءة للمصف الثاني [المدرسة الابتدائية]. وعندما تقبلين سوف يكون جاهزاً. بالنسبة لـ «الأوديسة» أرجو أن تجلبي لي ما أعادته لك الرقابة، أي الأناشيد ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤. هنا، هدوء وطقس رائع.

تفادياً للزئاذ الملحي، توجب علينا إعادة تطيين جدراننا.

(ايجين الاثنين (١٩٣٨) (٤))

أجر جر الماء يومياً من البئر، أملأ الخزان، أساعد في عملية التطيين. رياح قوية، وبرد قارس. ولحسن الحظ أنه لا يوجد مطر، وسوف يُنجز كل شيء عما قريب...

قرأت كتابك الإسباني عن باناييت استراتي (٥) مرتين. مدهش. مكتوب بحيوية وجودة فنية. كان من الصعب استخلاص حكاية واضحة، حيوية ومشوقة من كل تلك الأحداث... وأنت لم تكرمي ذكرى باناييت فقط، بل ألّفت كتاباً جميلاً، أيضاً. فلننتظر الآن كتابك الثالث...

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٢) أكد لي مينوتيس أن المسرح القومي سيمثل «ميليسا» قريباً جداً. ولقد عرضها فعلاً، بعد أكثر من ٢٢ عاماً، وبعد وفاة المؤلف. (في إطار مهرجان أثينا، بمسرح هيرودس أتيكوس، تحت الاكروبول. وحقت نجاحاً كبيراً).

(٣) و (٤) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٥) «مأساة باناييت استراتي الحقيقية» تأليف إ. ساميوس. منشورات ارثياد، ١٩٣٨ سانتياغو، تشيلي.

... وشيء آخر بغيض : غادر بيتر غراي^(٢) ايجين. وبتعبير أدق، طردته الشرطة بوصفه أجنبياً، الخ... واضطر المسكين أن يلجأ إلى بوروس. ولدى رحيله ترك لي بعض الكتب الجميلة: كيتس، شلي، لفكاديوهيرن... وكان في منتهى التأثر والحزن... إنهم متوحشون. رأيت ما يحدث في ألمانيا؟ ألسْتُ محقاً؟ إننا نسير نحو قرون وسطى جديدة. بل وصلنا إليها. وكل الأعراض موجودة. ما العمل؟ نحلم، نخطط، نعمل من أجل حضارة المستقبل. إننا نمسك بشمعة صغيرة مضيئة، وعلينا ألا نترك شعلتها تنطفئ...

إنه لمن حقّ الفنان، في أوج انهياره العصبي، أن يكره جيرانه، عندما يكون منصرفاً للعمل. وهو حق إنساني تماماً.

«عندما تشاهدان أصيص حبق على عتبة بيتي، تستطيعان زيارتي» هكذا نبّهنا صديقنا كالموك «وإلا فإنّ عليكما الامتناع عن زيارتي لأنني أكون آنذاك في أوج العملية الإبداعية».

وفي الواقع كان كالموك يمضي ليلاليه في احتساء الكحول بحانة ماريني، ويعود في الفجر، عندما يكون نيكوس جالساً إلى مكتبه. وكان ينام طيلة النهار. موصداً نوافذ بيته. ولقد تألمنا كثيراً لعجزنا عن إخراجه من تلك الأزمة، لاسيما وأننا كنا نحب رسمه كثيراً.

وكتب لي نيكوس يقول إن كالموك قد رفع أسواراً عالية - حواجز واقية - حول شرفة «الفيرندا»، حتى لا يرانا.

وأكد لي مينووتيس، مرة أخرى، أن مسرحية «ميليسا» ستمثل، فأخبرت نيكوس الذي احتفل بالخبر السعيد، محتسباً «شامبانيا» الفقراء :

(ايجين، ١٩٣٨) الاثنين^(٢)

ما إن قرأت رسالتك حتى هرعت إلى الخزانة وأكلت ملء ملعقة صغيرة من الكرز

(١) كاتب امريكي شاب، كنّا قد أويناه في بيت ابنة عمي ماري.إ

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس

البري المحفوظ في السكر...

الأربعاء (١)

صرت ماهراً في الطبخ بعد أن طبقت طريقتك... وأكل بطريقة أفضل عندما تكونين غائبة...

أرسلت لي السيدة لامبريدي نصّ المقال الذي قرأته في الإذاعة. إنها ترفعني إلى السماء السابعة. وقالت بأنني، وسكليانوس، أكبر حقيقتين في اليونان. يا إلهي كم سأرتاح بتصديق ذلك. لكنني لا أصدق شيئاً مما يقال عني. كنت أرغب في شيء آخر. كان يتوجب عليّ ممارسة شيء آخر، ربما كان بوسعي أن أعمل شيئاً آخر، ولقد ضاعت حياتي. كل ما أكتبه، أكرره، إنه مادة بديلة.

وتابعنا، أنا وهيلينا، تصحيح التجارب المطبعية لـ «الأوديسة». وكانت زوجة تيموتيو روبيو، الشاعرة الإسبانية روزا شاسل روبيو، موجودة في أثينا. واشتركت مع نيكوس في ترجمة «الأوديسة» شعراً.

الأربعاء

أنا سعيد بمجيء روزا. هذه المرأة نادرة بال تأكيد. ونادر ما تكتبه، ولا سيما إيقاع كتاباتها. كان في إمكانها إنجاز أعمال بارزة...

ايجين، ٥ ديسمبر ١٩٣٨ (٢)

حبيبتي،

يوم رائع. جلب الشاب س. ثلاث شتلات زعرور، وغرسناها. أتمنى أن تنمو. ترجمتك لبيتر غراي ممتازة. ونشرت في الصدارة. بعثت بها إليه ولا شك أنه سوف يفرح. لغتك جميلة.

غداً يوم عيدي (٣) وسوف أستيقظ في منتصف الليل، للعمل معك. أعمل بضراوة لأجهز المخطوطات...

ايجين، الجمعة (٤)

أتلّف إلى الذهاب لرؤيتك. لقد انتهيت من تصحيح «الأوديسة» كلها، من دون

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس
(٣) عيد القديس نيكولا، ومن يحمل اسمه (الترجم).
(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس

تدخلي. وربما أحضر في الوقت المناسب بالنسبة للـ «أوميغا»^(١).

(ايجين) ٨ ديسمبر ١٩٣٨ (٢)

أكتب، في الليل، عن حياة آل هابسبورغ^(٣) ضمن شكل روائي. أريد إنهاء أكبر جزء ممكن كي يتبقى لي متسع من الوقت للأعياد. لذلك لن أذهب إلى أثينا إلا وقت التوقيع^(٤).

أوقدتُ مدفاتي لأول مرة، اليوم. وعندما ارتفعت حرارتها طبخت فوقها قليلاً من الفاصوليا، فشعرت بطمأنينة غريبة لسماع غليانها...

أنتظر نص المسرحية التي كلفني المسرح بترجمتها. هذا العمل سقط من السماء. بدوره...

(ايجين) ٩ ديسمبر (١٩٣٨) (٥)

... نبتة الصبار المريضة التي أخذتها إلى ساكيوتي، بدأت تتعافى... لقد أصيبت بضربة شمس. علينا أن نضعها تحت الشمس مع مظلة...

حاشية : نسيت أن أخبرك بأنني ارتديت، في عيد القديس نيقولا، تلك السترة التي فصلتها لي من معطفك، وتبخّرت مثل طفل...

(١) أوميغا: هي الحرف الرابع والعشرون في الأبجدية اليونانية، والنشيد الرابع والعشرون في «الأوديسة» أيضاً.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٣) سيرة اليزابيث امبراطورة النمسا، في شكل روائي ينشر مسلسلاً.

(٤) كان الكتاب اليونانيون يضعون توقيعهم على كل نسخة من كتبهم، بمثابة صيانة لحقوق التأليف والنشر. وما زالت هذه العادة سارية في اليونان، وتتسبب في بعض العقبات بالنسبة للكتاب المعنيين.

(٥) رسالة إلى ايليني ساميوس

هَدْمُ الْأَسَاطِير
1946 - 1939

١٩٣٩ . صار ذهابنا، منذ الفجر، إلى المطبعة المحاطة ببساتين الفواكه في مدخل أثينا الجنوبي الغربي، احتفالاً يومياً بالنسبة إلينا. فهل كان يعود إلى رؤية أول شجرة لوز مزهرة؟ أم إلى الأريج البري المتضوّع من الهندباء المرة ممتزجاً بالعطر النفّاذ الذي تفوح به أزهار البنفسج غير المرئية؟ أم هي فرحة إنجاز العمل في وقت قياسي؟

كنت وهيلينا مزهوتين بالوليد الجديد^(١) على ركبتينا، متلهفتين كي نعرضه ليعجب به الجمهور. عندئذٍ أدركنا وجود الأخطاء الأولى. ارتبكنا، ودعونا نيكوس لنجدتنا.

- أخطاء مطبعية؟ أخطاء بالغة؟ لا تفزعاً... طبعاً سأجيء... وفي الأثناء أرجوكم استشارة كالموك!

- ثمة حل وحيد، قرّر كالموك، محو الحروف الدّخيلة واستبدالها بالحروف الصحيحة، لكن بخط اليد. وهي أخطاء كما علمت، أقل من تسعة آلاف...

وجاء اليوم المشهود. وخصص صديقان^(٢) من بائعي الكتب واجهة كاملة لتنصيب الوحش^(٣) وحش بأتم معنى الكلمة، «موبي ديك» تائه في مياه البحر الأبيض المتوسط...

- بعني مائة غرام، من فضلك، طلب م.أ. وكان أشدّ النّمامين حقداً، مع

(١) أي «أوديسة» كازنتزاكي.

(٢) هما السيدان غانياريس وديامنتاراس

(٣) كتاب الأوديسة، مع تشبيهه بالحوث «موبي ديك»، في رواية ملفيل الشهيرة التي تحمل العنوان نفسه.
(المترجم)

ابتسامة لطيفة وخادعة.

— وأنا أريد ٣٥٠ غراماً، رجاء! وأنا، أريد رطلاً!

وانتشرت اللعبة. ذلك أن الذين كانوا يتقيأون «المنشَق» الرجل الذي لم يُجارِ عصره، هم أنفسهم الذين كانوا لا يقرأونه. غير أن أكثر المدن بلادة لا تنجو من الشعر. ولقد أهدى نيكوس نصف عدد النسخ الثلاثمائة. وكنتُ مفرطة في التشاؤم فقدّرت وجود خمسة مشترين. لكنهم تجاوزوا المائة. وتمكّن الشباب من قراءة الملحمة — النّهر بالتناوب على مطالعتها، متمنّين نشرها في طبعة شعبية.

وشمّر الأصدقاء عن سواعدهم. فانكبّ واحد من أفضل رسامينا، هو نيكوس حاجيكيرياكوس — غيكاس، على ترجمة مقاطع من الملحمة التي أراد أن يرسم لها بعض اللوحات. ومن هذا المشروع انطلق ر. لافيسك في ترجمته التي صدرت فيما بعد ضمن «حضور اليونان»^(١)

ونشرت الصحف الأثينية في ذلك العام مقالات متحمّسة ضد «الأوديسة» أو معها. وكان حاييم خورموزيوس أول من نشر تحليلاً وافياً «للأوديسة» في سلسلة من أربعة وعشرين مقالا. ولعبت دراسته دوراً أكيداً في حسم تردد بعض القراء أمام «أطول ملحمة للعرق الأبيض».

ولم يعد نيكوس يفكر، بعد الإثارة الأولية، سوى في السفر. لكن فكرة تنبؤية خطرت بباله قبل الرحيل:

«أودّ اقتناء جرّة طينية كبيرة، يا عزيزتي، جرّة كبيرة. — لماذا؟ لأملأها بزيت الزيتون... لنقل، قرابة خمسين لتراً من زيت الزيتون!».

ولم يمنعه استنكاري من تنفيذ فكرته. وكنت أعلم أن الخبز لم يكن لينقطع في بيت والده. لكنه كان يشتري الكثير كي يوزعه على أفراد العائلة والأقارب حتى صار يلقّب بالقبطان بسومي (قبطان الخبز). وفكرت بأن نيكوس سيصير قبطان الزيت.

(١) «دفاتر الجنوب»، ١٩٤٨.

ومن حسن الحظ أنَّ نيكوس لم ينتبه إلى تدمري. وبفضل ذلك الزيت استطعنا النجاة من استسقاء المجاعة. كما تمكنا من إنقاذ بعض أطفال جيراننا.

وكان في أثينا، خلال تلك المرحلة المضطربة دبلوماسي إنجليزي «جنتلمان» حقيقي، يدعى سيدني واترلو، تعرف عليه نيكوس مصادفة. ويتميز بحضور الشخصية، والثقافة الواسعة، والاهتمام بالماورائيات، وحب اليونان القديمة والمعاصرة. وهو أمر لم نعتده.

وصار الرجلان يلتقيان بحبور ويتناقشان في السياسة والفن والدين. وأدرك الإنجليزي النبیه ذلك الخطر المحدق بالشاعر اليوناني المتوحد في «فردوسه»، ووعدّه بسفرة إلى إنجلترا. ونظراً لاهتمام السر سيدني واترلو بأفكار صديقه فقد انصرف أيضاً إلى ترجمة كتاب «الزهد».

لم يثمر شيء من وعود المسرح القومي^(١) والكتب المدرسية، والترجمات الموعودة. وحده الإنجليزي وفي بوعده.

ايجين، ٦ يناير ١٩٣٩ (٢)

صديقي العزيز،

أنا سعيد بوجود أشخاص يستمتعون بقراءة ما حاولت إنقاذه من أعماق روحي، بجهود جبارة، وذلك في قالب الكلمات. لا أرغب في مكافآت أخرى: فليس هناك مكافآت كبرى لرجل ناسك.

لقد كان عدد الذين اقتنوا نسخاً من «الأوديسة» أكبر مما توقعت بكثير. ويفضل أن تقوم «بيرسوس» ببعض التسهيلات في البيع بالتقسيط لمن يرغب... إنَّ هدف «الأوديسة» هو أن يقرأها الشباب، مهما كان الثمن، وهذا العمل لم يكتب للمسنيين، بل كتب للشباب وللذين لم يولدوا بعد...

(١) كان يدعى «المسرح الملكي» آنذاك.

(٢) رسالة موجهة إلى ستاموس ديامنتاراس، صاحب مكتبة شاب، كان كازنتزاكي يقدره ويحبه كثيراً.

ايجين، ١٧ فبراير ١٩٣٩ (١)

... تفتحت أزهار «المنثور» (جيروفي)، بألوان بنفسجية وبيضاء. وغرسنا خمس عشرة زيتونة... واليوم، شمس رائعة، هدوء، طمأنينة، وأنا سعيد. النهار ممتلئ بساعاته. أعمل، أعمل، أعمل.... والشمس لا تغيب. للزمن، هنا، عمق فريد، فلا يمرّ هرماً وأحمق، كما في أثينا. أنا الآن متمدّد على أريكة «الستوديو» مفتوناً بجمال منزلنا، وهدوئه، وبساطته، وامتلائه بالضوء. البحر يشبه البلور، والجبال ساكنة، أمنة، والأرض مغطاة بالخضرة. أنا مدين بكل شيء للعزلة. ولولاها لما فعلت شيئاً، أو لما حققت ذاتي، «سوليداد، سوليداد»، كما يقول خيمينيث.

.... أطلع طوال النهار باللغة الإنجليزية وأخطط لألف مشروع من أجل «الهروب». فهل نتوصل إلى التشبث ببعض الصخور الإنجليزية، لبضعة أعوام؟!...

ايجين، ٢٠ فبراير ١٩٣٩ (٢)

... استلمت الهدايا الثمينة (بمناسبة عيد الميلاد) ليوم ١٨ فبراير، وأشكر الجميع: أنت، وروزا، الخ، الخ.... هنا يخيم الهدوء والطمأنينة. أجهز «نيسافور فوكاس» للمسرح، وأدرس الإنجليزية^(٣). راسلني واترلو بمناسبة عيد ميلادي وختم رسالته بالقول «ينبغي، قطعاً، أن نلتقي في القريب العاجل». (كرنفال). جاءت أقنعة أخرى اليوم، طردت الجميع قائلاً إنني في حدّاد. فسألوني قلقين: «أي حدّاد؟». لكنني لم أخبرهم بأنه على إسبانيا.

ليكن الله معك يا رفيقتي الحبيبة، الغالية. لولاك لضعت.

سافر نيكوس وحده إلى لندن. وتوقف في باريس لرؤية سغريداكي وأصدقائنا الأسبان المنفيين. ومن بينهم ابناً فال إنكلان. وأعجب نيكوس بـ ماريكوينا الرقيقة، الجميلة، والجذابة بشكل متميز. وبرفقتها شعر أنه في إسبانيا التي يحبها. وصلت بدوري إلى باريس. وكنا آنذاك، نعيش بوادر الحرب العالمية الثانية. وكان لقاءنا بمانوليس سغريداكي من أكثر اللحظات المفرحة خلال

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني سامبوس.

(٣) كان نيكوس كازنتزاكي يجيد الإنجليزية لكنه يتكلمها بشكل رديء.

إقامتنا في باريس. وهو تاجر عاديّات (أنتيكا) من كريت، يتميز بالقوة وبأخلاق الفلاحين، بالمعنى الإيجابي للكلمة، وبالتفاؤل العارم. جاء إلى باريس قبل حوالي ثلاثين عاماً، حافي القدمين، وتوصل للتوّ إلى فتح إحدى أجمل قاعات الفنون، في باريس. قال لنا: «ذات يوم شاهدت شارع ريفولي في بطاقة بريدية، فصمّمت على مغادرة قريتي لمعاينة تلك الأعجوبة عن كثب!».

وكان سغريداكي يتحلّى بكرم فائق فإذا جاء لتوديعك في محطة القطار لابد أن يجلب صندوق فواكه من الحجم الكبير، يكفي ركاب المقطورة كلها. وبعد تحرير فرنسا، كنت أطلب منه مشطاً فيرسل لي بما يمكن أن يعمر دكاناً، وكان، حسب التقاليد اليونانية قبل الحرب، يفكر في المقرّبين منه أكثر من التفكير في نفسه. فيضحي كي يتمكن أبناء إخوته وإخواته، من استكمال دراستهم، أو ليزوج بنات العشيرة.

كنّا نحسبه غنياً. وبعد انتهاء الحرب أرسل، من نيويورك، أثواباً كافية لقرية بكاملها. وفي الوقت نفسه كان يسجل الدولارين، أو الخمسة دولارات، التي يستدينها كي يتمكن من اقتناء فنجان قهوة وسندويتش.

لسوء الحظ إنه مات فجأة، خلال زيارة إلى مسقط رأسه. وبكيناه بحرقه.

كم مرّة وصف لنا نيكوس، في الماضي، دهشته من عبور الحلم إلى الواقع، وتوصله إلى أن «يمسك في يده»، كما كان يقول، بفلسطين، ومصر، وسيناء، والقدس، ويريفان، وموسكو، وبخاري، والقاهرة... كما يمسك برمانة فلّقها النضج...

وفي هذه المرة جاء دور لندن، دور إنجلترا التي سيطلع عليها جيداً، في أدق فترات وجودها.

أحس كازنتزاكي بنيران الجحيم تلفحه، لكنه انصرف في الوقت نفسه إلى التمتع برؤية الأراضي المخضوضرة التي أثرت فيه، وإلى تأمل اللوحات التي يشاهدها لأول مرة، فيحلم بأسيا أمام المنمنمات العربية والهندية والفارسية، في المتحف البريطاني..

ساحة بدفورد ، حديقة راسل،

لندن W.C.I

٢٣ يوليو ١٩٣٩

أفكر فيك يومياً وأقول: هنا يجب أن نولد، ثريين، صامتين، ماجدين، منعزلين - مثل
السادة الذين تعرّفت عليهم ويعيشون في الريف الانجليزي البعيد، في قصور قديمة،
مريحة، مع صور عائلية تخلّد أسلافهم... عندما أموت سوف يدّعي أحد مؤلفي سيرتي
- يا له من أحمق - أنني كنت زاهداً، قليل الشهوات، رجلاً يستمرىء العيش في الإهمال
والفقر. ولن يدرك أحد أنني اكتفيت بحياة «الزاهد» لأنه استحال عليّ العيش وفق
طبيعتي الحقيقية، ولأنني فضلت العري على الزيّ الموحد، الحقير، والمهين الذي
ترتديه البورجوازية. (١)

Be strong and play the man! (٢) هذه الكلمات التي ينطق بها الكاهن وهو يتوّج
ملك إنجلترا، توشّح جبيني مثل تاج. كنت أعرف تلك الكلمات، لكنني سعدت بوجودها
هنا مكرّسة في احتفال بهيج...

هاينشنبروك ، هونتيفدن

أول أغسطس ١٩٣٩ (٣)

حبيبتي لينوتشكا،

أكتب إليك من قصر ساندويش الشهير وعندما تأتين سوف أزودك بكلّ التفاصيل.
ثراء لا يصدّق، أروقة زاخرة بأعمال سيزان، وفان غوخ، وداران، وكورو، ومودلياني،
وهناك تماثيل لبوذا في حدائق المصابيح الحجرية المجلوبة من اليابان، وخصوصاً تلك
المستنبطات الحارة بكرومها المحصّلة بعناقيد العنب الأبيض والأسود، وأشجار الدُّراق،
والأجاص، والتّين، الخ...

القصر يعجّ بخدم يرتدون زيّاً موحداً. والجدران مغطاة بلوحات الأسلاف. والريف
هادئ، جميل، تتناوب عليه الشمس والمطر. غداً أذهب إلى لندن مع الكونتيسة

(١) أنا التي شدّدت على هذه الميزة في حياة نيكوس كازنتزاكي.

(٢) «كُنْ قوياً وتصرف كإنسان!»

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

العجوز.

الغرفة التي استُضفتُ فيها واسعة وأثاثها ثمين.. السرير من طراز القرن السادس عشر، وهو مغطى بلحاف عتيق مطرز برسوم تمثل موسيقيين من العصر الوسيط يعزفون بكل أنواع الآلات. الحوض والأبريق من الخزف القديم الذي نشاهد مثله في المتاحف.

البستان رحب. وتحيط بالقصر غابة، ونهر فيه زوارق صغيرة. مكتبة كبيرة....

٢ أغسطس (١)

عدت إلى لندن وهي المكان الوحيد الذي نستطيع العيش فيه إذا كان لابد من مغادرة ايجين. هدوء، طمأنينة، عشب أخضر - الطبيعة - كنا نتمتع بذلك في اليونان أيضا.

أطالع باستمرار... وأدون ملاحظات، تحضيراً لكتابي عن إنجلترا.. وهو أمر صعب جداً. ما عسى أن يكتب المرء في موضوع جد مطروق؟

... تهطل الأمطار من دون توقف. طقس رتيب، رمادي، كئيب. أنتظر مجيء الغيوم الكبيرة لأتمكن من رؤية شيء جديد...

برمنغهام، ١٤ أغسطس ١٩٣٩ (٢)

حبيبتي هذه المدينة من أبشع مدن العالم، دخان، ريف، قوم بلا فرح، فقر وغنى لا حدود لهما. كانت أكسفورد بالأمس مقاطعة جميلة ذات طابع يعود إلى العصر الوسيط. طقس رائع، شمس، دفء. أرهق نفسي لأنني أريد رؤية كل شيء حتى الشبع ثم أذهب صباح الغد إلى تشستر، وبعد غد إلى ليفريول، وهناك أمل الإقامة عند فلاستوس (٣)... لم أستفد كثيراً من الجانب المعنوي أو الفكري، ولم يثب قلبي مرة واحدة. لكن، ينبغي أن أرى... أتمنى أن نستمتع في اسكتلندا.

تشستر، ١٥ أغسطس ١٩٣٩ (٤)

مدينة صغيرة رائعة، كاتدرائية جميلة، بيوت قديمة، أقواس، نزهات فوق الأسوار.

(١) بطاقة إلى ايليني ساميوس.

(٢) بطاقة إلى ايليني ساميوس.

(٣) بنزوس فلاستوس، تاجر وأديب يوناني من المدافعين عن اللغة اليونانية الشعبية، وقد ألف «قاموس مترادفات».

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

وصلت هذا الصباح، وأكتب إليك الآن قبل مغيب الشمس... وبعد برمنغهام الفظيعة، أشعر بالسعادة هنا. النساء بشعات جداً، وهَرَمَات قبل الأوان بسبب الفقر. ما من ضحكة في أي مكان... الوجوه مهمومة... ستنتهي رحلتي عما قريب، أسرع مما كنت أتوقع...

ليفربول، ١٦ أغسطس ١٩٣٩ (١)

أنا الآن عند فلاستوس في متنزه كبير، وغداً أغادر كما لو كنتُ مطروداً مثلما قال فلاستوس. بيت إقطاعي، الزوجة ذكية ولطيفة، والابنتان جميلتان.

ليفربول مدينة كبيرة، كريهة وفحمة، وحده رواق الفن يحتوي على لوحة أو لوحتين إيطاليتين، وبعض لوحات كرانش، وأعمال رسامين ألمان من القدامى سأقصد مانشستر، ثم شيفيلد وبترسبوروغ، وأخيراً أصل إلى لندن يوم ١٩ و ٢٠... صحتي جيدة برغم التعب...

شيفيلد، ١٨ أغسطس ١٩٣٩ (٢)

زرت مانشستر وجبتُ المدينة طيلة النهار ثم غادرتها مساء قادماً إلى شيفيلد. مدن فظيعة، معفرة بغبار الفحم، وجوه عابسة، بيوت متشابهة كالثكنات. أطوف في هذا الجحيم ولا أريد أن يفوتني شيء. أرغب في التمتع بكل هذه البشاعة، كي أتوصل إلى المعرفة. كل مدينة تمتلك رواق فنون يضمّ عملين أو ثلاثة أعمال جميلة من إبداع الإنسان، معشقة في حضن البشاعة، وهي بذلك تؤثر فيك أكثر... سأقصد بترسبوروغ غداً، حيث توجد كاتدرائية جميلة.

لندن، ٢٣ أغسطس (٣)

تعالى في أقرب وقت لأنني أخشى نشوب الحرب. وقد ازدادت مخاطرها نتيجة التحالف الألماني الروسي المفاجيء. هنا يعتبرونها مندلعة لا محالة. ومن الأفضل أن نكون معاً في هذا الوقت المروع. وسوف ننظر في القرار الذي ينبغي أن نتخذه.

اقتصدي قدر المستطاع لأنني أخشى أوقاتاً عصيبة...

غداة الحرب العالمية الثانية، أراد كازنتزاكي في كمبريدج، تأليف كتاب عن

(١) و(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

مثقفي إنجلترا الكبار في مرحلة ما بعد الحرب. حاول لكنه لم يوفق. ولم يكن السبب في ذلك يعود إلى تدني أهمية الأدباء الذين التقاهم، بل لأنه لم يتمكن من فهمهم. هو «المنشق» الكبير. فلم يرتاحوا للاستجواب الذي قدّمه لهم. ولم يوافق على الردّ سوى عدد قليل، كانوا، في غالبيتهم، لا مباليين أو غاضبين. فتذكّر كازنتزاكي كابوس الزحف الصناعي الذي لاحظ بدايته منذ مرحلة ما قبل الحرب. تذكر مضارّه ووصفها، هذه المرة، في شكل رسالة موجهة إلى عشيقته خيالية. ضمن كتاب لن ينشر تلبية لرغبة المؤلف^(١).

يا فرحتي وصديقتي النائية،

لن أصف لك ما شعرت به أثناء تجوالي في هذه المدن الإنجليزية السوداء. كنت أعمى واستعدت البصر، تحررت من الأشياء الروحية، فرأيت أجساماً تعمل، وأرواحاً وثيقة الالتصاق بالأجسام، تتألم وتمسك بمصير العالم بين أيديها. ويدفع الخزي بدمي إلى رأسي، عندما أرى هؤلاء الرجال يكّدون مُنكبين على آلاتهم في المصانع، وفي السفن، وتحت الأرض، ثم أتذكر أولئك المثقفين..... الذين دفعتمني سذاجتي إلى أن أشكو إليهم همّي...

أتذكر الكاتب الصامت الذي كان يجلس بلا حراك متربّعاً في مفترق ممفيس، منذ آلاف السنين، متأملاً بعينين شاخصتين وبمشاعر شفقة وحنق، تلك المدينة العظيمة الخاطئة. فيقصده الفقراء والنساء اللائي هجرهن أزواجهن... فيدوّن، كل يوم، بلا انقطاع، هموم البائسين، بينما يمرّ أمامه السادة البدينون ذوو العيون المرهقة بسبب الإفراط في الأكل وقلة النوم، مستلقين على محفّاتهم التي يحملها العبيد.

كان الكاتب يحملق بعينيه. وينظر، من الصباح إلى المساء، من دون أن ينسى شيئاً. ومازالت صرخته المدوّية محفورة في الصخر: «رأيت! رأيت! رأيت!».

فليات عصرنا الصناعي، بمثل ذلك الكاتب، قبل أن نندفع إلى الهاوية...

وصلنا إلى برمنغهام يوم الأحد، كان كل شيء مغلقاً، شاهدنا وجوهاً كئيبة يرسم عليها تعب الأسبوع الذي انقضى وتعب الأسبوع الذي سيبدأ...

أشرقت الشمس، اليوم، فأنكشفت البشاعة أكثر، في الشوارع. أسرعنا إلى متنزه

(١) هذا المقطع الذي لم يخضع إلا لتحويلات بسيطة، يوجد أيضاً في كتاب «إنجلترا» منشورات بيرسوس، أثينا،

أستون لأفرج عن نفسي. ازهار مختلفة الألوان والأنواع، قرنفل هندي... روائح تذكر
باليونان. إنَّ الوردة التي تزهر في قلب الجحيم هي أقسى رؤيا لا إنسانية تبين
للملعونين، كيف كان يمكن للحياة أن تكون، ولم تكن.

وفي صباح الغد، الاثنين، بكرت في النزول إلى الشوارع مرة أخرى. ولحسن الحظ أن
الشمس غابت. وكان ضباب كثيف يغطي الجدران ويستر البشاعة. فتحول كل شيء إلى
رمز للأساطير الشمالية، وبالنسبة لرجل ولد في بلدان تعري فيها الشمس كل شيء
بوقاحة، كان هذا النهار المبرقع في منتهى الغموض والغرابة.

عمال وعاملات يحملون رزماً صغيرة ويهرعون، كالقطيع، نحو أبواب عالية سوداء
تبتلعهم. ومن المعامل ترتفع أغنية فرنسية أشبه ما تكون بشكوى جنائزية تخنق
القلب.

تحتاجون، كي تحكموا،

إلى سترٍ ووشاح،

فننسج لكم ذلك،

يا سادة الأرض،

أما نحن، النساجين البائسين،

فندفن بلا كفن...

انتقل من معمل إلى آخر فينقبض قلبي أكثر. لقد فقدت إنجلترا «السعيدة» فرحتها،
وظفت العجلة تدور ولم يعد هناك من يقدر على إيقافها. انتصرت الآلات، واندفع إنسان
اليوم، بأمل عريض وتفاؤل ساذج، لغزو المادة، مبهجاً بعبئيه الحديديين الجدد.
ويعتقد أنه بذلك يحصل على الحرية ويحرر الروح. لكن نبل الإنسان يكمن في صراعه
الأبدى من أجل استبدال قوانين الطبيعة اللإنسانية بالقوانين التي يملئها عليه القلب.
لقد أوجد مثلاً إنسانية عليا، كتعبير عن عن طموحه الأعمق إلى العدالة والمساواة.
والسعادة للجميع. ولا يوجد شيء مثل ذلك خارج تطلعات الإنسان. وللغابة التي
نسميها الأرض والسماء قوانين أخرى مناقضة تماماً - ظلم، عدم مساواة، وسعادة
للأقلية، لكنها سعادة لا تدوم.

غير أن الإنسان يقاوم قوانين الطبيعة ويزدريها. يبدو له العالم أدنى مما يريد قلبه

فيرغب في بناء عالمه الأفضل، فيعترض العقلاء والأثرياء ويصيحون: «العالم جميل فلا تحطموه!» لكن الشعلة التي تتقد في أحشاء الإنسان لا تدعه ينصت إلى صوت هؤلاء. ذلك أن مَنْ يرحل عبر مسيرة الإنسانية يكون متعجلاً، يجوع، يعطش، يرى سراباً منعشاً في الصحراء - عدالة، مساواة، سعادة - فيسرع. لكنه يتأخر في الوصول وتبدو له الخيول التي تحمله بطيئة جداً، فينفد صبره. عندئذ يصنع خيولاً جديدة من الحديد، تجوب الأرض، والبحر، والسماء، بسرعة. لقد امتطأها كي يبلغ أوهامه. فجأة، كما يحدث في الكوابيس، تصير الخيول هي التي تمتطي فارسها. وها هي ذي تتوخم اتجاهها معاكساً وتركض. ونحن نركض معها.

سرت في شوارع برمنغهام، ثم في ليفربول... شاهدت الآلات والمعامل وسيقان الأطفال الضامرة، والأسمال المعلقة في النوافذ، أحياء العمال المعتمدة، الرطبة. حاولت أن أضفي نبلاً ومعنى على البشاعة، وأملأ على اليأس. وأن أضع الهول الراهن في دائرة الكون مع تحويله إلى فرح...

غابة خطيرة لا تسكنها سوى الخنازير البرية والثيران والذئاب، هكذا وصف أحد مدوّني الوقائع القدامى، الامتداد الذي تنتشر عليه اليوم برمنغهام المضنية، الشاسعة. هكذا كانت، وهكذا هي اليوم. إنها وجه حضارتنا الصناعية الوحشية، المجردة من كل رقة إنسانية، ورحمة، والتي لا تبعث إلا على المرارة. تنظر إلى أفواج النمل البشري، تصعد وتنزل في الشوارع، كثيبة، متعجلة، مجردة من الفرح، فيتملكك الحصر والقلق. ألسنت في كابوس؟ ألا تعيش الإنسانية في كابوس جماعي؟....

إذا أرادت الروح الإنسانية الخلاص، فما عليها إلا أن تستجمع كل قواها وتروّض البهائم التي تغفو في المادة، والتي أيقظتها. إننا نوجد اليوم في اللحظة الحرجة بالضبط....

شاهدت، ألف مرة، في مدن عديدة، مراهقات يلصقن وجوههن بالواجهات وعيونهن ملأى بالاشتواء والطمع. غير أن المشهد نفسه ملأني بمرارة لا توصف، أمس، في شيفيلد، كانت هناك طفلة فقيرة تلصق وجهها الطفولي بواجهة مقصورة (ملحمة) زاخرة باللحوم. وكانت تنظر إلى أنواع اللحم وعيناها تلمعان بالرغبة. ويمكن لتلك اللحوم المريعة أن تتحول، بمعجزة تحويل سري، لتصير شعراً أشقر، ونهدين مكورين، وشفتين قرمزيتين... لكن أين ستجد تلك البنية الجائعة نقوداً، حتى تحاول تحقيق ذلك التبدل الإلهي؟ فتذوي الطفلة وتتغفن اللحوم ولا تتحقق المعجزة.

كان هناك فرح وحيد، غير متوقع، ينتظرني أول أمس في مانشستر: دخلت إلى المتحف... وفجأة توقفت. كان أمامي تمثال صيني رائع، منقوش في الخشب: كوانون، ربّة الرحمة. كانت تجلس جذابة، متربعة على ظهر أسد يجره خادم من زمامه. تبتسم، هادئة، طيبة، رحيمة. وتمكث مطمئنة، خارقة، وسط جلبة مانشستر الدخانية، منتظرة دورها.

فجأة تلاشى قلقي، إذ خيل إلي أنني رأيت، في تلك الربة الصغيرة، روح الإنسان ممطية الأسد الذي تحقق ترويضه أخيراً...

ذات يوم، روى جورج زوربا - زوربا الحقيقي وليس بطل الرواية - إلى «معلمه» كيف اندلعت الحرب العالمية الثانية في نظره:

قرأ بعض الشباب الطائشين كتباً وطنية متطرفة (شوفينية) فصاروا وطنيين، ثم قرأوا كتباً اشتراكية وصاروا اشتراكيين، ثم كتباً فوضوية فصاروا فوضويين. فصمّموا على القتل. لكن من يقتلون؟ لم يعرفوا.

سافر أحد هؤلاء المراهقين، واسمه برنسيب^(١)، إلى سارايفو، جلس على رصيف أحد المقاهي. فأسرع إليه النادل - ماذا يطلب سيدي؟ - أردت استشارتك: من أقتل حسب رأيك؟ الحاكم أم رئيس الأساقفة... لا أدري بالضبط. وأنت، ما رأيك؟ أليس من الأفضل قتل ولي العهد؟ سيأتي عما قريب.

- طيب، ليكن ولي العهد!

كمن برنسيب في طريق ولي العهد، مرّت العربّة أمامه. رمى بقنبلة. فأصابته العربّة. لكنها قتلت شخصين آخرين. فسأل برنسيب معلم مدرسة كان واقفاً إلى جانبه: - هل هو ولي العهد فعلاً؟ كلا، أجابه شماس، بل شخصان آخران.

عندئذ ذهب ولي العهد إلى الأسقفية لإقامة قدّاس شكراً للرب الذي أنقذ حياته، وبعد انتهاء القدّاس خرج ولي العهد من الأسقفية كي يعود إلى بيته. كان الوقت منتصف النهار وقد أحس بالجوع.

وهناك طريقان يؤديان إلى بيته. - نسلك الطريق الذي على اليمين، أم الذي على اليسار؟ سألّه السائس. - على اليمين! قال ولي العهد، لكن السائس لم يسمع - على

(١) «مبدأ» حرفياً (المترجم)

اليمن؟ سأل مرة أخرى، وقد أوقف العربية. ولقد أوقفها - هكذا وسوس الشيطان - أمام برنسيب بالضبط. فأخرج برنسيب مسدسه من جيبه... طلقة، طلقتان، ثم سقطت زوجة ولي العهد. - صوفي، صاح هذا الأخير، صوفي، عيشي من أجل أطفالنا! بُم! طلقة أخرى، وإذا بولي العهد هو الذي يسقط هذه المرة. ثم نُقلا إلى المقبرة. وعندما علم والد ولي العهد بالخبر - هل كان والده أم عمه؟ اغتاز وسل سيفه. وغضب أحد أقارب المرحوم أيضاً، وسل سيفه بدوره. ثم سل الجميع سيوفهم. وهكذا اندلعت الحرب الأوروبية، لتحل عليها اللعنة!

لتحل عليها اللعنة! لقد هاجمتنا للمرة الثانية، بينما كان نيكوس يتنزه بين الأعشاب الخضراء أو في جحيم انجلترا الصناعي. وحيداً، من دون زوربا ولذاعته المتبلة للقضية.

لقد دعتُه القنصلية البريطانية، فتمكن من التعرّف إلى عينات نادرة من الأرستقراطية البريطانية وعدد كبير من رجال الآداب والفنون والعلوم. كان يكره الجمود وحانت الفرصة كي يرى «روبن هود» الذي أخمده البذخ، يستيقظ من جديد.

لا يرغب الإنجليز في شن أية حرب هجومية. فما جدواها؟ ماذا ينقصهم؟ حتى أن شعارهم القديم «العمل قبل كل شيء» صار الآن مثلاً للشعوب التي تعيش الحرمان وتحاول الخروج منه. لكن، ها هو ذا الخطر قد لاح. ورأه الإنجليز فشددوا على نواجذهم وقبضاتهم، وشعروا أن الوقت قد حان للمراهنة على مصيرهم قليلاً، لكن ذلك هو إيقاعهم.

ودون مثلاً إنجليزيا أعجبه:

«لا يمكن للمرء أن يعبر الجسر قبل بلوغه».

- ماذا ستفعل إنجلترا؟ سأل كازنتزاكي شخصاً كان بجواره أثناء حفل استقبال نظمّه أحد اللوردات، على شرفات البرلمان.

- الثعالة^(١) الماكرة؟ سوف تتبع مصلحتها، أجاب البروفسور ضاحكاً. وتفعل ما فعلته دائماً، فتتحرك وفق مصلحتها.

(١) انثى الثعلب (المترجم).

- وما هي مصلحتها الآن؟

- الحرب!

وسقطت هذه الكلمة المريضة بيننا، قال نيكوس كازنتزاكي، مثل جثة.

- هل أنت خائف؟ سألني رفيقي عندما رأى بصري يغم.

- روح الإنسان لا تفرع بسهولة. بل تواجه الضرورة وتكف عن الخوف، لكن قلبي هو الخائف.

- أنا أيضاً خائف، قال رفيقي، لأنني أعرف ما تعنيه الحرب. لكنها ضرورية...
ابتسم البروفسور.

- هل يبدو لك ذلك غريباً؟ ألا تعرف أن الإنجليزي بشكل عام، وإنجلترا الرسمية بشكل خاص، لا يحبان البرامج الأيدولوجية والمبادئ الغامضة.

إنَّ «الحقيقة» عند الإنجليزي، لا تنتمي إلى المعرفة بل إلى الفعل. ونحن نعتبر أن الحقيقي هو كل شيء خصب، أي نافع للمجتمع. ولهذا يستغرب الأجانب رؤية إنجلترا مستعدة دائماً لعمليات خلط الأوراق ومصادقة عدو الأمس.

... إن إنجلترا تدرك ما تريد، وهي في هذه التعرجات الظاهرية، تتبع خطأ مستقيماً، خطأ واحداً: مصلحة إنجلترا. ولكن تصرف إنجلترا يتغير أيضاً مع تغير الواقع...

- سيأتي يوم، بلا شك، تكف فيه أخلاق الإنجليزي الفردية عن التطابق مع الأخلاق الرسمية لإنجلترا، وعندئذٍ؟

- الإنجليزي يلعب دور الذي لا يفهم، أجابني البروفسور. أو انه يشعر بالأسف لذلك ويحاول يائساً أن يقنع الآخرين - وأن يقنع نفسه في الدرجة الأولى - بأن سياسة بلاده شريفة، تمليها مصالح الإنسانية العليا، وتسير وفق الوصايا العشر. ذلك أن الإنجليزي لا يزال طهرانياً في العمق، ويعذبه شبح الأخلاق بطريقة واعية ولا واعية. عندئذٍ تبدأ الجهود المضنية لإيجاد المصالحة والتوافق. لكن العديد من الإنجليز - الأشد حساسية أو الأشد عنفاً - ينهضون ويحتجون ويدينون تدني الأخلاق. لذلك تجهد حكومتنا كي تغطي، بقناع الأخلاق، كل الأعمال اللا أخلاقية المجبرة على فعلها (مكرهة، لا تنسى ذلك) من أجل مصلحة إنجلترا العامة. ذلك أن حكومتنا تتعذب أيضاً، فهي متكونة من إنجليز أي من طهرانيين. وتخشى الصوت الداخلي كما تخشى الرأي العام.

وهكذا تنادي بالأخلاق صادقة. لذلك يصفوننا بأننا منافقون. ولو كنا أقل أخلاقاً لما كنا منافقين. هل فهمت؟

– فهمت جيداً، قلتُ، ويعجبني هذا التحليل النفسي. لكن هذه الحرب إذا نشبت؟
– سيكون الإنجليزي سعيداً، إذا سمحتُ لِنفسي بهذا القول، ومتصالحاً مع نفسه. لأنه، في هذه المرة، وبقبوله الحرب، يشعر بأنه كان على حق. فهو يدافع عن مصلحة وطنه، وعن مصالح العالم بأسره، في أن...

لم يُخَفِ نيكوس كازنتزاكي، في كتاب «إنجلترا» احترامه للطابع المدني بمعنى «حسّ المواطنة»، لدى الإنجليز. وقد تأثر بمشاهدة أغنياء يستضيفون العشرات من أبناء العمّال، ويهتمون بهم، أثناء عمليات إجلاء المدن.

عندما وصلنا إلى لندن أرا نيكوس أن يقدّم لي «أكريتاس» ورفاقه في المعركة، الحكماء والموسيقيين الذين سيراقدونه في مغامراته الأسطورية.

وأمام مدفأة لا تعمل إلا بالقطع النقدية، أطلعني نيكوس على عشرات المنمنمات الفارسية والعربية والهندية. ودلّني على التي سيستلهمها لتجسيد بطله أكريتاس ورفاقه.

وفيما بعد حدثني عن صفارات الإنذار التي دوّت في سماء لندن، وعن تخوفه من مستقبل العالم. وفي الغد ذهبنا إلى متحف لندن :

– انظري، قال لي، هذا المبنى الذي يضم المتحف، هو ملك تانتين. وقد عرضت علينا ابنة أختها الليدي ساندويش أن نذهب إلى ستراتدفورد لقضاء بضعة أسابيع في منزل سوزان، ابنة شكسبير، وهو منزل يعود إلى تانتين أيضاً. وسألتني الليدي ساندويش عن عدد الخدم الذين سنحتاج إليهم...

كنت أعرف المتحف البريطاني جيداً، وأردت أن أطلع نيكوس على الزوجين

الأتروريين^(١) الجالسين على قبرهما يتأملان العالم : «عندما نصبح أغنياء سوف
نقتني نسخة منهما!» صاح نيكوس مبتهجا «أتمنى أن أرانا جالسين أمام جبل
هيمات، وبحر سارونيك عند أقدامنا، ونحن نتأمل إلى الأبد».

لم يترك لنا هتلر فرصة زيارة اسكتلندا حيث كنا سننزل ضيفين على عالم
جليل. وعقد اطفاء الأنوار حياتنا في لندن. فلم نعد نقدر على تمييز بيتنا في راسل
سكوير. وحدث أن دخل نيكوس إلى بيت مجاور، وصعد الدرج حتى بلغ «بابه»
قبل أن ينتبه إلى خطئه.

– لنستقل الحافلة، اقترح نيكوس ذات يوم، أنها تمر أمام بابنا.

– وهل أنت متأكد من اتجاهها؟

– متأكد تماما، لأنني أتنقل فيها كل يوم. ثم التفت إلى جانبي :

– ساحة توت عنخ آمون، من فضلك.

– أسف ياسيدي! لا أعرفها!

وبعد ثالث محاولة فاشلة انفجر نيكوس ضاحكا :

– بل هي توتنهام كورت، يا عزيزتي، أسف لقد ذكرتني بـ ... وقهقهه من
جديد، بحثاً عن الشخص الذي سيعرفني بالسينمائيين الأسبان؟ ذهبت ليلاً،
ووجدت البيت بسهولة، طرقت الباب ففتحت عجز نصف صماء :

– السيد غودونوف، من فضلك.

– «أوستد» مخطيء. لا يوجد غودونوف هنا.

– أوكد لك أنني لم أخطيء، والسيد غودونوف ينتظرنني.

– أكرر إلى «أوستد» بأنه ما من غودونوف هنا!

ثم صفقت الباب في وجهي.

(١) نسبة إلى أتروريا التي كانت تقع قديماً غربي ايطاليا. (المترجم)

وكان نيكوس آنذاك يبحث عن بوريس... بوريبا.

كنت أحلم بأن أعيش حكاية من حكايات الجنيات من دون أن أعلم بأن تانتين ستمكننا من ذلك، في غير وقته، أي في الأيام التي بدأوا يقاتلون فيها آخر الأساطير.

كانت هولز كرفت أكثر من مسكن شكسبيري قديم، كانت متحفاً تحت تصرفنا، بكامله. فكنا نتنزه ونتناول طعامنا أمام مدافئ تشتعل فيها جذوع كاملة، عدة أيام.

وكان نيكوس يتخلّى عن وجبة الغداء ليكتب تراجيديا جديدة: «جوليان المارق» لكنه كان يحب التنزه على ضفة الأفون. حيث يسبح الأوز الأبيض، وتنبت الورود، أو في الازقة القديمة العائدة إلى القرون الوسطى، حيث يمكن مشاهدة أشخاص يشبهون أبطال روايات ديكنز، يتحدثون أمام عتبات بيوتهم.

وكان يعجب بالريف الإنجليزي وأبقاره الجميلة المبقعة بالأسود والأبيض. وكنا نزور مزارع الساده الانجليز الذين لا يتحصنون وراء أسوار عالية. وخلال إحدى تلك الزيارات توصلنا إلى الإعجاب بروح المواطنة لدى الإنجليز عندما يكونون في إنجلترا.

إذ كانوا يضعون صناديق ملأى بالبطاطا من أجل الأطفال النازحين، بينما يترك بعضهم سلالاً تمكّن الأطفال من نقل الثمار التي كتبت على صناديقها: «هذه الثمار مخصصة للأطفال».

وشاهدنا أمامنا صبيين صغيرين، في الخامسة والسادسة من العمر تقريباً، وقد ملأ جيوبهما بتفاح أحمر، كانا يتأهبان للذهاب عندما قرأ أكبرهما، بصوت عال، تلك الكتابة التي تقول: «هذا التفاح مخصص...»

– ليس من حقنا الأخذ من هذا التفاح! قال للأصغر. تعال، يا جون، لنفرغ جيوبنا!

سترتفورد أون أفون (سبتمبر ١٩٣٩) (١)

لا يوجد لوردات محظوظون وفقراء مثلنا. وها نحن أولاء في مركز الإعصار مرة أخرى، وفي أشد الأوقات حرجاً، وسط شعب مدهش، متمالك نفسه، وواثق منها، فلا ينسى كلمة السر التي زوده بها أحد شعرائه: «كن قوياً وتصرف كإنسان».

لاشك أن ايليني قد حدثتك عن نوعية البيت الذي نقطنه. إنه بيت يزخر بأشياء نادرة: تماثيل، لوحات، خزف، أسرة تاريخية... ويا لها من مدافئ! وفي هذه اللحظة تنتعل ايليني خفّين رائعين، وتضع شريطاً صغيراً على شعرها الذي غسلته لتوها، وها هي ذي تجلس على مقعد سلفي (لا يعود إلى أسلافنا «نحن») وتبدأ بحياكة ستر بصوف إنجليزي غليظ، توتّي اللون... وفي المدفأة الكبيرة تفرقع النار. إذ يحترق جذع شجرة وترقص ألسنة اللهب على الجدران والموائد الثمينة، وعلى جبیني الذي لم يسوده الدخان بل شمس إيجين. وأنا أكتب مسرحية - وأي شيء آخر أكتبه في ظل زميلي شكسبير؟ أكتب إذاً، تراجيديا شعرية. بينما العالم يعيش تراجيديا نارية... أنظر إلى نفسي من بعيد، كما من كوكب آخر، منكباً على الورق، مرصفاً كلمات، باحثاً عن إيقاعها، وساعياً إلى تجسيد أنفاسي قبل أن تنطفئ.

أحياناً ترفع ايليني رأسها، أثناء قراءة «التايمز» (وهذا شغفها) وتقول لي:

«هتلر... ستالين... هاليفاكس... - مَنْ؟ مَنْ؟ أصبح مذهولاً» فتدرك أنني لست بشرياً ولا تجيب. أو أنها تقول بشفتين مضمومتين: «لا شيء، لا شيء!» وتعود إلى الانغماس في صحيفة التايمز.

تلك هي حياتنا. معجزة غريبة، لا تصدق. وتتلأأ ايجين، طبعاً، وسط البحر. إنها نقطة الكون الثابتة. متى أعود إلى رؤية هذه الجزيرة؟ متى أتمكن من فتح نوافذ بيتنا لأحس بالبحر يصبغ أفكاري باللون الأزرق؟ الله وحده يعلم. وسوف ينفرج الوضع عاجلاً أو آجلاً. لم أعد أعرف ماذا أتمنى. كل شيء يلوح لي رائعاً في هذا العالم. لكن أليس فيه ما هو بشع؟ أقول لنفسي باندهاش. لا شيء؟ أشكر يا إلهي لأنك جعلت قلبي لا إنسانياً.

من أفضل «الأشياء» في هذا العالم، بلا شك، أنتِ وكاتي. وكثيراً ما نتنزه على ضفة

(١) رسالة إلى ماريكا بابايوانا، التي صارت بعد الزواج: السيدة خورموزيو.

الأفون حيث يمر الأوز الأبيض، فنقول: لو كانت مارिका وكاتي هنا! ونتنهد كلانا...

الريف المخملي الأخضر، التفاح الأحمر، الأوز الأبيض أو الأسود، أريج الورود الناعم، شكسبير والكنوز المتراكمة في بيت ابنته سوزان، معالم جمال أتت عليها الحرب. ومثل غيرنا تجندنا، لكننا كنا أعجز من أي وقت، بلا مورد، أجنيبين بين الأجانب. فكيف ننخرط في عمل مُجدٍ؟

وبعد استشارة نيكوس راسلتُ تانتين التي كانت في نيويورك. فإذا استطعنا البقاء في لندن شهرين أو ثلاثة أشهر أخرى، قد نجد حلاً للمشكلة.

لكن تانتين لم تجب. وصادر الجيش «هولز كروفت». فجمعنا أمتعتنا. رفض نيكوس التأخر في باريس، وتردد، مرّة أخرى، بين الممارسة - النزول إلى المعمة التي يطمح إليها فكره - والارتقاء في نهر الشعر العميق. ومن جديد رأيت بهيمة القيامة.

قبل الحرب كتب إلى صديقه الشاب، الكتبي ستاموس ديامنتاراس :

(يونيو ١٩٣٩) ساحة بدفورد، راسل سكوير...

... بدأ القلب يفيض، مرة أخرى، والصدر ينتفخ. ويتشكل «أكريتاس» في أحشائي مثل جنين فضيع. ينبغي أن أسافر! لم يبقَ أمامي وقت أضيّعه.

إن هدي ليس المجد، أو الشهرة، ولا حتّى الرفاهية والثروة المطمئنة - بل هو تحويل الطين إلى صرخة...

١٧ يوليو

بدأت هذه الرسالة منذ قرابة الشهر. وأكملها لأنني أفرح بمخاطبتك. إن السفر جميل، لكن ينبغي أن يمرّ مثل رؤيا، مثل حب سريع، أو جرعة نبيذ.

أتلّف إلى الارتقاء في أحضان الصمت من جديد، إنه ينبوع الإبداع الصارم.

شاهدت أشياء رائعة، تعرفت إلى عدد من الناس، شاهدت أحجاراً جديدة، جمعت غنيمة أخرى - سوف يظهر بعضها في «دفاتر الرحلات»، ثم في بعض أشعار حول «أكريتاس». ولا شيء أكثر. أوروبا لا تناسبني... والغنيمة في منتهى الفقر والهزال. أتطلع إلى الشرق، إلى التجوال على ضفاف دجلة والفرات، إلى تسلّق التيب، والسفر إلى

إفريقيا الوسطى. هناك يغفو الغنى المتنوع. هناك تفتظرنى ملايين الديدان فى الأعداق،
مثل الموز. يجب، يجب أن أذهب...

عندما وصلت إلى باريس جثوت أقبل التراب. وقلت فى نفسى إن الإله خلق
لندن، تلك العانس البريطانية، كي يجعلنا نحن تقدير هذه الفاتنة المغناج التى
تجيد الابتسام حتى فى الطوفان.

هنا أيضاً طبق قانون اطفاء الأنوار، لكن بما يحفظ جدارة الإنسان. ولا يسرع
رجال الشرطة لإطفاء قدأحتك قبل تمكّنك من إشعال سيجارة غولواز. وكان
الباريسيون على الرغم من أكاذيب الصحافة والإذاعة، واعين بالخطر، غير أن
مدينتهم ظلت تحتفظ ببهائها.

لقد سكنتنا، فيما بعد هذه المعضلة : هل نعلن باريس مدينة مفتوحة؟ أم
ينبغي التضحية بها إلى جانب روما وأثينا، مع عشر، أو عشرين، أو ألف
ستالينغراد، لبلوغ النصر ذات يوم؟

لقد رفض القلب متطلبات العقل العادل : أوروبا محترقة، مجزرة «أورادور»
كبرى - وبين الانقراض المدخنة بأجمل ما أبدع الإنسان، وعلى الأرض المنبسطة،
الخالية من الطيور والأعشاب، والسحب والسماء، كانت جثث بني البشر تتعفن
فى بشاعة...

صممت على البقاء فى باريس مهما كلف الثمن، والقيام بأي عمل حتى لا
أكتفى بالفرجة. وبعد عدة محاولات لم أحصل إلا على عرض بالذهاب إلى ألمانيا...
للتجسس على النازيين، كما ورد فى سخرية مدير الإذاعة الفرنسية آنذاك، وكان
جنراً لسيء الصيت.

١٩٤٠. بلغ نيكوس كازنتزاكي ٥٧ عاماً. وظلّ مستقيماً مثل منارة على جبل
إيجين، حادّ البصر، ناعم الشعر الذى بدأ يخفّ، رشيق الجسد والروح، متأهباً

لكل المجازفات.

عاف سياسة الكبار : «لعد ولجنا عصراً وسيطاً، سوف يدوم مائتي عام» - وظلّ متفائلاً مأسوياً، أي لم يكن متشائماً: «نعرف أن المستقبل ليس مرتهاً بنا، ومع ذلك علينا أن نتصرّف كما لو كان مرتهاً بنا» ومبشراً في الختام بـ «الإنسان خالق إله».

سلاماً، أيها الإنسان، يا ديك الصّباح!

إذا لم تصحّ، لن يطلع الصّباح! (١)

هكذا صاح متأكداً من وجود الصّباح لأنّ ضمير الإنسان موجود.

كانت «رائعته» (٢) قد تمت منذ ١٩٣٨. وبعد أن قلّصها نيكوس من ٤٢٠٠ إلى ٣٣٣٣٣ صار يتلذذ بالمرونة شبه الإعجازية لذلك الجيش العرمرم: ٣٣٣٣٣

وإذا كان قد استغرق أربعة عشر عاماً في تشكيل عوليسه «إنسان المستقبل»، فإنّ عوليس بدوره استغرق أربعة عشر عاماً كي يشكل كازنتزاكي المستقبل. وعندما قُطع الحبل السريّ، تقدّم رجلان ناضجان، يسيّران بيدين متشابكتين، نحو الهاوية. وسوف يكتمل تنافذ الحياة والموت بهدوء وكرامة، وعينين مفتوحتين. ذلك أنّ الثمرة الناضجة منذورة للتربة الندية التي سوف تستقبلها. كان يعرف ذلك. وهو سبب إضافي لتحويل كلّ شعاع من أشعة الشمس إلى لحم نابض.

كان مكتبه يشبه طاولة بائع كتب قديمة : كتب، دفاتر، بطاقات بريدية، ظروف معنونة تنتظر كتابة الرسائل الموجهة للأصدقاء، دفاتر مدرسية. - كان مهووساً بها - مخطوطات منجزة أو ناقصة، وبين كلّ ذلك، صحن منقوش من «سكوروبس»، وجفنة صغيرة من خشب أحمر وذهبي مصدرها «نيجني نفوغورود»، في الأولى، أقلام من كلّ الألوان والأحجام، وفي الثانية زبيب وجوز

(١) تقرير إلى غريكو، ص ٥٠٩

(٢) المقصود «الأوديسة» والارقام تتعلق بعدد أبياتها الشعرية (المترجم).

ولوز. ذلك أن نيكوس كان يكره اللحم ويفضل قضم ثمار طفولته. وفي أحد مخابىء مكتبه يخفي أحياناً قطع البسكوت المصنوع بالزيت والقرفة، أو حبات تين بين أوراق الغار.

وكان يحتفظ ببعض الكنوز في علب صفيح، مثل الراتنج البلسمي الذي كان يسحقه بأصابعه ليعطّر الغرفة، ومَدرة التربة الكريتية، والمقصات، والكلاّبات، وشفرات الحلاقة، والكثير من القناني الصغيرة الفارغة أو المملوءة بزيوت نباتات مستجلبة، والمماحي، والأزرار، والنظارات القديمة... ومازالت إحدى تلك العلب تعطّر خزانتي، مملوءة بالقرفة وأكبّاش القرنفل وجوز الطيب.

أمامه، وإلى الجهة اليمنى، لفّة كاكيمونو» عمرها ستة قرون، وتمثال ياباني لبوذا، ومُنمنمة من القرن السابع عشر تمثل فارساً فتاكاً تحت ضوء القمر. وإلى اليسار مجموعة أيقونات ضئيلة القيمة تحيط بمسيح مصلوب. إذ كان نيكوس يهب أجمل تلك الأيقونات إلى الزوّار الذين يعزّهم.

وراءه، علّقت على المكتبة لوحتان منقولتان عن لوحة «سان فرنسوا» للرسام جيوتو، وأخرى عن لوحة تمثل دانتى. وفوق المكتبة صورتان لمريم العذراء، إحداهما من جبل سيناء، والثانية من جبل أثوس، وقد نقلهما تقليداً للأصل، كلّ من كالموك وكوندوغلو^(١). وفوق سلّم ذلك البرج العاجي صورة «بورترية» تمثل إلسا ذات الشفتين المكتنزتين...

«أكريتاس»، و «والدي» سبورتان في شكل روائي خُصّصتا للنشر ضمن حلقات، وأناشيد جديدة، وكتابان للشباب، أعمال لم تُهدىء طاقة ذلك الحطّاب من عصر البرونز. ومنذ إقامته في ستراتفورد بات شكسبير هو النمر الذي يقلقه.

— أرغب في ترجمة إحدى مسرحيات شكسبير. لكن، أية مسرحية؟ قبل تحديدها يتوجب علينا أن نقرأ كلّ ما ترجم له...

فطلب نيكوس من ديامنتاراس أن يمده :

(١) فوتيس كوندوغلو، كاتب ممتاز ومؤرخ للقديسين.

... أرجو أن تمدني بـ «هاملت» ترجمة روتا، وكذلك «الملك لير»، و «روميو وجولييت» بترجمة كارثايوس.

وأضاف :

صحتي جيدة، أعمل كثيراً. وأتأمل خارطة العالم بحثاً عن مكان أسافر إليه. الهند تغريني كثيراً، فهل أتمكن من زيارتها ذات يوم؟ «هوزاين بيرويت»!

هوزاين بيرويت! لقد روى ستاموس ديامنتراس الذي ولد في روسيا، حكاية خباز طفولته الذي كان يعمل ويكد طيلة شهر من دون انقطاع أو راحة، إلى أن تملكه شيطان المتعة ويمسك به من عنقه... فيرمي بأدوات العمل، ويطفيء فرنه، ويذهب للاحتفال بعد أن يعلق على باب مخبزه كتابة تقول : «هوزاين بيرويت» : المالك يتسلى.

أنسى المخبزة التي فتحتها والخبز الذي عجنته. أخطأ أنا أيضاً، بحروف حمراء كبيرة هوزاين بيرويت وأعلقها على الباب، لأعيش كما أشاء. أضحك، أستخدم كلمات فظة، أحيي أمواتاً أحبهم، أعزف الكمنجات والنايات الداخلية.

أه! فلا تسأل قليلاً، أنا أيضاً! ليبتسم ثغري، ولتُشخّ روحى عن الهاوية، ولو للحظة واحدة، ولتنظر إلى العالم من فوق، أخضر، مطرّزاً بالبشر والأشجار والحشرات والممالك، ولتتمرّغ بدورها مثل جحش على عشب الربيع الأخضر. وعندما استريح، أعود إلى فتح مخبزتي، أشعل نيران الفرن، وأواجه الهاوية.

في مقدّمة الكتاب اليونانيين النادرين الذين يحبّون أعمال كارنتزاكي، يوجد ج.م. بانايوتوبولوس. وكان يدافع عن اللغة اليونانية الحديثة، ويحبّ السفر، ويعمل أستاذاً ومديراً في المدارس الثانوية. لكنه يجد متسعاً من الوقت لكتابة سلسلة حلقات أدبية. كان قصير القامة، أسود الشعر والعينين، كثير الضحك، حسن الضيافة، ويحبّ كارنتزاكي الأكبر منه سناً، ولا يخشى التصريح بذلك. أما نيكوس كارنتزاكي فكان يعامله بالمثل ويعتبره أحد «حرّاس الأوديسة».

إيجين، ٣ مارس ١٩٤٠ (١)

أشكرك على رسالتك وأعتذر عن التأخر في الردّ. فأنا غارق في بحر [الجبر].

تلقيت المقيالتين النقديتين اللتين كتبهما باناياتوبولوس، وسعدت بطريقته الذكية في الحديث عن الرقم ٣٣٣٣٣. إن الأوديسة» الآن تعيش حياتها المستقلة بعد قطع الحبل السري. صارت كياناً حرّاً، فلا تحتاج إليّ، ولا أحتاج إليها. وعليها أن تواجه إله الزمن الذي يلتهم أبناءه، وحيدة، ولتبقَ إذا استطاعت. أمّا أنا فلم أعد أتدخل...

أنجز نيكوس كتاب «انجلترا». وظلّ «والدي» في طور الحمل. كان كلّ شيء جاهزاً وكامناً، لكن لمعة البداية لم تأت. وربما كانت اللغة الفرنسية هي السبب :

إذ قرّر كازنتزاكي تأليف الكتاب باللغة الفرنسية التي يجيدها لكتابة أي موضوع، وربما باستثناء كريت. إذ يحتاج إلى أداة الأسلاف، تلك اللغة ذات النفس الطويل والأصوات الحلقية وإيقاع الأمواج الإفريقية. عجيب أمر الشعب الذي يضيق بلغته ويسعى إلى توسيعها بإضافة حروف علة إلى بعض الكلمات، أو استبدال صيغة المؤنث بصيغة المذكر لتصير الكلمة أكثر فحولة... (٢)

صار نيكوس يتلهف للعودة إلى كريت من أجل تنشيط ذاكرته، كما أوضح، وكأنه يعتذر، «ليس في ما يخصّ الناس، فأنا أتذكر كل التفاصيل المتعلقة بهم، بل من أجل رؤية الأمكنة من جديد... ووطء أرض أجدادي...»

تشانيا، ٩ أبريل ١٩٤٠ (٣)

... تشانيا تعيش حالة رعب وفوضى بعد الإعلان عن احتلال الألمان للدانمارك. والجميع يقولون بصوت واحد: «إنهم يستأهلون ذلك لأنهم [الشماليون] تصرفوا مثل الجبناء عندما رفضوا نجدة فنلندا!» أما أنا فراض بالحسّ الكريتي السليم. وأشعر بالقلق من سفرك (٤) في أوقات عصيبة. وأعتقد أنّ مرحلة جديدة من الحرب قد بدأت،

(١) رسالة إلى ستاموس ديامنتراس.

(٢) أمثلة على ذلك: باليونانية تو بوذي (الرّجل، الساق) بالكريتية أو بوزاش، وكذلك توخييري (اليد) تصير بالكريتية «إي خيار»، وتوماتي (العين) تصير بالكريتية «تو أماتي».

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٤) توجّب عليّ السفر آنذاك إلى باريس و «سالي دي بيارن».

وهي أكثر كثافة وخطراً...

تشانيا جذابة - أزقة ضيقة، دكاكين تركية، نخيل، شواطئ، صخور، أناس أذكىاء،
جوامع، برتقال، قلق واهتمام إزاء المشاكل الدولية، حس سليم، ضجر ريفي، نساء
بديئات، أغاني تكرر «أمان، أمان» ورائحة لا تطاق من زيت القلي في الحانات...

كاندانوس سيلينو، ١٤ أبريل ١٩٤٠ (١)

عزيزتي ماريكا،

حبستني الأمطار هنا في كاندانوس (٢)، في الوقت الذي كنت أتهيا للذهاب إلى أومالوس
ومنها إلى سفاكيا. عاصفة قوية ليلاً، ومطر غزير منذ الصباح. أسمع صفيح الريح وأبتل
برذاذ المطر المتسلل من النافذة التالفة، مستلقياً على سرير هش في فندق صغير بائس.
لا بد من الصبر لأن الله وحده يعلم متى تعود الشمس وتفتح الطرقات... جئت أمس إلى
هنا، إلى بانايا خريسوسكالييتسا، في أقصى الغرب الكريتي، حيث قضيت ساعات رائعة
مع الراهب الهرم غريغوار وراهباته الأربع (إحداهن جميلة جداً، شابة، كثيبة، وتنشد
التراتيل بشغف).

سرت كثيراً وعلى ظهري جراب جبلي ثقيل... كنت وحدي وتُت، فجاء بعض الرعاية
وسألوني قلقين «ماذا حدث للنرويج؟». أما الآن فقد عرقلتني الأمطار ولا أعرف متى
أواصل طريقي... كان يُفترض أن أكون في ... «أماري» حيث أقيم بضعة أيام، أملاً أن
تلتحقي بي، ثم نذهب إلى فايستوس، عند صديقي خاريلاوس، للاحتفال بعيد الفصح.

سفر إيليني، أمس، السبت. أرجو أن تراسليني وتخبريني كيف جرت الأمور. إن
كريت تثير مشاعري... لكنني أشعر بالضيق والمرارة كثيراً. ويبدو لي الضحك هو صمام
الأمان الوحيد، فإذا لم أضحك، أختنق، وأرغب في الموت.

لم أحمل معي سوى كتاب دانتى و «سونيتات» شكسبير. ولن أطلع غيرهما، طوال
النهار، لطرد العاصفة، لكن قلبي لا يجد إلى العزاء سبيلاً. إنه لا يكتفي بشبح من
لحم...

(١) رسالة إلى ماريكا بابايوانو.

(٢) شهدت كاندانوس مجزرة نازية شبيهة بمجزرة أورادور (في فرنسا).

دير توبلو، السبت (١)

... لن أنسى الأيام التسعة التي قضيناها معاً. كان كل شيء رائعاً، مفعماً بالفرح والعذوبة والقوة. قبل مجيئك كانت مسيرتي قاسية، لا إنسانية مفتقرة للعذوبة. ولدى افتراقنا في لاسيئي تأثرت كثيراً لكنني تماكنت نفسي وحاولت الضحك كي أتوصل إلى احتواء قلبي الطافح.

توبلو دير معروف يوجد في الطرف الشرقي من جزيرة كريت، بين جبال بدائية. وفيه أيقونات رائعة. ويحزنني أنك قد لا ترينه أبداً... لكن الحياة طيبة بشكل غير متوقع... من يدري؟ ربما سرنا معاً مرة أخرى، على دروب المرتفعات الكريتيّة...

أخبريني إذا تلقيت رسالة من ايليني... أخشى ألا أراها مجدداً. الأوضاع السياسية محملة بالخطر، ولا أحد يعلم إذا كانت تستطيع العودة. تسود كريت كلها عندما أفكر في ذلك الجسد الضعيف، المحبوب...

قبل الحرب العالمية الثانية، لم يكن الكتاب اليونانيون البارزون يكسبون شيئاً من كتاباتهم تقريباً. وكان كازنتزاكي المنعزل في إيجين يهب كتبه للناشرين أكثر مما يبيعهها. وحتى عندما يبيعهها يتضايق من المطالبة بحقوقه:

إيجين، ٢ أكتوبر ١٩٤٠ (٢)

عزيزي ستاموس

... أكملتُ روايتي عن كريت، وجاءت في حوالي خمسمائة صفحة، لكن باللغة الفرنسية. هذا ما اضطررت إليه، أنا، عاشق لغتنا المتحمّس؛ الكتابة بلغة أجنبية: ففي اليونان ليس لي ناشر واحد، أما خارجها فلدي ثلاثة...

هذا الصباح كتبت نشيداً قصيراً عن دراغوميس (٣). وأنوي أن أبدأ غداً بكتابة تراجيديا صينية، جاهزة في ذهني... (٤) لا أستطيع التوقف عن العمل لحظة واحدة لأنني أشعر بالاختناق وأخالني أموت.

وكتبت إلى س. ديامنتاراس أيضاً، يوم ٧ أكتوبر ١٩٤٠ :

(١) رسالة إلى ماريكا بابايوانو.

(٢) رسالة إلى ستاموس ديامنتاراس.

(٣) ايون دراغوميس كان وطنياً متحمساً، وكاتباً، وصديقاً لنيكوس كازنتزاكي. قتله اتباع فينيزيلوس انتقاماً.

(٤) يانغ-تسي، وهي مسرحية صدرت بعنوان «بوذا».

... أما بخصوص كتاب «اليابان» فقد أخبرني [السيد] ث. بأن بيرسوس [الناشر] سوف يسدد لي المبلغ حالما يسترجع التكاليف. أما إذا نسي فأرجو ألا تذكره بذلك.

فهل يمكن تفسير ذلك الاستسلام للانخداع، بنزعة قداسة كامنة؟ لا أعتقد. ذلك أن الدفاع عن الحقوق يتطلب خوض صراع، مما يؤدي إلى إضاعة الوقت والروح. والحال أن الوقت، هو من الروح، كما كان نيكوس يكرر بإعجاب Time is soul. والأفضل أن يخسر ما تبقى ويربح الوقت والروح.

كيف كان ذلك الرجل الذي لم ينفك مسكوناً بمزاج والده العكر، وقداسة أمه الصارمة - يتوصل إلى تحقيق التوازن الذي يمكنه من التنفس على إيقاع أشعاره، وضبطها، وفق الحركة المستمرة للكواكب، وإيقاع البحر النّزق، والأشعة الشمسية في تناوبها مع الظلمات، تناوب الشفق الأخضر المزرق والغسق المائل إلى الزرقة؟

عندما أذكر إيجين ورَعْن^(١) جبلنا، أدهش بدوري للطمأنينة الدائمة سواء وقت المدّ أو وقت الجزر. كان رجلاً بسيطاً في تعقيداته، يكرس النهار للعمل، والليل للنوم، ويهرع إلى مخطوطاته حالما يستيقظ من النوم، ويكفي أن يمسك بقلمه ويتمتع بالهدوء حتى يكف عن التطلع إلى أي شيء آخر. كان صفاءه يوشحنا فيحميننا من عصف العالم الخارجي...

كان الأرق يصيبني أحياناً فيلعب نيكوس - شهرزاد دور الدواء المنوم. ويروي لي، كلّ شيء، كلّ ليلة، حكاية جديدة، متأتية من طفولته دائماً، مع خلفية كريتيّة. وكنت أفضل حكاية «الجيران» التي تتعاقب أحداثها كلّ ليلة :

- إلى أين وصلنا إذاً، يا لينوتشكا؟

- وصلنا إلى طقطقة درجات السلم ووثوب والد الفتاة العائرة من فراشه...

- نزل من السلم قافزاً فوق درجاته وأمسك بابنته من جدائلها... يتابع نيكوس الحكاية لفترة طويلة.

(١) رَعْن الجبل أو شِناخُه: الجزء الخارج منه والداخل في البحر. (المترجم)

فندخل بالتناوب، متسللين مثل سارقين، إلى بيت «الجيران» العتيد، ونفاجئهم يصلون، أو يحسبون نقودهم، أو يرأسلون القيصر وملكة ألمانيا، بأسلوب مؤثر، حتى يسرعا إلى نجدة كريت المسيحية...

وعندما أبدأ بالنعاس يخفض نيكوس صوته ويربّت على كفي الممدودة، فلا يتوقف إلا مع انتظام أنفاسي التي تدل على استغراقي في النوم.

حلّ الخريف وهجم موسوليني على اليونان. ما من أسلحة، أو ذخيرة، أو قيادة عسكرية. وقاتل جنودنا المشاة في شمال ايبيرو، حيث استفحلت حالات تجمّد الأقدام والسيقان. وكان الحلّ السريع هو بترها عوض معالجتها^(١) وفي مجال الطيران الحربي لم تكن اليونان تملك سوى ١٦ طائرة عسكرية مقاتلة، و٢٦ طائرة مطاردة. وقد أدان الجنرال باباغوس، في مذكراته، تلك الحالة المزرية لعتادنا الحربي: «معظم طائراتنا من طراز قديم فلا تسرع أكثر من ١٢٠ كلم في الساعة! أما الأسلحة والذخائر التي أمدّنا بها حلفاؤنا فكانت من الرداءة بحيث تتفجر بين أيدي الجنود الذين يعالجونها...» وعلى الرغم من تلك النقائص، وكذلك ميول هيئة الأركان الجرمانية، تحت حكم الدكتاتورية في اليونان، استطاع الجيش اليوناني نقل الجبهة إلى عمق ٦٠ كلم بعد الحدود الألبانية، من بوغرادتس إلى خيمارا. فلماذا منعت قيادة الأركان جيشنا من الاستيلاء على ميناء فالونا؟ لا أحد يعرف...

وكفّت السفن عن الربط بين بيري وإيجين فاضطّررنا إلى التزامم داخل مراكب سيئة ذات محركات بالية ومتعفنة، تتعطل بخاصة مع اضطراب البحر.

ولقد اضطررتُ للذهاب إلى أثينا فظلّ نيكوس وحيداً، قلقاً في إيجين.

(١) عملت أختي الكبرى ممرضة متطوعة أثناء الحرب وفقدت صوابها من رؤية عشرات الجنود الذين بُترت سيقانهم.

(نهاية) نوفمبر ١٩٤٠ (١)

عزيزتي (٢) تولبييتسا (٣).

ما أن غادرتِ حتى أعلن عن سقوط كوريتسا (٤). تملكني فرح عارم...

هذا الصباح شاهدت كالموك يرفع العلم اليوناني على شرفته... أمل أن تكوني قد وصلت سالمة على متن «البنزين» (٥). بدأت أحصي الأيام، وفيما بعد سوف أبدأ بعد الساعات. أرجو أن تذهبي إلي بيرسوس. وحاولي التوصل إلى تسوية: لابد من الموافقة على صدور الكتاب قبل عيد الميلاد... (٦)

٧ ديسمبر ١٩٤٠ (٧)

عزيزتي (٨) تولبييتسا،

... بالنسبة لتصحيح أخطاء [الكتاب] «انجلترا» أنتِ على حق. افعلي ذلك ما دمت موجودة هناك. راسلت غانياريس طالباً منه أن يضيف الجملة التالية فوق الإهداء إذا وافقت الرقابة :

لِيُعْتَبَر هذا الكتاب بمثابة صرخة،

صرخة الفكرة العظيمة الجديدة :

أن تتحد اليونان مع انجلترا.

حلمت قبل البارحة بالسا، أخشى أن يكون قد أصابها مكروه، والبارحة رأيت دوسلدورف تقصف بوحشية...

من المفارقة أن نيكوس كازنتزاكي اتخذ إزاء اليونان فكرة مماثلة لفكرة تشرشل تجاه فرنسا: الاتحاد مع بريطانيا كي لا تظل اليونان معزولة في مكافحة

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) بالانجليزية في الأصل Dear (المترجم).

(٣) انظر تولبا Tulpas لالكسندرا ديفيد-نيل : والمقصود كائنات يتوصل أهل التبت إلى خلقها بالفكر فتقوم على خدمتهم.

(٤) سقطت كوريتسا يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٤٠.

(٥) هكذا كنا ندعو المراكب الشراعية المزودة بمحركات.

(٦) كتاب «انجلترا» الذي صدر عن منشورات بيرسوس، أثينا، سنة ١٩٤١.

(٧) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٨) بالانجليزية في الأصل (المترجم).

البرابرة. لكن الرقابة تدخلت ولم يعلم أحد بتلك الفكرة، مما وفر على نيكوس استهزاء الآخرين به، إثر التدخل العسكري البريطاني في اليونان، لاحقاً...

إذا كانت إنجلترا لم تتردد في تحريك أسطولها ومحاصرة اليونان دفاعاً عن مصالح شخص واحد من مواطنيها^(١) فكيف تتردد في الإسراع إلى نجدة حليف صار عضواً في الكومنولث؟ ربما كان ذلك هو تحليل نيكوس، المثالي، دائماً، والذي كثيراً ما ينسى الدوافع الدنيئة وراء بعض التحركات.

مرّت أعوام وأعوام من دون أن يلتقي سيكليانوس وكازنتزاكي. وكانا يعملان بلا انقطاع، ويعبران - حسب اعتقادي على الأقل - عن رغبة متبادلة في الالتقاء مجدداً، من دون أن يبادر أحدهما إلى ذلك.

وجاء اليوم الذي التقيت فيه سيكليانوس في أحد جبال البيلوبونيز، ما بين نباتات الزعتر و«السيسست»، ويده في يد أنا التي كنت أعرفها منذ أيام المدرسة. وكانا يشعان بعلامات السعادة.

- هل تعتقد أن نيكوس يوافق على الذهاب معي إلى إيبيروس؟

فوثب نيكوس على الفرصة السعيدة :

إيجين ، ٢٧ ديسمبر ١٩٤٠

أخي العزيز ،

أنا مستعد إلى مرافقتك حيث تشاء. وإنها لفرحة عظيمة أن تدوي ضحكاتنا معاً، مرة أخرى...

ولأسباب مجهولة، لم يردّ سيكليانوس... وبعد مرور بضعة أشهر حدّثنا

(١) في عيد الفصح سنة ١٨٤٩، حدث تفاهم بين شرطة أثينا والجمهور، أدّى إلى نهب منزل ديفيد باسيفيكو، أصيل جبل طارق، الذي أقيل من منصبه كقنصل برتغالي بسبب قلة أمانته. فاستغلّ جنسيته البريطانية التي حصل عليها حديثاً، وانتهب بالخصوص معاداة باركر، البريطاني الأول، لحكومة اليونان آنذاك لاتهامها «بحبّ فرنسا» فطالب بتعويضات مُبالغ فيها تصل قيمتها إلى ٨٨٦,٧٣٦,٦٧ دراخما ذهبية.

حاصرت بريطانيا اليونان التي اضطرت على سبيل الكفالة، إلى دفع مبلغ ٤٣٠,٠٠٠ دراخما ذهبية. بعد عامين من الأخذ والردّ، والوساطة، وإثر تقديرات قامت بها لجنة إنجليزية - فرنسية مشتركة - في أول حالة تحكيم دولية - دفعت اليونان مبلغ ٣٧٠٠ دراخما ذهبية إلى ديفيد باسيفيكو. وأغلق ملف تلك القضية الكثيرة.

فاسانوس وكان يعمل سائساً في ايجين، عن سيكليانوس:

– سيدي نيكوس، مساء أمس أمرني السيد سيكليانوس أن أوصله إلى بيتك.
وما أن وصلنا أمام الباب حتى رفض الدخول وأمرني بالعودة...

بعد هدوء خادع، ثارت البحار والرياح وتملك نيكوس هيجانٌ غير متوقع قبل
بضع دقائق وبالرغم من هدوئه واسترخائه، في الطقس الجميل، كما في الطقس
الرديء، صار يهتزُّ مثل فليينة فوق الأمواج. توترتُ بدوري وانزلقتُ لأنني
حاولت بعناد، أن أواجه العنصر العدواني الثائر. التهب منخراي من الملح
البحري، فألصقتُ أنفي بالزجاج المغشى بالبخار، حاملة بهواء نقّي أعرفه جيداً،
وهو خليط من تضوع العسل والرائنج. فأدرك صديقي حقيقة أفكارِي، ومع أول
وابل مصحوب بالبرد في شهر مارس، غادرنا صخرتنا في زيارة قصيرة إلى أتيك.

وكان ينتظرنا بردٌ قارس في كيفيسياً. فلم نتمكن من إعادة جولتنا الأولى،
جولة الخطوبة. ومكثنا قرب المدفأة بصحبة بعض الأصدقاء المبتهجين بوجود
كازنتزاكي من دون عبور البحر. الأصدقاء القدامى، والأصدقاء الجدد الذين
جاؤوا للامسة «الوحش».

أحياناً تندلع شرارة فيعلو الضحك وتنشرح القلوب... وأحياناً يصعب
التواصل، كما في حالة الأستاذ الفرنسي روجيه ميلياكس وزوجته الشابة تاتيانا
غريتسي، تلك المرأة الجميلة ذات العينين اللازورديتين، والقامة المشوقة،
والبشرة السمراء مثل زيتونة. وكانا أديبين جيّدين وزوجين ناجحين، وحليفين
رائعين. ويعجبهما من الكتاب شارل بيغي وكافافي وسيكليانوس. وما همّ إذا كان
نيكوس لا يلامس شغاف قلبيهما؟ المهمّ أنهما كانا يلامسان شغاف قلب
نيكوس. إذ أنه وجد نفسه أمام زوجين «أصيلين» كما يشتهي.

إثر العودة إلى ايجين، أحال كازنتزاكي مخطوطة «والدي» على أحد الأدرج،
لأنه لم يرض عن صياغتها. وسعى إلى التخلص، بعض الوقت، من الهموم المالية

بإنجاز روايتين متسلسلتين للنشر في الجرائد، كما أضاف بعض التنقيحات على مخطوطة «أكريتاس»، وترجم «عطيل» عن الإنجليزية، شعراً. وراجع الصياغة النهائية لـ: «الكوميديا الإلهية»، ثم كتب مسرحية جديدة، توخى فيها النشر الإيقاعي، بعنوان «يانغ - تسي» وهي المسرحية التي مدحها لي قائلاً:

- اقرأي، يا عزيزتي! إنها أفضل وأصعب مسرحية كتبتها. أه، لو كان عندنا جان لوي بارو ليتعامل معها! أنا متيقن من جودتها، إنها تشبه الأيقونات التي نحبها، وتدور على مستويين: في الأسفل، هناك الأرض والتاريخ الأرضي، وفي الأعلى، توجد السماء والتاريخ الماورائي... أنتظر رأيك حتى أعرف قيمة ما كتبت.

- مسرحيات، مسرحيات جميلة جداً، همست متضايقاً بعض الشيء. تعرف جيداً أنني أحبها... لكن ألا تستطيع، حتى وإن كان ذلك لإرضائي، كتابة عُشر حكاية «الجيران»؟ أو جزء من مئة، من «زوربا» الرهيب؟

- الرواية تتطلب مني إيقاعاً مختلفاً عن إيقاعي الراهن. لا أملك الصبر الضروري.

- بل عندك أكثر مما تصور. ويكفي أن تنكبّ على العمل.

- أتقدم بوثبات متقطعة، لقد ولدتُ كاتباً مسرحياً. ولن أتمكن أبداً من الكتابة على غرار «أنا كارينينا».

كان نيكوس يشكُّ في قدراته الروائية. لكن المستقبل سوف يكذّبه.

طوال الليلة الفاصلة بين ٢٦ و ٢٧ أبريل ١٩٤١، تابعنا، مع كاتي وماريكا، خلف ستائر النوافذ المغلقة، رحيل حلفائنا تتعقبهم المصفحات النازية، وحاولنا إنقاذ الحلفاء الذين أخفيهم في منازل الأصدقاء، فجبنا السفارات مع يانس مانغليس. ولم يقبل أحد بأن يسلمهم بعض الوثائق التي تيسر لنا ترحيلهم إلى تركيا، أو لبنان، أو مصر.

خلال اليوم الأول من قدوم الألمان، يوم ٢٧ إبريل الذي صادف يوم أحد مشمس، ظلّ سگان أثينا معتصمين ببيوتهم. ولم تحدث حالات انتحار مشهودة كما حصل مع الجراح الشهير مارتال في باريس. وخرج الجمهور في الغد، من باب الفضول، كي يرى، فرأى نازيين في دكاكين الحلويات يتناولون الكعك والحليب إلى حدّ التخمّة. وكان النادل في محلّ «زونار» يصيح: «ثلاثة أكواب من شراب الشوكولاته... خمسة بقلّادة... خمسة حليب...» ولحسن الحظّ أن اللعبة انتهت قبل بدء الانتقام.

يوم ١٥ مايو تلقيتُ رسالة من نيكوس الذي كان يوجد في إيجين:

حبيبتي لينوتشكا

.... أرجوك ألا تقلقي بخصوص المستقبل^(١). وربما لن يكون له وجود. هنا صارت منطقتنا، خطرة، خلال الأيام الأخيرة من الحرب: قنابل قرب حانة ماريني - كاد يُقتل - أصوات رشاشات على بعد أمتار من بيتنا. شاهدت الطائرات تمرّ فوق رأسي، وشعرت بكلّ شيء مشدوداً بخيط واهن، أفكر في مغادرة هذه الأرض عما قريب، وها أنذا أنتظر بهدوء، واستعداد تام. فلا تفكّري في المستقبل، ولنحاول العيش بأعصاب هادئة خلال هذه اللحظات الفظيعة التي تمرّ بها الإنسانية، ونحن أيضاً، بالضرورة. لابدّ من التجمّل بالصبر والحبّ كي نتمكن من العيش بكرامة في هذا الزمن الحرج. وأنا متيقن من امتلاكنا لهاتين الخصلتين الضرورتين. أمل أن تتحلّي بهما، أنت أيضاً، ففي مثل هذه الأوقات تتجلّى قيمة الإنسان.

أفتقدك كثيراً. ولم أعد قادراً على فراقك. أنك نفسي كثيراً... تعالي!

عدتُ بسرعة لأكون بجانب نيكوس، وشاهدت ظلال قاذفات القنابل الألمانية ترتسم على حقولنا مثل وحوش قيامية. وسمعت أزيز المحركات القاتلة. وهمهم نيكوس:

- الأرض تثير فرحة الحياة بينما البشر يسعون فيها مجدّين لزرع الموت...
ماذا بوسعنا أن نفعل لوقف هذه المذبحة؟

(١) كنا نتمنى الذهاب مع يانيس مانغليس إلى مافي أو كريت ظناً منا أن الجزيرة لن تسقط!

وتجددت المأساة التي حدثت في شمال اليونان، مرة أخرى، في آخر معتقل أوروبي ظلّ حراً.

لم يكن تحت تصرف الجنرال الإنجليزي فريبيرغ، قائد كريت العسكري، سوى ٣٦ طائرة، يوم ١٠ مايو. وخوفاً من إصابة طائراته التي كانت من طراز «لوفتويغ» بقصف مكثف، أجلاها إلى مصر. وهكذا حلّ يوم ٢٠ مايو الذي نزل فيه أول المظليين الألمان، ولم يبقَ في كريت إلا ٨ طائرات ومدفع واحد مضاد للطائرات.

أما الرجال، من بريطانيين ويونانيين، فكانوا مجردين من الأسلحة والذخائر، فدافع كلٌّ حسب إمكاناته، وساعدهم السكان المدنيون الذين دخلوا المعركة بالسكاكين والهرافات. ومن أصل ١٦٠٠٠ مظلي من الذين انتخبهم هتلر ودرّبهم تدريباً خاصاً لغزو إنجلترا، اضطر ٧٠٠٠ إلى «عضّ التراب» بتعبير عجائز كريت اللائي شاركن في المعركة متحسرات «يا للجمال الذي سيأكله التراب! وكم أمّ ألمانية ستبكي ابنها فريتز!» وفيما بعد تحدث أحد الناجين، بأعجوبة، من فصيلة الإعدام، فلم يُخفِ دهشته وإعجابه إثر تلاشي الحقد: «أمرونا بدفنهم، هناك، قرب البحر... لكن القبور التي حفرناها كانت ضيقة جداً، قسناها على أحجامنا ثم حاولنا نقلهم، يا إلهي! كانوا بثقل الحجارة! وصعب علينا رفعهم» ثم روى لنا الإجراءات الانتقامية التي طبقت في كريت المسكينة.

ذات يوم بعد توقف المعارك في كريت، اختفى العلم النازي من فوق الأكروبول. فدبّ الهلع في حكومة الكيسلنغ، واستشاط المحتلون غيظاً. وفي صباح ٣١ مايو قرأ سكان أثينا إعلان القيادة النازية على الجدران^(١):

«١ - قام مجهولون خلال الليلة الفاصلة بين ٣٠ و ٣١ مايو باقتلاع علم الحرب الألماني الذي كان يخفق فوق الأكروبول. وسوف يعاقب المذنّبون والمتواطئون بالإعدام».

(١) ذ. غاتوبولوس : «الشعب يبدأ المقاومة».

«٢- مازالت الصحافة والرأي العام... يعبران عن تعاطفهما الواضح مع الإنجليز المدحورين من اليونان».

«٣- أحداث كريت والفضاعات التي مورست ضد مساجين ألمان (هكذا!) لم تثر الاستنكار بل استُقبلت بالرضا».

«٤- برغم الحظر الصارم، جرت عدة تظاهرات متعاطفة مع المعتقلين الإنجليز (تقديم هدايا، زهور، فواكه، سجائر، الخ.)

«٥- صار سلوك أوسع الدوائر، في مدينة أثينا أكثر عداء للقوات المسلحة الألمانية»... وأعلن منع التجول بدءاً من العاشرة ليلاً.

ولم نعرف اسمي الطالبين مانوليس غليزوس وأبوستولوس سانتاس إلا يوم ٢٥ مارس ١٩٤٥، ذكرى العيد الوطني، وهما اللذان قاما بتلك المأثرة الخطرة، في أول فعل مقاومة للغازي.

كانت أعداد الألمان والطلّيان والبلغار أكثر مما تتحمّل بلادنا الفقيرة. وبعد أيام قليلة لم يتبقّ ما يؤكل. وقضى أكثر من ثلاثمائة وخمسين ألف يوناني جوعاً. وبعد التحرير علمنا أن شعوباً أخرى عانت من المشكلة نفسها.

لقد عانت كريت الأمرين بسبب ضيق مقبرة «القديس أوستراتوس». ولم يعد ثمة مكان لدفن الموتى. فصار يُلقى بهم من فوق سور المقبرة. وكان الأطفال يتنقلون بوساطة عكاكيز، منتفخي البطون، مجروحي الوجوه، مع لحى صغيرة ورؤوس صلعاء تغطيها الطبقات القشرية والحشرات. وأذكر هذا المشهد:

كان هناك، أمام الميناء، طفل بارز العظام، ينبش صندوق قمامة ألمانياً. اقترب منه شاب نازي وركله بجزمته فتدحرج الطفل وصندوق القمامة معاً.

- لِمَ هذه القسوة المجانية؟ سألت الجندي النازي. لو كان هذا الطفل ابنك هل كنت تصرفت بهذا الشكل؟

- لو كنتُ أنا أنتِ لسممتهم جميعاً!

ولقد سألت عن اسم ذلك الفظ فقيل لي إنه يدعى كونيغ.

ومع ذلك حالفنا الحظ في إيجين. ذلك أن عالم الآثار الألماني غابرييل ولتر لم يلعب دور النازي إلا بضعة أشهر. وعندما علم بأن هتلر بدأ بالهجوم على الاتحاد السوفياتي، أسرع إلينا متوقعاً سقوط الرايخ الثالث.

وكان لنا في الجزيرة أيضاً قائد عسكري وديع، يتحدّر من الرّايين. ويعمل تاجر غلايين مزعوماً. فيدّخن نهاراً ويحتسي الكحول ليلاً، في مقرّ قيادته، ولا يخالط أحداً.

وعندما عمد رئيس بلديتنا الأخير، ذلك الثمانيني ذو الشاربين الكثّين، إلى دعوة بعض عناصر الاستخبارات النازية، قبل التّحرير ببضعة أيام، من أجل اعتقال كازنتزاكي وعدد من أصدقائنا، تدخل ذلك الألماني وأنقذ حياتنا بتقديم أجود أنواع خموره للنازيين، كما أهداهم، بعض الأقوال، تحفاً من أجمل ما في متحف إيجين.

تقلصت الأيام وقلّ القوت. ولزمنا الفراش حتى لا نفقد قوانا. واستغل كازنتزاكي تلك الأيام الحالكة لكتابة أكثر رواياته تغلغلاً في المغامرة والتشرد «الكسيس زوربا».

«كيرا لينيتسا، افتحي لي الباب!»

كنت أتوسل إلى نيكوس ألا يفتح إذا كان الصوت لأحد المسنين الأحباء. أما إذا كان صوت طفل فنهرع لنملاً فمه بملعقة من زيتنا.

ولولا مساعدة أصدقائنا في إيجين لمُتنا بدورنا. وكان هناك بالخصوص، الزوجان ثراسيفولوس أندرولينداكي المحامي ومدير سجون إيجين، وزوجته دسيونيا، وكذلك الزوجان يانيس مانغليس، تاجر الإسفنج والكاتب، وزوجته نوتا. ثم علاقة في آخر لحظة: ايلي غيولمان.

وكثيراً ما كان الزوجان أندروليذاكي يقاسماننا، قدر المستطاع، ما تحتويه طناجرهم الفقيرة. ولم يكن يانيس مانغليس يدعونا إلى تذوق فطائر «الكريب» فحسب، بل بدأ منذ ربيع ١٩٤٢ يتعاطى التهريب. وساعده عدد من غطاسي الإسفنج الأقوياء. فكان يقصد جنوب البيلوبونيز، على متن مركب شراعي صغير،

ويصل أحياناً إلى كريت، ثم يعود محملاً بالبطاطا والزيت. وإمعاناً منّي في تقدير بسالة صديقنا أذكر أنه لم يكن يمتلك سوى كلية واحدة، وكانت تلك الكلية مصابة أيضاً.

إن إلحاحي على المجاعة يعود إلى كوني أعتبرها مسؤولية عن ألامنا اللاحقة. وإذا كنا نتمتع ببعض السعة فإنّ نيكوس استنزف جسمه الرائع بإخضاعه إلى تضحية قاسية وإنكار كامل للذات. وعندما أصابه المرض للمرة الأولى في أنتيب خلال عيد الميلاد سنة ١٩٤٨ سألني الأطباء عمّا إذا كان أحد الناجين من معسكرات الاعتقال النازية. إذ كانت له الأعراض نفسها.

لم أعد أذكر متى تعرّفنا على إيليني^(١). لقد استنفرت لحالتنا، وصارت تتظاهر بالضجر من العزلة، وتخلق كلّ أنواع المبررات كي تأتي من أجل «تبادل الحديث الودي» معنا. فتلوح قادمة، مع الغروب، عبر الدرب الحجري، بمشية لامبالية، ومظلة تدور فوق رأسها، بينما تتأرجح صرة بيضاء على ذراعها اليسرى. ولدى مرورها يرفع الفلاحون رؤوسهم لتحيتها وقد داعبت أنوفهم رائحة «الأيوولي» والسّمك المقلي، الآتية بهما إلينا. وأضافت إلى تلك النزّهات المبالغيّة لعبة جديدة: ادّعت أنها تخاف من النوم وحيدة في بيتها. وكانت آنذاك تهيم بسارتر وبرغسون وبيراندلو، فتنتلق محاورات طويلة حول مائدتها حتى تنتهي السهرة على أصوات حراس السجون وإيقاع جزمات النازيين، في نغمة سوريالية.

– هلاً فسّرت لنا، يا إيلي، لماذا تضعين دائماً تلك الأواني المملوءة بالفستق قرب سريرنا؟ هل تعتقدين أننا قادران على تناولها ليلاً؟

فتحمّر إيلي خجلاً:

– كلاً . لا . لا ، ليس ذلك بالضبط... (وكانت تلتغ بحرف الراء) لكنني أخجل من امتلاك الكثيل.. تقدلان الأكل بقدر ما تستطيعان، وبذلك تقدّمان لي معلوفاً!^(٢)

(١) إيلي غيولمان، السيدة بابافيسوا بعد الزواج.

(٢) «معلوفاً» (المترجم).

لماذا لم يلجأ النازيون إلى مصادرة أشجار الفستق والتين، وكروم الجزيرة؟ لقد أنقذنا تلهفهم على تذوقها، قبل النضج، من كارثة حقيقية. كانوا يقطعون العناقيد بخناجرهم، ويقطفون التين والفستق قبل الأوان، فتورّمت شفاههم، وكشطت ألسنتهم بحيث اعتبروا تلك الثمار غير صالحة للأكل.

وفي الجوار كانت تعيش أيضاً امرأة أميركية متزوجة من يوناني، هو جورج ليفاس. وكان السيد ليفاس يمتلك مديعاً، فيزوره نيكوس كلّ مساء للاستماع إلى «صوت فرنسا». وكنا نأمل الكثير من تشرشل وديغول.

ومع حلول الغسق يترك نيكوس عمله. وذات مساء كنا نحتسي ما يشبه «الشاي» تجاوزاً، ونتحدث حول مستقبل العالم، عندما دق اندروليداس على زجاج النافذة. كان في منتهى الكآبة والإرهاق فانهار على كرسي.

– أمضيت وقتاً شنيعاً، قال ماسحاً عرق جبينه. عندما دقت الساعة منتصف النهار وُضِعَت القدر المعدنية الكبيرة في باحة السجن، وتحلّق حولها المساجين. وفجأة تملك الجنون أحد الرجال فرمى بنفسه في قدر الحساء الساخن. سحبناه لكن نصف لحمه ظلّ في الحساء. صرختُ بأعلى صوتي: «لا أحد يلمس حساء الفاصوليا! أعدكم بتناول الأرز بعد ثلث ساعة فقط!» فهجم بعض المعتقلين وغرفوا من الفاصوليا فاضطرت إلى الاستعانة بحراس السجن. – وماذا عن المحروق؟ – مات بعد بضع ساعات... هل تسمحان لي بإشعال سيجارة؟ قلبي ينهار.

ولم يكن الألمان وحدهم، هم الذين يحاصرون ناسك ايجين. إذ أن المسرح القومي رفض مسرحياته المؤلفة أو المترجمة. فاقترح نيكوس على بريفيلاكى إحالة مسرحيتهما «كالاندرا» (مقتبسة من مسرحية الكاردينال بيبيانا) على مسرح آخر، مسرح كاترينا مثلاً، فوافقت هذه الأخيرة لكن الرقابة تدخلت واعترضت...

لم يغضب نيكوس «أنا مضطهد بشكل مستمر، قال ضاحكاً، ما من حكومة تتحملني، وهذا موقف عادل لأنني، بدوري، لا أتحمل أياً منها...».

وكما كان شأن ب. بريفيلاكي، أراد س. ديامنتاراس أن يساعد صديقه الكبير، وكان يعمل لدى ناشر ثري جداً، في أثينا، متخصص في نشر الكتب القانونية، ويرغب في توسيع نشاطه ليشمل الآداب. فاقترح عليه ديامنتاراس أن ينشر لكازنتزاكي، أو يكلفه بسلسلة ترجمات جديدة. ولا يستطيع كل من لم يقرأ مراسلات كازنتزاكي - ديامنتاراس، وكازنتزاكي - بريفيلاكي، تصديق المكافأة المذلة التي عُرضت على نيكوس كازنتزاكي، بخصوص النشر، وكذلك المسرح... قلّة تفهّم؟ أم لا مبالاة وأنانية تمخضت عنهما الحرب؟ أم نوع من التهيج الجنوني الخفي إزاء رجل شامخ لا ينحني؟

ولاحت الصعوبات ذاتها مع ترجمة «عطيل» التي كان نيكوس فخوراً بها ومبتهجاً. وعلى الرغم من تشوقه لرؤية ردود فعل الجمهور على ترجمته الأولى لشكسبير، فقد اضطر إلى رفض شروط المجاعة التي عُرضت عليه.

فكتب إلى بريفيلاكي :

«لولا وضعي الحرج^(١) لوافقْتُ على استغلالي، أما الآن فما من مبرر... ينبغي أن نعيش. لكن ذلك لا يكفي. فما جدوى حياتنا من دون تلك القوة الفعلية التي تقتات من الإنسان وليس من الكلمات؟ لقد عيل صبري!».»

نعم، لقد عيل صبر كازنتزاكي! وصارت متابعة الكتابة، منكباً على مكتبه، بعيداً عن العدو المشترك، عذاباً لا يطاق. وعاد مجدداً إلى الثورة على ما يسمّيه «عدم الممارسة» وبات يتحرّق للنزول إلى المعمة.

وكان ث. اندروليذاكي يستعد للذهاب إلى الجبل. فكلّفه كازنتزاكي أن يُعلم الأنصار باستعداده للالتحاق بهم. واتفقاً على استخدام بعض الرموز الشخصية كي يصل الردّ في أقرب وقت ممكن.

كان نيكوس يدرك جيداً حذر اليمين منه، ومعاملته له كشيوعي. كما كان

(١) أوقفت صحيفة «كاثيميريني» دفع المكافآت أيضاً.

يعلم أن تصوّفه ينفر اليسار. لذلك لم يشك في رفض قادة المقاومة استقباله مع قذفه بتهمة العميل السري للاستخبارات البريطانية.

وفي الأثناء أرسل انجيلوس سيكليانوس بإحدى قصائده إلى نيكوس، بخطّ يده، فشكره نيكوس على الفور :

(ايجين) ٢٤ ديسمبر ١٩٤١.

أخي الحبيب،

تلقيت مخطوطة قصيدتك الثمينة. وكنت قد استمتعت بقراءة القصيدة المنشورة في «نيا استيا». إنَّ القديس ذيميتريوس والقديس جرجس^(١) أقرب ما يكونان من بعضهما بعضاً في هذه الأوقات الحرجة. عندما كلّفت ايليني بأن تسألني عما إذا كنت أريد مرافقتك إلى ايبير، كتبت إليك على الفور معبراً عن فرحتي بالدعوة. وراسلت بريفيلاكي أيضاً. لكنني لم أتلّق رداً. ثم مررت في ينايركي أراك فلم أجده في البيت. وكنت قد جنّت ذات مرة إلى ايجين، واقتربت من بيتي لكنك لم تدخل. أعتقد أن الوقت قد حان لنلتقي. وربما توجب ذلك في هذه اللحظة المصرية التي تمرُّ بها اليونان. لكن، كيف؟ عليك أن تقرر أنت.

أرجو من الله أن تكون ١٩٤٢ سنة نشاطا لكلينا، وأن يحارب الجوادان الأبيض والأسود، جنباً إلى جنب...

١٩٤٢ . في مستهل السنة، دعا بريفيلاكي نيكوس إلى زيارة بيته في اثينا. وجهّز له مفاجأة رائعة: لقاء مع سيكليانوس. وهكذا وُضع قليل من البلسم على الجرح الذي فتحته في روح الكريتي، قلة ثقة الجناح اليساري في المقاومة.

ايجين، ٢٥ فبراير ١٩٤٢^(٢)

لن تمحي من ذاكرتي أبداً، تلك الأيام التي قضيتها عندك، كانت أياماً دافئة، ناضجة وغنية. وكانت سعادتي القصوى في ترافق شعوري بغنى تلك الأيام وعذوبتها، مع عيشها...

(١) في مرحلة لقائهما الأول، كتب انجيلوس سيكليانوس قصيدة جميلة جداً، يرمز فيها للصديقين بالقديسين جرجس وذيميتريوس.

(٢) رسالة إلى ب. بريفيلاكي.

وكتب في اليوم نفسه، إلى سيكليانوس الذي استعاد صلته به :

أخي العزيز أنجيلوس،

عدتُ (إلى ايجين) مع أزهار أنا، وأعلنتُ النبا السعيد (إلى ايليني): عما قريب تشرق هذه الأمكنة بحضورك. وبعد حوالي عشرة أيام سأسافر إلى اثينا لمدة ثمان وأربعين ساعة، وأتمكن من رؤيتك. الرب معنا لأننا معه:

عمل، ضحك، محاورات مسائية قبالة البحر، السماء فوقنا، والأرض تحت أقدامنا، واللحظة الزائلة. تكشف عن جوهرها الحق لتتحول إلى لحظة خالدة.

في الربيع كانت أزهار الزنبق في جزيرتنا الصغيرة أكثر من السمك في بحرها. وكان الميناء آنذاك يتحول إلى ما يشبه البلاط الملكي المزين احتفالاً بزواج أميري. فتكاد الزوارق تغرق تحت ثقل الأزهار، ويثقل الجو برائحتها اللجوجة. وترجل أنجيلوس وأنا سيكليانوس بين الزنابق، متألقين في ربيع حبهما. فأعارهما كالموك بيته. وصرنا، أنا وأنا، امرأتين محظوظتين. نذهب برفقة ابنة عمي زيزي^(١) التي كانت ضيفتنا، وكل أصدقائنا في ايجين، لنشرب من نبع الفتوة.

كان كل من يزور سيكليانوس في شقته الجميلة في أثينا يُفاجأ بأسد في قفص، أما في الريف، قبالة البحر، فقد وجدت قوته وضحكته وصوته المجال المتسع للانتشار بحرية،

ذلك الرجل المفرط في كل شيء، ذلك الرجل القوي المعتد بنفسه، رأيته كيف يتألم مثل شخص ضعيف، حالما تبتعد عنه صديقه.

سيكليانوس وكازنتاكي! كائنات مختلفان ظاهرياً، متشابهان في تطلعهما إلى المطلق، وفي إنعاش مَنْ يقترب منهما! فكلاهما يحب الضحك والنكتة، ويكره الكلمات الكبيرة وقلة الأدب، كما كان الأمر دارجاً في أثينا. كان الشاعر الأيوني الغنائي يجمع بين الهدوء والانفعال، ويحرص على أناقته، مرتدياً قميصاً حريراً

(١) السيدة زيزي بسنيكيزيس.

واسع الكُمين، كما كان منتظم الحركات مع صوت جهوري... أما الكريتي فكان ابن فلاحين، يجمع بين الزهد والصَّلابَة، ويوقَّع كلامه بحركات متقطَّعة قليلاً. كلاهما يحافظ على أريحيته أمام الأقوياء. أو أمام فقراء الأرض. وكلاهما يتجاوز مستوى ما هو سائد.

نظَّم الحزب الشيوعي اليوناني (شتاء ١٩٤١-١٩٤٢) احتفالاً تضامنياً في أثينا من أجل مواجهة المجاعة. وشارك في التظاهرة أساتذة جامعيون، ومعلمون، وبورجوازيون من كل الطبقات والميول. وكان هدفهم الأساسي مساعدة عائلات المعتقلين السياسيين وكذلك المنفيين خارج اليونان، وكانت غالبيتهم من الشيوعيين الذين سلَّمتهم دكتاتورية ميتاكساس السابقة إلى الألمان والطيَّان^(١). يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٤١ وبعد محاورات عديدة وعقيمة مع ممثلي الوسط وأقصى اليمين، أعلن الحزب الشيوعي عن تأسيس جبهة التحرير الوطنية.

وبدأت الأخبار تأتي شحيحة إلى ايجين، مع تأخير مزعج، وخلط بالأكاذيب. فكان نيكوس يعود فرحاً، أحياناً، بعد زيارة السيد ليفاس واستماعه إلى إذاعة البي - بي - سي تتحدَّث عن بسالة أنصارنا. وفيما بعد صارت هيئة الإذاعة البريطانية تسكت عن الأعمال البطولية الخارقة للشعب اليوناني. ولاحت بوادر الخلاف داخل المعسكر البريطاني - بين المدافعين عن حقوق الإنسان وكرامته، وأولئك الذين توخوا سياسة قصيرة النظر.

في ربيع ١٩٤٢ التقى كازنتزاكي يانيس كاكريديس^(٢) المختص في هوميروس وأسفر اللقاء عن صداقة حميمة، أدَّت، بعد تعاونهما لمدة ثلاثة عشر عاماً، إلى إنجاز عمل رائد: ترجمة «الإلياذة» إلى اللغة اليونانية الحديثة، في أبيات شعرية تعتمد سبعة عشر مقطعاً لفظياً (تفعيلة).

وكانت مراسلات كازنتزاكي وكاكريديس جدَّ مؤثرة:

(١) لعلَّه من المفيد الإشارة إلى أن حركة التضامن الوطني التي ساعدت الكثير من الكتاب خلال المجاعة وبعدها، لم تهتم بنيكوس كازنتزاكي مطلقاً.

(٢) يانيس كاكريديس أستاذ ورئيس جامعة ألف العديد من الكتب حول هوميروس.

«علينا أن ننسى مشاريعنا الشخصية.. ولتكن الأولوية لهوميروس، حتى يتمكن الشباب من الاطلاع عليه بطريقة أفضل، ومن دون اللجوء إلى القواميس... وتغتنى اليونانية العصرية براهة أدبية...»

وطلب كازنتزاكي من كاكريديس :

«كن قاسياً، اطلب مني المستحيل. لا بد أن تتحلّى بصبر الحمير، وسوف ننجح في ذلك! ونتجاوز الصعوبات، الواحدة تلو الأخرى. إن هوميروس يستحق كل هذا الكد...».

خلال صيف المجاعة تمكن ث. اندروليذاكي من تحويل أرضنا الصخرية إلى بستان بصعوبة فائقة. وأنقذ ذلك الجهد حياتنا مرة أخرى، لأن السمك نفسه لم يعد متوافراً في البحر. واضطرت فيما بعد إلى التردد على أثينا من أجل الحصول على بعض الخبز من السوق السوداء.

(ايجين) (خريف ١٩٤٢) (الأحد (١)

حبيبتي لينوتشكا، تلقيت الخبز المقدس للتو. وسأسعى إلى الحصول على تأشيرة دخول إلى ايجين للأنسة إيلى...

الجيران يطعمونني جيداً... لكنني أشعر بالتعب من وشك «الوضع». إن «برومثيوس» يتخبط في أحشائي، فأتالم كثيراً...

وهكذا عملنا بجد وإتقان، مع السيد كاكريديس، في ترجمة «اللياذة»...

وعمل سيكليانوس جيداً، هو الآخر، إذ أتم «ديدالوس» وهي مسرحية شعرية قوية تنبثق من قلوب اليونانيين المستعبدين.. وقرأ علينا قصيدة «سولون» الذي يتظاهر بالجنون كي يتمكن من إثارة قلوب الأثينيين وتحريضهم على القتال في سلامين. كنا ننصت إليه فنبكي ونصفق ونطالبه بإعاداة مرهقة للشاعر... ويأتي أصدقاؤنا للإستماتة بتلك القراءات. وكان هناك معلم مدرسة رفضنا

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

استقباله، فظن أننا نخطط لمؤامرات شيوعية. وقبل الحرب بقليل وشى بنا إلى الشرطة ليلاً، وأكد أننا نرسل إشارات ضوئية إلى الغواصات... الألمانية! ويا له من رجل بائس، لقد خال أضواء المنارة، في جزر لاووسا إشارات ضوئية ذات علاقة بأعمالنا الشيطانية.

باتت حياتنا في الجزيرة فقيرة إثر رحيل سيكليانوس. وبعد الاستمتاع بالأمواج الرائعة، والصخور المألحة، وخلجان الرمال الصفراء، والسماء المتلألئة بالنجوم وضوء القمر - بما في ذلك، تلك البومة الصغيرة التي كانت تشاطرنا سهراتنا وتنافس شاعرينا بفصاحتها - صار كل شيء غريباً، بلا طعم.

كان رائعاً حضور ذلك الشاعر الرائي، متجولاً في رؤاه بحرية، معتقداً أنه إله، من دون أن يخشى التصريح بذلك. فلم تكن «غطرسته» سوى نبل وطيبة مقنعتين، حباً للقريب مع تفاخر وتعاضم يميزانه. لكن الاقتراب ينهي إساءة فهم ذلك الشاعر الذي ولد سيداً وخبر السعادة في الحرير وفي وفرة القصور، كما خبرها في أكواخ رعاة الجبل، حيث أمضى جزءاً كبيراً من حياته مبتهجاً.

(ايجين ٢٨ أكتوبر ١٩٤٢ (١))

أخي الحبيب،

لا يمكن التعبير عن مدى تطلع هذه الأمانة إلى حضورك، وانتظارها لعودتك مع السنونو... (٢) أكملت «الإلياذة» يوم ٢٣ أكتوبر، وأشعر بالحزن لفراق ذلك الرفيق اليومي. أجد نفسي الآن أمام طريقين، ولا أعرف أيهما أختار، أو بالأحرى، أيهما سيختارني. عادت الشمس والضوء الناعم، الرطب، وها هو ذا القلب يلين ويتهيا للإخصاب مثل الأرض. أتذكر كل اللحظات الخالدة التي أمضيها معاً و«أميز بين الذكرى ولحظة عيشها. كل شيء حاضر، أي خالد. لقد أضفى مرورك بهذا المكان معنى جديداً على شاطئتي المقفر...

(١) رسالة إلى أنجيلوس سيكليانوس.

(٢) لم تتحقق وعود الزوجين سيكليانوس بالعودة إلى زيارتنا لأن الألمان رفضوا بعناد تقديم ترخيص الإقامة الضروري. لكننا لم ننقطع عن الالتقاء...

ادى ازدياد ضغط النازيين والفاشييين على شعبنا إلى توثيق عرى الوحدة على مستوى القاعدة، وذلك برغم الانشاقات الكثيرة على مستوى القمة. ولم يسبق لقلوبنا أن هفت إلى الاتحاد بتلك الدرجة.

يوم ٤٢ نوفمبر ١٩٤٢ فجّر الأنصار اليونانيون بمساعدة بعض الإنجليز، وفي مقدمتهم إدي ميرس وكريس وودهاوس ودنيس هامسون^(١)، جسر غورغوبوتاموس الكائن على جبل أويتيس. وكانت تلك أول عملية تخريب هالت لها الإذاعة البريطانية لكن القمع لم يتأخر كثيراً.

يوم ٢٢ ديسمبر، من العام نفسه، أضرب أربعون ألف عامل في أثينا ورفعوا لافتات تقول: «يسقط الرعب!»، «اطلقوا سراح المعتقلين!»، «عاشت جبهة التحرير الوطنية!».

وتوجهت المظاهرة المسالمة نحو وزارة العمل. وأمام الوزارة اندفع ضابط إيطالي في سيارة جيب صادمًا المتظاهرين الذين كانوا يتقدمون متشابكي الأيدي، ثم أخرج مسدّسه وأطلق الرصاص على أحد الشباب. وهكذا سقط الطالب ميتسوس كوستانتينيدس أول شهيد في معركة أثينا. وفي المساء نفسه توفي طالب ثان متأثراً بجراحه. وكان عدد الجرحى كبيراً. ثم عمد الإيطاليون والألمان إلى اعتقال العديد من الناس، بمساعدة أفراد الميليشيا.

ايجين ، الاثنين (نهاية ديسمبر ١٩٤٢) (٢)

...وصلتني رسالتك المملوءة قلقاً وحزناً. واستلمت الخبز.. يفكر يانيس مانغليس في السفر إلى كريت وسوف أعطيه كل ما لدينا كي يشتري لنا صابوناً... أنا قلق جداً إزاء ديامنتاراس. حلمت أول البارحة حلماً مروعاً. أرجو أن تطلعي على أخباره عند «ن»...

Denys Hamson: We fell among the Greeks, London 1946

(١)

E.C.W. Myers: The Greek entanglement, London 1955

C.M. Woodhouse: Apple of Discord, London 1948

C.M. Woodhouse: One Omen, London 1949

(٢) رسالة إلى إ. ساميوس.

الأربعاء، ١٧-٢-٤٣ (١)

يستحيل التواصل عبر البريد: لقد وصلت بطاقةك بعد نصف شهر. بدأت أتأقلم هنا، والأصدقاء يدعونني للأكل، ويخشون عليّ سوء التغذية... سمينثيتسا^(٢) تكبر، وقد روضتها فصارت رائعة. وتعلمت اللجوء إلى مكانها الخاص مساءً عندما أذهب للنوم. ومع الفجر تسرع إلى بابي وتدق. فإذا كان الوقت لا يزال مبكراً، أقول لها: «ليس الآن!» بصوت قوي. في البداية، لم تفهم معنى ذلك، والآن بدأت تفهم. أصبح بصوت عالٍ: «ليس الآن!» فتنسحب!

تلقيت بالأمس رسالة من ابن عم وتيفهل، الناشر في برلين يعرض عليّ نشر «بستان الصخور»...

أعمل الآن على الأناشيد الأربعة الأولى التي أرسلها لي كاكريذيس مع التعديلات. تحسن كبير. أعتقد أن هذا العمل سوف يكون مهماً.

الأربعاء مساء (٣)

عدت من الميناء. لم تصل إيلي. لكنني حملت الكيس الصغير الذي بعثت به. تأثرت كثيراً وفتحته - كل خيرات الرب - خبز، زيتون طيب، حلاوى طحينية لذيذة، جبن أبيض...

عنايتك بي تثير مشاعري وأتلهف إلى المرض، أو التعرض للخطر، كي أفرح بمعالجتك لي، ما ينقصني لأكون لطيفاً حتى مع المقربين مني، هو المرض الذي يجعلهم يخشون فقدانني بغتة، أو يدركون أنني إنسان بدوري، وأن قلبي ليس من صخر، وفي إمكان الأرض أن تتفتح تحتي وتبتلعني...

١٩٤٣. كنتُ في أثينا، يوم ٢٣ فبراير ١٩٤٣، عندما أعلنت التعبئة بأمر من هتلر. وانتشر الخبز في العاصمة خلال بضع دقائق. ولم يعد الشعب قادراً على التحكم في غضبه. فحدثت مظاهرات صغيرة في اليوم نفسه. أما في الغد فقد شبت

(١) رسالة إلى إ. ساميوس.

(٢) قطننا.

(٣) رسائل إل ايليني ساميوس.

ثورة عارمة. ومنذ الثامنة صباحاً تقدمت الجماهير نحو مبنى وزارة العمل. وفي هذه المرة تسليح الجميع بالحجارة والهرافات والقضبان الحديدية. وقبل منتصف النهار اشتعلت الوزارة فيما اندفع الطلاب، إلى جانب العمال، يخرقون الملفات... وسقط العديد من الضحايا، لكن أمر التعبئة أُلغي. وهكذا نجحت معركة أثينا الأولى. وشكلت نصراً رائعاً للشعب الذي أدرك ذلك، بوعي كامل، واحتفل بوسائله الخاصة.

ايجين، ٤ مارس ١٩٤٣ (١)

أثناء الكرنفال، رقصت فتيات جميلات الأزياء في باحتنا... ثم جاءت أقنعة العمال الذين عَفَرُوا وجوههم بالسَّخَام واعتمروا الطرابيش وارتدوا السراويل الممزقة وظلّوا حفاة. وبعد أن أنشدوا بحماسة، ونهشوا الخُروب، انسحبوا...

سمينثيتسا تتحسن... وإذا مكثت معي بضعة أشهر سوف أتعلّم المواء بشكل رائع، أو تتعلم، هي، كيف تتأثىء مثل زنجي صغير...

ايجين ١١ مارس ١٩٤٣ (٢)

لا تقلقي من أجلي. أنا على ما يرام (٣)... أعدّ أكلي بشخّ، قدر المستطاع، حتى تجدي عجينا، وقمحا مجروشاً، الخ... لدى عودتك...

١٥ مارس ١٩٤٣ (٤)

برد قارس، لكنني لا أوقد النار، إذ لا يوجد فحم. أكتب إليك مجدداً بخصوص «اتحاد المحرّرين» لأنه أمر مهم جداً. يُقال إنهم سوف يقدمون لنا قرضاً بستّة آلاف دراخما، وهذا من شأنه أن ينقذنا... أرجو أن تتفقي مع خورموزيوس.

رفض المحررون قبول نيكوس كازنتزاكي في صفوفهم. لكن جورج باباندريو لم يوفّر جهداً لمساعدتنا. ولقد جنّ جنونه عندما علم أن الناشر الشهير، وكان مليونيراً، لم يقدم سوى صفيحتين من الزيت للحصول على ترجمة «الإلياذة».

(١) و(٢) رسائل إل ايليني ساميوس.

(٣) بالانجليزية Regular في الاصل.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

ولم تمر بضع ساعات حتى حصل كاكريذيس وكازنتزاكي على مساعدة يونانيين معروفين بالكرم: أحدهما مانوليس بيناكيس، ابن رئيس بلدية أثينا ومؤسس المتحف الذي يحمل اسمه، والثاني «تريكورفوس-سارونيس» الجراح الشهير والمولع بالكتب النفيسة. وهذا الأخير، أضاف إلى هبته النقدية، بعض المواد الغذائية.

وجاءت بعض النقود من مصدر ثالث : ذلك أن مسرحية كازنتزاكي «بروتوماستوراس» التي حوّلها مانوليس كالومويرسيس، قبل سنوات عديدة، إلى أوبرا، عُرضت من جديد وتمكن كازنتزاكي، لأول مرة، من تسلّم حقوق التأليف.

ايجين، ٢٣ مارس ١٩٤٣ (١)

... لقد فرحت بمبلغ المائة والثمانين الف دراخما، مكافأة على مسرحية «بروتوماستوراس» المسكينة. فبعد كل هذه الأعوام - كتبتُها عندما كنتُ طالبا - بدأت تثمر. واللّه وحده يعلم متى تثمر مسرحيات ميليسا، الخ... بدورها، ولنامل أن يكون ذلك قبل موتي.

كيف أشكر سبارونيس؟ ماذا أكتب له؟ ماذا أفعل؟ كيف أعبر له عن تأثري الشديد في هذه الأوقات العصيبة، بالمساعدة السخية المتأنية من شخص لا يعرفني؟...

أدركتُ أثناء سرد وقائع حياتنا أن هناك قانوناً ثابتاً في وجودنا: ما أن تهبنا يدٌ شيئاً حتى تفتكّه أخرى، قبل تمتعنا به، وتفتكّ معه ما تجده بجانبه. ولم تطل فرحتنا بهبة الدكتور سبارونيس سوى بضعة أيام. إذ سرقنا خادمنا صوفي. وواجهنا خزاننا الفارغة، مرة أخرى.

- كيف تجرأتِ على ذلك يا صوفي؟

- لقد وسوس لي الشيطان يا سيدتي لينيتسا. لا تُعلمي الشرطة. أرجوك خذي

(١) رسالة إل ايليني ساميوس.

بيتي ولا تعلمي الشرطة. ما أخذته لم أكله وحدي بل تقاسمته مع الجيران.
فيما بعد، لم تكن تنسى أن تجلب لنا قليلاً من البرتقال والتين، لدى تردها
على زيارة البيلويونيز. لكن أجمل هدايا صوفي، كما سنرى لاحقاً، كانت تلك
الهدية التي قدمتها لنا يوم رحيل الألمان من الجزيرة.
اضطّررنا إلى التقشف وشدّ الأحزمة مكتفين بتناول الهندباء، لكن القديس
فرنسوا، حبيب نيكوس، جاء لإسعافنا:
إذ كتب بعض الرهبان الكاثوليك اليونانيين إلى نيكوس:
«يُسعدنا إذا وافقت على ترجمة «حياة القديس فرنسوا» لجورجنسن، من
أجلنا، مع إضافة مقدمة طويلة، أن نتكفل بإطعامك».
فانكب نيكوس على الترجمة مبهجاً.

وتدخلت قطتنا سمينثيتسا، ذات الاسم الهوميروسي، في اللحظة المناسبة، هي
الأخرى.

كان نيكوس يشتغل قرب المدفأة الموقدة والقطعة الصغيرة على كتفه. وفجأة
سقطت «رَبّة الفئران»^(١) أرضاً، بلا حراك. وقف نيكوس واحتضنها وفتح
الباب... ولم يستعد وعيه إلا صباح الغد على بلاط الممر، متجمداً من البرد، مع
صداع رهيب. أما سمينثيتسا فقد استغرق شفاؤها من ذلك التسمّم بأوكسيد
الكربون عدّة أيام.

(ايجين) ٢٥ مارس ١٩٤٣^(٢)

هذه الليالي أحلم بكوابيس أرى فيها مانوليس جيورجياديس^(٣). فافرح كثيراً لأنه
على قيد الحياة، واستيقظ منهكاً. ولو لم تكن سمينثيتسا تأتي فجراً «وتدق» الباب لما
استطعت الاستيقاظ. تأتي وهي تخرّ، وتستكمل نومها في فراشي... وهذا أفضل، وأقول
لك الحقيقة: لقد بدأت تكتسب تعبيراً بشرياً وأيقظت في نفسي كل ما ينتمي إلى

(١) سمينثيوس: إله الفئران في «الإلياذة».

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) أعدمه الألمان رمياً بالرصاص، في كريت، مع شقيقه.

السَّنُورِيَّات. ومنذ أول أمس بدأتُ أقلّد مواءها المغتاط، أو الناعم، حسب الظروف. أعتقد أن معاشة الإنسان لحيوان ما، في الصحراء، من شأنها أن تحقق تماهياً تدريجياً، ف يبدأ الإنسان بالانحطاط، والحيوان بالسّمُو، حتى يمحي الاختلاف. بينهما بعد عدّة أعوام. أما الآن فأنا أنتبه إلى اهتمامها بتسلق كتفي ومتابعة ما أكتب! وهي لا تفهم بعد ماذا يجري، لكنها سوف تفهم...

لم يكن يتوجب عليّ مصارحتك بحالة التسمم لأنني نجوت منها. اطمئني الآن. وسوف أنتبه أكثر من أجل راحتك. لكن، يا إلهي، ما أصعب الطبخ! لو كنتُ أطبخ لك، أنتِ، لفعلت ذلك بطيبة خاطر. أما أن أطبخ لي وحدي فإنّ ذلك أمر مزعج ومُربك. ويا لهول ما أطبخ! تنظر إليّ سميننتيتسا عندما أقدم لها الأكل، ثم تنحني، وتشمّ صحنها، فتتنظر إليّ مجدداً مشتكية ومذهولة، كما لو كانت تقول: «ما هذا، يا إلهي! هل هي وجبة؟ لا يمكن أن يرضى بها حتى الكلاب!» ماذا أفعل؟ أحياناً يكون الزيت كثيراً، وأحياناً يكون غير كاف. ولم أنجح حتى الآن في إعداد فطائر بشرية، ولا حتى سنّورية. تتفتّت أحياناً، وتغلظ أخرى، وتصير غير قابلة للهضم... لقد تأثرت كثيراً من اضطرابك إزاء تسممي وضعفي. وأراحني ذلك مثل لتر حليب.

بدأ الكاتب الستين من عمره. ونضج فكره، وشاب فُوداهُ، وظل قلبه حنوناً ومعذباً، مثل قلب طفل:

ايجين، ٢٨ مارس ١٩٤٣ (١)

ما ألدّ الهدايا الصغيرة التي أرسلت بها إليّ! سأنفجر! لقد تغيرت سحنتي. واليوم انهمكت في المطبخ منذ الصباح... سأتحول إلى خنّوص (صغير الخنزير) ملذات وأفقد شهرة الناسك وهي أفضل ما أمتلك. توقفي.. أرجوك... لقد تعب الرّسل «لوجه الله، يا سيد نيكوس، توسلوا إليّ، قل لها أن تتوقف، لم نعد قادرين!»

ظلّ نيكوس يحافظ على ميله المتمثل في لعب دور وكيل زواج. وكلما لجأ إلينا شاب وفتاة، سعى إلى «جعلهما سعيدين» بحضور الكاهن أو من دونه...

وكتب لي في الرسالة ذاتها:

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

... ستأتي ايلي غداً، ومعها سأستمتع بالطبخ والأكل. قالت إنها تزينت جيداً كي تقابل «ك». تحدثت باستخفاف أزعجني. وإذا لم تنجح في المهمة سوف أحزن كثيراً. فليمد الإله يده (أي الإله زيوس في الكوميديا التي أردت كتابتها، والذي فتح وكالة زواج) ويدفع بهما لكن في الاتجاه ذاته، حتى يتحدا...

أحتفظ بالعسل لك، وللضيوف الذين ننتظرهم.

إنَّه الصيف! لقد تفتحت زهور «الجيروفلي» وصار أريجها يتضوع مساءً، في البيت، حتى ليختنق القلب. والصبار الذي تشبه أوراقه أسماك الرنكة أو شوارب الدرك، والذي يزهر مرة كل أربع سنوات، أخرج زهرة رائعة، وعالية مثل شجيرة. أمل أن تُقبلي في الوقت المناسب... وأنا الآن أسعى إلى تأخير إزهاره... سمينثيتسا تصطاد الفراشات طيلة النهار. تندفع، ترفع قائمتيها الأماميتين وتمسك بالفراشة. فاخلص ما أستطيع إنقاذه، وكثيراً ما أرى شواربها مغبرة بألوان اجنحة الفراش.

منذ نهاية ابريل ١٩٤٢ سيطر رجال المقاومة على ثلث مساحة اليونان. وقام الإيطاليون والألمان بغارات دموية عديدة على الأراضي المحررة دون أن يتمكنوا من التحصن فيها. وصار إدّي ميرس ورفاقه يتجولون في سيارة الجيب مرتدين بزاتهم العسكرية. وأنقل من كتاب أندرياس كيدروس «المقاومة اليونانية في الأعوام ١٩٤٠-١٩٤٤، صفحة ٢٥٤ التقرير الألماني (IC/AO no 2670/43) المؤرخ في ٩ ابريل ١٩٤٣:

«... تسجل كل يوم أعمال تخريب واسعة المدى، واغتيال جنود إيطاليين. ومنذ نوفمبر ١٩٤٢ بدأت تشكيلات «أندارتاس»^(١) متزايدة العدد، تتوغّل في المناطق التي يحتلها الألمان وتهاجم مراكز الحرس للاستيلاء على الأسلحة والذخيرة. وفي منطقة قيادة سالونيك العسكرية وحدها، سجّل، منذ شهر ديسمبر قرابة ثلاثين هجوماً من هذا القبيل! أما عمليات التخريب والقتل فتجري بشكل يومي»...

أما البطولات التي قام بها رجال «الاندارتاس» ونساؤها، والقضاء شبه المبرم

(١) حركة الانصار.

على الطليان شمالي اليونان، أو انتقامهم من السكان المدنيين بطرق وحشية، فقد أخبرنا بها يانيس مانغليس الذي تمكّن من التنقل بحرية ومحادثة الضباط الإيطاليين، بفضل جوازه الإيطالي. وما لبث الألمان أن تدخلوا في المناطق التي كان يحتلها الطليان وتمكّنت المقاومة من تحريرها. وهكذا أحرقت عشرات القرى في أيام قليلة. وكانت الأخبار تصلنا إلى ايجين ممزوجة بأمال ناقلها ومخاوفهم. فيكظم نيكوس غيظه، بعد أن حكم عليه الذين يعتبرهم رفاق السلاح، بالعزلة.

وإذا كان يُظهر مرارته في الرسائل فإن أعماله الأدبية لم تتطرق إلى ذلك. يوم ١٠ أغسطس أخبر بريفيلاكي بأنه بدأ يكتب مسرحية جديدة: «ثلاثية بروميثيوس»، وكان يحبّ شهر أغسطس إلى حدّ أنه عاد إلى إحدى أفكاره الأثرية:

تطويب شهر أغسطس قديساً. وفكّر في صديقنا فوتيس كونتوغلو المتخصص في تاريخ القديسين، كي يخلق له «قديس أغسطس» عامر اليدين بالتين والعنب.

وبعد إنهاء «ثلاثية بروميثيوس»^(١) بدأ نيكوس يترجم «أوديسة» هوميروس إلى اليونانية الحديثة، بإشراف يانيس كاكريذيس. وكان كازنتزاكي يحثّه خوفاً من أن يترك هذا العمل ناقصاً، كما اعترف: «فدخل الجحيم بساق واحدة»^(٢).

في نهاية سبتمبر توفي، في أثينا، شاعران من أفضل شعرائنا: بالاماس ومالاكاسي وفي مآتم بالاماس ألقى سيكليانوس خطاباً حاراً، أعلن فيه أن بالاماس «شاعر قومي» وتحدّث عن الحرية بحضور المحتلين، وأثار حماسة الجمهور. أما نيكوس فكان يفضل مالاكاسي، لأن أسلوبه أقل فخامة وأكثر غنائية. وكتب ذلك إلى سيكليانوس، مع شكره على إهدائه قصيدة «ديدالوس»:

ايجين، أول أكتوبر ١٩٤٣

... توصلتُ بالهامك الكبير إلى رفع بالاماس نحو السماء السادسة، والذين استمعوا إليك قالوا إن كلمتك كانت رائعة.

(١) عمل مبتكر لنيكوس كازنتزاكي.

(٢) من سوء الحظ أن حدس كازنتزاكي تحقق. واضطر يانيس كاكريذيس إلى إتمام ترجمة «أوديسة» هوميروس، بمفرده.

أقبل يد زوجتك، إنَّ جمالها، ونبرة صوتها، وعذوبتها، هي ما ينقص هذا الشاطيء
المقفر.

لم يكتفِ سكان أثينا خلال الاحتلال، بعقد ندوات أدبية وفلسفية فحسب، بل
انفجرت في أوج الشدائد معركة وحشية بين المثقفين المحدثين والمثقفين المحافظين
عندما تجرأ يانيس كاكريذيس على نشر كتاب من دون تثبيت النبرات الصوتية
الخاصة باللغة اليونانية. حرب النبرات! وها هو ذا علامة هوميروس يُبعد من
الجامعة ويُقدم للمحاكمة «يونانيون خالدون في معاداة جنسهم!» همهم نيكوس
مغتاظاً.

غير أن الشباب وقفوا إلى جانب المجددين. وتحركت الأقاليم بدورها
واستعدت...

لم تخلُ رسائل نيكوس كازنتزاكي، ورحلاته، من تعلقه بالمواضيع الكبيرة
الخالدة، في أعماله، ولا سيما «الأوديسة». ولقد ردَّ على حايم خورموزيوس
بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٤٣:

... أشعر أن «عوليس» كلما تقدم أكثر، توسعت ذاتها، مفجرة كل قالب جديد - الذات،
العائلة، الوطن، العرق، الكائن البشري، الكائن العضوي - وأحس أنه يتماهى مع
الوثبة الغريبة الدائمة التي تتمظهر في كوكبنا على شكل حياة.

لقد أدرك «عوليس» أن الوثبة صارت واعية: اختلقت لها عينين فصارت ترى،
وأذنين فصارت تسمع، وقلباً، فصارت تتألم أو تفرح...

سألتني، مثلاً، كيف يتصور عوليس مسألة العلاقة بين الفرد والجماعة. إن إجابتي
من شأنها أن تحدّ، في نظري، من نيّة عوليس، لأنني بذلك أسجن صرخته في صيغة
ضيقة، قد ترضي اليوم أكثر الناس تقدماً، لكنها في الغد، أو بعد الغد، قد تبدو محافظة
يتولّى كل عصر تأويله... أما سرّ كل رمز لا يكون نغماً بل تناغماً فيجعل من يتقبله
ويعيشه قادراً على إعطاء كل مشكلة جوابها الذي تدفعه إليه قوته حتى بلوغ الذروة.
ويمكن لشخص آخر، أكبر، أن يتقبل الرمز نفسه ويعيشه فيقدّم جوابه الخاص
للمشكلة، ومن شأن إجابته أن تكون مختلفة تؤدي إلى الذروة نفسها.

لذلك نجد عوليس، كما قلت أبعد ما يكون عن التحديد العرقي. إنه مواطن في مدينة الغد (كل غد). والتحلي بالنظرة الكريتية لا يعني إلغاء الحضارات الغربية والشرقية، أو الاغريقية، بل التأليف بينها وإضافة ما هو جديد، للتمكن من عيش حياة جديدة أكثر اتساعاً وبطولة ووعياً. وكما قلت فإن عوليس لا يجوب اليونان وحدها بل الأرض كلها. ولكنه ينطلق من اليونان بالتأكيد...

إن عوليس يشكل أسطورة، وهو ذاته الأسطورة. ومع ذلك تتكسر كل القوالب ويتلاشى كل شيء، لثوان قليلة، في لحظة توتر عارم، أثناء أزمة بسرعة البرق - برق أسود - ألم يفعل باندور الشيء ذاته، وهو الذي مجدّ جسد الفتى الجميل والبطولة الفعلية، والقيمة المؤكدة للحياة؟ لقد اعترف، هو الآخر، بلحظة الاختناق وصرخ صرخته المريعة: «ما الإنسان إلا حلم ظل». ألم يصرخ الصرخة ذاتها، كل من هوميروس وسوفوكليس، وهما الأكثر إغريقية من كل الإغريق؟ كذلك عوليس. إن كل روح عظيمة تمرّ بلحظة اختناق لأنها تضيق باكثر المآثر نبلاً، وأشدّ الأفراح عمقاً، وأشدّ الآلام عذاباً، وأكثر المثل جرأة. إذ لا يحتويها شيء غير اللا شيء. فتصرخ صرختها. ثم تستعيد هدوءها، وتسترجع شجاعته، وتلجم الشيطان الداخلي وتواصل الصعود وذلك ما يفعله عوليس. ينتهي العدم، وتكفّ صرخته العدمية عن كونها ذروة معركته. إنها صمام أمان يفتحه حتى لا يختنق، حتى يسترجع أنفاسه، ويخفّ كي يتشجع من خلال الرعب ويواصل الدرب الذي اختاره - الصعود.....».

١٩٤٤ . غطت سنوات الحرب الأربع ايجين بطبقة من الصدا وكانت الأرض تهييء الربيع منذ أربعة أعوام، تحت تلك الطبقة النازية. ويلوح، في السماء، طائر مبشّر بالربيع الموشك. وإذ يغطي الرعد على صوته، أحياناً، نلعبه، لكن الطائر يتابع شذوه. كان الجيران يضبطون ساعاتهم، كل مساء، لدى رؤية كازنتزاكي ذاهباً إلى محلّ ليفاس. وكان الفرنسيون يخاطبون الفرنسيين. وفي الحقيقة كانوا يخاطبون كل الأحرار!

وزادت الطلعات الجوية للطائرات فوق جزيرتنا. لكنها لم تعد تلقي بقنابلها، بل ترشنا بأوراقها المتطايرة، والمكتوبة بأسلوب أفضل من أسلوب النازيين:

«أيها اليونانيون ابيدوا العدو! وحتى إذا احترقت قرية بكاملها مقابل ألماني واحد مقتول لا تترددوا! سوف نبني لكم قرى أخرى...».

لم ينتظر اليونانيون تشجيع البريطانيين كي يقاتلوا في الجبال وينظموا الاغتيالات في السهول. وإذا كانت الإذاعة البريطانية قد توقفت عن ذكر أخبارهم فليس معنى ذلك أن الخطأ يعود إلى أنصارنا. كان المدنيون والقرويون، الرجال والنساء، يموتون وظهورهم إلى الحائط، أو مشنوقين على الأشجار، أو مدفونين أحياء. ومن الأفضل عدم الإسهاب في ذكر الفظاعات التي ارتكبتها البلغار والألمان والطيان في اليونان المحتلة.

لقد تحولت القرى إلى أكوام من رماد وقتل الشيوخ والنساء والأطفال بدم بارد. ووصف عملاء بريطانيون سريون في مذكراتهم ألام الشعب وتصميمه على التحرر بكل الوسائل، في أن واحد... إلى أن حلّ اليوم الذي تلقى فيه الشعب نفسه قنابل الإنجليز وقذائفهم التي جاءت لتقضي عليه في عاصمته...

قبل بضعة أشهر من التحرير، ظلّت المخابز مغلقة في ايجين. لكن الأطفال المصابين والجائعين لم تعد تغطي وجوههم الجراح. وبدأ غابرييل ولتر يوزع عليهم الحساء. وتعامل معهم قائدا الجزيرة، المدني والعسكري، باحترام للحياة البشرية.

ذات يوم اكتشفتُ جندياً ألمانياً متلبساً بالسرقة، وكنا مقتنعين بأنه المسؤول عن سرقة بيت صديقنا كالموك. فساعدني القائد العسكري في التعرف على المتهم. لكنه أخفى غنيمته في بئر، لأنني أعلمته بما سأفعل. ولقد اكتشفنا تلك الغنيمة بعد مرور عدّة أشهر في المواجهة.

وبعد أيام قليلة كنا سنستريح في باحة بيتنا وقت الغروب، عندما انتبهنا إلى صفيح غريب.

– هل هو موسم تزواج الزواحف؟ سألتُ نيكوس غير مدركة الخطر.

– ربما، يا عزيزتي، لندخل، هيا! كلا، لا تضیی النور!...

ولم يكد يجلس على الأريكة، قبالتني، حتى انفجر صوتُ بلا صدى.

- كأنه مصراع نافذة اصطقق بالهواء، همس نيكوس، ومع ذلك ليس ثمة مصراع أو هواء. وكم كانت دهشتنا كبيرة في صباح الغد، عندما وجدت أنا وصوفي، إناءً مكسوراً في الخزانة وقد سال الربّي الذي كان يحتويه، وفي الربّي... رصاصة ألمانية. في البداية ظننا الأمر يتعلق بمزحة ثقيلة، لأن الخزانة كانت سليمة من جهة المطبخ. لكننا عثرنا في «الستوديو» على ثقب دائري يخترق جدار الخزانة، وآخر في زجاج نافذة تفتح على الشمال الشرقي. هز نيكوس كتفيه. وببساطة عاد إلى الجلوس في المكان الذي كان يجلس فيه ليلة أمس - وكانت الأريكة لاتزال تحتفظ بآثاره. لقد مرّت الرصاصة وكادت تلامس شعره.

كان الألمان يستعدون للرحيل عندما أعلمنا من أثينا بأن استخباراتهم ستفتش الجزيرة، وعلى نيكوس أن يختبئ في أقرب وقت ممكن.

بعد ظهر يوم سبت، أغلقت القيادة أبوابها، فلمحت القائد العسكري جالساً إلى الآلة الراقنة، خلف النافذة:

- هر كومنداننت، قلت له، زوجي يعاني من مرض خطير. ينبغي أن يسافر إلى أثينا. هلاً تكرمت، رجاء، بإعطائي ترخيصاً لمدة أسبوع؟

نظر إليّ نظرة ازدراء لا تخلو من طيبة. وكأنها تقول إنه لم ينخدع. ومن دون أن ينبس بكلمة، بحث عن استمارة وملأها.

- أنصح السيد كازنتزاكي أن يمدّد إقامته في أثينا أكثر من أسبوع. ومن صالحه أن يمكث هناك خمسة عشر أو عشرين يوماً...

جاء رجال الاستخبارات النازية ورحلوا. ولم يُزعج أحد في ايجين. وبعد التحرير كان هناك ألماني أو اثنان ممن فضلوا الاستسلام للإنجليز على العودة إلى الرايخ الثالث.

بدأت عمليات نفي يهود سالونيك في مارس ١٩٤٣. ولقد وصف اسحق عروش في الدفترين ٣١ و٣٢ من «أرشيف المقاومة الوطنية» كيف نجا عشرون

ألفاً فقط من أصل مئة ألف يهودي يوناني، وذلك بفضل جبهة التحرير الوطنية، والشعب اليوناني بوجه عام، في حين ساهمت فيالق الأمن التي سلّحها الألمان في إبادةهم. وهي الفيالق نفسها التي ارتدّت فيما بعد على بني شعبها.

لقد عاث النازيون والمليشيا اليونانية فساداً في البلاد. وأرسل هـ. نيوباخر، الذي عينه هتلر مسؤولاً عن العمل السياسي في اليونان، هذه البرقية إلى القيادة الألمانية:

«من الأفضل إعدام نساء وأطفال وشيوخ مسالمين، بدل التورط في مطاردة عصابات مسلحة وإبادتها حتى آخر رجل».

وهو الأمر الذي لم يمنع القوات النازية من اعتقال رهائن في أقفاص وجعلهم في مقدّمة قوافلهم العسكرية... أو وضع فتيات، في كريت، داخل شاحناتهم لجعل رجال المقاومة يترددون في مهاجمتهم..

وصف روجيه ميلياكس^(١) الأثينيين، وكان شاهد عيان، بأنهم أول من قاوم الاحتلال في أوروبا المحتلة. من عسانا ننقذ من النسيان؟ إلكترا أبوستولو...؟ ليلا كاراياني.. تلك الطالبة الشابة التي تشبّثت بالدبابة الألمانية، التي ستسحقها بعد بضع دقائق، راكلة رأس السائق النازي بكعب حذاءها؟.. الممرضات الشابات اللاتي قُتلن بجانب مشوهي الحرب بعد أن ألقت بهم حكومة كيسلنغ إلى الشارع...؟ الفتيان الثلاثة الذين استطاعوا بمفردهم مواجهة أكثر من مئتي ألماني؟

كم مرّة عدنا إلى ذكراهم «كي لا ننسى»؟ ومع ذلك كيف نستطيع العيش وإعادة بناء بلادنا إذا لم ننسهم؟

منذ بداية الحرب اصطف ستة أساقفة من الكنيسة الاورثوذكسية اليونانية بحزم إلى جانب الأنصار: رؤساء أساقفة خالسيديك، ايليا، كوزاني، أتيكا، كيوس وساموس. ولقد أعاد التاريخ نفسه. ففي مرحلة مقاومة الشعب اليوناني لإزاحة

(١) ر. ميلياكس: «في مدرسة الشعب اليوناني»، باريس ١٩٤٦.

النير العثماني، كان هناك أساقفة باركوا الطاغية، وآخرون دافعوا عن الشعب ورضوا بالموت معه. وكان هناك سياسون جيّدون وآخرون سيئون تماماً مثلما كان هناك أصدقاء لليونان طيبون، وآخرون سيئون. فكان كريس وودهاوس عدواً لدوداً لجبهة التحرير الوطنية، ومع ذلك اضطرّ إلى الكتابة: (١)

«... بعد سيطرة رجال جبهة التحرير الوطنية وحركة التضامن الوطني على كلّ الأراضي تقريباً، باستثناء طرق الإمداد التي يستخدمها الألمان، استطاعوا مدّ البلاد بأشياء لم تشهدّها من قبل: الاتصال عبر الجبال باللاسلكي، والبريد والهاتف. وتمهيد الطرقات، ومدّ شبكة الاتصالات، بما فيها الاتصال بالراديو، إلى أبعد من جزيرة كريت أو جزيرة ساموس حيث كان ينشط رجال العصابات. وتسّلت مكاسب الحضارة والثقافة للمرة الأولى. فأعيد فتح المدارس، والإدارات المحلية، والمحاكم، والمؤسسات العامة التي شلّتها الحرب. وافتتحت لأول مرة، مسارح، ومعامل، وجمعيات برلمانية. وبدأت الحياة المشتركة تحل محل الفردية التقليدية التي كانت تميّز الفلاح اليوناني.... دولة منظمة في الجبال اليونانية!»

وهذا التقدّم تحديداً هو الذي استهدفه، وحقد عليه، أقصى اليمين وعلى رأسه ونستون تشرشل. وهكذا نظر إلى جبهة التحرير الوطنية التي كانت تضمّ بين أعضائها ثلاثين أستاذاً جامعياً وستة رؤساء أساقفة، وعدة مئات من القساوسة، وعضوين في الأكاديمية، على أنها منظمة يسار متطرف وتروتسكيين. (٢)

يوم ١٤ أكتوبر ١٩٤٤ تحررت أثينا. لكن ايجين لم تتحرر بعد. إذ تلقّأ الإنجليز المقيمون في الجزر المجاورة. والغريب في الأمر أنهم سرعان ما خالطوا المتعاملين القليلين مع الألمان، حال وصولهم إلى ايجين. ورأى كازنتزاكي ما هو أسوأ من ذلك في كريت.

(١) كريس وودهاوس «أسباب الشقاق».

(٢) انظر برقيات و. تشرشل إلى ف. روزفلت في «مذكرات» تشرشل.

وقبل مغادرة القائد المدني ايجين، قرر عدم إحراق المؤن والأدوية التابعة لجيش الاحتلال. واكتفى بإحراق البزات العسكرية. وعندما علم سكان ايجين بالخبر السعيد هجموا على الكنوز المشتهاة. ونسوا، لشدة ابتهاجهم، أن مقاعد المدرسة والبلو والكراسي والأبواب، ملّكهم فحملوها مع الغنيمة الألمانية.

- هيا ، بسرعة، ناوليني كيسين فارغين! توصلت إليّ خادمتنا صوفي، وعيناها تلمعان طمعاً.. يكفي أن أصل في الوقت المناسب حتى تدركي أنني لست امرأة ناكرة للجميل!

بمّ ستملاً صوفي الكيسين؟ بمعلّبات، ولحم خنزير مملح، وطحين؟ أم بصحون وأدوات مطبخ؟

- هذه لك! إنها أفضل ما تحبّين! قالت لي وهي ترفع الكلفة حيناً، وتعود إليها حيناً، كلّ هذا لك كيرامو! (سيدتي!).

عيل صبر صوفي وظلت تنتظر ردّ فعلي. وقلبتُ الكيس فإذا بقراية مائة لفّة من الورق الصحي تتدحرج عند قدمي!

وكنا نستعد لمغادرة ايجين عندما عمد الصليب الأحمر إلى توزيع «الهدايا» الأميركية على السكان. أه، ليت السينمائي «بونويل» كان معنا آنذاك في مرفأ ايجين!

نادى المنادي، على ظهر حمار، كي يتجمع السكان أمام الميناء في الساعة الخامسة مساءً حيث سيتم توزيع الهدايا بالقرعة. فمن أية نفايات جمعت تلك الهبات؟

كان كل واحد يفتح علبته فيتخلّى عن صمته ووجومه ويندفع مبتهجاً وفجأة أعطى أحدهم إشارة. وبسرعة تنكّر الجميع بتلك الأثواب: فساتين دنتيلا للحفلات، بدلات على الطريقة الصينية، قبّعات من ريش، بناطيل صيد، وأحذية بالخصوص، أوسع مما يجب أو مفرطة في الضيق. فتحول سكان ايجين إلى شخصيات غريبة. وحصلنا بدورنا على بنطال أخضر وفستان إغراء، وزوجي

«صندل» بقياس تمثال الحرية.

ولم يكد الألمان يغادرون الجزيرة حتى طرق رجال الدرك بابنا:

– إلى المركز بسرعة! – لماذا؟ – لكي نمزح قليلاً! هيا، بسرعة!

وسدداً حربتيّ بندقيتيهما نحوي عندما حاولتُ منعهما من الصعود إلى نيكوس. وبما أن هذا الأخير لم يدرك بسرعة ماذا يُراد منه، رفع أحد الدركيين نبرة صوته. فصرخت به فاقدة السيطرة على أعصابي:

– عليك أن تكون مهذباً معه، يا بانايوتي، عامله باحترام وإلا صفعتك!

فانطلق نيكوس مقهقها:

– بل جهزي لهما فنجان قهوة، يا لينوتشكا، إنهما ضيفان عندنا، ولا بد من أداء الواجب. سلكننا طريق ايجين، بين حربتيّ بانايوتي ورفيقه. وكان نيكوس شارد الفكر، وكتاب دانتى الصغير في يده، وأنا منزعجة لهذه المسيرة المحاصرة بحربتيّ.

– هل تخشيان أن نظير فجأة؟ تكلمما، تبّاً لكما! ماذا أصابكما؟

– الأوامر هي الأوامر. وأنتما شيوعيان.

– شيوعيان؟ ماذا، شيوعيان؟

– لا تلعبى معنا، يا سيدة لينيتسا. هل تشاهدين تلك الأضواء، هناك، على قمة الجبل؟ إنهم الشيوعيون. وهم يقتلون رجال الدرك في كل مكان. بالأمس أيضاً قتلوا أخي لذلك أقسمت بدوري أن أقتل كل الشيوعيين...

– يا بانايوتي، ألم يسبق لك قتل إنسان؟ – كلا. – ولا حتى ألماني! – كلا: وتريد أن تبدأ بنا؟

مكثنا محبوسين عدة ساعات في المركز، حتى بدأت أركل الباب بعنف وأصرخ بأقذع الشتائم. واغتظت من نيكوس الذي كان ينظر إليّ مدهوشاً، بل شبه مشفقاً..

في تلك السنة (١٩٤٤) كان نيكوس ينوي كتابة «اكريتاس» وهي ملحمة بيزنطية على طريقة «الأوديسة». لكنها «لم تأت من صلبه» كما يشتهي، فتخلّى عنها. وبعد «كابوديستريا» وترجمة «الأمير» لمكيافلي، كتب مسرحية بيزنطية جديدة بطلها آخر أباطرة بيزنطة الذي مات في ساحة المعركة، يوم استيلاء الأتراك على القسطنطينية في ٢٩ مايو ١٤٥٣.

ولم يتخل عن تفاؤله الدائم فذهب إلى أثينا إثر التحرير مباشرة. وكان أحد مشاريع ج. باياندرينو، تخلص سيكليانوس وكازنتزاكي من الهموم المادية. ولقد تحقق الجزء الأول من خطته - إقرار قانون يكافئ جهود الأكاديميين - من دون صعوبات. أما الجزء الثاني بتعيين سيكليانوس وكازنتزاكي عضوين في الأكاديمية، فقد باء بالفشل. وكانت الحرب الأهلية توشك على الانفجار.

وشاهدنا، في ساحة الدستور، مذبحه الجماهير المسالمة. ولاحت آمال الوفاق مستحيلة. وكان مركز القيادة الأنجلو - يونانية موجوداً بـ «فندق بريطانيا العظمى» في الساحة نفسها. كما كان شارع «أصدقاء اليونان» الذي سكنا فيه مؤقتاً، قريباً جداً، على بعد خطوتين، أمام مركز القيادة. وفيه كان أصدقاء اليونان يمطروننا بقذائفهم ورشاشاتهم. فنخاطر بحياتنا من أجل كسرة خبز. وعندما نسأل سائقي الدبابات الانجليز لماذا يطلقون النار على حلفائهم، يجيبون، مذهولين بدورهم، بأن تلك هي الأوامر!

لقد حشدوا دباباتهم من أجل مطاردة «الشيوعيين» الذين كانوا يفلتون منهم بالهروب من بيت إلى بيت. فيخرج سكان البيت المستهدف إلى الشرفة أو إلى عتبة البيت: ليس هناك أنصار في بيتهم، وحتى إذا كانوا هناك فقد هربوا عبر الحيطان المشتركة.

– Sorry! يقول أولئك الجنود المهذبون، عندئذ، Sorry! ثم يسددون مدافعهم نحو البيت المجاور.

في تلك الأيام الصعبة، كانت سيدات «أرستقراطيتنا» يوزعن الخبز. وكانت ماري، إحدى بنات أخت سيغريداكي، تعرفُ واحدة منهن تُدعى السيدة

ميلاس. فذهبتُ وماري لنصطف في الطابور. وعندما حلّ دورنا، أنكرت السيدة ميلاس حقّ كازنتزاكي في الأكل.

وجُردنا أيضاً إلى مركز الشرطة مع خادمتنا سولا الجميلة. وهناك لُزمتُ الصمت. ففي جزيرتنا كان الجميع يعرفوننا. أما في أثينا فأعرف أن الناس يُقتلون بلا تردد. ولقد شاهدت عملية إعدام بلا محاكمة^(١) في قلب الشارع، أمام أمهات ورجال وأطفال مذعورين. ولا أحد - ما أَجْبَنَّا يا إلهي! - ارتمى على الضحية كي يخلصها من جلادها. والشيء الوحيد الذي استطعتُ فعله هو الانزواء للتقيؤ...

منذ نشر «الأوديسة» صارت تيّاً أنيموياني تستقبل «جلسات أوديسيّة» كل يوم سبت. فيجتمع الأصدقاء. ويقرأ يورغوس لولاكاكي مقاطع من الملحمة بصوت جهوري بينما يتولى ميخالي اناستايسو أو ديمتري أبوستوبولو، والأخوان دسبوتوبولو التعليق عليها، وينطلق النقاش... وخلال الاستراحات تقدّم تيّاً حلويات مصنوعة بتين كريت وعنبها، مزينة بالسّمسم. وبعد فترة غادرنا شارع «أصدقاء اليونان»، والتجأنا إلى ياني وتيّاً أنيموياني. فصار الأصدقاء القدامى والجدد، الشباب والمسنّون يقبلون لزيارة شاعرهم العزيز، لمدة قاربت العام. وأحيانا يقوم أحد الحضور ويغادر في أوج الجلسة. وغالبا ما يكون شاعراً حديثاً، من دون أن يكون سيئاً أو رديئاً. وكان نيكوس يحترم رأي تلامذة إليوت الذين وجدوا الأوديسة «مضادة للحدّاث». فلا يكره عناد الشاب، خصوصاً أنه يحبّهم.

وكان هناك نوع آخر من الاجتماعات في بيت تيّاً: اجتماعات مصالحة سياسية. إذ كان الشيب والشباب يأتون للتّحاور حول مستقبل اليونان، المقلق. وسوف تتمخّض تلك الاجتماعات، سنة ١٩٤٥ عن «الرّابطة الاشتراكية العمالية» التي سوف يترأسها كازنتزاكي.

ما زال الإنجليز والألمان يتجولون في كريت. ولقد استولى الإنجليز على كلّ ما

(١) قام أحد رجال الميليشيا بإعدام رهينة رمياً بالرصاص، صائحاً إنه بلغاري!

تركه الألمان بسبب ضيق الوقت، لدى انسحابهم. أما الألمان فظلوا يتجولون بأسلحتهم. فكلفت الحكومة أستاذين من جامعة أثينا، هما يانيس كاكريديس ويانيس كاليونسوناكيس بالذهاب إلى كريت صحبة نيكوس كازانتزاكي والمصور ك. كوتولاكي، من أجل إعداد تقرير حول ألام الجزيرة الشهيدة أكثر من مرة.

تشانيا، ١١ يوليو ١٩٤٥ (١)

حبيبتي لينوتشكا،

مرة أخرى في تشانيا! تعطلت سيارتنا، ونسعى، بصعوبة، للحصول على إطارات للعجلات، أو على سيارة أخرى من الإنجليز... استعرننا أمس سيارة المطران. وطفنا ببعض القرى.

ألام كريت فظيعة. في إحدى القرى لم تستقبلنا سوى النساء، وكن يرتدين السواد، لأن الرجال أعدمهم الألمان. وهناك قرى مدمرة بكاملها، ومحرقة. ولا يمتلك السكان شوكة أو كأساً، أو ثياباً، أو نبيذاً. ويبدو أنهم لا يستطيعون أن يقدموا لنا شيئاً. القلب يتحطم...

.... لم نحصل على سيارة بعد، وعذابنا شديد. ربما ارتحلنا غداً باتجاه ريثمنوس.

هيراكليون، ١٩ يوليو ١٩٤٥ (٢)

أنا الآن في هيراليون، السيارة متعطلة مرة أخرى، ويجري تصليحها. وهكذا لن نقوم بجولة اليوم...

تغيرت هيراكليون: أنقاض، بيوت أيلة للسقوط، سكان جدد، والذين كنت أعرفهم، منهارون أو موتى.... أجوب ذكريات مرة ولا أشعر بأدنى فرح. يصعب تأليف كتاب عن كريت لأنني أحس بالاختناق... هذه الرحلة مأسوية، جدّ منهكة...

هذه الأسطر التي كتبها نيكوس على ركبتيه لا تشكل جزءاً من ألف، مما شاهدته في كريت. ولقد جاء التقرير الذي أعده بمشاركة الأستاذين كاكريديس وكاليونسوناكيس، في صفحات كثيرة. وكانت الصور لا تطاق. فعلى كل باب في القرى التي مرّ بها الألمان، يوجد صليب أو أكثر، باللون الأسود. وأحياناً تكون

(١) و(٢) رسائل إلى ايليني ساميوس.

هناك أربعة صلبان أو أكثر، بعدد الرجال الذين أبادهم النازيون.

«كان لي خمسة أبناء، قالت إحدى النساء المسنّات. ولم يبق لي لي أحد - لماذا قتلوهم؟ لأنني أخفيت الإنجليز - ولماذا كنتِ تفعلين ذلك؟ - لأنني كنت أفكر في أمهاتهم...»

وفي موقع قرية أخرى لم يتبق سوى رماد سطّحته البلدوزر، وصليب خشبي: «هنا كانت توجد قرية كاندانوس التي مُسحت لأخذ العبرة».

كم كاندانوس - أورادور^(١) شهدت كريت؟ ولماذا عمد الإنجليز إلى منع أصدقائهم من كشف ذلك؟ إذ. بذلوا كل جهودهم لإعاقة عملهم. سيارات؟ لقد كان عندهم الكثير، لكنهم بخلوا بها. وفي المدن الكبرى شعر الرجال الثلاثة بالغضب والقرف أمام الغطسة التي كان الألمان والإنجليز يتبادلون بها التحية برغم أنوف السكان البائسين الحزانى...

إنّ عملية خطف جنرال نازي برتبة ثانوية - الجنرال كريب - والتي خطط لها ونفذها عميلان إنجليزيان بمساعدة أنصار كريتين، لم تخدم الكفاح التحرري في شيء، بل قدمت مبرراً للنازيين كي يدمّروا القرى التي مرّ بها الخاطفون. ولقد اصطحب كازنتزاكي واحداً من الأنصار الخاطفين وتجولا في القرى التي دمرها الهيجان النازي. وفي كتابه الذي ألفه في كمبريدج سنة ١٩٤٦، وصف رحلته في كريت، كما رواها لي بصوته:

... بدأت الظلال تتمدّد. وصل مانوليوس وكوسماس ونؤيمي إلى أول قرية. فدخلوا. كان هناك بيت، أو بيتان سليمان. ومن بين الأنقاض ظهرت نساء يرتدين أسمالاً، ورمتهن فتاة بفرع حبق: «مرحباً بكم!» صاحت:

- هي ذي القرية الأولى التي مررنا بها، قال مانوليوس. نحن مسؤولون عن مصيرها. فليغفر لنا الرب! وصل الألمان بعد بضعة أيام، جمعوا النساء وحبسوهم في الكنيسة، ثم جمعوا الرجال في ساحة القرية «هل مرّ الأنصار من هنا مع الجنرال؟ -

(١) مجزرة ارتكبتها الألمان في فرنسا (المترجم).

نعم. - في أي اتجاه ذهبوا؟ - لا نعرف. - تكلموا وإلا قتلناكم كلكم! - لا نعرف!« عندئذ اختاروا أربعين رجلاً من بين الأقوياء وأخذوهم إلى المقبرة حيث صفّوهم إلى الجدار... ومزّ رجل أحـدب، قصير، بئس، ونحيل. فخطب الألمان: «أخجل من العيش، أنا الأحـدب، في حين سيُعدم هؤلاء الأقوياء. اقتلونني واعفوا عن أحدهم.» فقهقه الألمان وامسكوا بالأحدب القصير وضمّوه إلى الأربعين....

بلغوا الآن ساحة القرية: المقاهي المحيطة بالساحة، والكنيسة، والمدرسة كلها أنقاض. اجتمع الفلاحون: كلهم مسنّون، وحضرت بعض النسوة أيضاً فوقفن وراء الرجال. رفع شيخ بارز العظام، قبعته، وتقدّم الآخرين لأنه أكبرهم - لا نملك كأساً حتى نسقيكم إذا كنتم ظمأنين، لا نملك خبزاً حتى نطعمكم إذا كنتم جائعين... لا نملك شيئاً، شيئاً، شيئاً!

- لا يوجد حتى رجل تتحدّث إليه، قالت إحدى العجائز، انظروا لا يوجد إلا شيوخ وعجائز.

- هؤلاء هم الرجال الوحيدون الذين تبقوا لنا، قالت عجوز أخرى مشيرة إلى بعض الصغار الذين كانت أمهاتهم يرضعنهم. إذا مات هؤلاء تتلاشى القرية.

- ألم يقدّموا إليكم حديداً وأجرأً، منذ ثلاث سنوات، حتى تتمكنوا من إعادة بناء بيوتكم؟ سأل كوسماس.

هزّ كبير القرية رأسه:

- ومن الذي سيقدم لنا ذلك؟ ومن الذي سيبنّي؟ ننام في الكهوف شتاء، وبين أنقاض بيوتنا صيفاً. لم نعد قادرين على التحمّل. اتركونا بسلام!

ثم التفت نحو مانوليوس:

- فليجارك الله بالمثل يا مانوليوس، قال.

- قمتُ بواجبي نحو الوطن، أجاب مانوليوس بهدوء. كانت الحرب.

- فليجارك الله بالمثل، كرّر الشيخ.

- حتى الحرب تأتي بمشيئة الإله، قال مانوليوس.

- البيت والأطفال والزوجة يأتون أيضاً بمشيئته، يا مانوليوس. في ذلك اليوم قتلوا

طفلي، وأنت تعرف ذلك، في ذلك اليوم احرقوا زوجتي، عفوك إذا قلت كلمة زائدة...

... بلغوا الآن سهلاً صغيراً مقفراً. بعض السنابل بدأت تصفر. وهناك قليل من زهور شقائق النعمان المتباعدة ظلت محافظة على بذورها. كوخان أو ثلاثة تحت أشجار الزيتون، ونساء يوقدن النار لإعداد الأكل، والهواء يعبق برائحة عيدان الكروم المحروقة... مرّت عجوز قصيرة القامة، حافية القدمين، رازحة تحت حمل من الحطب:

– مرحبا بكم يا «أفنديكا»! قالت، ثم توقفت كي تتفرج مذهولة على المشهد ثلاثة كائنات بشرية تمرّ أمامها.

– كيف حالك، يا كيرا؟ سألها كوسماس. كيف تعيشين؟

– كما تعيش الكلاب، يا بني! أجابت. هل أنت كريتي؟

– نعم.

– إنني أباركك! انجب أطفالاً، لقد فرغت كريتي. انجب أطفالاً حتى لا تختفي كريتي من وجه الأرض. فنحن نحتاج إليها...

أخرج مانوليوس من حزامه كيس التبغ ولفّ سيجارة.

– المسكينة كونستانطينيا، كان لها أربعة أبناء، أقوياء... الأربعة التحقوا بالأنصار... ذات يوم سبت، صباحاً، نزلوا إلى القرية للاحتفال بعيد الفصح مع أمهم، ليلاً. مع طلوع الفجر، وصل الألمان، فدخلوا إلى بيتهم، واعتقلوهم.. ارتمت أمهم على قدمي الضابط الألماني. فشرع يضحك:

– اختاري واحداً من الأربعة، قال، ولن أقتله.

نظرت الأم إلى أبنائها الأربعة مرتجفة. مَنْ تختار؟

– أماء، قال ابناؤها العزّاب الثلاثة، اختاري نيكوليس. إنه متزوج، وله عائلة. لكن نيكوليس اغتاظ: أنا أنجبت أطفالاً، قال، ولم تضع البذرة. فليعيش واحد منكم، أنتم الثلاثة، ويتزوج، وينجب أطفالاً بدوره. وطفقوا يتعاركون، كلّ واحد منهم يريد إنقاذ الآخر. وسرعان ما ضاق الضابط ذرعاً فأمسك بالعجوز وألقى بها في الحفرة، ثم رفع يده وأصدر أمره فهوت السروات الأربع وغطت الباحة...

تقدّموا من دون كلام... اجتازوا السهل، ولاح شغب في الجبل، فولجوه.

- هي ذي القرية! قال مانوليوس.

نظر كوسماس فلم يستطع تبين شيء، سوى أكوام حجارة فوق أكوام حجارة، على منحدر التلة...

نطّ كلبان أو ثلاثة من بين الأنقاض. فارتفع النباح. وكان الليل قد خيم.

- لا أرى نوراً، قال كوسماس.

- من أين العثور على الزيت، من أين العثور على النفط؟ أجاب مانوليوس. هنا، عندما تغيب الشمس، تختبئ الكائنات البشرية بين الأنقاض، تأكل وتنام من دون ضوء، مثل الطيور الكواسر.

لاحت خمسة أو ستة وجوه، وراء الحجارة.

- مرحباً بكم! مرحباً بكم! إلى أين أنتم ذاهبون؟

- إلى بيت العجوز سورميلينا، أجاب مانوليوس. فهي التي ستؤويننا.

- هل جلبتم معكم بعض القوت؟ سأل صوتٌ منكف.

- نعم.

- إذاً سوف تأكل العجوز سورميلينا أيضاً. فهل جئتم بما تتغطّون؟

نعم.

- إذاً في إمكان العجوز سورميلينا أن تتغطّى أيضاً، قال الصوت مجدداً، فارتفعت الضحكات والقهقهات من وراء الحجارة.

- إنهم يضحكون، هنا. قال نويمي. ألم يتعذبوا؟ أم تراهم قهروا الألم؟

- في البداية بكوا، أوضح مانوليوس، ثم أدركوا أنّ البكاء لا يجدي نفعاً، ففضلوا الضحك...

عرض سوفوليس، الذي عين رئيس وزراء، على كازنتزاكي أن يشارك في حكومته كوزير من دون حقيبة. وكان ينوي من وراء ذلك إيفاده إلى الولايات المتحدة والمكسيك وإنجلترا للمطالبة بإعادة إعمار اليونان. وسمح له باختيار معاونيه. وسرعان ما فكر نيكوس في انجيلوس سيكاليانوس، ذلك الرجل الأقدر

على إقناع مستمعيه. وكذلك أنا زوجته. ومن أجل التمكن من مرافقة نيكوس إلى الولايات المتحدة، وخدمة القضية المشتركة من دون تعقيدات غير مجدية، قررنا، بعد ثمانية عشر عاماً من المعاشرة الحرّة، أن نتزوج.

وبدأ نيكوس الوزير، يعمل بضرادة.

(أثينا) الثلاثاء (١٩٤٥) (١)

لا أستطيع وصف التعب والعذاب اللذين أتكبدهما... ارتموا عليّ كلّهم، كي أوفر لهم مناصب... فأتصلُ بالرئيس، وأركض وأصارع - وفي الوقت نفسه أجمع الوثائق لأمريكا-دراسات، مقالات، صور، أفلام عن المجاعة، الخ... وكثيراً ما أغادر بيتي (٢) في الصباح، منذ السابعة والنصف - من دون أن أتناول شيئاً في بعض المرات لأن أختي بالمصادفة تأخرت - ولا أعود إلا في منتصف الليل. كلّ الأصدقاء يلاحقونني بالحاح وأنا أبذل ما في وسعي.

... هناك آلاف الأشخاص البارزين يطلبون المساهمة في المهمة. وأخشى أن تصير التشكيلة رديئة إذا لم يتدخل رئيس المجلس. كثيراً ما أقابله لبضع دقائق فقط، ويعدني دائماً بإعطائي ساعة من وقته....

وثمة كتّاب كثيرون يتمنّون الانخراط في الأكاديمية، ويرغبون في الحصول على ميداليات، ومكافآت، ومناصب ومهام، فيركضون ورائي ويكلفونني برغباتهم وآمالهم. وكالعادة أتعب كثيراً لأنني أتبنّي رغباتهم وأعتبر كلّ فشل إخفاقاً شخصياً.

لديّ الكثير مما أقوله لك، لكنني متعب. انجيلوس بدوره... منهك. ما أصعب العيش مع الناس...

توثقت الصداقة بين الشاعرين خلال أيام الحرب الأهلية السوداء. وعاش الزوجان سيكليانوس مأساة مريعة: إذ قُتلت شقيقة أنا. ببلاهة، في أحد شوارع أثينا.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس كارنتزاكي.

(٢) كان نيكوس، آنذاك، يسكن عند أخته الصغرى، هيلينا، أما أنا فقد عدتُ إلى إيجين.

(بلا تاريخ)

أخي انجيلوس،

لا يمكن وصف ما يحدث: سوف أزورك قريباً ونتحدث. أعيش بدوري كلّ ألام عرقنا، لكنني أمل أن تنتهي المأساة في غضون أيام قليلة – فصلها الأول على الأقل. كن معافى، ولن أخشى شيئاً. «ن».

وعندما يكون كازنتزاكي في الوزارة، كثيراً ما يرجوه سيكليانوس أن يتدخل لإنقاذ أبرياء من المجاعة المتفشية في البلاد. فيسرع نيكوس إلى إجراء ما هو ضروري:

أخي انجيلوس،

سوف أبذل قصارى جهدي، وأحاول مقابلة الرئيس إذا أمكن، سوف أكتب له رسالة حارة، لأنني أدرك مدى دناءة الواشين وظلمهم.

إننا نمرّ بأيام سوداء. وأنا أكافح بلا هوادة لإنقاذ الأبرياء، ولا أدري بعد ما هي نتائج تدخلي. ليحكم الله؟ إنني أفكر فيك كل الوقت. يتوجب علينا أن نعمل كثيراً. جنسنا في خطر...

إرخاء القلوس (x)
1957 - 1946

(x) حبال السفينة

بدأت سنة ١٩٤٦ بداية سيئة بالنسبة لليونان، لكنها حملت لنا خبراً سعيداً: راحيل مازالت على قيد الحياة! إذ استطاعت النجاة من النازيين في فرنسا. وعلى الرغم من العيش مثل حيوان مطارد، فقد تمكنت من العمل، وتأليف كتاب جميل، وإنقاذ أطفال يهود من الأيدي الإجرامية.

أثينا، ١٠ يناير ١٩٤٦ (١)

تلقيت رسالتك وكتابك «ديونيزوس»... وقرأتهما بلهفة. مازلنا نعيش يا راحيل، ويمكننا أن نتعذب. (٢) Gott sei dank. ما شاهدته وسمعتة وتعذبت بسببه، أنا أيضاً، خلال الأعوام الحمراء والسوداء الأخيرة، لا يمكن أن تعبر عنه الكلمات. وحده الفعل العنيف يستطيع ذلك.

عزيزتي العزيزة راحيل، عندما أفكر فيك، تلوح لي الحياة لغزاً ذا عينين سوداوين واسعتين، سوف تظلين معي شعلة عنيفة صامته، حتى آخر بريق في حياتي. مباركة هي المادة التي طوقت تلك الروح وحبستها وأعطتها شكلاً ملموساً يدعى راحيل!

أمّا إلسا فلم تظهر إلا بعد ستة أعوام. وكنا قد توقفنا عن الأمل. إذ اعتبرنا «المرأة الصغيرة الصامته» اختفت إلى الأبد خلال القصف الجنوني على دوسلدورف، أو في أحد معسكرات الاعتقال النازية... لكن النبأ السعيد فاجأنا ذات يوم. كانت لاتزال تعيش، ووعدتنا بزيارة. ومن المستشفى كتب إليها نيكوس، على الفور:

أوترخت ٢-١٢-١٩٥٢

عزيزتي، عزيزتي، عزيزتي إلسا، لماذا تركتني في ياس تلك الأعوام الطويلة السوداء؟ لم أعد قادراً على التفكير فيك لأن الألم كان لا يطاق.

لحسن الحظ أنك مازلت موجودة على وجه الأرض، أنت وزوجك ودوروتي! أنا أيضاً مازلت هنا! أعمل، وأشعر بالفتوة، ويتجدد الكون، كل صباح، أمام عيني السوداوين النهمتين. ومازالت ايليني هنا، بجانبني دائماً، متفانية، وفيّة. كم كانت الألام كثيرة غير

(١) رسالة إلى راحيل.

(٢) بالألمانية في الأصل: شكراً للرب (المترجم).

أنَّ كلَّ شيءٍ انتهى وما زال القلب خالداً.

لا أستطيع اليوم أن أكتب لك أكثر، إنَّ فرحي عارم.. عزيزتي، عزيزتي، عزيزتي إلسا،
مرحباً بك!

نيكوس.

لو كان الأمر يتوقف على نيكوس وحده لرفض رؤية كلِّ النساء اللائي أحبَّهن
من قبل. وهو يعترف بذلك ويذكر لنا الأسباب في رسائله. فنجدته يتنازل باسم
الصدّاقة ويفعل المستحيل حتى لا يعكّر الصورة الأولى التي يحتفظ بها في
داخله.

في باريس توصلت راحيل إلى إنقاذ نفسها بالضحك. وفي صالون السيدة بيبو
الواسع، كانت راحيل الحيوية، المكورة، تنفجر ضاحكة وهي تروي طرائف
حياتها في السنوات الأخيرة: المشردون اليهود الذين كانوا يثورون لأن الأكل يُقدم
لهم في جفّات، الفتيان الذين يعقدون محكمة لمحاكمة أحدهم... وكان يمكننا
البكاء، لكننا نضحك، وعينا راحيل تلمعان فتمدّان جسراً على الهاوية...

مع إلسا، كان الوضع مختلفاً. لقد جاءت إلى أنتيب مع زوجها، وابنتها «هبة
الإله» فلم تكد تتمكن من رؤية نيكوس، لأنه أصيب، خلال زيارتها، بحساسية
شوّهت شكل شفّته مرّة أخرى.

فكانت «المرأة الصغيرة الصامّة» تأتي، برقتها المعتادة، لتجلس على «مقعد
فولتير» بينما يختبئ مضيفها في أبعد مكان ممكن، منزوياً في أريكته، وتبدأ
بطرح الأسئلة وانتظار الأجوبة، في الظلام.

كانت الرؤية شبه متعذرة والصوتان يتلمّسان ويتقدّمان مستكشفين
التفاصيل والذكريات. فتمرّ الساعات وتقوم قرون الاستشعار لدى الأعمى
بدورها، بينما يزهر القلب بمستقبل ممكن.

هناك أعوام مثل قذائف الطريد البحرية التي تصيب مراكب البشر الهشة

ويمكن لتوجيه الدفة أن ينقذ السفينة. غير أن القبطان الجاهل أو الجشع يفضل الإعلان عن الغرق. فينادي دماره وقد أعماه بريقٌ ربحٍ قصير المدى.

لقد اتخذت سنة ١٩٤٦ شكل ذلك الطرديد. ولم يكن الشعب قادراً على رؤيته. أما القادة القادرون على ذلك فكان بعضهم عاجزاً أو جباناً، في حين نظم البعض صفوفه من أجل القرصنة التي تنشط عقب غرق السفينة.

ظلّ كازنتزاكي يراقب، ويثور على عجزه الشخصي وعجز أصدقائه الاشتراكيين الذين يترأسهم شرفياً. يقيناً هو ليس رجل سياسة. فلماذا لا يسلك طريق الزعيم الروحي؟

يعود السبب إلى كونه لم يتوصل، في داخله، إلى العثور على الأسطورة الجديدة التي بحث عنها طيلة حياته. ولم يعرف ماذا يقدم لذلك الشعب الذي يحبه، والذي تتأهب طبقة فاسدة وكاسرة لاستغلاله بلا رحمة. فهل يحق له الكشف عن نتيجة زهده: «من يقفز إلى النار لا يمتلك سوى صرخته ملجأ»؟^(١) أم يتوجب عليه، كما سجّل في دفاتره، أن يبشر بمثل أعلى يفوق قدرات الإنسان دائماً، من أجل إيقاظ القوة الصوفية، والتوتر المؤلم والخصب، للروح النازعة إلى المستحيل؟ ولما أدرك عدم جدواه، فكّر في الاستقالة. ولقد أتاحت له الفرصة في وقت أقرب مما كان يتصور، بفضل جنرال إنجليزي ضرب بعصا خيزران على الطاولة.

كانت حكومة سوفوليس مجتمعة بكاملها للتصويت على قانون يعود، بموجبه، أفضل الضباط الفينيزيليين إلى صفوف الجيش بعد أن استبعدتهم دكتاتورية ميتاكساس والاحتلال الأجنبي. وأجمع الوزراء اليونانيون الأربعون على ذلك. لكن الجنرال الإنجليزي «سكوبي» فرض حق النقض ضارباً الطاولة بطرف خيزرانتته.

وبعد بضعة أيام، استقال كازنتزاكي.

(١) رينيه شار.

يوم ٢٥ مارس، عرض المسرح القومي مسرحية «كابودستريا» بمناسبة العيد الوطني وبكى العديد من المشاهدين في القاعة. وكان المدير الجديد للمسرح كاتباً شاباً: هو يورغوس ثيوتاكيس. غير أن تلك الفرحة لم تلبث، كما جرت العادة، أن عكّرتها حملة معادية شنها مغتابو نيكوس.

ألح أصدقاء نيكوس كازنتزاكي على ترشحه لجائزة نوبل هو أيضاً. وفي تلك الحالة أيضاً، كان نيكوس استثناء للقاعدة. وبصفته رئيس «جمعية أدباء اليونان» فقد وافق، قبل ذلك ببضعة أسابيع، على قرار الجمعية نفسها ترشيح سيكليانوس لنيل جائزة نوبل. لذلك لم يشأ القيام بأي تحرك من شأنه أن يعرقل نجاح صديقه. وطلب من تيا أن تمده بأدبيات الأكاديمية السويدية للتمعن في دراسة المسألة. ذلك أن الأدب اليوناني غير معروف جيداً في الخارج، وحظّه في النجاح أقل من حظوظ البلدان الأخرى. ففكر نيكوس في الجمع بين الاسمين^(١) كي تتاح فرصة نجاح أوسع لليونان. وقبل إجراء أية خطوة اتصل بسيكليانوس ليعرف رأيه. فتحمس الأخير للفكرة: «وهكذا أضع التاج على رأسك بيدي، قال مازحاً، وتتوّجني أنت أيضاً».

استعدت جمعية الأدباء لترشيح كازنتزاكي. لكنه طالب بتسجيل شرط ضروري ضمن الترشيح: «لن يقبل كازنتزاكي الجائزة إلا إذا قسّمت بينه وبين الشاعر الكبير أنجيلوس سيكليانوس».

وسافر إلى لندن مرتاح الضمير حيث كال المدائح لسيكليانوس في إذاعة الـ بي. سي. سي. بعبارات حماسية، معتبراً إياه من أكبر الشعراء. غير أن أصدقاء صديقه شنّوا حملة وشاية وثّلب ضد الرجل الذي لا يرقى الشك إلى نبلة وطهارته.

قبل سفره إلى إنجلترا^(٢) عاد كازنتزاكي إلى ايجين ليتأمل حصيلة إقامته في أثينا: إن السياسيين مسطّحون وقصيرو النظر، ولا يمكنهم أن يشكّلوا بديلاً.

(١) ترشح مزدوج ومطابق لقوانين الأكاديمية السويدية التي تجيزه.

(٢) بدعوة من المركز البريطاني.

ولعلّ هذه، هي مهمة مثقفي العالم.

لندن، فندق سانت جيمس كورت، (١)

بيكنغهام غيت، مينستر هاوس

غرفة رقم ٢٩٦

٩ يونيو ١٩٤٦

... وصلت ليلة أمس. كانت السماء تمطر. لا أحد في المحطة. ملايين الزائرين (٢) في لندن للاحتفال بالأعياد. يستحيل العثور على فندق. حملت حقائبي في الظلام ولعنت الساعة التي غادرت فيها ايجين. وفي النهاية اقتربت من شرطي (٣) وفسرت له وضعي. اصطحبني وشرع يتلفن. كان سكران، لكنه يتحلّى بالشهامة. كانت يده ترتعش فيخطفني في تركيب الأرقام... ذهبنا إلى المركز فوجدنا موظفاً أعلى رتبة، لكنه كان ثملاً بدوره، لأن اليوم هو عيد النصر. فصار يخبط التلفون ويسبّ مقتنعاً أن الخطأ خطاهم. ثم وصل رجال شرطة آخرون، أقلّ سُكراً، وتمكّنّا في نهاية المطاف من الاتصال بالمركز البريطاني...

جناح ملكي، خمس حجرات، كلها لي، مكتب صغير، مكتب آخر كبير، الخ، الخ...

كل شيء باذخ، من حرير أو ذهب... في الصباح فطوران (٤) لي وحدي. يصلان حتى غرفتي، الخ. لكن، ما من فرح. اليوم، الأحد، خرجت إلى الشوارع، تسكعت ساعات. كل شيء مغلق، لم أقابل أحداً... اشتريت صحيفة «التايمز». فرشتها على ركبتني وتذكرت الأيام التي قضيناها معاً في ستراتفورد، قرب المدفأة. الجو دافئ. أتلهف للإحساس بشيء ما.

خرجت بعد الظهر للتنزه. مطر خفيف. جموع في الشوارع، مع أبواق وأعلام وزينة (ما زال الاحتفال بعيد النصر مستمراً) أزهار جميلة... زرت الرواق الوطني للفنون (٥)

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٢) بالانجليزية في الأصل Visitors (م)

(٣) بالانجليزية في الأصل Policeman (م)

(٤) بالانجليزية في الأصل Breakfast (م)

(٥) بالانجليزية في الأصل National Gallery (م)

فرحاً برؤية اللوحات التي أحبها، مرة أخرى. لكن ذلك النوع من الفرح لم يعد يكفيني فعدت حزيناً، إلى شقتي الباذخة. في منتصف النهار جيء لي بطعام متنوع، في طبق فضي واسع. وهكذا دواليك. ولو كنت هنا لاكتسب هذا البذخ غير المجدي مذاقاً آخر... أفكر في تأليف كتاب بعنوان: Post-war Conversations... سأجري اتصالات ابتداء من يوم الثلاثاء...

في الساعة الحادية عشر جاءت امرأة من المركز البريطاني... فذهبنا للبحث عن صيني، وتشيلي، وبلجيكي، وامرأة إنجليزية، يستضيفهم المركز، ثم ذهبنا بعيداً، إلى الأرياف ونزلنا في فندق من العصر الوسيط، حيث تناولنا شراب التفاح ثم العشاء. مجتمع أليف، مرح، لكنه سطحي. ما من فرح. الريف الإنجليزي رطب، ناعم، أنثوي. المطر خفيف والهواء ثقيل، له رائحة قبر حديث النباش. تذكرت هيلين س. (٢) مرة أخرى فانقبض قلبي.

سأبدأ بالكتابة غداً... ولعلني بذلك أتمكن من طرد الضجر. متى أستلم رسالة منك؟ فمن شأنها أن تغير نظرتي لإنجلترا...

خيم الظلام الآن، وعدت إلى شقتي، أضأت الشمعدانات. جاؤوا لإسدال الستائر ثم تابعت الكتابة إليك. أين أنت؟ كيف حالك؟ ... تشجعي يا Mitkämpferin (٣) الحبيبة. العالم محتمل، وأحياناً رائع، مادُمنا معاً. لو لم تكوني لمت ألف مرة. لأنني مللت بني البشر.

(لندن) ١٣ يونيو ١٩٤٦ (٤)

سأتحدث بعد بضعة أيام إلى الإذاعة البريطانية. الإنجليز يخدمونني بمودة، وينقلونني بالسيارة، ويرسلون لي تذاكر للمسرح. اليوم سأشاهد عرضاً من أعمال وايلد. وغداً، رقصات من جاوا، ويوم الاثنين، باليه إنجليزياً... وسوف ألتقي شارل مورغان أيضاً، وأحدثه عن ترجمتك... (٤)

منتصف الليل - عدت من حفل استقبال عند سالسبري (موظف سام في المركز البريطاني) وهناك التقيت صديقة رُوزا الذائعة الصيت، الأرجنتينية دونيا فكتوريا،

(١) صديقة شابة لنيكوس كازنتزاكي، ماتت بشكل مفاجئ.

(٢) بالألمانية في الأصل: يا رفيقة النضال (المترجم)

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٤) كنت أترجم «النبوع» لشارل مورغان، إلى اليونانية.

وتحدثنا مطولاً عن الماضي. جميلة، ثرية، متصنعة قليلاً في البداية، لكنها ذكية. وضعتُ
الأسئلة التي سأطرحها على المثقفين الانجليز...

١٤ يونيو^(١). المطر يهطل من جديد. سماء غائمة... جوٌ خانق. سأذهب بعد الظهر
لمشاهدة الرقص الجاوي.

مساءً. رقصات جاوية جميلة جداً. ليست مثيرة جداً. لكنها جميلة، مطبوعة
باللطف والحشمة. تمطر مرة أخرى. برد. قرّرتُ إطلاق نداء إلى «أممية الروح». ولعله
يبرر وجودي هنا..

(٢) لندن حتى الآن لم تبعث في أي فرح. لا يمكن أن تسعدني إلا بعض العروض
الكبيرة، أفريقية، الأنهار، النمل في الغابات، القطعان، الأسماك في آيسلندا، بيناريس
بغداد. لم تعد أوروبا قادرة على إثارة قلبي.

أفكر دائماً بتأثر وحنان لا تشوبه شائبة. وإلا كيف أنسى، بأي نبل ووفاء، تقفين إلى
جانبي، وتقاتلين مثل أثينا بروماكوس ذات الخوذة اللامرئية والحربة المزدوجة، والتي
تنزل فجأة في الأشعار الهوميرية وتهرع لنجدة البطل المعرض للخطر. فيشعر البطل
بحضورها في قلبه فيخشى الانهيار خشية الموت.

لا يستطيع المثقفون هنا أن يقدموا شيئاً لرجل خبر العذاب وفكر كثيراً وكافح. إنهم
يلوحون لي تبسطين، هادئين ومغتبطين حتى في يأسهم. لم تتقد عيونهم وأفواههم
وقلوبهم وحتى عندما تتقد فإنها تشتعل بهدوء، مع يقين ساذج بأنها مكافأة...

يوم ١٨ يوليو ١٩٤٦ وجّه نيكوس كازنتزاكي، عبر الإذاعة البريطانية، نداءً إلى
مثقفي العالم قاطبة.

الروح الحرة والخالدة لدى الانسان .

هذا النداء موجه إلى ذوي الإرادة الطيبة في العالم قاطبة. تمرُّ الإنسانية بمرحلة

(١) رسالة إلى إ. ساميوس كازنتزاكي.

(٢) رسالة إلى تيا أنيموياني.

حرجة وقد باتت الأمم وثيقة الصلات بحيث لم يعد أي شعب قادراً على الخلاص بمفرده إذا لم يُقَيَّض ذلك للشعوب الأخرى. وهكذا فإن أي شعب يسقط، يمكن أن يجرّ معه الشعوب الأخرى. لقد ولى إلى الأبد ذلك الزمن الذي كانت أمة من الأمم تستطيع فيه العيش منعزلة، وتحقيق الخلاص أو الدمار بمفردها. لذا فكل نداء يوجّه إلى شعب أمة من أمم اليوم، يهم الشعوب الأخرى كلها.

فما هو الخطر الكبير الذي يُحدق بعالمنا بعد الحرب؟ لقد تطور العقل البشري بطريقة أسرع وأكثف من روحه. وتمكن العقل من غزو القوى الكونية وإخضاعها لمشيئة الإنسان الذي لم يبلغ النضج الأخلاقي الضروري بعد، كي يستعمل تلك القوى في خدمة السلام والازدهار العالميين. هناك انعدام توازن وتناغم ما بين القوة العاقلة لدى الإنسان وتطوره الأخلاقي، على العكس مما كان سائداً في الشرق، خلال العصور القديمة. إذ بلغت الروح الإنسانية قمماً عالية في حين ظل العقل الخلاق (العلم) متخلفاً. إنه خللٌ خطير في التوازن، جعل شعوب الشرق المتحلّية بأخلاق سامية، مع تخلف عملي، تدفع الثمن باهظاً. فوصل البرابرة وأبادوهم... واليوم ترسم ظاهرة معاكسة.

يتوجب على كل حضارة أن تقيم الانسجام والتناغم بين العقل والروح إذا أرادت البقاء في مستوى عال. وينبغي أن تكون هذه النتيجة هي الهدف الأسمى لكفاح الإنسانية الراهن. إنَّ المهمة صعبة. ولن نتمكن من أدائها على الوجه الأكمل إلا إذا أدركنا بوضوح ماذا نريد وإلى أين نذهب.

ولكن قبل تحقيق ذلك، من الطبيعي أن نعيش الفوضى والخواء، الفوضى الأخلاقية والروحية. وكل من يتصل اليوم بأشخاص واعين، في أي مكان من العالم، يلاحظ عليهم عواقب الحرب المحتومة، أي آثار القلق والجوع، الإنهاك، والهَمّ والارتياب، وفوق ذلك كله، غياب أخلاق ثابتة، معترف بها دولياً، تيسر إعادة بناء الحياة الداخلية لإنسان ما بعد الحرب. إذ يتوجب علينا ألا نخطئ في ذلك، لأنَّ البناء الحقيقي ليس إعادة بناء المصانع، والبواخر والمساكن، والمدارس والكنائس التي دمرتها الحرب. ولا يمكن لأية حضارة أن تقوم إلا على أسس روحية. فالحياة السياسية والاقتصادية محكومة بإنجازات الإنسان الروحية. فكيف بوسع الإنسان أن يتجدد داخلياً، في مناخ يسوده الإنهاك والقلق والارتياب؟ لا توجد وسيلة واحدة: حشد كل قوى الخير الغافية في كل إنسان وكل شعب. لقد قال لي القسّ المعروف مونييه إنّه سأل صديقه الفيلسوف الكبير برغسون كيف يستطيع تكثيف فلسفته كلها في كلمة واحدة. فكّر برغسون لحظة ثم

صاح: التعبئة! تعبئة كل طاقاتنا الأخلاقية في كل لحظة حرجة.

ما من خلاص آخر في هذه الفترة الحرجة. علينا حشد كل طاقاتنا من أجل محاربة الكذب، والحق، والظلم. علينا إعادة الفضيلة إلى هذا العالم.

من هم الناس الذين سوف يقدمون الطاقات الأخلاقية للكون؟ لا يمكن أن نأمل في أن يأتي هذا النداء، وهو أهم نداء للتجمع، من القادة الزمنيين - من سياسيين وتقنيين واقتصاديين. وحدهم القادة الروحيون في العالم يستطيعون، ويتوجب عليهم، إنجاز هذه المهمة النبيلة، بعيداً عن الأهواء الشخصية. إن مسؤولية المفكر في زمننا جد جسيمة. ذلك أن الأهواء عمياء وتولد الصراع. والقوى المادية التي وضعها العقل بين أيدي الناس قوى عظيمة، يتوقف خلاص الإنسانية أو ضياعها على طريقة استخدامها. لنأمل بوضوح هذا العصر الخطر الذي نمر به، ونتساءل عن الواجب الروحي لإنسان اليوم. لم يعد الجمال كافياً، وكذلك الحقيقة النظرية والطبية السلبية. إن الواجب الروحي لإنسان اليوم أوسع وأعمق مما كان عليه في الماضي. إذ يتوجب عليه أن يعيد النظام إلى فوضى ما بعد الحرب، ويفتح طريقاً جديدة. وعليه أن يكتشف صرخة جديدة، ويطورها، من أجل التآلف والتجمع على مستوى الكون. صرخة قادرة على إيجاد الوحدة - أي الانسجام بين القوة العاقلة والقلب. ويتوجب عليه أن يجد الكلمات البسيطة التي تكشف للبشر، مرة أخرى، هذه الحقيقة البسيطة: إن بني البشر كلهم إخوة.

وكما كانت الحال في كل الحضارات الخلاقة في الماضي، ما زال الشاعر متماثلاً مع النبي. فلنثق بعقل الإنسان، لأن العقل يتحمل مسؤولياته عندما يكون مصير الإنسانية معرضاً للخطر، في اللحظات العصيبة. ومن المؤكد أن هناك فكرة عظيمة قد ولدت اليوم من الأرض الدامية. ولهذا السبب يبدو التطور في منتهى الألم، وهو ما يفسر أيضاً اندفاع الشر بشراسة خلال الأعوام الأخيرة حتى أنها باتت تحاول، ككرة أخرى، خنق الطفل الوليد. ولهذا السبب، أيضاً، يتوجب على قوى الخير أن تنظم صفوفها، وعلى أصحاب العقل أن يتعارفوا بعيداً عن الأنانية، وأن يتطارحوا أسئلة عصرنا المقلقة محاولين توفير الأجوبة. وليس من الملح والضروري، اليوم، أن نعمل فحسب، بل أن نعمل كلنا معاً.

أوجه هذا النداء إذأ، إلى كل المثقفين ذوي الإرادة الطيبة في العالم بأسره. وأطرح هذه الأسئلة واثقاً بأن الأجوبة سوف توفر تعاوناً روحياً على مستوى عالمي.

١ - هل تعتقدون بأننا نعيش نهاية، أم بداية مرحلة جديدة؟ وفي كلتا الحالتين ما السمات التي تميز هذه وتلك؟

٢ - هل يستطيع الأدب والفن، أو التفكير النظري، التأثير في حركة التاريخ الراهنة؟ أم أنها تعكس الظروف الكائنة فقط؟

٣ - إذا كنتم تعتقدون بأن الفكر والفن يؤثران في الواقع، فما هي الوجهة التي ترون ضرورة قيادة التطور الروحي في بلادكم، نحوها؟

٤ - ما هي، في نظركم، المساهمة الإيجابية التي يستطيع الفكر والفن تقديمها للعالم؟

٥ - ما مدى وجود اتصال وتواصل بين المثقفين وجماهير الشعب الواسعة؟ وماذا يتوجب فعله لتوسيع قاعدة هذا الاتصال؟

٦ - ما واجب المثقف اليوم؟ أو الفنان؟ كيف يتمكن من المساهمة في التعاون السلمي بين الشعوب.

٧ - هل من الممكن قيام أممية الروح؟ وفي حالة الرد بالإيجاب، هل تود المشاركة فيها؟^(١)

بعد أن توقع كازنتزاكي ضالة النتائج في مسعاه بدأ يتحسر مجدداً على
ايجين:

لندن، سانت جيمس كورت

٢٠ يونيو ١٩٤٦^(٢)

بؤس الصقيع والوحل والمطر، لا يمكن وصفه. أفكر في ايجين، لقد بدأت حبوب العنب تلمع. والتين يكبر، والبحر منعش، نصف شفاف، وليس كنهر التايمز هذا. لم تعد أوروبا تعجبني مطلقاً. وقد تكون باريس جيدة لأننا نكون فيها معاً.

٢٥ يونيو^(٣). مساء البارحة حضرت أمسية شعرية، شاركت فيها ثلاث نساء

(١) نشر هذا النداء في مجلة Life and Letters العدد ١٠٩، سبتمبر ١٩٤٦.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

شمطاوات، لكل واحدة منهن فك واسع «من صنع إنجلترا»^(١). خرجن من سباتهن وطفقن ينشدن أشعاراً بالقاء مفخم، ثم عُذُن إلى النوم. أعتقد أنه لا يوجد أسخف من الشعر الرديء...

بعد اكفهار لندن وضجيجها، تمتع نيكوس بهدوء كمبريدج الأخضر. أما أنا فمكثت أنتظر معجزة، كُرسياً للآداب اليونانية الحديثة في إحدى الجامعات الأجنبية مثلاً، الأمر الذي يمكننا من مغادرة ايجين لبضعة أعوام.

كمبريدج ، فندق غاردين هاوس

٢٣ يونيو ١٩٤٦ (٢)

... لا يمكن وصف الهدوء والطمأنينة والإخضرار. ليتنا نتمكن من العيش سنتين هنا حتى نُشفى من تهيج الأعصاب واللهفة، والارتياح والبؤس، في أثينا! يوجد الفندق الذي نزلت فيه على ضفة النهر. وتمزّ باستمرار، مراكب مسطحة، على متنها صبايا وشباب، وتنساب هادئة صامتة (.....) (٣)

شوارع رائعة، أشجار عملاقة، ثم الميزة الفاتنة في إنجلترا: العشب الأخضر حول المدارس القديمة والكاتدرائيات...

تعرفت على بعض الأساتذة الرائعين...

ودون نيكوس في دفاتره :

كمبريدج ، ٢١ يونيو . الأرض مرنة، رطبة، أنثوية. هنا تجدُ الأزهارُ ما تتغذى به ولا تصارع كما في اليونان، ببطولة، بثلاثتها عريضة لكنها تفتقر إلى الرائحة. بعد الظهر زرت شيرد بريفوست في الكنف كوليغ. وهو شيخ هرم مُفعم بالحيوية والظرف والقوة ويبدو متكلفاً، قليلاً، ونرجسياً. يتكلم كثيراً ويضحك كثيراً. ويرى أن المهم بالنسبة للإنسان هو أن يتثقف كإنسان وليس كمتخصص. يزدرى «الانتلجنسيا» لكنه يحترم الذين يخدمون الروح. ويعتبر تريفيليان أفضل إنسان في العالم.

شيرد : bright hearted lion

(١) بالانجليزية في الاصل Made in England (المترجم)

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٣) كلمات غير مقروءة.

٢٢ يونيو. شمس. اخضرار. نزهة بين المدارس القديمة. أية معجزة هذا العشب الأخضر ما بين المدارس الغوتية، مريح مثل فردوس. في منتصف النهار زرت صاحب «الثالوث». كان، على العكس من شيرد، صارماً زاهداً، بخيلاً بالكلام والضحك. ما أن قدّمتُ له الاستجواب، وقرأ السؤال الأول، حتى وثب قائلاً: لن أجيب! هذه ليست أسئلة، ماذا تريد مني أن أقول؟ هل أقول إنَّ العالم عبثي؟ لا أقدر على ذلك!» دَعَكَ الورقة بيده غاضباً وأعادها إليّ.... ثم وقف مجاملاً ورافقني لزيارة المدرسة. الحجرة التي عاش نيوتن وعمل فيها، وكتبه في المكتبة، ثم حجرة بايرون...

٢٣ يونيو... بعد الظهر عند لوكاس، من الكنف كوليغ، جذّاب، ذكي، ضحوك، جريء، «كائن بشري» حقيقي. كما قال شيرد... تحدّثنا عن اليونان. وقد قام بجولة في البيلوبونيز. قال لي: «لم أعد أقرأ، بل أعيد القراءة». يكره المعاصرين ولا يفهم المُحدّثين ويسخر منهم...

وبالأسلوب البرقي ذاته، سجّل كازنتزاكي لقاءه مع ديفيد غارني:

جذّاب، متحضّر، لطيف «عجوز»، أجاب (عن الأسئلة). مع «لاوري لي» أثناء الغداء في مطعم قبرصي بتشلسا: «مفعم بالحيوية، والشاعرية، يساري متطرف، ينشد الفلامنكو، يعرف اسبانيا. سُرتُ كثيراً...» ومع جون ليهمان: «لطيف جداً، جسم جميل»، ذكي، حاذق تحدّثنا عن كابيتاناكي^(١)، والأدب اليوناني الجديد. سيزور اليونان في العام المقبل.

غداء عند ستيفن سيندر: شاب، طويل، ذكي، يتكلم الفرنسية. تحدّثنا مطولاً وبشكل جيد... ثم مع داوكنز: يا للحيوية! يصعد السلم درجتين! درجتين! حدّثني عن والد حاجيدأكي، في ميرتو، بلغ العام الثاني بعد المئة من العمر، وكان يثرثر في الباحة، بين ثور وحمار، مع شيخ ثمانيني، سبق له احتضانه رضيعاً، في حفل زواجه. جاء كاهن أعمى، مسنّ لزيارته، برفقة نائبه الشّماس الذي كان يجدل السّلال. سأله الشيخ الهرم «ماذا أعمل أيها الشّماس؟ - أجدل السّلال - جدل السّلال أفضل من جدل الفضائح!» أطلعني داوكنز على كتب عديدة، وتناولنا العشاء معاً، تلك الليلة...

بالأمس رأيت جون مانسفيلد. عالم رائع، وإنسان دمث. تحدّثنا عن الشعر الإنجليزي وقال إن سوينبرن كان يكتب أشعاراً في غاية الاكتمال بحيث يجهد نفسه بعد

(١) شاعر يوناني شاب مات في إنجلترا.

ذلك كي يلحق بها بعض النقائص حتى لا تظل رتيبة.

ذهبت إلى مدرسة ودمان لمقابلة أستاذ الشعر بورا: بيت سادة، عشب أخضر، تماثيل صينية (وُلد بورا في الصين) ... نشيط، ذكي، مثقف ... يفهم الشعر.

لا يحب شارل مورغان. قرأنا بعض القصائد. يعتبر لويس وايديث سيتول أفضل شاعرين ... غداء عند مورتيمر. كنت حزيناً، تكلمت فجأة عما يفعله الإنجليز في اليونان. رجل على ذلك القدر من الذكاء ولم يفهم شيئاً! قلت له إن سياسة إنجلترا في اليونان مضادة لبريطانيا.

تناولت الغداء مع الناقد الفني أيرونسайд. يتكلم الفرنسية بطلاقة. ذكي ونبيه. يفهم الفن جيداً - الرسم والنحت. تحدثنا مطولاً وسوف أعود إلى رؤيته في الـ «تايت غاليري» ... غداء مع روزا موندا ليخمان وادي لويس. روزاموندا جميلة، فاتنة. شعرها رمادي مصبوغ باللون الوردي، فمها جميل وعيناها عميقتان، تشبه مركيزة من عصر لويس الخامس عشر، ذكية، طيبة ... لويس ضامر الجسم، طويل الوجه، شاحب، أفضل شعراء اليوم. تحدثنا جيداً مدة طويلة ...

ومن أكسفورد كتب إلى تيا، بتاريخ ٤ يوليو:

... علماؤهم مثيرون للاهتمام: علماء آثار، فقهاء لغة، رياضيون. ويتمتعون بقيمة عالية في مجالات اختصاصهم. رأيت ميرس الهرم، كسيح في الثمانين من العمر، يعتمد على عكازين، ولا يكاد يستطيع الكلام. يمضي الليل والنهار في فك رموز اللغة الميسينية ... يا له من عمل ضخم، وصعب ومعقد! كيف توصل إلى تصنيف كل أبجديات ذلك العصر! لقد تخيل عدداً مهولاً من التراكيب! من دون فقدان الأمل! وعندما تمنيت أن يساعده الله على إيجاد المفتاح، ضرب بعكازه على الأرض صارخاً: «لن أموت! سوف أكتشف!».

وفي اليوم نفسه، بعد أن روى لي كل ما عرفناه من خلال دفاتره:

... بالأمس كنت في ستراتفورد حضرت عرضاً لمسرحية «ماكبث» كان عرضاً متدنياً، أكاديمياً، متحذلقاً. لكنني سررت بالعودة إلى رؤية الأماكن التي نحبها.

لم يتغير شيء - النهر، الأوز، الورود المتفتحة، البيوت القديمة التي يخرج منها عجائز ديكنز وكذلك الصحن الخشبي الذي أعجبنا ... «بيتنا» غراه اللبلاب، وأمامه

قطة تتشمس. مررت أمامه ثلاث مرات، سائراً ببطء.

إنَّ يوم لقائنا يقترب. لولاك لكانت حياتي صحراء! ما هذه المعجزة التي تستمر منذ
عشرين عاماً؟

٥ يوليو... زرت أمس «أوكسفورد ديرس» الشهيرة واقترحت «الإلياذة» (النص
الأصلي والترجمة). وعدوني خيراً... ينبغي أن أنجح، لأن العمل يصير مشهوراً عالمياً
آنذاك. عندما أعود إلى لندن سأحاول الاهتمام بكتاب «الزهد». رأيت ابنة واترلو التي
وعدتني بترجمة «الزهد».

لم نتمكن بعد من الحصول على دعوة من الحكومة الفرنسية وعدنا بها مدير
المعهد الفرنسي في أثينا. وبدأ ينتابني القلق. ذلك أنَّ العزلة الطويلة تبدو لي سلاحاً
ذا حدّين. وحتى بالنسبة لرجل مثل كازنتزاكي كنتُ أتمنى له مدينة جامعية
تمكّنا من الطمأنينة قرب المدفأة ليلاً، والمشاركة في محاورات مفيدة. وإذا كنا
عاجزين عن معرفة بلدان نائية، لماذا لا نحاول التعرّف على أناس مجهولين
وبعيدين، ومثل هذه الرحلات من شأنها أن تفيدنا مثل السفرات الأخرى... وكان
نيكوس يتمنى ترضيتي لكنه غير قادر على طلب شيء لنفسه.

ولقد رأى أنه مدين لمستضيفه بتأليف كتاب عن إنجلترا ما بعد الحرب، فذهب
للانزواء في كمبريدج. لكن روحه ظلت تهفو إلى اليونان التي تمرّقها الحرب
الأهلية. لذلك ألّف الكتاب من دون حماسة، وأهمله في أحد الأدراج. ولم يُنقذ منه
سوى بضع صفحات ضمّنها في رواياته لاحقاً...

كمبريدج، مسز لاوري، كاستل براي (١)

تشستر تون لاين، ٣٠ يوليو ١٩٤٦

... نظراً لكوني لا أود النزول في فندق، تمكن المركز البريطاني أن يعثر لي على غرفتين
في بيت مدهش، في زقاق هادئ، ومحاط بالحدائق. والبيت كثير السلالم، يعج بسكان
طريفيين من شباب، وشيوخ، وعجائز. يوجد مكتبي في الطابق الأول. وهو صغير يحتوي

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

على أريكة وطاولة وثلاجة... أما غرفة النوم فهي في الطابق الثالث، وهي صغيرة بدورها غير مريحة. أين منها عظمة سانت جيمس كورت! يصعب علي الانتقال من غرفة إلى أخرى. وإذ أسأل ظلاً، أو شبحاً ظنيماً، عابراً بين الأروقة يجيبني بمنتهى التهذيب. بيت الراحة في طابق آخر، يستحيل علي العثور عليه لأنه يتطلب المرور أمام مرايا وأثاث قديم فاصعد وأنزل سلالم من دون وجود حتى «العطر» الذي يقودني. المسز لاوري عجوز خارجية من إحدى روايات دوستويفسكي، نحيلة، ذات ياقة مسلّكة على رقبتها وتفوح منها رائحة النبيذ أو الجعة (لم أميز بدقة بعد). وفوق باب الغرفتين في الطابق الأرضي، حروف يونانية كبيرة HAIRE HYTRA (إنه المطبخ). و HAIRE FILIA^(١) (لم أجروّ على الدخول للوقوف على حقيقة الأمر)... ذهبت إلى المسرح مساء البارحة وشاهدت مسرحية سارتر «الأبواب المغلقة»...

أحاول استجماع قواي حتى لا أتشتت، إذ ينبغي أن أبقى هنا من أجل تأليف الكتاب. لولا غليونني لبكيت. أتذكر ايجين، والتين الناضج، والعنب اللامع والمرأة التي أحبّها كما لا أحبّ أحداً في العالم، والتي تجلس في الباحة متأملة البحر، منتظرة رسالة...

وضعت خطة الكتاب. سوف يكون رواية، لأن المثقفين هنا لم يزودوني بالمادة الضرورية. ثلاثة أقسام: كريت، إنجلترا، العزلة. وسوف أجيب عن الأسئلة التي طرحتها. لست أدري إذا كان مناخ البيت سيلائمني. لحسن الحظ أن النافذة الصغيرة في المكتب تفتح على حديقة جميلة... وهناك شجرة تفاح كبيرة تنتصب أمامي...

يوم السبت سأضطر إلى زيارة لندن. تلقيت دعوة للغداء من الوزير نويل بيكر وينبغي أن أدلي له برأيي حول اليونان. ماذا سيحدث؟ أعرف أن رأيي لن يؤثر فيهم، ومع ذلك سوف أعبر عنه، بوضوح ومن دون تحفّظ كما هي عادتي في الأوقات الحرجة...

كمبريدج... ١٩ أغسطس ١٩٤٦ (٢)

تتلاحق الأيام متشابهة، أستيظ في الخامسة والنصف صباحاً، أنزل إلى مكتبي: طاولة مغطاة بالكتب والمخطوطات، أريكة من طراز لويس الخامس عشر، قديمة جداً، مذياع وكرسیان...

(١) يمكن ترجمة الأولى بـ «سلاماً أيتها الطنجرة» والثانية «سلاماً أيتها الصداقة».

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

أنهيت حوالي ثلاثة أرباع الكتاب. وسوف يكتمل مع نهاية أغسطس تقريباً، ويشكل كتاب «الزهد» قسمه الثالث.

في التاسعة تأتيني عانس شرسة بفطور الصباح^(١): شربة شعر، نقانق، عجة أو سمك، وشاي بالحليب. أعود إلى الكتابة، وفي الواحدة، الغداء^(٢)، دائماً النوع نفسه، فطير... أعود للكتابة، في الخامسة، شاي مع خبز بالزبدة... أعود إلى الكتابة. في السابعة مساءً، وهو عادة مساء بارد^(٣): كرنب، لحم خنزير مقدد، نصف حبة طماطم وتحلية. وعندما أقول «تحلية» أقصد شيئاً حامضاً، خوفاً أو خوفاً مجففاً، شديد الحموضة، ومنقوعاً في قشدة صفراء منفرة. أكل وأفتح المذيع. في التاسعة أصعد للنوم... المطر لا ينقطع في الليل ولا في النهار. وعندما تشرق الشمس بغتة أخرج للتجول في المروج. الخضرة في انجلترا أعجوبة.

... الكتاب يتقدم... مطر، مطر لا يكف، برد قارس. عنقود العنب الملفوف في القطن (عنقود صغير، لنقل ثلاثين حبة) يكلف ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف دراهماً! صبراً! فرحت لتمكنك من اصطيات الأخطبوط بيديك. فهذه ماثرة.

لننتظر نتائج الاستفتاء الشعبي. أشعر بالقلق وأتألم من أجل اليونان...

أكتب إلى راسل مرة أخرى.. الجميع هنا يكرهون مورغان ويعتبرونه نرجسياً، مكتفياً بذاته وتافهاً. لا شك أنه سيقوم في ايجين عندما يزور اليونان. وعدته بعلبة حلوى طحينية لأنه مولع بها.

كمبريدج، ٢٩ أغسطس ١٩٤٦ (٤)

أنا قلق جداً بشأن الاستفتاء. ماذا سيحدث بعده؟ من هنا لا أرى سوى الظلمات لكن دعنا من السياسة. ففي ذلك خطر!

أعلنت الصحف اليوم عن موت كافنداريس^(٥). تألمت لأنه كان شجاعاً وشريفاً...

جرى الاستفتاء الشعبي في اليونان ضمن مناخ بوليسي. ولقد انزعج أولئك

(١) بالانجليزية في الأصل Breakfast

(٢) Lunch

(٣) Cold-dinner

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي

(٥) سياسي، شغل عدة مناصب وزارية، وينتمي إلى انصار فينيزيلوس.

السادة في المركز البريطاني عندما علموا بأن ضيفهم صوّت برقياً لصالح الإبقاء على الجمهورية.

– لقد وعدتنا بعدم التدخل في السياسة مدمت في انجلترا.

– لا أذكر، أجاب نيكوس كازنتزاكي مندهشاً، بأنني تخلّيت عن حقوقي المدنية، بقبولي دعوتكم الودية. أعتقد أن مشاركة المرء في استفتاء شعبي يتوقف عليه مصير بلاده، أول واجب أمام إنسان مسؤول.

أقام كازنتزاكي بضعة أيام أخرى في انجلترا دون أن يتخلّى عن قلقه إزاء العالم ولاسيّما إزاء مصير اليونان. وخلصته مقابلة نويل بيكر من آخر وهم.

لحسن الحظ أنّ اوكتاف مرلييه وفي بوعدده. واستلم نيكوس دعوة من الحكومة الفرنسية. ومع ذلك تردد، لأن المبلغ الذي وضع تحت تصرفنا كان ضئيلاً. فترك لي الخيار:

كمبريدج، ١٢ سبتمبر ١٩٤٦ (١)

لا شك أنك استلمت رسالتي ومعها رسالة مرلييه. فماذا قررت؟ أنا موافق من الآن على اختيارك...

الوضع.. الدولي يقلقني... أعراض كثيرة مقلقة بدأت تلوح، وهي واضحة هنا، وغير مرئية في اليونان.... أشعر بالخوف على اليونان ولا أتوصل إلى الاطمئنان. ليس هناك حل ممكن. قمت بكل ما أقدر عليه، نبّهت كلّ من استطعت.

وضع اليونان ثانوي جداً، دولا ب صغير في الآلة العملاقة التي سيستخدمها الكبار لحاجاتهم الراهنة، والسريعة جداً. الكتلتان الكبريان تتواجهان مهدّتين. واليونان بينهما مثل حبة قمح بين حجري رحي. لعلّ معجزة تنقذ بلادنا.

أنا أيضاً راسلت هيربر... ربما تمكّن من الحصول على كرسي جامعي، لي. سوف نرى... دائماً تحدث معجزة في أخرج فترات حياتنا...

وهذه المخاوف عبّر عنها أيضاً إلى صديقه الشمالي:

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

كمبريدج، ١٧ سبتمبر ١٩٤٦

عزيزي السيد كنوس،

يزداد قلقي إزاء الأزمة الأخلاقية في عصرنا... والكتاب الذي انتهيت من تأليفه: يعالج، في شكل روائي، هذا الوضع المخيف... أشعر بالقلق من جرّاء مرور الإنسانية بفترة حرجة، تماماً مثل غوريلا تكتشف النار قبل تحولها إلى إنسان...

دنا يوم الرحيل. وتعرف نيكوس في لندن على شاب يوناني من قبرص، يدرس ليصير سينمائياً ومخرجاً. وفي الأثناء يمثل أدواراً مسرحية ويشرف على برامج هيئة الإذاعة البريطانية الموجهة لقبرص. وكان يعرف شخصية كازنتزاكي فمكّنه من فرصة التحدث في الإذاعة. كان البرنامج الأول نداء استغاثة موجهاً إلى المثقفين. أما الثاني والثالث فقد خصصا لأنجيلوس سيكليانوس وبرنارد شو... وبلغت مشاركته قرابة عشرة برامج... وتمكنا، بفضل المبلغ الصغير الذي وفره لنا ميشال كاكويانيس، من البقاء في باريس في انتظار المعجزة. وهكذا كان مصيرنا يتوقف دائماً على شيء يسير جداً.

ولقد كتب نيكوس إلى تيا، من كمبريدج، بتاريخ ١٥ سبتمبر ١٩٤٦ :

.... الغنيمة التي عدتُ بها من كمبريدج؟ كتاب، ومشاهدة المدارس القديمة، وخاصة الخضرة الإلهية للعشب في باحات تلك المدارس... إنّها معجزة في منتهى البساطة والعمق إلى حدّ تعجز الكلمة عن وصفه. ولم أرَ ذلك العشب من دون أن أتمنى وجودك بقربي. فهذه الرؤية من شأنها أن تبعث فيك فرحاً عارماً، هادئاً، صامتاً، وعنيفاً في وقت واحد، كما تفضلين... إن روحاً مثل روحك لا يحق لها مغادرة هذه الأرض من دون التشبع بأفضل منها. وهناك سبب، من بين الأسباب السرية جداً التي تجعلني أتمنى الثراء يتمثل في التمكن من جعلك ترين العالم.

وكتب إلى يانيس كاكريذيس:

لندن، ٢٢ سبتمبر ١٩٤٦

تملكني قلق رهيب خلال الأشهر الأخيرة إزاء مصير الإنسانية جمعاء... بالأمس أعلن الأمريكان عن اكتشاف نوع من السموم الفتاكة تكفي تسعة غرامات منه لقتل كلّ سكان الولايات المتحدة وكندا (أي الاتحاد السوفياتي) وهكذا فإن الغوريلا، قبل تحولها

إلى إنسان، اكتشفت النار، وها هي ذي الآن تهدد بإحراق العالم...

اعتاد نيكوس كازنتزاكي ، منذ أكثر من خمسين عاماً، تخصيص ذكرى يوم ميلاده لمحاسبة ضميره، وتقديم تقرير لإلهه عن مسيرته الطويلة المتوحدة.

يوم ١٨ فبراير من العام ١٩٤٧، يبلغ ٦٤ سنة.

وكما حزمة ضوء من منارة، مسحَتْ نظرته الماضي فهتف: «كلا، كلا! غير كاف! لقد بددتُ قواي، كان في إمكاني أن أنجز أفضل! لحسن الحظ أن أمامي عشرين سنة أخرى أعيشها...».

كان يصدّق ذلك ويجد فيه عزاء. وكنت أتوقع لحظات الوهن، الدورية العنيفة والقصيرة. وأعرف أن بعد اليأس يأتي الانفجار الخلاق. يكفي قلم وورقة بيضاء، ومتسع من الوقت، والعزلة، والضحك المتبادل مع شخص حبيب، لترى النور روائع أدبية جديدة.

أما المظهر الخارجي لم يطرأ عليه أي تبدل: هيئة فتية، نظرة ثابتة ومتسامحة في أن واحد، وذهن متفتح على كل جديد... باستثناء الصدغين والشاربين والحاجبين الكثيفين وقد بدأ يغزوهما الشيب.

في ذلك العام كنّا نسكن في ساحة المادلين، عند السيدة سوزان بيو، أرملة الكاتب والصحافي وصديق اليونان رينيه بيو. وللمرة الأولى منذ أعوامه الجامعية أحسّ نيكوس بالراحة في قلب باريس التي فتنته لهذا السبب.

ومنذ بعض الوقت اهتم مع بريفيلاكي بمشكلة اليونانيين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. كانوا في غالبيتهم قرويين، أميين، طردتهم المجاعة والبطالة من اليونان، فوجدوا أنفسهم فجأة في خضم الإنتاج الضخم، والرفاهية العالية، واللصوصية الفريدة التي خلقها إله الدولار. فما جدوى تعليم أبنائهم لغة الآباء، وتذكيرهم بقراهم وأصولهم؟ فكل ذلك يكاد يشعرهم بالعار ولم يعد يهمهم سوى ربح الوقت من أجل الاندماج، بأسرع وقت ممكن، في العنصر الذي

يحيط بهم. ولا بدّ لهم من الكفاح المرير. أما ما تبقى فيبدو لهم بذخاً، ورومانسية تم تجاوزها.

ومع ذلك ثمة مهاجرون آخرون في الولايات المتحدة، من جنسيات أخرى، يخدمون وطنهم الجديد من دون أن يعانون من عقدة النقص التي يعاني منها هؤلاء اليونانيون المساكين الذين تخلّى عنهم وطنهم. فكيف يمكن مساعدتهم؛ كيف يدركون أن عليهم التماسك والتكاتف، وأن لهم واجبات ينجرّ عنها الحق في حياة أفضل.

أعدّ بريفيلاكي ونيكوس خططاً تفصيلية لتأسيس معهد للثقافة اليونانية في الولايات المتحدة. لكن الحكومة اليونانية المتعامية دوماً عن مستقبل شعبها، رفضت تجديد جواز سفر كازنتزاكي. وراح بريفيلاكي المتأهب للسفر إلى نيويورك، ضحية دسائس عديدة. ففي الوقت الذي بدأ اسم نيكوس يلمع في الخارج، صار من المجازفة النطق باسمه في اليونان.

ولقد استدعى الأمن العام بطرس خاريس، مدير المجلة الأدبية «نيا إستيا» ورئيس تحريرها، لأنه نشر مسرحية كازنتزاكي «سدوم وعمّورة» المستوحاة من التوراة. وهُدّد أندرياس كارانتونيس، الناقد الأدبي المعروف بمناهضة الشيوعية، بالطرد من منصبه. وخسر فعلاً عشرة أعوام خدمة لأنه أعلن في الاذاعة أن مسرحية كازنتزاكي «قسطنطين باليولوغ» هي «تراجيديا وطنية». إن البشر يهرمون ويغيّرون مواقعهم أو يموتون، أما الأفكار فتبقى. وبعد تأخر عشرين سنة تطالب اليونان اليوم بتأسيس ذلك المعهد الذي تحمس له الكريتيان بقوة.

باريس، ٤ أكتوبر ١٩٤٦

عزيزي السيد كنوس،

أنا في باريس، مدينة أنوار فعلاً. وأتذكر أيامي الدراسية في فترة الشباب، عندما كنت أتابع دروس أستاذي المبجل هنري برغسون. سأواصل، هنا أيضاً، ذلك الجهد الذي بدأته في إنجلترا: لمّ شمل حُدَم الفكر - من كتّاب وفنانين وعلماء - في إطار «أممية الروح»، وفوق كلّ أنواع السياسة، من أجل إنقاذ الروح المهددة بالخطر.

أن المثقفين يدركون الخطر جيداً، لكن غالبيتهم من المتشككين أو المستسلمين للأحداث. غير أن هناك أناساً مستعدين للمشاركة في هذه الحرب الصليبية السامية. ولقد تحاورت هذه الأيام مع رجل نابغة هو غاستون ديبيوي عميد كلية العلوم في تولوز .. وله رؤية مأسوية لعصرنا. وهو مستعد للعمل بكل ما أوتي من قوة. وهناك أيضاً العالم الكبير دوق بروغلي الذي يدرك بوضوح عمق الهاوية التي انفتحت فجأة أمام الإنسانية. وقال إن القوى التي تملكها الإنسان بلغت من الهول درجة تستطيع معها تفجير كوكبنا..

باريس، ١٧ أكتوبر ١٩٤٦ (١)

أنت على حق: أفضل وسيلة ناجعة وعملية لتحقيق «أمنية الروح» تستدعي الاتصال بشخصيات معروفة عالمياً وإقناعها بتوقيع هذا النداء.

المثقفون الإنجليز خانعون متشككون، منهكون بالحياة اليومية القاسية. أما في باريس فالمثقفون أكثر نشاطاً وحيوية ووعياً بمسؤوليتهم إزاء الخطر الذي يهدد الروح. إن نصراً مماثلاً لما حققته إنجلترا يعادل هزيمة، وهزيمة مماثلة كالتى تكبدتها فرنسا، تثير يقظة قوى العرق المهانة..

باريس، ١٤ نوفمبر ١٩٤٦ (٢)

.. الناس، هنا أيضاً، بدأوا يرتابون ويتشككون، والفوضى عارمة؛ ولا سيما في الأيام الأخيرة، بعد الانتخابات. ومن جهة أخرى ترزح اليونان تحت نير الفاشية؛ ويُضطهد فيها بشراسة كل مستقيم ومتميز، ثقافياً وأخلاقياً .. إن الشعلة الأكثر صفاء تتعرض هناك للخطر. كيف يمكن إنقاذها؟ هيات مشروعاً: تأسيس معهد للثقافة اليونانية الجديدة خارج اليونان، ليشكل بؤرة محافظة على الشعلة. ليس الوضع السياسي والاقتصادي وحده في خطر، بل الثقافي والأخلاقي أيضاً. وكل نشاط خير ومجد مهدد بالأفول. ومن شأن هذا المعهد أن يوفر مجال تحرك لبعض اليونانيين النزيهين - من كتاب وفنانين وعلماء - حتى يتولوا رعاية الشعلة الفكرية ليونان اليوم، على أرض أجنبية..

١٩٤٧. اجتمع شمل بعض الأصدقاء القدامى وصاروا يجتمعون حول

(١) و(٢) رسائل إلى بوريي كنوس.

فنجان كاكاو في صالون مضيقتنا، الجميل، حيث يتمتع كازنتزاكي بحق الجلوس على «مقعد الشاعر»^(١). وكان يشارك في تلك الجلسات، أحيانا، كل من الكاتب الشاب هنري ديكير، والسيدة ديفال الماهرة، ونيكولا سفريداكي الذي سيثرف قريبا على غاليري الفن في شارع «ليشال»، الخ، الخ.. وبين وقت وآخر يهرب بوربي كنوس، المتخصص البارز في الحضارة اليونانية، من ضباب بلاده ليحضر بعض الجلسات. وكان يشغل منصب وزير التربية القومية في السويد، وترجم معظم روايات كازنتزاكي، تباعاً، ليعرّف بها في البلدان السكندنافية.

باريس، ٢٤ يناير ١٩٤٧

عزيزي السيد كنوس

إن حبّي للغة اليونانية الحديثة جعلني أرفض توقيع عقد، لتأليف سلسلة كتب، مع دار نشر باريسية كبيرة عرضت عليّ أن أكتب، بالفرنسية مباشرة، خمسة كتب على غرار روايتي «تودا-رابا». يوجد موقعي في الأدب اليوناني. كما أن تطور لغتنا يمر بمرحلة حاسمة وخلاقة، ولا أريد الهروب من موقعي مهما كان الثمن..

وفي حين نشطت مطاردة المثقفين^(٢) في اليونان حاول صديقنا جان هيربر أن يجد خشبة خلاص لنيكوس كازنتزاكي. وكان جوليان هكسلي آنذاك مديراً عاماً لليونسكو، في باريس، وصديقاً شخصياً لجان هيربر. فعرض على هذا الأخير منصب مدير مكتب الترجمة الكلاسيكية. لماذا عرض ذلك على جان هيربر تحديداً؟ لأنه ساهم في إعداد أول برنامج للترجمة بالتعاون مع السيد مالك، سفير لبنان آنذاك في نيويورك. وربما يعود السبب في ذلك أيضاً إلى تكامل مشروع السيد مالك مع جهود جان هيربر الذي تولى منذ ١٩٣٥ نشر دراسات حول حكماء الهند، وترجمات لأعمال شرقية، في سلسلة كتب كان يشرف عليها تحت عناوين مثل الفلسفات الروحية المعاصرة، الهندوسية الخ.. لكن جان هيربر لم يوافق على العرض نظراً لمسؤولياته في الأمم المتحدة. فاقترح على مدير

(١) خست السيدة بيو نيكوس بمقعد لا يحق لغيره الجلوس عليه.

(٢) كانت المطاردات والحرب الأهلية تفتك باليونان. وتعرض رسائل نيكوس كازنتزاكي خلال الأعوام ١٩٤٦ - ١٩٤٩ إلى وصف قلقه وغضبه وكلله.

اليونسكو أن يعوّضه بنيكوس كازنتزاكي. واقترح على نيكوس أن يستعين في أعماله بابنته الصغرى، السيدة ايفيت رونو التي كان نيكوس معجباً بفعاليتها ولطفها.

لكن ، لنعدّ إلى بدايات ١٩٤٧ ، قبل ظهور "deus ex-machina" .. أي جان هيربر. ففي يوم ١٩ يناير تذكر نيكوس تيّاً وكتب إليها من باريس:

صديقتي العزيزة

... هذه الحياة قصيرة ونحن لا نتوصل إلى التمتع بها كما يجب وبالمقدار الذي يجب. ذلك أن الفضيلة التي وضعها أناس أدنياء مرتاعون تحول دوننا وتحقيق ذلك؛ لأنّ الخطيئة التي خلقها أناس أدنياء مرتاعون لا يمكن أن تبهج. وفي اللحظة التي نبدأ فيها بوضع «وصاينا العشر» الخاصة، نموت.

هل تذكرين الحلم الذي رأيته خلال السنة الماضية في بيتك ليلة رأس السنة؟ شجرة ذات أغصان مستقيمة تماماً، مثل أغصان الصنوبر؛ أربعة وعشرين غصناً. وفي طرف كل غصن، أزهرٌ حرفٌ من الأبجدية: أ، ب، ج... وعلى كلّ حرف وقف عصفور صغير، يشدو ملوئٍ العنق، وكانت العصافير تطير من حرف إلى آخر، فتجتمع ثم تفرق، وتتوحد مثل مقاطع لفظية صغيرة

ذات مرة شاهدت في مقبرة بالقسطنطينية شجرة غار جميلة وقوية، تنبثق من قبر درويش؛ من صدره. وأنا بدوري أحس بتلك الشجرة ذات الأغصان الأربعة والعشرين تنبثق من أحشائي. وعندما أتوصل إلى الجمع بين الحروف والمقاطع وتنظيم النشيد، أموت. ليتك تتمكنين من المرور، ذات يوم، بالقرب من قبري كي تنصتي إلى ما أقول..

وكتب إلى يانيس كاكريزيس الذي دُعي إلى السويد ليلقي بعض الدروس في إحدى الجامعات:

لقد أرسلك الربّ هذا العام إلى السويد حيث تتمكن من الحديث عن حياتي وعن كفاحي الروحي. أعتقد أنه من العدل تشريف رجلين من اليونان، بلغاً ذروة النضج والعطاء. فمن الذي سيكتب له الخلود بعد موته؟ لا أحد يعرف. فكلاهما عملاً بجدّ وسعياً إلى تتابعه بقلق، أنت أيضاً. ما الذي جعل شعباً بتلك الروعة يحكمه قادة على تلك الدرجة من الغباء، والتورط في الجرائم والأعمال الشريرة؟ إن مصير اليونان مأسوي، والمغامرة الأخيرة قد تؤدي بها إلى أعماق الهاوية، والحال أن بإمكانها إنقاذها..

وحول موضوع اليونسكو ، كتب إلى تيّاً:

... لقد تم الأمر، وافقت. كلّفت نفسي بأعمال تحضيرية منهكة: السعي إلى إيجاد خطة لترجمة كلّ الأعمال الرائعة في كلّ العصور، إلى مختلف اللغات، في مجالات الأدب والفلسفة والعلوم الطبيعية، وعلم الاجتماع، الخ .. وهذه الخطة ستقدّم إلى المؤتمر العام الذي سينعقد خلال شهر نوفمبر، في المكسيك. إذا تمّت الموافقة يمكن الانتقال إلى تحقيق المشروع مباشرة. إنّه عمل مرهق يتطلب اجتماعات دائمة، ولجاناً متشكلة من رجال بارزين، لكنهم ليسوا بيروقراطيين كثيراً. ينبغي الكفاح من أجل إيجاد القليل من النظام، وتكثيف الغيمة وإكسابها شكلاً صلباً. إنّ البشر يضيعون في رسم الأهداف الكبرى بالكلمات، ولا يدركون الإيقاع الإلهي للمشي على الأرض.

قبل إغلاق ملف اليونسكو يتوجب عليّ التنويه بجهود بعض الأصدقاء من أمثال تيّاً أنيموياني، والأخوين دسيوتويولو، وب. بريفيلاكي، الذين سعوا إلى الحصول على كفالة فينيزيلوس وباباندريو، وكانلويولوس. ولحسن الحظ أن السياسيين الثلاثة دعموا نيكوس كازنتزاكي لدى اليونسكو. وحده وزير الخارجية اليوناني رأى أن من واجبه توبيخ سفير اليونان في باريس لأنه سمح بمثل ... تلك الفضيحة!

وفي اليونان، كتب بعضهم أن اليونسكو شكلت وسيلة لنيكوس كازنتزاكي كي يخدم شهرته في العالم. ولم يكن ذلك صحيحاً، مطلقاً. فباستثناء ج.ج. مايو، وعالم أسباني رائع توفي منذ زمن، لم يكن في اليونسكو مَنْ يعرف ذلك اليوناني النحيل صاحب اللكنة، والذي ما أن أتمّ عمله حتى استقال - كي لا يقبض أموالاً تُجنّى بيسر.

وهناك من استغرب أيضاً، سعي كازنتزاكي ، بوصفه إنساناً حراً، إلى الحصول على جائزة نوبل، مدّة سنوات عديدة. وهو لم يسع إليها من أجل المجد، بل بقصد تحقيق استقلال مالي يمكنه من مساعدة أصدقائه، والسفر، ومعاينة معجزات هذه الأرض، والتوصّل إلى التيه «داخل ثرواته الجوانية» من دون أن يضطر إلى استنزاف جهده في أعمال لا تقنعه إلا جزئياً.

لكن كازنتزاكي كان يعي مآسي الكُتّاب اليونانيين، ولم يحقد عليهم قط. بل بالعكس. كان يعرف أن لغتهم كلما ازدادت صفاء تعذّرت ترجمتها. وعندما أبدى بعض الانتقادات إزاء شراستهم وصعوبة انتشارهم في الخارج، يضع يده على كتفي ويبتسم ببراءة طفل: «بلادنا صغيرة، يالينوتشكا، وليست معروفة جيداً. ضعي نفسك مكان الذين يكتبون جيداً ولا يتمكنون من تجاوز الحدود اليونانية. تعلّمي الطيبة»..

وحتى أختتم بملاحظة، مرحة أكثر، أشير إلى ما كتبه كولن ولسون الكاتب الإنجليزي الشاب والمشهور، بروح فكاهة بريطانية حقيقية، في كتابه الذي صدر في لندن سنة ١٩٦٢ بعنوان The Strengh to Dream:

«... ظلّ اسم كازنتزاكي شبه مجهول كلياً. وهذا أمر مثير للاستغراب. وربما يعود السبب إلى كتابته باللغة اليونانية، وإلى كون القراء المعاصرين لا يتوقعون اكتشاف كاتب يوناني مهم، فضلاً عن وقع اسمه غير المشجّع. ولو كتب بالروسية وكان اسمه كازنتزوفسكي، لاشتهر عالمياً، وانتشرت أعماله، وأعجب بها القراء، على غرار أعمال شولوخوف. ثمة نوع من المأساة في هذا الوضع، إذ أنه يتعلق بكاتب يستطيع الوقوف بجانب عمالقة القرن التاسع عشر: تولستوي، دوستويفسكي، نيتشه (وهو يحبه). ولا ذكر له حتّى في «قاموس كولومبيا للأدب الأوروبية الحديثة».

كنتُ في جبال البيرينيه طلباً للاستشفاء، وظلّ نيكوس وحيداً في باريس، فكتب إليّ:

باريس ٩ يونيو ١٩٤٧

... الإضراب يتوسع وأخشى أن تتعطل خدمات كثيرة. ولعلنا نسير نحو الإضراب العام أو الحرب الأهلية؟ الوضع، على أية حال، متوتر ومثير للاهتمام. لا بد أن يحدث شيء. وقد يلعب دوراً حاسماً في تغيير وجهة أوروبا..

... لا تقلقي يا حبيبتي. فمصرنا... متان، برغم تدميرك؛ معك رجل صلب يحبك. وهذا

أمر نادر في هذا العصر البائس واللئيم، الذي فقد فيه جميع الناس رشدهم، وأرضاً صلبة يمشون عليها..

وكتب نيكوس يوم ١٤ يونيو ١٩٤٧، إلى بوريي كنوس رداً على مدائحه:

... سعيد جداً بارتمائك الباسل في لجة «الأوديسة»^(١). إنها تمثل أعلى قمة تمكنت من بلوغها، من حيث الشكل الشعري والمضمون الفلسفي، بعد جهود حياة كاملة في خدمة الروح.

لقد فاجأ البيت الشعري ذو السبعة عشر مقطعاً لفظياً^(٢). الكثير من شعرائنا .. المعتادين على البيت اليوناني المحدث من خمسة عشر مقطعاً. غير أن ذلك الوزن المبجل بدا لي مستهلكاً، وينقصه الإلهام. لم يعد قادراً على استيعاب الروح المعاصرة المحتدمة التي تتألم وتكافح من أجل كسر القوالب التي تخنقها، وابتكار ايقاع أوسع وأعمق. والمقطعان الإضافيان يضيفان على الملحمة رحابة غير متوقعة، ومهابة وعنفاً منضبطاً في وقت واحد .. ولهذا السبب تبنيّنا، أنا وكاكريديس، هذا الوزن ذا السبعة عشر مقطعاً لفظياً، في ترجمتنا لهوميروس.

... متى أتمكن من رؤية دخان ايثاكا مرة أخرى؟

اليونان تمعن في الظلام تدريجياً؛ وسوف يرتكب الأمريكيون الذين خلطوا بين الروح والدولار، أخطاء جسيمة في اليونان، بدورهم. إن الشعب اليوناني يرى طريق الخلاص بوضوح، ويريد أن يسلكها فيُعرق. لقد كان حظه مأسوياً دائماً؛ ولنامل، هذه المرة، أن تقوّي الآلام روحه..

وكتب مرة أخرى إلى تيا، بتاريخ ١٦ يونيو ١٩٤٧، من باريس:

هنا، عمل كثير، أختنق. مشروع كبير، ولا أجد متسعاً للراحة .. يوم الأحد فقط أتمكن من المطالعة بنهم، فأقرأ كومة من الكتب المتراكمة على مكتبي. غير أن البذور الجاهزة للإزهار في داخلي، وللتحوّل إلى أعمال أدبية، تظلّ مغمورة. لعلها تقوّي بهذا الانقطاع الإجباري. فلتأت الساعة المباركة التي أدخل فيها إلى فردوس العزلة! متى؟ متى؟ لم يعد أمامي وقت أضيعه.

(١) المقصود «أوديسة» كازنتزاكي.

(٢) تجاوزاً، ما يعادل «التفعيلة» في الشعر العربي (المترجم).

باريس رائعة. متى نتمكن من مساعدتك على المجيء؟

إنه مشروع أثير سوف يتحقق بفضل المخرج المسرحي الفرنسي السيد جاكمون، أتيحت لألبير كامو قراءة مسرحية «ميليسا» وكأنسان كريم، لم يتردد في مراسلة نيكوس متطوعاً لخدمته بالبحث عن مدير مسرح، في باريس، يرغب في عرض تلك المسرحية. وطمأن كازنتزاكي: «ليس هناك ما يتوجب إضافته أو حذفه .. ينبغي تمثيلها بلا تأخير...»

فَرَحْنَا، واخلنا كثيراً. فلم نجرؤ على دعوة ألبير كامو لزيارتنا. وهكذا لم يتمكن نيكوس إلا من رؤيته في مكتبه الذي تصدر منه «المجلة الفرنسية الجديدة».

من بين الناشرين الفرنسيين الثلاثة الذين طلبوا نشر رواية «زوربا» اخترنا أضعفهم، كما لو كان الأمر متعمداً، وقدّر له الإفلاس يوم صدور الكتاب ... ولم تُجده نفعاً بعض المقالات النقدية المادحة التي نشرت في الصحف. فظلّ الكتاب رهين مخازن الناشر. وفيما بعد، عندما أراد الناشر «بلون» شراء تلك الطبعة الأولى، تبين أنها بيعت سرّاً، من دون علم المؤلف.

وعندما أعود إلى قراءة ما يناهز العشرين رسالة التي بعث بها نيكوس من باريس إلى صديقه بريفيلاكي، بين ١٩٤٦ و ١٩٤٨، أستعيد همومه الكبرى وكذلك مشاكل كازنتزاكي الشخصية التي سعى إلى حلّها بطاقته المعتادة.

باريس ١٥ أكتوبر ١٩٤٦

... أزعجك بمشاكلي ، غير أنني أمرّ بظروف عسيرة حقاً: فالعودة إلى اليونان مريعة، لن أستطيع عمل شيء، وسوف يخنقونني، أما البقاء في الخارج فلا أقدر عليه لأنني لا أجد حتى القوت ... أتطلع إلى ايجين، لكن كيف أعيش فيها؟ أشعر بالخزي، لكتابة هذه الكلمات خزي لكنه لا يخصني...

ومن باريس دائماً، يوم ١٥ فبراير ١٩٤٧، حول جائزة نوبل، هذه المرة:

لا أريد أن أرشح وحدي لجائزة نوبل، مهما كان المبرر، لا بد أن يتم اقتراح ترشيحنا معاً، مرة أخرى، لأنني لن أوافق على ترشيحي وحدي. فليس ذلك من العدل..

يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٧، بخصوص اليونان والحرب الأهلية:

الوضع مهول في اليونان، مهول أيضا في فرنسا. أعتقد أن هذه الاضطرابات الانتقالية من حضارة إلى أخرى سوف تدوم مئتي عام، ابتداء من ١٩٠٠ أي أننا سوف نتوصل إلى سند قوي وبعض التوازن مع حلول ٢١٠٠..

باريس، ٧/٨/٤٧

لم أعد قادراً على الكلام بسبب قلقي على اليونان. لا يمكن أن تنقذها سوى معجزة ويا لمصيبة من لا أمل له سوى المعجزات. أختنق، وأحيانا أنفجر بالبكاء عندما أكون وحيداً..

وعبر عن فرحه لتمكّن صديقه من العمل بشكل جيد:

هذا الكتاب (١)، في الحقيقة، يشبه معركة، يخرج منها المرء منتصراً وأكثر بسالة، و منهاراً، إذا كان جباناً. إنه عمل شجاع. لم تسبق لي قراءة كتاب مثله حقاً.

أنا أعجز من أن أرد إليك الفرحة، والشرف الذي نالني من إهدائك «الكريتي» لي. لقد كافحت حقاً طيلة حياتي، وما زلت أكافح كي لا أدع روحي تموت. أعرف كيف يصير الفاني خالداً؛ وهذا هو أكبر عذاب في حياتي، تحديداً، إذ لا يكفي المرء أن يعرف ذلك، بل يتوجب عليه أن يصيره..

وعاد إلى محاوره صديقه القديم بوربي كنوس الغاطس في ثلوج الشمال من دون أن ينسى اليونان، مكافحاً بدوره حتى يتحقق بعض العدل على تلك الأرض. فكتب إليه نيكوس يوم ٢١ أكتوبر ١٩٤٧:

لم يعد هناك إيمان يُخضع «الأنسا الكريهة» إلى مبدأ أسمى من الفرد؛ كلهم فرديون، ماديون، يحبّون المادة والكمية، ويزدرون النوعية والروح. لقد تقصّفت القشرة الرقيقة التي كانت تخفي البهيمية البدائية (الأخلاق، الحب، الجمال). البركان البشري يدخن، وهيجانه مؤكد. إننا نتقدم بسرعة نحو اصطدام فظيع، نخرج منه مهزومين. وسوف تنقُض المجاعة والعري والبؤس على البشرية فتسعى مجدداً، لكن ببطء وصعوبة، إلى النهوض، والانتظام، واستعادة المسيرة «ما هو الدرب الأفضل؟ يسأل الهندوسي. - درب

(١) «الكريتي» تأليف ب. بريفيلاكي.

الإله. - وما درب الإله؟ - الصعود». وسوف تتعلم الإنسانية الصعود مثل سيزيف.

ما زال لدينا فرح وواجب: أن نرغب في الصعود الجديد ونهيب له، أن نؤمن بالصعود الجديد، وبالإنسانية الجديدة التي سوف تولد من الانقراض، ونذكر أن المستقبل لا يتوقف علينا، لكن يجب أن نتصرف كما لو كان يتوقف علينا. هكذا فقط أنجزت الأعمال العظيمة - وهكذا فقط نستطيع التأثير في المستقبل. إنه تفاؤل مأسوي إذا وليس تشاؤماً.. ويمكن للإيمان، والحب، والاحترام، الممنوحين لهذه «الدودة الواقفة» التي تدعى الإنسان، أن تنقذنا.

هذه الأفكار، يا صديقي العزيز، تحاصرني في هذه الأيام الحرجة بالنسبة لفرنسا والعالم. فهنا ينظم المعسكران صفوفهما: اليمين المتطرف، واليسار المتطرف. هنا أيضاً يجري التمهيد للصدام. هناك شيطان، هو شيطان القرن العشرين، يدفع بالناس نحو الدمار. وكل دمار هو أول مرحلة من مراحل الخلق..

ويتحدّثون عن عدمية كازنتزاكي. أليس العكس هو ما توحى به أعماله، ومراسلاته، وحياته؟

باريس، ١٢ ديسمبر ١٩٤٧ (١)

قابلت أمير بولي أول أمس؛ وهو بدوره قلق جداً (ولا يفتقد الأمل أيضاً) إزاء مصير الإنسان. ويأمل ألا تلجأ الإنسانية إلى استخدام القنبلة الذرية للانتحار. قال جملة أثرت فيّ، لأنني ما زلت أقولها وأكتبها، بدوري، منذ أعوام عديدة، والجميع يؤوّلونها بالمقلوب: «لا خوف، ولا أمل». أعتقد أنه شعار يناسب رجل العلم حالياً، كما يناسب كل إنسان مفيد ونبيه. «لا أخشى شيئاً، لا أمل شيئاً، أنا حر» إنها الجملة التي أتمنى «رؤيتها» منقوشة على قبري. لقد تمثل جهد حياتي، خلال السنوات العشرين الأخيرة، في قهر الوهم والأمل، من دون أي شعور بالخوف: مواجهة الهاوية من دون بكاء، أو توسّل، أو تهديد، بل بطمأنينة وجدارة. رؤية الهاوية والعمل كما لو كنت خالداً.

فرحت كثيراً للتعرف على عالم بروي الكبير لأنه رسّخ في داخلي أفكاراً كثيرة..

١٩٤٨. لم تكد احتفالات العام الجديد تنتهي حتى تلقينا طعنة في القلب: مات

(١) رسالة إلى بوربي كنوس

صديقنا الطيب سقريزاكي بعد أن أصيب بالتهاب الصفاق خلال زيارة إلى مسقط رأسه، وانعدام العلاج المناسب.

وهمس نيكوس حزيناً «الكريتيون يحسون بدنوّ أجلهم، فيموتون بين ذويهم»..

كان قد استقال للتوّ من اليونسكو، وبدأ يعدّ خطاباً ليلقيه في المؤتمر الدولي للأدب، موضوعه الأدب اليوناني الجديد. وكعادته انكب على انتقاء كلّ كلمة، والكتابة ثم إعادة الكتابة، باحثاً عن الموضوعية قدر الإمكان.

«ليته يقبل بالبقاء في اليونسكو ستة أشهر أخرى، فكّرتُ. وهكذا نتمكن، بفضل المال المكتسب، من شراء شقتين في باريس، فنسكن في واحدة ونؤجر الأخرى. ونتخلص من مشاكلنا المالية، إلى الأبد» غير أن نيكوس خطط لمستقبلنا بطريقة أخرى:

– كيف تنصحيني، قال محتجاً، بقبول أموال بلا عمل؟ لم يعد لوجودي معنى في اليونسكو، وختم متنهداً، لو سلكت طريق مكتبي يوماً آخر، لبكيت في الشارع..

تركته وشأنه. واستعدت ثقتي. وبدأنا نحلم بقصور مستقبلية في ... أمريكا.

باريس، ٢ فبراير ١٩٤٨ (١)

صديقي العزيز،

تاخرت في مراسلتك كي أشرك على ترجمة «جدي» (٢) .. لكنني كنت مهموماً. لقد توفي واحد من أعزّ أصدقائي ولم أتوصل إلى العزاء. ثم ملأ السّم قلبي وروحي، في ذلك اليوم، من جراء اغتيال غاندي. لقد تقلّص العالم منذ ذلك اليوم .. أربع رصاصات أصابت الضمير الكوني بجرح عميق .. وليس من المستغرب، في عالم مادي، وكاسر، ولا أخلاقي، مثل عالمنا، أن يُقتل بطلُ الألاعنف بواسطة العنف. كما لو أن الإعلان عن

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

(٢) فصل من «الحرية أو الموت» مكرّس لموت الجد.

السلام والمحبة في عصر بائس، يثير الحقد ويفجّره. لقد أطلقت القوى الظلامية، الجابرة العميان، وبات كلّ جهد نبيل يضاعف هيجانهم..

وأخيراً تمكن كازنتزاكي، يوم ٢٥ مارس ١٩٤٨، بعد تقديم استقالته لليونسكو، من التدوين في دفاتره: «١٨٢١/٣/٢٥ - ١٩٤٨/٣/٢٥»، يوم تحرّر^(١).

باريس، ٢٣/٤/١٩٤٨^(٢)

... لقد تحررتُ من جديد وانغمست في العمل الإبداعي الصافي والنزيه. طلبتُ من اليونان تجديد جواز سفري كي أسافر إلى أمريكا حيث ينتظرنني مترجم «الأوديسة» (ريّا دالفن). لكن الحكومة الفاشية القائمة في اليونان رفضت لأنها تخشى، كما زعمت، أن ألقى محاضرات سياسية! سأنتظر إذًا، أن يبسط الإله يده فوق اليونان ليدافع عنها. لأننا نضيع والعرق اليوناني في خطر. كلّ يوم يتقاتل الإخوة، ويتعمّق عمى الأهواء وتضمحل إنسانيتها.

لقد كان الشقاق دوماً إحدى لعنات عرقنا. وكثيراً ما أوصلنا إلى حافة الهاوية. وحتى اليوم تمكنت بلادنا من الخلاص، غير أن الأهواء أراقت الدماء، وحشد الخطر كل قوانا، وشحذ روحنا، فاكتفت، في بعض الأحيان، بالمسرات المتواضعة: الحب والسلام والفرح الإبداعي. ولهذا السبب كان عرقنا يندفع نحو الإبداع الروحي إثر كلّ حرب دموية. إنَّ أمني الخفيّ اليوم، هو أن تولد أعمال روحية عظيمة من الدم والرماد والدموع. إنَّ الشعلة ستنتقل من يد الأعداء إلى يد الإله. يقال إن الربّ يحبّ اليونان ويرتدي الفوستانال^(٣) اليونانية؛ وسنتأكد الآن!..

سعيت إلى إقناع نيكوس بالبقاء في باريس لأننا لا نستطيع السفر إلى أمريكا، ولا العودة إلى اليونان. لكنه تعب من المدن الكبرى. ولقد فُتن نيكوس بالوصف الذي قدّمه ثراسو كستناكي^(٤) لمدينة أنتيب، ذات الطابع الأغريقي القديم، مع البحر وغابات الصنوبر والأسوار، والأرباض، ومرتفعات الألب، التي تذكر

(١) ١٨٢١/٣/٢٥: ثورة موريه.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٣) تنورة يونانية قصيرة ومجعدة يلبسها الرجال في اليونان (المترجم)

(٤) روائي يوناني مقيم في باريس وأستاذ لغات شرقية.

باليونان. فقرر السفر إليها فوراً. وكان يتوجب عليه، قبل توديع اليونسكو، أن يلقي محاضرته عن الأدب اليوناني في المؤتمر الدولي للأدب. ونظمت اليونسكو مأدبة على شرفه. وبعد أحد عشر شهراً من العبودية تمكن عوليس من الإبحار.

قبل بضعة أسابيع من تخلي نيكوس عن منصبه، ظهر دمّل صغير على شفته العليا، مصحوب بحمّى خفيفة، وقلل طبيب اليونسكو من خطورتها معتبراً إياها «حمّى رضيع». وصار نيكوس يرفض تناول الشاي في مكتبه مثل غيره، ويعود إلى البيت، في المساء، عطشان، ويشرب الكثير من الشاي. وكنت أستغرب إغفائه بضع دقائق على «مقعد الشاعر». لكننا لم نول أهمية لتلك الأعراض الأولية.

وعندما انتقل نيكوس إلى أنتيب بدأ يبحث عن مسكن جديد لنا، بمثابة وحماسه المعهودتين في الماضي. فوجد بيتاً رائعاً من كل الجوانب.

أنتيب، ٢٣ يونيو ١٩٤٨ (١)

آمل أن يجلب لنا «البيت الوردى» السعادة .. كيف عثرت على هذه الفيلا؟ بمعجزة حقيقية. ولقد ساعدتني النساء مرة أخرى. جبت المنطقة مشياً على القدمين، أو في الحافلة، والقطار. لا شيء ... فخرجت من أنتيب. وبعد بضع مغامرات استقبلتني في إحدى الوكالات العقارية سيدة شقراء، ممتلئة، تشبه غلاماً خصياً. قالت «أعتقد أن لدي ما يناسبك!» انعطفنا مع الزقاق المخضوض ووصلنا إلى «البيت الوردى» دخلنا: حديقة فيها شجرة محملة بالزعرور الناضج، وأشجار زيتون، ومشمش، وسروة كبيرة في المدخل ... شرفة رائعة، تطل على البحر وجبال الألب المغطاة بالثلوج ... هدوء مطلق ... على بعد عشر دقائق من البحر...

أنا سعيد بما وجدت، وسوف تسعدين في هذا البيت (٢) المريح...

سمح نيكوس، قبل مغادرة باريس، لممثل ومخرج مسرحي شاب وموهوب، هو جورج كارميه، بإخراج مسرحية «جوليان الكافر»، لعرضها في مسابقة الفرق الشابة. وتابع بنفسه كل العروض التجريبية. واستخدمت الملاءات

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٢)

القديمة التي أهداها لنا ابن شقيق سفريداكي بهذه المناسبة، وبعض الأقمشة القطنية التي تولت السيدة كارميه صبغها، أزياء للإمبراطور - الجندي والقس والجنود الأغريق .. حضرنا التجربة الأخيرة، لكن نيكوس لم يحضر العرض الأول لأنه سافر، وانتقلتُ بدوري إلى ايفيان بعد العرض الأول مباشرة.

(أنتيب، ٢٣ يونيو ١٩٤٨) (٢)

الأربعاء

... فرحت بنجاح المحاضرة حول غاندي (٣). تلقيت رسالة من دوكير بخصوص عرض «جوليان»، وكذلك من «س» والسيدة بيو. يبدو أن النجاح كان باهراً والتصفيق حاراً.

انتهيت من «سدوم وعمورة» منذ ١٨ يونيو. وهكذا استغرقت الكتابة ثلاثة عشر يوماً. وأقوم الآن بالنسخ كي تطلعي عليها.

هبّت ريح عنيفة قبل أيام وأسقطت كل ثمار المشمش. لذيدة، ناضجة، الخ .. لكنني حزنت لأنني كنت أنوي تركها إليك...

وبينما كنت أستريح في ايفيان نزل الإلهام على نيكوس في «الفيللا الوردية». وعاد إلى إشراقة الشباب كما في ايجين.

«اقرأ يا لينوتشكا، وخبريني إذا كانت لها قيمة!» ووضع على ركبتي وليدين جديدين: «سدوم» و«عمورة» ويشكلان مسرحية في ثلاثة فصول أنجزها في ثلاثة عشر يوماً، ودفعة أولى من رواية كبيرة ستحقق له الشهرة: «المسيح يُصلب من جديد».

شرعت أقرأ مذهولة ومتسائلة أين ومتى ولد هذا العالم المزدهم باللاجئين، وهذه اللغة الجديدة، الناعمة، المشبوبة، التي لم أعدها في كتابته.

- لكنك كنت تستعد للكتابة عن شفاء المسيح بالتحليل النفسي!

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٣) تحدثت عن غاندي في غرونوبل، أمام لجنة مختصرة.

- أنا، ربّما ... لكن ذلك الآخر، المجهول في داخلي، كان مستعداً لكتابة ما هو بين يديك الآن. هيا اقرأي يا عزيزتي واعلمي إن كان العمل جيّداً...

قرأتُ راحيل «سدوم وعمورة» واعتضت على بعض النقاط، فردّ عليها نيكوس مناكفاً:

عزيزتي راحيل، أواه، كم مرّغتُ ابراهيم ولحيته، وأسأت إليهما! وكم رفعت من شأن يهوذا الاسخريوطي بجانب المسيح، في الكتاب الذي أعمل عليه الآن^(١). إن تلك «المخلوقات» المقدّسة أو الشيطانية، بالنسبة إلى خالقها، ما هي إلا بيادق في لعبته السامية. احتجت إلى «ابراهيم - الشاة الثاغية» فوجدت في التوراة ابراهيم آخر. فأجريت عليه بعض اللمسات (الرتوش)، كما يفعل المصورون، حتى يخدم خطتي. أمر بسيط. ومن الأنسب والأعدل دفع «التقاليد» قليلاً، تلك العجوز الشرسة! كلّ ما ذكرته صحيح، لكن العكس أيضاً صحيح؛ وبالنسبة للمبدع ليس هناك وجود لما هو عادل أو غير عادل، طيب أو ماکر، الإله والشيطان. هناك شعلة واحدة جائعة لتلتهم كلّ ذلك القوت الشهي. وللشيطان جسد مغذٍّ أكثر من الإله؛ وأنا أحبّه. بشرط أن يتم التهامه وهضمه وتمثله...

أثناء تأليف نيكوس «المسيح يصلب من جديد» تورّمت شفّته. ولم يعد الأمر يتعلّق بدمّل بسيط كما كان في باريس، بل صار ورماً صغيراً، مصحوباً بقليل من الحمّى. ولقد دوّن نيكوس يوم ٢٧ يوليو في دفتره: «تورمت شفّتي في الوقت الذي كنت أصف فيه، في روايتي، كيف بدأ وجه البطل الذي سيلعب دور المسيح، ينتفخ بدوره».

لكن الشر ذهب كما جاء. ولم نعره أي اهتمام إلّا ما ذكره نيكوس: تأثير الروح في جسده ... جاء ب. بريفيلاكي لزيارتنا في أنتيب وسررنا كثيراً. إذ أن نيكوس لم يتنكر نهائياً، كان يشعر بنفسه منقياً، وتحمّس لرؤية صديقه ومواطنه، مجدّداً. وكان الكتاب الجديد الذي قرأه علينا بريفيلاكي متميزاً.

ولم يكد بريفيلاكي يغادر حتى زارنا بيار وإيفون مترال، ثم بوربي كنوس،

(١) «الإغواء الأخير».

وبرونو لافانيني وكان متخصصاً في لغة اليونان وحضارتها، ويتحدّر من أصل صقليّ. الشمال والجنوب في قلبين مأخوذين باليونان ويعملان بحماسة للتعريف بأدبنا في بلديهما، وخطا بوربي كنوس خطوة إضافية: رفع صوته عالياً لإدانة القمع الذي يتعرّض له الشعب اليوناني خلال تلك الأعوام السوداء، على وجه الخصوص. وذلك ما شكره عليه نيكوس بحرارة.

أغلقت المدارس والجامعات أبوابها وغادر المصطافون الساحل. فتمكّنا من التنزّه ساعات على امتداد الشاطئ المقفر، وغابة غاروب، والمرتفعات، وفوق أنتيب و«كان»، والألب البحرية التي تذكرنا بأرض آتيكا السهلة. سار كلّ شيء على ما يرام. وجاء «الفجر» الذي طالما ناداه نيكوس، وانفتحت الأبواب وحدها، حتى التي كان يتوجب أن تظل موصدة إلى الأبد. قبل عيد الميلاد بأيام، عرض علينا وكيل عقاري «فيللا» رائعة ذات بستان واسع مع شرفة مثالية تطل على مشاهد جميلة، تغري بالعزلة والعمل. وعرض علينا استئجارها لثلاث سنوات، ليفرحنا. «حمانا الله من ذلك!» صاح نيكوس هلعاً. «ثلاثة أعوام أخرى بعيداً عن اليونان! هذا يعني...».

وتعبتُ في إقناعه بتوقيع عقد الإيجار ... وبعد أيام مشرقة هبت العاصفة كالعادة. إذ عاد وجه نيكوس إلى التورّم عشية عيد الميلاد. وشخص الأطباء داء «منطقة» (زونا) غريباً، لأنه غير مؤلم. ولم يكن كذلك. إذ عاد الورم مرة أخرى بعد ستة أشهر. إنه داء مجهول، حساسية مزمنة.

وبعد تلاشي الحمّى، والانقباض الجلدي الخفيف المرافق لها، عاد نيكوس إلى العمل، راغباً في النسيان. ومرت بضعة أيام فعاد كلّ شيء إلى طبيعته. وبتفاؤله المفرط لم يعد نيكوس إلى التفكير في الأمر، حتى عاوده المرض.

أنتيب، ٢٩ يناير ١٩٤٩ (١)

صديقي العزيز،

كنت مريضاً، ولم أكف عن التفكير فيك وفي الكتابة إليك، لكنني لم أكن قادراً على

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

ذلك. وها أنذا قد شفيت. تلقيت اليوم دراستك حول اليونان اليوم، اليونان الماسوية، واطلعت عليها بانفعال شديد..

عملت حتى في أيام مرضي، وروايتي الجديدة تتقدّم جيداً. هل اطلعت على عدد «دفاتر الجنوب» المكرس لموضوع «حضور اليونان»؟ إنه جيد ومفيد إجمالاً، لكنه غير عادل. إذ لم يشمل الإشارة إلى أفضل ناثرينا وشعرائنا: بريفيلاكي، ميريفيلي، كاستاناسكي، الخ... وكذلك الشعراء فارنالييس، نيكوس بارباس، ريتا بومي، بابا... إن ليفيسك فرنسي متحمّس راح ضحية زمرة كراهية في أثينا... وأنا حزين جداً لذلك. أمل أن تتولّى أنت هذه المهمة النبيلة، ذات يوم..

صرنا الآن نسكن في «فيللا مانوليتا» في منتزه سارامارتال. الربيع ناعم. نذهب كلّ أسبوع باكراً لزيارة القرى المحصنة في جبال الألب البحرية. صنوبر، زعتر، «سيست» غابات ميموزا مزهرة، أريج يتضوّع، نحل ويعاسيب طنّانة، والبحر يلمع تحت أقدامنا. صارت أنتيب بمثابة «آنتيوليس» لنا، وجاءت اليونان إلينا لأننا لا نستطيع الذهاب إليها.

انكب نيكوس على العمل بشكل رائع. وكان يسأل زوّارنا من الأصدقاء اليونانيين عن تفاصيل حرب الأشقاء التي تعصف باليونان، ويسجل بعض الملاحظات. وأنهى المسودة الأولى لرواية «الأخوة الأعداء» بعنوان فرعي: «يزعم أنه حرّ. اقتلوه!».

في شهر ابريل من العام نفسه كتب «كوروس» (ثيزيوس)، وهي إحدى أجمل مسرحياته التي وضعها معتمداً النثر الإيقاعي. وبين مايو ويوليو أنجز «كريستوف كولبوس» بعنوان «التفاحة الذهبية». وبين العملين المذكورين، أعاد صياغة «قسطنطين باليولوغ».

آنتيب، ٣ ابريل ١٩٤٩ (١)

صديقي العزيز،

أتمتع بصحة جيدة وأعمل كثيراً، فرغت للثوّ من كتابة روايتي الجديدة «الإخوة

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

الأعداء» ... أنهيت الصياغة الثانية اليوم؛ سوف أعيد الصياغة أربع أو خمس مرات، ولن تصدر الرواية إلا باللغة الفرنسية ... الآن أبدأ مسرحية ذات شخصيات أربعة: مينوس، ثيزيوس، المينوتور وأريان^(١) يرمز مينوس إلى آخر ثمرة في حضارة قديمة، وثيريوس إلى أول ثمرة في حضارة جديدة، والمينوتور إلى الشعور الباطني المظلم، حيث لم تنفصل الفروع الكبرى الثلاثة: الحيوان والإنسان والإله؛ إنه الجوهر المعتم والبدائي الذي يضم كل شيء. أما أريان فترمز إلى الحب.

أصارع ، وأنا أعمل، كي أنسى آلام اليونان بعض الوقت. ينفطر قلبي عندما أذكر «الأم»، ألما ماتر». متى ينتهي هذا العذاب^(٢)؟ لكن كيف؟ أخشى ما هو أسوأ...

عاد وجه نيكوس إلى الانتفاخ من جديد، مع غياب أية علامات، أو أعراض أخرى، تمكّنا من اكتشاف أسباب المرض.

أنتيب، ٢٦ أغسطس ١٩٤٩^(٣)

صديقي العزيز،

منعني العمل والمرض من زيارتك خلال الأشهر الأخيرة. سأذهب بعد غد إلى مدينة فيشي حيث أقيم واحداً وعشرين يوماً. عندما أمرض يتضاعف عملي، كما لو كنت أسعى إلى التغلب على المرض بتوتر الوثبة الخلاقة. وهكذا أنهيت «كريستوف كولمبوس» وفرغت من الصيغة النهائية لـ «قسطنطين باليولوغ» التي صفتها شعراً ضمن أبيات تتكون من ثلاثة عشر مقطعاً لفظياً. ويحاصرني هذه الأيام، موضوع جديد بالحاح شديد: بودوان الرابع، ملك القدس، «الأبرص». ياله من شخصية خارقة! يال للروح البطولية التي لا تقهر داخل ذلك الجسد المتعفن تدريجياً! ياله من رمز فظيع للإنسانية كلها! لا أتمكن من تمالك نفسي؛ يجب أن أعبر عنه بالكتابة حتى أتحرق منه، كيف ينبثق الموتى المدفونون منذ آلاف السنين من قبورهم، فجأة، ويحاصرون الأحياء؟ إنهم يريدون شرب القليل من دمنا، كي يبعثوا ويروا نور الشمس! حدث لي الأمر نفسه مع عوليس، وهيلينا، وجوليان الكافر، نيسافور فوكاس، وأخيراً مع ألكسيس زوربا..

(١) ثيزيوس أوثيري، ملك أثينا الأسطوري قتل المينوتور (الوحش) بفضل خيط أريان الذي كان دليله في الدهليز (المترجم).

(٢) انتهت الحرب الأهلية في اليونان وبدأت أعمال الانتقام والدسائس تعصف بالبلاد.

(٣) رسالة إلى يوربي كنوس.

وافق في نهاية المطاف على الذهاب إلى فيشي للراحة. ومنها كتب:

الجمعة، ٢ سبتمبر ١٩٤٩ (١)

يا أرملة يحبها رجلٌ حيّ، أكتب إليك مباشرة، بعد ذهاب الطبيب..

العمل الذهني صار صعباً. فالنهار يتخلّله العلاج والذهاب إلى ينابيع الماء المختلفة. سأضطر إلى البقاء آملاً أن تتحسن حالة الجسد ... أتلهف بهذه الرسالة إليك كي تدركي ما صار إليه المنفي..

الاثنين، بعد الطبيب (٢)

عدت من عند الوحش. كان أطف اليوم ... سألته: «ما اسم مرضي؟ - لست مريضاً! لا شيء!».

ألححت عليه، فأنزعج وتناول ورقة وكتب: «التهاب معدة وأمعاء مع عجز في الكبد، من دون تقرّح...»

وكتب إلى بوريي كنوس في اليوم نفسه:

ذقت الكسل لأول مرة في حياتي. وأدركت لأول مرة أن لي جسداً يتوجب الاعتناء به، ليس من أجله، بل من أجل الروح التي يحملها على كتفيه. أكثر من المغاطس، وشرب الماء الفاتر، وأتنزه تحت أشجار الدُّلب الخضراء فأرى الكثير من الناس الكئيبين، وأحياناً، كما يتجول الكهنة بأناجيل مفتوحة، أفتح بدوري كتاب دانتي الصغير الذي يلازماني في السفر، فأقرأ بيتين أو ثلاثة، وانتقل إلى «الجحيم» أو «المطهر» أو «الفردوس»..

(فيشي) ٩ سبتمبر ١٩٤٩ (٣)

تحدّث الطبيب اليوم عن «تحسن رائع» .. وبعد أسبوع من الاستسقاء، صار الكبد يعمل بشكل «شبه ممتاز»...

(١) و(٢) و(٣) رسائل إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(فيشي) مساء الثلاثاء (١)

يا أرملة الرجل الحي، «خيري»! (٢)

أكتب إليك كل يوم. فالأيام ثقيلة لا تتقدم. وعلى الرغم من كل شيء، هناك عمل يولد في دماغي -- من سلسلة «كوروس» - وسوف أكتبه حال عودتي ... أمل أن يعجبك...

أشعر بالحزن لعدم سماع المذيع. يبدو أن الاتحاد السوفياتي قد تخلّى عن رجال المقاومة [اليونانيين] المساكين. لا شك أن الشيوعيين سيجدون أعذاراً. وربما كان ذلك خطأ؛ لا أقرأ سوى «لوموند».

بعد أسبوع أمضيته معاً في فيشي، عاد نيكوس إلى أنتيب بمفرده:

ايجن (هكذا) (٣) ٢٤ سبتمبر ١٩٤٩ (٤)

يبدو لي أنني لن أنسى أبداً ذلك الأسبوع الذي قضيناه معاً في فيشي. كانت لها عذوبة وحنان عجيبان، كما لو كانت أيام خطوبة، كما لو كنا نلتقي لأول مرة. لقد تذوقت كل لحظة بطمانينة وكثافة، حتى عندما لا أتكلّم. كنت في منتهى السعادة..

تحدّث ترومان اليوم، في الإذاعة، عن كشف تفجير قنبلة ذرية في سبيريا، وخرج المذيع (٥) عن طوره لأن روسيا امتلكت بدورها قنبلة ذرية!..

وبعد بضعة أيام، كتب إلى بوربي كنوس:

أنتيب، ١٦ أكتوبر ١٩٤٩

ها أنذا قد عدت إلى جنة أنتيب، طقس ربيعي، شمس مشرقة، وعذوبة الكلية. بعض أشجار الميموزا أخطأت وأزهرت. لا أستطيع الانزواء في مكتبي، أعرض نفسي، النهار كله، نصف عار، للشمس، وأكتب. الرومان القدامى على حق، فالشمس «هي الحقيقة المؤكدة».. توصلت إلى الشكل النهائي لمسرحيتين وأبدأ بأخرى جديدة: «هيلينا» (٦).

(١) رسائل إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٢) باليونانية وتعني «تحية» (المترجم).

(٣) خطأ من كازنتزاكي في الأصل، وتوضّحه الرسالة اللاحقة. ويمكن التذكير أيضاً بقول استشعاري له سنة ١٩٤٨: «يحس الكريتيون بدنو أجلمهم فيموتون بين ذويهم» (المترجم).

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٥) بالانجليزية في الأصل Speaker

(٦) أتلّفها المؤلف قبل إنهاؤها.

وسوف أكتب «بودوان ملك القدس» هذا الشتاء.

ثمة تفاؤل معتدل في Lake Success، لذا يُعتقد أن هناك أملاً في التوصل إلى إيجاد حلّ للمسألة اليونانية. ولا شك أن هذا الحل سوف يكون ناقصاً وتغدو الحيلة غير محتملة في اليونان لبضع سنوات، فحتى مع انتهاء الحرب الأهلية سوف تبدأ أعمال الثأر الجماعية. إن مصير العرق اليوناني فظيع وغامض، كما لو أن الروح في تلك الأرض لا تروى إلا بالدموع والدماء .. وهكذا فإن واجب كل يوناني، لتبرير وجوده، هو الكفاح من أجل تحويل تلك الدماء والدموع إلى روح.

حلّ الخريف، مرة أخرى، بطيئاً، زاهياً. وذكرتنا حبات التين البيضاء الأخيرة بمذاق التين في شهر أغسطس، بنفسجية من الخارج، عسلية اللون من الداخل، شديدة الحلاوة ومنعشة. وبدا نيكوس متألقاً، يتسلّق أشجار التين كل صباح ويأتي لي بصحفات ملأى بتلك الثمار التي أحبّ. ولولا المصير المأسوي لبلادنا لكنّا سعيدين في هذا الفردوس الجديد الذي جعل نيكوس يخطيء ويسميه إيجين.

آنتيب، ١٧ ديسمبر ١٩٤٩ (١)

متى أعود إلى اليونان لأرسل إليك بالعسل والزبيب والتين - الهبات اليونانية الخالدة. متى؟ كل شيء قاتم هناك، والعبودية تحاصرنا مجدداً، عبودية علمية، منظمة جداً، مموهة جيداً، ونحن نحتاج إلى سنة ١٨٢١ جديدة كي نتحرّر (٢). ولا بد أن تأتي طبعاً، لكن، في الأثناء، سوف يموت آلاف البشر وتذوي أرواح أخرى أو تبيع نفسها..

لذلك أمكث هنا، منفياً في جنة آنتيب، ساعياً، قدر الإمكان، إلى خدمة اللغة والروح اليونانيتين الجديتين. ذلك ما أفعله منذ أربعين عاماً من دون أن أكافأ إلا باضطهاد الرسميين اليونانيين. لكنني مجبول من طينة طيبة «صنع كريت» (٣)، وأقاوم. وأمل أن أواصل المقاومة هكذا حتى الموت.

الرواية الجديدة (٤) تتقدّم، وستكون جاهزة عما قريب؛ أسعى قدر المستطاع إلى بعث

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٢) تاريخ ثورة مورية أو شبه جزيرة البيلويونيز جنوبي اليونان (المترجم).

(٣) في الأصل Made in Creta

(٤) «الحرية أو الموت»

والدي حياً، وبالتالي إلى تسديد ديني إزاء من أنجبني، بوضعه في العالم.

١٩٥٠. لم يتغير شيء في الوضع السياسي اليوناني خلال هذه السنة، وكذلك في حياتنا الخاصة. وكما في ايجين أزهرت أشجار اللوز في بداية العام. يوم ١٨ فبراير احتفلنا بعيد ميلاد نيكوس، فقمنا برحلة طويلة عبر جبال الألب البحرية، تحت الميموزا المزهرة. وتحديثنا مطولا عن بريفيلاكي الذي ولد بدوره يوم ١٨ فبراير. وأثناء السير راجع نيكوس محصلة حياته. وكانت تلك المرة الأولى التي لم أسمعها فيها يتأسف عن عجزه في تزعم حركة إصلاحات سياسية كبرى. كان في حالة حسنة. ومن أجل إبعاده عن مكتب عمله، حثته على الذهاب لجني الزيتون مع البستاني الهرم الذي كان في العقد الثامن من العمر. واستطعنا، ثلاثتنا جني قرابة سبعمئة كيلو غرام.

أنتيب، ٣ مارس ١٩٥٠ (١)

صديقي العزيز،

... بعد غد، الأحد، ستجرى انتخابات في أجواء رعب ... وأخشى أن تزيد حياة البلاد تعقيداً (٢) ... أشكرك مجدداً على إرهابك نفسك بالتعليق على كتابي؛ قبل أيام كان عيد ميلادي، وهأنذا أسير منذ خمسة وستين عاماً، أمشي وأجيء في هذا السجن ذي النافذتين، هذا السجن الغامض والمعتم الذي ندعوه «الإنسان»؛ ومن خلال النافذتين الصغيرتين أنظر إلى العالم من دون أن أشبع - ما أروعه، ما أشد تناغمه مع جوعنا، وظمئنا، وتطلعنا إلى إله! منذ خمسة وأربعين عاماً أكافح من أجل السمو بهذه الرؤية، وكل هذا الجوع والظما، كي أكتب ما قبل موتي، بمساعدة حروف الأبجدية اليونانية، الأربعة والعشرين. فيتحول أكبر جزء ممكن من المادة إلى روح! لو قيض لي أن أولد من جديد لما اخترت درباً آخر. إن الدرب الصاعد الذي اخترته وعرو وشاق، لكنني لا أشعر بالندم.

(١) رسالة إلى بوربي كنوس (+ إضافة ذاتية يعتذر المترجم العربي على حشرها: ولدت في هذا اليوم تحديداً ..

لاترجم لك هذه الرسائل سنة ١٩٩٤ .. يا كازنتزاكي!)

(٢) يقصد اليونان طبعاً.

من ستوكهولم، جاءت أخبار سارة: ما زالت رواية «زوربا» تترك انطباعاً مدهشاً، وانتهى بوربي كنوس من ترجمة مسرحية «ثيزيوس» التي ستقدمها الإذاعة السويدية. وأنجز أيضاً ترجمة «المسيح يصلب من جديد» متوقفاً لهذا العمل مستقبلاً باهراً. ولقد تأثر نيكوس، وشكره. لكنه حدثه عن اليونان في الدرجة الأولى، حيث كانت الفاشية تعيثُ فساداً:

أنتيب، ١٥ مارس ١٩٥٠ (١)

... ما حدث منذ أيام، في اليونان، كان معجزة حقيقية. وبين عمق الكرامة والكبرياء والبسالة التي يتحلّى بها الشعب اليوناني؛ ففي أجواء رعب لا يصدق ذهب للتصويت ضد الفاشية، بالآلاف ..

أنت شاب في السابعة والستين من العمر، وأنا شاب في الخامسة والستين؛ قلبك وقلبي في العشرين، أو في الحادية والعشرين على أقصى تقدير. لن نسلم أسلحتنا بسهولة. إن أحدى أكبر الأفراح التي ما زلت أتمنى تذوقها، هي أن أجعلك تجيء إلى اليونان، كي نتمكن من وطء الثرى المقدس واجتياز جبال كريت المقدسة ثلاثاً..

أنتيب، ٩ مايو ١٩٥٠ (٢)

.. «برافو» .. لا نتهائك من (ترجمة) «المسيح يصلب من جديد»؛ سررت لإعجابك بالرواية حتى النهاية. إنها رواية حقيقية .. كانت رواية زوربا أقرب إلى حوار بين كاتب فاشل ورجل حقيقي من عامة الشعب؛ حوار بين الروح - المحامية وروح الشعب العظيمة. انتهيت بدوري من كتابة «القبطان ميخاليس»، مأسوية جداً: صراع من أجل الحرية، تطّلع الروح الأبدي إلى الانعتاق، جهد المادة للتحويل إلى روح، تحرّر الإله من كل الفضائل البشرية التي تثقله من أجل التحويل إلى روح أيضاً. إن أسطورة القبطان ميخاليس في منتهى المأسوية، وقد عشتها بطريقة نازفة، عندما كنت في الرابعة من عمري، وبعد ذلك خلال ترعرعي في أجواء كريت المأسوية. وكل ما أذكره في الكتاب من أناس ووقائع وكلمات، وثيق الصلة بالواقع، مهما بدا غير قابل للتصديق، بالنسبة لأولئك الذين ولدوا في ضوء الحضارة الغربية أو في ظلها ...

سأتركها ترتاح قليلاً على مكتبي الآن، وأبدأ بكتابة مسرحية تحاصرني منذ زمن ..

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

(٢) رسالة إلى بوربي كنوس.

«فاوست الثالث» وهو مختلف تماماً عن «فاوست» غوته، والأدوار مقلوبة كلياً، إنه عمل في منتهى الصعوبة لأنه يتطلب منّي مقارعة ما سبق. وسوف أسعى إلى تجنب الخزي. القدامى يفعلون ذلك؟ كانوا يستعيدون مواضيعهم الأكثر انتشاراً.. ويسعون إلى تجديدها فقط، وإكسابها عمقاً أكبر، ومعنى أوسع؛ سأحاول الآن، إذا استطعت، فعل الشيء ذاته مع «فاوست». فليكن الإله في عوني!...

عادت ظاهرة الحساسية. وكشف تحليل الدم عن اختلال في التوازن بين «وحيدات النواة» (mononucéaires) ومتعددات النوى (polynucléaires). ونصح طبيب أنتيب ، نيكوس بالذهاب إلى باريس لاستشارة أحد الأطباء الكبار المتخصصين في الدم. فعاند نيكوس: «لا أشكو من شيء، عندي مشاغل أخرى!». لحسن الحظ أنه وافق على موافاتي بآخر تحاليل الدم، إلى فيشي، من دون أن يشك في أنني سأذهب إلى باريس، بدلاً منه، لأخذ رأي المتخصصين.

(أنتيب) (الأربعاء ١٩٥٠) (١)

سيعطيني الطبيب، يوم الجمعة، رسالة إلى طبيب متخصص في باريس، وكذلك التحاليل وصور الأشعة، أرسل بها إلى ستيريانوس^(٢). لا تقلقي بشأنني مطلقاً؛ أكل جيداً، ولا أرهق نفسي؛ غداً أنتهي من «سدوم وعمورة» وسوف ننتظركم^(٣) من أجل نسخها..

(أنتيب) (الاثنين) (٤)

يا أكريتانيا^(٥) الشجاعة،

أنت يا من تقاتلين الموت لإنقاذي! تلقيت للتو رسالتك من باريس؛ إنه لأمر مؤسف ألا تظلي بضعة أيام في باريس بعد كل ذلك التعب. سأنتظرك ونقرر معاً.. قبل ذلك لا ينبغي أن تقلقي، لدي شعور عميق بأنني لا أعاني من شيء خطير.. أحس بجسدي

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٢) صديق يوناني، يعمل طبيباً في باريس.

(٣) صيغة الجمع وردت في الأصل (المترجم).

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٥) حارسة الحدود.

قويا ومنتظماً ولم أبلغ بعد سن الثالثة والثمانين المحتومة^(١). لن تقلقي حالياً سوى بضعة أيام، ثم ينتهي كل شيء ببساطة وبسرعة..

استمع إلى موسيقى موتسارت الصباحية وأنا أكتب إليك. سأخرج بعد قليل لأودع هذه الرسالة في البريد وأبرهن لك أن كل شيء يسير مثل: ساعة ... «فاوست الثالث» لا يغيب عن ذهني في الليل والنهار، وأفكر أيضاً في كتابة رواية جديدة...

بانين^(٢) تكاد تطير فرحاً: غداً يزورها يونغر، وسوف أتناول العشاء معهما مساء السبت.

أثناء غيابي عن أنتيب، نظمت بانين المعجبة بالكاتب الألماني Junger إلى حد الجنون، لقاءً بين الكاتبين:

(أنتيب) الأحد (١٩٥٠) (٣)

... يونغر مثير جداً للاهتمام. في حالة بدنية ممتازة. نحيف، حيوي، أشهب. يجمع بين الصلابة والسخرية. صلب جداً، ألماني حقيقي. أناني وممتع. يضحك بسهولة. لكن ضحكته سطحية، تخرج من شفثيه فقط، ضحكة ساخرة ومناكفة. ما أشد سذاجة بانين، وتفانيها، بقربه، ما أشد طيبتها و«طهارتها»..

أنتيب، ٧ يونيو ١٩٥٠ (٤)

... أفكر في كتابة «فاوست الثالث» وأنا لا أفعل ذلك من باب الوقاحة أو جنون العظمة، كي أقتفي أثر غوته، بل هي حاجة جسدية وذهنية، عندي، تدفعني نحو كتابة «فاوست الثالث»، أي فاوست اليوم، تراجيديا حول المصير الراهن للإنسان. فبعد بلوغ عقل الإنسان الذروة، وجد نفسه في مواجهة الهاوية. وسوف يتحرك فيها أربعة شخوص رئيسيين: فاوست، أكريتاس، ميفيستو، وهيلينا. (هل تعلم بأن اسم ميفيستو تحريف لـ «ميفوتوفيلوس» اليونانية؟ (الذي لا يحب النور)..

(١) «قرر» كازنتزاكي سابقاً أنه سوف يموت في هذه السن! (المترجم)

(٢) فتاة جميلة من أذربيجان، تكتب بالفرنسية.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٤) رسالة إلى يوربي كنوس.

وبالرغم من العناد، قرر نيكوس في النهاية أن ينتقل إلى باريس بمفرده.

الأربعاء ، مساءً (١)

التقرير الصحي الرابع للمريض:

رفيقتي الحبيبة في الحياة وفي الموت!

أمضيت الصباح كله في مستشفى سان لويس، حيث يهيمن «تسانك». عناية رائعة، في ثلاث ساعات تَمَّتْ كل الفحوص...

يعاملني تسانك مثل صديق حميم. لم أر مسناً أكثر حيوية ومتعة، منه ... قال إنني لست مصاباً بلوكيميا (ابيضاض الدم) بل أعاني، ببساطة، من الغدد اللمفاوية...

تجاوزنا في الأثناء حول باسكال، وفاليري، وكلوديل، وبرغسون ... كان الحوار شيقاً، وقد فوجيء باطلاعي عليهم ... لذلك تصرف معي كصديق قديم، فليبارك ستيريانوس الذي توسط بيتنا!

الساعة الآن، الخامسة مساءً. وصلت إلى البيت (٢) مرهقاً، أمضيت ساعة ونصف الساعة واقفاً في قطار الأنفاق. كل يوم أضيع فيه ساعات عديدة وأصاب بالأرهاق.

إنَّ حماسة الأنسة باتاي واندفاعها، مدهشان، قالت إن الناس يشعرون بالخوف لأنني أكتب بطريقة قوية، مفرطة في القوة. ليتهأ تأتي إلى أنتيب! إنَّ هذه المرأة من شأنها أن تصبح حليفاً ثميناً، لنا..

الجمعة، منتصف الليل (٣)

التقرير الطبي السادس:

... تناولت العشاء مع نيقولا ... أهداني صحنين كبيرين، رائعين، من شمال أفريقيا ... والأنسة باتاي في غاية الدفء والتفاني ... أعتقد أن شيئاً مهماً سيحدث ... دعت ايفون شاعراً لطيفاً جداً، للعشاء ... وهو شديد الإعجاب بـ «ثيزيوس».

هَتَفْتُ لِيَا ، وسألتقيها غداً ... لكن كل هذا، خيم عليه القلق إزاء صحتك. لا أفكر إلا فيك وحدك، وأتلهف للعودة.

(١) رسالة إلى ايليني سامبوس كازنتزاكي.

(٢) بيت بيار وايفون مترال في «هايي - لي روز».

(٣) رسالة إلى ايليني سامبوس كازنتزاكي.

الزوجان مترال مَلَكَان؛ صديقان حقيقيان، يبذلان كل ما في وسعهما من أجل...
أَتعب كثيراً، «المُترو» يحطمني.

السبت، مساء (١)

التقرير السادس (هكذا!):

حبيبتي، اليوم انتهت المهمة التي كُلِّفْتُني بها في باريس. فاستمعي إلى النتائج:
تشاور الطبيب تسانك وجان برنار، وتوصلا إلى النتائج التالية: ١- ما أعاني منه
يسمى كَلْفُوم Lymphôme . ٢- وهو مرض نادر. ٣- ليس خطراً ... عليك أن تتفادي
التعرض للشمس الحارة...

ومن بيرا كافا، (على ارتفاع ١٤٥٠ متراً) حيث ذهبنا للإقامة بضعة أيام، كتب
نيكوس إلى بوري كنوس:
صديقي العزيز،

أنا في بيرا كافا منذ أول أغسطس ... أجواء نقية. زوجتي ترتاح أخيراً، وأنا أيضاً،
وهذا هدفنا ولكن كيف أرتاح؟ الرواية الجديدة تتحرك في أحشائي، وكما الجنين،
تلتهم لحمي، وتشرب دمي، وتطالب بالخروج إلى الشمس. أمل أن تبدأ الأم الوضع
وأفراحه، عما قريب. وفي الوقت نفسه أفكر في «فاوست الثالث» الذي سوف يشكل عملاً
جوهرياً في حياتي، عملاً ذا نفس طويل، مثل «الأوديسة»؛ وسوف يكون العمل الأخير
الذي يشير إلى مروري على قشرة الأرض الحبيبة.

... واجبنا النظر في اتجاه الهاوية ... بكرامة وإيمان. يقيناً إن اللحظة الراهنة
والمستقبل القريب فظيعان، وسوف يصيران أفظع؛ لكن في المدى البعيد، البعيد جداً،
سوف يصير المستقبل رائعاً؛ أعرف أن الإنسانية لم تتوصل بعد إلى اكتشاف ما تزخر به
من ثروات في جواهرها. إن بطن الأرض ما زال ممتلئاً بالبيض...

صِرْنَا الآن نمتلك كل ما من شأنه إسعادنا، أو على الأقل، ما نعتقد أنه كذلك:
الصحة، الهدوء، الشهرة التي كنت أتمناها كثيراً لينكوس، وفرحة برؤيتي سعيدة

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

... ومن أجل الاحتفال بالخبر المفرح من باريس، قدّر الزوجان مترال أن تكون هديتهما لنا رحلة إلى أسبانيا، برفقة لوسيان فلوري، أخت ايفون الصغرى.

أخذ نيكوس، بحذره المعهود، يتنقل بين نيس وأنتيب، من أجل إنهاء الإجراءات الضرورية لتجديد جوازي سفرنا. ووافقت الحكومة اليونانية على التجديد لشهر واحد وسفرة واحدة!

من ٥ سبتمبر إلى ٢٢ منه، عشنا مثل سائحين. انطلقنا من نابون وبربينيان إلى أسبانيا: برشلونة، تاراغون، بالنسية، أليكانتي، قرطبة، طليطلة، ايليسكاس، مدريد، فيتوريا، سان سيباستيان. ودوّن نيكوس هذه الرحلة ضمن قائمة «الرحلات» السعيدة. وفرح باطلاعي على الغريكو كانت صحبة آل مترال لا تعوض.

وتوّجت هذه السنة بتمثيل «ثيزيوس» في إذاعة ستوكهولم. وتمكنا من الاستماع إليها من أنتيب، وقطّنا الصغيرة تنط على ركبنا. فتغمز بعينها، وتخرج لسانها الوردية، علامة هناء. فإذا عطست أو رفعت صوتي، زمجرت غاضبة..

غير أن مصير كوكبنا لم يترك لنيكوس هدنة:

أنتيب، ٢٠ ديسمبر ١٩٥٠ (١)

صديقي العزيز،

يحلّ العام الجديد فظيعاً علينا، فالإنسانية توجد،، هذه الأيام، على شفير الهاوية – أكتب إليك وقلبي مفعم بالقلق والمرارة والسخط. فما هذا القدر الذي يقود البشر؟ هل له عينان أم لا؟ هل ياتمر بأوامر دماغ أسمى منه؟ وهل الحمق والظلم أشياء ضرورية لتقدم الإنسان على هذه الأرض؟ أشعر بضيق شديد، ومع ذلك أكتب طيلة النهار لأنه يتوجب

وكتب إلى جان كاكريديس: على الإنسان أن يتصرف كما لو كان خالداً.

(١) رسالة إلى بوري كنوس.

أنتيب، ٢٧ ديسمبر ١٩٥٠

صديقي العزيز

تلقينا رسالتك منذ قليل. رقصت ايليني فرحاً. إنها تستعد لقدومك. حاول أن تمكث أكثر من ثلاثة أيام، أسبوعاً على الأقل. إن هموم الإنسان ليست لها نهاية. وكذلك أفراحه. ابق أكثر، إذاً!

أنا سعيد بالتمكن من رؤيتك مرة أخرى، إلى درجة بتّ معها عاجزاً عن الكتابة إليك أكثر. ماذا أكتب؟ سوف تتحدث..

تبادلنا رسالتين مع صوفي أنطونيا^(١) هذا العام: قالت إنها أعدت انطولوجيتين للأدب اليوناني الحديث. ولم تختَر من أعمالي كلها سوى بضعة أبيات من ترجمتي لدانتي! إنها تقدمني إذاً، كترجم .. يالليونانيين الذين لا يتغيرون أبداً!

١٩٥١. أول يناير ١٩٥١. كنا جالسين في «الفيرندا» نتنعم بالشمس ولا ننتظر شيئاً في الحقيقة، عندما جاء ساعي البريد بالخبر السعيد: بعد «زوربا» صدرت «المسيح يصلب من جديد» في السويد وحقت نجاحاً منقطع النظير. لم أكن انتظر هدية أثمن. رقصت. غنيت. وكان نيكوس ينظر إليّ بعينين دامعتين قليلاً: «بعد فوات الأوان، يا عزيزتي، همس، بعد فوات الأوان ... ومع ذلك أنا سعيد لأنك كذلك...» وتابع تدخين غليونته ضائعاً في تأملاته.

لكنه كتب في اليوم نفسه إلى صديقه بوربي كنوس:

فيللا مانوليتا، أول يناير ١٩٥١

صديقي العزيز جداً،

ليست هناك هدية أجمل، للعام الجديد، من المقالتين النقديتين اللتين أرسلت بهما إلينا ... أنا سعيد بنجاح هذا الكتاب أفضل من «زوربا»، لكنني أمل أكثر بالنسبة لـ «الحرية أو الموت» ... أتمنى أن يدرك الأجانب ما تكبدناه، وأيّ درب وعرو ومدمي نسلك،

(١) كانت السيدة أنطونيا^(١) آنذاك أستاذة لغة يونانية حديثة في إحدى جامعات هولندا.

وكم هو مأسوي قدر اليونان. أفكر في كل ذلك فتغيم عيناى. إن اليونان وكريت مثقلتان بالدموع والجراح وفي «الحرية أو الموت» بذلت ما قدرت عليه من أجل وصف كفاحهما. وأنا متأكد أن الذين سيقراون هذا الكتاب سوف يدركون كم تألم الكاتب وجنسه.

... وأسفاه! إن سكان الأرض ما زالوا بدائيين، وجنود العظمة هو الذي يجعلهم يسمون أنفسهم بشراً ... عندما نتوصل إلى هذه الصفة سوف تنتهي الحروب. وليس قبل ذلك.

الويل لمن صاروا بشراً قبل الأوان!

كلما أَلَف بريفيلاكي كتاباً جديداً، احتفل به صديقه الأكبر، كما لو كان كتابه:

(أنتيب) ٢٥ يناير ١٩٥١ (١)

... قرأت «الكريتي» ثلاث مرات حتى الآن. وأنا معجب بطريقتك في التغلب على الصعوبات الاستثنائية. لقد سما ماناسيس إلى مرتبة أسطورية حتى أن قلبي خفق مجفلاً لأنني تذكرت ما كتبه لي ذات يوم (٢). لم يتبق أمامي إلا قليل من الحياة، وسوف أبذل قصارى جهدي، ما عشت، لكنني لن أتوصل إلى جدارة ماناسيس. ثمة أمر واحد يعزيني: لن أندم، بعد موتي، على أنني لم أعمل..

وكتب إلى صديقه الشاب، الكتبي ستاموس ديامنتاراس، يوم ٩ فبراير ١٩٥١:

أعمل بكثافة، أكتب روايات على طريقة ذلك الشخص «هوزاين بيرويث» كما رويت لي ذات يوم، وسوف يكون ذلك هو العنوان العام لكل الروايات التي سوف أكتبها. حتى الآن لي خمس روايات (وجدها رواية «زوربا» نشرت باللغة اليونانية).

ما زال جسدي متيناً وذهني متوقداً، وروحي طاهرة وحارة مثل شعلة. وتلك الأفراس الثلاث تقودني بجدارة - ومن دون أضرار - نحو القبر. وأرجو من الإله ألا تسرع كثيراً، حتى يتمكن «المالك» من التمتع أكثر بهذه الأرض..

(١) رسالة إلى ب. بريفيلاكي.

(٢) كان ب. بريفيلاكي قد كتب إلى نيكوس كازنتزاسكي: «ما أن انتهيت من تأليف الكريتي حتى أدركت أن ماناسيس هو أنت. وسوف تتأكد من ذلك بنفسك لدى قراءة الجزء الثالث».

للصينيين شتيمة مذهلة: «فلتولد في عصر مهم!» وهذه اللعنة حلت بنا فعلاً. إذ أننا نعيش في عصر مهم. ومن واجبنا تغيير هذه اللعنة إلى نعمة، قدر مستطاعنا. وذلك بكفاحنا، وبقوة عقلنا وكبرياء روحنا. إننا نعيش على مستوى الكون .. وكل لحظة اليوم تزنُ قرناً. ومن يعيش عشرة أعوام أخرى، يهرم بدرجة لم يسبق لها مثيل. لقد اكتسب الزمن قيمة طارئة، غير خاضعة للقياس..

آنتيب، ٣ مارس ١٩٥١ (١)

... أعمل جيداً، وكتابي الجديد «الإغواء الأخير» يتقدم. الربيع يقبل مزهراً، والبحر يتضوع مثل ثمرة ناضجة. أبولون يلمع تحت قناع الشمس. الدم يتدفق بطريقة أسرع والقوت يتحول، بطريقة أفضل وأسرع، إلى روح...

آنتيب، ٢٠ مارس ١٩٥١ (٢)

... لم يعد لأندرية جيد وجود! كان كاتباً أنيق الأسلوب، معلّم كتابة، وليس كاتباً كبيراً. كان تأثيره المعنوي في الشباب الفرنسي مشؤوماً. إن شكل كتابته ممتاز. لكنني لا أحب محتوى تلك الكتابة مطلقاً. بقي في فرنسا شيخ عظيم: كلوديل. وبعد موته ... لن يبقى سوى ورثة تابعين...

يوم ٢٣ مارس كتب نيكوس إلى ليّا دُنْكِلُوم:

... شكراً على عدم نسيانك لنا. أنا أيضاً أفكر فيك كثيراً، يا عزيزتي ليّا، وأمل أن أراك ذات يوم، ليس في باريس، فهي مثل بابل لعينة وفاتنة، ولكن في القدس، في تل أبيب، على الأرض المقدسة التي أحبها كثيراً! هناك قطرة كبيرة من الدم اليهودي في دمي (٣) وهذه القطرة تحرك دمي الأغريقي وتجعله يغلي. عندما كنت في العاشرة من عمري توصلت إلى أبي كي يتركني أتردد على حاخام كاندي لأتعلّم العبرية؛ وذهبت إليه ثلاث مرات ... غير أن أعمامي، وخاصة عمّاتي، تملكهم الخوف خشية أن يشرب اليهود دمي كما زعموا. فأخرجني والدي من المدرسة اليهودية.

هنا، في العزلة، أعمل كثيراً، وجيداً. أضع الآن كتاباً موضوعه عبري (٤) وتجري أحداثه في فلسطين. وتدرّكين كم هو مفيد لي أن أعود الآن إلى رؤية الأمكنة المقدسة. لكن

(١) و (٢) رسالة إلى بوريي كنوس

(٣) افتتان كازنتزاكي بالشرق جعله يتصور دائماً أن له دماً عبرياً أو عربياً أو أفريقياً.

(٤) «الإغواء الأخير».

ذلك يبدو مستحيلاً: «نتشيفوا»

في اليونان، كل الأوضاع سيئة؛ ينبغي أن يكون المرء، أو يصير، بطلاً كي يقدر على تحمل هذا العالم الدنيء، المتعفن. لكن وسط تلك العفونة توجد روح بكر، تنمو ترفع رأسها وتتغذى من ذلك العفن، وسوف تنتصر بعدنا بقرون. هناك مسيح يمشي دائماً...

آنتيب، أول يونيو ١٩٥١ (١)

... لم أعد قادراً على رفع رأسي من شدة انغماسي في فرح «الإغواء الأخير» وقلقها... ويمر الزمن، تطلع أقمار وتغيب مثل البروق. زوجتي غائبة في فيشي. والعزلة تجعلني أكثر توحشاً، وذلك هو مناخي الحقيقي. إن زوجتي هي التي ما زالت تشدني إلى مجتمع البشر وتمنعني من التوحش. ذات مرة، على جبل سيناء، أراد النساك إعطائي «ستيكي»، صومعة، في الصحراء: مصلى، ثلاث حجرات صغيرة، باحة فيها ثلاث شجرات زيتون وشجرة برتقال، وينبوع صغير. ويشتمل دير القديسة كاترين على عدة مخطوطات. وكان بإمكانني قراءتها لنشر أهمها... ومنذ ذلك الوقت لم تنفك تلك «الستيكي» تنتصب أمامي، في الهواء، ولولا وجود زوجتي لعدت إليها منذ زمن طويل... لم أشاهد في حياتي ما هو أكثر جاذبية وإغراء من صحراء بلاد العرب.

لحسن الحظ أنك ستأتين بعد ثلاثة أسابيع، وسوف تصالحيني مع بني البشر....

بدأت الروايات الكبرى تسقط في النسيان، الواحدة تلو الأخرى. واغتاظ نيكوس من عجزه عن تمديد الأيام وفق هواه، لكنه حافظ على مظهر الإنسان الحكيم. لم يعد قلمه قادراً على مساييرة إيقاع فكره. وبدأت أتكيف مع هذا الاختزال الشخصي الجديد.

ظل دمثاً، مطمئناً، يضحك ويأكل وينام، كما في السابق. وكل شيء يبدو له طيباً ومناسباً:

- نيكوس، قال كاتب أمريكي شاب ينزل ضيفاً عندنا، كيف تتمكن من العمل في مثل هذا القرن؟

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

- آه يا صديقي، لا يوجد ما هو أفضل للعمل. فهذه الحرارة منشطة جداً!
مرت بضعة أشهر، وعاد صديقنا الأمريكي الشاب، فوجد نيكوس يعمل في شرفته
والبرد قارس هذه المرة:

- ولكن، يا نيكوس كيف تستطيع الكتابة في هذا البرد القطبي!

- آه يا صديقي، لا يوجد أفضل منه للعمل! فهذا البرد منشط جداً!...

وظلت البطاقات التي كان يرسل بها إليّ من فيشي محافظة على التفاؤل:

٢٦ مايو ١٩٥١

يا ساكنة مدن المياه الحبيبة ... سأذهب اليوم إلى السوق لشراء بعض السمك للقطة
- مع زيادة قليلة لأتمكن من الأكل أنا أيضاً. ذهبت أمس لشراء القليل من لحم الخنزير.
وبما أنني كنت شارد الذهن، طلبت بدل قطعة كُوتليت (ضلع) - هل لديكم «كيلوت»
خنزير؟ فضحك الجميع، وأجابني الجزار: كلا يا سيدي، ليس لديّ سوى «كيلوت»
رجل! فذهبت إلى بائع «كيلوتات» آخر...

٣٠ مايو

نامت القطة طوال ليلة أمس بجانبني. اتعمد شراء السمك من أجلها، من أجل ذيلها
الذي، ما إن تراني قادماً بالسلة، حتى ينتفخ وينتصب مثل قضيب..

كان رأس أنتيب البحري الذي رَمَتْ بنا الأقدار إليه منذ أربعة أعوام، يتميز
بنبات جميل مثل الآس، والمصطكا، والزيتون، والسرو، والصنوبر،
واليوكالبتوس، والسنديان، والبلوط. وكان نيكوس على شرفته يبدو، بين الرياح
والروائح القديمة، مثل ذئب بحار يدير دفتّه وعيناه تجوبان عرض البحر.

- هل تريد أن أهتم بجواز سفرك؟ سأله يا نيس سفيانوبولو^(١) الذي زارنا
في أنتيب بضعة أيام.

- أود الحصول عليه في الوقت المناسب، كي أتمكن من العودة إلى زيارة شمال
إيطاليا، هذا الصيف.

(١) سياسي يوناني ثاقب النظر، نادى بسياسة حيادية لليونان.

أجاب نيكوس. وأضاف: أحمل اليونان في داخلي، ولا أرغب في العودة إليها. لو كنت قادراً لسافرت إلى المكسيك أو الهند.

ولقد جعلنا يانيس سفيانوبولو نحلم بمستقبل أفضل لليونان، لأنه، برغم قلبه المرهق، كان يحتفظ بالحيوية وتشويق المستمعين إليه، بملاحظاته الذكية حول السياسة الدولية، ودور الوساطة الذي قد تلعبه اليونان. فكنا نأمل رؤيته على رأس حكومة يونانية تُخرج بلادنا من الهاوية التي أسقطها فيها الأنجليز والأميركان. لكننا كنا أكثر قلقاً إزاء أنجيلوس سيكليانوس. إذ عرفنا أنه يشكو مجدداً من توقعك صحته.

ولم يكد يانيس سفيانوبولو يغادر أنتيب حتى انفجر الخبر المحزن بين أيدينا مثل رمّانة.

– لا أوافق! لا أوافق! همس نيكوس وهو يكرّ على أسنانه. كلا، هذا غير مقبول!

ورمى بالرسالة التي تلقّاها منذ قليل، ثم وقف وألصق جبينه بزجاج النافذة. تناولت الرسالة اللعينة، وإذا أنجيلوس سيكليانوس قد كفّ عن الحياة.

– هذا أمر غير عادل! احتجّ نيكوس مرة أخرى. ثمّة الآلاف من النفائات البشرية تتضرّع يومياً كي يختصر الإله آلامها؛ آلاف اليائسين والبشر المفرغين من جوهرهم يبحثون عن الموت، طلباً لحياة أفضل. وها هو ذا زهرة المصطفين، الرجل «المتليء»، يصعق في أوج عطائه الخلاق..

توصّلت بصعوبة إلى سحب نيكوس من تأمل ذلك القبر المفتوح حديثاً. ولم أكن أعرف سوى بلسم واحد: العمل. وربما السفر أيضاً.. حتى تتمكن عيناه من تأمل جمال جديد..

وفي اليونان تمكّنت تيّاً أنيموياني من حلّ مشكلة جوازي سفرنا، جزئياً. فصار بإمكاننا، بعد الإقامة في الجبل، أن نذهب لزيارة إيطاليا... إيطاليا التي كان نيكوس يحدثني عنها بحنين كبير..

آنتيب، ١٤ يونيو ١٩٥١ (١)

عزيزتي وصديقتي الوحيدة،

مباركة أنت! لقد انتصرت ... وبفضلك سوف نذهب إلى إيطاليا، لكن الشيء غير المتوقع هو أن الوزارة جدّدت الجواز مدّة شهرين فقط! كما لو كنت مجرمًا!.. أختنق سخطاً. ويحدث كلّ هذا في الوقت الذي تسكن فيه صورة صديقي الميت أيامي وليالي. سأذهب لقضاء أسبوعين في الجبل، بفرنسا، فربما استعدت هدوئي قليلاً. فعندما يرهق جسدي كثيراً أستعيد بعض الطمأنينة.

سنقصد جبال الألب غداً. وسوف أراسلك مرة أخرى من هناك، وكذلك ايليني المرهقة والحزينة جداً. لقد طرق الموت بابنا، ياتياً..

كنت سأخضع إلى عملية جراحية بسيطة، وقررت ألا أعلم نيكوس حتى لا أقلق. تذرعت بقطتنا «بوبولي» ومشكلة تركها وحيدة، وطلبت منه أن يسبقني إلى الجبل. وطلبت منه خدمة خاصة حتى لا يفكر في الموت:

- لم تعجبني الصياغة الثانية لكتابك «قسطنطين باليولوغ» فهلاً أسعدتني بصياغته مرّة ثالثة؟ تكون جديرة بـ «ثيزيوس»، بنيكوس كازنتزاكي الجديد؟

استمع إليّ نيكوس، كعادته، لكنه لم يعد بشيء. وعندما التحقت به في سيغال بعد أيام، قرأ عليّ الفصل الأول من «باليولوغ» أقرب إلى قوة «ثيزيوس».

سيغال ذات الاسم المجنّح^(٢)، قرية شبه مهجورة تبعد بضعة كيلو مترات عن نيس، في جبال الألب البحرية. وكان كلّ بيت مهدم يثير فينا هوس البنّائين: «هنا نستطيع إقامة مسكننا الجديد، المكتب في هذه الزاوية، وهناك، أمام تلك المدفأة المهجورة، قاعة الجلوس...» كان هناك جدول يتعرّج في أسفل الوادي، والكروم تتدرّج على السفح وثمة صليب ينتصب في مدخل القرية، بل هناك أيضاً خوري هرم يعتني بالكنيسة الصغيرة وكنوزها. وفي الليل تشعّ فوق كروم العنب

(١) رسالة إلى تيّا أنيموياني.

(٢) تشابه صوتي بين اسم القرية Sigale واسم «الزّيز» بالفرنسية cigale (المترجم).

مليارات الأضواء الخضراء إنها حشرات الحباحب محتفلة بتزاوجها. ويذهل نيكوس: «لم أتخيل قط مثل هذه الأعراس!».

سيغال، استيرون، فندق غوردا

٢٢ يوليو ١٩٥١ (١)

صديقي العزيز جداً،

نحن الآن في قرية صغيرة على جبال الألب. وسنمكث فيها حتى الثالث من أغسطس لنقصد فلورنسا بعدها..

هنا، في العزلة، أحاول الشفاء من صدمة فظيعة: تربطني بسيكليانوس صداقة أربعين عاماً. كان الوحيد الذي أستطيع معه التنفس، والتحدث، والضحك، والصمت. أما الآن فالليونان فارغة بالنسبة إليّ.

كانت أيامه الأخيرة في منتهى المرارة والظلم: لقد ناولوه السمّ بدل الدواء، خطأ. وهكذا جعلوه يتجرّع «الليزول»، فاخرقت أحشاؤه. لكنه صارع ببسالة. وحالما تجرع السمّ نُقل في سيارة من كيفيسيا إلى أثينا، باتجاه مستشفى ايفانغيليسموس، وهناك رفضوا استقباله. فنُقل إلى عيادة كاثوليكية «ياماكاريستوس». لكن بعد فوات الأوان. ظل ذهنه صافياً حتى آخر دقيقة. هناك تفاصيل أكثر في صحيفة «نيا-إستيا». بعد اقتراح مآتم وطني، رفضت الحكومة في البداية، مدّعية أن سيكليانوس كان لا - وطنياً، شيوعياً، معادياً للوطن! انظر إلى أين وصلنا! وهذا يبيّن نوعية الرجال، نوعية «الأنذروليس»^(٢) الذين يحكمون اليونان حالياً. لقد اعتبر رجال السياسة عندنا أن ذلك الشاعر خائن! ذلك الشاعر الأكثر يونانية، الأكثر تعلقاً باليونان الخالدة، تلك الروح التي بنت، مع أرواح أخرى، معجزة تدعى «اليونان».

أكتب إليك ودموعي تغالبني. دموع ألم، وقرف وغضب. تمنيت لو متُّ ولم أعش هذا الخزي الذي تشهده بلادي. يوم الثلاثاء ١٩ يونيو ومع غروب الشمس، مات صديقي. ومنذ ذلك اليوم وأنا أحمل جثمانه بين ذراعيّ. أنام وأستيقظ ولا أتوصل إلى هدوء البال؛ وعندما أختلي بنفسي فقط، أنحني عليه وأبكي. وتعاودني الأسئلة الأبدية، تمرّق فكري،

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٢) سفير يوناني شن حملة مغرضة، في ستوكهولم، ضد سيكليانوس وكازنتزاكي.

فلا أعود قادراً على تحمّل الحياة والظلم؛ ثمة الآن قطيع قرود مثقفة تحيا، وتعيش جيداً، وتدّنس اليونان، أما سيكليانوس فقد مات! إذا كان هناك إله فإنّه مدين لنا، ذات يوم، بالحساب.

ولم نكد نصل إلى فلورنسا، ونقيم في فيلا فابريكوتي، حتى انقضت علينا كارثة أخرى:

فلورنسا، ٤ أغسطس ١٩٥١ (١)

صديقي العزيز،

كارثة وطنية أخرى تحلّ باليونان! لقد توفي أول أمس، بشكل مفاجيء، أشرف رجال السياسة، وأكثرهم استنارة، وجدارة، يانيس سفيانو بولو. لا أحد يستطيع تعويضه. ولست أرى من هو قادر على حكم اليونان. فقدتُ صديقاً رائعاً، ولا عزاء. إنّ قارون يعرف كيف يختار الأفضل؛ فاللؤماء لا يموتون بسهولة لأنهم متكيفون مع العالم الراهن؛ كلّ شيء لصالحهم.. في حين يتوجّب على الإنسان الشريف أن يكافح الجميع ويتجرّع كلّ أنواع السموم التي يقدّمها له الأصدقاء والأعداء على حد سواء؛ فهو غير متأقلم مع العالم غير المنصف في هذا الزمن، وهذا العالم يزدريه ويرفضه. سفيانوبولو أذيق السم بدوره، لا من أيدي أعدائه فقط، بل من أيدي أصدقائه أيضاً، لأن أصدقاء اليوم، الناس الشرفاء، جبّاء، ومستعدون للانتقال، في كل لحظة، إلى معسكر الأعداء، لأنه المعسكر الأقوى. وهكذا لم أجد في فلورنسا ما كنت أسعى إليه من ابتهاج؛ إنني أحمل ميّتين في داخلي وأرى كلّ شيء بعينين غائمتين. قررت تأليف كتاب عن سيكليانوس، لحظات عظيمة، جُبّناً فيها اليونان، ولعلّ ما قلناه، وفكرنا فيه، أو فعلناه معاً، يفيد أناساً آخرين..

فلورنسا، ٤ أغسطس ١٩٥١ (٢)

عزيزتي تيا،

ليباركك الله، فلولاك لما عدت إلى رؤية فلورنسا ثانية. أتجول من دون أن أنساك هنا. أشهد فلورنسا بانفعال، لكن من دون فرح. قلبي حزين. ربما ارتحت قليلاً بتأليف

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٢) رسالة إلى تيا أنيموياني.

بعيون مطفأة ، مثل تابعين، نذهب لمشاهدة تمثال ليكائيل أنجلو، ونرى سيكليانوس يتلو في تشنجات الألم .. ونتفرج على «الباليولوج الأخير» لبيروزو غوزولي، فيُخيل إلينا؛ في ذلك النور المخضر، أننا نشاهد قسمات صديقنا يانيس سفيانوبولو. وحتى ملائكة فرا أنجيليكو كانت تبدو لنا كأنها تحضر جنازاً..

لم أجروء على التسريع في العودة لأنني أعرف طريقة نيكوس: إرهاب الجسد بأكبر قدر ممكن حتى يتألم ويجعل الروح تنسى ألمها. وهكذا واصلنا برنامجنا: البندقية، سياناً، سان جيمينيانو، بادوفا، بيزا، ثم جنوة. وكان نيكوس يرفض تناول الطعام الساخن ويتغذى بالفواكه والجبن والخبز، فقط..

صدرت «المسيح يصلب من جديد» في ستوكهولم فكسب نيكوس صديقين جديدين: الكاتب اليهودي الألماني ماكس تو، والكاتب الهولندي دان دولارد، ذلك الشاب النشط الذي لم يُضغ دقيقة واحدة لاستئذان نيكوس، وأرسل إلى ناشره الأميركي، ماكس لنكولن شوستر، بكتاب «المسيح يصلب من جديد» مرفوقاً برسالة متحمسة.

ولدى العودة إلى أنتيب أجرى نيكوس تنقيحات أخيرة على «الإغواء الأخير» وعاد إلى محاوره صديقه البعيد بوربي كنوس:

فيللا مانوليتا، ١٢ سبتمبر ١٩٥١

صديقي العزيز،

عدنا أمس من الحج إلى ايطاليا، وعيوننا وقلوبنا، منبهة بأعمال الإنسان الرائعة. لقد شاهدتها ثلاث أو أربع مرات في حياتي، وفي كل مرة تبدو لي مختلفة وكأنني أكتشفها للمرة الأولى. وفي هذه المرة لم أعد أميز، بقلق عميق، هالة ضوء حول كل أثر فني، بل تاجاً ليلياً، مدركاً أن جناح الموت يرفرف فوقه. عندما دخلت إلى كنيسة إريميتاني في بادوفا حيث أعجبت سابقاً بجداريات مانتيغنا، لم أجد سوى الانقراض؛ لقد سقطت قنبلة على الكنيسة وسحقت كل شيء. كذلك تحطمت في بيزا، وكامبوزانتو، جداريات

أوركانيا وبينوزو غوزولي؛ وتحولت كل تلك الروائع الملونة إلى رماد. الإنسانية تنتحر.
أذرع الأرض جيئة وذهاباً، أنظر بنهم، وعطف ومرارة، مودعاً كل شيء.

وسوف تفعل الشيء ذاته، بدورك، في اليونان. اذهب إليها بسرعة كي تصل في الوقت المناسب، وتتأمل «المعجزة اليونانية» ما دامت قائمة، إن البارثنون يمكن أن يتحول إلى رماد أيضاً..

ماكس تو، الذي يلقيه أصدقاؤه بـ «المجوسي» هو يهودي ألماني، وكان يتعاون في برلين مع برونو كاسيرر^(١). وتمكن في آخر لحظة من مغادرة الجحيم الهتلري والإقامة في أوصلو، والتزوج فيها. وعمل كلاهما على إنقاذ أكبر عدد من المضطهدين والملاحقين. لكن ماكس تو لم يتمكن من إنقاذ عائلته. ومع ذلك لم يُعمه الحقد. وتعلم كيف يكرس حياته لإعادة الثقة والصداقة بين الشعب الألماني والشعوب الأخرى.

كان مشغولاً بالأدب، ويسعى إلى اكتشاف المواهب الشابة والتعريف بها. ولا يمكن حصر عدد الشعراء والناثرين السكندنافيين والألمان الذين يدينون له بشهرتهم.

وكان صديقاً حميماً لكل من ألبرت شويتزر وتوماس مان فقدم لهما «المسيح يصلب من جديد». وبسبب إعجابه بذلك الكتاب سعى إلى مقابلة من عزل أنتيب، أو مساعدته على الأقل:

أنتيب، ١٥ سبتمبر ١٩٥١

صديقي ومعلمي العزيز،

فاجأت رسالتك عزلتي فأحسنت إليّ؛... لم أعد وحيداً... كيف أتمكن ذات يوم من التعبير عن امتناني؟

.... لم أكرث بنشر قلقي وآمالي، أما الآن، وقد استمعت إلى صوتك يستجيب لصوتي، صرت أتطلع إلى كسب أصوات ودية أخرى. ليت بالإمكان تأسيس جمعية، على طريقة رهبانيات أيام زمان، من أجل مقاومة التعفن والروح الانهزامية الجامعة بين الفضاة

(١) ناشر مشهور مات منفيًا في لندن.

والروعة، في عصرنا.

... سوف أسعد باستقبالك إذا مررت بآنتيب. لا يطمح الواقع إلى التطابق مع رغبات الروح الحارقة. أمل إذاً، أن أراك في آنتيب... (١)

ونظراً إلى كون نيكوس لا يستطيع الذهاب إلى النرويج فقد جاء ماكس تو إلى آنتيب. وكرّر زيارته في الأوقات الصعبة. وضحكاً معاً ووضعاً خططاً، الواحدة أكثر تفأؤلاً من الأخرى .. حتى الأيام الأخيرة عندما جاء ماكس تو إلى عيادة فريبورغ ليقبل صديقه قبله الوداع الأخير من دون أن يعلم بأنها كذلك.

لم يهدأ بالي لوجود أربعين ألف كلمة مترجمة من الفرنسية إلى اليونانية الجديدة، والصفافية في صندوق مغلق. إذ أن غياب قاموس فرنسي - يوناني، ويوناني - فرنسي، مع ترك هذا العمل للتلف، بدا لي أمراً شنيعاً. وألححتُ على نيكوس حتى وافق على إتمام ذلك القاموس، إذا وجد شخصاً متخصصاً. ولقد اقتنعنا بأن الوقت قد حان لإنجاز تلك المهمة، على أكمل وجه.

فيللا مانوليتا، ٦ نوفمبر ١٩٥١ (٢)

صديقي العزيز،

زارني أستاذ اللغة اليونانية الحديثة في السوربون، السيد ميرامبال (٣)، إثر عودته من اليونان. ووضعنا أسس قاموس فرنسي يوناني، يجمع بين اللغة الصفائية والشعبية .. ونعتقد أن إنجاز هذه المهمة على أكمل وجه يتطلب سنتين من العمل الشاق؛ لكن ميرامبال عالم كبير، وأنا متعلق جداً باللغة المتداولة، وهذا من شأنه أن يجعل العمل ناجحاً ومفيداً ... أعمل كثيراً. لم يعد لدي متسع من الوقت للنوم؛ إن العاصفة الخلاقة تحملنا مثل الركام ... لا بد من جسر حديدي للمقاومة؛ كنت أتمنى بعض الراحة، لكن كيف؟ أنا مستعجل وثمة قوة في داخلي تتلهف من دون رحمة..

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٢) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٣) غير ميرامبال رأيه ووضع بمفرده قاموساً، كان لسوء الحظ محدود القيمة.

انتهيت من رqn «الإغواء الأخير» بالآلة الكاتبة، فأرسلنا بالنص إلى بوربي كنوس:

فيللا مانوليتا، ١٣ نوفمبر ١٩٥١ (١)

تملكني انفعال شديد وأنا أرسل إليك بهذا العمل؛ وإذا صبرت على قراءته بتمهل، سوف يملكك الانفعال نفسه الذي تملكني أثناء كتابته. أنا متيقن من ذلك...

أردت تجديد وإكمال الأسطورة المقدسة التي تشكل أساس الحضارة المسيحية الكبيرة في الغرب. وليس الكتاب مجرد سيرة للمسيح، إنه جهد إبداعي مقدس ومؤلم، يهدف إلى تجسيد جوهر المسيح - مع إلغاء كل الأدران، والأكاذيب والدناءات التي ألحقها به المتجلببون المسيحيون والكنائس، وشوّهوه بها.

كثيراً ما تتلطح مخطوطاتي .. لأنني لا أتحكم في دموعي، هناك بعض المأثورات التي لا يعقل أن يكون المسيح قد تركها، هكذا، ناقصة، كما نلاحظ ذلك في الأناجيل، ولقد أكملت وأعطيتها النهاية النبيلة والحنون الجديرة بقلبه؛ وثمة كلمات، ربما لم ينطق بها، لكنني أوردتها على لسانه، وكان من شأنه أن يقولها، لو كانت تعاليمه في قوته النفسية وطهارته. وهناك الشعر في كل مكان، وكذلك حبّ الحيوان، والعشب، والبشر، والثقة في الروح، واليقين بانتصار النور..

استعرت ، طيلة عام كامل، من مكتبة «كان»، كل الكتب التي وُضعت حول المسيح، ويهودا، ووقائع ذلك العصر، والتلمود، الخ .. وهكذا فإن كل التفاصيل صحيحة تاريخياً. لكن من حق الشاعر عدم الخضوع لعبودية التاريخ «بوييزيس فيلوسوفوترون ايستورياس» (الشعر فلسفي أكثر من التاريخ) ..

وكتب إلى ماكس تو، المنغمس في قراءة «الحرية أو الموت»، مؤكداً على الحوافز التي جعلته يكتب هذه «الساغا» (٢) الكريتيّة، ثم أضاف:

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

(٢) مصطلح من الأدب الاسكندنافي يعني الحكاية التاريخية أو الميثولوجية (المترجم).

أنتيب، ١٦ نوفمبر ١٩٥١

... كل الأحداث المذكورة في هذا الكتاب واقعية .. أردت، قبل كل شيء، إبراز الهيجان المقدس الذي تملك شعباً مكافحاً من أجل حريته، وكيف تحول أتفه الناس إلى أبطال في قبضة ذلك الاندفاع الفظيع - بجانبه الإنساني، وألا إنساني أيضاً...

لقد عشت الثورة الكريزية سنة ١٨٨٩ بعنف، جعلني أعود، اليوم، كلما أردت كتابة شيء عميق ودام، إلى ذكريات الطفولة ... ذلك أنني لا أعرف السماء، والبحر، والمرأة، والزهرة، وفكرة الموت، وجمال الحياة الشرس، إلا من خلال ذلك القلب الطفولي الملهب. وهكذا تمكنت من امتلاك كل تلك الألغاز التي ما زالت تلهب في أعماقي وتجعلني أرتعد. ولو أنني فقدت تلك الرجفة، وتلك الذكريات الطفولية، لما ظلت هناك أية قيمة لكل ما تبقى؛ مجرد ظلال غريبة يحركها العقل ... العقل الاستدلالي البائس..

١٩٥٢: بدأت بداية سيئة. إذ أصيب نيكوس بنزلة برد، مرفوقة بحرارة عالية، وتورمت شفته من جديد. وصار يسعل بطريقة أقلقني.

لم يتبق في عينيه سوى الحزن. فطردت صورة وجهه يتلبس وجهي مثل قناع: وجه كوفاروبياس^(١) الذي شاهدته في متحف اللوفر، فقلت ما كان يجول في ذهني لتسلية الرجل المتألم:

«- لا تهتمّ بحالتي. إنها روحي التي تملّي قوانينها على الجسد. وهي متضايقة من عدم قدرتها على التعبير عن ذاتها في «فاوست الثالث».

- ليذهب فاوست الثالث إلى الشيطان، والرابع أيضاً! هناك مواضيع كثيرة تغلي في دماغك. أنت تذكرني بالفتيات الباحثات عن زوج، عندنا: «أريد زوجاً، أريده الآن، إذا تأخر قليلاً، لا كنت ولا كان!».

ولم تساهم الأخبار الطيبة القادمة من اليونان في تلطيف الجو. فقد نشر بريفيلاكي كتاب «الزهد» في طبعة أنيقة. وزينه أحد أفضل النقاشين على الخشب

(١) البورترية الشهيرة الذي رسمه الغريكو لـ «كوفاروبياس».

في اليونان، وهو يانيس كيفالينوس، بزخارف مؤطرة، جميلة جداً. وسرّ نيكوس بذلك. وانكبّ بريفيلاكي دائماً، بمساعدة عمانويل كستاغلي، على نشر الأعمال الكاملة لكازنتزاكي بعناية فائقة. وسرّ كازنتزاكي مرة أخرى. ولم تتكرر محبته لصديقه الأصغر بسبب عدم إعجابه بـ «المسيح يصلب من جديد» والروايات الأخرى الكبرى.

«لقد تقدمت بمقدار ما استطعت، وعلى بريفيلاكي الآن أن يتجاوزني! هذه هي الوسيلة الوحيدة للابن كي يشرف أباه!».

لكن كازنتزاكي كان أكثر تشدداً إزاء اليونانيين الآخرين: وهذا ما كتبه إلى بوربي كنوس الذي كان يستعد لزيارة اليونان:

آنتيب، ٤ يناير ١٩٥٢

... إن الشعب اليوناني الذي يسكن الجبال والجزر، رائع جداً. ويتحلّى بفضائل كبرى وبخصال إنسانية عميقة؛ غير أن قاداته الحاليين يلحقون به العار. وسوف تلتقي، بين المثقفين، ببعض الشباب المفعمين بالطموح، والفضول الروحي، والحب التلقائي..

... ولن يكون لكتبي أيّ صدى في اليونان، لأنها تطرح قضايا ما ورائية لا تهتم اليونانيون المعاصرين؛ فالموضوع الرئيسي، شبه الوحيد، في كل أعمالي هو معركة الإنسان مع «الإله»، الصراع الشرس الذي تخوضه الدودة المسماة «إنسان» ضد القوى المتسلطة والظلامية الموجودة في داخله وحواليه؛ العناد، الصراع والصلابة لدى تلك الشرارة الصغيرة الساعية إلى خرق الظلام الأبدي وقهره. الصراع والقلق من أجل تحويل الظلمات إلى نور، والعبودية إلى حرية ... لكن كل تلك المعارك، ويا للأسف، غريبة وغير مفهومة لدى مثقفي اليوم في اليونان...

أقبل الربيع مبكراً، قلقاً، وكلّ شيء يتطلع إلى السعادة. والروح تزدرى الجسد المنهك وتطلب أجنحة. اختفى الورم الذي كان يشوه شفة نيكوس، لكن الحزن استمرّ.

«عندما كانت تنتابني نوبة الكبد وتعتني بي في الظلام طوال ساعات، ماذا

كنت تقول لي؟ أصبري، أصبري، يالينونشكا، الحياة جميلة، تذكرني أننا
محظوظان ... وماذا كنت تفعل لطرده الألم؟ تروي لي حكايات كريمية جميلة.
وأسفاه، ما من حكايا في جعبتي، لكن يكفي أن تأمرني لأقرأ لك أجمل الحكايا
المطبوعة في كتب البشر، تعود العينان الحبيبتان من بعيد، ثانية، تنظران إلي
مازحتين، ثم تستعيدان ذلك التعبير عن حزن لا يوصف، يكرّني...

فيقودني التداعي إلى ثلوج غوتسغاب الرائعة، وعالم الصمت والصفاء،
والهواء الخفيف، وأنفاس الأبقار الدافئة.

– هل تريد الذهاب إلى الجبل وحيداً بين الثلوج؟

قبل بضعة أيام من سفره إلى جبال الألب النمساوية تلقى نيكوس أخباراً جدّ
مؤثرة من أوصلو. وإذا كان الكتاب اليونانيون يتآمرون عليه، فقد رشحه أدباء
النرويج بالإجماع لنيل جائزة نوبل. وإذا كانت اليونان تتردد في تجديد جواز
سفره وتتركه سجيناً في فرنسا، فقد وافقت النرويج على إعطائه جواز سفر
«تكفيني بضع ساعات، كتب إليه ماكس تو، كي أحصل لك على الجنسية
النرويجية. وإذا أذنت لي بتوجيه نداء عبر الإذاعة، سوف تحصل على ما يمكنك
من العلاج في أي بلد تختاره». لكن كازنتزاكي، مهما كان قوله، لم يشأ تغيير
جنسيته، ولن يطلب مساعدة أحد.

أنتيب، ٢٠ يناير ١٩٥٢ (١)

معلمي وصديقي العزيز،

أية معجزة! لقد نظمت، ورتبت، وأنجحت كل شيء، بطريقة رائعة. كيف أجد كلمات
لشكرك؟ أي مَلَاك حارس أتى بك إلى عزّلتني؟ فأمسكت بيدي وقلت لي: «اتبعني، أعرف
الدرب، ثق بي!» فتبعتك...

وَجَدْتُني رسالتك وحرارتي قد بلغت ٤٠ درجة. أصارع بشراسة منذ شهرين.
وأحاول الشروع في تأليف كتاب جديد (٢) غير أنني أصطدم بعراقيل كبيرة؛ ذلك أن

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

(٢) كتاب «فاوست الثالث».

روحي المغتازة تشكّل جسدي، وتشوومه، ثم تعيد تشكيله، تسيء إليه، تلقي به على السرير محمومًا مضنيًا. وكلما أعلنت الحرب، في داخلي، بين الروح والمادة التي تقاومها، أصابني الشيء ذاته. لحسن الحظ أن رسالتك وصلت؛ وقد حسّنت من حالتي، أنا متأكد من ذلك..

أنقيب، ٣٠ يناير ١٩٥٢ (١)

أفكر في الذهاب، خلال بضعة أيام، إلى «التيروول» النمساوي. أنا مرهق جدًا وينبغي أن أكون حذرًا؛ لقد أضناني الجهد الذي بذلته كي أبدأ كتابي الجديد ... فكّرت في أمور كثيرة خلال هذين الشهرين ... لم أعد، كما في السابق، في حلّ من المسؤولية إزاء أي شخص؛ الآن، بعد الطريق التي سلكها «المسيح يصلب من جديد» صار من الضروري أن يشكل كلّ كتاب من كتبي، خطوة إلى الأمام. لقد خطا «الإغواء الأخير» تلك الخطوة؛ وعلى الكتاب الجديد أن يذهب إلى أبعد وأعلى. هذه المسؤولية كبيرة جدًا وجسدي يُنهك بملاحقة روعي...

كيتزبوهل، غاستهاوس ستانغ،

١٣ فبراير ١٩٥٢ (٢)

حبيبتي،

نزلت اليوم إلى كيتزبوهل ... وعدت حوالي منتصف النهار. لا يمكن وصف الجمال الثابت للأشجار المثقلة بالثلوج، كما لو كانت مزهرة. ولا الجبال البيضاء العالية المحيطة بها. الثلج يتساقط بلا انقطاع. يتساقط وطبقة الثلوج الكثيفة قد بلغت عدة أمتار. لم تعد الأياثل تجد ما تأكل في الغابات، فتنزل إلى المدينة. تذكرت غوتسغاب، غير أن المناظر هنا أروع، من أجمل مناظر أوروبا.

تحسّنت حالي. وارتحت جيدًا. لم أعد أسعل. اختفت آخر آثار «الهربس» .. سأبدأ بالعمل منذ الغد كي أحاول استخراج قصة من «الإخوة الأعداء» كما طلب مني فيوفغ ... أمل أن يكون كل شيء على ما يرام في «مانوليتا» وأن تكوني قد تعوّدت على غيابي؛ عندما أسافر، أندم على اضطهادي لك ... أتمنى أن أستعيد هدوئي في الجبال، وسوف أتصرّف بطريقة أفضل.

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

يا له من حشد، يا لهنّ من نساء - وعجائز أيضاً - يتدفقون كلّ صباح للتحلق على الثلوج يا للحياة والقوة! يعودون مع منتصف النهار وهم يتضورون جوعاً مثل البهائم ... غابات بيضاء، ولا شيء غير الصنوبر. ما من طائر، أو حيوان، الهدوء قبل الطيور والحيوانات ويسمع بين فينة وأخرى تقصف الجليد الكريستالي المعلق على السطوح، إذ يتكسر ويسقط. فتقطّط السطوح المثقلة بالثلج، ويخرج الرجال برفوشهم كي يزيلوه .. هذه هي حياتي. ورسائي تخبرك بالأمر نفسه..

ليكن الله معك، يا حبيبتي، ولا وجود لأحد غيره في العالم...

لم يطل نيكوس الإقامة في كيتزبوهل إذ انتقل إلى مكان أكثر هدوءاً: لوفير. وأراد صاحب الفندق الذي أحبه أن يقرأ له طالع، كما فعل مع هتلر شخصياً، حسب قوله. «لا ترهق نفسك في البحث عن مواضيعك، قال له متفحّصاً خطوط يده. سوف تأتيك من تلقاء ذاتها. اصبر، اترك لها وقتاً للمجيء. على أية حال سوف تعيش مطولاً. لكنك تعاني مرضاً خطيراً جداً...».

لم يعد نيكوس بجانبني حتى يُسكت ندمي . فيتملكني الندم. وأندم على عدم التروي في هذه السفرة أو تلك. وأندم على انسياقي مع التفاؤل المفرط لدى رفيق الدرب.... أندم على عدم استجابتي لغريزتي التي كثيراً ما حاولت تنبيهني. أندم بالخصوص على فتح بابنا، ذات يوم، لتلك الشقراء المجهولة، للقدر الذي استعار شكل تلك المجهولة الشقراء.

لمحت من خلال الباب البلوري شعراً نادراً وأصهب منفلشاً مثل أعواد ثقاب؛ وجهاً مشوهاً قليلاً بسبب حادث ما، خطير ... نظرة طائر مرتبك. كلمتني المجهولة بلغة فرنسية متوحشة. أردت إغلاق الباب في وجهها. كنت مستعجلة جداً، لأنّ الحافلة ستفوتني، ونيكوس ينتظرني في سيغال. ومع ذلك استمعت إلى المجهولة. قالت إنها جاءت تطلب منا غرفة لإيواء إحدى صديقاتها ... وكانت قد رأتنا في نزهاتنا ... وهي فنّانة «وتعرف كلّ الرجال العظام في عصرنا...»

وضعت حدّاً لذلك اللقاء القصير، بكلّ احترام. ولم تستأ، بل وعدت بالعودة

حال رجوعنا، لقمطين التعارف.

اليوم، وبعد أعوام كثيرة من التأمل والألم، ما زلت أعتقد أن قدرنا تنكر في إهاب تلك الشقراء المجهولة.

بعد سيغال وإيطاليا تابعنا حياتنا في أنتيب حتى طرقت بابنا تلك الشقراء، مرة أخرى. وقبلنا دعوتها. كانت ابنتها جذابة، وحفيدها بكاء قليلا من دون داع.

لدى قراءتها صحف بلادها علمت بالنجاح الباهر الذي حققه كتاب «المسيح يصلب من جديد» في هولندا. وبدأت تلح علينا كي نرافقها في السفر حتى يتمكن نيكوس من معالجة مرض «الهربس» في هولندا.

وهكذا قصدنا، ذات يوم من شهر ديسمبر ١٩٥٢، مستشفى في أوترخت. وكان البرد قارساً جداً.

كان الناشر الهولندي، السيد بلومسما ألطف ما يكون، ولم يكن ليغادرنا ليلاً ونهاراً.

وأحاطنا أصدقاءنا الآخرون بالمحبة، مثل الزوجين بليسترا اللذين تعرفنا عليهما في ايجين - دان دولارد وزوجته الشابة، وكذلك رجل الدين الكاثوليكي واسع الثقافة، المبشر ج. فان جيلوفن الذي كان يأتي ليؤنس نيكوس ويحاوره في مختلف المواضيع الماورائية والأخلاقية. وحده طبيبنا كان في غاية الشباب والعناد.

لم تكشف التحاليل عن أي داء مخيف، فغادرنا المستشفى يوم ٥ ديسمبر. وكان يوم السادس منه عيد القديس نيقولا فنظم المعجبون بنيكوس حفل استقبال على شرفه في أمستردام.

قبل ذلك كانت شقة نيكوس قد انتفخت قليلا منذ يوم ٤ ديسمبر.

- لن نغادر المستشفى ما دامت شقة زوجي قد تورمت من جديد. وهو على أية حال لن يستطيع الظهور أمام الجمهور.

- لقد وعدتكما بمغادرة المستشفى يوم ٥ ديسمبر، ردّ الطبيب، وسوف تغادرانه ويضع السيد كازنتزاكي دواء الستربتومايسين في جيبه.

- البرد فظيع ولسنا معتادين عليه، ونزلات البرد مستفحلة في أمستردام. وقد نصحتني، عدة مرات، يا دكتور، بألا أترك زوجي يتعرض للبرد!

- لن يصاب السيد كازنتزاكي بالبرد، إنه قوي جداً...

وأصيب كازنتزاكي بنزلة برد. والأسوأ من ذلك أنها كانت نزلة من نوع الأنفلونزا الحادة ولم نكد ننتهي من مشاهدة لوحات رامبرنت وفرانز هالز، وفرمير، وفان جوخ، في المتاحف، حتى لزم نيكوس الفراش، مع حمى شديدة.

ويستحيل سرد التفاصيل اللاحقة. فبعد أيام من اليأس في أمستردام، عدنا إلى أوترخت. وتابع الطبيب الشاب عناده. وعبثاً توصلت إليه أن يستدعي اختصاصي العيون كي يفحص عين نيكوس التي أحمرت، لأول مرة، وصارت تؤلمه. «لا شيء، أجاب متشبثاً برأيه، فذلك ناجم عن حالته العامة».

لم تبين التحاليل أي تغير في الدم. لكن زيادة الورم في وجه نيكوس، وآلام عينه التي لم تنقطع، جعلت الطبيب يناوله «الكورتيزون» للمرة الأولى.

آه نيكوسمو، نيكوسمو^(١)، ما كان أشد فراغ صبرك المرضي آنذاك!

«لا أشكو من شيء، قلت، سوف أشفى حال عودتنا إلى أنتيب!»

وذهبت توسلاتي سدى. إذ كان الطبيب الشاب الذي أرسله إلينا قدرنا - وهذا ما علمت به لاحقاً - يقضي ليلاليه في الكنائس مصلياً من أجله! وألح على الناشر كي يزودنا بتذكرة العودة التي تظاهرتُ بأننا لا نستطيع الحصول عليها.

كان تشاؤمي يجعلني أتوقع مصائبنا القادمة، وقلّة خبرتي في التمريض تجعلني أنفعل من تهيج أعصاب زوجي بشكل مبالغ فيه. ولم تسبق لي رؤيته قط على تلك الحال.

(١) صيغة تحبيب مستخدمة باليونانية «بانيكوسي» (المترجم)

ولم نكد نبلغ أنتيب حتى تفاقمت حالة عينه. وعندما فوجئت بالحدقة مغطاة بطبقة من الصديد قررت التصرف بعزم وقوة:

— لقد وهبنا الله عينين اثنتين، يا سيدتى. فإذا فقدنا إحداهما، بقيت لنا الثانية! ولست أخلق شيئاً، بل أنقل حرفياً إجابة طبيب العيون في أنتيب.

لحسن الحظ أن صديقنا الطبيب ستيريانوس، والزوجين مترال الوفيين، في باريس، كانوا ينتظرون نيكوس في المحطة. وفي صباح الغد استقبله مستشفى بيشا. وتمكن الدكتور هودلو من إنقاذ عينه المرة الأولى.

لكنني أستبق الأحداث! فمن الصعب سرد الأحداث المؤلمة في حياتنا بتسلسل زمني. بسرعة، بسرعة، هيا نقفز في الجحيم كي نخرج منه إلى النور، في أقصر وقت ممكن.

منذ ذلك الوقت لم أعد أغادر نيكوس. لذلك لا أمتلك من تلك الفترة سوى بضع بطاقات بريدية «تقارير طبية» صار يبعث بها إليّ، فيما بعد، من فريبورغ، في بريسغو، حيث ذهب واثقا من عناية البروفيسور هيلماير.

والآن، لنعد إلى الوراء، إلى صيف ١٩٥٢.

بعد فيشي وكيترزبوهل، أراد نيكوس أن يأخذنى مرة أخرى إلى إيطاليا. وفي هذه المرة زرنا بولونيا، رافين، ريعيني، سان مارينو، بيروجيا، أسيز، أريزو، سيين...

ساعات لا تُنسى. فرح بالاكشاف وإعادة الاكتشاف ... جيوتو بيرو دي لافرنسيسكا لي بوفيرولو .. الروائع الاترودية في بيروجيا، ولا سيما أسيز حيث أحيا نيكوس من أجلي، جورجسنس والكونتيسة أونريكيينا بوتشي ... وهناك تملّكنا جنون تهيئة بيت قديم، مرة أخرى ... في الأزقة الظليلة التي كنا ننشد فيها «الفيوريتي» ونحن نأكل التين والدراق.

— هل أنت قادر على تقبيل أبرص على فمه؟ سألته ذات يوم.

— هذا مستحيل! صاح نيكوس مقشعراً.

- إذا ماذا علّمك القديس فرنسوا، وشويقتزر؟ هل أنت قادر على العيش بين
البُرُص مضحياً لهم بكلّ الثروات الأخرى التي يزخر بها كيانك؟
- كلا. لست مثلهما. ولن أتوصل إلى ذلك.

- إذا؟

- لقد تعلّمت شيئاً: إن الإنسان ما زال قادراً على إنزال المعجزة إلى الأرض.
يكفي تجاهل الدرب المسطح الذي يؤدي إلى السعادة، واختيار الدرب الصاعد
الذي يقود إلى المستحيل...

- هل تشعر بالندم لأنك لم تختَر درب الفعل والممارسة؟

- لقد حاولت، كما تعلمين، في مناسبات عديدة، لكن من دون طائل، دائماً.
وسعيت إلى تغيير طبعي سديّ. والآن لا أرغب إلا في أمر واحد: بلوغ آخر الدرب
الذي اخترته. ومن يدري، يا لينوتشكا، ربما لا يوجد أي درب آخر بالنسبة إليّ.
وربما وجدنا أنّ كلّ الدروب تتقاطع إذا سرنا حتى النهاية.

- في المعجزة؟

- في معجزة ندعوها حياة، وهي خالدة.

آنتيب، ٩ سبتمبر ١٩٥٢ (١)

جالساً، من جديد، إلى مكتب عذابي وفرحي، أمسك بالقلم وأكتب إليك ... شاهدت
روائع في إيطاليا. سررت كثيراً. فكّرت بعمق في أسيز وعشت مجدداً مع الشهيد العظيم
والبطل الذي أحبه كثيراً: القديس فرنسوا. والآن تسكنني رغبة في تأليف كتاب عنه. فهل
أتمكن من ذلك؟ لا أدري بعد. أنتظر إشارة حتى أبدأ. وكما تعلم فإنّ اللازمة الدائمة، في
حياتي وفي كتاباتي، هي صراع الإنسان داخلنا، ضد الإله، وصراع المادة ضد الروح..

لدى عودتي وجدت مخطوطة ترجمة «الإلياذة» التي أنجزناها مع كاكريذيس. كان
الإغواء شديداً، فارتفيت فوراً في الأشعار الهوميرية، ارتمائي في بحر منعش، أثناء
اشتداد القيظ.

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

راجعت الترجمة وعدلت فيها، فسررت بغنى لغتنا وتناغمها وليونتها. أعتقد أنني لم أشعر بمثل هذه اللذة في حياتي، أية لغة، أية عذوبة وأية قوة!

أمس، في «كان»، تعرفت على ناشري الأميركي ماكس لنكولن شوسنز. تحدثنا مطولاً، وأعطيته الترجمة الإنجليزية لرواية «زوربا» ... واليوم تلقيت برقية متحمسة؛ وافق على نشرها. ولقد فرحت كثيراً. فأنا، كما تعلم، أحب هذا الكتاب حباً خاصاً، لأنني أحببت زوربا الإنسان بقوة.

كنا نستعد لزيارة «كان» من أجل مقابلة الناشر الأميركي ماكس لنكولن شوستر وزوجته راي عندما جاءنا ساعي البريد بنسخة من «زوربا» في طبعة جون ليمان الإنجليزية. وذهبنا إلى فندق الكارلتون ونيكوس يتأبط ذلك الكتاب. - اسمح لي بدقيقة واحدة، ترجّانا السيد شوستر الذي أهداه نيكوس كتابه، سأصعد بحثاً عن شيء ما. طالت غيبته ثم نزل ضاحكاً، وظل يضحك ونحن نجلس إلى مائدة الطعام، ويقرأ مقاطع من الكتاب، متخلياً عن الأكل، وأحياناً تنوبه زوجته.

ولدى العودة إلى الفندق أجبرني على الحديث عن «الإغواء الأخير». وبعد ذلك اللقاء الشيق، صارت كتب كازنتزاكي تنشر تبعاً في أميركا. ولم تنقطع علاقتنا بعد ذلك.

«ماكس سألتقط لك صورة و«الأوديسة» بين يديك، لأنك ستنشرها، هذا ما أتوقعه» قالت راي وهي تلتقط الصورة لزوجها محتضناً طبعة الجيب من «الأوديسة».

وفي الأثناء انصرف نيكوس إلى مراجعة ترجمة «الإلياذة» وكتابة الأسطورة الذهبية لقديسه المحبوب «فرانسوا الأسيزي»:

أنتيب، ٦/١١/٥٢ (١)

... وصلتني رسالتك وأنا منكب على «الإلياذة». لقد راجعتها مرتين، لأنني أفتحها فلا أستطيع إغلاقها ... أعمل بشكل جيد هنا، وبدأت بكتابة عمل جديد...

(١) رسالة إلى يانيس كاكريديس.

وعندما كان نيكوس يتأهب لمغادرة أنتيب متوجهاً إلى أوترخت، يوم ٦ نوفمبر ١٩٥٢، كتب إلى بوربي كنوس:

... أشعر بالحزن لترك القديس فرنسوا مدة شهر. عندما أعود إلى مكتبي، يجلس أمامي مثل «موديل» أمام رسام، وينتظرنني؛ فأبدأ بسرد حياته، وذكر مآثره ووصف ملامحه...

وفي هولندا ازداد نجاح «المسيح يصلب من جديد» مقارنة بالبداية. وتحدثت الصحافة كثيراً عن الكاتب اليوناني الذي جاء للعلاج في أوترخت. وأكدت التحاليل ما ذهب إليه الأستاذ تسانك في باريس، فهدأ بالنا وبدأنا نضع الخطط، لأن متاحف البلد سحرتنا.

أوترخت، ١٧ نوفمبر ١٩٥٢ (١)

صديقتي العزيزة جداً،

قرأت بتأثر بالغ رسالتك الأخيرة. وسررت لإعجابك بـ «الإغواء الأخير». أنا أيضاً شعرت أثناء كتابتها بتأثر عميق وحنو عارم، وكثيراً ما كانت عيناى تترقرقان بالدموع. أجريت هنا، في هولندا، محاورات مهمة مع بعض القساوسة حول الجانب اللاهوتي من الكتاب. وثار بعضهم لأن المسيح خضع للإغواء، أما أنا فقد أحسست، أثناء التأليف بما أحس به المسيح. صرت المسيح وأدركت أن إغواءات كبرى، كانت تعترضه وتؤخر مسيرته نحو الجلجلة. ولكن كيف بوسع اللاهوتيين أن يدركوا ذلك؟

سنمكث في أوترخت ثلاثة أيام أخرى ثم نبدأ جولتنا عبر المدن والمتاحف؛ غداً يخبر الطبيب ايليني بنوعية الحمية التي يتوجب عليها أن تتبعها... وبالأمس نُقل إليها دم هولندي.

سررت كثيراً برؤية لوحات قيمة. وهذا مفيد لكتاب القديس فرنسوا الذي تركته غير مكتمل على مكتبي في «فيللا مانوليتا»، كل الفنون لها جذر واحد. وأحياناً أتأثر بقطعة موسيقية، أو لوحة، أكثر من تأثري بعمل أدبي، ولهذا السبب أتلّف إلى مشاهدة رامبرنت وهالس وبروغل وفان جوخ.

أكتب إليك والثلج ينهمر، الأشجار مثل الكريستال، وسرب من النوارس يحلق أمام

(١) رسالة إلى تيا أنيموياني.

النوافذ، لقد تطلعت كثيراً إلى مشاهد الشمال وصمته...

الصورة التي أبعث بها إليك توجد الآن في عدة صحف هولندية وفي واجهات المكتبات، ايليني مسرورة بذلك، أما أنا فلا أستطيع لأنّ كياني كله متفرّع للقديس فرنسوا...

أوترخت، ٢٣ ديسمبر ١٩٥٢ (١)

صديقي العزيز،

انتهت جولتنا في هولندا، وسنسافر غداً بالطائرة نحو «مانوليتا»، نتائج الفحوص الطبية جيدة. لا تشكو ايليني من مرض خطير، وأنا أيضاً؛ لكننا بتنا نعرف أية حمية نتبع ... عيد ميلاد سعيد، يا صديقي العزيز، أتمنى لك الكثير من الفرح والصحة والسعادة؛ ولتقبل الملائكة التي أنشدت «هوزانا» في بيت لحم، تلك الليلة، لتنشد فوق رأسك أيضاً أناشيد السلام والسعادة. «ن».

١٩٥٣. لن يدرك القاريء غير المطلع أنّ أحداثاً كثيرة جرت بين الرسالتين السابقتين. لم يتحدث نيكوس عن آلامه الشخصية لأحد. وقلة هم الذين كانوا يعرفون ذلك. وفيما بعد سوف يُدهش الجميع في مستشفى بيشا أو في عيادة هضاب شومون.

لقد كان نيكوس قدوة لنا جميعاً في تحمل الألم.

- إنه أسد ! رأيت أسداً! صاحت ماري لويز باتاي (٢) عندما رآته طريح الفراش مضمّ العين، شرساً مثل قرصان.

وبعد ثلاثة أشهر عندما كان في شبه غيبوبة عن العالم الخارجي طلب مني قليلاً من الكرز ثم أملى عليّ قصائد «هايكاي» فرنسيسكانية (٣) مدهشة، من دون اللجوء إلى التعديل أو التشطيب. وكان ذلك استثناء لأن هذا الرجل لم يكن يجيد

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

(٢) الأنسة ماري لويز باتاي التي صارت وكيلة نيكوس كازنتزاكي الأدبية في فرنسا، لاحقاً.

(٣) انظر «تقرير إلى غريكو» و«فقر أسيز».

الإملاء قط. وهذا ما أدعوه «معجزة القديس فرنسوا الثانية» وكانت الأولى قد أنقذتنا من المجاعة في إيجين...

آنتيب، ١٩ مارس ١٩٥٣ (١)

رفيقة النضال الحبيبة،

عيني في تحسّن، لكنني لم أتمكن من التفرغ للعمل بعد، لأنها تُرهق بسرعة. وما زال القديس فرنسوا ينتظر على مكتبي؛ وفي الأثناء يشتغل ذهني، وقد اكتمل العمل في داخلي، ولم يعد يتطلب سوى الكتابة. وكما رأيت فإن النقد الموجّه إلى أعمالي المنشورة في الخارج متحمّس جداً، ويبالغ في مدحي. ولولا امتلاكي لرأس كريتي صلب لصرت مغروراً. لكنني أعرف أنني لم أدرك ما أريد وأنّ الزمن يمرّ. متى أبدأ بكتابة «فاوست»؟ وهو محكّ جيد لاختبار قوتي. أوّجّله دائماً لأنني لم أبلغ الجدارة بعد. لكنني وجدت الأسطورة أخيراً، في باريس، عندما كنت نزيل المستشفى. وهكذا خطوت الخطوة الأولى، وهي الخطوة الأصعب. فليساعدني الإله!

لا أعرف إن كان هناك إله أم لا، وإذا كان يوجد، فأنا أعرف أنه لم يأت لمساعدة من ناداه. بل العكس هو ما حدث. ففي الربيع التهمت عين نيكوس مرة أخرى. فتوسلت إليه كي يسافر إلى باريس. لكنه رفض. وكان طبيب العيون في آنتيب هرماً، ومدمناً للكحول. غير أننا كنا نجهل ذلك. وعندما أراد كَيّ الرموش الكثيفة التي أعاقَت عمله، أحرق عين نيكوس.

— آه! صاح، لقد أحرقتك!

واضطر نيكوس إلى السفر باتجاه باريس.

وقبل ركوب القطار حقنه طبيب العيون بإبرة حليب^(٢) ونصحه بتناول إبرتين آخرين، من دون أن يوضح لنا أنه أراد بذلك أن يحدث خراجاً.

وما كان نيكوس لينجو من الموت في تلك المرة، لولا تدخل البروفيسور جان برنار.

(١) رسالة إلى تيا أنيموياني.

(٢) طريقة بالية.

لن أتعرض إلى التفاصيل لكنني لن أنسى سلوك كازنتزاكي عندما كان يفتح عينيه ليراني وهو في حالة هذيان «مرحبا بك! لماذا أزعجت نفسك لأمر تافه؟...» وفيما بعد، عندما كان في عيادة مونمارتر «اقرأي لي (القبطان ميخاليس) يا عزيزتي .. كلا خذي ورقة ... اكتبني!» ثم أملي عليّ قصائد الهايكاي التي أوردتها فيما بعد على لسان «فقر أسيز».

وحال خروجه من العيادة، أملي عليّ قصائد الهايكاي التي أوردتها فيما بعد على لسان «فقر أسيز».

وحال خروجه من العيادة، أملي عليّ رسالة إلى صديقه بوربي كنوس:

باريس، ٨ يونيو ١٩٥٣

صديقي العزيز جدًا،

كتبت أثناء مرضي بعض قصائد الهايكاي الفرنسييسكانية وأعتقد أنها جيدة. مختصرة ومفعمة بالإحساس والدلالة، والإلفة الفرنسييسكانية مع الإله .. حياتي مظلمة ويائسة! شهور عديدة بين جدران العيادة والمستشفى. ولولا ايليني وفرنسوا لما صمدتُ. وربما فتحتُ الباب وخرجت. لكنني أفكر فيك وفي أصدقائي الآخرين في العالم ولم أشأ أن أحزنهم. أقاوم، أصارع، أحشد كل قواي النيرة لقهر الظلام، وأعتقد أنني بدأت أقهره. أنا الآن أفضل حالاً ولم يبق سوى اندمال الجرح. لا تهتم إذاً، يا صديقي العزيز، سأشفى عما قريب كي أكافح إلى جانبك. لأننا نشبه محاربين باسليين كرسا حياتهما للهدف الأكبر: انتصار الروح على المادة..

باريس، ١٢ يونيو ١٩٥٣ (١)

لا تقلق على صحتي، فكل شيء على ما يرام الآن، وآمل أن أعود إلى أنتيب حوالي نهاية الشهر. وهناك سوف أنتظر كاكريديس ونبدأ بعملنا الجبار، لأنني ما زلت أؤمن بأنه صرح لغوي وأدبي تعتز به لغتنا..

أما بالنسبة للقديس فرنسوا فلا ينبغي الاستعجال. كنت أسجل بعض الملاحظات أثناء مرضي، وأكتب قصائد فرنسييسكانية، وأهنيء المشاهد، فيغتنني العمل بثروات

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

كبيرة؛ وسوف أعود إليه بحماسة جديدة حالما أقدر على ذلك.. حاولت استغلال فترة المرض قدر المستطاع، فانضجت هذا العمل في داخلي. ولعلني أكون بذلك قد حولت المرض إلى روح.

يُفسّر تحمّس نيكوس للقديس فرنسوا بإعجابه الشديد بالأبطال الذين يجمعون بين البطولة والقداسة لكن كيف سيتوصل إلى تكريس كتاب كامل له؟ وهل سيسقط في نزعة التأريخ لسير القديسين الكاثوليك، في أواخر حياته؟ من محاوراتنا المطولة حول هذا الموضوع يستعيد ذهني بعض الجمل المتفرقة:

«أثناء هذيان الحمّى، تذكرني عيادة شومون، خيل إلي أنني كنت أرى القديس فرنسوا ينحني عليّ ويأتي خلال ليالي الأرق ليجلس قرب فراشي ويروي لي سيرة حياته، مثل مربية عجوز...»

«... في كتابي سوف أورد أقواله، وأقوالاً أخرى كان يمكن أن يقولها.. كما فعلت مع ماثورات الأناجيل تماماً. فأنا متأكد أن المسيح لم يتوقف في منتصف الطريق. ذلك أن طبيته أعمق مما نقل عنه تلاميذه..»

«... لا يهمني الأدب ولا التحليل النفسي، بل القوى الخفية الموجودة داخل الروح الإنسانية والتي نتركها تنام وتتلف، بسبب الجبن، أو بسبب انعدام مثل أعلى..»

«يصير القديس فرنسوا معاصراً لنا، ليس لأنه حقق في قلبه ذلك الاتحاد الكامل مع الكون والذي يقودنا إليه العلم المعاصر عبر دروب أخرى، فقط، بل لأن قلبه توصل أيضاً إلى حلّ المشاكل التي ما زالت غير قابلة للحلّ: الفقر، الظلم، العنف. والحب الذي كان يبشر به، هو وحده الكفيل بحلّ هذه المشاكل.

كان يبشر به، هو وحده الكفيل بحلّ هذه المشاكل..»

«... ألع مؤرخو القديسين القدامى على حالة الغبطة لدى القديس فرنسوا «الفقر»... أما أنا فسوف أركّز على الصعوبة الكبرى التي يتحرّر بها الإنسان

الفانى ... إنّ الصراع فى منتهى القسوة ... وهذا الصراع تحديداً هو الذى يهمنى...»

فى هذا الصيف لن يتمكن نيكوس من تسلق أشجار التين، ولن يساعدنا فى جنى الزيتون. ذلك أن الجرح الذى تسببت فيه حُقن الحليب أبطأ فى الاندمال.

مع ذلك، وعلى الرغم من ذلك الجرح المفتوح دائماً، وظهور أشكال أخرى من الحساسية الناجمة عن الإفراط فى كميات الزرنيخ، فقد حافظ على مزاجه المتزن وتحمسه للعمل وساهم حدثان سعيدان فى بعث السرور إلى قلبه: زيارة بريفيلاكي القصيرة، ومجيء يانيس كاكريديس. وهذا الأخير أقام معنا قرابة شهر. فراجع الرجلان ترجمة «الإلياذة» مراجعة نهائية. وظلت الحاجة إلى توفير نفقات طبعتها.

وفرّح نيكوس بعرض لاحق، تقدمت به إحدى جامعات ألمانيا الشرقية، واشترطت فيه نشر النصين (اليوناني القديم وترجمته إلى اللغة الجديدة) معاً. غير أن كاكريديس اعترض على ذلك ولم يلح نيكوس. وبطريقة لا واعية بدأ يلج المرحلة الأخيرة من حياته، مرحلة التخلي والاستسلام، والإكتفاء بأبسط الأمور. فصار يفرح بكل شيء ويستمتع برؤية زهرة، أو بسمة، أو تحليق طائر يترك ريشة تسقط - ولم يعد هناك شيء ضروري، باستثناء الموسيقى والتعطش الدائم للعدالة والحرية.

وهكذا نصل إلى سنة ١٩٥٤.

أنتيب، ٨ يناير ١٩٥٤ (١)

صديقي العزيز،

زوجتي تبلغك السلام، وهي مشغولة طيلة النهار بالببيت الصغير، الجديد (٢)؛ العمال منهمكون فى العمل، ومكتبى يتهىأ. نأمل الاستقرار فى بيتنا خلال شهر إبريل؛

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

(٢) بيت صغير مهدم لبعض الصيادين، كان يوجد خارج أسوار أنتيب القديمة.

ليتك كنت معنا كي نحتفل به معاً، أحياناً، عندما أتأمل البيت الصغير وهو يُبنى، أتذكر كلمات زاهد مسلم في القرن العاشر: «- لماذا لا تبني لك بيتاً، أنت أيضاً؟ سؤل. - لأنّ عرّافاً قال لي بأنني لن أعيش سوى سبعمائة سنة، أجب. فما الحاجة إلى بناء بيت لمثل هذه اللحظة القصيرة؟».

وهناك عرّاف آخر تنبأ لي بالعيش ثلاثة وثمانين عاماً. ومع ذلك دفعتني سذاجتي ووقاحتي إلى بناء بيت..

أنّيب، ٢٠ يناير ١٩٥٣ (١)

... أراجع هذه الأيام أعمالي كلها، وأعطيها أشكالها النهائية، متمنياً صدورها ضمن طبعة كاملة..

هنا، بدأ الربيع: شمس ساطعة، كريّية، حارة. أفكر فيك بين البرد والضباب. لكنّ أبولون الشمالي له جاذبيته؛ فالروح تضطر إلى التركيز على ذاتها، بينما تتشتت في المناخات الحارة، وتتنزّه تحت الشمس، وتشعر أنّ الحياة أسمى من الفكر.

... البيت الصغير يتقدّم؛ صغير جداً لكنه فاتن؛ سميناه «الشرنقة» يدخلها المرء يُسرّوعاً ويخرج منها فراشة..

سيحتفل نيكوس يوم ١٨ فبراير ١٩٥٤ بعيد ميلاد مؤثر. ذلك أن ماكس تو «الساحر» كان يخبيء في جرابه أكثر من مفاجأة. ووصلت حمائمه من أربعة أركان الأرض، حاملة في مناقيرها مكاتيب الصداقة والإمتنان.

وبدأ منذ عشية الذكرى يُدهشنا بهداياه التي وضعها أمام نيكوس. هدايا ملموسة وأخرى، أعلن عنها، فإذا الواحدة أجمل من الأخرى: نجاح المسرحية المقتبسة من «المسيح يُصلب من جديد» في مسرح «نورسكي» بأوسلو، طبعات جديدة في أمكنة متعددة، دراسات نقدية أخرى متحمسة، ترجمات تُعدّ في أكثر من عشرين لغة - أعمال بدأت تجد قلوباً وأذاناً جديدة تسمعها.

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

شربنا الأنباب نببذاً من ساموس فى كرىستال نروبى. وكال ماكس تو المباح للنروبى؁ بلاده بالتبنى؁ ولشعبها القوى لأنه عمىق؁ ووفى لمباده؁ ولأدبائها المتحلن بالآىثار ومازالوا يصرون على ترشىح كاتب يونانى؁ هونىكوس كازننتزاكى؁ لجائزة نوبل..

«إذا رغب فى الحصول على الجنسية النروبىة؁ فلا شىء أسهل من ذلك!»

لكن كازننتزاكى ىرغب فى البقاء كما هو! كرىتياً ذا قلب أفرىقى؁ على الرغم من التصرف الغربى لمسقط رأسه كرىت. فلم تردّ الفعل بسرعة على الادعاءات التى أصابته بسبب نشر روابة «القبطان مىخالىس»^(١). وكان رجال الدين الونانىون على درجة من الجهل جعلت رثىس الأساقفة المقىم فى الولايات المتحدة ىندد بالمؤلف وىطالب بتسلىط الحرمان الكنسى على «القبطان مىخالىس مافرىذىس»! خالطاً بذلك بن اسم الناشر واسم بطل الروابة الملعون!

يوم ١٨ فبرارى ١٩٥٤ سرى الدفء فى «فىللا مانولىتا»؁ وأضىئت الأنوار؁ وتألقت الزىنة؁ وبدأ الاحتفال...

ومنذ الفجر أسرع ماكس تو شخصىا إلى فتح الباب والتصفىق لشباب سباق الدراجات التابعىن لمصلحة البرىد والبرق والهاتف وقد تولوا القىام بعرض مكوكى بن المدينة و«فىللا مانولىتا» ناسجىن بذلك لوحة لا مرثىة مفعمة بالحماسة والثقة...

آنتىب؁ ٢٤ فبرارى ١٩٥٤^(٢)

... «الشرنقة» تتقدم ... أنا مسرور بالسكن آخيراً فى بىت على ذوقى وشبهى. اىلىنى أىضا سعىة؁ وهذا هو الأهم..

كان يوم فراشات وعصافىر وورود. ونادىت قطننا الصغىرة «بوىولى» كى أذىقها القلىل من القشدة التى تحبها؁ فاكتشفنا أنها اختفت. وفى البداةة تحمل

(١) كان حابىم خورموزىوس هو أول يونانى ىدافع بقوة عن هذه الروابة.

(٢) رسالة إلى بوربى كنوس.

نيكوس نحبي، لكنه استيقظ ذات يوم مرتجفاً: «بوبولي! بوبولي!» صاح مغموراً بالفرح. وقفز من السرير نحو النافذة...

لم تعد بوبولي وأقسم نيكوس ألا يسمح لقطّة أخرى بالحلول محلها.

أعرف أنه من العبث ارتداء ثوب الحداد من أجل قطّة. لكن ضياعها أحرزنا. تلك الكرة الزغبية البيضاء، ذات الذيل المنتصب عالياً والمتحرك في استقبالنا، تلك الروح الصغيرة ذات النظرة الصافية التي كانت تأتي لنا بصغارها عندما تضطر للتغيب بضع دقائق. تلك الشيطانة، نصف القطّة ونصف الطائر، التي أتعبنا «التقاطها» من الأشجار حيث كانت تجثم، فجئنا لنقنعها بطيبة الإنسان..

(أنتيب، أول مايو ١٩٥٤^(١))

... أعلمني الناشر الألماني أمس^(٢) "auf papstlichem Index Letzte Versuchung" ما زلت أستغرب ضيق قلوب الناس وأرواحهم؛ فهذا الكتاب ألفته في حالة عارمة من الحماسة الدينية، والحب المتقد للمسيح، ومع ذلك ها هو ذا ممثل المسيح، البابا، لا يفهم شيئاً ويدينه! من الطبيعي جداً أن تدينني دناءة عالم العبيد هذا.

أنتيب، ١٤ مايو ١٩٥٤^(٣)

... كان ناشري النيويوركي عندنا بالأمس، مع زوجته؛ تحدثنا كثيراً، ويريد السعي إلى ترجمة «الأوديسة»؛ وسوف يدفع للمترجم كي يأتي للعمل معي في أنتيب. عمل جبار في منتهى الصعوبة، ويتطلب حباً وصبراً فوق طاقة الإنسان.

ما زال «القبطان ميخائيليس» يثير غضب اليونانيين. وقد اعتبره رئيس أساقفة كيوس بذئساً، خائناً، معادياً للدين والأخلاق في كريت؛ وهكذا يمكنك تصور الهمجية التي يعاني منها وطننا، أقصد اليونانيين الرسميين والدينيين. كذلك أدانت الكنيسة الأرثوذكسية في أمريكا كتاب «الإغواء الأخير» واعتبرته فاحشاً إلحادياً وخائناً. لكنها اعترفت بأنها لم تقرأه وأنها اعتمدت على الانتقادات التي نُشرت في صحيفة «هستيا».

أما أنا فامكث هنا في عزلتي، هادئاً، منصرفاً إلى مهمتي، وأخدم اللغة والروح

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

(٢) (كتاب) «الإغواء الأخير» على لائحة المنوعات.

(٣) رسالة إلى بوربي كنوس.

اليونانيتين الخالدتين، بمقدار ما أستطيع، كما كتب ترتوليان:

Ad tuum, Domine, triobunal appelo

أبرق نيكوس بجملة ترتوليان إلى اللجنة المسؤولة عن قائمة الممنوعات. وأضاف إلى الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية: «لقد لعنتموني يا آبائي، أما أنا فإبارككم. أتمنى أن تكون ضمائرکم بنزاهة ضميري، وأن تكونوا خلوقين ومتدينين بمقدار ما أنا كذلك».

اقترب موعد توديع «فيللا مانوليتا». وهكذا ولّت خمسة أعوام «من الفرحة والألم، كما يليق بالإنسان» - خمسة أعوام لم نعرف فيها الضجر.

وإذا كان نيكوس يفرح في كل مرة يكتشف فيها شعرة بيضاء في رأسي - «يا للفرحة، إنك بدأت تهرمين بين يدي!» فأنا، ويا للأسف، لم أكن قادرة على فعل ذلك عندما ألاحظ ذبول وجهه، على الرغم من يقظة روحه كما في أول لقاء بيننا.

لقد غادرنا صخرة ايجين بزوجي حذاء وقميص غيار. وكُتب علينا ألا نعود إلى رؤيتها لتضيع بذلك أشياء كثيرة نحبها، إلى الأبد. وهلع نيكوس في أنتيب لفكرة تجديد الإيجار مدة ثلاث سنوات أخرى. إذ أننا أمضينا فيها تسع سنوات، بينها خمس سنوات، وكانت الأفضل، في «مانوليتا».

وها هي ذي ساعة الوداع تدق. والبستاني الهرم كاموس المصاب بداء المفاصل يتذمر بشاربه الغالي: (١)

- هـذا إذا، تغادرانني ... ولن نلتقي...

- سوف نأتي مراراً لزيارتك يا جدي! وعده نيكوس - سوف نأتي لمساعدتك على أداء الزعرور! أضفتُ بغصة متصنعة.

و... ر كاموس بمغادرتنا، هو الأول. وفي سترته وجدنا ورقة صغيرة مدعوكه وقد كتب عليها بقلم الرصاص:

(١) نسخة الإ. بلاد «الغال» La Gaule، فرنسا القديمة (المترجم)

«عزيزتي السيدة هيلين كازنتزاكي، أنا ذاهب إلى الجنة. وهناك سوف أغفر لأعدائي. أمل أن نلتقي مرة أخرى في الجنة».

تركنا هضبة خضراء وحديقة واسعة وفيللا رحبة، ودخلنا بيتاً ضئيلاً للصيادين، معلقاً على صخرة، تشرف على ساحة قرية قديمة. ومن الشرفة الظليلة يلوح البحر القصي.

في المساء الأول، عندما أنزلنا الستائر وأضأنا المصباح، خلنا أننا في حلم.

– هل أنت راض يا نيكوس؟ هل تستطيع العمل هنا؟

– أعتقد ذلك. فهذا ليس بيتاً، بل هو ثوب سميك، يدفئنا في الشتاء ... قال نيكوس متابعاً حلقات الدخان المتصاعدة من غليونته، شارد البال.

وفي الأثناء وصلت الكتب والمخطوطات من ايجين. وبدأ نيكوس عملية الفرز بلهفة شديدة وكنت أستمع إلى صوت تقصّف الورق وتمزقه طق! طق! طق!

– هل أنت مقتنع بتمزيق الكثير؟

– نعم ... أحسب ذلك.

وامتلأت سلة المهملات...

أنتيب، ٢١ يونيو ١٩٥٤ (١)

صديقي العزيز جداً،

نال صديقنا زوربا جائزة أفضل عمل أجنبي منشور في فرنسا، أتخيل ضحكته في الجنة، حيث ينبغي أن يكون. وفي الوقت نفسه يصدر «القديس فرنسوا» على حلقات في إحدى أفضل صحف أثينا.

أتابع، من عزلتي المشمسة، أهواء البشر؛ بذهول وشفقة. وأواصل عملي – الحلم بإنسانية أفضل، محاولاً التعبير عنه، لأساعدها بذلك على التحقق كما أعتقد.

بعد غد يصل الشاعر الأمريكي فريار ... موفداً من ناشري الأمريكي في نيويورك

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

الذي سيمكّنه من راتب حتى يبقى معي مدة ستة أشهر، لترجمة «الأوديسة» ... أعتقد بأنني عبّرت في «الأوديسة» عن روعي كلها، عن الشعلة والنور اللذين أخرجتهما من المادة التي جُبل منها جسدي. أما أعمالي الأخرى فهي ثانوية، ولهذا وافقت على مثل هذه التضحية: أن أخسر ستة أشهر.

وأخيراً سندخل إلى «الشرنقة» غداً. رتبت كتبتي ... ايليني فرحة مثل طائر بنى عشه ودخل إليه الآن ليحضن البيض. أيّ بيض؟ الكتب التي سوف أولفها، وتتولى ايليني نسخها؛ وليس لنا أطفال آخرون...

كان للشرنقة - الصغيرة، لكن المريحة - مرتادوها الأوفياء. وكثيراً ما يرنّ الجرس فجراً:

- مرحبا يا «قابلتي»! يصيح نيكوس مستقبلاً صديقه الشاب، الرسام لاديسلاس كيغنو، ماذا سنلد اليوم؟

- فكّرتُ في ... يقول كيغنو وهو ينظر بحنان إلى الرجل المسنّ المرتدي قميصه البرتقالي الأبدى وقد انكبّ على مخطوطاته. الرجل الذي لا يغضب قط إذا جاء من يريد أن يحادثه.

- فكّرتُ في ... ثم ينفخ صوته مثل آلة موسيقية.

فأستمع إليهما يضحكان ويتحدّثان بضع دقائق ثم يذهب كيغنو ويخيم الصمت من جديد. وبعد الظهر يأتي دُرّ دي لاسوشير، أمين متحف أنتيب، المعجب ببيكاسو وصديقه، ويدخل بمذكّرتَه لأنه ينوي، في تلك الأعوام، تأليف كتاب عن كازنتزاكي.

وخلال أعوام الشرنقة أطلّ شاب جميل الطلعة، أسمر البشرة، مصريّ المولد. وكان يسكن في إيكس - أون - بروفانس حيث يمتلك ويحرر مجلة ممتازة باللغة الفرنسية هي الدلافين الأربعة، واستطاع عزيز عزّت أن يفتن كازنتزاكي. إذ أنّ ذلك الشاب المتحدر من أرومة عربية ويجيد الألمانية، والإنجليزية، والفرنسية،

والإيطالية، بعمق، والجامع بين الروح الثورية والتصوّف، ذلك الشرقي، كان يتحرك بأريحية فوق أرض ذرعها كازنتزاكي ألف مرة. وهكذا قدّم له نيكوس كتاب «الزهد» منذ البداية. وبعد مرور زمن طويل سوف يكرّس عزيز عزّت دراسة بيوغرافية (سيرة) لنيكوس، أعتبرها شخصياً ناجحة جداً في ميدانها.

سنة ١٩٥٥ جاء جول داسان أيضاً إلى الشرنقة. كان يتميز بابتسامة طفل وعذوبة سرد الطرائف، ويقرأ لنا بالإنجليزية نص السيناريو الذي اقتبسه من «المسيح يصلب من جديد» وكان الحوار الأحادي المقطع يدهش نيكوس فيهتف: «آه! آه! لو لم أكن يونانيا لاخترت هذه اللغة!» ويزداد سرور نيكوس بسماع الطرائف التي جاء بها داسان من كريت فيتنهد لإحساسه بالحنين.

وهناك وجه آخر حبيب، رجل متواضع لكنه موهوب، زار الشرنقة لأول مرة. كان يدعى بوهوسلاف مارتينو. جاء يرتدي ثياباً بسيطة ومعطفه في يده، وقدّم نفسه إلى شخصين لم يسمعا شيئاً من موسيقاه، ومع ذلك لم يستأ، وحافظ على قلب طيب، لتواضعه العميق.

وضع بوهوسلاف مارتينو كتيب أوبراه «هوى يوناني»^(١) من دون مساعدة تذكر لنيكوس. كان الموسيقار يعرض عليه أفكاره، فلا يجد نيكوس ما يغيره ويوافق مباشرة. ولم يتمكن المبدعان من حضور الحدث العالمي الذي شكّله عملهما، في زيوريخ.

لا يمكن ذكر أسماء كلّ الذين زاروا «الشرنقة» لأن القائمة تطول. ومع ذلك أذكر بوّد الأزواج: لوران، دي لبي^(٢) ايميلينا، بواريه، غيومو، وكوليت بوتشر، الخ، الخ، الخ... وكانت زياراتهم تبعث السرور في قلب نيكوس. وأخيراً عمل نيكوس مع بيار سبيريو، صاحب البرامج الإذاعية التي لفتت انتباهه، من أجل إعداد محاورات تذيّعها مؤسسة الإذاعة الفرنسية.

(١) صدرت «المسيح يُصلب من جديد» بعنوان «هوى يوناني» في بلدان عديدة.

(٢) رَسَمَ السيد ت. دي لبي صورتني «بورتريه» لنيكوس كازنتزاكي، احدهما في حياته. وكان نيكوس يحب جلسات التصوير مع حوارات شيقة.

في يونيو ١٩٥٤، التجأنا إلى سون، وهي محطة صغيرة للرياضة الشتوية، توجد في برشلونات على ارتفاع ١٤٠٠ متر، كي يتمكن نيكوس من العمل مع كيمون فريار في ترجمة «الأوديسة» إلى اللغة الإنجليزية.

كانت سنة ١٩٥٤ تشرف على النهاية. وأرهب نيكوس بالعمل المتعب في سون. ونظراً لسوء حالته قررنا استشارة البروفيسور هيلماير في فريبورغ، بعد عرض «سدوم وعمورة» في مانهايم عرضاً عالمياً.

وهكذا علمنا أن نيكوس مصاب بابيضاض الدم (لوكيميا) اللمفاوي. وقد تجاوزت الكريات البيض الحد الطبيعي، لأول مرة، بعد حادثة الدمل.

بعد أسبوع من العلاج لاح البروفيسور هيلماير متفائلاً بمقدار ما كان جان برنار كذلك.

– الأمر ليس خطراً. عليك أن تأتي مرة في السنة، ونتكفل بجعلك في أحسن حال.

١٩٥٥. ما إن عدنا إلى أنتيب حتى كتب نيكوس إلى صديقه القديم الذي يعيش بعيداً، في ثلوج الشمال.

أنتيب، ٢١ يناير ١٩٥٥ (١)

صديقي العزيز جداً،

أخيراً عدت إلى «الشرنقة» اليوم. كنت في العيادة المشهورة لطبيب الدم الألماني الكبير، البروفيسور هيلماير. وهناك مكثت أربعين يوماً للاستشفاء؛ سار كل شيء على ما يرام، وعاد الدم إلى طبيعته. وعدت بدوري إلى صخرة «قوقازي» منتظراً، مرة أخرى، مجيء نسر زيوس كي يمزق كبدي. نعم إنني أكتب الآن: «كان يريد الحرية، قال، اقتلوه» (٢) لكنني لم أكمله بعد؛ وأحمل في داخلي، منذ الآن، ثلاثة كتب أخرى تلتهم لرؤية النور ... سوف أموت وكتب كثيرة لا تزال في داخلي.

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

(٢) «حرب الإخوة»، (الإخوة الأعداء).

صدرت روايات نيكوس كازنتزاكي، في عدة بلدان، بإيقاع متسارع. في دبلن خصص الأستاذ ف. ب. ستانفورد فصلاً كاملاً لـ «الأوديسة» الحديثة، في كتابه «موضوعة عوليس». لكن أكبر فرحة عرفها الكاتب جاءت مع نشر أعماله الكاملة التي بدأت تظهر في اليونان بإشراف ب. بريفيلاكي وم. كاستغلي، في حين اهتم الرسام ج. فارلامون بالأغلفة، ونقش غلانييس المعروف بالنحت على الخشب، غلاف واحد من مجلدات المسرح الثلاثة. لكن ظلاً ثقيلاً جاء مرة أخرى ليحجب النور.

فمنذ وقت قصير سرت شائعة بأن بريفيلاكي مريض. لكن نيكوس لم يشأ إجباره على الخروج من صمته وفي يوم ٣٠ يناير ١٩٥٥ كتب إليه فرحاً بتلقيه أخباراً سارة:

... أخيراً تمكنت اليوم من قراءة «أليعازر»؛ يصعب عليّ الحكم على أحد أعمالك لأنني أشعر بتماثلي معك وكأن ما تكتبه يخرج من أحشائي. لقد أثر في «أليعازر» كثيراً؛ ذروة شامخة للفضيلة، والفكر والجمال؛ وليمنحك الله القوة الدائمة كي تتمكن من البقاء والتنفس، فوق مثل ذلك العلو.

في مانهايم لم يفهموا شيئاً من «سدوم». عرضت ثلاث مرات أمام جمهور واسع. لكنني لم أتحمل الفرجة وطلبت من المدير أن يوقف العروض. لم يستشيروني، وتصرفوا وفق فهمهم...

يوم ١٨ فبراير ١٩٥٥ تهيأنا للاحتفال بالذكرى السبعين لمولد نيكوس. وكان ذلك ما اعتقدناه على الأقل. وفي الحقيقة، كان نيكوس في الثانية والسبعين. وبعد موته، سوف نكتشف التاريخ الصحيح مصادفة، وكان مكتوباً بخط يده في دفتر مدرسي:

«ولدتُ يوم ١٨ فبراير ١٨٨٣، وصادف يوم الجمعة».

وهكذا بدأ كازنتزاكي عامه الثالث والسبعين، منتصباً مثل سروة، لكنه فقد بريق الشباب، إلا في مناسبات عرضه لفكرة عظيمة، أمام حلقة صغيرة من

الأصدقاء؛ ولا سيما إذا كان أصدقاؤه ... نساء...

ازداد انكبابه على العمل وصار يرفض الذهاب للنزهة أكثر من السابق.

- طيب، طيب لا تغضبي، سأذهب بعكازي كي أتنزه. كان يقول ذلك، عندما أكون مرهقة جداً وأقترح عليه أن يذهب للنزهة بمفرده. أما إذا ترافقنا في جولة حول الأسوار فكان يندفع بحماسة في لعبتنا الجديدة:

«أين عسانا نكون في مثل هذا اليوم من السنة القادمة؟».

آنتيب، ٢٠ فبراير ١٩٥٥ (١)

صديقي العزيز جداً،

أشكرك كثيراً على تمنياتك. دخلت في عامي الحادي والسبعين، لكن بجسدي فقط؛ لأن قلبي وفكري لم يهرما، وسوف أعمل على ألا يهرما أبداً. فالهرم هزيمة تلحق بالضعفاء والجبنا والعاطلين عن العمل؛ ونحن لسنا من هؤلاء..

كيف وضع رجال الدين اليونانيون حدًا لحملتهم المعادية لكازنتزاكي؟ هذا ما يُعدّ التصريح به مزعجاً حقاً.

نبّه وزير يوناني الأميرة ماري بونابرت إلى وجودنا وتمتّعنا بالحرية على الرغم من كتب نيكوس كازنتزاكي «الشائنة» وعندما قرأتها أعجبت بها ونصحت الملكة بقراءتها. فلجأت ملكة اليونان - الألمانية الأصل - إلى منع الكنيسة الأرثوذكسية من تعريض نفسها للسخرية بإحراق كتب كازنتزاكي.

كانت ماري بونابرت كاتبة، تلميذة وصديقة لسيغموند فرويد^(٢)، وقد وضعت عدّة مؤلفات مهمة. ولدت لأبوين من أصول فرنسية وكورسيكية فلم تقبل بأن تشكل صفتها كـ «أميرة» قيداً أو سجنًا. كان من الطبيعي، وهي الأميرة

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

(٢) دفعت ماري بونابرت مبلغاً مالياً كبيراً للنازيين من أجل إطلاق سراح سيغموند فرويد.

من عائلة حاكمة، أن تدعو زميلها إلى قصرها لكنها فضلت أن تطلب منه السماح لها بزيارته في بيته للتعرف عليه.

جاءت بمفردها ، محملة بحقيبة ملأى بكتبها. وعادت مرة ثانية مع ابنتها أوجيني ذات الابتسامة الصافية. وفي المرة الثالثة زارتنا برفقة زوجها الأمير جورج، أمير اليونان وكان نيكوس قد وصف مجيء هذا «الأمير اليوناني الشاب» إلى كريت مترافقاً مع التخلص من النير التركي، في كتابه «الحرية أو الموت» بوصفه أسعد حدث في حياته. مرّت الأعوام، وظلّ الرجلان، على الرغم من اختلاف الانتماء، يعتبران ذلك اليوم أسعد يوم في حياتهما. كان كازنتزاكي يفعل ذلك انطلاقاً من حبه للحرية، فيما كان الأمير ينطلق من حبه لكريت، برغم كلّ شيء، ومن حبه لها على طريقته الخاصة إذ أنه «أحبها» مثل أعزّ عشيقة...

اخترنا كاديمايو، على ارتفاع ستمائة متر، فوق بحيرة لوغانو، لقضاء عطلة الصيف، وكان نيكوس يدوّن بعض الأفكار في مذكرته «حتى لا يضيع الوقت» كل صباح، بينما يترك فترة ما بعد الظهر تحت تصرّفه. فنذهب للتنزه في الغابات المجاورة.

«أين عسانا نكون في مثل اليوم من السنة القادمة؟».

كنت أقترح أكثر الأماكن غرابة. فيزايد نيكوس: «لم لا؟؟ إذا تمكّنا من الحصول على مزيد من الأموال فسوف نطوف بالعالم ثلاث مرات ... ونبدأ بالمكسيك...».

يأتي الأصدقاء لرؤيته فتنتلق ضحكاته منتعشة من جديد. وكان من بينهم هلموت فون دن شتاين الذي ترجم «فقر آسيز» إلى الألمانية، والناشر الإيطالي آلدو مارتيلو وزوجته أنا، وناشر بوينس ايرس، كارلوس لوهلي، وجان بيار وايفون منزل ... بل كانت هناك أيضاً «ربة إلهام» في كاديمايو، وهي شاعرة ألمانية شابة وجذابة يجري في عروقها الدم الفرنسي، تدعى ميلا بوفي. وكان نيكوس يحبّ شعرها وحديثها الغنيّ بالمفاجآت.

كورهاوس، كاديمايو، لوغانو

١٠ يوليو ١٩٥٥ (١)

صديقي العزيز جداً،

وأخيراً خلدنا ، أنا وإيليني، إلى الراحة ... أفكر في البدء بعمل جديد هنا، يكون عنوان «رسالة إلى الغريكو» (٢) ... سيرة ذاتية أقدم فيها اعترافاتي إلى جدي الغريكو (٣). بالأمس جاء لرؤيتنا صديق عالم، هو هلموت فون دن شتاينن، وقال لي أن بترارك كتب رسائل إلى شيشرون لأنه كان يحبه كثيراً. وسُرت لذلك، لأن فكرتي ليست شخصية، إنها قديمة جداً تدفع بالمرء إلى محادثة ميت محبوب يثق به، كي يعترف له بهمومه. أنت أيضاً تخلد إلى الراحة في الريف. وماذا تعني «الراحة» بالنسبة لنا؟ تعني أننا نعمل ما نريد، وليس ما تطلبه الحاجة الخارجية.

في «رسالة إلى الغريكو»، تحدث نيكوس عن القديس فرنسوا، وعن «شقيقه المعاصر» ألبرت شويتزر، وزيارتنا له، في أغسطس ١٩٥٥:

كنت متأثراً ، في ذلك اليوم من أغسطس، عندما سلكت في أوج الظهيرة، طريق قرية غونسباخ الضيق، وسط غابات الألزاس. وطرقت باب قديسنا فرانسوا المعاصر جاء ليفتح الباب شخصياً، مدّ لي يده وصافحني. كان صوته حاداً وهادئاً، وهو يبتسم تحت شاربيه الرماديين الكثّن، وينظر إلي .. لقد سبقت لي رؤية محاربين كريتين هرمن مثله، مفعمين بالطيبة، وبإرادة لا تقهر.

كانت اللحظة التي انفتح فيه قلبانا من أروع لحظات حياتي. بقيت معه حتى هبوط الليل: وتحدثنا عن المسيح، وهوميروس، وأفريقيا، والبرص، وباخ. وفي المساء ذهبنا إلى الكنيسة الصغيرة في القرية: «لنكفّ عن الكلام» قال لي في الطريق، وانتشر تأثر عميق على وجهه الجاف. كان يتهاى لعزف موسيقى باخ وجلس أمام الأرغن. كان ذلك اليوم، كما أعتقد، من أفضل لحظات حياتي.

وفي طريق العودة، رأيت على حافة الطريق زهرة برية؛ انحنيت لالتقاطها.

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

(٢) اشارت المؤلفة في بداية الكتاب إلى أنها نشرت لاحقاً بعنوان «تقرير إلى الغريكو».

(٣) أي جده حيث المنبت إذ أن الغريكو El Greco (نحو ١٥٤٠ - ١٦٢٤) ولد في كريت وتوفي في طليطلة الأسبانية واشتهر بالصوفية في رسم لوحاته. ومعنى لقبه الذي يتطلب التعريف بالالف واللام «الغريقي».

«كلا! قال لي ممسكا بيدي؛ إنها كائن حي، وينبغي احترام الحياة».

وكانت نملة صغيرة تدبّ على طيّة سترته؛ فأمسك بها بحنوّ فائق ووضعتها على الأرض بعيداً عن الطريق حتى لا تُداس. لم يقل شيئاً. لكن كلمات سلفه الآسيزي الناعمة مرّت على شفّتيه: «أختي، النملة الصغيرة...».

عدت إلى عزلتي، لكن ذلك اليوم الأغسطسي لم يغرب من ذهني قط. لم أعد وحيداً. فإلى جانبي كان ذلك المصارع يسلك طريقه بخطوته الفتية الحازمة، ويقينه الذي لا يتزعزع. لم تكن طريقه طريقي. غير أنها كانت عزاء كبيراً لي ودرساً قاسياً، لأنني رأيت يرتقي دربه الصاعد بإيمان وعناد كبيرين. ومنذ ذلك اليوم أدركت أن حياة القديس فرنسوا لم تكن أسطورة، وتيقنت من أن الإنسان ما زال قادراً على إنزال المعجزة على وجه الأرض. لقد رأيت، لمست بيدي، تحدّثت معه، ضحكنا، ولزمنا الصمت معاً.

بعد عامين، سأله الصحافي بيار ديكارغ، في باريس، لماذا ألف كتاباً «فضيلاً» عن القديس فرنسوا، فأجابه نيكوس:

أضع كتباً مقلقة على الأقل، وفضيلة إذا أمكن، لأنه يتوجب التأكيد للبشر بأنهم سائرون نحو الكارثة، وأن عالمنا على شفير السديم الذي سيلتهمه. قليلون هم الكتاب الذين يهتمون بذلك: إنهم يتلاعبون بحكايات صغيرة عن الجنس والتحليل النفسي. الرسامون والموسيقيون أكثر حساسية ويتوقعون دنوّ النتيجة، أما الكتاب فيتلهون بملذات بالية. ينبغي إعلامهم بأننا نقرب من النهاية. وتسعى كتبي إلى تأخير الاستحقاق. كتابتي لسيرة حياة القديس فرنسوا تعود إلى حاجة العالم لأبطال، يكونون قديسين أيضاً. والقديس فرنسوا عزيز لديّ بشكل خاص؛ وقد عشت فترة طويلة في آسيز. لقد أنقذ حياتي مرتين: المرة الأولى لما كدنا نموت جوعاً في اليونان، خلال الاحتلال؛ والمرة الثانية عندما أوشكتُ على الموت بسبب دمل في عيني^(١)...

كانت سنة ١٩٥٥ في منتهى الغنى والجمال:

لقاء ألبرت شويتزر وماري بونابرت، نشر «الإلياذة» بترجمة كازنتزاكي وكاكريديس، وكذلك صدور الجزئين الأولين من أعمال كازنتزاكي الكاملة، في اليونان، أوبرا بوهوسلاف مارتينو، والإعداد لفيلم داسان ... وكانت هناك

(١) صحيفة «تريبون دي لوزان» ٢٦ مايو ١٩٥٧.

شهادات المودة من الشباب اليوناني العزيز على قلب نيكوس. إذ قام عدد من الشباب اليونانيين بتكذيب شائعات نشرتها الصحف، تدّعي أن حالة نيكوس الصحية تبعث على القلق من نهاية محتومة. فنسخ أولئك الشباب المجهولون رسالة يخبر فيها نيكوس أخته بأنه في صحة جيدة، ويعمل بجدّ، ويحتقر اضطهاد رجال الدين له. ثم وزعوا نسخاً كثيرة من تلك الرسالة في اليونان. وعندما علم نيكوس بالأمر، قال مازحاً: «يا لهم من شياطين! من أين حصلوا على تلك الرسالة؟ لا أصدّق أن أختي...»

لكي أبين رقة نيكوس وشغفه، في ترجماته، أورد هنا مقاطع من رسائله إلى يانيس كاكريديس:

أنتيب، ٢٩ أبريل ١٩٥٥

بعد طبع «الإلياذة» سوف نجد ما نصلّحه فيها من أخطاء، وإذا متّ أنا، سوف تجد نفسك مضطراً إلى نشر طبعة ثانية منقحة، بمفردك. ذلك أن العمل الأصلي قد لا يحتاج للتصحيح؛ لكن الترجمة تتطلب ذلك باستمرار. لاحظت ذلك «بعرق غزير» كما قال دانتى، عندما ترجمت «الكوميديا الإلهية»...

وظلّ كازنتزاكي يتعذّب حتى في نومه، بسبب «صفة» لم يتفق مع كاكريديس، حول دقة ترجمتها:

أنتيب، ١٢ سبتمبر ١٩٥٥

... آه متى يحين وقت الطبعة الثانية من «الإلياذة» لإصلاح تلك الكالوغنوموس (أرأيت، ان هذه الكلمة لا تدعني أرتاح). في الصباح بحثت في القساموس الكبير لديميترياكوس فوجدت...^(١) انتهى! لن أنبس بكلمة واحدة حتى الطبعة الثانية...

أنتيب، ٢٩ سبتمبر ١٩٥٥

تمنيت لو ترجمنا «يندار» و«ثيوسيديد» معاً، لكن الحياة قصيرة، للأسف، والإنسان يوارى التراب وهو لا يزال ممثلاً بالإمكانات والرغبات.

(١) يمكن تفسير كلمة كالوغنوموس بطريقتين مختلفتين: ١- إنسان ذو حكم صائب. ب) إنسان طيب، سهل العيش، والمعنى الأخير هو الأصح.

... أعمل بلهفة . ثمة أشياء كثيرة يمكن أن تزعجني. لكنها لا تتمكن من ذلك. إنَّ حساسيتي محمية بدرع غير نفّاذ، وهكذا لا يعكّر أحد أحاسيسي الداخلية. Larvatus Prodeo كما كان يقول ديكارت. لا بد لكل كائن من وضع قناع صلب؛ فهو ضروري في عصرنا الدنيء...

وجاء اليوم الذي استلمنا فيه «الإلياذة» في طبعة رائعة، وفق رغبة نيكوس.

آنتيب، ٩ نوفمبر ١٩٥٥ (١)

رفيق معركة النصر،

أعتقد أن هذا اليوم هو الأسعد في حياتي. صعدت إيليني إلى مكتبي قافزة درجات السلم أربعاً أربعاً وكانت تخفي يديها خلف ظهرها: - أغمض عينيك! صرخت بي. ففهمت فوراً.

- «الإلياذة»!

أغمضت عيني وتلقيتها في يدي، قبلتها. فتحت عيني: أية فرحة هذه التي تجعل المرء يكافح طيلة سنوات، ثم يحس بثمرة كفاحه تتشكل ببطء، ويمسك بها أخيراً بين يديه! حماك الله يا رفيقي الحبيب، فلولاك لم أنجز شيئاً، والشرف كله يعود إليك. والآن لنشمر عن سواعدنا؛ لقد حان دور الأوديسة. كم أتطلع إلى معاودة المعركة! وكم أتمنى أن نخوض معركة ثالثة، لكنني لن أجد وقتاً، سوف تبقى وحدك...

آنتيب، أول ديسمبر ١٩٥٥ (٢)

منذ وقت طويل وأنا أرغب في الكتابة إليك لأخبرك بأنني بدأت أجهز الطبعة الثانية من «الإلياذة». فهذا النص لا يدعني أرتاح. ما إن أستيقظ، كل صباح، حتى أسرع وأفتح «الإلياذة» وأقرأها بصوت عال، كما كان يفعل مسيحيو العصور الأولى بالتوراة. لحسن الحظ أنني لم أجد سوى القليل مما يمكن تعديله ... وفي المقدمة طبعاً: كلمة «كالوغنوموس» العتيدة.

أكتب إليك وشهر أغسطس الملحمي في «فيللا مانوليتا»، قبل عامين، يعاودني، أية سعادة! أية شعلة!

(١) و(٢) رسالة إلى يانيس كاكريذيس.

ألم يكن ذلك الشهر «الملحمي» الذي تحدّث كازنتزاكي عن «الشعلة» و«السعادة» فيه، شهر آلام أيضاً؟ فلم يكد يُشفى، مع بقاء جرحه المفتوح بسبب الزرنِيخ، وعينه المتعبة، حتى عاد إلى العمل منذ الفجر لمراجعة الترجمة مع كاكريديس.

وهو عندما يصف ذلك الشهر بـ «الملحمي» يفكر في الملحمة الهوميرية من دون شك. غير أن قوة روحه، أيضاً، تجعله ينسى كلّ الآلام مهما كان مأتاها، ولا يحتفظ إلا بالوجه المشرق للحياة، وهو وجه ملحمي علّ يأية حال. كان يزدري المرض والموت، وكل أنواع العاهات الأخرى، لكنه يعرف كيف يتقبل الألم، بنوع من نفاذ الصبر في البداية، ثم بهدوء وطمأنينة بعد ذلك، وصولاً إلى التخفيف من قلقي بأسلوبه المازح: «أعرف أن حياتي معلقة على شعرة، لكن هذه الشعرة هي شعرة ايليني، ولن تنقطع!»

خلال زيارة إلى أوزاكا حضرتُ عرضاً لمسرح الدمى. لكنني انزعجتُ من كثرة العارضين من البشر الحقيقيين الذين كانوا يحركون تلك الدمى. وسرعان ما حدث أمر غير متوقع. كانت حركات الدُمى تزداد فيتلاشى العارض أكثر. ومع نهاية العرض لم يبق منه سوى ثوب فارغ مثل قشرة ثعبان، بينما بعثت الحياة في الدمى واكتسبت لحماً ودماً، فصارت تعيش حياتها بحيوية وجمال فائقين.

فتنّني المشهد وأذهلني. وأدركتُ ما حصل لنا: إنّ خلق نيكوس لشخص بشري لا يتطلب منه جهداً فكرياً ومعنوياً فحسب، بل يتطلب جهداً جسدياً أيضاً. وهكذا بدأ يتلاشى بدوره من دون أن يدرك سبب الإنهاك والضعف. لكن عارض الدمى يعود بعد عرضه إلى الحياة، فكيف يستطيع نيكوس ذلك؟

١٩٥٦. بدأ نيكوس يترجم «أوديسة» هوميروس بحماسة عالية. ولم ينقطع عن الترجمة إلا خلال سفره واحدة إلى فريبورغ حيث خضع إلى فحص طبي عام. ثم كتب إلى كاكريديس «عدت في أحسن حالة. وسوف أفعل ذلك كلّ عام».

وأغرته رحلة أخرى عندما دعاه نهر و إلى زيارة الهند. لكنني عارضت ذلك السفر بقوة، خوفاً من كثرة أنواع التلّاقيح التي سيضطرّ إليها.

وفي هذا العام أيضاً كُلف ديموستون دانييليزيس أثناء مروره بستوكهولم، من قبل اللجنة العالمية للسلام، بسبر نية نيكوس كازانتزاكي ومعرفة مدى استعداداه. فظلّ نيكوس مرتبكاً لحظة:

- ليس من العدل أن أقبل. ينبغي أن تسند هذه الجائزة إلى شيوعي تعذب من أجل السلام وأقترح بدلاً منه، الشاعر فارنالييس، أو الروائي كورناروس الذي اعتقلته الشرطة الفاشية.

غير أن اللجنة العالمية للسلام ألحّت، فعاد دانييليزيس إلى إقناعه.

«لقد أسندت إليك الجائزة بالإجماع. ويخشى أن يُعتبر رفضك إهانة ... في العام الماضي أعطيت الجائزة إلى ادوارد هاريو رئيس الحزب الراديكالي الاشتراكي الفرنسي، ورئيس بلدية ليون، وهو كاتب أيضاً ... الخ، الخ. وقبله أسندت إلى شارلي شابلن، وتشوستاكوفيتش، ولاكسنس ... وقسّ انجليزي، والعديد من الكتاب والفنانين ... وفي هذا العام سيُتّوج معك الرسام الصيني شي يا - شي الذي بلغ التسعين...».

أنتيب، ٢٤ يونيو ١٩٥٦ (١)

... سنسافر بعد غد إلى فيينا ومنها إلى يوغسلافيا، لنقيم في الجبل. أتردد كثيراً في زيارة اليونان، لأنّ الكريتين سوف يخنقونني بالعرق والمآذب والحفاوة. وهذا أمر في منتهى الخطورة وأفكر في التخلي عن مثل هذا الفرع. إذ ينبغي أن أواصل العيش قليلاً...

أشكر على المقال الذي كتبته في «نيا استيا»؛ فمن المستحسن أن يطلع الناس على شهر عسل تعاوننا، ليصير قدوة لليونانيين المعاصرين والقادمين، ويتواصل دائماً..

جائزة السلام لم تكن متوقعة؛ وقد فرحت ايليذي، ولم أحزن بدوري؛ عدم اكترائي

(١) رسالة إلى يانيس كاكريديس.

بكل ذلك، لا يصدّق، بل صار مَرَضِيًّا؛ قلبي يشتعل، لكن من أجل شيء آخر. فمن يصدّق؟
أنت فقط..

وحسبهم الذين عانوا من نير الأجنبي يستطيعون فهم حب الحرية الذي يُلهم
نيكوس كازنتزاكي لذلك لم يتحدث أمام لجنة السلام إلا عن الحرية والسلام،
وحق كلّ شعب وكلّ فرد فيهما.

أتلقّى هذه المكافأة العالية ... مثل عامل يستلم أجرته في نهاية يوم عمله. لذلك أشعر
بتأثر عميق، وبارتباك كبير أيضاً: هل أنا جدير بهذه الأجرة؟

تردّدت في اللحظات الأولى. ولم أسمح لنفسي بقبول هذا الشرف، في نهاية المطاف، إلا
باسم كرييت، الجزيرة التي وُلدت فيها. لأنها الوحيدة، الجديرة بمثل هذه المكافأة لفداحة
الثمن الذي دفعته لبلوغ السلام..

لقد دفعني إلهام كرييت إلى الكفاح بصفتي إنساناً، وكاتباً، من أجل الحرية والسلام
والكرامة الإنسانية.

لكن هذا الاحتفال يكتسي لديّ، في الوقت نفسه، بدلالة بالغة: إن لجنة تحكيم جائزة
السلام الدولية تقدّم غصن الزيتون إلى شاعر يوناني. ولعلّ هذه المبادرة تكون بادرة
سلام يعمّ الأرض اليونانية كلها.

وينتصب أمامي وسط حفل السلام هذا، وجه قبرص، ملطخاً بالدماء. ففي هذه
اللحظة تستشرس قوى الظلام، هناك، ضد الحرية.

لم يسبق للمثل الأعلى المتعلق بالسلام أن كان ضرورياً كما هو في عصرنا. ولأول مرة
تجد الإنسانية نفسها أمام الهاوية بطريقة واعية؛ وهذا هو سبب الاضطراب، وتفشي
الروح الانهزامية والخيانة حولنا..

... وإذا كنا نريد تفادي سقوط العالم في العدم، فعليّنا أن نحرر الحبّ المسجون في
قلب الإنسان، أيضاً. ينبغي أن تتحول القوة الذرية إلى خدمة القلب الذري. وعليّنا ألا
ننسى بأن الحرية والسلام يوجدان خارج إطار الطبيعة. فكلاهما من صنع الإنسان
ويتحققان بالعرق وبالدموع. وسوف يظلان موجودين، في الطليعة، كرفيقين وفيتين، ما
دام الإنسان يتنفس على وجه هذه الأرض. لكنهما مهددان في كلّ لحظة، لذلك يتوجب

علينا حشد قوانا كلها، في كل لحظة، للدفاع عنهما. ينبغي أن نبقي بجانبها دائماً،
واقفين دائماً...

إن القلق الذي يخلق اليوم كل إنسان جدير بهذا الاسم، يترافق مع أمل كبير؛ أو بالأحرى، مع يقين كبير؛ فالشر ينتهي دائماً بالرضوخ إلى قوة الخير المطلقة، البطيئة، والأكيدة في الوقت نفسه. ولو لم يكن هذا القانون الغريب هو الذي يقود مصير الإنسانية لانهزمت الروح، منذ زمن طويل، أمام المادة، واختنقت الحرية والسلام بـ «الخوف الأكبر»...

كانت أكبر فرحة لنيكوس في فيينا، هي من دون شك، مقابلته للشاعر الكولومبي خورخي ثالاميا، والكاتب الأرجنتيني ألفريدو فاليرا، وكلاهما عضو في لجنة السلام الدولية وأعجب كازنتزاكي بثالاميا إلى حد أنه ترجم له فوراً «موت بوروندون بوروندا» وبعض القصائد الأخرى.

رحلات، محاولات، زيارات للمتاحف، لقاءات مع أصدقاء يونانيين جاؤوا للاحتفال بكبيرهم... كل ذلك كان يبعث السرور في نفسه، غير أن ضحكته، ضحكته الطويلة المجلجلة، لم تدو مرة واحدة في فيينا، ولا في يوغسلافيا بعدها... لم يصل إلى حد الاكتئاب لكنه كفّ عن «شيطنته» السابقة. وبدأت قسماته التي هدّها المرض تكتسي بتعبير أميل إلى الوقار والرصانة..

وبعد فيينا، كانت مدرجة في برنامجنا زيارات إلى كل من لوبليانا وزغرب حيث ينتظرنا الكتاب السلوفانيون والكرواتيون، ثم روغانسكا سلاتينا المدينة الصغيرة المعروفة بحماماتها المعدنية، وأخيراً بوهيين على ضفة بحيرة ذات لون أخضر فيروزي. «كان ينبغي أن نعيش دائماً في الجبال، همس نيكوس وهو يستنشق، بعمق، هواء غابات الصنوبر والأرز. سكان جبال كريت على حق عندما يتساءلون عما إذا كان لسكان السهول روح.. لكن، لسوء الحظ مرة أخرى، لم يتمكن نيكوس من الخلود إلى الراحة. إذ توجب عليه العمل مجدداً، مع كيمون فريار، في ترجمة «الأوديسة» إلى الإنجليزية...

كان جالساً على ضفة تلك البحيرة الأقرب إلى صورة في «بطاقة بريدية»
والزاخرة بأسماء الترويت، مع شلال في البعيد، عندما كتب رسالة إلى صديقنا
الكريتي ث. اندروليدازكي، المدير السابق لسجون أيجين:

بوهيين، فندق زلاتوروغ

١٨ أغسطس ١٩٥٦

«ما كان أروع أيام زمان!

ليتها تعود ولو مرة في العام!»

عزيزي ناسي، كانت هذه «المانديناذا»^(١) الكريتيّة تدور في رأسي وأنا أقرأ رسالتك
الرائعة... لقد أعدت لي المرحلة البطولية عندما كنتُ تُخرج من الأرض الصخرية بقولاً
لذيذة، وتستمع إلى المذياع ثم تطرق نافذتي، وأكون في انتظارك للاطلاع على الأنباء^(٢)،
مرحلة سوداء زاخرة بالبروق. وكنتُ تقاسمني طنجرتك حتى تفقذني من الموت جوعاً.
كم مرة تذكرناك، في الخارج، وتذكرنا زوجتك الشجاعة، إلى درجة الإجهاش بالبكاء.
بُورك الجوعُ والهلعُ لأنهما سمحا لشجاعتك وعطفك أن يتالقا بتلك الطريقة:

كنتُ أكافح وقتها، وما زلتُ كذلك حتى الموت؛ لأن ذلك هو واجبي. لقد استنفذت
جهودي من أجل إعلاء كرامة الإنسان وحريةته. وحده الذي اطلع على حياتي عن كثب
يدرك مدى تعبِي، يقيناً لو لم تكن ايليني موجودة لما تحمّلتُ عملية الصّلب الطويلة.
مباركة هي التي أنقذتني مراراً عديدة من الموت واليأس. لقد سافرتُ الآن إلى كريت حيث
ستبقى عشرة أيام هناك وتشاهد الفيلم^(٣)... أما أنا فقد فقدت كل فضول، ولم يعد
صراعي يتلاءم وتلك الأفراح البشرية الصغيرة. «لا تتوقّف، لا تلتفتْ إلى الوراء،
اصعد!» يامرني ذلك الصوت اللا إنساني - والإنساني في آن - مانعاً إياي من المتعة.

مع ذلك أستطيع القول بأنني سعيد؛ غير أن سعادتي متوحشة أيضاً، بلا ضحك،
بلا ارتواء، ولا تترك لي لحظة متعة. الفرح، يقول ذلك الصوت، راحة والراحة خطيئة...

...سوف نسافر في نهاية أغسطس إلى فيينا، وبين ٥ و ١٥ سبتمبر أكون في جنيف ثم

أعود إلى «الترسب» [مثل النبيذ] في بيتي الصغير، في أنتيب..

(١) بيتان متلازمان محمّلان بمعنى متكامل.

(٢) أثناء مرحلة الاحتلال النازي والمجاعة.

(٣) «المقبل على الموت».

أقول وداعاً ... أقول وداعاً ... وعما قريب سوف أقوم بجولة عبر العالم كي أقول وداعاً لكل البلدان التي أحببتها. وداعاً! سوف أودّع الناس الذين أحببتهم أيضاً، وهكذا، يا عزيزي، ثاسي، سوف نلتقي....

وكتب من أنتيب، يوم ١٥ سبتمبر ١٩٥٦، إلى يانيس كاكريذيس:

... ها نحن أولاء قد عدنا من رحلتنا الصيفية التي دامت شهرين ونصف الشهر... رجعت فرحاً إلى زنزانتي وأدواتي - الورق، الكتب، المخطوطات. وأنتظر ترجمة «الأوديسة» بفارغ الصبر. أسرع، لأنني ما زلت أعيش، لكن لا تنس أنني لن أعيش إلى الأبد؛ فأين ستجد شريكاً آخر، عاملاً آخر أنسب مني؟ لدي الكثير من العمل، غير أنني مستعد لترك كل شيء من أجل «الأوديسة»..

يزداد نائي يونان الجغرافيا تدريجياً، فتبتعد عن ذهني؛ أما اليونان الأخرى فباقية. وهكذا لم أعد أشعر بأي حنين لوطء ثراها...

انتاب القلق كلاً من السيد والسيدة كاكريذيس إزاء مصير ترجمة «الإلياذة» و«الأوديسة» في حالة موتنا أنا ونيكوس. فأخبرت نيكوس الذي لم يتردد في إهداء حقوق التأليف إلى ابني يانيس كاكريذيس:

أنتيب، ١٢ أكتوبر ١٩٥٦

أنا سعيد بتوأمة أفراحنا وأتراحنا لتذهب متحدة إلى طفلين حبيين...

لم يسترخ كازنتزاكي بعد النجاح بقدر ما دفعه ذلك إلى حث مزاياه الفكرية، وبالتالي مسؤولياته. وكان قد أوضح إلى صديقه الحميم بوري كنوس، متعته في كتابة الروايات والدافع الذي يحضه على ذلك. لكنني أضيف هنا مقتطفات من مراسلته مع ب. بريفيلاكي:

(أنتيب) ٣ ديسمبر ١٩٤٩

أنا منغمس في كتابة «القبطان ميخاليس» ... ولم يسبق لي الشعور بتوتر مفعم بالحماسة والولع في كياني كله، وبمثابرة جسدية عارمة، كما في هذه المرة. وقبل الانتهاء من كتابة عمل، يتدافع عملان أو ثلاثة أعمال أخرى، في داخلي، وتطالب بالتجسد والسعي في الأرض...

(أنتيب) ٢٨ فبراير ١٩٥٠

أتابع الغوص في الرواية الجديدة (القبطان ميخائليس) وأشعر براحة كبيرة، وانفراج ... أستعيد أزمنة قديمة باتت تنتمي الآن إلى الميثولوجيا وإلى إنسانية ما قبل الطوفان - إنسانية الديناصورات والماموث. إنها المرة الأولى التي تجعلني الكتابة أشعر بمثل هذا الفرح.

(أنتيب) ٢٤ يوليو ١٩٥٠

... أواصل العمل بمثابرة وطمأنينة. وأشعر بالفرح لخوضي في جنس أدبي جديد - الرواية - إذ أنني «أُمضي مقتي» وأستعيد فتوتي، أكتبها باندفاع وبراءة، مثل هاوٍ يكتب لأول مرة...

وكتب، أثناء تأليفه «الإغواء الأخير»، إلى الشخص ذاته:

أنتيب، ١١ نوفمبر ١٩٥٠

أنا «في الورشة» لتأليف كتابي الجديد الذي يتطلب الكثير من الجهد، لأنه يخرج من إطار المعهود ... لقد بدأت التناقضات تنحل في نتيجة عضوية، وأعتقد أنني توصلت، كما يقول المتصوفة البيزنطيون، إلى بلوغ ذروة جهدي، أي «اللا - جهد».

وربما عبرتُ في هذا الكتاب عن هذا الإنصهار العضوي للتناقضات. بدأت أتوصل إلى عدم الاكتراث بأية «مشكلة» أو «قلق». لقد عثرتُ على الحل خارج القوة العاقلة والتحليل، أي خارج مجال الشيطان...

لقد رأينا كيف أن صاحب الفندق، في لوفير، الذي يقرأ الكف أيضاً، قد نصح نيكوس بالألا يبحث عن مواضعه، وأن يتركها تأتي إليه بحرية.

لوفير، سالزبورغ، ٦ مارس ١٩٥٢

... كنت مرهقا كانت روحي تصارع موضوعاً عويصاً منذ أشهر عديدة: «فاوست الثالث» إلى حد إنهاك جسدي ... لكن الروح ظلت تلحّ بلا هوادة، وتعذب الجسد بقسوة وشراسة غير متوقعتين. فلم أقدر على النوم أو الأكل؛ وتحجّر قلبي رافضاً كل الأفراح اليومية المعتادة. وفي نهاية المطاف احتج الجسد بطريقته الجبائنة المعهودة، فأصيب بالمرض. دائماً المرض نفسه: الهربس على الشفتين ... لكن الخزي الذي أشعر به من خذلان الجسد أغناني. دامت تلك الحالة خمسة عشر يوماً، غير أن الخزي لم ينقطع، فلم

أعد قادراً على تحمّل أي شيء، أو أي شخص. عندئذ حثّني ايليني المتألّمة أكثر مني، على السفر، والذهاب إلى أحد الجبال واستنشاق الهواء النقي .. وهكذا جنّت وتمتعت بالهواء في هذه الجبال الثلجية الرائعة. بعد ثلاثة أيام أعود إلى «مانوليتا» مرتاحاً تماماً. لكنني سوف أتفادى الخوض مرة أخرى في ذلك الموضوع الرهيب، وأكتب رواية نثرية ... فأرتاح أثناء كتابتها. ولن أسعى إلى البحث عن «فاوست الثالث» إذا لم يأت هو إلى لقائي؛ فهذا أكبر دليل موثوق على أن وقته لم يحن...

آنتيب، ٦ ديسمبر ١٩٥٣

... «القديس فرنسوا» عمل لن يروق لك؛ وأنا أيضاً أستغرب لماذا كتبتّه. فهل يوجد متصوّف ديني في أعماقي؟ لأنني تأثرت كثيراً أثناء كتابته...

وكتب في عيد الفصح سنة ١٩٥٥ مواسيا صديقه ب. بريفيلاكي الذي أوقعه حادث:

... ربما أثمر انقطاعك عن الحركة؛ أفضل ما في «القديس فرنسوا» أمليته على ايليني في أوقات الحمّى...

آنتيب، ٢٢ مارس ١٩٥٦

... أعمل كثيراً. بعد بضعة أيام أفرغ من كتابة «رسالة إلى الغريكو». ايليني لا تريد رقعها بالآلة الكاتبة. تجهش بالبكاء لأنني أتحدّث فيها عن موتي. لكن، ينبغي أن تتعود، وأنا أيضاً..

أعمل ساعات طويلة ولا أتعب؛ وهذه المثابرة تقلقني، لأنها ليست طبيعية؛ في ذهني أعمال عديدة، والأيام تبدو لي قصيرة، لم يسبق لي أن عشت أعواماً بهذا القصر. لن أتمكن من المثابرة في الكتابة؛ الشعلة التي في أعماقي تزداد اتقاداً وتوهجاً كما لو أنها ملّتني، وباتت ترغب في إتلافي^(١)..

١٩٥٧. لاحت بوارد الربيع مثقلة: احتفالات ستقيمها دار «بلون» للنشر، في باريس، بمناسبة صدور «فقر أسيز»، والكتاب رقم ٢٠٠ في سلسلة «نيران

(١) كل المقتطفات السابقة مأخوذة من رسائل نيكوس كازنترაკي إلى صديقه ب. بريفيلاكي.

متشابكة»، وعرض فيلم داسان في مهرجان «كان»، والمراجعة الأخيرة لترجمة «الأوديسة» إلى الإنجليزية ... وقد أنهكت نيكوس القراءة بصوت عال. أضف إلى ذلك قراءات مختلفة واستعدادات للرحلة الكبيرة باتجاه الصين .. وتخلل ذلك إقامة لبضعة أيام في عيادة فريبورغ، من أجل الاطمئنان والتحلي بالشجاعة في تنفيذ خططنا الجريئة، بعد استشارة الدكتور هيلماير.

آنتيب، ٩ يناير ١٩٥٧ (١)

... أنجزت النشيد، الخامس والسادس ... أنا الآن مثل بهيمة «جحيم دانتي» التي «ما إن تأكل حتى تجوع أكثر» .. أشعر بنشوة عارمة عندما اقرأ هوميروس حتى يوشك الإرهاق أن يصرعني. وتحثني ايليني على الخروج والنزهة واستنشاق القليل من الهواء ورؤية القليل من الشمس. يا للخسارة، لا أستطيع العيش خمسمائة سنة كي أترجم كل الأقدمين!

آنتيب، ٢٥ يناير ١٩٥٧ (٢)

أصارع العمل والمرض بشجاعة، ولم يعد لي عزاء إلا في الكتابة. أترجم «أوديسة» هوميروس حالياً فأنسى هذا العالم البائس والجائر الذي نعيش فيه. وكما سائس العرب في دلفي، أمسك بالأعنة واثقا، قدر المستطاع، وأسعى إلى توجيه الجسد نحو الوجهة التي نرتضيها الروح، وليس التي يريدونها هو ...

منذ شهر، ولأول مرة، أسندت لي الحكومة الرسمية في اليونان، الجائزة الأولى على أعمال المسرحية ... متى نلتقي؟ آه، ليتني أتمكن من البوح قليلاً! ليس لي أحد أصارحه. زوجتي فقط...

ديميتري فوتيادي كاتب لا يزال شاباً، كرّس كل جهده وقوته للتاريخ اليوناني، الحقيقي وليس الذي يدرّسونه لنا. يكتب باللغة الحديثة ولا يخشى تسمية الأشياء بأسمائها. يحبه اليونانيون كثيراً، لكن الأجانب يجهلونه، لأنه ليس طموحاً، كما أن الناشرين الأجانب لا يهتمون بكفاح الشعب اليوناني من

(١) رسالة إلى يانيس كاكريديس.

(٢) رسالة إلى بوري كنوس.

أجل العدالة والحرية.

في بداية فبراير ١٩٥٧ أرسل فوتيادي إلى نيكوس بالكتاب الذي ألفه عن واحد من أروع أبطال استقلالنا: كارايسكاكي، ابن الراهبة. طلب مني نيكوس، كعادته، أن أفك أوراقه، ثم بدأ يقرأ. وبعد قليل رأيتُه يمسح عينيه ... لم يكن مصاباً بالزكام ... كان يبكي...

أنتيب، ٢٧ فبراير ١٩٥٧

عزيزي فوتيادي،

حماك إله اليونان وبارك يدك التي تكتب. أقرأ كتابك «كارايسكاكي» فتغيم عينايا؛ أية جسارة وبسالة! أية خيانات وأية تضحيات من أجل الحرية! ١٨٢١ ... يا لها من سنة! يا لها من بؤرة للردائل! وكيف تمكنت الزهرة الزرقاء من التفتح؟ وهذا أيضاً: أية أكاذيب علمونا في المدارس! وكم يتأخر مجيء الرجال الحقيقيين - بُوركت - لقول الحقيقة!

لا أشبع من قراءة كتابك. وأحزن من وجودنا بعيدئنا وعدم التمكن من مصافحتك. كتابك عن كارايسكاكي بعث فيّ فرحاً عارماً ومرارة قاسية؛ هو الآن على مكتبي وأقرأه بتمهل حتى يدوم؛ فاي مؤلف آخر، لكاتب فاشل، يستطيع الآن تحريك شعوري بهذه الدرجة؟

أشكرك على ذلك، يا عزيزي فوتيادي. لقد ألفت كتاباً جميلاً وقمت بعمل شجاع في الوقت نفسه؛ ويندر أن يتطابق الاثنان... (١)

وكتب إلى بوري كنوس، يوم ٢٨ إبريل ١٩٥٧:

... تأخرت في مراسلتك لأنني كنت في ألمانيا ... سار كل شيء على ما يرام، وعاد دمي إلى حالته الطبيعية، فرجعت إلى أنتيب في صحة جيدة، وبدأت عملاً فظيعاً ... بدأت فرنسا تتعرف علي وتكرمني كثيراً. لقد تأخرت قليلاً، لكن ذلك غير مهم. كل هذه الأمجاد تتركني لا مبالياً، إذ تجاوزت كل طموح وبت الآن استنشق عطر الهاوية المر .. عدت من «كان» حيث عرض الفيلم على جمهور محدود (٢). لم أتمالك دموعي؛ إنه جد مؤثر.

(١) كل مؤلفات فوتادي وضعتها الطغمة العسكرية على لائحة الممنوعات.

(٢) عرض خاص لفيلم «المقبل على الموت».

... صحتي جيدة، لكنني أرهق نفسي كثيراً. أمل أن يريحني السفر. ترجمة «أوديسي» رائعة جداً ... المترجم هنا، ونراجعها كلها، معاً؛ إرهاب رهيب...

قبل سفرنا إلى الصين بقليل، أرسلت غالاتي إلى نيكوس، بعد مرور أربعين عاماً على الطلاق، بهدية غريبة الشأن: وثيقة طلاق هجائية على شكل رواية، تصوّرُ فيها بأبشع النعوت. رفض نيكوس قراءتها. وكان رأيي أنه يتوجب دحض مثل تلك الافتراءات. «مسكينة غالاتي، همس نيكوس، مسكينة غالاتي، لا تستأهل مثل هذه النهاية!» وانتهى الأمر..

أما مع لفتيريس فكان صنيعة أفضل:

قرأ كتاب سلفه السابق ومدحه على أسلوبه ولغته، كما طلب منه. وبعد بضعة أيام عاد لفتيريس إلى الهجوم برسالة مفعمة بالحماسة والهديان: «آه يا نيكوس، أنت كريم النفس، أنت الأفضل، أنت ... الخ، الخ ... اسمح لي باستخدام مدائحك كي أتمكن من بيع الكتاب بشكل أفضل خلال أعياد الميلاد...» ووافق نيكوس. وبفضل قسيمة التقديم التي مدحت فيها الضحية مغتابها، تمكن لفتيريس من بيع كتابه... وردّ نيكوس على احتجاجاتي الغاضبة: «ومن عساه يصدّق كل تلك الافتراءات، يا صغيرتي؟...»

آنتيب، أول يونيو ١٩٥٧ (١)

... أسافر بعد غد مع ايليني، إلى الصين. سوف أمكث عشرة أيام في موسكو، وشهراً في الصين، وشهراً آخر، أثناء العودة، في يوغسلافيا ... أنا مسرور بهذه الرحلة الكبيرة ورؤية ألما ماتر، مرة أخرى، وكذلك آسيا. لقد طال الهدوء هنا.

عدتُ أول أمس من باريس حيث أقمت عشرة أيام، وجرت فيها عدة احتفالات. اضطررت إلى التحدث للإذاعة والتلفزيون مرات عدة، وأضناني كل ذلك، لأنه يتناقض وطباعي. أمل التوصل إلى الراحة من خلال هذه الرحلة المتعبة.

سوف أكتبك من الصين، ولن تغيب عن ذهني دائماً...

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

وسافرنا إلى الصين.

كان نيكوس على درجة من الإرهاق جعلتنا نخشى ما هو أسوأ. لكنه رفض الإنصياع.

- سيدي كازنتزاكي، أرى قبراً مفتوحاً في قعر فنجانك، قالت له صديقتنا السيدة بواربيه، عشية سفرنا، وكانت تجيد قراءة الفنجان. لا تسافر، لوجه الله.

- عجباً! قال نيكوس ضاحكاً. القبر يدلّ على الزواج، كما في الأحلام.

يوم الرحيل عادت خريسولا بواربيه إلى التضرّع:

- لا تسافر، أرجوك. حلمتُ أحلاماً سيئة.

وعاد نيكوس إلى القهقهة.

- نيكوسمو، توسلتُ إليه بدوري، لقد قلت بأننا أحرار: «إذا شئتُ دخلتُ، وإذا لم أشأ لا أدخل» هكذا قال بطلك الكريتي على أبواب هيراكليون. إذن، إذا شئنا سافرنا، وإذا لم نشأ دعنا هنا!

- هيا، يا رفيقة المعركة، هل ستلقين بسلاحك؟ وأنا المبتهج بخدمتك كدليل في بكين...

عندما يتصرّف نيكوس بمزاج المناكفة، وبضحك، يتلاشى التعب، والشيخوخة، والتجاعيد، مثل تلاشي آثار الخطى على الرمال، بعد مرور الموجة.

في براغ وموسكو، تفادينا كل ما هو مرهق. وكان الصديقان اليونانيان^(١)، المرافقان لنا في هذه الرحلة يخبئان لنا مفاجأة: إذ حصل السيد ايفيلبيديس على دعوة من الحكومة اليابانية لزيارة اليابان.

- سوف نذهب! صاح نيكوس مفتوناً.

- لقد وعدتني بعدم النزول نحو الجنوب، وعدم الذهاب إلى أبعد من بكين. لقد

(١) خريسوس ايفيلبيديس وزوجته نيلي. وكان السيد ايفيلبيديس أستاذاً في الزراعة في «بانتايوس شولي» بأثينا، وكاتباً، كما شغل منصب وزير الزراعة، والمالية أيضاً، إذا لم تخنّي الذاكرة.

قرأت الصحف وتعرف أن هناك نزلة برد وافدة تفتك بالناس في طوكيو. وقال الطبيب: لا ينبغي التعرض للجراثيم!

- أف! لن يتمكن منا الداء! وهكذا سوف ترى لينوتشكا اليابان أيضاً... دندن نيكوس ثم بدأ يعدد لي العجائب التي سأشاهدها.

في بكين كان مضيفونا في منتهى اللباقة. إذ قلت لهم مرة واحدة: لا ملح، لا زيارات إلى المصانع، ساعة قيلولة يومية، فاحترموا كل ذلك بدقة.

وتفادوا الرحلات التقليدية المنظمة التي تمر بشانغهاي والمدن الصناعية، تكريماً لنيكوس. واختاروا لضييفهم «طريق الشعراء»، أي مضائق وشعاب «يانغ تسي» التي تغنى بها شعراء مشهورون مثل لي تا بي وغيره. وحتى تشونغ كنغ بحرارتها العالية لم ترهقنا. ومع ذلك مكنتنا لجنة السلام الحريصة على راحتنا، من بضعة أيام للاستراحة في كومينغ، بلاد الربيع الدائم، قرب حدود التبت (على ارتفاع ٢٠٠٠ متر).

لم يرهق نيكوس في الصين وفرح، في كل خطوة، بتحقيق التقدم في البلاد.

- هنا، قال لي، كانت توجد مقابر جماعية مفتوحة! وكانت تشكل خطراً مميتاً للأطفال الذين يلعبون حولها... وهناك، أذكر، كانت توجد صفوف طويلة من الشحاذين، بعيون رمضاء مغطاة بالذباب... والآن صار رجال عربات الريكشو يرتدون قفازات بيضاء!

- وهي أنظف من قفازاتنا، علقتُ معجبةً بنظافة الصينيين.

عشنا لحظات لا تنسى مع كيو-مو-جو، وشوانلاي، وماو - دونغ الذي تبادلنا معه بضع كلمات، وبوذا المجبول من يشب أبيض، ومعبد السماء، والجامعات، والمختبرات، والمنتزهات العامة، والدكاكين الصغيرة، والممثل الكبير الرائع ميلانغ فانغ.

ولكم أن تتصوروا مدى الحفاوة التي وجدها نيكوس كازنتزاكي في جامعة بكين لأنه محبوب جداً ويعاني من المرض والشيخوخة!

أرسل رئيس الجامعة الذي كان ينتظرنا طالبة شابة كي... تساعد نيكوس على الخروج من السيارة وصعود الدرجات القليلة: «لست عاجزاً، ولا هرمًا!» قال نيكوس، وأضاف: «لكن هذا الأمر يروق لي!» وانقاد ممسكاً بالذراع اليمنى للفتاة الرائعة.

ولما جلسنا لتناول الشاي أمام مائدة واطئة، انكبّت الطالبة الشابة، بأصابع تشبه أجنحة الفراشات، على حلّ الشرائط التي تشد قبعة القش على رأس نيكوس. ثم شرعت تفتح أزرار قميصه بإجلال جدير بالضيف الكبير، فأمسكت بأحد طرفي القميص، بيدها اليسرى، وروّحت على صدر... المريض الناضح عرقاً، بمروحتها الصغيرة. أطالت فعل ذلك، بهدوء ولطف، مبتسمة، وكأنها في حضرة شخص عزيز، طال انتظاره، وعاد من سفر بعيد...

في السفينة التي كانت تقلّنا من هانكو إلى تشونغ كنغ، كثيراً ما سمعت نيكوس يتنهد:

– لو كان لي ماء من نبعي...

مردداً أغنية يونانية شعبية. ولقد أدركت أن ذلك الحزن متأب من منعنا إياه، تفادياً لإرهاقه تحت المطر وفي الوحل، من النزول لزيارة الضيغات الصينية الصغيرة التي كنا ننزل لمشاهدتها.

وبعد جولة على ضفاف بحيرة كومنج، الحافلة بزوارق صيد تعدّ بالمئات، شرعنا نصعد الدرجات المؤدية، عبر أبواب، ومعابد، وهياكل متعددة الأدوار، إلى «المعبد الذي يلامس السماء».

وصعد نيكوس من دون أن يتأخر أو يتعب. فشاهدنا «باب التنين» و«الجميلة النائمة» ثم «معبد التنين لونغمان» الذي تتغنّى به الأشعار القديمة. وواصلنا الصعود نحو «معبد الطهارة الثلاثية» وصولاً إلى سرادق «رئيس العلماء»: وكان شاباً مطلياً بالذهب، يحاكي صورة بوذا، يمسك بدواة في يده، وبريشة في يده. غير أن طرف الريشة انكسر عندما كان النحات تشو كيانغ كوو ينجز هذا العمل؛ فانتحر يأساً...

ولسوء الحظ أن نيكوس لم يُنبّه في فريبورغ إلى خطورة التلقيح بالنسبة إليه.
وفي كانتون لُقّح ضد الكوليرا والجدرى.

كنا في طوكيو عندما بدأت ذراعه تنتفخ. ومن دون أن يخبرني لجأ إلى ارتداء قمصان طويلة الأكمام والاستحمام في مغاطس حمامية جداً. وعندما سألتها أجاب بابتسامة غامضة: «أحبّ تقليد اليابانيين». ولم أدرك حقيقة الأمر إلا بعد فوات الأوان.

وبفضل حسن التنظيم الذي تتميز به السيدة ايفيلبيديس، لم يتعب نيكوس من رحلاتنا داخل اليابان. غير أن ذراعه ظلت منتفخة. ولم أنتبه إليها إلا في طائرة العودة.

أضعنا عشرين يوماً، بغباء، في كوبنهاغن بسبب حبّ في غير محلّه لطبيب حاصل على جائزة نوبل، حتى كاد نيكوس يبلغ النهاية. لكن البروفيسور جان برنار وصل في آخر لحظة وأسعفنا من جديد:

- خذيه فوراً إلى هيلماير!

- أردت أن أفعل ذلك منذ البداية ... لكنني مُنعت...

- لن يمنعك أحد الآن.

- ربما فات الأوان.

- أوكد لك العكس. يكفي أن تعديني بعدم التوقف في الطريق مهما حدث، ينبغي الوصول إلى فريبورغ في أقرب وقت ممكن.

بلغنا فريبورغ ولم نفقد الحياة. رفض نيكوس النقالة. وانتقل إلى الطائرة مشياً. وظل يصّر على الجلوس، في الطائرة كما في محطة فريبورغ، ثم في القطار الذي أقلّنا إلى فريبورغ. لكنه لم يكد يبلغ درج مدخل المحطة حتى التوى مثل زهرة تموت.

- أفي هذه الحالة تأتين به؟ وبخني الدكتور هوردر.

- حاول إنقاذه، يا دكتور. لقد أقسم لي البروفيسور جان برنار بأنك قادر على ذلك! وحدثت المعجزة لآخر مرة.

- هل لاحظت، يا دكتور، أن شوارع فريبورغ مبتلة؟ قد تقول أنها أمطرت. كلا لم تمطر، تلك دموع زوجتي! قال نيكوس بعد زوال الخطر.

- أرادوا أن يبتروا ذراعك ... اعترفت له ذات يوم، بعد أسابيع النقاهاة. فقررتُ ... قتلك.

فارتجف نيكوس: «قتلي؟»

- نعم. كاتب ... من دون يده اليمنى ... ولا يجيد إملاء كتابته أيضاً ... لو كان الأمر يتعلق بساق ...

- أف! حتى بتر الساق فظيع! همس نيكوس مفكراً. وبعد بضع دقائق:

- عزيزتي، أرجوك، هاتي لي ورقة وقلماً.

وشرع يكتب بيده اليسرى...

وانتشر خبر مرضه في فريبورغ. فهرع ماكس تو في المقدمة، برفقة ابنة الطبيب ألبرت شويتزر وسكرتيرته. وبدأت لاديسلاس كيينو تبعث إلينا ببطاقات بريدية رائعة تقلد روائع الرسم المعاصر، لتذكرنا بصديقنا سفريداكي الذي لا ننساه. وأرسل المعتقلون السياسيون المحكومون بالإعدام، في كورفو، نسخة مصغرة لسفينة شراعية جميلة باللونين الأزرق والأبيض، سرَّ نيكوس. وجاء د. دانييليزيس صديق عامي برلين ١٩٢٢ و١٩٢٣ والصديق الدائم، ليطمئن على صديقه الأكبر سنًا. كما جاء بعض الشباب اليونانيين الذين كانوا طلاباً آنذاك، وصاروا أساتذة جامعيين اليوم، ليتعرفوا على كاتبهم المحبوب.

ورأت راحيل حلمًا غريبًا: تراءت لها والدتي وتوسلت إليها أن تأتي للبحث عني «بين الموتى». وكان نيكوس في حالة جيدة، وتأكد الأطباء من شفائه. لذلك أخبرته بالحلم:

«مسكينة راحيلينا، همس، إنها قلقة بشأني».

وأخبرته أيضا بحلم من أحلامي: تراءت لي أُمي مرة أخرى وانتصبت أمامي مثل تمثال صوّاني، وأشارت بإصبع مهددة: «غداً تموتين!» قالت لي.

- أنا؟ أموت؟

- نعم، أنت، ستموتين!

- حلم جميل جداً، قال نيكوس مازحاً. ستأتينا أخبار سعيدة!

وبصار يلتهم الكتب التهاماً وهو جالس على مقعده. ولم تُخفِ أمينة المكتبة الفرنسية في فريبورغ دهشتها. ولقد طالب بكتب كثيرة، من بينها أعمال مونتاني وراسين وموليير. وكان يتنهد في الأثناء:

«لقد طال المرض، يا إلهي! متى أستعيد عملي؟

- صبراً، صبراً، صبراً على الأرض، قلتُ مرّدة تأويله لبعض أبيات فاليري.

- هناك مواضيع ثلاثة جديدة تتصارع في رأسي. أيها سيخرج الأول؟ ينبغي أن أعيد أيضاً كتابة «الغريكو» بأسلوب آخر. ليتني أقدر على إملائه..

- لنحاول.

ولم تعط المحاولة نتيجة تذكر.

- لا أريد العمل إلا والقلم في يدي. اقرأ لي، على الأقل، ترجمتك للقصائد الصينية واليابانية. فقد يكون فيها ما يتطلب التعديل.

وأجرى تعديلات مهمة. ثم عاد إلى المطالعة. وبعد أن قرأ الكتاب الصغير الذي ألفه روجيه مارتن دي غار حول موت أندريه، ناولني إياه:

- أحب أن تطالعيه يا لينوتشكا، هكذا أريد أن أموت!».

وكان هناك قسيس يأتي لزيارة المرضى كل يوم سبت، فيحييه نيكوس بتهذيب ويترك مسؤولية الحوار على كاهلي. وعندما يغادرنا الرجل الطيب، يتنفس نيكوس مرتاحاً. ويهمس «ومع ذلك فهو صادق!»

لم نكن غنيّين. وتبدّدت بقية مواردنا في العيادات والفنادق الجبلية. ولم يظهر على نيكوس الانتباه إلى ذلك. كان الأمر الوحيد الذي يقلقه هو تأخري في العودة من جولتي اليومية، بحثاً عن الكتب والصحف الفرنسية. فكنت أُلح، من بعيد، وجهه الحبيب، ملتصقاً بزجاج النافذة. وأتخيل عينيه الصغيرتين تتقصّيان ممرات المتنزه.

- لِمَ تظل واقفاً أمام النافذة، نيكوسمو؟ أسأله مخفية انفعالي، فأنت تعرف أنني لا أواجه أي مكروه، وأعود دائماً.

- نعم، نعم، أعرف، لكن الأمر أقوى مني.

وعندما أزمجر لأنه يسرع في المشي داخل الغرفة:

- أشعر بتجدد قواي تماماً، يقول معجباً باستعادة قواه. أؤكد لك أنني أحس كما لو كنت أطيّر بجناحين!

ذات مساء وجدته جالساً على مقعده بتعقّل.

- تعالي، أسرع، لدي خبر سار!

- سار جداً؟

- نعم، سار جداً جداً!

- نوبل! صحتُ مهتاجة. إذ تلقى ماكس تُو مكالمة من ستوكهولم، قبل فترة، توحى بأن نيكوس قد ينال الجائزة، فكنت في انتظارها...

- بل أفضل من ذلك، يا لينوتشكا! أفضل بكثير! قال نيكوس مشرقاً. ثم ناولني البرقية التي كانت في يده. برقية لم أشاهد أطول منها.

- اقراي.

كانت برقية متأتية من لجنة السلام الدولية في بكين. وقد علمت بما أصابنا فأرسلت تعبر لنا عن حزنها، وبعثت في الوقت نفسه بمبلغ مهم من أجل تغطية

نفقات العيادة وإعِدَّةً بتحمّل كلّ المصاريف اللازمة مهما طالّت المدة. وكان التعبير عن كل ذلك بأسلوب عذب، على الطريقة الآسيوية.

– ما رأيك؟ هل أنت راضية؟

وتابع من دون أن يترك لي فرصة لخلع معطفي والتمتّع بما ورد في البرقية:

– الصداقة عندي، أهم من كلّ جوائز نوبل في العالم، يا لينوتشكا. ساعديني الآن على كتابة برقية جيدة كي نشكر أصدقاءنا. لن نستطيع، على أية حال، أن نتقبل العرض. لن نأكل الأرز الذي يعود إلى الشعب الصيني!

وبعد صياغة البرقية نظر نيكوس في ساعته: «ما زال أمامك متسع من الوقت كي تذهبي إلى البنك، وتطلبي إعادة المبلغ إلى بكين. انتبهي، عليك أن تدفعي ما هو ضروري حتى يصل المبلغ كاملاً... ينبغي ألا يخسروا شيئاً خلال عملية التحويل...»

وتم ذلك.

وفي الطريق تذكرت دهشة «ماو دون» والكتاب الصينيين الآخرين، عندما أهداهم نيكوس رواياته كلها من دون مقابل «عندما يأتي أحدهم إلى الصين، همس وانغ تشنشي في أذني، يتناول قلماً وورقة ويبدأ في الحساب: هذا الكتاب ثمنه كذا.. وذاك ثمنه كذا وكذا.. هذه أول مرّة يهدينا فيها كاتب أوروبي مؤلفاته بهذه الطريقة».

وحده كازنتزاكي، في عيادة فريبورغ. لم يشعر بخيبة أمل، عندما أسندت جائزة نوبل إلى ألير كامو.

«أسرعي يا لينوتشكا كي تساعديني على كتابة برقية تهنئة. إنّ خوان رامون وألير كامو جديران حقاً بالجائزة. هيا نكتب برقية حارة!»

وكانت تلك آخر كلمات يملئها عليّ نيكوس كازنتزاكي، ليرسلها إلى أحد

الأصدقاء (١).

بعد يومين أو ثلاثة أيام، انتابته حمى قوية، بلا سبب ظاهر. وفي هذه المرة أسرع إلينا قدرنا بنزلة البرد الآسيوية، عندما كان نيكوس يعود إلى ارتقاء الصعود المحتوم.

ولقد تعجبت لموت ثلاثة من جيراننا اليونانيين بالداء ذاته، واحداً تلو الآخر.

– ألم يكن بإمكانك إنقاذهم يا عزيزي البروفيسور هيلماير؟

– كلا، للأسف، لقد جاؤوا في آخر لحظة ... تأخروا كثيراً...

– أنا خائفة خائفة على زوجي.

– لا تخافي يا سيدتي العزيزة، فزوجك ليس مصاباً بالسرطان. سوف يعيش طويلاً، أؤكد لك ذلك ونصحني بالذهاب إلى أنتيب كي أجلب ثياباً شتوية، نحتاج إليها خلال إقامتنا الجبلية.

– تستطيعان مغادرة العيادة بعد أيام قليلة ... وسوف تعود عليكما الإقامة في الجبل بفائدة كبيرة ... كنتُ أتأهب للرحيل عندما انطلقت الحمى. وذهب الظن، في الأيام الأولى، إلى تسمم معوي. فأمر نيكوس بالامتناع عن الأكل. ووصف له مضاد السولفاميد. وفي صباح الغد نزلت الحمى إلى ٣٦,٦ درجة. لكنها عادت إلى الارتفاع، في المساء، مثل السهم.

وظلت الحال على ذلك المنوال مدة ثلاثة أيام. فضاق تنفسه وازداد سرعة. ولم يكن القلق بادياً على وجوه الأطباء. وصل ألبرت شويتزر يوم ٢٥ أكتوبر. وتمكن نيكوس من التحرك والجلوس على السرير. فاحتضن صديقه وحدثه بحيوية

(١) يوم ١٦ مارس ١٩٥٩، كتب لي ألبر كامو الرسالة التالية:

«سيدتي، لقد تأسفت كثيراً لعدم التمكن من تلبية دعوتك. أكن إعجاباً عميقاً، وتعلقاً عاطفياً إذا سمحت، بأعمال زوجك. ولقد سعدت بفرصة الإفصاح عن هذا الإعجاب، على رؤوس الأشهاد في أثينا، عندما كانت اليونان الرسمية تستقبل أكبر كتابها ببرود. إن الاستقبال الحار الذي خصصه الطلاب المستمعون إلى شهادتي، يُعتبر أجمل تكريم لأثار زوجك وأعماله. ولا أنسى كذلك، أنني تلقيت منه أنبل برقية، في اليوم نفسه الذي تحسرت فيه على نيلي جائزة يستحقها كازنتزاكي مائة مرة أكثر مني. وفيما بعد، علمتُ بذهول شديد، إن تلك البرقية كتبت قبل موته بأيام قليلة. وبموته يغيب واحد من أكبر فنانيين. فانا من الذين يحسون، ولن يكفوا عن الإحساس، بالفراغ الذي تركه».

جعلت الطبيب الطيب يغادر متيقناً أنه سيعود، بعد أيام قليلة ليجده قد شفي.
ولم يكن هناك حديث في فريبورغ عن النزلة الآسيوية الوافدة، بعد، على الرغم من
فتكها بالناس في فرنكفورت.

فهل كان نيكوس مدركاً خطورة حالته؟ لم أكن متيقنة من ذلك. لكنه، منذ
اليوم الأول، عندما جاء الدكتور هوردر يناوله حقنة الكورتيزون، مدّ ذراعه
قائلاً:

– Und jetzt Schluss! (والآن، إنها النهاية!)

فهل كان يعبر عما يدور في خاطره حقاً؟ أم كان ذاك صوت شعوره الباطني
الذي لم يؤله أية أهمية؟ وخلال الأيام الأربعة التي بقيت في حياته، لم ينطق بأية
كلمة متشائمة.

وعلى العكس تماماً، ظلّ مستنداً إلى وسائده، حتى المساء الأخير، فيمدّ ذراعه
لاستبدال الضمادات، ويتناول اللبن الرائب، ولا يشكو إلا من عطش فظيع:

– عطشان! ... عطشان! ...

صباح يوم السبت ٢٦ أكتوبر، سألني الدكتور هوردر:

– هل أدركت أن زوجك اليوم في حالة خطيرة؟

– لقد سبقت لي رؤيته مرتين في مثل هذه الحالة. وسوف تساعده على
تجاوزها، أليس كذلك؟ فوعدني بذلك ... لكنه غادر العيادة. ولم يعد إلا بعد
العاشرة ليلاً، عندما تمّ كل شيء.

مكثت وحيدة قرب سرير مريض، متضرّعة إلى كل القديسين كي يساعدوني:
«نيكوسمو، نيكوسمو، إنها حمى «تريميميروس» (حمى ثلاثة أيام). تشجع يا
حبيبي. ستنزل حرارتك هذه الليلة. وفي الغد، يطلع الفجر رائعاً، من جديد.

– نعم، نعم ... كان يقول لي بإشارة من رأسه طالباً أن يشرب.

– تذكر برغسون، «التعبئة!» أحشد، قواك كلها، أرجوك!

- نعم، نعم ... يقول مشيراً برأسه، ويعود إلى طلب الماء.

في تلك الليلة دخل قسيسان إلى غرفتنا. جاء القسيس البروتستانتي، ثم تلاه الكاثوليكي. فأدار نيكوس وجهه نحو الجدار.

لم أفقد الأمل آنذاك فلم أفكر في النهاية «نيكوسمو، وبخته، ما فعلته لا يوحى بالأدب والتهذيب. لقد أراد المسكينان تكريمك».

فلم ينبس بكلمة. أدار وجهه نحوي وطلب أن يشرب.

- هل تشعر بالتحسن، يا صغيري؟

- نعم ... نعم ...

- هل تشعر بألم ما؟

- لا ... لا إنني أشعر بالعطش!....

في إحدى اللحظات، لاحظتُ مرتين، أنه كان يضع أصبعه على شفته. ظننت أنه يريد حَكَّها لأنَّ الحرارة زادت في التهاب شفته.

- هل تشعر بحاجة إلى الحك؟

- نعم، قال نيكوس بحركة من رأسه.

كان يكذب عليّ. وذلك ما أدركته بعد فوات الأوان. كان يحاول التأكد من تلاشي بصره، لأنَّ عينيه، بعد بضع ساعات، لاحتا ذابلتين.

«نيكوسمو! نيكوسمو! صرختُ، هل تسمعني يا حبيبي؟»

مكث جامداً. لكنَّ «قلبه الطفولي الصغير»^(١) ظلَّ يخفق. وتسارع نفسه أكثر وازداد قصراً. أمسكت بيده اليسرى، الحريرية، التي لم تتعرق، ووضعتها على رأسي. «بَارِكْني يا حبيبي ... اجعلني أسلك الدرب الذي رسمته....»

(١) قال لنا الأطباء إن نيكوس يمتلك قلب طفل.

ظلت يده على رأسي فترة طويلة. كانت ساخنة، ناعمة، منعشة دائماً. كما أحبها تماماً ... ثم وضعتها بعناية على غطاء السرير.

لم يعد لنيكوس كازنتزاكي وجود. وتملكتني رغبة في فتح الأبواب والنوافذ، صائحة مولولة.

«يا قمر، يا نجوم، يا أشجار، أيها الليل الدامس، هو الذي أحبكن كثيراً، لم يعد له وجود!».

خجلت من نفسي. أما كنت لأعجب بهذه الميتة، وأتمناها لي، لو كنت مجرد «متفرجة»؟

كانت الليلة الثانية جداراً معتماً ينغلق على أعوامي الضوئية الثلاثة والثلاثين. عدت إليه، اقتربت منه، وتأملتة ملياً. أغمضت له عيني. تينك العينين الزيتونيتين، الطيبتين، الماكرتين، اللتين لن تعودا إلى رؤية الشمس أبداً.

واقفاً، تماماً كما عاش، أسلم روحه. مثل الملك الذي أخذ نصيبه من الوليمة، ثم وقف، فتح الباب، ومن دون أن يلتفت، اجتاز العتبة.

ايليني ن. كازنتزاكي

مرافعة ج. هازنتزاهي
كُتبت في كريت 1925

للردّ على الاتهام، يتوجب عليّ صياغة الطريقة التي أنظر بها اليوم إلى المسألة الاجتماعية، بكلمات مختصرة وبسيطة.

أعتقد أن هناك ثلاث حلقات متعاقبة ينبغي توضيحها، إذا أردت لمرافعتي أن تكون ذات نتيجة منطقية وقيمة توضيحية.

١- في أية لحظة تاريخية يوجد العالم، حالياً؟

٢- ما هو موقف اليونان وما هو واجبي في هذه اللحظة؟

٣- ما أعتبره من صميم واجبي الشخصي.

أ- أنا مقتنع بأن البورجوازية في الوقت الراهن عاجزة عن الاستجابة للاحتياجات المعاصرة ومخاوف المجتمع.

- على المستوى الاقتصادي: نجدها تتأسس على مبدأ التنظيم الفردي للإنتاج، أي على السرقة، والتوزيع غير العادل للثروات؛

- على المستوى الاجتماعي: لا وجود لأية أخلاق تعتمد عليها العلاقات الإنسانية.

- على المستوى السياسي: تسير الطبقة الحاكمة السياسة وفق مصالحها الخاصة على حساب الأغلبية الواسعة للشعب؛ وكلّ تغيير في الأشخاص أو المؤسسات يثبت عدم جدواه.

ولم تعد البورجوازية تمتلك مثلاً أعلى، قادراً على إضفاء النبل والتماسك على أنشطة الأفراد والدول. لم يعد هناك وجود لعقيدة، أي لاندفاع يتجاوز قدرات الفرد، من شأنه ضبط إيقاع الأفكار، والمشاعر، والأعمال الإنسانية.

أمامنا مشهد يُلاحظ وجوده في نهاية كل الحضارات. هناك طبقة - تتشكل في البداية من رجال الدين أو المرازبة المجوس، ثم الملوك، فالسادة الإقطاعيين، وصولاً إلى البورجوازية - تستولي على السلطة مقوّضة النظام السابق. وبعد

مرور فترة زمنية تمرّ بها كل طبقة بكل ما أحل الترقى والانحطاط تحلّ محلها طبقة أخرى - فتمرّ بالأطوار ذاتها - وتلغي ما سبق. ذلك هو الإيقاع التاريخي.

لقد قلبت البورجوازية سلطة الإقطاع. وقدمت ما تقدر عليه - بشكل رائع كمّا ونوعاً - إلى الفكر، والفن، والعلم، والعمل. وهي ترسم الآن خطها البياني المحتوم، المنحني نحو الأسفل.

ونحن نعيش هذا الانحطاط، وبالتالي يصعب التحدّث عنه. غير أن الانحلال بلغ من السرعة ما جعل الأكثر تشدداً يشعرون بالقلق.

هناك صنفان من المحاولات يرتسمان بوضوح:

١ - صنف يبذل كلّ جهوده للمحافظة على الأوضاع البورجوازية بمحاربة كلّ فكر أو عمل مضاد.

٢ - صنف يحاول قلب تلك الأوضاع واستبدالها بنظام جديد أكثر عدالة وكرامة. وهذه قناعاته على الأقل.

الصنف الأول يمثل المحافظين الماسكين بزمام السلطة، ومن حقهم طبعاً، ومن واجبهم كذلك، أن يدافعوا عن أيديولوجيتهم ومصالحهم. لكنهم يجهلون القوانين المحتومة للنشأة والازدهار ثم التدهور، ويأملون أن تحدث معجزة الآن، وتتمكن طبقتهم، لأول مرة في التاريخ، من البقاء في السلطة إلى الأبد.

وليس هناك أي مثال، حتى الآن، يبرهن على أن جهودهم ستظل مثمرة حتى النهاية.

ولو حدث ذلك لما ترحّلت الحياة عن أشكالها الأولى، الثابتة والناقصة. تذكروا جملة «كورييه» الشهيرة: عندما أراد الله خلق العالم، صرخت الملائكة المحافظة في الأرجاء: «إلهنا لا تقوّض السديم!» لكن الله لم يستمع إليها. وهو لا يستمع إليها أبداً.

ما الطبقة التي ستعقب الطبقة البورجوازية؟ أنا متيقن؟ تمام التيقن، بأنّها طبقة الشغيلة: من عمال وفلاحين ومنتجي فكر. ولقد مرّت هذه الطبقة بالمرحلة

الأول، مرحلة البذل والتضحية؛ ولم تعد تلجأ، كما قبل قرن مضى، إلى إحسان الأغنياء وكرمهم؛ لم تعد تطلب الصدقة. ثم اجتازت المرحلة الثانية - مرحلة العدالة؛ فلم تعد تسعى إلى فهم مبدئها، لأن العدالة حق وواجب. وهي توجد الآن، في المرحلة الثالثة والأخيرة: إنها متأكدة الآن من الاستيلاء على السلطة، لأن التاريخ يريد ذلك.

وهكذا نجد أنفسنا في النقطة الحرجة التي تترنح فيها طبقة برغم ما يبدو عليها من مظاهر القوة؛ فتنزعزع أسسها، وتفقد توازنها النفسي، وتبدأ بالانحلال، والتفكك لأنها لم تعد متحلية بالإيمان والعقيدة.

وهناك طبقة أخرى في طور التشكل، تنظم صفوفها، وتمتلك عقيدة. غير أن نظامها ناقص، إذ أنها لم تحقق الوعي الكامل، ولم تدرك قوتها على الوجه الأكمل؛ وما زالت تحت عبودية العملاق المتحلل.

لقد فقدت القيم القديمة تلك الثقة التي كانت توطنها، وتضفي عليها معنى ووزناً. وصارت القيم الجديدة تتطور باستمرار من دون أن تتوصل حتى الآن إلى شكل ثابت.

هذه هي بالتحديد، المرحلة الانتقالية، المأسوية والفظيعة، التي نعيشها.

وثمة ثلاثة أحداث تجعل الخطر الذي تواجهه البورجوازية أشد خطورة:

١- للمرة الأولى في التاريخ نلاحظ هذا الأمر الاستثنائي: إذ أن القارات الخمس جميعها تشترك اليوم في حركة جماعية. ولأول مرة في التاريخ تكتسب الأرض وعياً موحداً. وتلتف كل الأجناس - البيضاء والسوداء والصفراء - حول هدف واحد. وليس لانهيار الحضارة الأغريقية - الرومانية سوى قيمة إقليمية مقارنة بالكارثة التي ترتسم اليوم أمام البورجوازية.

٢- وهناك حدث آخر يسرع في الخطر ويتمثل في اليقظة الرهيبة لشعوب آسيا وأفريقيا. ولقد أيقظ الأوروبيون الوعي القومي لدى تلك الشعوب، من أجل استخدامها في الحرب العالمية، ووعدها بالحرية بعد تحقيق النصر. كما سلّحها

وعلموها فنون القتال، بما في ذلك قتل الأوروبيين، ثم عادوا (الأوروبيون) إلى بلدانهم؛ من دون الوفاء بوعودهم؛ وتوجد كل المستعمرات الآن في حالة غليان، مطالبة باستقلالها.

٣- أما الحدث الثالث والأخير، المسرع في الخطر، فهو التالي: يقود هذه الحركة العالمية ذات الجبهة الثنائية قائد للبروليتاريا الأممية ينادي بالازدهار الاقتصادي. وهو يقود في الوقت نفسه شعوب الشرق المتطلعة إلى الانعتاق القومي. وهذا القائد هو دولة عملاقة، تعدّ السادسة في العالم، ولها جيش قوي جداً، ومواد أولية لا تنضب، وعلماء كبار، وقادة سياسيون لا يلين لهم جانب، ولها، على وجه الخصوص، ذلك الشيء الرهيب الذي لا يوجد في معسكر الخصوم: العقيدة الجديدة. إنها روسيا.

تحاول روسيا أن تتحول إلى قدوة لدولة البروليتاريا. وتحض جماهير الشغيلة على الاقتداء، وتبشرها بالخلاص. وتتوجه إلى شعوب الشرق بـ «بروباغندا» مبتكرة، من خلال نداءات في منتهى البساطة، والفهم، والتقبل، من لدن العقول الشرقية: «اطردوا الأوروبيين، تحرروا من رأس المال الأجنبي! صيروا سادة في أوطانكم!».

لم تعد روسيا طليعة أوروبا في آسيا، بل طليعة آسيا في أوروبا.

إن التجربة قاسية، دامية، وحرجة، على امتداد المساحات الشاسعة في روسيا. وتتوجه أنظار الجميع، من أعداء وأصدقاء، بدافع الحقد أو بدافع الحب، نحو روسيا. لأنها تشكل مركز الأرض حالياً، سواء شاء الآخرون أم أبوا.

هذا الأمل المشرق في مرحلة ما بعد الحرب، هذا الشعور الحاد بضرورة الخروج من البؤس الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، يشكل مع الانتظام الواضح والتميز لكلا المعسكرين:

حقيقة العالم الكبرى.

ب- أمام حقيقة هذا الواقع العالمي، يُوجد واقع آخر صغير، محلي، هو واقع اليونان. فما العلاقة بين الاثنين؟

يقول الكثيرون بأن هدف الصراع الطبقي في اليونان ليس واضحاً كما في بلدان أخرى، ذات صناعة متطورة. إذ أننا خرجنا من تسلط الإقطاع التركي وأسياد الإقطاع الريفي، ولم تطور البورجوازية كل إمكاناتها، كما أن عدد العمال والمزارعين ما زال ضئيلاً، وتفتقر غالبيتهم للوعي والتنظيم، فلا يمكن أن يوجد صراع طبقي في بلادنا. ونحن محافظون بطبعنا، ولن نترك الموجة تعبر حدودنا. ذلك ما يدعونه.

وأنا مقتنع بأن اليونان لن تشهد أية ثورة إلا بعد قرون عديدة، لو كانت معزولة تماماً عن بقية العالم. لكننا لا نستطيع تناسي هذه الوقائع الثلاثة الثابتة:

١- لا يمكن لأي بلد، اليوم، أن ينعزل بالكامل، ولا يمكن لأية قوة بشرية أن تحصر الأفكار داخل حدود جغرافية.

٢- إن البلدان الرأسمالية المتقدمة تُلحقنا بمصالحها الاقتصادية وتزيد في عبء الاستغلال شبه الاستعماري الذي نعاني منه. فنحن مرتبطون، سواء شئنا أم أبينا، بعجلة الرأسمالية في كل من أوروبا وأمريكا، وهناك أثر فوري وثقيل لكل مشاكلهم الاقتصادية، في بلادنا.

٣- وأخيراً، علينا ألا ننسى ما يلي: أن التطور الذي كان يتطلب أجيالاً وأحقاباً، قبل الحرب، صار يُدرك الآن في فترة زمنية محدودة، ويسعى إلى التحقق العملي الملموس. وهذا ما يؤكد وجود صراع طبقي في اليونان، يزداد خطورة، ونلاحظه جميعاً.

أعرف أن الحل الأمثل كان يتطلب مرور اليونان، كغيرها، بمختلف مراحل التطور، عبر سيرورة منتظمة، بطيئة، وذات خصوصية محلية. لكن الأشياء في هذه الدنيا لا تجري دائماً بمثل ذلك النظام والمنطق. لقد اختلفت أنواع كثيرة من النبات والحيوان، كما ظل تاريخ شعوب عديدة غير مكتمل، لأنها عجزت عن التكيف مع نسق التطور القاسي بالنسبة للمتأخرين. وكان التكيف مع نسق

التطور القاسي بالنسبة للمتأخرين. وكان من السخاء والمنطق تمكينهم من مهلة للنضج، لكن الفيزياء والتاريخ لا يعرفان الإمهال. القرار! الفرار!.

إنَّ هذه الفكرة حرجة بالنسبة للأرض كلها، ولا سيما اليونان. لأننا متأخرون بشكل خاص، يعود إلى أسباب تاريخية وعرقية. ولا شك أن الزمن الذي تبقى أمامنا، للتكيف من إيقاع العالم، هو زمن وجيز.

ستنفجر العاصفة، شئنا أم أبينا، ولن يهَمَّها أكنَّا مستعدِّين أم لا. لن تنتظر نضجنا. وهكذا يعصف الواقع الأكبر بواقع اليونان الأصغر.

ما هو واجبنا؟ الاستعداد. كيف؟ بوعي اللحظة التاريخية التي نعيشها، وتوعية الشعب، وإعطاء مضمون جديد، وأكثر نبلاً لأفكار العمل والعدالة والفضيلة.

هكذا فقط تتوصَّل الجماهير إلى الانتقال من وعي حقوقها إلى إنجاز واجباتها. وهكذا فقط تستطيع تحمّل مسؤولياتها عندما يحين موعد الاستحقاق المحتوم.

إنَّ الصراع، كما أراه، ليس صراعاً اقتصادياً فحسب. ذلك أن النمو الاقتصادي وسيلة لبلوغ النمو الفكري والروحي لدى الإنسان. ينبغي العمل على تلبية الحاجات المادية لأكثر عدد ممكن من الناس، من أجل بلوغ الهدف والسمو بمفهوم السعادة إلى مرتبة عليا.

ومن الطبيعي أن تقاتل البورجوازية من أجل خنق هذه المحاولة. فكل فكرة جديدة تُتهم دائماً بكونها لا أخلاقية وإجرامية، من قبل المدافعين عن السلطة القائمة ذلك أن الفكرة الجديدة ليست سوى بذرة واقع جديد يريد التحكم في الأرض بعد اجتثاث الأفكار القديمة التي بتعلُّق بها الكثيرون، لكنها أفكار عقيمة ومعيقة للحياة. تذكروا ما حدث خلال الأعوام الأولى من ظهور الديانة المسيحية. وكيف شتم المدافعون عن النظام القديم تلك الفكرة الجديدة، وافتروا عليها، وطاردها، محاولين خنقها.

وباستعراضٍ للدائرة الكونية وضعتُ القوس الصغير - اليونان - في موضعه،

ووضعت في داخله، النقطة الكونية للممارسة الفردية.

لقد شعرت أنه من واجبي الحصول على فكرة واضحة ومتجربة بخصوص أكبر مشكلة تضبط إيقاع عصرنا - المسألة الروسية.

ما قرأته كان ممتلئاً بالتناقضات والتفاهات والتحيز. إذ يقدم البعض روسيا وكأنها الفردوس في حين يعتبرها غيرهم بمثابة الجحيم. فسعيت إلى تكوين رأي شخصي. لأنه يتوجب على الإنسان في عصرنا الحرج أن يتخذ، بتبصر نهائي، موقفاً محدداً، إلى اليمين أو إلى اليسار - في إطار الصراع العالمي. ففي أزمنة أخرى، هادئة ومتوازنة، كان من حق الفرد أن ينعزل ويهتم بنجاح علاقاته الشخصية مع الآخرين، فقط. أما في أيامنا فإن مثل تلك العزلة الأنانية، والنجاح الاتفاقي، يُعدان جنباً مشؤوماً.

تلك هي الدوافع النفسية والفكرية التي جعلتني أزور روسيا. لقد زرتها وأقمت فيها بضعة أشهر. ثم عدتُ إلى زيارتها، واطلعت باهتمام وقلق، وعانيت تجربة استثنائية ملأتني اضطراباً وانفعالاً وأملًا. فلم أعثر في روسيا على الجنة التي وصفها الشيوعيون التبسيطيون، ولا على الجحيم الذي أعلن عنه البورجوازيون الشرسون المتخوفون. وجدت تلك الأرض التي يكافح فيها الإنسان، ويبحث، ويحاول، ويكدّ لإيجاد منفذ، لفتح طريق بين عالم قديم لم تعد روحه تتقبله وبين مثل أعلى جديد، يكافح سدى، من أجل التحقق.

وهذا الجهد الرهيب الذي لم يكتمل بعد ملأني بمشاعر الإحترام والقلق. لقد عدت من روسيا واثقاً بالإنسانية على وجه الخصوص. وهي ثقة فقدتها خلال معاشة البورجوازية.

عدت إلى اليونان فوجدت كلا الخصمين المتقارعين حول المسألة الروسية غاطساً في الجهالة. ورأيت أن من واجبي توعية من أستطيع، سواء أكانوا من الشيوعيين أم من البورجوازيين. كتبت سلسلة مقالات، أصدرت كتباً، وتحدثت بتجرّد دائم، وقاسٍ أحياناً. ولهذا لم أتوصل إلى إرضاء الشيوعيين ولا البورجوازيين. ولا يهمني ذلك، لأنّ هدي في ليس كسب الإعجاب بل قول الحقيقة.

لست مغتاباً ضيق الأفق ولا منافحاً سطحياً. لأنني لست رجل ممارسة، بل رجل هدفه التفكير ومحاولة صياغة أفكاره. لهذا توجد لدي القوة والحق من أجل رؤية الفكرة ضمن تكاملها وبريقها وظلالها. لو كنتُ رجل ممارسة لبالغت في كل ما يخدم ممارستي، وقلّلت من شأن كل ما بوسعه كبجها بطريقة واعية أو لا واعية، وأعلنتُ عن عقيدة منحوتة بفضاظة أو سهولة الفهم.

لست من السذاجة بحيث أصدق أن الفكرة تتحول إلى واقع، فوراً. أردت أن يتعمق أكبر عدد من الناس في فهم العصر الذي نعيشه، ويستعدّوا لنهضة حياتهم الفردية والاجتماعية. نهضة نفسية في البداية، ثم فكرية واجتماعية؛ وفي نهاية المطاف، ومع مرور الزمن: اقتصادية وسياسية.

هكذا ساعدت أنا أيضاً، بوسائلتي المتاحة، على فتح درب الخلاص الوحيد لليونان؛ الدرب الأسرع والأكثر عقلانية، أي تكيف الواقع اليوناني الصغير، تدريجياً، مع الواقع الأكبر.

هذه هي قناعتني التي أعلنتها. ومن حقكم وواجبكم أن تهاجموا الفكرة بمقدار ما تستطيعون. غير أن الخيار الذي يعترضكم خيار فظيع: إذ أن لجوءكم إلى الضرب بسهل ولادة أبطال وشهداء وبهذه الطريقة تساهمون في انتصار العقيدة الجديدة. أمّا إذا لم تلجأوا إلى الضرب فإنكم تتركون الفكرة تقوِّض الأسس القديمة بهدوء، وتقضي عليها.

مهما فعلتم، ومهما طال الزمن، لديّ قناعة، أيها السادة القضاة، بأن الأقلية سوف تكبر دائماً، وأن الضحايا سوف يشاهدون قوتهم تزداد دائماً، وأن الطبقة الضاربة سوف تسقط دائماً.

تلك هي أفكاري. ورأيت أنه من واجبي صياغتها بنزاهة مطلقة. أما واجبكم فيحتم عليكم، إذا وجدتموها جديرة بالقصاص، أن تفعلوا.

■ قالوا عنه

كان يعيش على المستوى نفسه مع عناصر العالم، بل داخل كل شيء، وكل كائن قادر على إدراك المقدس عندما يلتقيه، كان له، إزاء كل ما يحيا، ذلك الورع الذي كان يشكل أحد الملامح الجوهرية التي كثيراً ما يتم تناسيها. وقد كتب عنها شارل بيغي صفحات رائعة أقرب إلى ونية القدامى.. وكان توماس مان يوازي كازانتزاكي بشعراء الاغريق القدامى، أي أسلافه الكبار؛ وقال إن رنج هوميروس تبعث في كتب كازانتزاكي المفعمة بحيوية خارقة، والمسكونة بحس حلولي يظهر الطبيعة كلها، بما فيها أبسط نبتة على ربوة..

مارسيل بريون
من الأكاديمية الفرنسية
(لوموند)

مثلما تعيش البذرة، بخطى متسارعة، مراحل تشكل نوعها، تبدو روح كازانتزاكي القادم من وسط متواضع، وكأنها أمام واجب العيش، خلال أعوام معدودة، مجمل المغامرة الروحية للبشرية جمعاء.. ربما كان يتوجب القول إن كازانتزاكي، مع المسيح، أراد الخلاص في مواجهة العالم، ومع بوذا أراد الخلاص خارج العالم؛ وأراد مع لينين الخلاص من خلال العالم، وأخيراً مع «عوليس»، أراد أن يخلص، هو والعالم، في وقت واحد، وذلك بابتكار وثنية بقامة الإنسان. روبير كانتز
(الاكسبرس)

بقي البحث عن الأسباب التي جعلت هذا الرجل القادم من الشرق الأدنى يحتقر الغرب في شبابه، وكان ينتظر منه الكثير، ثم يتوجه نحو آسيا، ليعود منها، في خريف حياته، كي يكمل أعماله ويموت بالقرب من هؤلاء الفرنسيين الذين حققوا عليهم في السابق

سبب المنشق نيكوس كازانتزاكي

S.P600

سيرة 2



1 0 9 3 5 5

علي مولا



نيكوس كازانتزاكي

ولد نيكوس كازانتزاكي سنة ١٨٨٣ في كاندي، وأمضى طفولته في معمعان الحرب التي شنها الوطنيون الكريتيون (نسبة إلى جزيرة كريت) ضد الاحتلال التركي. بعد دراسة الحقوق في أثينا سافر إلى باريس وحضر دروس الفيلسوف هنري برغسون الذي أثر فيه تأثيراً حاسماً لا يقل عن تأثير نيتشه. وأعقبت ذلك مرحلة ترحل وسفر ثم اعتكاف في جبل أثوس، وإقامة في برلين خلال أعوام ما بعد الحرب - حيث ألف كتاب «الزهد» -، وعدة رحلات إلى روسيا، لإعجابه الشديد بشخصية لينين، ويمكن القول إن سيرة حياة كازانتزاكي كلها، وثيقة الصلة بأسفارة، فبعد عودته من اليابان والصين كتب «بستان الصخور»، ثم «الأديسة». أما رواياته الكبرى، باستثناء «زوربا اليوناني» فإنها تعود إلى السنوات الأخيرة التي عاشها في أنتيب، وهي أبرز المدن الفرنسية من حيث الطابع اليوناني، وكانت تدعى في السابق أنتيبوليس.

لم يتوقف كازانتزاكي، طوال حياته، عن النشاط الاجتماعي والثقافي: بدأ مناضلاً اشتراكياً منذ شبابه، وصار وزيراً في العام ١٩٤٥ وشغل منصب مدير في اليونسكو قبل انسحابه للتفرغ إلى أعماله ثم وفاته في ألمانيا سنة ١٩٥٧.

ايليني كازانتزاكي

زوجة نيكوس كازانتزاكي. التقاهما في العام ١٩٢٤ عندما كان يقيم في أثينا وقد بلغ من العمر إحدى وأربعين سنة. تمارس ايليني (ساميوس) كازانتزاكي الصحافة. وقد ألقت عدة كتب من بينها «حياة المهاتما غاندي» و«مأساة بانبيت استراتي الحقيقية» (صدر بالأسبانية في سانتياغو- التشيلي)، كما تكتب الشعر.